رواية

خوسيه دونوسو

طائرُ اللّيلِ البذيء

ترجمة: بسّام البزّاز

مكتبة 215

طائرُ اللّيلِ البذيء

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

رواية

Author: **José Donoso**	اسم المؤلف: خوسيه دونوسو
Title: **The Obscene Bird of Night**	عنوان الكتاب: طائرُ اللّيلِ البذيء
Translate: **Bassam Al-Bazzaz**	ترجمة: بسّام البزّاز
Cover Designed by: **Majed Al-Majedy**	تصميم الغلاف: ماجد الماجدي
P.C.: **Al-Mada**	الناشر: دار المدى
First Edition: 2017	الطبعة الأولى: 2017

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

Copyright © **JOSÉ DONOSO, 1970, and HEIRS OF JOSÉ DONOSO**

للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي ابو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول
dar@almada-group.com
+ 961 706 15017
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
al-madahouse@net.sy
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

خوسيه دونوسو

طائرُ اللَّيلِ البذيء

للمزيد والجديد من الكتب والروايات
زوروا صفحتنا على فيسبوك
مكتبة أحمد

ترجمة: بسّام البزّاز

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

مقدمة المترجم

من أرادَ أن يقرأ نصاً روائياً يمثّلُ ما عُرف بالواقعيّة السحريّة Realismo mágico خيرَ تمثيل فعليه بهذه الرواية.

ومن أرادَ أن يغامرَ ويُبحرَ في عوالمَ «فنتازيا» لا يخرجُ منها إلّا بما تخرج به الشبكة من شعاع الشمس أو قبضةُ اليد من الريح فعليه بهذه الرواية.

ومن أرادَ أن يملأ خيالهُ بصورٍ وأوصاف وأخيلة ومشاعرَ من دون أن يخرج بقصّة تُقصّ ولا بحكايةٍ تُحكى فعليه بهذه الرواية.

ومن أرادَ أن يتفرّج على عالمٍ من مخلوقات مرعبة مشوهة كاريكاتيريّة منحرفة السلوك غريبة التفكير تعيش في عوالم سفلية مغلقة غامضة فعليه بهذه الرواية.

ومن أراد أن يطوفَ في الموروث الشعبي لبلاد (نيرودا) و (إيزابيل أليّندي) ويسيحَ في عالم خرافاته ومعتقداته بساحراته وبعابيعه وسعاليه وطيوره الخرافية ومسوخه فعليه بهذه الرواية.

ومن أراد أن يختلط حابلُه بنابله وأن يخوض عبابَ نصّ لا يفرّق بين ما يقولُ هذا وتقولُ تلك إلا بشقّ الأنفس وإلا مستدلاً عليه أو عليها بفتحة هنا وكسرة هناك، من دون فاصلة تفصل ولا إشارة تشير ولا سابقة تمهّد للقادم ولا إنذار يحذّر من الآتي، فعليه بهذه الرواية.

ومن أراد أن يجد للشخصية الواحدة ألف مسمى ومسمّى، وألف عصر وعصر، وألف حدث وحدث. وأن تتداخل أفعال الشخصيات مع بعضها وببعضها حتى تكتشف بعد فصول كثيرة وعلى امتداد صفحات طويلة خيطاً رابطاً يربطها على هيئة كلمة أو صفة مكررة أو حادثاً قطع هناك واستؤنف هنا، فعليه بهذه الرواية.

ومن أراد أن يختبرَ يقظة بصره وقوّة بصيرته وتوقد ذهنه وصوابَ تفسيره وفهمه ومقياس تخمينه وحدسه فعليه بهذه الرواية.

أمّا مصدر كلّ الخلط وعلّة كلّ التداخل والغموض فهو بيتٌ للرياضات الروحية لعذراء التجسّد في مقاطعة «تشيمبا» التشيلية. هناك بدأت أسطورة الطفلة - الساحرة التي حُوّلت إلى حكاية الطفلة -الطوباويّة وهناك كانت البداية التي راحت تتوالد وتتكرر حتى عاد لدينا من كلّ واحد اثنين ومن كلّ حياة ثلاث حيوات وإن دام وجود البعض قرونا وقرون.

***

يصف النقادُ رواية خوسيه دونوسو (طائر الليل البذيء ١٩٧٠) بأنّها قمّة أعماله. ويطلبون من القارئ، وهو يقرأها، أن يتحرر من قوالبه التي اعتاد اللجوء إليها في فهم النص الأدبي وتفسيره، لأنّ الرواية هي من نتاج ما بعد الحداثة. يطلبون منه أن يتماهى مع الأجواء ومع الشخوص، وأن يطلق العنان لنهم القراءة عنده.

وصفوا الرواية بأنّها «معقدة»، «غامضة»، «صعبة»، تفتح أمام قارئها ألف باب وباب للتفسير. فاستهان بعضهم بقدرها ومقدارها، كما فعل الشاعر والروائي التشيلي (روبرتو بولانيو)، وفُتن بعضهم الآخر بما فيها من خلط ومنظورات كما فعل المخرج السينمائي الإسباني (لويس بونويل). أمّا الناقد الأمريكي (هارولد بوم) فقد عدّها

قمّة ما كتبه خوسيه دونوسو من أعمال روائية وصنّفها ضمن قائمة الأعمال الأهم التي أنتجها الأدب الغربي في القرن العشرين.

***

أمّا خوسيه دونوسو، المؤلف، فيرسم حدود عمله الأدبي في ثلاث عبارات:

- هي رواية متاهة شيزوفرنية يختلط فيها الواقع والحلم واليقظة، ويتداخل فيها ما هو فنتازيا بما هو حلم.

- هو لا يحاول أن يدعو قرّاءه إلى تصديق شخوصه أو الاعتقاد بهم، بل إلى تقبّلهم بصفتهم الرمزيّة.

- إنّه كتبَ هذه الرواية وهو يحاول أن يتلمس الطريق إلى معرفة نفسه.

***

أنا، أقرّ وأعترفُ، «تهتُ» أكثر من مرّة وأنا أترجمُ الرواية. لذلك عدتُ إلى قراءتها المرة تلو المرّة. ولذلكَ «حرّكتُ» كلّ ساكن، وحاولتُ ربط كلّ منفلت متلمساً الطريق وناسباً كلّ قول لقائله، وكلّ فعل لمن أتاه وفعله. فالكاتب يتعمدُ الخلط، ويقصد الغموض، ويبحث عن الزجّ بك في متاهته التي صنعها، ليحوّلك إلى «محقق» من طراز شارلوك هولمز، تحاول جمع الطرف على الطرف للوصول إلى نتيجة وللخروج بنهاية.

تابعتُ الكاتبَ في ما أراد وبذلتُ جهدي لأصلّ بالقارئ إلى ما وصلتُ إليه أنا من «فهم» ومن أجواء أراد المؤلّف، أو أحسبُ أنه أراد، أن نعيشها، لا أن نفهمها أو نفسرها لأنّه لم يسعَ إلى الإفهام أصلاً ولم يتحرّ التوضيح أساساً، بل كان هدفه سرداً يحلّق بخيال القارئ عالياً ويشحذه ويملأه بالصور والأخيلة.

مع كلّ ما تقدّم، فالرواية تفتح نوافذ جديدة يدخل منها هواء غير مألوف، ينعكس أثره على الخيال واللغة وأسلوب الكتابة والفهم.

وهي تمرين شاق، لكنّه نافع، لمن حاول خوض عباب الأدب الإسباني في أمريكا اللاتينية قراءة وترجمة بعد أن اعتاد مياه محيطه الهادئة في الركن الجنوبي الغربي من القارة العجوز.

بسّام البزّاز

١

بكت السيدة راكيل رويث كثيراً حين اتصلتْ بها الأم بنيتا لتخبرَها بأن بريجيت أصبحتْ في فراشها ميتة. هدأتْ بعد قليل لتسأل عن التفاصيل:

– أماليا، تلك العوراء التي كانت تخدمُها في بعض الأمور، لا أدري إن كنتِ حضرتُك تذكرينها...

– كيف لا أذكرُ أماليا...

– نعم، كما قلتُ لكِ. أعدّت لها أماليا كوب الشاي الثقيل، فقد كانت تحبّ شرب الشاي ليلاً. تقول أماليا إنّ بريجيت نامتْ في الحال، هادئة كعادتها. ويبدو أنّها كانت قبل أن تخلد إلى الفراش ترفو قميص نوم جميلاً من الستان بلون الكريم...

– أجل، أحسنتِ صنعاً أن ذكرت لي ذلك، أمّاه، يا إلهي! فالحزن أنسانيه... ليضعوه في علبة ولتأت به ريتا وتتركه عند غرفة البوّابة. إنّه قميصُ نوم عرس حفيدتي مالو، التي تزوجتْ قبل وقت قليل، كما أخبرتكِ. وقد تمزّق في شهر عسلها بإبزيم الحقيبة. كنتُ أحبّ أن أحملَ للمسكينة بريجيت تكليفات بسيطة من هذا القبيل لكي تتسلى وتشعرَ بأنها جزءٌ من العائلة. لم يكن أحدٌ يدانيها في هذه الأعمال الدقيقة. ما كانَ أخفّ يديها...!

تكفّلت السيدة راكيل بالجنازة: فمن سهرٍ على الجثمان المسجّى

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

في مصلّى بيت الرياضات الروحية لعذراء التجسد في تشيمبا، حيث أمضت الفقيدة سنواتها الأخيرة، إلى قداس شعائري للنزيلات الأربعين والراهبات الثلاث واليتيمات الصغيرات الخمس، إلى استقبال أولادها وكناتها وحفيداتها. وتولّى الأب آثوكار إقامة القدّاس، وهو الأخير الذي أقيم في المصلّى قبل أن يعدّ رئيس الأساقفة البيتَ ملعوناً ويهدّه. ثمّ وُوريت الثرى في مدفن آل رويث، كما طلبتْ هي دائماً. كان المدفن لسوء الحظ مكتظاً، لكنّ السيدة راكيل رتّبت الأمر ببضع مكالمات هاتفية ليُفسح لبريجيت مكانٌ فيه بأيّ شكل من الأشكال. كانت ثقة بريجيت في أن السيدة راكيل ستفي بوعدها وترتّب أمرَ راحتها، وهي ترزحُ تحت بلاطة الرخام تلك، قد جعلت سنوات العجوز المسكينة الأخيرة تمضي هادئة وادعة: كان موتها «مثل شعلة صغيرة انطفأت»، بحسب تعبير الأم بنيتا القديم والمؤثر. سيكون لازماً بعد مرور بعض الوقت رفعُ بعض الرفات وإيداع مجموعة العظام تلك في علبة صغيرة لا تشغل إلا حيزاً صغيراً - فكم من طفلٍ رضيع دفن فيه من زمن لم يكن فيه الدواء متوفراً حتى لضيق التنفس، وكم من آنسة ماتت بعيداً عن وطنها وأعمامٍ عزّاب راحت هويتهم تنطمس شيئاً فشيئاً.

جرى كلّ شيء وفق ما رتّبت السيدة راكيل. وانشغلت النزيلات طوالَ المساء بمساعدتي في تزيين المصلّى بالستائر السود. وغسلتْ عجائزُ أخريات مقرّبات من المرحومة جثمانها، سرّحن لها شعرها، وضعنَ طقمَ أسنانها في فمها، اخترن لها من ملابسها الداخلية أجملَها، وقرّرنَ، وهنّ يتداولن بشأن هندامها الأخير، بين تأوّه وتباكٍ، أن يُلبسنها ثوب الصوف الرمادي الغامق والشال الوردي الذي كانت ترتديه أيام الأحد وتحتفظ به ملفوفاً بورق الحرير. أحطنا النعشَ بالأكاليل التي أرسلها آل رويث. أشعلنا الشموع. نعم، فمع سيدة من وزن السيدة راكيل لا عيبَ في أن تكون الواحدة خادمة! ما أطيبها من سيّدة! ولكن

كم واحدة منّا ستحظى بما حظيتْ به بريجيت؟ ولا واحدة. ولماذا نذهب بعيداً؟ انظرنَ إلى ما جرى للمسكينة مرثيديس بارّوسو في الأسبوع الماضي: وصلتْ شاحنة صغيرة من جمعية البرّ والإحسان الحكومية لتحمل المسكينة (منتشه). لم تكن الشاحنة حتّى سوداء من باب الوقار. واضطررنا نحن، نعم نحن بأنفسنا، أن نقطف بعض زهور الجرانيوم الحمر من باحة البوّابة لتزيين التابوت، ولم يحضر أصحابُ البيت الذين كانوا يَعدون المسكينة بالتلفون ويمنونها بكلّ ما تشتهي، انتظري يا امرأة! اصبري، انتظري، في الصيف أفضل، لا، حين نعود من رحلة الاصطياف، فأنتِ لا تحبين البحر، تذكّري أنّك أصبتِ بدوار بسبب هواء البحر، حين نعود، سترين، سيعجبكِ الشاليه الجديدَ وستعجبكِ حديقته، فيه حجرة فوق الكراج تناسبك... وكما ترون، لم يكلّفوا أنفسَهم عناءَ الحضور إلى بيتها حين ماتتْ. يا للمسكينة! يا لسوء حظها! كم كانت ظريفة وهي تحكي النكات البذيئة التي كانت تحفظ منها الكثير. من يدري من أين كانت تأتي بها. أمّا جنازة بريجيت فقد كانت شيئاً آخر: أكاليل حقيقية، أزهارها بيض كما يجب أن تكون عليه أزهار الجنازات، بل وعليها بطاقات المرسلين. تحسستْ ريتا أسفلَ التابوت بيدها حين جاؤوا به لتتأكّد من أنّ ذلك الجزء قد طلي جيداً كما كانت تطلى توابيت الدرجة الممتازة قديماً. رأيتُها تزمّ شفتيها وتعطي موافقتها بحركة من رأسها. إنّه جيدُ الصنع، تابوت بريجيت! لقد أوفت السيدة راكيل في ذلك أيضاً. لم تخيّبْ ظنّنا في شيء. ولا في العربة التي تجرها أربعة جياد سود مسرجة بالأغطية ومزينة بالريش، ولا في سيارات آل رويث البرّاقة المصفوفة على طول الطريق بانتظار انطلاق الجنازة.

لكنّ الجنازة لم تنطلق. فقد تذكّرت السيدة راكيل في اللحظة الأخيرة أنّ في غرفتها دراجةً هوائية معطوبة يمكن إصلاحُها وتقديمُها

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد ٢١٥

هدية لفلاح حديقتها بمناسبة يوم القديسين بطرس وبولص، هيّا، موديتو[1]، اذهبْ في عربتكَ واجلب الدراجة لكي يضعها سائقي في الجانب الخلفي من الشاحنة الصغيرة ونستغل هكذا الرحلة.

– ألا تنوين زيارتنا سيدة راكيل؟

– سأزوركم حين تعود إينيس من روما.

– وهل تلقّيتِ أخباراً عن السيدة إينيس؟

– كلا. فهي تضيق بكتابة الرسائل. ولا شكّ أنّها تشعر الآن بخيبة أمل كبيرة، بعد أن فشل مسعى التطويب المعروف وبعد أن وقّع خيرونيمو على نقل ملكيّة البيت من آل آثكويتيّا إلى رئيس الأساقفة، بل لن ترسل حتى بطاقات بريدية. وهي إذا بقيت في روما لوقتٍ أطول فلن ترى هذا البيت قائماً إلا بمعجزة.

– لقد أطلعني الأب آثوكار على خرائط مدينة الطفل. إنّها مدهشة! لو أنّكِ رأيتِ النوافذ! الخرائط خففتْ قليلاً من حزني... في أن يكون ذلك القدّاسَ هو الأخيرَ الذي يقام في المصلّى.

– إنّها قصص الأب آثوكار، أيتها الأم بنيتا! لا تكوني ساذجة! إنّه راهب مُسيّس، ومن الأراذل. هذا العقار، الذي نقل خيرونيمو دي آثكويتيّا ملكيته إلى رئيس الأساقفة، ثمين... ثمين جدّاً... جدّاً. مدينة الطفل! أراهنُ أنّهم سيقسّمونه بعد هدمه وسيبيعونه وسيذوب المال كما الملح في الماء. يا إلهي لقد تأخر الموديتو، أمّاه، بينما بريجيت تنتظر منّا أن ندفنها! ما الذي أخّر الموديتو؟ طبعاً، فالبيتُ كبير، أنا نفسي أتأخرُ في قطع الممرات والمسالك للوصول إلى حجرتي حيث أحتفظ بأشيائي البالية، ثمّ إنّ الموديتو هزيل وسقيم. لكنّي متعبة، أريدُ أن أذهب لدفن بريجيت، أريد الانصراف، فهذا كله مؤثر جدّاً

١– (موديتو) تصغير (مودو Mudo) وتعني «أخرس».

بالنسبة إليّ، إنّها حياة كاملة ما ندفن، بريجيت المسكينة لا تكبرني إلا بسنتين، يا إلهي، وقد أوفيتُ بوعدي وتخلّيتُ لها عن لحدي في المدفن لكي تتفسّخ هي مكاني وتدفئ اللحدَ ببقاياها لكي لا تنتفخَ بقاياي حين يزيحون بقاياها، ولا تشعرَ بالخوف، كان تنازلي لها عن لحدي الطريقة الوحيدة للإيفاء بوعدي، فحتى الأقارب الذين ما عادت الواحدةُ تُسلّمُ عليهم من سنوات صاروا يطالبون بحقوق ما أنزل الله بها من سلطان في دفنهم معنا، لكني الآن لا أخشى أن يسلبني أحدٌ مكاني، فهي موجودة فيه، تحجزه لي، وتدفئه بجسدها كفعلها حين كانت تفتحِ لي السرير وتضع فيه كيس الماء الساخن لكي أنام باكراً بعد أن أصل متعبة من مشاويري في الشتاء. وحين أموتُ سيلزم عليها أن تخرج من لحدي. وماذا في مقدوري أن أفعلَ غير ذلك! نعم، نعم، بريجيت، سألجأ إلى المحامين ليجرّدوا أولئك الأقارب من حقوقهم، لكني أشكّ في أننا سنكسب الدعاوى... سيلزم عليكِ أن تخرجي. لن يكون الذنبُ ذنبي. ولن تكون المسؤولية حينها مسؤوليتي، بريجيت، وماذا تعرف الواحدة منّا عمّا سيفعلونه بها بعد مماتها. لا يمكنكِ أن تقولي إنني لم أحسنْ صنعاً معكِ، لقد لبيتُ كلّ طلباتكِ، لكنّي خائفة لأني لا أعلم ماذا سيفعلون بعظامك التي لن تعني حينها شيئاً لأحد...، ما أدراني بعد كم سنة سأموت، من حسن حظي أنّ صحتي جيدة، لاحظي، أيتها الأم بنيتا، أنني لم أمض في هذا الشتاء يوماً واحداً في السرير، لم أصبْ بزكام، لم أصبْ بأيِّ شيء، بينما أصيب نصفُ أحفادي بالأنفلونزا وبناتي لا يفتأن يتصلن بي ويتوسلن إليّ كي أذهب لمساعدتهن فالجميع في البيت مرضى، حتى الخادمات...

- كم أنت محظوظة! هذا ما جرى هنا، جميع النزيلات تقريباً مرضن. طبعاً. فالبيت باردٌ والفحمُ غالٍ...

- تأملي. إنّها المأساة التي ما بعدها مأساة! ما أكثرَ الكلام عن

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد ٢١٥

مدينة الطفل وما أشدّ البؤس الذي تعاني النزيلات منه. سأرسلُ لهن مساعدة بسيطة حين أزور العزبة. لا أدري كم بقي من محصول هذه السنة، لكني سأرسل شيئاً لكي يتذكرنَ بريجيت المسكينة. هل اتسع المكان للدراجة خنارو؟

جلس سائقُ السيارة جنب السيدة راكيل. يمكنهم الانطلاق الآن: صعد الحوذي إلى عربة الجنازة، ارتدت الكنّة قفازيها المزخرفين لتتولى قيادة السيارة، أكدفت الخيل السودُ مضطربة، ودمعتْ عيون العجائز اللائي خرجن إلى الرصيف لوداع الموكب متدثرات يرتعشن ويسعلن. وقبل أن تعطي السيدة راكيل الأمر بالانطلاق اقتربتُ من نافذتها وسلّمتُها العلبة.

- ما هذا؟

انتظرتُ.

- قميصُ نوم مالو! يا إلهي! لو لم يتذكّرْ هذا الرجلُ الضئيل المسكين لنسيتُ واضطررتُ إلى العودة إلى هنا مرّة أخرى. شكراً، موديتو، لا، لا، انتظرْ، لينتظرْ الموديتو، أمّاه: خذْ، هذا لسجائرك... لعادتك الذميمة، خذْ. اقرعْ الزمّور، خينارو، ولينطلق الموكب. وداعاً إذن أيتها الأم بنيتا...

- وداعاً سيدة راكيل.

- وداعاً بريجيت...

- وداعاً...

حين دخلتْ آخرُ السيارات الناصية واختفتْ عن الأنظار، دخلنا أنا والأم بنيتا والعجائز، اللاتي تفرقنَ مهمهماتٍ نحو باحاتهنّ. أغلقتُ البوابة بالمتراس والمفتاح، وأغلقتْ ريتا حاجز الزجاج المهتزّ. تناولتْ عجوزٌ وصلتْ متأخرة زهرةً بيضاء من بلاطات غرفة البوابة

ووضعتْها على شعرها وهي تتثاءب متعبة من التأثر قبل أن تختفي في الممرات باحثة عن صديقاتها وعن شالها وسريرها وطبق حسائها الماسخ من كثرة ما فيه من ماء.

***

توقفنَ في منعطف ممر، أمام الباب الذي سددتُهُ بلوحين متقاطعين على شكل صليب. كنتُ قد أرخيتُ المساميرَ ليسهلَ رفعُ الألواح ويتمكنّ هنّ من الصعود إلى الدور الآخر. نزعت اليتيماتُ المسامير واللوحتين وساعدن إيريس على الصعود. هيّا، أيتها الكرشاء، أنا أخافُ، لأنّ الدرج من دون درابزين، وتنقصُه بعضُ درجاته، وهو يَصرّ تحت ثقل هذه البدينة. صعدنَ ببطء، وهنّ يتحسسنَ موطئ كلّ قدم لكي لا ينهار كلّ شيء، يبحثنَ عن المنطقة القوية الثابتة ليرفعن إيريس حتى الدور العلوي. لقد أمرتْني الأم بنيتا قبل عشرِ سنوات بسدّ تلك الأبواب لكي ننسى تلك المنطقة من البيت نهائياً، ولا نفكر في تنظيفها وتنظيمها، فما عادت فينا قوة، موديتو، فالأفضل أن تتردّى حالُها ولا تعود تقلقنا. لكنّ الفتيات الخمس، اللاتي ضجرنَ من الطواف في البيت من دون عمل، اكتشفن أنّ ذلك البابَ يمكنُ فتحُه للصعود إلى الأروقة المغلقة التي تحيطُ بالباحات من ناحية الدور العلوي، لنصعدْ، أيّتها الفتيات، لا تخفن، ولِمَ الخوفُ والوقتُ نهار، لنرَ ماذا هناك، وما عسانا أن نرى، لا شيء غير قذارة كالتي تغطّي أرجاء البيت، لكنّه على الأقل يتميّز بأنّ التجوّل فيه ممنوع لأنّهم يقولون إنّه قد ينهار. تنصحهن إليانا بالسكوت لئلا يراهنّ أحدٌ من الأسفل، وإن كان الخطرُ اليوم قليلاً، فجميعُهن ملتئماتٌ في غرفة البوّابة لوداع بريجيت. مع ذلك فالأفضل ألا يراهنّ أحد، فمزاج الأم بنيتا ليس رائقاً، افعلنَ شيئاً نافعاً، أيتها الفتيات المزعجات، ارفعنَ هذا، ساعدنَ في التنظيف فهم قادمون لإجراء المزاد، اطوينَ المناشف، عدّوها، اكنسنَ، ابدأنَ

الغسل، اغسلنَ ملابسكن على الأقل، فأنتن قذرات مقززات، لا تُهدرْنَ الوقت في اللعب... هششش، يا بنات، هششش، حذارِ، فقد يعاقبْننا من بعد.

يلتففن حول باحة ثم حول باحة أخرى حتى يصلن إلى الباب الذي تدفعه إليانا: حجرة فيها عشرون سريراً نقّالاً من الحديد الصدئ، بعضها مفككة، وأخرى عرجاء، ناقصة الدواليب، مرممة في نوابض حشاياها، مرتبة في صفّين على الجدران مثل أسرّة مدرسة داخليّة. نافذتان متشابهتان: عاليتان، ضيقتان، بسطة نافذة واسعة، زجاج مصبوغ بلون الشوكولا بارتفاع قامة شخص كي لا يستطيع أحد معاينة أيّ شيء في الخارج غير تلك السحابات الكبيرة السود المحجوبة بالحواجز المعدنية المشبّكة والقضبان. أرخيتُ أيضاً المسامير التي أغلقتُ أنا بها تينك النافذتين. صارت اليتيمات يعرفن كيف يفتحنها وقد فتحنها في الوقت المناسب ليودعنَ عربة بريجيت التي تقودها أربعة خيول مزينة بقنزعة من الريش، تتبعها تسعُ سيارات وفق حساب إليانا، وثمانٍ وفق حساب ميريّا، لا، تسع، لا، ثمان، لا، تسع وحين اختفى الموكبُ عاد صبيانُ الحيّ يغزونَ الشارع بركضهم خلف الكرة. ضربة جيدة، ريكاردو! شوّطها، ميتو! بسرعة، بقوة، لوجو، مررها الآن، شوّطها، غوووووول، صرخة عالية من ميريّا التي تحتفل بالغوووووول الذي سجله أصدقاؤها وتصفّق وتلوّح لهم بيدها.

بقيتْ إيريس في الخلف، نعسانة في قاع غرفة النوم، تجلس على فراش. تتثاءب. وتقلّب صفحات مجلتها. تومئ اليتيمات إلى المارّة بحركات من وجوههن، يتكلمن بصوت عال مع أصدقائهنّ، يجلسن على بسطة النافذة، يضحكن على سيدة مارّة، يتثاءبن. حين يخفت الضوء، تنادي إيريس على إليانا.

- ماذا تريدين؟
- وعدتني أن تقرئي لي قصّة الكلب (بلوتو) مع البحار (بوباي).
- لا. أنت مدينة لي بأجر قراءتين.
- هذه الليلة سألتقي العملاق لنعمل النناناي[٢]. سأدفعُ لك غداً.
- سأقرأ لكِ غداً إذن.

عادت إليانا إلى الطرق على قضبان النافذة. أضيئتْ مصابيحُ الشارع. في البيت المقابل تفتح امرأة الشرفة. وبينما تسرّح شعرها الكستنائي الطويل وتنظر إلى الشارع، تفتح الراديو، راتاتاتا- راتاتاتا، تغزو غرفة النوم أصواتُ غيتار إلكتروني متغيرة الإيقاع وأصوات خنّاء جعلتْ إيريس تنهض من الفراش وتقف في الممر بين صفي الأسرّة النقّالة وهي تسمع بابالووو، بابالووو آيبيبه، هيّا، ارقصي لنا، خينا، تشجعها اليتيمات، ارقصي وحسب، وبحركة ماجنة تدوّر أمواجَ شعرها الطويلة وتتقدم مختالة بين الأسرة، نشوة في العينين المغمضتين، تماماً كما تفعل الفنانات اللاتي يظهرن في الروايات، لقد زال عنّي الخمول، ما عدتُ أتثاءبُ، أريدُ أن أخرج لأرقص مثل خينا، تلك الفنانة التي كانت تعيش في دير راهبات فاسدات في رواية (كورين تيّادو) التي قرأتها لي إليانا. توقفتْ إيريس. فتشتْ في جيوبها. أخرجتْ قلمَ روج بنفسجياً وصبغت شفتيها، فصار لحمها الطفولي الطري عجينة نيّة حين صبغتْ فمها بذلك القلم الغامق المريع. هيا، خينا، هزّي، ارقصي لنا، وتقدمي بين صفي الأسرّة، تحركي واهتزي، هكذا، هكذا، أكثر، أكثر. أوقدت إليانا في بسطة النافذة شمعتين سرقتهما من زينة نعش بريجيت: هي هناك للتشجيع وحسب، فهي قاصر، ولا تمتلك صدراً ناهداً تبديه ولا فخذين تعرضهما، وصبيان الشارع لا ينادون عليها

٢- النناناي هنا هي المداعبات الجسدية أو الجنسية.

بل على إيريس. صرفت إليانا اليتيمات الأخريات إلى النافذة البعيدة وراحت تساعدُ إيريس على الصعود على بسطة النافذة.

- انظري، خينا، لقد وصل العملاق.

- ناديه، قولي له إنني سأخرج حين تنام العجائز.

- الفتيان يريدون أن ترقصي لهم.

بقيت وحدها في النافذة المضاءة. ثنتْ وركَها. برّزتْ صدرَها فتخصّر ثوبُها الصوفي في لمسة طويلة طافت أنحاءَ جسمها لتنتهي برفع التنورة بقصد عرض فخذيها المكتنزتين المترجرجتين، بينما رفعت شعرها بيدها الأخرى وهي تزمّ شفتيها وكأنّها تطبع قبلة حارة مجنونة. في الشارع، راحت المجموعة المحتشدة تحت المصباح تصفق لها. رفعت المرأة التي تسرّح شعرها في النافذة المقابلة صوتَ الموسيقى، وأسندت كوعيها على الدرابزين وراحتْ تتطلّع. بدأتْ إيريس تتحرّك ببطء، داعكة فخذاً بفخذ في البداية، ثمّ هازّة بدنها كلّه على وقع البابالووو السريع. تستدير، شعرها منفوش، ذراعاها مبسوطتان، يداها مفتوحتان وكأنّهما تبحثان عن شيء أو عن أحد، تستدير مرّة أخرى، وأخرى، بين انحناء وتمطّ، تردّ رأسها إلى الوراء، ثمّ تلقي به وبشعرها معه إلى الأمام، ثمّ تدور دورة دخلتْ معها في إيقاع (الروك) وإيقاع (الفروك)، وما أدراني ما هو (الفروك)، ما يهمّ هو الرقص لفّاً ودوراناً لإظهار الفخذين والسروال القذر والنهدين المترجرجين، اللسان الساخن الذي يبحث أيضاً، ما يهمّ هو الرقص في بسطة النافذة لكي يصفّقوا لها ولكي يحتفل ناسُ الشارع وهم يصرخون لها هزّي خينا، هزّي وحسب أيتها الحلوة، حركي نهديكِ أكثر، لتبين مؤخرتكِ، ليشتعل البيت، لنشتعلْ جميعاً. والعملاق، برأس عجينة الورق العظيم، يخرج إلى وسط الشارع ليرقص وكأنه يراقص

إيريس، هي تتمايل، تحرّك خصرها وتلفّ وتهتزّ وتصرخُ هناك فوق محبوسة في قفصها الذي تضيئه الشموع، معلّقة في طرف من البيت، ترقص مثل عذراء أصابها مسّ وهي في محرابها. وقف العملاقُ في الرصيف المقابل ليناديها: خينا، خينا، انزلي لنعمل النانايي، نادها أنتَ، أيّها الفتى، إنّها لا تسمعني لأني محبوس في رأس عجينة الورق المنتن هذا.

– انزلي، خينا!

– إليانا! اسألي العملاق ماذا يحمل هدية لي اليوم، وإلا فلن أنزل.

– يقول إنّه ليس معه نقود، لكنّه جاء بخمس مجلات من (كورين تيّادو) وأحمر شفاه مستعمل لكنّه جيد، مع محفظة من الذهب.

– يقصد محفظة مذهّبة، لأنّ محفظة الذهب غالية جدّاً.

– لا تقبلي منه بالتفاهات، إيريس، لا تكوني غبيّة. عليكِ أن تطلبي منه نقوداً لتدفعي لي أجرة القصص التي قرأتُها لك.

– إن لم تقرئي لي أنتِ فستقرأ لي ميريّا، لذلك لا يهمني.

– لكنّكِ تحبين طريقتي في القراءة، فأنا أقصُّ عليكِ القصّة وأشرحُها لكِ، لأنّكِ إن لم أشرحْها لك لا تفهمين شيئاً منها. أنتِ في هذا الموضوع منقادة لي، إيريس ماتيلونا، لأنّي إن لم أقرأ لكِ روايات (كورين تيّادو) والبط (دونالد) فستموتين ضجراً في هذا البيت العفن...

تشبّثتْ بالقضبان لتنظر إليه: إنّه هو، عيناه مدورتان بحجم صحنين، ضحكته التي لا تتغيّر لأنّه لا يغضب أبداً، إنّه طيب، أنا وإيّاه نعمل نانايي لذيذاً ويناديني خينا، حاجباه المقوّستان تتضافران مع طيات جبهته للإمساك بقبعته المضحكة... إنّه هو، يريد أن يتزوجني لأنّه يحبّ طريقتي في النانايي، سيأخذني لمشاهدة أفلام تتحرك فيها الفنانات

وحدهن ويتحدثن من دون حاجة إلى سماع إليانا المزعجة وهي تقرأ لي. سيأخذني إلى واحدة من بنايات المركز العالية تلك لأشارك في مسابقة للرقص وأحصل على الجائزة. يقولون إنّهم يقدمون مكياجاً لأفضل راقصة ثمّ ينشرون صورتها في كلّ الروايات وستراني إليانا البلهاء والسيدة ريتا والموديتو والأم بنيتا والفتيات وكلّ العجائز، سيرون صورتي في الروايات عندما أظهر.

– وماذا ستدفعين لي إن لم يدفع لك العملاق اليوم؟

هزّتْ إيريس كتفيها.

– عليكِ أن تدفعي لي قبل أن تتزوجي، وإلا فسأسلمكِ إلى الدرك الذين أخذوا أباك، ليأخذوا حقي منك، وإن لم تدفعي فسيحبسونك أنت أيضاً. سأقبلُ بمجلتين وبأحمر الشفاه.

– وهل تظننين أنني بلهاء؟ سأعطيكِ مجلة واحدة ولكِ أن تستعملي أحمر الشفاه مرتين لا غير...

– اتفقنا. لكن عليك أن تهديني سبيكة أحمر الشفاه بعد انتهاء الطلاء.

– اتفقنا.

***

ظلت الأم بنيتا عند غرفة البوابة، ساكنة للحظة، يداها إلى بعضهما وعيناها مغلقتان، انتظرنا أنا وريتا أن تتحرك، أن تفتح عينيها، فتحتهما وتحركتْ وأشارتْ إليّ بأن أتبعها، أعلمُ أنّ عليّ أن أتبعَها، محنيّ الظهر نحيلَ الجسم أجرّ عربتي، وكأنني ولدها الأبله يجرّ لعبة. أعرف لماذا تريدني أن أتبعها. فقد فعلنا ذلك مرات كثيرة: تنظيفُ ما خلّفته الميتة. توزيعُ أشيائها بين صديقاتها، قالت السيدة راكيل، بل بين زميلاتها، قالت، وكأننا في مدرسة للبنات، لا أريدُ أن أرى حجرة بريجيت، أمّاه

من أجل الرب، لا أريد، لا أريد معاينة شيء ولا رؤية شيء، لا، لا يمكن أن يوجد شيء ذو قيمة، لذلك لا أريدُ أن أرى شيئاً قلتُ لكِ، افعلي ما بدا لك بالحاجات، أيتها الأم بنيتا، اهديها، هؤلاء العجائز الفقيرات سيفرحن بأيّة حاجة تذكّرهنّ ببريجيت، فقد كانت موضعَ حبّ الجميع هنا في البيت.

أتبعُها في الممرات أجرّ العربة على أربعة دواليب أضعُ عليها المكانس والجرادل والخرق ومنافض الريش. في باحة المطبخ جمعٌ من العجائز يُحطن بالأم آنسيلما يقشرن البطاطس في قدر كبيرة... جميلة كانت الجنازة، جنازة بريجيت... معطف السيدة راكيل طراز الأميرة، يقولون إنّه عاد ليصبح موضة... الحوذي ذو الشارب، لا أدري إن كان جائزاً أن يسمحوا للحوذيين في عربات الدرجة الممتازة بأن يطلقوا شواربهم، يبدو ضرباً من قلة الاحترام... موضوعٌ يصلح للحديث عنه لأشهر، جمع آخر من العجائز جلسن بعيداً في مكان آخر، نسين الجنازة، نسين بريجيت، ورحن يلعبن الورق فوق علبة كبيرة من السكّر. انتبهي إلى بسطة الدرج هذه، أمّاه، إنّها بسطة درج وليست ظلّاً، وبلغنا باحة أخرى ليست هي الباحة التي كانت بريجيت تسكن فيها، لذلك علينا متابعة السير في ممرات أخرى، حجرة فارغة، وحجرة أخرى فارغة، صفوف من الغرف الفارغة، أبواب أخرى مفتوحة أو مغلقة فسيّان أن تكون مفتوحة أم مغلقة، نجتاز غرفاً أخرى، الزجاج المتشظي والمغبر، الظلمة الملتصقة بالجدران المجدبة حيث تنقر دجاجة طوبها القديم بحثاً عن الحَب. باحة أخرى. باحة الغسل حيث ما عاد يُغتسل، باحة الراهبات حيث ما عادت تسكن أيّة راهبة بعد أن لم يبق منهنّ غيرُ ثلاث، باحة النخلة، باحة الزيزفونة، هذه الباحة من دون اسم، باحة إرنستينا غوميث، باحة الطعام التي ما عاد أحد يستعملها لأنّ العجائز يفضلن تناول الطعام في المطبخ، باحات وأروقة

لا عدّ لها موصولة بممرات لا نهاية لها، غرف لن نحاولَ تنظيفها وإن كنتِ حضرتكِ حتّى وقت قريب تقولين نعم، موديتو، ذات يوم، حين يسمح لنا الوقت، سننظفُ ذلك كلّه، بالمكانس ومنافض الريش والخرق والجرادل والصابون، فقد صار المكان مُقرفاً. انتبهي، أمّاه، أنا سأساعدكِ، لنلتفّ من خلف هذه الأنقاض، أو لنسلكْ هذا الممر الذي يؤدي إلى باحة أخرى، من مستوى مختلف، مخصصة لأداء وظائف منسية، إنّها باحةٌ مفتوحة على غرف تخفف خيوط العناكب فيها قوة الصدى وعلى دهاليز علقتْ بها أصداءُ عابرين مرّوا من دون أن يتركوا خبراً، وقد تكون فئراناً وقططاً ودجاجاً وحماماً يطارد بعضها البعض بين خرائب هذا السور الذي لم ينجز أحدٌ هدمه.

سبقتُ الأم بنيتا. توقفتُ بالقرب من مجموعة من بيوت الصفيح الصغيرة، الألواح، الكارتون، الأغصان، هشة ورمادية، وكأنها بنيتْ بأوراق اللعب المستهلكة التي كانت العجائز يلعبن بها ألعاباً قديمة. حاولتِ حضرتك كثيراً إقناع العجائز أن ينمن في الغرف. هناك مئاتٌ من الغرف الجيدة والكبيرة وكلّها شاغرة، فليخترنَ منها ما شئنَ وفي الباحة التي يفضلن، وسنؤهلها أنا والموديتو لكي تكون مريحة، لا، أمّاه، نحن نخاف، إنّها غرف كبيرة وسقوفها عالية وجدرانها سميكة ويمكن أن يكون مات فيها أو صلّى الكثيرون وهذا يبعث على الخوف، هي رطبة، وسيئة للروماتزم، وهي مظلمة وواسعة، فضاؤها كبير، ونحن لم نألف السكن في الغرف الواسعة لأننا خادمات وقد اعتدنا السكن في غرف صغيرة تغص بالحاجيات، في الجانب الخلفي من بيوت مخدومينا، لا، لا، أيتها الأم بنيتا، شكراً، نفضّل هذه البيوت الصغيرة البسيطة المبنيّة بعيداً عن الممرات لأننا نريد أن نكون قريبات من بعضنا، نشعر بنفسٍ صادر من البيت المجاور ونشم رائحة أوراق الشاي المعتقة وجسمٍ آخر مشابه لجسم واحدة تهتزّ

مؤرقة هي الأخرى عند الطرف الآخر من الجدار والسعال والضراط والغازات والكوابيس، وماذا يهمّ إن دخلَ البردُ من فتحات الألواح التي لم يُحكم رصّها ما دمنا مجتمعات رغم الحسد والطمع، ورغم الخوف الذي يغضّنُ أفواهنا الدرداء ويجعّدُ عيوننا المقذّاة، مجتمعات للذهاب في سرب إلى القداس ساعة الغروب لأنّ الذهاب فُرادى يبعث فينا الخوف، وقد أمسكتْ كلّ منّا بملابس الأخرى، في الأروقة والممرات التي تشبه أنفاقاً لا تعرفُ نهاية، في الأروقة المعتمة التي قد تلسع حشرة فيها وجهي فتجعلني أصرخ لأنّي أخاف أن يمسّني أحد في الظلام حين لا أعرف من مسّني، مجتمعات لطرد الأشباح التي تتدلى من روافد السقف وتزحف وتتمطى أمام أعيننا مع بداية العتمة. هنا تأتي العجوز الثرثارة التي تصبغ حاجبيها بقلم الفحم. هنا تأتي أماليا، مساء الخير. أماليا، لا تبتئسي، انتظريني هنا أريدُ أن أتحدثَ معكِ بعد أن أنتهي من ترتيب بيت بريجيت، لا، لا، شكراً، الموديتو سيساعدني كالعادة، انظري، إنّه يفتح قفل البيت. وروسا بيريث، القادرة على التشويش على باحة كاملة بقيلها وقالها. مساء الخير، كارميلا، نعم، نعم، سيأتون في طلبك، انتظري، يا امرأة، لكنّك تنتظرين من عشر سنوات ولم يأت أحدٌ، يقولون إنّ رافائيل الصغير استأجر بيتاً فيه حجرة زائدة، هذه الشعرة التي أحتفظ بها، انظري فقط، أيتها الأم بنيتا، هي شعرته، شعرة الطفل، حين كنتُ أربّيه، أشقر كشعر الذرة الطريّة وليس كماء البابونج كما هو شعر الآخرين، هكذا كان شعره قبل أن يسودّ، مؤسف أنّه الآن أصلع، يقولون، هاتفته قبل أيام لكنّ السيدة الجديدة التي عنده طلبت منّي أن أتصل به في يوم آخر، انتظري، كارميلا، لكن كارميلا تنتظر ما ينتظرنه كلّهنّ بيدين متشابكتين فوق التنورة، وهن ينظرن محدقات عبر كتل الراتينج المتراكمة في العيون، لعلهنّ يلمحن هذا الذي يزحف ويكبر ويبدأ بسدّ الضوء عليهن، قليلاً في البداية،

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

ثمّ الضوء كلّه تقريباً، ثمّ الضوء كلّه، كلّه، كلّه، كلّه، كلّه، وفجأة تحلّ ظلمة لا يمكن معها الصراخ إذ لا يمكن العثور في الظلمة على الصوت المستغيث المستنجد وتغرق الواحدة وتختفي في الظلمة المفاجئة في أيّة ليلة كما غرقتْ ليلة أمس الأول بريجيت. وبينما ينتظرنَ، تكنس العجائز قليلاً كما فعلن طوال حياتهنّ، أو يرفأن أو يغسلن أو يقشرن البطاطس أو ما يمكن تقشيره أو غسله، ما دام لا يتطلّب قوّة كبيرة فما عاد هناك من قوة، كلّ يوم يشبه نظيره، وكلّ صباح يكرر سابقه، وكلّ مساء يقلدُ المساء الذي نعرفه، يتشمسن جالسات عند مجرى الماء في أحد الأروقة، يطردن الذباب الذي يتغذّى على لعابهنّ وعلى حبوبهنّ، أكواعهنّ مسمّرة على ركبهنّ والوجوه مغطّاة باليدين، متعبات من انتظار اللحظة التي لا تظنّ أيّة واحدة منهنّ أنّها تنتظرها، ينتظرن كما انتظرن دائماً، في باحات أخرى، بالقرب من أعمدة أخرى، خلف زجاج نوافذ أخرى، أو يتسلين بقطع زهور الجيرانيوم الحمر لتزيين التابوت الخشبي الذي حملوا به مرثيدس بارّوسو، لكي لا ترحل المسكينة من دون زهرة واحدة على الأقل، وإن كانت زهرة مغبرّة، يا إلهي كم كانت مسلية وهي تؤدي تلك الرقصات التي علّمتها إياها إيريس ماتيلونا، (الفروك)، (الروك)، واليتيمات الأخريات وحتّى نحن حين نضبط الإيقاع بالتصفيق لكي يرقصن معاً، إيريس مع مينتشه... مسكينة مينتشه... لا بدّ أنّها ماتتْ من فرط بدانتها في ليلة شبيهة بهذه التي توشك أن تبدأ.

أفسحُ لحضرتكِ قليلاً لتدخلي، إذ لا متسع هنا لغير مائدة الزينة مع مرآة ولغير السرير النقّال البرونزي. أمّا ترتيب الشراشف فلم يختلّ إلا قليلاً حتّى إنّ أحداً لن يخمّن أنّ امرأة نازعت الروح عليها قبل ثمانٍ وأربعين ساعة. بريجيت ما تزال حيّة هنا. هذا البيت الصغير ما زالَ هي، يُبقي على بريجيت أخرى حيّة بينما بدأت جثتها تتفسّخ:

هذا النظام المتميّز، هذه الأشياء التي كانت تستخدمها في هواياتها وهوسها، هذا الميل إلى الترتيب، انظري، أيتها الأم بنيتا، كيف وضعتْ سعفات عيد الشعانين في زاوية من صورة البشارة، وكيف غلّفتْ بورق هدايا عيد الفصح زجاجة الكوكا كولا وصنعت منها مزهرية. صور لآل رويث سانتوس. كانت يداها الماهرتان قادرتين على ترميم التطريز في ملابس القداس التي أخذها الأب آثوكار لأنه قال إنّها من القرن الثامن عشر، ثمينة جدّاً ولا يمكن تركها تتلف في هذا البيت، إنّها الشيء الوحيد الثمين الموجود هنا، أيتها الأم بنيتا، وما عداه زبالة، من غير المعقول أن الأوليكارشيّة[٣] في هذا البلد لم تقدر إلا على جمع القاذورات هنا. على مائدة الزينة، ومن دون تحريك الأشياء، تتلمسين حضرتكِ بطرف إصبعين صفّاً كاملاً فيه الكشتبان وعلبة الدبابيس والمبرد والمقص والكلابات و<مصقلة الأظافر>[٤]، كل شيء موضوع بانتظام على بساط أبيض رقيق منشّى. أنا وحضرتكِ، أيتها الأم بنيتا، جئنا لنقطّعَ هذه البريجيت إرباً إرباً وهي حيّة، نقسّمها، نحرقها، نرمي بها، نُزيلُ بريجيت التي أرادتْ أن يدومَ وجودها ويبقى في ترتيب أشيائها. نمحو آثارها ليرسلوا لنا غداً أو بعد غد عجوزاً أخرى ستطأ هذا المكان بالطريقة الخاصة التي لا تختلف إلا قليلاً، ولكنّها طريقتها المتميّزة، والتي ستأخذ احتضارها شيئاً فشيئاً. ستدفن بريجيت كما فعلتْ بريجيت مع... لا أذكر اسم تلك العجوز الصامتة، ذات اليدين اللتين شوّهتهما الثآليل، التي كانت تسكن في هذا البيت قبل أن تصل بريجيت...

٣- Oligarquía أو حكم الأقليّة. حين تكون السلطة السياسية بيد فئة صغيرة تمتلك المال والقوة وترتبط ببعضها برابطة القرابة والنسب.

٤- نورد بين حاصرتين < > المفردات أو التعابير التي وردت على لسان الشخوص أو في السرد بالإنكليزية أو الفرنسية.

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

شاع في البيت أنّ الأم بنيتا بدأتْ بتنظيف بيت بريجيت الصغير. خفّت العجائز من باحات أخرى لاستطلاع الخبر. لم تمنح الأم بنيتا قط أفضليّة للملحفات في الطلب لذلك لم يقتربن كثيراً في البداية: طفن ساكتات، أو مهمهمات، يمررن ثم يعاودن المرور أمام الباب، ويقتربن شيئاً فشيئاً، أكثر فأكثر. تتجرأ إحداهنّ على التوقف لثانية: تبتسم لحضرتك ابتسامة ملائكيّة، وتغمز لي بعينها وأنا أغمز بعيني للموديتو. رحن يبطئن حركتهنّ وهنّ يمررن أمام الباب حتى أوشكن أن يتوقفن، ورحن يزدحمن على المدخل ملتصقات كما الذباب على قطرة عسل السكر، يتهامسن، بلهاوات، ضاجّات، إلى أن طلبتِ منّي أن أطردهنّ، لينصرفن، موديتو،انصرفنِ لأجل الربّ، اتركننا نعمل بهدوء، سنناديكنّ في ما بعد. يبتعدن قليلاً. يجلسن على طرف الممر، أسفل الأعمدة المربعة، الأيدي ساكنة على التنورات، انظرْ إلى حشية بريجيت المعمولة من الستان الأزرق، يقولون إنّها من الريش الخالص، لمن سيعطونها، أظنّ أنّ السيدة راكيل ستحمل هذه الأشياء الجيدة إلى بيتها، انظري إلى الراديو، ثونيلدا، أراهنُ أنّهم سيرسلونه إلى مزاد لأن أجهزة الراديو غالية، أنا أتمنّى أن يكون عندي راديو كراديو بريجيت التي كانت تظلّ في سريرها أيام الأحد للاستماع إلى القدّاس المنقول من الكاتدرائيّة وأنا أتمنّى أن أستمع إلى القدّاس من سريري ذات أحد حين يكون الطقسُ بارداً. وهذا الشال الأسود، انظري كلمينثيا، ذلك هو الشال الأسود الذي حكيتُ لكِ عنه قبل أيام، انظري، الذي أهدته لها الآنسة مالو بمناسبة عيد ميلادها ولم تستعمله قط لأنّها لا تعرف أنّ بريجيت لا تحبّ اللون الأسود... لا شكّ أنه جديد...

أزلت حضرتكِ آثارَ الاحتضار وروائحه التي لم يلاحظها أحد في شراشف المرحومة: إلى الغسيل. أنا أرفعُ طبقتي المرتبة لأخرجها إلى الممر لتتعرّض للهواء. حضرتكِ تنزعين الخيش الذي يحميها من

الصدأ الذي يأكل السرير: قفصٌ من الأسلاك، تختبئ داخله حيوانات، سمينة، فطساء، طويلة، طريّة، مربّعة، من دون شكل، بالدزينات، مئات العلب، علب كارتون مربوطة بسيور، كبب من خيوط القنّب أو من الصوف، إناء صابون مكسور، فردة حذاء، قنينة، أباجور مطعوج، برنيطة سبّاح بلون توت العلّيق الأحمر، كلّ شيء مخملي متجانس يقبع ساكناً تحت الغبار الأبيض الذي يغطّي كلّ شيء بشعيراته الهشة الناعمة، الذي يمكن أن يتطاير في الحجرة من تحريك جفن أو من تنفس فيخنقنا ويعمي أبصارنا، وحينئذ ستُجنّدُ الحيوانات التي ترقد تحت صيغ وأشكال وديعة مؤقتاً مربوطة بالخرق وبرزم المجلات القديمة، عمود الشمسيّة، علب، أغطية علب، قطع من أغطية العلب، وستُحشّدُ لمهاجمتنا. علب وعلب تحت السرير وانظري، أيتها الأم بنيتا، أيضاً تحت مائدة الزينة، بين مائدة الزينة والحاجز، وخلف ستارة الزاوية، كلّ شيء مُلقى تحت، تماماً خلف الخط إلى حيث يمتد النظر.

لا تظلّي هكذا، بيدين مسبلتين. ألا تعرفينَ بريجيت التي روّضت الغبار والأشياء التافهة؟ هل تحيّركِ بريجيت هذه؟ آه، أيتها الأم، لكنّ حضرتكِ لا تعرفين، فتلك العجوز كانت لها طرق وعرة أكثر مما لهذا البيت منها: علبة الدبابيس، المقص، <مصقلة الأظافر>، والخيط الأبيض، نعم، كلّ شيء مرتّب ومكشوف للجميع فوق البساط الأبيض. كم هو مؤثر. أمّا الآن، وفجأة، فعلى حضرتكِ أن تواجهي هذه البريجيت الأخرى غير الرسميّة، التي لا تظهرُ فوق البساط المنشّى، ملكة النزيلات بجنازتها الملكيّة، التي كانت تحكمُ بالتلميح منطلقة من نظافة ملاءاتها المطرزة، بيديها الماهرتين وعينيها الأنيستين، وتأمر بتأوّه أو تنهد، وتغيّر مسار حيوات بحركة من إصبعها، لا، حضرتكِ ما كنتِ تعرفينها ولا كان في مقدوركِ أن تعرفيها، نظرة الأم بنيتا لا تتغلغل إلى ما تحت الأسرّة ولا إلى ما في المخابئ، من المستحسن الترفّق بهذا

مكتبة أحمد ٢١٥
telegram @ktabpdf

الجانب، خدمته، الإبقاء عليه، وإن كان هذا يعني قتلَ النفس بالعمل كما قتلتِ حضرتكِ نفسكِ لسنوات بين هؤلاء العجائز الهرمات في هذا البيتَ حبيسة، محفوفة بالبلهاوات، بالمريضات، بالتعيسات، بالمنبوذات، بالجلادين والضحايا اللاتي يختلطن ويشتكين ويعانين من برد ومن جوع تحارين حضرتكِ في علاجه، ويُصبنَك بالجنون من فوضى الشيخوخة التي هي سيدة كلّ الامتيازات...، يا للعجائز المسكينات، لا بد من عمل شيء من أجلهن، نعم، حضرتك قتلت نفسكِ بالعمل كي لا تعرفي معكوس وجه بريجيت.

تتنهد وهي تنحني لتُخرجَ من تحت الحشية علبة مربعة من ورق مانيلا مربوطة بحبل. أنفضُ التراب عنه بخرقتي ونغامرُ بأنوفنا لأنّ الحجرة مليئة بالغبار. تبدئين حضرتكِ بفتح العلبة: علبة من تلك التي كانت سابقاً تأتي وعليها صور مأخوذة في الاستوديو، مع إكليل من الزهر عليه نقش بارز وتوقيع المصوّرِ مكتوباً بالذهب في زاوية من الزوايا، ولكن من دون الصورة. أحملُ الورق والكارتون إلى وسط الباحة للبدء بتكديس الأوساخ التي ستصبح محرقة. تأتي العجائز بقصد التنقير والعثور على ما يمكن العثور عليه، لكنّ ما يبحثن عنه قليل، قليل جدّاً. لا شيء. طبعاً، فقد بدأنا للتوّ. وسيكون كثيراً. لأنّ بريجيت كانت غنيّة. مليونيرة، يقولون. لا بدّ من الانتظار بعض الوقت. العجائز يواصلن مراقبتنا جالساتٍ في أماكنهنّ من الممر أو يتمشّين.

كلّ ما تجدينه حضرتكِ مربوط، معلّب، ملفوف في شيء، داخل شيء آخر، ملابس رثة ملفوفة ببعضها، حاجيات تالفة تنكسر حال فتح علبها، عروة فنجان قهوة من السيراميك، قياطين مذهبة لشرائط التناول الأول، أشياء حُفظت لمجرد الحرص على الحفظ، على التعليب، على الربط، على المحافظة، هذه الجموع الثابتة المتكررة، التي لا

تصرّح لحضرتك، أيتها الأم بنيتا، بسرها لأنّه قاس لكي تتقبلي، أنتِ وأنا والعجائز الأحياء والعجائز الميتات والجميع، فكرة أننا ملفوفونَ بهذه العلب التي تطلبين حضرتكِ منها أن تعني شيئاً لأنّ حضرتكِ تحترمين الكائنات البشرية، وإن كانت المسكينة بريجيت قد صنعت علباً كثيرة، فكّرت الأم بنيتا لائذة بعاطفتها، فلرفع راية تقول فيها أريدُ أن أحافظ، أريد أن أنقذَ، أريد أن أظلّ على قيد الحياة. لكنّ الأكيد، أماه، هو أنّ بريجيت كانت لديها طرق أكثر تعقيداً لضمان بقائها على قيد الحياة... علب صغيرة، نعم، كلّ العجائز يصنعن علباً صغيرة ويحفظنها تحت أسرتهنّ.

لنفتح العلب، موديتو، لن نجد شيئاً مهماً، شيئاً...، إنّها عاجزة عن إتمام عبارتها لأنّها تخشى أن تقودها إلى فكرة غير مترابطة وتبدأ في المقابل بلعبة افتراض أنّها، بحلّ عقد وخرقٍ وفتحِ ظروفٍ وعلبٍ، ستجد شيئاً يستحق أن ينقذ. لا، كلّ شيء إلى الزبالة. خرق ومزيد من الخرق. أوراق. قطن بلون القهوة عليه دم من جرحٍ قديم. غلاف بعد غلاف. ألا ترين، أيتها الأم بنيتا، أنّ المهم هو اللفّ، وأن الشيء الملفوف لا أهمية له؟ سأجمع الزبالة في الباحة. يئز سربُ العجائز وهنّ ينبشن ويتشاجرن من أجل فلينة، قطعة برونز، أزرار محفوظة داخل علبة شاي، نعل حذاء، غطاء علبة أقلام. أحياناً ننظف مسكن نزيلة ماتت للتوّ ويظهر بين أشيائها شيء رأيناه نعرفه: هذه الحلقة السوداء الخشبية لتعليق الستائر، مثلاً، هي نفسها التي رمينا بها إلى الزبل الأسبوع الماضي حين ماتت مرثيدس بارّوسو، وهي، بدورها، أخذتها نعم أخذتها، لأجل لا شيء، من بقايا ميتة أخرى، وتلك من أخرى ومن أخرى ومن أخرى...

العجوزُ الدرداء التي غمزتْ لي بعينها تجرّب برنيطة السباحة بلون توت العليق الأحمر، وتتمايلُ على صوت تصفيق الأخريات. دورا

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

تفكّ نسيج ما بقي من قميص صوفيّ معثوث، تكوّر الصوف المكرمش وتضيف القطعة إلى قطعة لغسله وحياكة سترة للطفل الذي سيولد. هذه العلبة: هذه. حضرتك ستتوترين، ستتشوقين، لا بدّ أنّها هي العلبة التي تحتوي على المفتاح لمعرفة ما أرادت بريجيت أن تقول. هذه. هلا فتحتها؟ طيب. نعم، موديتو، افتحها باحترام لأنّ بريجيت لفّتها لكي أفهمَ أنا، لا، أيتها الأم بنيتا، لا، لا تنخدعي، بريجيت عملت هذه العلبة والعلب الأخرى لأنّها كانت خائفة. كانت ملكة، جلاداً، دكتاتورة، قاضياً، لكنّها كانت تربط أشياء وتودعها كما تفعل كلّ العجائز. أعلمُ أنّ حضرتك تصلينَ من أجل أن تحتوي هذه العلبة شيئاً أكثر من الزبالة. تنزع منها الورق القهوائي وترمي به. يظهر ورق آخر، أرقّ، مجعّد، تمزقه، تتركه يسقط على الأرض. لماذا تواصل فتح الأغلفة وتمزيقها، هذا من التفتا بلون التفاح، تحته غلاف من جرائد - روزفلت و (فالا) وابتسامة ستالين على ظهر مركب[٥]- ولكنها تعلم حتماً أنّها لن تجد شيئاً؟ حشوة الأكتاف القطنية الرمادية هذه هي التي كانت تعطي العلبة طراوة وجسماً. تنقّبُ، تفتتُ الحشوة بأظافرها المستعجلة تاركة قطنها يتساقط. بقيتْ علبة صغيرة تمسكين بها حضرتكِ بين سبابتكِ وإبهامكِ. تنزعُ غطاء النسيج المتعفّن وتضغطُ قليلاً... نعم، نعم، يا إلهي، هناك شيء في الداخل، شيء صلب، محدد، هذه الكتلة التي ألمسها متلهفة. تتعثر أصابعُها وهي تفكّ عقدة النسيج: كرة من الورق الفضّي. تشقها، تمزقها: الورق الفضّي يستحيل قشوراً فوق راحة يدها المبسوطة المرتعشة. سأنفخُ تلك القشور لتطير لكن حضرتكِ تتمكنين من أن تضمّي قبضتكِ في الوقت المناسب وتتلقفي القشور من نفَسي، وتتمكن أصابعكِ، في لحظة، من إعادة تكوين الكرة

٥- يشير إلى صورة ظهرت في الصحف للرئيس الأمريكي روزفلت وكلبته (فالا) والزعيم السوفييتي ستالين.

الفضيّة. تكوّرها، تصلّبها بلهفة حركاتها البائسة. تنظرُ إليها. تنظرُ إليّ، تدعوني إلى أن أتعرّف أنا أيضاً على وحدة ما أعادتْ بناءه. تتقدمُ حتى الباب. تتوقف العجائز، يصمتن: تتبع أبصارهن خط سير ذراعها ثمّ قوس الكرة اللماعة وهي تسقط. يركضن للقفز إلى كومة الزبالة بحثاً عن ذاك الشيء الفضّي الذي شقّ الهواء. من المؤكد أننا سنعاود العثور على تلك الكرة الصغيرة بين بقايا ميتة أخرى.

لماذا تغطين وجهكِ بيديك، أماه؟ تهربُ راكضة عبر الممرات والأروقة والباحات والقاعات، العجائز يتبعنها ويطلبنَ منها، الوجوه مكعبرة، والعيون متوسلة مقذية، صوت مخنوق لأنّ ربطة العنق تحمي فمها من برد موهوم، من عدوى موهومة، صوتٌ آخر أجشّ من كثرة التدخين، من كثرة تناول الشاي الذي يغلي لتدفئة البدن المتخشب من البرد، أيد ممدودة للمس ردائها، للإمساك بها، للقبض عليها من مئزرها المعمول من القماش الرقيق، من أحد أكمامها، لا تذهبي، أيتها الأم، أنا أريد سريرَ البرونز، وأنا أريد نظاراتكِ التي كنتِ أحياناً تعيرينني إيّاها لأني لا أمتلك نظارات ويعجبني أنَ أقرأ الجرائد وإنّ كانت قديمة، وأنا أريد بطانية لأني أبرد ليلاً حتى في الصيف، أنا كنتُ صديقتك، وأنا كنتِ تحبينني أكثر، أنا كنتُ جارتكِ على جهة اليمين، وأنا على جهة اليسار، أنا كنتُ أقلّمُ لكِ أظافرك، حتى أظافر قدميكِ فضلاً عن المسامير لأني عملتُ مانيكير حين كَنتُ شابة، وأنا كنتَ تحبينني أكثر بكثير من أماليا التي كانت تأخذ منك كثيراً لقاء غسلَ ملابسك، كمّاشات بأصابع خشبيّة تمسك بذراعيّ، وأفواه مكرمشة تطالب بأشياء لا أعرف ما هي، أنا أرملة، المقص كان لي، أنظري، أيتها الأم بنيتا، إلى شعر رافائيل الصغير، كم هو محزن أن يكون الطفل من دون شعر الآن حتى إنّه صار بديناً كما يقولون، إبرة أعرتكِ إياها قبل أيام فقط، وأنا أعرتكِ كروشيه، وأنا بعض الأزرار. هذه اليدان

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد ٢١٥

اليابستان فيهما من القوة ما يفوق ما في يديّ منها، أصابع تنمو كالأغصان لإيقافي، توسلاتهنّ وصلواتهن تقيدني، هذا لي، هذا لي، أيتها الأم بنيتا، أنا أريد، أنا أحتاج، لماذا لا تهديني الشاي الذي فاض عن حاجة بريجيت، فأنا فقيرة معدمة، لا، لهذه لا، لي، أعطيني إيّاه، يقال عن تلك إنّها لصّة، لا تغفلي عن الأشياء، انتبهي فقد تسرقها منكِ. أعطيني إياه، بل هو لي، عجائز أصواتهن طرية مثل كريات الشعر التي تهيّجها الحاجة والطمع في زاوية من الزوايا، أظافر متشققة، ملابس وسخة تسقط من على أجسادهنّ، أجساد تفوح منها رائحة الشيخوخة تحصرني في حاجز الزجاج المكسور هذا، المفتاح، أفتحُ، أخرجُ، أغلقُ. أديرُ المفتاح من الخارج. أخرجه وأحشره في جيب المئزر. وأخيراً! يا إلهي! بقين محبوسات خلف الباب، يجمعنَ غباراً. من فتحات الزجاج المكسور تطل أذرعهن، وجوههن التي شوهتها الإيماءات... تنطفئ همهمة أصواتهنّ المتوسلة.

٢

راحت العجائزُ، أزواجاً ومجموعاتٍ، يغادرنَ المطبخ وكأنهّن ينصرفن، لا للنوم، بل للالتحاق بالظلمة. في جو المطبخ المليء بالمقاعد، وطاولات الرخام المدهنة بفضلات الطعام، بأكوام القدور التي تشبه نصباً من السخام والدهن في مغاسل الصحون المختنقة، راحت الأصوات، كالفحم، تخبو مع مضيّ الساعات والدقائق التي لا تمضي.

كانت آخرُ المنصرفات كالعادة هنّ العجائز الستّ اللاتي يجلسنَ على الطاولة الأقرب من حرارة المطبخ، قريباً من بريجيت، مجموعة من الصاحبات المقربات اللاتي كنتُ أراهنّ دائما يحُمنَ حول إيريس ماتيلونا، يهدينها الحلوى والمجلات، ويتسلّين بعمل تسريحات غريبة لها وكأنّها دمية. أنا كنتُ أجلس أبعد قليلاً من تلك الطاولة. وأثناء ما كنتُ أستمع إلى تهامس أصواتهنّ الأزلي كنتُ أدخل في نعاس ثم أضعُ رأسي على ذراعيّ المتقاطعتين على الطاولة بعد أن أتناول آخر رشفة من الشاي. كنت أسمعهنّ يتحدثن عن أشياء: أصيبت إحداهنّ بأذى من حجرٍ أصاب قدمها، بريجيت تقول إنّ السيدة راكيل تلقّتْ بطاقة بريدية من السيدة إينيس من روما، حزورة مكررة مئة مرة أو قصّة لتسلية إيريس الجالسة على تنورة ريتا، التي دثرتها بطارف شالها.

تلك الليلة، كرّرت واحدة منهنّ، لا أذكر من كانت، رواية القصّة التالية بهذه الطريقة تقريباً:

يُحكى، من سنوات طويلة، طويلة، أنّ سيداً كبيرا ثريّا رحيما، كان يمتلك أراضي واسعة شاسعة في أنحاء البلاد، جبالا في الشمال، غابات في الجنوب وأراضي بعلية في الساحل، وقبل هذا وذاك كان يمتلكُ عزبا مرويّة غنيّة في الإقليم الذي يحده من الشمال نهر ماولي، بالقرب من سان خابيير، كاوكينس و بيّا أليغري، حيث يعرف الجميع أنّه كاثيكه[٦]. لذلك، حين حلّتْ أوقاتُ الشدّة، من سنوات حصاد بائس، وحرٍ وجفاف، وحيواناتِ مسمومة وأطفالٍ يولدون ميتين أوَ بستة أصابعٍ في اليد الواحدة، توجهتْ عيونُ الفلاحين إليه مستفهمة عن تفسير لكلّ تلك المصائب.

كان لهذا السيّد تسعة أبناء ذكور يعينونه في إدارة أملاكه، وبنت واحدة، هي الصغرى، وكانت نور عينيه وسعادة قلبه. صبيّة شقراء مبتسمة كالحنطة الناضجة، مدبرة ومجتهدة، أكسبتها مهارتها في أعمال البيت شهرة طبّقت الأنحاء. فهي تخيط وتطرّز بمهارة وتصنع الشموع من الشحم الذي تنتجه العزبة والبطانيات من الصوف. وفي الصيف، حين كانت الدبابير تئز شرهة فوق الفاكهة الناضجة جدّاً...، كان هواء الغابة ينقلب أزرق حاداً من جرّاء النار التي كان خدمُها يوقدونها تحت أحواض النحاس، حيث تقلّبُ ثمار التوت والقرع الأبيض والسفرجل والإجاص، لتحيلها إلى حلوى تمتّع بها أذواق ذكور بيتها. لقد تعلّمتْ هذه الفنون الأنثويّة القديمة من عجوز تشوّه الثآليل يديها، تكفّلت بالعناية بها حين توفيتْ أمها وهي تلدها. كانت الطفلة، عند انتهاء آخر وجبات الطعام في اليوم، وبعد تصدّر

٦- Cacique الشخص الثري المتنفذ سياسياً وإدارياً في بلدة ما أو مقاطعة.

المائدة التي كان أبوها وأخوتها المتعبون يجلسون عليها بأحذيتهم المغبرة، تقبلهم بغنج ودلال الواحدَ بعد الآخر قبل أن تنسحب عبر الممر ومعها مربيتها تقودها وهي تحمل شمعة لتناما في الغرفة التي تتشاركانها.

ربّما كانت الامتيازات التي حصلت عليها المربية من علاقتها بالطفلة، أو ربّما كان غياب التفسيرات لكثرة المصائب هو ما أوجد ضرورة لإلقاء اللوم على أحد، لأنّ الأوقات السيئة تولّد أفكاراً سيئة. بدأت تنتشر شائعات. لا بدّ أنّ السائس قال ذلك للجبّان، والجبّان للسائس أو لبائع الخضار أو لامرأة أو لابنة أخ الحداد. في الليل، كان العمّال يتهامسون وهم يجلسون القرفصاء بالقرب من نار أشعلوها خلف حظيرة الخنازير، حتّى إذا شعروا باقتراب أحد سكتوا. إشاعة انتشرت ببطء لكنّها انتشرت، حتّى سمع بها عمّال البيدر والرعاة في الروابي الأبعد من العزبة: كان يقال، كان يقال إنّ الناس يقولون أو إن أحداً سمع أحداً يقول لا أحد يدري أين، أنّه في الليالي المقمرة كان يحلّق في الهواء رأسٌ مرعب، يجرّ شعراً بلون القمح، وأنّ وجهَ هذا الرأس هو وجه ابنة السيد الجميل... يغنّي أغنية طائر الجونجون[٧] المرعبة: توي توي توي ويمارس السحر والرقية المؤذية، ولذلك المصائب تترى، ولذلك الفقر يخنق الفلاحين. فوق المروج المجدبة حيث الحيوانات تحتضر منتفخة من العطش، يحلّق رأسُ ابنة السيد محرّكاً أذنين عظيمتين قويتين تشبهان جناحي خفّاش، يطارد كلبة صفراء، تشوهها الثآليل نحيفة كمربيتها، وتقود طائر الجونجون لتصل به إلى مكان يقع خلف الروابي ويشير إليه شعاع النجم المتواطئ: إنهما هما المذنبتان في كل ذلك، فالطفلة ساحرة، وساحرة هي

٧- Chonchón هو في التراث الشعبي التشيلي طائر خرافي شبيه بالبوم برأس آدمي ينذر ظهوره بالشؤم والشر والمرض.

المربية، فهي التي علّمتها تلك الفنون، القديمة والأنثوية قدر ما في صنع الحلوى وإدارة البيت من أنثوية وقدم. يقال إنّ سكان العزبة أنفسهم هم الذين بدأوا هذا القيل والقال، وإنّ سكّان العزب المجاورة تابعوهم في ذلك، وحكوا ذلك للغرباء الذين نشروا الخبر في كافة أنحاء المقاطعة بعد أن تفرقوا إثر انتهاء موسم قطف العنب أو موسم الحصاد، حتى لم يعد أحدٌ يشكّ في أنّ بنت الكاثيكه ومربيتها تمكنتا بالسحر من جميع المنطقة.

وحدث ذات ليلة في مزرعة من المزارع أن نهض الأخُ الأكبر باكراً من فراش عشيقته، ليَعود إلى بيت أبيه في ساعة مناسبة. قالت له وهي في كومة الملاءات التي دفأتها بجسمها:

- أراهنُ أنّ أختكَ لم تعدْ إلى البيت بعدُ. الساحراتُ يعدنَ حين يصيحُ الديكُ وينبلج الصباح...

ضربها حتّى أدمى فمَها، وحتى اعترفت له بكل شيء. بعد أن استمع إليها عاد إلى ضربها. خفّ إلى العزبة ليقصّ ما سمع على أخيه الثاني، ثمّ إلى آخر وآخر، وأقرّ الأخوة التسعة مجتمعين ومنفردين بأنّ الإشاعة ما هي إلا كذبة مشؤومة تنالِ من سمعتهم جميعاً. كان الرعب يدخل من عراء الفقراء البائسين إلى عقر الدار الذي تصرّف شؤونه الأخت التي ما كانوا يرونها إلا طفلة شفافة وسعيدة. ما عليهم تصديق ذلك. يكفي ألا يقبلوا به. وما عادوا يتكلمون في الموضوع. مع ذلك، عادوا إلى عمل يومهم مطأطئي الرؤوس، لم يبيعوا حيوانات في سوقها الموسمي ولم يتذكروا جمع المحصول قبل هطول المطر. ما عادوا يشربون بحرية وفرح كما كانوا يفعلون، فالخوف من أن يُطلق الخمرُ ألسنتهم بالكلام أمام أبيهم كان يمنعهم من ذلك، وهم لا يريدون أن يعرف أبوهم عن الأمر شيئاً.

مع ذلك اعتاد الأخوة أن يقتربوا ليلاً من باب حجرة أختهم مجتمعين، ثمّ، وبعد أن قرروا أنّ الأمر كذب وبهتان، منفردين، كلّ لوحده متخفّياً من الآخرين لكي لا يفكروا أنهم بذلك يقرّون ولو قليلاً بحقيقة الشائعات. كانوا يسمعون الشيء نفسه دائماً. في الداخل، كانت الأخت تضحك مع العجوز وتحكي حزورات وتغني قليلاً، ثم بعد ذلك يسمعونها تقرأ الصلوات والتسابيح إلى أن يحسّوا أنهما أطفأتا الشموع ونامتا. لم يسمعوا شيئاً آخر قط ولم يكفّوا عن سماع ما سمعوه مراراً وتكراراً. ما من شيء. جزيرة أنثوية في ذلك البيت من الرجال، لا يمكنهم الدخول إليها، لكنّها لا تشكّل خطراً. فمتى تخرجان لعمل ما تُتهمان بعمله؟ وبعد وقت من المراقبة، وبعد أن تأكدوا من بطلان الشائعات، قرروا أن يقصّوا الأمر على أبيهم، لكي يعاقب المسؤولين عن نشر تلك الكذبة الكبيرة. استجوب الكاثيكه ابنته، وقد جنّ جنونه غضباً وألماً: ظلت عينا الطفلة صافيتين رائقتين وهي تردّ بالنفي على التهم التي لم تدرك ببراءتها معناها، فما كان من الأب إلا أن هدأ وأجلسَ ابنته المدللة على ركبتيه وطلب منها أن تغنّي له أغنية. تناول الأخ الأصغر، وقد عادت إلى وجهه البسمة، غيتاره من زاوية في القاعة لمصاحبتها:

ألقي بنفسي في البحر من أجل وردة
لكنّي أخشى الماء لأنّه خطير
تقرع النواقيسُ بالجلجل
وإلا فالقرعُ بالقلب.

في الحجرة المجاورة قررَ الأخوة أنّ من الحكمة الانتظار بضعة أيام، وأنّ من الضروري بالطبع الاستغناء عن المربية، لأنّ الذنب، إن

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

كان هناك من ذنب، هو ذنبُها، إذ أحاطتْ براءة الطفلة بحضورها الغامض. وما أهمية التضحية بامرأة عجوز مجهولة، إن كان ذلك ينهي الموضوع برمته؟ وأخلدوا إلى النوم مطمئنين بعد أرق دام طويلاً. في الساعة الواحدة فجراً دق أحدُ العمال على باب غرفة نوم الكاثيكه:

- سيدي، سيدي. الكلبة الصفراء وطائرُ الجونجون خارج البيت...

وركض العامل ليتوارى عن الأنظار قبل أن يخرج الكاثيكه من غرفته، ملوحاً بسوطه، متدثراً برداء نومه وعباءته، صارخاً لإيقاظ أولاده، لإيقاظ الجميع، لكي يرتدوا ملابسهم، لكي يركضوا، لكي يُسرجَ الفتية خيلهم ويركبوا ويخرجوا... وخلّف الرجالُ العشرة عموداً من التراب في الليل وهم يخبّون عبر الحقل، يسألون، يبحثون، يسمعون، كي لا يفقدوا أثر طائر الجانجون والكلبة، فهذه هي فرصتهم للكشف عن الحقيقة. لكنّ عواءً صادراً من بعيد غيّر وجهة الجمع نحو الغابة. وحملهم نعيقٌ وحجرٌ تدحرج من سفح على أن يصعدوا الجبال بحثاً في الكهوف التي يمكن أن تكون مداخل إلى مدينة الساحرات. نزلوا إلى النهر لأنّ نباح كلب، يمكن أن يكون الكلبة الصفراء، قادهم إلى هناك، لكنّ الأمر لم يكن كذلك، لم تكن الكلبة الصفراء، وصاح الديك وانبلج الفجر وما عادت الساعة ساعة الساحرات واضطر الرجال العشرة إلى العودة منكسرين مهزومين إلى العزبة. حين وصلوا أحسّوا بضجيج في عرائش العنب:

- أمسكوا بها، أمسكوا بها، إنّها الكلبة الصفراء تريد الدخولَ إلى البيت، لا بد أنّ الجونجون يحلّق غير بعيد عنها.

وتدافع الرجالُ العشرة خلفها، وكأنّهم في سباق محموم، لمحاصرتها وقطع الطريق عليها، للإمساك بها وضربها وقتلها في

مكانها، واهتاجت الخيل وتطايرت السياط، والكلبة مختفية في عمود التراب الذي أثارته الحوافر التي لم تفلح في منع الكلبة من أن تزوغ منهم وتضيع في ضياء الفجر المشوّش. أمروا العمّال بالبحث عنها. أمروهم أن يعثروا عليها مهما كلّف الأمر لأن الكلبة هي المربيةِ والمربية هي الساحرة. أمروهم ألا يعودوا إلا وقد ظفروا بالكلبة الصفراء. أمروهم أن يقتلوها ويأتوا بجلدها.

فتح الكاثيكه، يتبعه أبناؤه، باب غرفة الطفلة عنوة. أطلق الأبُ صيحة وفتح ذراعيه لتخفي عباءته الفضفاضة عن عيون الآخرين ما رأته عيناه. أغلق الباب على ابنته في الحجرة المجاورة. وعندها فقط سُمح للآخرين بالدخول: كانت العجوز ترقدُ بلا حراك في سريرها، ملطخة بزيوت سحريّة، عيناها مغمضتان، وتتنفس كالنائمة، أو كأن روحها غابت عن جسدها. في الخارج بدأت الكلبة تعوي وتخمش الشباك:

– ها هي. اقتلوها وإلا سأقتلكم أنا جميعاً...

توقفت الكلبة عن العواء. كانت الطفلة تبكي في الغرفة حيث تركها أبوها محبوسة.

– نانا! نانيتا! لا تقتلوها، أبي، قل لهم ألا يقتلوها، ليتركوها تعوْد إلى جسدها. أقسم لك بأنني سأعترف بكل شيء إن هم تركوها...

– اخرسي. ليس عندك ما تعترفين به.

خرجوا إلى الباحة ليتعرفوا على الجلد الملطّخ بالدم. لم يكن صعباً الإمساك بها، كانت تبدو منهكة، قابعة ترتعش تحت شبّاك غرفة الطفلة: هذا هو ما أكّده في ما بعد العمّال بينما كان السادة العشرة يفحصون جلد الكلبة الصفراء. لم يبق أمامهم غير التخلص من جثة الساحرة. لم تكن حية ولا ميتة. قد تكون ما زالت خطيرة: دفن جثة ساحرة عادة ما يسمم فراسخ وفراسخ من الأرض الزراعية، لذلك يجب التخلص

منها بطريقة أخرى، قال الكاثيكه. أمر بربط الجثة الشريرة إلى شجرة لجلدها حتّى تستيقظ ويسمع الجميع اعترافها بجرائمها. نزف الجسمُ الجريح، لكنّ عيني الساحرة لم تنفتحا ولم ينفتح فمها، وإن استمرت بالتنفس، معلّقة في منطقة مختلفة عن منطقة الحياة ومنطقة الموت. ولمّا لم يبق ما يمكن فعله أطاحوا بالشجرة ضرباً بالفؤوس. وحمل الأخوة التسعة مع أجرائهم وأجراء العزب المجاورة جثّة الساحرة إلى نهر الماولي وألقوا بها في الماء مربوطة إلى الجذع للحيلولة دون أن تغطس.

لزم الكاثيكه بيته. وبعد ساعة من توقف العامة عن الصراخ، انطلق بابنته إلى العاصمة. أدخلها هناك في دير لتكون في رعاية بعض الراهبات الديريات. لم يرها بعد ذلك أحدٌ حتى أخوتها التسعة الذين كانوا يحبونها كثيراً.

في تلك الأثناء، كان الموكب على ضفة نهر ماولي يتابع الجسدَ الطافي مع مياه النهر المنحدرة. يرونه يقترب من الضفة فيدفعونه بقصبات طويلة. وإن بدا أن التيار يجرفه إلى وسط الماء سحبوه بالكلاليب. أمّا في الليل فقد كانوا يبقون على الجثّة عند الضفة مستعينين بالكلاليب نفسها، بينما ينزعون عن الخيل سروجها ويشعلون النار ويأكلون أيّ شيء، وقبل النوم يستلقون على أسرجة خيلهم أو على عباءاتهم ليحكوا قصصاً عن الساحرات والأشباح والمخلوقات الغريبة المخيفة التي يلبس الخوفُ وجوهها أوقات الشدّة. قصّوا ما يعرفونه عن الساحرات، ما كان يقال عنها منذ أجيال، من أنّ أحداً قال مرّة لأحد الأجداد بأنّ من الضروري تقبيل سكس[8] الجدي شرطاً

٨- سنبقي على مختلف التسميات التي أطلقها المؤلف على المناطق الحميمة من الجسم كلا وفق سياق ذكره ومناسبته.

للمشاركة في حفلات الساحرات الماجنة، وتكلّموا عن الخوف، عن الخوف سابقاً وحاضراً ودائماً، وحلّ الصمت، ولطرد الصور التي تريد أن تتجلّى في الليل راحوا يتبادلون التهنئة لأنّ الساحرات لم يتمكنّ هذه المرة لحسن الحظ من خطف ابنة الكاثيكه الجميلة، وهو ما كنّ يسعين إليه، خطفها ليخطن ثقوب جسمها التسعة ويحولنها إلى إمبونج[٩]، لأنّ ما تفعل هؤلاء الساحرات هو أنّهنّ يخطفن المساكين الأبرياء ويحتفظن بهم في أوكارهن تحت الأرض، بعد أن يخطن العينين والفرج والشرج والفم والأنف والأذنين. يخطن كلّ شيء، ويطلقن لهم شعورهم وأظافر أيديهم وأقدامهم، ويبلدنهم، ويجعلنهم أحط قدراً من الحيوانات، المساكين، قذرين مقملين غير قادرين إلا على القفز حين يأمرهم الجدي والساحرات الثملات بالرقص... ذات مرة، تحدّث والدّ مع شخص قال إنّه شاهد أمبونجا فشلّ الخوف نصف بدنه. يعوي كلبٌ. عادَ الصمت يخيّم على الأصوات الخائفة. كانت عيون العمّال الوسنانين تلمع بينما ألسنةُ اللهب تتغلّبُ على خيال قبعاتهم.

أسرجوا صباح اليوم التالي باكرين. حلّوا رباط الجذع وتابعوا طوال النهار، تحت أشعة الشمس وعبر تلال الشاطئ الجرداء، مسير جثة الساحرة مع النهر نزولا. ومن ضيعة إلى ضيعة راح الخبر ينتقل. خبر أنّ الساحرة وقعت أخيراً، وأنّ الناحية تخلصت أخيراً من السحر، وأنّ النساء سيحملن حملاً طبيعياً، وأن الفيضانات لن تحدث، ومع تقدم الموكب راح حشد من السكان ومن المزارعين ينضمّون إليه. وقبل مغيب الشمس تنبّهوا إلى أنّ البحرَ بات قريباً. اتسع عرض النهر، وهدأ. ظهرت جزيرة صغيرة. شواطئ رملية لطّفت الضفاف.

٩- Imbunche هو كما يصفه النص مخلوقٌ شوهته الساحرات وجعلت منه مسخاً دميم الخلقة بشع الوجه والجسم.

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد ٢١٥

صار الماء رمادياً بعد أن كان أخضر، بل لقد لمحوا صخوراً سوداً بعيدة وشاهدوا الخط الأبيض لحاجز الموج الرملي. جرّ الإخوة التسعة الساحرة إلى الحاجز في قارب مسلحين بالكلابات والحبال: راحت تياراتُ الماء تجرّدها من ملابسها وتبعثرها خرقاً ممزقة وتنثر شعرها. ونهشت الأسماك لحمها ثمّ طفت نافقة حول المركب. صعد حشد السكّان راجلين وراكبين، والمزارعون، والأطفال مع كلابهم، والجيران، والفضوليون، إلى التلّة المقابلة للبحر. وبعد وقت متأخر،حملت الريحُ التي كانت تهزّ عباءاتهم صرخة الانتصار التي أطلقها الأخوة التسعة: أخيراً شاهدوا جثة الساحرة تعبر جبلَ الأمواج الدوارة ليبتلعها البحر. لم تبق إلا نقطة واحدة راحت تتفتت فوق بحر الغروب الذهبي. وتفرّق الموكب ببطء قافلاً. عاد كلّ إلى بلدته أو إلى مزرعته هادئاً مطمئناً بعد أن انحسر خوفه بعد أن بدا أنّ أوقات الشدة التي عاشتها الناحية كانت في طريقها إلى الزوال.

قلتُ إنّ العجائز، لا أتذكرُ مَن كانت منهنّ، لا فرق، كنّ يروين في تلك الليلة وفي المطبخ، الحكاية على هذا الشكل «تقريباً»، لأنّي سمعتُها مرات عديدة وفي روايات متناقضة تصل إلى حد الاختلاط ببعضها. تقول بعض الروايات إنّ الإخوة لم يكونوا تسعة بل سبعة أو ثلاثة. مرثيديس باروسو تروي أنّ العمّال، الذين أصابهم الرعب من غضب الكاثيكه، قتلوا كلبة من الكلاب وجاؤوا له بجلدها، وهذا يعني أنّ الكلبة الصفراء الحقيقية لم تمت. مع ذلك يبقى ما هو جوهري: فالأب أغلق بعباءته الفضفاضة باباً وتكتّم بتعقله على الشخصية النبيلة، سحبها من مركز الحكاية ليحولَ انتباه العمّال ونقمتهم صوب العجوز. فالعجوز، وهي شخصية غير مهمة، كما هو شأن جميع العجائز، هي ساحرة على قوادة على قابلة على نادبة على طبيبة، خادمة لا تمتلك سايكولوجية الفرد المستقلة، لا تمتلك الملامح الخاصة بها، تحل

محل الآنسة في دور البطولة، لتحمل هي وحدها ذنب الاتصال بقوى محرّمة. أصلُ هذه القصّة، التي شاعت في أنحاء البلد، هي الأراضي الواقعة جنوب نهر ماولي، حيث تملّك آل آثكويتيّا إقطاعيات منذ زمن الكولونياليّة. كانت لإينيس روايتها الخاصة لهذه القصّة، طبعاً، لأنّ دماء هذه العائلة في نهاية الأمر تجري في عروقها من ناحية جدتها لأمّها. ولا شكّ أنّ بيتا بونثي هي التي حكتها لها حين كانت إينيس طفلة. لقد فصَلتْ، في تفكيرها المرعوب، ومن المؤكد أنّها نسيتْ، حكاية الطفلة- الساحرة عن الوجه الثاني من الحكاية نفسها: عن ذلك الإرث العائلي المشرّف الذي يحافظ عليه آل آثكويتيّا، إرث طفلة- طوباوية ماتت بعطر القداسة محبوسة في هذا البيت بداية القرن الماضي، طفلة - طوباويّة لقي تطويبها فشلاً ذريعاً جعل منها مادة لتندّر معلقي الإذاعة والصحافة. لكنّ القصّة ما زالت حيّة في أصوات الجدات الفلاحات اللاتي يكررنها شتاءً بعد شتاء، ويغيّرن فيها قليلاً المرة تلو المرّة، لكي يعرف أحفادُهن، القابعون جنب الموقد، معنى الخوف.

هنا في هذا المكان، في مطبخ البيت، رويَ مرات ومرات أنّ إيريس نامت على تنورة ريتا من الضجر، وهي تمصّ إبهامها. إنّها كبيرة على هذا الشيء، فعليكِ ريتا إذن أن تمنعيها من هذه العادة الذميمة، يقولون إنّها ستترك هذه العادة إذا وضعنا لها الفلفل الحار على إصبعها أو وضعنا لها خراءً، نعم خراءَ الكلب... لا... لا، اتركوا المسكينة فستنسى ذلك، ألا تعلمون أنّ الأشهر الأولى من الحمل هي الأسوأ، يسرنَ متعبات، نعسانات، بطونهنّ مليئة بالغازات، والساقان منتفختان ومحمرتان، وتظهر الدوالي، انظرن إلى ساقي إيريس، كانت دائماً سمينة، لكنّ مطاط الجوارب يبدو الآن وكأنّه يقطّع كعبيها.

أنا لم أكنْ نائماً. لكنّي لم أرفع رأسي عن ذراعيّ المتقاطعتين

فوق الطاولة حين سمعتُ أنّ إيريس ستلدُ طفلاً، لأنّي ما كنتُ سأرفع رأسي أيضاً لو أنّهنّ كررنَ أنّ لزقات شرائح البطاطس أفضل من لزقات أعقاب السجائر لعلاج الصداع، أو أنّ كليمنثيا لو لم تكن أنانية لأعارتني طستها المزهّر ذاك، تذمّر وتشكٍّ يكوّرها خيط أصواتهنّ من دون أن تبلغ مبلغ كبّة الخيوط، صورة أخرى من صور الصمت... لا: تهوّع، إيريس تتقيأ، العجائز يمسكن بجبهتها لكي تتقيأ من دون ألم، وهي تتباكى، موديتو، تعال ونظف القيء، عجّل قبل أن تحضر الأم بنيتا وتبدأ بالسؤال.

رفضتُ أن أفعل ذلك.

نظرتُ إلى العجائز الست وأومأتُ إلى أنني فطنتُ إلى أنّ إيريس حبلى، نعم، نعم، ولا تجادلنني في ذلك، ولهذا أنتنّ مجتمعات صامتات حول إيريس الحمقاء هذه، تساومن عليها وتجزن كلّ ما تفعله، لذلك فهي كبيرة الثديين، نعم، لقد كنتُ ألاحظ شيئاً غريباً، سأنادي الأم بنيتا وستقول هي ما يجب فعله في أمر كهذا، أنا لا أريد أن أضع نفسي في مشاكل، فربّما يلقى بالذنب عليّ في ما بعد...

– عليكَ موديتو؟

– ما أنتَ إلا نصفُ رجل

– ومن سيلقي بالذنب عليكَ...

كُنّ يبكينَ من الضحك على الرغم من أنّ موديتو واصل تهديده: رحن يعطلن تهديده بضحكة اغرورقت لها عيونهنّ، بسُباب انبعث نحوه من سبّاباتهنّ المعقوفة، إلى أن سحق استهزاؤهنّ التهديد وقضى عليه، لا، موديتو الجميل، رجاءً لا تتهمْنا، لا تكن شريراً فنحن مغرماتٌ بك، ما أروعكَ، ابقَ معنا، يناسبكَ أن تبقى معنا، سنداعبكَ مداعبات لذيذة لأنّك فحلٌ، ولأنّك قبل ذلك رجلٌ، أنتَ من الرجولة أنّك لن

تجرؤ على الخروج إلى الشارع، فإن لم تلتزم الصمت أيها الأخرس العفن فسنرمي بك إلى الشارع ونسرق منك المفاتيح ولن ندعكَ تعود إلى البيت وستضيع في الشوارع كما الحفر المظلمة حيث سيطاردك دون خيرونيمو دي آثكويتيّا والأطباء والدرك مع كلابهم. نعم. لقد ذهبوا في طلبها. ألا تعلم أنّهم منعوا عنها الطعام لأيام لتجوعَ وتتوحش؟ طقٍ طق... تكفي طقطقتان من أصابع رجل الدرك لكي تهجم الكلاب ليلاً وهي تنبح. تعوي وهي تطاردني في الشوارع والمطر، المتنزه يغصّ بوحوش تنبح عليّ في جادات لا تطاق، عند الجسر، أتدلّى من قضبانه حتى النهر، تعوي وهي تطاردني فوق الأحجار الزلقة، عبر أكوام الزبالة المتعفنة، أعثر بغصن، أسقط، جُرحتُ بمرطبان قاطع الحد وقد أتسمم، قد أصاب بتسمم جرثومي في الدم، بالكزاز، انظروا إلى يدي التي اصطبغت بالدم، اعتدلتُ في جلستي ويداي وركبتاي مضرجة بالدم، أهربُ من تحت الجسور، بين شجيرات هذه الحافة الحجريّة حيث تبتلع الريحُ صوتي وتتركني أخرس، لا أقدر على المزيد، ساعدنني، أتوسّل إليكن أن تساعدنني، أقسم لكنّ أنني لن أشيَ بكنّ، لا نصدقكَ، ارقدْ، أيّها المخنّث، موديتو العفن، ما أنتَ إلا قذارة، زبالة، زبالة، أركضُ وأركضُ كي لا تلحق بي لأنّي أسمع أقداماً تخبّ ورائي، أنفاسها النتنة ومخاطمها تغلي، مخالبها تسقطني وأريد أن أنهض لكنّي لا أستطيع لأنّ أنيابها تلقي بي على ضفة الماء الذي يجرف فضلات المدينة... إنّها تمزقني، هذه الحيوانات بخطمها الكبريتي، تقطعني إرباً، أنياب، ألسنة ينبعث منها البخار، عيون تثقب الليل، وحوش تمزّقني وتهرّ وتنزع من الدكتور أثولا قطعَ أحشائي الساخنة التي لديه، وحوش تمتص من دمي وتتنازع مصاريني وغضاريفي، أذنيّ وغددي، شعري، أظافري، رضفاتي، كلّ عضو من أعضائي التي ما عادت أعضائي لأني ما عدتُ غير تلك الفضلات المضرجة بالدم.

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

- مرحباً؟

رفعتُ يديّ عن وجهي. نظرتُ إليهنّ، عرفتهنّ: دورا وبريجيت وماريّا بنيتث وأماليا وروسا بيريث، جميعهنّ عدا ريتا التي حملت إيريس إلى السرير.

- هل ستتهمُنا؟

- أعدكنّ ألا أفعل. انكفأتُ على قدميّ ويديّ لأمسح قيء ابنة السجين الذي حزّ رقبة زوجته ذات صباح وهي في سريرها واستيقظتْ إيريس وهي تسبح في دم أمها: انظرن إليّ. أنا أنظف قيء إيريس. لكن لماذا تذهبن؟ ألم يرضكنّ خضوعي وانقيادي؟ لا تذهبن هكذا، لا تتركنني، اسمعنني، أنا أستطيعُ أن أساعدكنّ، نعم، نعم أستطيع، أنا أحتفظُ بمفاتيح أبواب البيت إن احتجنّ إليها ذات مرّة، وقد تحتجنها، لا تقلنَ إنكنّ لن تحتجنها، لا تستهنّ بهذه السلطة القليلة التي أضعها تحت تصرفكن... أنتنّ لا تعرفنَ أنكنّ ست عجائز وحسب وتحتجنَ إلى سابعة، سبعة رقم سحري، أمّا ستة فلا، دعنني أكون الساحرة السابعة، لا تذهبن، أريد أن أساعدكنّ وأنا قادر على ذلك...

لم يذهبن. قبلن بمساعدتي فشكرتُ لهنّ ذلك. وكانت بريجيت هي من قال:

- هذا يعرف البيت جيداً. ليبحثْ لنا هو عن غرفة، عن عليّة خفيّة، مكان لا يعلم أحد بوجوده، لتربية الطفل المعجزة الذي سيخرج من بطن إيريس... موديتو، هل فهمتَ، ابحث لنا أينَ... من دون أن يعلم بذلك أحد... ولا يسمع به... ولا يراه.

ولم يقبلن بي إلا بعد أن قلتُ لهنّ إنني وجدتُ المكانَ المطلوب، إنّه قبوٌ، قبلنَ بي وسمحن لي أن أكون الساحرة السابعة.

٣

أبقى الوقفُ الذي أسسه والد الفتاة المتدينة التي حاولت إينيس دعم تطويبها في روما على هذا البيت مرتبطاً بعائلة آثكويتيّا طيلة قرن ونصف. كان في البداية بيتاً متواضعاً للراهبات الديريات بناه الإقطاعي في أملاكه الغنيّة في تشيمبا، إلى الشمال من العاصمة، وأصبح مسكناً لابنته أثناء حياتها على أن يقررَ رئيس الأساقفة بعد مماتها الوظيفة التي تناط بالبيت. مع ذلك، يحتفظ أكبرُ سليل للمؤسس سنّاً، حامل لقب العائلة وناقله، قانوناً وليس فعلاً، بحق بيعه ونقل ملكيته وتقسيمه وهدمه وهبته، إن هو رغب في ذلك. لكنّ أحداً من آل آثكويتيّا لم يستعمل أيّاً من هذه الحقوق، بل جددوا، جيلاً بعد جيل، ولاءَ العائلة للكنيسة، فضلاً عن شعور باللامبالاة تجاه عقار من نهايات القرن الثامن عشر لا نفع فيه ولا ريع. مع ذلك، لم يبيّن أيّ من آل آثكويتيّا، وهو يوصي أو وهو يموت، نقل ملكية هذا البيت، من بين أملاكه الكثيرة، إلى وريثه، ليذكّر بهذه الطريقة بما لم ينسوه قط واقعاً من أنّ هذا الوقف المطمور في الأرشيفات، الذي مثّل الشغل الشاغل لعمّات متعبدات وبنات عمٍّ فقيرات مدقعات، يربط آل آثكويتيّا بالربّ ويصاهرهم به منذ وقت طويل، وأنّهم «يتنازلون» للرب عن البيت مقابل أن يحافظ «هو» على امتيازاتهم. على أيّة حال، لقد أوضحوا ذلك قبل أن يبدؤوا بالشعور بأنّهم يُسألون عمّا لا يملكون له توضيحاً: لا تزعجونا بقضايا

راهبات ونزيلات وقساوسة متطفلين وعوانس مخزيات وأوقاف ليس لها فعل في العالم المعاصر. ليفعل السيد رئيس الأساقفة بالبيت الشهير ما بدا له. من حسن الحظ أننا لسنا في حاجة إلى المال الذي قد يأتينا من بيع العقار. فالمكائد والتوافقات غير الشريفة، وبطولات السياسة وتضحياتها في هذا الوطن الذي نقيمه، تلفّنا وتحفّ بنا، فليس في مقدورنا أن نبعثر جهودنا واهتمامنا على أشياء لا تقود إلى شيء. من هو المونسنيور الذي يقول إنّ ابنة مؤسس الوقف جاءت بمعجزات وتستحقّ التطويب؟ طيب، فليهتمّ هو بذلك إن كان ذلك ما يهمّه: ولئن كان ما يخصّه هو حياة الزهد والروحانيات، فما يخصّنا نحن هو عنف السياسة والماديات. فليكفّ رئيس الأساقفة عن إزعاجنا باستشارات غير ضرورية عن البيت! المونسنيور يعرف تمام المعرفة أنّه يملك ترخيصاً لإضافة ما يشاء من الباحات، وبناء ما يلزمه من أجنحة وعنابر وأدوار إضافية، وتوسيع أروقة ومدّ دهاليز وهدم أسوار إن شاء ذلك، شرط ألا يطلبَ منّا تمويل ذلك من جيوبنا.

نما البناء كثيراً في أوقات مختلفة بحسب الاحتياجات ومن دون تناسق واتّسع من دون انتظام حتى ما عاد أحد يتعرّف عليه، ربّما كانت المسكينة إينيس هي الوحيدة المهتمّة بمعرفة نواة البناء الأولى، موضع الباحات الأصليّة التي حُبست فيها ابنة المؤسس. تجاوزت المدينة النهر نحو الشمال ووصل العمران إلى هذه الضفة. نظّمت شوارعُ بائسة لتحلّ شيئاً فشيئاً محلّ أحواضِ الزرع التي كان محصولها من الطماطم والبطيخ يغطي المدينة، بل لقد تحوّلت شوارع تشيمبا الضيقة مع التقدم إلى جادات تحمل أسماء مطالبين بحقوق العمّال، وحين أحاطت ببيت الرياضات الروحية لعذراء التجسد وتجاوزتها، صار البناءُ جيباً، أخرس وأعمى، في حيّ من الأحياء القريبة من المركز.

حين أسّس الوقف، لم يخطر على بال أحد احتمال أن تظهر مشكلة

غياب وريث من العائلة يرث العقار وتنتقل إليه حقوقه، فأبناء المؤسس الذكور كانوا تسعة، كما يظهر في مستندات ذلك الوقت، التي تكفلتُ بضمّها إلى الإضبارة التي حملتْها إينيس إلى روما، ولا شكّ أنّ هؤلاء الأبناء تزوّجوا وصار لديهم بالطبع أولاد وحفدة وأبناء حفدة. ولمّا كان آل آثكويتيّا على الدوام فرساناً مشاكسين، فقد نظّموا، حين اندلعت حروبُ الاستقلال، عصاباتٍ من الثوّار حوّلت الناحية الواقعة جنوب الماولي إلى منطقة عصيّة على العدو الإسباني. وكللت مآثرهم بالمجد. وصار كلّ مواطنيهم يتحدثون عنهم. لكنّ عددهم تناقص كثيراً.

وبدا وكأنّ لعنة حلّتْ عليهم، إذ لم ينجب آل آثكويتيّا خلال القرن الذي تلا الاستقلال غير البنات. بنات جميلات ثريّات فاضلات حظين بزواج سريع ومناسب، وهكذا صاهروا عن طريق «الشرشف السفليّ» مجتمع تلك الحقبة كلّه، وتحكموا بالسلطة المنبثقة عن لقاء حلقة بالقرب من المستوقد، محركين الخيوط الرفيعة التي توقع بالرجال بسبب تهامسهم وقيلهم وقالهم، بسبب قُبلة ليلية تتحكم بحلم أولادهم، بسبب ابتسامة الوداع التي تحطّم السمعة والتقاليد أو تحافظ عليهما، نسوة محتشمات، صامتات في عالمهنّ بين خياطة وخادمات ومرض وزيارات وصلوات تاسوعيّة، بعيون منكبّة على الحرائر الملوّنة في النول بينما أصوات الذكور الخشنة الفظة تشتعل وهي تجادل في أمور لا نفهمها وليس علينا أن نفهمها لأننا لا نفهم إلا في أشياء لا أهمية لها كالتطريز الذي يزيّن حاشية التقويرة، أو مدى ضرورة تكليف فرانثيا بقفازات من جلد الجدي، أو مدى جودة مواعظ قس سانتو دومنغو. وبينما كانت سلطة العائلة تمتد، متخفية تحت أجيال من نساء متزوجات لكنهنّ عاجزات عن نقل اللقب أو الحفاظ على وحدة العائلة، راح الفرع الذكري من آل آثكويتيّا

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

يضعف: كان كلّ جيل ينجب نساءً كثيرات مقابل رجل واحد، إلا في حالة القسيس دون كلمنته دي آثكويتيّا، عم دون خيرونيمو. كان لقب العائلة مهدداً بالانقراض، ومعه المعاشات والحقوق والممتلكات والسلطة والوظائف من دون عمل والألقاب، التي، إن وزّعت على أقارب يحملون ألقاباً أخرى، فستضعف قوة اسم العائلة الوحيد الضروري في كلّ جيل.

لم تخلّف إينيس. ولم يخلّف خيرونيمو. وسيختفي اسم العائلة بعدهما. هما يدركان ذلك. وستوزع الثروة بين أقارب لا يحظون بتقديرهما ومؤسسات لا تعنيهما، مواريث وصدقات. أمّا رئيس الأساقفة فيأمل أن يتحول هذا البيت إلى مشروع مدينة الطفل الذكي. كان في مقدور خيرونيمو أن يتنازل عن البيت متى أراد، لكنّه لم يتنازل حتّى عن أتفه الأشياء، فكأنه كان يعلّق أملاً مريضاً على رحم زوجته العقيم، لذلك حين وقّع فجأة سلسلة الوثائق للتنازل وهو على قيد الحياة عن الملكية الحقيقية لذلك البيت إلى رئيس الأساقفة، وكانت إينيس حينها في روما، لم يستطع أحد تصديق ذلك. حتى الأم بنيتا لم تصدق ذلك، على الرغم من حماسها لمشروع الطفل. حتّى أنا، على الرغم من خوفي. لكنّ الأب آثوكار طلب منّا أن نبدأ بالتفكير في تهيئة البيت لمزاد على ما يسميه هو «كل هذه القذارات»، تمهيداً لهدمه حال الانتهاء من إخلائه.

عاد لون الطوب المحايد لهذه الجدران المتقرحة من جرّاء تساقط تجصيصها. نادراً ما يشاهد من الخارج انعكاس الضوء في المئات من نوافذه العمياء إمّا بسبب الرمل، أو لأنّني أغلقتها بالألواح وبرشمتها بالمسامير، بل إنّ هناك نوافذ ردمتها ردماً لخطورتها. في أوقات المساء، تضاء الأنوار في الحي الصاخب الذي يحيط بنا، بيوت متواضعة مبنيّة أيضاً من القرميد والطوب لكنّها مطليّة باللون الوردي أو

السماوي أو الليلكي أو الكريمي، صوت الراديو في محلات الحلاقين والخبازين يصمّ الآذان، والتلفزيونات في الحانات التي تغصّ بالزبائن، بينما تحاك وتنسج فيها وفي ورشة تصليح الدراجات البخارية وفي محل بيع وشراء الروايات والمجلات المستعملة وفي مكتب الناصية، حياة هذا الحيّ التي تستبعدنا وتستثنينا.

لم أغلق كلّ النوافذ المطلة على الخارج وحسب، بل أغلقتُ أقساماً خطيرة في داخل البيت، كالدور العلوي، مثلاً، بعد أن اتكأتْ أسونثيون مورالس على الدرابزين وانهار كلّ شيء: الدرابزين وسلطان الجبل وأسونثيون. ما عاد هناك من حاجة للكثير من الأماكن، لذلك وجب تقليصها. ليست الحال الآن كالحال من قبل، حين كان رئيس الأساقفة يسخو على البيت ويختاره للاعتكاف في كلّ سنة، يصحبه رجال دين نابهون وكهنة قانونيون وأمناء سرّ وشمّاسون وشدايقة وأصدقاء وأقارب وحتى وزير ورع متعبد من وزراء الدولة. مجموعات من سادة بارزين، رهبانيات دينية، مدارس آنسات القلب الطاهر، وأبرز مؤسسات البلاد، كانوا يطلبون موعداً مسبقاً بأشهر للحضور إلى البيت والاعتكاف فيه لمناجاة الرب. من منصة الخطابة وفي حجرة الاعتراف، كان قساوسة مفوهون يحثون على التوبة وعلى القربان وعلى كرم الأخلاق وعلى الندم ويلهبون دعوات كان نورها في بعض الأحيان يضيء التاريخ. في بعض الليالي، وحتّى ساعة متأخرة، كان يسمع بكاء ونشيج يصدران من خلف أبواب الغرف المئة التي كانت تشكل نصف قوس يحيط بباحة البرتقال: إنّها أصوات أولئك الذين يفرّغون ليلاً حملَ ذنوبهم في ضرب بالسياط تتقرح له أجسادهم كي تعود أرواحهم إلى طبيعتها الأولى، ليسلّموها في صباح اليوم التالي، بعد تناولٍ صادق حار، إلى نوم رهبانيّ هادئ في ركن مزهر من أركان البستان، أحلام تنتهي عادة بثواب كبير.

لا أحد يفكر اليوم بالطبع في المجيء للقيام برياضات روحيّة في بيت عذراء التجسد. فهناك مدارس غارقة في الضوء، فيها منظومة تدفئة أو تهوية بحسب الفصل والموسم، نوافذها مفتوحة على منظر جبال الثلج الفريدة، مستعدة لاستقبال التوابين. فلماذا المخاطرة بأن تكون بقبقة الماء الصادرة عن الأنابيب التالفة وأصواتُ الجرذان وهي تتقافز في العليّة هي سبب أرقهم وليس تأنيب الضمير؟ حتى وقت قريب اعتادت تلميذات مدرسة من المدارس المغمورة أو أعضاء أيّة جمعية فقيرة الاعتكاف في هذا البيت لمناجاة الربّ والاستماع إلى عظات هادئة مستوحاة من المظالم الاجتماعية المعاشة، وليس من جلال الرب وغضبه ومحبته، كما كان يحدث في أزمنة الخير. لم يعد هذا يحصل الآن.

ولكن ما العمل. يقولون إنه لم يبقّ شيء من أزمنة الخير. مع ذلك، ظلّ هذا البيت كما هو، وظلّت فيه الأشياء التي لا تجدي نفعاً. لم تبقَ فيه الآن إلا ثلاث راهبات، بينما كنّ في الماضي إخوانية كاملة تسهر على راحة التوابين لكي تطير أرواحهم من دون قيود ماديّة إلى أطهر مناطق النشوة والانجذاب. ثلاث راهبات فقط ومعهنّ، طبعاً، العجائز اللواتي يمتنَ وتحلّ محلهنّ عجائز أخريات مطابقات لهنّ يمتنَ أيضاً حين يحين أجلهنّ ليفسحنَ المجال إلى عجائز أخريات يطالبن به لأنهنّ يحتجنه. واليتيمات اللاتي أرسلوهنّ من عام تقريباً للبقاء هنا أسبوعين، أيتها الأم بنيتا، حضرتكِ لديكِ مكان فائض لإيوائهنّ لمدة أسبوعين إلى حين الانتهاء من بناء الجناحِ الجديد في ملجأ الأيتام، حضرتكِ تعرفين أنّ إتمام البناء يتأخر كثيراً لأنّ عمّال هذه الأيام يسكرون ولا ينجزون وعدهم، واليتيمات هنا ضائعات في هذه المتاهة، جائعات، ضجرات، فلا أحد ينظم لهنّ حياتهنّ لأنّ الأب آثوكار يعدُ دائماً أنّه في ظرف أسبوع، أيتها الأم بنيتا، في ظرف أسبوعين، ولا أحد يتذكرهنّ.

أنا عندي المفاتيح وأغلق الأبواب. سيدات أوصى بهنّ رئيس الأساقفة أو إينيس استأجرن منّا غرفاً لحفظ أشيائهنّ. ليست هي أشياء ذات بال لكنّها أشياء لم يتقرر مصيرها أو الخلاص منها بعد، ولا مكان لها في البيوت الصغيرة التي يسكنّ فيها الآن. يظهرن من حين لحين للبحث عن حاجة أو لدفع إيجار متأخر، نعم، تلك النقود نحتاجها، لقد وصلنا إلى هذا الحد، حد تأجير الغرف لدفع الحسابات المستعجلة لأنّ رئيس الأساقفة لا يرسل من المال إلا القليل. أمّا أكثر ما يرسله فهي شاحنات من الفضلات، تماثيل محطمة لقديسين لا يمكن رميها في الزبالة لأنّها من لوازم العبادة ومن الواجب احترامها، أكوام من المجلات والصحف القديمة التي راحت تملأ غرفاً كثيرة بأخبار عاجلة ما عادت عاجلة بعد أن تحوّلت تلك الصحف والمجلات إلى طعمٍ للجرذان، وتكمّل مكتبتي بأنسيكلوبيديات ناقصة ومجموعات مجلّدة من مجلة (الزك زاك) ومجلة (لايف) ومجلّة (لاسفيرا) الأدبية التي ما عاد أحدٌ يقرؤها، الأدبية الفرنسية الرومانسية (جيب)، (كونجا إسبينا)، (أويوس إي بيننت)، (كاريرا)، (بيّاسبيسا)، شاحنات من الحاجات التي لا ترابط بينها، ساعات لا تعمل، أكياس للتغليف، لا أحد يدري لتغليف ماذا، قطع من السجاد المهترئ، كراسي بلا تنجيد، أيّ شيء، تملأ الغرفة بعد الغرفة ولا تملؤها.

لم يطأ خيرونيمو في حياته أرض هذا البيت. أمّا إينيس فقد كانت تزوره قبل أن ترحل إلى روما مرتين وأحياناً ثلاث مرّات في الأسبوع، للبحث في الحقائب وبين سقط المتاع المخزون في أربع غرف كبيرة تمتلكتها بوصفها صاحبة ذلك البيت. كانت سُلطة الجرس، وهي تحشر إصبعها فيه ولا تخرجه إلا بعد أن تخفّ المسكينة ريتا بقدميها المريضتين بسبب عظم إبهامها الناتئ لتفتح لها، تدل على علوّ مقامها. كانت تذهب أحياناً برفقة السيدة راكيل رويث، التي تستمع إليها بصبر

من دون أن تحاول إسكاتها وهي تبحث في جراراتها المليئة وتخرج أوراقاً وصوراً وخرائط وبقايا ربّما تنفعها، تطلبُ منّي أن أنزلَ لها السلة المدورة من فوق الخزانة، وأن أحّركَ سجادة الممر الملفوفة للوصول إلى علبة قبعة جلدية حيث يمكن أن يوجد غلاف أو ظرف أو وثيقة مهمة أو صورة ما محفوظة منذ آلاف السنين، وكنتُ أنزلُ السلة وأناولها علبة القبعة مع علمي بأنّ الوثيقة غير موجودة هناك، لأني أعرفُ أكثرّ منهنّ ماذا يحتوي كلّ جرار وكل سلّة وكل حقيبة وكل صندوق وكل خزانة من جرارات وسلال وحقائب وصناديق وخزانات غرفهنّ... مع ذلك سافرتْ إينيس إلى روما أنيقة جدّاً ومعتدلة في زينتها، بعد أن جمعتْ ما استطاعتْ من الأوراق التي وضعتُها أنا بنفسي في كيس عادي من البلاستيك لتقدمها إلى الكرادلة أصحاب الرداء الوردي، الذين حرّكوا رؤوسهم بهيبة ووقار ملمّحين إلى أنّ كلّ ما جاءت به غير مفيد، وإلى أنّ من الخير لها أن تظلّ في موطنها وأن تتصدق بما يناسب مكانتها. أحمد

قديم هو إهمال آل آثكويتيّا لهذا البيت. فكأنّ خوفاً منه يسكنهم لا يريدون الإقرار بوجوده حتى في قرارة أنفسهم ويفضلون تجاهله تجاهلاً تاماً إلا في ما يخصّ حقوقهم في الملكية. أنا أعلمُ فقط أنّهم استعملوا حقوقهم حين بعثوا بدون كلمنته ليحتضر هنا. في تلك المناسبة أيضاً قالوا بأنّ هناك مكاناً فائضاً في البيت، وأضافوا أنّ الراهب العجوز هو في نهاية الأمر واحد من آل آثكويتيّا وله الحق في أن يقيم في العقار.

كان رجلاً عجوزاً هادئاً وحزيناً حين أتوا به. وكانت الأم بنيتا تطعمه ملعقة ملعقة وكأنّه طفل صغير، وكنّا أنا وهي نخلع عنه ثيابه حين يحلّ وقت نومه. أنا كنتُ أساعده في قضاء حاجته، فهو لم يكن ينبهنا إلى ذلك وكان علينا أن نكون متيقظين كي لا نضطر إلى تغيير

ملابسه مرات عديدة في اليوم. كان دون كليمنته يبتسم بحزن من دون أن يتفوّه بشيء وهو جالس على كرسي بالقرب من النافذة، متكئاً على عصاه، حتّى بدأتْ بسمته تختفي وكأنّ ستارة تُسدلُ عليها، ولم يبقَ منها غير حزن مقيم محفور في تقاسيم وجهه الآثكويتيّة. ثمّ بدأنا نلاحظ أنّ الحزن في عينيه الزرقاوين راح يغرق بالدموع التي سالتْ ذات يوم على خدّيه وكأنّ عينيه ما عادتا قادرتين على احتوائها. كان يمضي أسابيع كاملة جالساً على كرسيه المخملي ذي المساند ينظر إلى أشجار البرتقال في الباحة، هادئاً، لا يطلب طعاماً ولا نظافة، ودموعه تنهمل على وجهه وتبلل قفطانه كما يبلل لعاب الطفل صدريته. إلى أن بدأ بالأنين، برقّة في البداية، كالحيوان، وكأنّ شيئاً يؤلمه، لا أكثر، كالكلب الذي يداعبه أحدهم إذ يراه يئن ليسأله ما بك أيّها العجوز، ما بكَ، وإن كان يعلم أنّ المسكين لا يستطيع الردّ وأنّه يئن من شيء لا يعرف كنهه، ثمّ يضيق ذلك الواحد ذرعاً لأنّه لا يفهم ويتمنّى أن يفهم لفعل شيء لتخفيف الألم وإسكات ذلك الأنين الذي يورثه الجنون. بعد وقت تحول أنين دون كليمنته إلى تأوّه، ما عاد يجلس هادئا كالأوّل على كرسية المخملي ذي المساند ينظر إلى أشجار البرتقال في الباحة، بل بدأ يهتاج في غرفته، وصار يضرب الباب وزجاج النافذة، حتّى استحالت تأوهاته عواءً وحطّم الزجاج وكاد أن يهدّ الباب ضرباً فاضطررنا إلى غلقه بالمفتاح لئلا يخرج إلى الممرات، وما أصعب أن نعيده إلى غرفته، لأنّه كان يرفس ويصرخ بالصوت القليل الذي بدا أنّه امتلكه، مقاطع هي مزيج من الخوف والليل والسجن والظلمة والخداع، تلك الأشياء، أو القطع من تلك الأشياء التي كان يصرخ حين كنّا نتركه لينام في الليل ويمسك بثيابنا لكي لا نذهب، يستعيد جلسته، يريد أن يتبعنا، ما كان يدعنا نلبسه قميص النوم، يتشاجر معنا لكي لا نخلع عنه ملابسه ولكي لا ندثره، لكنّه ما كان يريد أيضاً أن يلبس شيئاً،

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

شقّ قفاطينه، وكانت العجائز يصلحنها فيعود هو إلى شقّها ولا يدعنا نلبسه إيّاها. كان يمشي في غرفته شبه عار، ثمّ عارياً تماماً حين نغلق عليه الباب بالمفتاح، وعارياً كان يطلّ من شبّاكه طالباً النجدة، طالباً أن يأتي أحد لمرافقته، لإنقاذه من هذا المستشفى المروّع وما يلقاه فيه من سوء معاملة. لم تكن الأم بنيتا ولا العجائز يدخلن إلى حجرة دون كليمنته وهو عاري الجسد، فقط أنا، وكان يطردني، يا فاسق يا قذر، اخرجْ من هنا، لا تلمسني، إن لمستني فسأقتلك بعصاي هذه، ويعود ليطلّ من زجاج شباكه المكسور عارياً. لم تكن العجائز والراهبات الصغيرات يجرؤنَ على المرورِ بباحة أشجار البرتقال. قررنا غلق دفات شباك حجرته. لكنّه تمكن من كسرها. حتّى تمكنتُ أنا ذات ليلة، وهو نائم، من سدّ الشبّاك بالطابوق والإسمنت، وكانت المرة الأولى التي أسدّ فيها شباكاً من شبابيك البيت. ثمّ عمدتُ إلى صبغه من الخارج بلون الجدار فما عاد أحد يلاحظ مكانه.

وأطاحَ دون كليمنته ذات مساء بباب حجرته. خرج هائماً في الممرات، عارياً، متكئاً على عصاه، ودخل كما خلقه الله على النزيلات في مقصورة الكهنة وهنّ يؤدين صلوات التسبيح، وحطّم بعصاه كلّ ما اعترض طريقه، بينما راحت العجائز يتأوهن ويصرخن ويهربن مصدومات من ظهور دون كليمنته عارياً منتهكاً حرمة المصلّى وحرمة عيونهنّ التي طهّرتها الشيخوخة والفقر والمعاناة. وسقط العجوز واصطدم رأسه وهو يسدد ضربة بعصاه. هرعتُ لستر جسمه بعباءة القساوسة. حملتُه إلى حجرته، حيث مات بعد يومين وهو يبكي من الحزن، غير قادر على الكلام.

ما زالت هناك عجائز يفتخرنَ بأنّهنّ عشنّ وقتاً طويلاً في البيت، حتّى إنّهنّ يتذكرنَ ذلك المساء الرهيب حين اندفع دون كليمنته دي آثكويتيّا إلى المصلى عارياً. أنا لا أصدقُ ما يقلن. ربّما يقلن ذلك لأنّهن يعلمنَ أنّ

من السهل الخلط بين عجوز وأخرى. على أيّة حال، صار القول بأنّ دون كليمنته يظهر لهنّ مجرداً تماماً من ملابسه ويطاردهنّ، وبأنّهن ما عدن يقوين وهنّ العجائز المسنّات على الجري، أحد أهمّ أسباب الخوف لديهنّ، وصار ذلك هو ما يمنعهنّ من السير وحيدات في الممرات حين يحلّ المساء. يحكين أنّه يرتدي قبعة أحياناً ويضعُ حمّالات الجوارب. أو الجوارب والحذاء. أو قميصاً داخلياً لا يبلغ منطقة سُرّته. لا يرتدي شيئاً آخر. وحين يُشاع أنّ دون كليمنته قد ظهر، تهزّ البيت رعشة من الحميّة الدينية، فتعتكف العجائز في بيوتهنّ الصغيرة للصلاة والتسبيح المرة تلو المرّة، السلام الملائكي والصلاة الربيّة وصلاة السلام عليك أيّتها الملكة، لقد سمعتُ همس العجائز المجنونات غير العقلانيات، المتكررات، وهن يصلين المرة تلو المرة ويسبّحن لأنهنّ يؤكدن أنّهنّ بصلواتهنّ وتسبيحهنّ قادرات على إكساء روحِ المسكين دون كليمنته، بعد أن حكم عليه الربّ بالطواف في البيت عارياً جزاءً له على أنّه صدمهنّ بعرض عورته ولأنّ الربّ لا يغفر للراهب إلا إذا أدّت عجائز كثيرات صلواتٍ كثيرةً وتسابيحَ أكثر قبل أن يسمح هو، في جلالة رحمته، بردّ ملابسهِ عليه شيئاً فشيئاً ليستطيع هكذا من الدخول إلى ملكوت السماء مستوراً. أمّا هو فعليه، في تلك الأثناء، أن يواصل الطواف في البيت ليذكّر العجائز بالصلاة من أجله ليعيد الربّ إليه حذاءه وقفطانه وسرواله الداخلي، نعم، سرواله الداخلي هو ما يستعجل أمره الآن. يقولون إنّ دون كليمنته، ومن وقت طويل، يظهر، على الأقل، بجوارب أو قميص. ومن المنطقي أن يكون سرواله الداخلي هو ما سيهبه الربّ إيّاه. ليكن السروالُ طويلاً، تطلبُ العجائز في صلواتهن. ومن الصوف والقطن بسبب البرد. يلفّ صوت المسبحات عند الغروب البيت بأزيز حشرات عاملات مشغولات بنسج قماش ذلك السروال، بينما يهاجم دون كليمنته إحدى العجائز في الظلمة عارياً فتحسبُه يبيّتُ أمراً آخر.

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

٤

لم ترَ ريتا قطّ دماً في سروال إيريس. كانت هي من تغسل لها سروالها. فالصبية المسكينة يتيمة الأم. ومع البرد كان الشرثُ يورّم يديها. ولكن ما من دم.

دخلت إليها الحجرة لاستجوابها.

- ألم يخرج منك دمٌ قط؟ عجباً.

- أنتنّ تظننّ أنّني فتاة صغيرة، أنا امرأة، وتأتيني الدورة كلّ شهر ويخرج مني دم كثير، أنا اليتيمة الوحيدة التي تأتيها الدورة، أمّا الأخريات فهنّ فتيات صغيرات فعلاً ولذلك أضجرُ وأنا معهنّ... وأنا حين يخرج مني دم أغسل سروالي بنفسي كي لا أزعجك لأنّك لطيفة معي يا سيدة ريتا.

لم تصدّق ريتا كلمة واحدة من كلمات إيريس. فقد كانت تعرفها جيداً جدّاً: إيريس لم تكن نظيفة، ولا تحترم الآخرين. حاولتْ أن تلمّح لها بالذي يحدث بين الرجل والمرأة. ولكن كيف السبيل إلى ذلك إذا كانت هي نفسُها عذراء؟ لم تكن متأكدة من أيّ شيء. ما كانت تدري بماذا تفكر. ما كان لأحد من الرجال أن يدخل إلى البيت. لم تطلّ إيريس من النافذة على الشارع منذ أن جاؤوا بها. لكنّ الفتاة المسكينة كانت تعرف القليل القليل عمّا بين الرجل والمرأة، كانت تتثاءب ضجرة أثناء الحديث، ولا تركّز في الموضوع الذي كانت ريتا تحتاط

وهي تسألها عنه كي لا تفتح عينيها لأنّها فتاة بريئة، ما كانت تسمعها إلا بالكاد وهي تمصّ إبهامها، كفى، كفّي عن حشر إصبعك في أنفك ولا تأكلي مخاطك، أيتها الصبية القذرة، تلفّ شعرها بأصبعها بينما تعمل ريتا تحوّطاً وحذراً وهي تطرح عليها أسئلتها... نعم، كانت بريئة. لكنّ ريتا لم تستطع أن تصدّق أنّ البنت كانت تغسل سروالها بنفسها حين تأتيها الدورة. كانت تراقبها: طبعاً، لا شيء هذا الشهر، ولا اللاحق، تكذب إذ تقول إنّها تغسل سروالها. والأدهى أنّها راحتْ تسمن وتسمن، وعادتْ أشد فتوراً في الهمّة وأكثر ميلاً إلى النوم.

ذهبت ريتا إلى بريجيت تحمل همّ سرّها. هي التي تعرف كلّ شيء، لا بدّ أن تعرف أيضاً كيف تتم هذه الأمور: أنجبتْ طفلتين، صحيح أنهما ولدتا ميتتين، من يدري لماذا، هكذا شاء الربّ. وبعد قليل ماتَ زوجُها. استمعتْ بريجيت وهي على فراشها إلى ريتا باهتمام كبير وبعد نصف دقيقة من التفكّر قالتْ إنّها، طبعاً، معجزة. فعندما يولد طفل من دون أن يدنّس رجلٌ امرأة فهذه معجزة... لقد هبط ملاكٌ من السماء وتمّ كلّ شيء. معجزة. بالطبع فإنّ أوّل ما يجب فعله هو فحص إيريس للتأكّد من حملها. ماريّا بنيتث «طبيبة». ولكن كيفَ سنقصّ عليها المعجزة، بريجيت. سيعرف كلّ من في البيت بالخبر قبل ساعة الصلاة وسيسرقون منا إيريس والطفل أو يأخذونها لمعاقبتها لأنّ الناس الآن ملحدون ولا يؤمنون بالمعجزات، يقولون إنّ هناك ناساً لا يؤمنون حتى بالعذراء. لكنّ بريجيت أصرّت على دعوة الطبيبة لتفحصها بعناية من دون أن تحشر فيها شيئاً لأنّ إيريس عذراء، لكي لا تتنبّه الصبيّة إلى ما يحدث. قالت ماريّا بنيتث: نعم، إنّها تنتظر طفلاً، ففتيات اليوم يحبلن من شمّ البنطلون، وليس هذا القول بقولي أنا.

ولكي تغلق فمها ولا تتفوه بالمزيد من التفاهات المدنسة للمقدسات، فقد أخبروها بأنّ ما حدث معجزة. فطاش فكرها. ليس

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

لأحد أن يعلم بالأمر. العجائز كلّهنّ حسودات وسيحاولن خطف الطفل، أمّا هكذا فسيربينه ثلاثتهنّ سراً، وتناول ثلاثتهنّ الشاي في حجرة بريجيت، ولمّا كانت أماليا هي من قدمت لهنّ الشاي فقد قصصنَ عليها موضوع المعجزة: نحن أربع، لا، خمس، قالت ريتا، فقد صرّحت بشكوكها لدورا، لأنّ دورا تعرف الكتابة وهي التي تحلّ محلها في غرفة البوابة وتسجّل الرسائل الهاتفية للأب آثوكار ولأقارب النزيلات ومخدوميهنّ. فهنّ إذن خمس. وحين رأين أنّ روسا بيريث بدأت تتقرّب منهنّ مدفوعة بالفضول لمعرفة ما يفعلن أثناء جلوسهنّ الدائم مع إيريس، رأت بريجيت، وهي ذات فكر سديد، أنّ من الأفضل أن يحكين لتلك النمّامة موضوع المعجزة، حماية وتحصناً، لأنّها إن واصلت حشر أنفها فستكتشف الأمر وحينها، يا إلهي، ستقلب عاليها واطئها، فهي قادرة على الاتصال برئيس الأساقفة والوشاية بهنّ: نعم، من الأفضل أن نحكي لها كلّ شيء. وهكذا ستحفظ السرّ بغيرة أكبر وحميّة أشدّ. كان ضرورياً ألا يتمتع أحد سواهنّ الست بامتياز العلم بأنّ إيريس تنتظر طفلاً. حينها بدأت بريجيت بالحديث إليهنّ:

- أماليا، قدّمي البسكوت الذي في تلك العلبة. الأم بنيتا مشوشة البال مما يقال عن أنّهم سيهدون البيت ويبنون مدينة الطفل وعن أنّهم سيعينونها قيّمة على أملاك الكنيسة، يقولون إنّ الأب آثوكار وعدها بذلك. إنّها لا تولي اهتمامها لأيّ شيء، ولا حتّى للفتيات، بعد أن حاولتْ في البداية تنظيم دروس لهنّ وغير ذلك، وأنتنّ ترين بأيّ لباس تأتي بهنّ. حين تظهر علامات الحمل على إيريس سأهدي لها معطفاً قهوائياً أحتفظ به. سيكون كبيراً عليها. وإن سألتني الأم بنيتا، فسأردّ عليها ألا ترين، أمّاه، إنّ هذا الملاك المسكين يرتجف من البرد، لذلك أهديتُها هذا المعطف الواسع لكنّني سأرتّبه ليكون مناسباً لقياسها حين يسمح لي الوقت. بعد ذلك، ومن دون أن يعلم أحد غيرنا نحن الست،

سيولد الطفل. يلزمنا العثور على حجرة في آخر البيت لإخفائه فيها، ولنحرص على ألا يعرف أحد بأنّ الطفل قد ولد، وهكذا سينمو جميلاً وقديساً، ولن يخرج طيلة حياته من تلك الحجرة التي سنحميه فيها من شرور العالم. وسنعتني بالطفل عناية فائقة. كم هو جميل الاعتناء بطفل... لفّه بالشالات كي لا يبرد... إطعامه... غسله... تقميطه وتحفيظه... إلباسه. وحين يبدأ بالنمو فإنّ أهمّ شيء هو ألا نعلّمه عمل شيء بنفسه، لا الكلام، ولا المشي، وهكذا يظلّ يحتاجنا في عمل أيّ شيء. ليته لا يرى ولا يسمع. سنكون نحن أمهاته الطيبات اللاتي سنفهم أيّة إشارة لا يفهمها غيرنا وسيعتمد في كلّ شيء على ما نفعله نحن له. هذه هي الطريقة الوحيدة لتنشئة الطفل ليكون قديساً، ألا يخرج من حجرته، حتى بعد أن يكبر ويصبح رجلاً، بل ألا يعرف أحدٌ بأنّه موجود، أن نعتني به دائماً، بأن نكون يديه ورجليه. طبعاً نحن سنموت. لكن لا يهمّ. فلن تعوز عجائز. ولن يعوز بيتٌ، على الرغم مما يقولون، قالت لي السيدة راكيل إنّ موضوع الهدم مجرد حركات من الأب آثوكار للحصول على المال من آل آثكويتيّا، ومن زوج السيدة إينيسِ الطيبة. حين تموت إحدانا يجب اختيار أخرى وهكذا ينتقل الطفلُ من عجوز إلى عجوز، من يد ليد، إلى أن يحققَ هو مشيئته ويقررَ في يوم من الأيام أنّ عدد من مات يكفي ويأخذنا جميعنا إلى الجنّة.

الأمبونج. كلّ شيء مخيّط: العينان والفم والشرج والفرج والمنخران والأذنان واليدان والقدمان. من أعماق أصلها القروي في إقليم آخر وفي قرن آخر، عندما هددتْ جدّة نصف هندية الطفلة المرعوبة، التي هي بريجيت، بتحويلها إلى أمبونج إن هي لم تتصرف بأدب، ظلّت الرغبة في أن تكون كذلك أو في أن تفعل ذلك الفعلِ مدفونة في تفكيرها، وها هي تظهر الآن وقد استحالت تفسيراً

ومستقبلاً لابن إيريس. كلّ شيء مخيّط. سدّت جميع فتحات الجسم، الذراعان واليدان مضغوطتان بسترة الجهل بطريقة استخدامها، نعم، هنّ سيزرعن أنفسهنّ في مكان أعضاء الطفل الذي سيولد وفي مكان أجهزته وقدراته: ينزعنَ عيونه وصوته ويسرقنَ يديه ويجددنَ هكذا شباب أعضائهنّ المتعبة، ليعشن حياة أخرى مضافة إلى التي عشنها، يستأصلن منه كلّ شيء ويجدّدن عن طريق السرقة أنفسهنّ. سيفعلن ذلك. أنا متأكد. فسلطة العجائز كبيرة. ليس صحيحاً أنهم يبعثون بهنّ إلى هذا البيت لقضاء أيامهنّ الأخيرة بسلام، كما يقولون. هذا سجن، مليء بالزنزانات، قضبان في النوافذ، وفيه سجّان لا يرحم يمتلك المفاتيح. مخدوموهنّ يرسلونهنّ للحبس حين يدركون أنّهم مدينون كثيراً لهنّ ويشعرون بالرعب لأنّ في مقدور هؤلاء البائسات أن يكشفن في يوم من الأيام عن سلطتهنّ ويدمرنهم. الخدم يكدسون امتيازات البؤس. الشفقة والخداع والصدقات والمساعدات البسيطة والإهانات التي يتحملونها تجعلهم أقوياء. هنّ يحتفظن بأدوات الانتقام لأنهنّ جمعن في أيديهنّ الخشنة المليئة بالثآليل ذلك النصف الآخر من مخدوميهم، النصف غير النافع، النصف المستبعد، ما هو قذر فيهم وقبيح، ما راحوا، مطمئنين وعاطفيين، يقدمونه لهنّ مع إهانة كلّ تنورة مستهلكة يهدونهنّ إياها، وكلّ قميص أحرقته المكواة يسمحون لهنّ بأخذه. وكيف لا يستحوذنَ على مخدوميهنّ وقد غسلن ملابسهم ومرّت من بين أيديهنّ كلّ الفوضى والقذارة التي أرادوا محوها من حياتهم؟ هنّ كنسنّ من غرف طعامهم بقايا الخبز الساقطة وغسلن الصحون والصحاف وأطقم الطعام من سكاكين وملاعق وشوكات، وأكلن ما فضل من الطعام. نظفنَ غبار صالوناتهم، نسالة خياطتهم، أوراق مكاتبهم ودوائرهم المكرمشة. أعدنَ ترتيب الأسرّة التي تضاجعوا فوقها شرعاً أم سفاحاً، بمتعة أم

بخيبة، من دون أن يشعرن بالقرف من تلك الروائح والبقع الغريبة. خطنَ شقوق ملابسهم، ونظفن أنوفهم حين كانوا أطفالاً، وحملنهم إلى أسرتهم حين كانوا يعودون سكارى ونظفن قيئهم وبولهم، ورفأن جواربهم ولمّعن أحذيتهم وقلّمن أظافرهم ومسامير أقدامهم، ودعكن ظهورهم في الحمّام، وسرّحن شعورهم، ووضعن لهم الحقن الشرجية وأعطينهم المسهلات والمغليات المضادة للإرهاق أو المغص أو الحزن. كانت العجائز، وهنّ يقمنَ بهذه الأعمال، يسرقن جزءاً متمماً من شخصيات سادتهن حين يضعن أنفسهنّ مكانهم لعمل شيء يرفض هؤلاء أن يؤدوه... ونما جشعهنّ حين رحنَ يستحوذنَ على المزيد من الأشياء، ويرغبن في المزيد من المهانة والمزيد من الجوارب القديمة الموهوبة لهنّ، يردن أن يمتلكن كلّ شيء. لذلك دبّرتْ بريجيت هذه المؤامرة، لتسرق من الطفل الذي تحمله إيريس في بطنها عينيه ويديه ورجليه، يُردن إيداعه كلّه في رصيد سلطة مشترك سيستعملنها في يوم من الأيام، وإن لم يكن أحد يدري متى ولا لأجل ماذا سيستعملنها. أشعرُ أحياناً أنّ العجائز لا ينمن في الأوقات التي يجب أن يكنّ فيها نائمات، بل تراهنّ منشغلات وهن يُخرجنَ من دروجهنّ ومن تحت أسرتهنّ وعلبهنّ الصغيرة الأظافرَ والمخاط والخيوط المنسولة والقيء والأقمشة والقطن الملطخ بدم الدورات الشهرية لمخدوماتهنّ، الذي رحن يجمعنه، وينشغلن في الظلمة ليعملن من تلك التفاهات شيئاً شبيهاً بصورة سالبة لا تعود وحسب للمخدومين الذين سرقن منهم التفاهات، بل لكلّ العالم: أشعرُ بنقطة ضعف العجائز، ببؤسهنّ، بخذلانهنّ، يتكدسن ويتجمعن في هذه الممرات والغرف الفارغة، لأنّهنّ يأتين إلى هنا، إلى هذا البيت، ليودعْنَ طلاسمهنّ، ويجمعن نقاط ضعفهنّ ليكوّنّ شيئاً أرى أنّه الوجه الآخر للسلطة: لن يأتيَ أحد إلى هنا لأخذه منهنّ. ولأنّ خيرونيمو دي آثكويتيّا مسكون برعب

دائم، وإن لم يقرّ به كبرياؤه الذي لا يتقبّل فكرة الخوف من شيء، نعم، رعب من الأشياء القبيحة والدنيئة، لم يتجرأ في حياته قط على المجيء إلى هنا، على الرغم من أنّ البيت كان من أملاكه حتّى تنازله عنه. ما كان عليه أن يفعل ذلك. كان خطأ. يجب الحفاظ على الأشياء، فدائماً هناك أمل. لا بدّ من ترتيب هذا الأمر بطريقة ما لأنّ نسبكَ سيدوم، وإن لم تكن حضرتكَ تعرف ذلك، وولدكَ يجب أن يظلّ مالكاً لهذا البيت: نحن العجائز، ونحن الآن سبع، بعد أن نزعنَ عنّي سكسي وتقبلنني ضمن عددهنّ، نرعى ولدكَ ونعتني به وهو في بطن إيريس، أنا سأعيده إلى دون خيرونيمو لكي يرث هذا البيت على الرغم من الأوراق الموقعة، لكي لا يهدوه أبداً ولكي أستطيع أنا أن أظلّ لاجئاً فيه حيث لن يأتي دون خيرونيمو أبداً للبحث عنّي لأنّه يخاف مسامير القدمين التي قصتها العجائز واحتفظن بها، ويخاف الشعر الذي سدّ مجرى المغسلة والذي يحتفظن به ملفوفاً في خرق وأوراق. نعم، دون خيرونيمو، لا تستهن بهنّ، هنّ لسنَ غبيات كما يبدون، أو إنّ غباءهنّ يمثّل نوعاً من الحكمة. لذلك فهنّ يحتفظنَ بتلك التعويذات، لإيقاف حضرتكَ عند حدّكَ. فلا تأتِ إلى هنا! أنا كنتُ خادمك المخلص، دون خيرونيمو. ولن أستطيع إلا أن أكون كذلك وإن تمنيتُ العكس. حضرتكَ وسمتني بأذني كما يوسم الخروف. وأنا أواصل خدمتك!

وعند خدمة أسماك الدرافيل هذه، عندما تكون خادماً لخادمات، عندما أعرّض نفسي لاستخفافهن وأطيع أوامرهنّ، أصبح أقوى منهنّ لأنّي أجمع فضلات الفضلات، ومذلّة الأذلاء، واستخفاف المضحكين. أنا العجوز السابعة. سأتكفّل بالسهر على سليل آثكويتيا الذي سيولد. قيء إيريس الذي مسحتُه عن بلاطات المطبخ مرّخ جسدي. وأنا أحتفظ به في ليفة التنظيف، بين كتبي ومخطوطاتي، تحت سريري، حيث تحتفظ كلّ العجائز بأشيائهنّ.

كان أوّل ما وجب عليّ فعله هو كسبهنّ. فإن لم أفاجئهنّ بشكل من الأشكال فسأظلّ مقبولاً لديهنّ اسمياً وحسب، على الرغم من أنني خضعتُ كما خضعتُ. انتظرتُ أيّاماً وأنا أعدّ العدّة لكلّ شيء، تاركاً لهنّ المجال ليكلمنني قليلاً ويتطلعن إليّ بشيء من عدم الثقة. إلى أن أبلغتهنّ ذات مساء أنني عثرتُ على المكان المثالي الذي يمكن لإيريس أن تضع فيه حمل بطنها من دون أن يعرف بذلك أحد، وحيث نستطيع سبعتنا تنشئة الطفل إلى الأبد من دون أن يزعجنا أحد.

حملتهنّ إلى باحة في نهاية البيت حيث أسكن، وهي أيضاً مقبرة القديسين. تقاطرت العجائز وهنّ يجتزن المصلّى، اجتزنا باحة أشجار البرتقال واختفينا في منعطفات الجانب الخلفي من البيت، في متاهة الباحات والممرات الثانوية تلك التي ما كان أحد عداي يعرفها، إلى أن وصلنا إلى باحتي.

حين فتحتُ البابَ لهنّ وسمعتُ صيحات الدهشة التي صدرت منهنّ أدركتُ أنّني بذلك فقط، بفتح باب مقبرة القديسين المحطمين لهنّ، كسبتُ ودّهنّ. تقدّمنَ يصرخنَ مسروراتٍ بين تماثيل للقديس فرانسيس من دون رأسه، وأخرى للقديس جبريل من دون إصبعه المرفوعة، وأخرى للقديس أنطونيو دي بادوا مبتورة الساقين أو مقطوعة اليدين. تماثيل لعذراء الكارمن وعذراء المعونة الدائمة، وعذراء لوردس، وقد زالت الألوان عن ملابسهنّ وطُمستْ علاماتهن، وتماثيل الطفل يسوع براغ من دون تاج على رأسه ولا كرة في يده، أناقة فروته المصطنعة وزيف جواهره المعمولة من الجبصين المصبوغ وهي تتلاشى من مطر وشمس، قديسون تحللت قسمات وجوههم، مسخ يحتضن العالم تحت قدمين قالت بريجيت إنّها ستحتفظ بهما لأنّهما قدما عذراء الحبل من دون دنس، احتفظْ بهما هناك، موديتو، فربّما نعثر على البقية ونصلحهما، ملائكة بلا أجنحة، قديسون بلا

هوية، مقطعون، بلا أطراف، من جميع الأحجام، قطع انكمش حجمها من أثر السنين وعوامل الطقس، وراح الحمام يذرق عليها والجرذان تقرضها والطيور تنقرها في عيونها وسررها، نعم، طبعاً، لا يمكنهم أن يرموا في الزبالة قطعاً لأشياء كانت للعبادة، يجب احترامها، لا يمكن أن تختلط في المزبلة مع فضلات الطعام والنظافة، يجب حملها إلى بيت الرياضات الروحية لعذراء التجسد في تشيمبا، فهناك متّسعٌ لكلّ شيء. طلبت الأم بنيتا منّي أن أجلب عربتي، حملتُ القطع وسحبتها إلى باحتي لكي تقضي السنوات والمطر عليها، بينما تحلّ محلها في المذابح صور مطابقة تقريباً يكلّف بها الصانع، وقد تظهر هذه النسخة من برناديتا درجة أدنى من الحول في عينيها، وقد يكون شعر الطفل يسوع بدرجة أخرى من اللون الأصفر، وقد تبدو وقفة القديس سباستيان أقلّ غموضاً. الأم بنيتا لا تعرف باحتي. لقد حظرتُ على أيّ شخصٍ المجيء إلى هنا. إنّها باحة الموديتو. فهو من اختارها. وهو من يعرف لماذا توافقه. ليكن هذا على الأقل له ليفعل فيه ما يشاء، هذه القطعة الصغيرة من الحياة الخاصة، يجب احترام خصوصية هذا الرجل المسكين الذي يضحّي بحياته من سنين طويلة هنا في البيت من أجلنا نحن.

توزعت العجائز في الباحة وهنّ يهتفن، يجلسن القرفصاء ثمّ يعاودن النهوض، يلوحن بقطع من الجبصين، بأيد، ببقايا تماثيل، بتيجان، مطوية، ينقرن، ينبشن قداسات غامضة هنّ وحدهنّ قادرات على التعرّف عليها، القديسة آغاتا والقديس كريستوبال والقديس رامون نوناتو لا، دورا، هذا القفطان هو للقديس فرانسيس وليس للقديس دومنغو السالسي، فأنت لا ترين القلنسوة القهوائية، سأقول له إنّ تماثيل سان سباستيان قليلة، اسمعي أماليا، ابحثي لي عن القطعة الأخرى من عذراء الحبل من دون دنس، سيكون الأمر صعباً، وإن كان

هنا رأس مع نجوم قد تكون له صلة، لا أعلم، القديس جبريل سأبحث له عن إصبعه الواقفة لتكملته وسأحصل على أيّة عذراء، من سينتبه إلى ذلك، وسأركّب عيد بشارة فوق منضدتي.

- يوم ٢٥ مارس هو يوم عذراء التجسّد...

- من المؤسف أننا هنا في البيت لا نحتفل به.

- لكنّنا سنحتفل بولادة «الطفل»، بعد تسعة أشهر من ظهور القديس جبريل كبير الملائكة...

- لكنّ التجسد ليس هو على قدر عيد البشارة نفسه...

- لا أدري، لنسأل الأم بنيتا.

- لنرَ إن كنتُ سأجد إصبع كبير الملائكة.

كان عليّ أن أضربهنّ على أيديهنّ كما في استراحة المدرسة لتنبيههنّ وإعادتهنّ إلى واقع ما جئنا من أجله، من هنا، أخشى أن يتعثرن، هنا أسكن أنا، هذه هي حجرتي وهذا هو سريري، لا شيء هنا غير هذا الباب الزائف الذي يؤدي إلى قبو، القبو الذي حضّرته لهنّ، أنا سأكون هنا دائماً، أحرس المدخل. لم أشغل نفسي في صقل أرضيّة الألواح الجافة وتلميعها بالشمع وتغليف الجدران بورق الجرائد القديمة وحسب، فأنا أعرف جيداً الحاجات التي تحتفظ بها كل سيدة في كل حقيبة وفي كلّ جرار من كلٍ واحدة من الغرف، وأين هي غرف السيدات اللاتي لا يشاركن مطلقاً في أعمال البيت، لذلك عمدتُ إلى سرقة عدد من الخزنات المغلقة منذ سنوات، سحبتُ سجاداتٍ ولوحات، أسرّة مع فرشها ومرتبتها، مصباحٍ منضدة، سرير برونزي مع مقابض للزينة ومظلّة، جميعها تالفة نوعاً ما لكن، المهم، ما باليد حيلة، في عتمة القبو كان كلّ شيء يبرق أمام عيون العجائز.

تمنّيتُ لو أنّني جلبتُ ملابس بوي التي تحتفظ بها إينيس في

صندوق خاص في غرفتها الثانية، التي تزورها أكثر. لم أتجرأ لأنّ إينيس تعرف تماماً أشياءها وأين وضعتها. إنّها مهووسة، نظيفة، مدققة. منذ سنوات لم نفتح الصندوق الذي يحتوي على جهاز بوي كامل، ذلك العالم الأسود المبرشم بمسامير من البرونز والمليء بالعجائب المخصصة إلى سليل أسرة آنكويتيّا الذي لم يشأ رحمها العنيد أن ينتجه. وأنا أبحث عن أشياء لهذا البوي الذي ستنجبه أخرى، لم أستطع أن أمسك نفسي، فتحتُ العالم لأراها مرة أخرى وجاهدت لمقاومة الإغراء في سرقة أيّ شيء، مريلة طرزتها بيتا بونثي، زوج من الجزم من الصوف الأزرق. لم أسرق. ربّما حين تعود إينيس من روما خائبة بعد أن صارت أضحوكة بسبب قضية التطويب، بلا عمل ولا أمل تقتل به وقتها، ستأتي كثيراً إلى البيت، لتعيش في أطراف تفاهاتها، التي سترتبها وتنظفها ثمّ تعيد ترتيبها. إن سألتْ مَن مسّ شيئاً من أشياء غرفتها أثناء غيابها، فسأقول لها أنا، سأقول لها إني بدأت حملة تنظيف شاملة ووضعتُ النفتالين بين الملابس تحسباً لأيّ شيء. وستعطيني حينها مكافأة سأتقبلها إهانة أضيفها إلى الإهانات الكثيرة التي تلقيتها.

منذ شهرين وحياتنا نحن العجائز السبع تدور حول التحضير لاستقبال الطفل. نخيط له ملابس وأقمطة رقيقة مع شرشف من اللينو أهدته بريجيت، هذا الشال يجب فكّه لغسله غسلاً جيداً، فصوفه جيد وليس كصوف هذه الأيام فيه كهرباء، ومعاودة نسجه، ولتفعل ذلك دورا، وما أغرب دورا في مسائل المنسوجات. وسنزيّن المهد البرونزي بقماش التول المرقّع لكن ما باليد حيلة، نحن فقيرات لكنّ الطفل سيحظى بمهد سيبدو في العتمة مثل مهد ملك. خسارة، إن المسكينة بريجيت ماتت وإنّها لن تراه. كانت أشدنا حماساً. بالطبع فإنّ الطفل سيخرجها من قبرها لتذهب معنا جميعاً إلى السماء. المهم. هذه هي الحياة. هذه الأشهر ستكون الأصعب لأنّ إيريس لا تشعر

بأنّها على ما يرام، فالصداع يلازمها وقد انتفخت كثيراً، ولا بدّ أنّ حضرتكِ، ماريّا، تعرفين، وأنت طبيبة، ما الذي يحدث لهذه الصبيّة.

يجب إرقادها على الفراش. هل تشعرين بأنك لستِ على ما يرام مرة أخرى؟ هذا سريرك وهذا هو المهد لكي نلعب معكِ لعبة الأمهات، لنلعب أنّك تستلقين وأنّك أمّ. لكن إن كنا سنلعب لعبة الأمهات، سيدة ريتا، فلماذا لا تجلبن لي دمية، شيئاً ملفوفاً ولو بقطع قماش كما كنتُ ألعبُ وأنا صغيرة، فاللعب من دون دمية ليس لعباً، قلتن إنكنّ ستهدين لي دمية كبيرة تحرّك عينيها وتناديني ماما، مثل طفل حقيقي، كذب. انتظري، إيريس، استريحي، سنعطيك الدمية، اهدئي، نامي، ليس عليك أن تعلمي أنّك تنتظرين طفلاً لأنّ انتظار طفل معجزة سيخيفك وقد تتهميننا كلّنا وقد يسرقون منا الطفل.

جو القبو حار بسبب الموقد المشعول فيه ليل نهار لكي يجفّ الغراء الذي غلّف به الموديتو جدرانه. أماليا تكوي الأقمطة. ماريا بنيتث تريد أن يكون كلّ شيء جاهزاً قبل الولادة بوقت: تقلّب الطبيخ ذا الرائحة الذكيّة على النار، وتنتظر أن يغلي، تلقي بأعشاب أخرى تغيّر رائحة الحجرة، تضيف قليلاً من الماء، تصفّيه، تتركه يبرد، تسكب ماء ملوناً داخل زجاجات. هذا يقطع نزف الدم، فالواحدة لا تدري ماذا تفعل مع امرأة تلد للمرة الأولى. وهذا يطهّر. وهذا لعمل كمادات إن استمر معها الصداع. لا تتكلمن بصوت عالٍ، دعنها تنام. انظرن لها وهي تنام! تعالين وانظرن كم هي جميلة. انظرن إلى وجه القديسات الذي هو وجهها، إنّه يشبه وجه تلك العذراء الملوّن الذي تضعه الأم بنيتا في مكتبها. شابة. ما أجمل بشرتها! يقولون إنّ البشرة تصبح جميلة عند الحمل. ليس دائماً، فبعض النساء تتلف بشرتهنّ وتتحوّل إلى كارثة، أمّا هي فكلا. داميانا، الجديدة، تلمس خدها بظاهر يدها... حرير. كم ستبدو جميلة مع طفلها الصغير، وهي ترضعه في هذه

الحجرة الدافئة، العطرة الخفيّة! نتحرك كلّنا على أطراف أصابعنا كي لا نوقظ من ستصبح أمّاً، ونقدّم آيات الاحترام أمام الغامض الملفوف في الرحم، محمياً بطبقات أحشائها ولحمها وجلدها المتتابعة التي خُلقت لهذا الغرض.

ترقد إيريس في السرير، وإصبعها الإبهام في فمها، تمصّه، بينما نحن مشغولات بواجباتنا النسوية الأزليّة في تحضير الحجرة التي سيولد فيها الطفل، نتلذذ بتلك الطقوس التي تذكي غرائزنا النائمة بالقرب من الفراغ الذي سقطت فيه بريجيت منذ قليل، وحينها، في تلك المناسبة، العظيمة أيضاً، انبعثت غرائزنا أيضاً مع جلال طقوس الموت، وبكينا وحزنّا لأنّ أحد أدوار العجائز، ومنذ القدم، هو دور البكاءة، فالبكاء والنحيب مناسبان في العزاء، ومناسب الفرح في الولادة. تتكسر أصواتنا الهرمة، كبّة الخيوط المتواصلة هذه من التعليقات، ششششش، أبطأ، كي لا يوقظوها ذلك الهمس المزيّن الآن بفتور جديد، من حياء وخجل، فكأنّ أصواتنا انبعثت مع الطقوس التي تسبق الولادة، وهي طقوس لا يستطيع أيّ رجل المشاركة فيه.

نعم. حمل إيريس معجزة. بعد أن فرغنا من المسألة، لم يناقشها أحد: تقبلنا بسهولة غياب الرجل من ظاهرة الحبل. بأيّة فرحة نسينا الفعل الذي أنتج الطفل، وأحللنا محلّه معجزة تجسّد غامضة في بطن عذراء، تستبعد الرجل! نحتاج إلى رفض فكرة أنّ رجلاً تدخّل. علينا أن نبعد الخوف من أنّ أباً سيأتي للمطالبة بولده. لماذا سنتقاسم طفلاً مع رجل إن كان من يعاني هي امرأة، هو لا يعرف يربي، من تضحي هي امرأة، الرجل حاز على متعة إنتاجه وحسب، متعة قذرة، زائلة، متعة إن شعرنا بها مرّة، فسنتركها مركونة هناك بعيداً، خلف متعة الأمومة، نحن اللاتي حظينا بتلك السعادة؟ إيريس عفيفة. ليس لأيّ رجل نصيب ممّا تحمله في بطنها. لنكتم الأمر عن الجميع.

لنحجبْ رؤيتها عن الجميع. هنا في القبو الذي أعدّه لنا الموديتو، ما أطيب الموديتو!، ماذا كنّا سنفعل من دونه، إننا نحقق كمالنا ونحن نكوي أقمطة الطفل ونطويها، ونحن ننسج شالاته، شالات كثيرة كي لا نضطر إلى لفّ المخلوق بأيّة خرق حين يكون الطقس بارداً، من الخطورة أن يبرد الأطفال الصبيان وإن قالوا إنّ هناك تحاميل تقطع سيلان الأنف في يومين، يجب شراء بعض من هذه التحاميل، ونربط دانتلا من شرائط حريرية إلى الستائر التي تتدلّى من مظلة الكريّات البرونزية، وترى هنا القماش المشمع كي لا تتعفّن المرتبة من البول فالمرتبات المتعفنة تبعث رائحة كريهة كثيرة وليس في هذا القبو تهوية كبيرة، ويجب عمل مريلات من هذا الحرير الجميل، الرقيق، الحرير السماوي لأنّ الطفل سيكون صبيّاً ذكراً، لا، مريلات الحرير لا تنفع في شيء إذ لا يمكن في ما بعد غسلها باليد، ألا ترين، ولن نرسلها إلى المصبغة كلما وسخها الطفل والأطفال يوسخون كثيراً من المريلات، عديدة، كل يوم، لكن إن كان غسل الحرير ممكناً، أماليا، فكيف يمكن أن تكوني غبية إلى حد أنّك تعرفين حتى هذا، الحرير الطبيعي، الرقيق حقّاً، يجب رشّه جيداً ثم يهوّى قليلاً وحينها، بعد ذلك، يكوى بمكواة ليست شديدة السخونة...

٥

أنا لا أقول ذلك لأني أسمعُ وقعَ خطوات أو أصواتاً، ولا لأني أشعرُ بأنّ هناك من يراقبني في الممرات فأنهض للطواف في هذا البيت الذي لا يسبر غوره. بل لأنّي أحسستُ يوماً بعد يوم، ثمّ لاحظتُ أنّ هناك من يطوف في الباحات والغرف الفارغة والممرات كما أفعل أنا. لم تكن العجائز، القابعات منذ وقت مبكر في أوكارهنّ، ولا الراهبات الصغيرات اللائي يسقطن منهكات فلا يقوين حتى على الصلاة حين تعتكف النزيلات في باحاتهنّ.

كنت أنت. لقد خمّنتُ ذلك منذ البداية. لم أركِ ولم أسمعكِ، لكنّي تيَقّنتُ من أنّكِ كنتِ أنتِ، جسمُك الطفولي البذيء المتسخ كان يشاطرني المكانَ نفسه الذي يلفّني. لماذا؟ في هذه الساعة عليكِ أن تكوني نائمة كبقية اليتيمات لا أن تهيمي على وجهك مسهّدة، سائرة ربّما أو متوقفة ليس بعيداً أحياناً عن المكان الذي كنتُ أسيرُ فيه. لماذا تطوفين في الممرات ليلاً؟ فقط لتتظاهري بمشاركة العجائز خوفهنّ من الظلمة وخيوط العناكب والبعابع والإمبونجات والسقوط والسرّاق ودون كليمنته والكلاب الشرسة والحفر التي تسقط فيها الواحدة والغجر الذين يخطفون الأولاد والأشياء السوداء، بعبع، بعبع...؟ لماذا كنت تلاحقينني؟ أم إنّكِ كنت تطاردينني؟ لا، لم تكوني تطاردينني. كان حضوراً، هو حضوركِ، راح يغزو توازن

فراغي الليلي، حيث ما من شيء يخدشني، لا الذكريات، ولا الرغبات، وحيث ما من حضور يعرض نفسه لهشاشتي وضعفي. كان عليكِ أن تنهضي مِن فراشك من دون أن تنتبه بقية اليتيمات لكي تتحققي من أنّني أطوفُ في البيت كلّ ليلة حتّى وقت متأخر، أحياناً طوال الليل، لأني لا أنام، ووضعت نفسكِ في طريقي من دون أن تبيني عن نفسك في البداية، بل أرغمتني على الشعور بك وأنتِ تحتلين فضاءَ الليل، منطقتي، طالبة منّي أن أتبعكِ من دون أن أراكِ، مثل كلب يتبع أثراً بوحي من الرائحة.

في النهار، كنتُ أعبر باحة في طريقي لتصليح أنبوب مكسور كان يهدد بإغراق أحد الرواقات، ورأيتكِ، تلعبين الحجلة مع صديقاتك، قرب شجرة الزيزفون... وقبل أن أواصل طريقي بقيت أنظر إليكِ من عتمة الممر، بانتظار أن ترسلي لي علامة أو أن أتلقّى منك إشارةً. لا أدري إن كنتِ رأيتني. ربّما رأيتني، لأنّك تستطيعين النظر من دون أن تنظري، وتَعلمين من دون أن تدركي أنك تعلمين. أنا لستُ مغرماً بكِ. بل إنّكِ لا توقظين فيّ أيّاً من تلك الرغبات المنحرفة التي يشعر بها الرجالُ من سنّي مع اقتراب حياة شابة: أنت كائن أدنى، إيريس ميتالونا، قطعة من وجود بدائي يحيط برحم ولود هو المركز في شخصك وما عداه قشر فائض عن الحاجة. لكنّ حضوركِ في البيت كان يتطلب عناية لازمة لذلك اضطررتُ إلى ألا أترك لقاءكَ للمصادفة أثناء النهار وبدأتُ أختلقُ سبلاً للعثور عليكِ مع انتظار إشارة منكِ. ما كنت تنظرين إليّ. ما كنت ترينني. لقد اعتدتُ أن أكونَ حضوراً تمرّ العيون عليه مرور الكرام ولا يجد الانتباه فيه ما يشدّ. لماذا كنت تلاحقينني، إذن، إن لم تكوني عزمت على أنْ تمنحيني وجوداً بنظرة من نظراتك؟

حتى صادفتكِ ذات مساء لوحدك في ممر، تتسلين بعمل طراطير

مثلثة من أوراق الجرائد. وضعت على رأسكِ طرطوراً وابتسمتِ لي في واحدة من ابتساماتك البلهاء التي تكشفُ عن سنّ مكسورةَ من قواطعك، وكأنّ لبسَ الطرطور هو أظرف نكتة في العالم. لا أذكر شيئاً من ذلك المساء غير وجهك. لكنّي لن أنسى أنّ التهديد بالقبضة المرفوعة عالياً والتعبير القاسي للقائد الملتحي الذي كان يصرخ من ماضي طرطور الجرائد الغابر جرحني.

كانت إشارة بدء الرعب: القائد الملتحي يطاردني مع أعوانه المسلحين بالقربينات، منتنين حاقدين، في الممرات، في الليل، ملوحين مهددين بالقسوة والدم. ماذا فعلتُ أنا لكي يهددني، من أنا؟ لا شيء، لا أحد، أنا لستُ شيئاً، أنا لستُ أحداً. من أين عرفتُه، إن لم يكن عن طريق أخبار الجرائد القديمة التي كان رئيس الأساقفة يرسلها إلى البيت في شاحنات كي لا تضيع، أيتها الأم بنيتا، الجرائد والمجلات والكتب، مهما كانت قديمة فإنّها تنفع دائماً؟ ماذا كان يطلب منّي ذلك الشخص المرعب الذي ملأ البيت؟ في الليل لم يكن يدعني في سلام عبر الدهاليز، يصرخ بي يشتمني، جبان، متملّق، مخنّث، رخيص، جارّاً كلّ حاشيته الثورية التي كانت تعدد مآسي العالم عبر ممراتي، غازية وحدتي، تعزلني، وتنادي حشداً هائجاً اقتحم عالمي قاصداً تمزيقه.

عندما صنعتِ طرطورَ الورق، طاوية ورقة الجريدة كما طويتها – لا تنكري أنّكِ كَنت تعلمين جيداً ماذا كنتِ تفعلين ولماذا–، تركتِ ذلك الوجه، ذَلك التَهديد موجّهاً إليّ مباشرةَ.

هذا البيتُ كبيرٌ واسع الأرجاء، ولمّا كانت للسلطة المتجمعة الناجمة عن سكون العجائز، اللاتي يملأن هذا الفراغ بإرادة تعاويذهنّ، قابلية التذويب، فقد راحت الحشود تضيع في سعة الأرجاء هذه وتصمت، حتّى لم يبق غير القائد الملتحي رافعاً يده لبضع ليال، قبل أن يعود

إلى حالة الطرطور التي كان عليها، حالة الخبر، عاد إلى حجم الورق القديم تاركاً في مكانه حضوركِ الواضح الآن، بيد مرفوعة بالقرب من الجدار الموجود بين باحة النخلة والشارع. مرّت في الخارج سيّارة فأومضت مصابيحها الخضر في كِسر من الزجاج زرعت للحيلولة دون أن يتسلّق أحدٌ الجدار ويدخلَ البيت، أو يخرج. خفضت يدك: مستحيل. وواصلت الطواف في الظلمة، واثقة، بلا خوف، وأَجبرتني على أن أسير وراءَك، ذلك ما كنت تريدينه، أن أتبعك، أن أفعلَ ما تفعلين، أن نتوقفَ للاستماع إلى أَحدهم يعودُ متأخراً إلى بيته وهو يصفرُ بلحن أغنية. كنتِ تعلمين أنني ظللتُ أرصدكِ، وراء حاجز من دون أن تريني. كان في مقدورك أن تفاجئيني هناك، لكنّك فضّلت ألا تفعلي ذلك. من الأفضل ألا تريني، إذ سيكون عليك أن تتعرفي إليّ بينما أنت تعرفين الموديتو الذي يكنس ويجرّ العربة التي تحمل الأشياء القديمة، انظري، أيتها الأم بنيتا، عليّ إذن أن أذهب لأخبرك، انظري ما تفعل هذا الصبيّة بدلاً من أن تكون نائمة، نهضتُ بعد أن سمعتُ ضجيجاً وظننتُ أنّهم لصوص وكانت هي، ماذا عساها تفعل في هذه الساعات، يجب معاقبتها، ليراقبوها... لا، الأفضلُ لكِ ألا تريني.

كل ليلة تجرجرينني من طرف إلى آخر من أطراف البيت، للنظر إلى انعكاس مصابيح الشارع على قرميد الأسطح، للاستماع إلى أبواق السيارات، لسماع الأطفال الذين يلعبون في ليالي الصيف الخانقة في الطرقات لعبة ماذا تريد سيادتك، ماندانديرون ديرون دان، أنا أريدُ واحداً من أولادك ماندانديرون ديرون دان، وماذا سنسميه، ماندانديرون ديرون دان... أتبعكِ في كلّ مكان، لئلا تضيعي، لئلا تظلّي محبوسة إلى الأبد في غرفة سريّة، لئلا تختفي، لئلا أظلّ من دون حل للغز جولاتنا الليليّة، معاً ولكن من دون أن يرى أحدنا الآخر... فتحُ الأبواب المسدودة التي تؤدي إلى الدور العلوي، نزعُ مسامير

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد ٢١٥

الألواح المتقاطعة تلك، فتحها بالقوّة، لكن الأبواب لم تستجب لقوة يدك، افتحْ هذا الباب، افتحه لي، لا تكنْ سيئاً، وماذا يكلّفكَ فتحُ باب لكي أصعدَ وأرى ما يوجد فوق، ما يُشاهد من الدور الآخر، فأنا لم أره قط. حتى جرّبت ذات مساء، بعد عدة ليال من الذهاب إلى ذلك الباب والتوقف عنده ثم الانصراف، أن تفتحيه من جديد ووجدتِ المسامير مرتخية والألواح رخوة لأني كنتُ قد فهمتُ أوامركِ، ونفذتُها، وفتحتُ الباب المسدود لكي تصعدي للطواف في أروقة الدور الآخر، وفتحتُ لك غرفة العشرين سريراً، ونزعتُ المسامير عن الشبابيك لتنظري إلى المدينة. انقيادي أرضاك. وجدتُ الطرطور الورقي مرميّاً في طين الباحة، وحرقتُه. سرعان ما تشتّتْ رائحة اللحية المحروقة مع الهواء.

كنت تصعدين كلّ ليلة للنظر من النافذة إلى الشارع. صادقتِ صبيان الحيّ. كانوا يتحاورون صراخاً، كنتِ ترقصين على بسطة النافذة لمجموعة تتجدد دائماً وتجتمع لتصفق لك. ما عدت تتجولين في البيت على غير هدى. ومع وجودكِ في الأعلى، منكفئة نحو الشارع، وظهركِ نحوي، عاد سلامُ الممرات والأروقة يغمرني.

أعلمُ أنّ التنازلَ أمام مطلبٍ من المطالب يُشعر الواحدَ بالخذلان، ولذلك كان الهدوء مؤقتاً، فقد عاد المسخُ الشره يُظهرُ مخالبه لطلب المزيد والمزيد والمزيد. أنا كنتُ أعرفُ أنّ إيريس ماتيلونا ستكفّ قريباً عن الذهاب إلى النافذة، وستطلبُ منّي شيئاً آخر بعد أن تشعرَ بأنّها لم تشبع، أو ستطلبُ مني الشيء نفسه ولكن بقدر أكبر، أن تطلبي العودة إلى مطارداتك عبر الأروقة ليلاً، بحثاً عني لإجباري على إعطائك ما تطلبينه منّي وأنا لا أريد أن أطيعكِ، إيريس ماتيلونا، لستَ أكثر من قطعة من اللحم بانحناءات، لقد نسيتِ أباك الذي ذبح أمّكِ في الفراش الذي كنتم ثلاثتكم تنامون عليه، كيف تنسين ذلك كلّه،

وتطلبين بديلاً لكلّ رغبة أوليّة، ضوءاً فوق جدار، والآن نافذةً على الشارع.. ما كنتُ قادراً على أن أعطيك إياه ولكي لا تطلبيه منّي كنتُ أهرب حتى أختفي في أعماق البيت. لكنّي لم أتمكن قط من الاختفاء، فقد كنتِ تعثرين عليّ دائماً وتجبرينني على أن أتبعك، توقعينني في شرك الممرات التي كنتُ أظنّ أنّني الوحيد الذي لا يرى فيها متاهة، وتجعلينني أفقد اتجاهي في هذا البيت، الذي هو بيتي، الذي أعرفه كراحة يدي، حتّى وجدتُ نفسي فجأة، وقد ظننتُ أنني أخذتكِ إلى منعطف حيث كنت سأحبسك إلى الأبد، في باحة البوابة. كيف؟

اختبأتُ بين شجيرات الجيرانيوم التي تزيّن صخور مغارة لوردِس المقلّدة. رأيتكِ تنزعين المتراس من البوّابة. ثمّ سمعتكِ تحركين القفل، دون أنَ تستعملي القوّة، فقط لتتأكدي مما كنتِ تعرفين، فقد كان البابُ مغلقاً بالمفتاح كحاله في كلّ ليلة، كلك، كلك، كلك، لكن بالدرجة الأولى لتعلميني بمطلبك الجديد. لا يا إيريس. هذا كثير. ضغطتُ على المفاتيح في جيب بدلة العمل. ما كنتُ ملزماً بإطاعتك. فأنتِ في نهاية الأمر لم ترَيْني وأنا ألحقك. فقط كنتِ تخمّنين ذلك، وإذا شاع خبر انتقامكِ لأني لم أطعك، فسيكفي ادعاء الجهل. ظللت تنتظرين، تتصنعين دور من يلعبُ بحجر، مثل من يلعب لعبة الحجلة، فتمنحينني وقتاً لكي أفتح لك الباب. لم أفتح. لم أطعكِ. واختفيتِ في القاعة وأنت تقفزين على قدم واحدة وتركلين الحجر بقدمك. كنتَ قد تركت باب الشارع من دون المتراس. وحين رأيتُ أنّك اختفيتِ ركضتُ لغلق الباب بالمتراس، فهذا واجبي، وقد أدّيتُه ليلة بعد ليلة لسنوات وسنوات. لا يعجبني أن يظلّ باب الشارع من دون غلق بالمتراس في الليل.

فعلتِ ذلك طوال ليال عدة. كنت ترفعين المتراس وتفتحين وتغلقينَ القفل على الرغم من أنّك تعلمين جيداً أنّك ستجدين الباب

مغلقاً بالمفتاح - الكلك، كلك، الرسالة كانت هو ما يهم-، وبعد ذلك كنتِ تبتعدين صوب باحتك. كنتِ تتركين الباب من دون غلق بالمتراس. وكنتُ أنا أعود إلى غلقه بالمتراس بمجرد أن تختفي. حتّى حدث ذات ليلة أنّك لم تذهبي إلى باحتك. لا بدّ أنّك اختبأتِ لحظة لكشفي، ثم بعد ثلاث دقائق، حين أغلقتُ الباب بالمتراس واختبأتُ، عدت إلى الباب ووجدته وقد أغلق بالمتراس. لم تكلّفي نفسك حتّى التلاعب بالقفل. ولماذا تتلاعبين به بعد أن اكتشفتني؟

- موديتو.

إيريس، رددتُ. لم تسمعيني لأنّ صوتي غير مسموع. لم أخرج من المغارة. لكنّك بمكيدتك أجبرتني على التواطؤ معك في الجريمة. في الليلة التالية، حين نام الجميع، ذهبتِ إلى الباب. وجدته من دون متراس. ومن دون مفتاح. لاحظتُكِ: لم تأتي بأيّة حركة إضافية ولم تظهري مفاجأة. فتحتِ الباب وخرجت إلى الشارع.

بقيتُ أنتظرك بين صخور الإسمنت التي ذهب لونها. غلقٌ. وضعُ المفتاح وإنزالُ المتراس من الداخل. اختلاقُ قصّة تفسّرُ غيابك، سرقَك الغجرُ، أكلكِ البعبعُ، هربتِ مع القاتل الذي هو أبوك، التهمتكِ ظلمةُ البيت، سقطتِ في ناعورة، تهتِ في العلّيات، انحبستِ في صندوق دخلت فيه مدفوعة بالفضول، سيصدقون أيّ شيء وأنا فقط سأعرفُ أنني تركتكِ في الخارج، في يد الدرك، الذين سيسلمونكِ إلى الأطباء لكي يقطعوكِ إرباً إرباً، قطعة قطعة، لديك جسم فتيٍّ، هناك ناس كثيرون يحتاجون أعضاءك والدكتور أثولا يطمع دائماً بالغدد والأرحام، بالعيون، بصورة خاصة العيون، لأنّه يبحث عن عيون لا يستطيع العثور عليها ويطلب منه دون خيرونيمو أن يجدها وأن يسلمها له، وهكذا، مقطعة، ومزروعة قطعة قطعة في أجساد آخرين، موزعة، ستختفين من الوجود.

وقبل أن أبادرَ وأسلمكِ إلى الجلادين، فُتح الباب ودخلتِ، بعد أن بقيت أقلّ من عشر دقائق في الخارج، تدندنين بصوت عالٍ، مسموع، فكأنّك لا تحرصين على التكتّم لأنّ مهمّتي أنا، شريكك، كانت حمايتك. حين مررت بعذراء لورديس رسمتِ شارة الصليب، لم تقطعي غناءك: «سوداء، سوداء مدللة»، «هزّي خصرك، تعالي إلى هنا»، ولم تغيّري سرعة خطوتك. بل لم تكوني مبتسمة، وكأنّك أتيتِ فعلاً مشيناً. لا شيء. كنتِ تغنين. تتثاءبين. واختفيت.

ذهبتُ لإنزال المتراس وغلق الباب بالمفتاح. لم تكلّفي نفسكِ حتّى عناء غلقه: وجدته مفتوحاً على مصراعيه، والليل المرعب يمضي بهدوء في الخارج.

***

من حين لآخر كنتُ أتركُ باب الشارع مفتوحاً لها لتخرج. وأظلّ أنتظر عودتها، أنتظر أحياناً ساعات وساعات، حتّى الفجر، مختبئاً بين صخور المغارة الحجرية. لكنّي ما عدتُ أمكثُ في البيت: كانت إيريس، الأرويرا[١٠]، وهي تشقّ طريقها في الصباح عبر شبكة الأماكن التي تطوف فيها، بين كلاب لا تشبع وبيوت ومبان شاهقة يرصدونها منها، وجسور، وجادات، وسيارات، وضجيج، تجرّني لتسلمني إلى دون خيرونيمو.

كانت تجرّني. كالكلب، مربوطاً بسلسلةٍ لأتبعها أنّى ذهبتْ

١٠- تروي أسطورة شعبية قصّة (أرويرا)، العجوز الهندية التي لم تكسب ممن أغرمتْ بهم غير الخداع ومعسول الكلام، حتّى أقسمت أنّها لن تصدق كلام أحد بعد أن تحولت مشاعرها إلى مرارة ثمّ إلى سمّ قضى عليها. تحكي الأسطورة أنّ (أرويرا) عادت إلى الحياة مجسدة في شجرةٍ تملؤها المرارة وسوء الظن، وصار من يستظلها يعاني من عواقب ذلك حتّى صار الناس حين يمرون بها يلقون عليها التحية بالمقلوب لخداعها وتجنّب عقابها.

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

وأطيعها، أعمى مسلوب الإرادة، مربوطاً لكي لا أنزل إلى قارعة الطريق وتأتي سيارة وتدهسني، بطوقٍ أسنانه نحو الداخل من تلك الأطواق التي تستعمل لتدريب الكلابً، الواحد لا يستطيع أن يفعل شيئاً غير الطاعة لأنّ الطوق يجرح حين يبدي مقاومة وتدمي الأسنانُ عنقه إذا عنّ لهم أن يشدّوا السلسلة المرة تلو الأخرى، والواحد يقاوم قليلاً، قليلاً جدّاً، حتى لا يعود في النهاية، وقد تجرّح عنقه، قادراً على المقاومة أكثر وينصاع لأنّ عدم الانصياع مؤلم كثيراً ومؤلم أيضاً أن يحاول أن تكون له إرادة ورغبات خاصة، حتّى أصلَ في النهاية، لكي لا تتألم رقبتي ولا تدمى حين يعنّ لها شدّ السلسلة وتوخزني الأسنان، إلى نسيان أنّني امتلكتُ إرادتي في مرة من المرات، في الماضي، البعيد، البعيد، أو حاولتُ التمرّد حين كنتُ ما زلتُ أفهم معنى التمرّد. ما عدت أتمرّدُ عليها. إيريس قاسية وأحياناً تتعمّد أن ينشب الطوقُ أسنانه في رقبتي رغبة منها في رؤيتي أعاني، أتابعها من بعيد ولكن من دون أن تغيب عن نظري، ومن دون أن أدعها تراني، وأتركها طليقة لكي تتحدث مع أصدقائها... أحدهم يشتري لها كوكا كولا... تدخل في الدكان الذي يلتقي فيه أولاد الحيّ للعب الفوتبولين ولبيع المجلات المستعملة وتبادلها... يعلمونها رقصات جديدة وأغاني ذائعة... يلعبون البولنغ والبليات ويقرؤون المجلات... تتبع العملاق لتساعده في توزيع إعلانات ملونة: ***مخازن مارتين بيسكادور. تسهيلات في الدفع. مراتب للأسرّة. أسرّة. بطانيات. أثاث. أسعارنا منخفضة جدّاً إلى درجة أنّك تحتاج إلى الانحناء لمعاينتها.*** خينا صديقة العملاق، يدعونها في الحيّ. كلّ شيء ساذج، طفولي.

وماذا لو علمَ دون خيرونيمو بأنّ إيريس تهيم على وجهها في الشوارع؟ لن يتعرّف عليّ على أكثر احتمال بعد أن تحوّلتُ إلى كلب إيريس، وجُرّدتُ من كلّ ما يمت بصلة إلى أومبرتو عدا البداية الفاعلة

في نظرتي، التي لم يستطع الدكتور آثولا استئصالها. وإن اكتشفَ زبانيته ذلك، عيني، في وجه كلب إيريس؟ حينها سيتمكنون منّي، هذه المرّة إلى الأبد، لا أستطيع أن أنتظر أكثر، أومبرتو، لقد شختُ، الدكتور آثولا بسكاكينه ومساعديه، بأقنعة العمليات وأرديتهم البيض ما زالوا جاهزين في خدمتي، بانتظار لحظة العثور عليكَ، آن الأوان لكي تعيدَ لي ما هو لي وما زال في حوزتكَ. هناك ناس متخفون على الأعتاب، ناس من أتباعه، يظهر لي رجل فجأة، وأنا أستدير في الناصية، ويتصنّع أنّه يلعبُ بشاربيه، لكنّه لا يلعب بهما، بل يلصقهما بالصمغ لأنهما شاربان مزيفان لكي لا أتعرّفَ عليه، وكأنني أستطيع أن أتعرف عليه، أنا لا أتعرف على أحد، ولا على إمبراتريث، لا بدّ أنّها تراقبني من نوافذ السيارات المارة، أنيابها التي تسيل لعاباً، التجاعيد المتجمعة في جبهة القزمة التي هي، باحثة عنّي، كلّ يبحثُ عن ضالته، وبيتا بونثي، الأخطر، الأقسى، الأشرس، الأصعب على التمييز لأني قد أخلط بينها وبين أيّة عجوز، وقعُ أقدامها لا يُسمع، تجيدُ الاختفاء، أيّتها العجوز الشبقة التي لا تتركني وشأني، أنا أضحكُ منكِ لأني أعيشُ في خدمة عجائز مثلك لكنّهن لا يعرفنني في الوضع الذي عرفتني فيه أنت ولذلك يتركنني في سلام داخل البيت، أنا عجوز أخرى من العجائز، دون خيرونيمو، أنا كلبُ إيريس، دعني أستريح، لا تضيّقْ عليّ، أنا خدمتكَ من قبل، أن تكون شاهداً هو أيضاً أن تكون خادماً، حضرتكَ تعرف أنّ الخدم يحتفظون بجزء من مخدوميهم، نعم تعرف ذلك، وكيف لا تعرفُ إن كنتُ احتفظتُ بما هو أساسيٌّ منك حين استأجرتني لأكون شاهداً على سعادتك. كمال الزوجين السعيدين كان يتمّ هناك بعيداً، بعيداً كمشهد جبال شماء لكنّها بعيدة المنال تقيّد عينيّ بذاك الإعجاب وذاك الطمع اللذين يعرفهما خيرونيمو وإينيس ويحتاجانهما. لم يكونا قادرين على العيش من دون حضور نظرتي

الحاسدة وهي تصنعُ سعادتهما، كان ألم عينيّ اللتين تتأملهما يمدهما بالسعادة التي يستهلكانها. لم يكن دون خيرونيمو يدفع لي – فأنا كنتُ مستعبداً –، بل كان يدفع لحسدي لسنوات طويلة. لكنّي بقيت ذا نظرة مشحونة بالسلطة، هذه ملكي، لن أعطيه إيّاها، لن أسمح بأن يأخذوها منّي، لذلك أخبئها هنا في البيت، لكي لا تأخذها منّي حضرتك، دون خيرونيمو، لكي لا تعود أبداً إلى الاقتراب من السعادة، ولذلك لن أخرج أبداً مع إيريس إلى الشارع، ولا حتّى في هيئة كلب، حتى لو ركلتْني وضربتْني لكي أطيعها، لن أخرج، سأظلّ هنا حيث أنا، هادئاً مثل قديس مصبوب من الجبصين بين صخور الحجر هذه.

كان العملاق وإيريس الشريكين السعيدين. كانت نظرتي تتغذى منهما، وتخمّن دقائق تلك العلاقة التي أصبحت حصريّة لأنّ إيريس كانت تعبد عملاقها، سيتزوجني، كانت تقول لليتيمات، انظرن إلى صورته في مجلة ميكي ماوس هذه، تلاحظن، هنا يتبعه الكلب بلوتو، هذا هو، العملاق، الذي يمرّ بالحيّ عدة مرات في الأسبوع وقت العصر وأنا أنتظره في شرفة الدور العلوي لنتواعد بالصياح، ليس الآن، عملاق، حين تنام العجائز، انتظرني قليلاً، سأذهب للقاء شخصيتك الفريدة التي تسيطر على جميع من يسيرون في الشارع.

كانا يجلسان عند الرصيف ليتحادثا. لا أدري عمّا كانا يتحادثان. لا يخطر على فكري موضوع يمكن الكلام فيه مع كائن مثل إيريس ماتيلونا، التي لا تعرف غير جسدها، أمّا البقية، بلدتها، أمّها الميتة، أبوها المسجون، فقد أصبحوا نسياً منسيّاً في تجسّد آخر لا صلة له بالتجسد الحالي، تجسّد صديقة العملاق التي لم يعد اسمها إيريس، بل خينا، فهو اسم أحدث، خينا، خينا، ارقصي لنا وحرّكي ثدييك الكبيرين، خينا، هنا، في هذه الناصية، خينا، تحرّكي واهتزّي...

عليّ أن أقول الحقيقة: في البداية، روموالدو، لأنّه لم يكن صبياً

سيئاً، كان حنوناً مع إيريس فكأنه أخ كبير، كأنّه كان يشفق عليها. كان يحكي لها أشياء... السادة الأتراك أصحاب محلات مارتين بيسكادور كانوا طيبين، حين كان أحد ما يذهب للتسوّق منهم ويقول لهم إنّ العملاق أعطاهم واحداً من الإعلانات الملونة، كان السادة الأتراك يعطونني بقشيشاً، يسمحون لي أن أنام في المخزن، يضعون لي مرتبة عند المدخل ويعطونني المفاتيح، عندهم ثقة كبيرة بي، أنا حارس ليلي وعملاق، في بعض الأيام آتي إلى هذا الحيّ وأذهب في أيام أخرى إلى سواه، لكن يعجبني أكثر المجيء إلى هنا، أتمنّى أن أسكن في هذا الحيّ، حين أكسب مالاً أكثر سأبحث لي عن غرفة في نزلٍ قريب هنا ولكن من يدري متى سيحدث هذا، طبعاً في بعض الأحيان أختبئ في مكان أبعد من هذا الشارع لأنام القيلولة، ومن سيراني، هناك سيارة قديمة، لم يبق منها غير الشاصي، من دون عجلات ولا محرّك، وأنحشر في السيارة وأنام القيلولة.

أنا تبعتُه حتّى قطعة الأرض الخربة. رأس عجينة الورق الكبير المصبوغ يتصدّر المقعد الأمامي. كان ينام في المقعد الخلفي في وضعيّة جنين. حشرتُ يدي عبر النافذة الخالية من الزجاج. لمستُ بلطفٍ عيني العملاق المصبوغتين. استيقظ رومو الدو صارخاً:

– اتركني... تركتُه.

– ماذا تريد؟

– لا شيء.

– انصرف إذن.

خرجتُ مرعوباً، أغلقُ فمي بيد وأمسك حنجرتي بالأخرى، عبر الشوارع التي حفرها صوتي في أخدود بين وجوه أولئك الأشخاص الذين كانوا كلّهم دون خيرونيمو، الدكتور آثولا، إمبراتريث، بيتا،

مكتبة أحمد ٢١٥ telegram @ktabpdf

ناس قساة سيشون بي للأم بنيتا، التي ستحكي للأب آثوكار بأنّ حياتي كلّها كانت أكذوبة، الموديتو يتكلّم، يشعر برغبة، نظرته نافذة، يعرف أشياء، يسمع، هو سافل، كائن خطير، وحينها سيأخذون مني المفاتيح، هذه المفاتيح التي أغلق بها على نفسي هنا لكي لا يصل أحد إليّ ولا يكتشف مكاني، نعم، سيتصلون برئيس الأساقفة هاتفياً، وسيتصلون بدون خيرونيمو ليأتي ويأخذني، لأنّي ما عدتُ أخرج تسحبني سلسلة إيريس، بل صرتُ أخرجُ وحدي، لحسابي، وكأني نسيت أنّ الدكتور آثولا سيستأصل لي عيني، وسيحتفظ بهما حيتين وناظرتين في علبة خاصة لتسليمهما إلى دون خيرونيمو وعندها سينساني هو وسيدعني أعود إلى كومة الزبالة التي أنتمي إليها، لأنّ نظرتي هي ما يهمّه، فقد استغنى دائماً عن كل الأشياء إلا عن نظرتي، المتألمة، المشتاقة، الحسودة، أمّا البقية الباقية من شخصي فلا تهمّه في شيء، مطلقاً، مطلقاً، تلك الكلمة الفاضحة التي فلتت منّي كانت تحرق حنجرتي.

أما وقد حبستُ نفَسي في باحتي وانحشرتُ في سريري فلن يعثروا عليّ. حمّى، ارتعاش، العجائز يدثرنني بالخرق كما يدثرن الطفل. الحنجرة المتورمة تمنعني من الكلام وإن رغبتُ في الكلام. محال أن أبتلع شيئاً مع هذا الألم. حليمات اللسان حمرٌ، والحنك دامٍ، والحنجرة خشنة، لا شيء، لا شيء، دثرنني أيتها العجائز، دثرنني جيدّاً كي لا أرتجف من البرد، كي لا أحرك ذراعيّ ولا يديّ ولا ساقيّ ولا قدميّ، عجلن أيتها العجائز، خطنني كاملاً، لا تخطن فمي الملتهب وحسب، بل عيني، خصوصاً عينيّ لدفن قوتهما في أعماق جفنيّ، كي لا يريا، كي لا يراها هو أبداً، لكي تستهلك عيناي قوتهما في العتمة، في العدم، نعم، خطن لي عينيّ، أيتها العجائز، وهكذا سأترك دون خيرونيمو عنّيناً وإلى الأبد.

***

أعطتني العجائز نقيعَ أعشاب فعّالاً لأشفى. ماريا بنيتث مسحتْ لي بأزرق الميثيلين: كان فمي مغارة لم أكن أجرؤ على أن أريها لأحد، فحتّى العجائز كنّ يضحكن على شفتيّ الزرقاوين وعلى لساني الرمادي، مسحة أخرى، ماريا، وإن لم أكن بحاجة إليها، لأنّي بفمي الأزرق لن أجرؤ على الخروج إلى الشارع لأنّ الناس سيظنون أنّي مجنون وسيأخذونني إلى مستشفى المجانين... لا نستطيع أن نواصل العلاج بأزرق الميثيلين إلى الأبد، لقد زالتْ عنكَ الحمّى، وتستطيع أن تنهضَ إن أردتَ ذلك، أنتَ أفضلُ حالاً، وانظر، انظر إلى الشمس، وانظر كم هي جميلة شمس الخريف...

كنتُ أعرفُ عادات العملاق. كان ضعيفاً. على الرغم من قصصه عن البقشيش المدهش الذي يناله، فقد كان أجره الزهيد وعمله يجعلانه غير راض. فالطواف في الشوارع برأس كبير مثير للضحك لتوزيع منشورات ما كانت تهمّ غير الأطفال، يطوونها ويعاودون طيها ليصنعوا منها زوارق يضعونها في خيوط الماء التي تجري عند حافات الرصيف أيام الشتاء كان متعباً ومهيناً. كان يعمل أقلّ ما يمكنه العمل. في الصيف كان الحر في رأسه الكبير خانقاً. وحين البرد كان يرتعش من تحت بدلته القطنية. رتّب سكنه في سيارة الفورد المهجورة في قطعة الأرض الخربة: علب مسودّة لتسخين الشاي، مجلات مستعملة، أوراق لعب لشخص يلاعب نفسه، على الزجاجة الأمامية لصق صورة فرقة موسيقيّة طويلة الشعور، رأس العملاق يستقرّ مفصولاً عن جسده في المقعد الأمامي. كنتُ أحومُ لأنظر إليه. كنتُ أنظرُ إلى روموالدو وهو نائم. لكنّي لم أكن أريد أن ينام ولمستُ عينيه ثانية.

- مرّة أخرى؟ أيّ خراءٍ تريد؟

رأس العملاق. ذاك هو ما أريد. أستأجرُه منكَ، روموالدو، لألبسه وبه أكونَ جزءاً من الشراكة السعيدة. كنتَ توشك أن تسألني لأجل ماذا

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

أريدُه، لكنك توقفتَ، أحسن، في الوقت المناسب عند منتصف العبارة لتسألنِي، بكم. بألف. ابتسامة بطيئة تحت شاربكَ الأسود كشفتْ عن أسنانكَ البيضاء، المبللة... نعم، ولكن لا، مستحيل، موضوع العملاق هو عملي، والسادة الأتراك هم مالكو رأسي، إنّه رقيق جدّاً، انظر، إنّه من عجينة الورق الخفيفة، مصبوغ كلّه بالورنيش، لمّاع، أترى، السادة الأتراك يراقبونني لكي أحسن تجوالي وأوزّع المنشورات، ألا ترى أنّ تلك إعلانات... رأس العملاق ملكهم، وليس ملكي، ولو كان ملكي، ياه، لأعرتك إياه بكل سرور، لكنّه ليس ملكي.

- ألف وخمس مئة.

- لكم من الوقت؟

- لا أعلم، ساعة، ساعتان...

- اتفقنا.

السؤال «لأجل ماذا» كان يقرص لسانكَ، ولكن، لماذا عليّ أن أحشرَ نفسي في شؤون الناس، هذا الشخص غريب جدّاً، تأمّل صوته وفمه البنفسجي الذي يشبه فم الدب الأسمر في حديقة الحيوان... وألف وخمس مئة ليست مبلغاً رديئاً. من سيلتفتُ إلى أنني لستُ العملاق، فالناس ما عادوا حتّى ينظرون إلى العملاق في الشارع حين يمر، ثمّ إنّه تعهد لي بأنّه سيوزع الإعلانات وكأنّه أنا.

- اتفقنا.

تُخرجُ رأسكَ الكبير من مقعد الفورد الأمامي، القناع الضخم، الأحمر، المنمش، قناع المهرج، اللعبة، الشيطان، الدمية، عينان جاحظتان وابتسامة ثابتة تظهر زوجاً من أسنان الأرنب.

- حسناً. سألبسك إيّاه إذن.

- حسناً.

- ادفع لي ألفاً وخمس مئة.

أدفعُها له. يسلّمني روموالدو بنطلوناً من القطن المزهّر.

أرتديه.

- الآن السترة؟

- لا. الرأس أولاً، ثمّ السترة، لكي تغطّي الحمالات التي سأثبّتُ بها الرأس.

تضعُه من فوق، كما في الطقوس، كما يتوّج الأسقف المتوّج الملك، ليلغيَ بالتنصيب الجديد كلّ وجودٍ سابق، كلّ ما سبق، الموديتو، سكرتير دون خيرونيمو، كلب إينيس، أومبرتو بينيالوثا الكاتب الحساس الذي يقدم لنا في هذه الصفحات الخافتة رؤية حساسة وفنيّة عن عالم الماضي الزائل حين كان ربيعُ البراءة يزهر في رياض من زهر الوستاريه، الساحرة السابعة، كلنا ذبنا في ظلمة داخل القناع. لا أرى. لقد فقدتُ بصري، فضلاً عن صوتي، ولكن لا، هناك شق في رقبة العملاق أنظرُ منه. لن يفكّر أحد في البحث عن عينيّ في حنجرة لعبة عجينة الورق هذه.

- كلا، لو لم يكن مريحاً فلماذا سأقول لك غير ذلك، وأنتَ سقيم عليل. ألا ترى أنه ليس ثقيلاً كما أوحى شكله فِي البداية؟ لأنّه رقيق، عجينة الورق رقيقة، ومن النوع الممتاز. عليكَ أن تعتاد النظر من الثقب، هذا أمر أساس. المهم هو ألا ترتطم وتطعج لي رأسي، واعلمْ أنّ ربّ العمل سيئ المزاج وهذا الرأس ثمين. طيب، الآن السترة.

انسحبَ خادم القدّاس وهو يحني قامته احتراماً. السترة مزهرة أيضاً، لكنّه رسمٌ مختلف، فكأنّهم فصّلوا ملابسي الاحتفالية بفضلات من قماش باهت الألوان. أخطو خطوة كهنوتية، وأنا أمسك التاج بيديّ، ولكن سرعان ما أدركتُ أنّ الحفاظ عليه فوق رأسي ليس

بالأمر الصعب لأنّ الرأس رأسي، نعم، أحسّ بنسمة الهواء التي تداعبه وبيدي التي تلمس خدّي، وداعاً، روموالدو، أتكلّم بصوت واضح وعال، أرى المدينة تحيط بي وديعة كالبيت فلن يستطيع أحد أن يكتشفني تحت هذا القناع. أرى كلّ شيء من علوّ هامتي البطلة، الأعلى من هامة دون خيرونيمو، أتأمّل بعيني عجينة الورق العجيبتين أبراج مملكتي الزجاجية التي تشهق عالياً. أدخل في أيّ من الشوارع دون أن أهتمّ بالتدقيق في اسم الشارع لأستطيع العودة دون أن أضيع، أعلم أنني لن أضيع لأنّ العملاق لا يضيع في مملكته.

إنّها أكثر ساعات النهار تجهماً. إن لم يحدث ما ينقذ الأمور، فكلّ شيء يمكن أن يزول أمام قامتي العظيمة. الحظيرة الطويلة هي جدار وحيد بأبواب بينها مسافات منتظمة، بنفسجي- ليلكي- وردي- ليموني، مسافات بألوان مختلفة حول كلّ باب ترسم حدود البيوت المختلفة، نباتات، مصطبة، صنبور الماء الذي يقطّر، الحوض، مكنسة غصن الشجرة، السيدة التي اشترت طباخاً يعمل على الغاز السائل، البيغونيا في إبريق الشاي المبعوج، كلّ باب تكشف عن عالم مختلف، وصفّ أشجار الجوز المجردة من الأوراق على طول الطريق التي تأتي منه خينا مع العملاق سائرين معاً يضحكان وتطلب هي منه زجاجة كوكا كولا فيشتريها لها وتسحبُ خينا منشورات ملونة لا يمكن تمييزها في ضوء هذه الساعة الخدّاعة وتطوف خينا بين مطر المنشورات التي تسقط، لتمسكَ بالأوراق التي رمتها هي نفسها طلباً لمتعة اللف بين أوراق ملونة. تُخرج امرأة صغيرة موقداً إلى الرصيف. الماء الذي يجري على طول حافة الرصيف يعكس اللهب الأزرق الذي سيسعّر الفحم ليحوله إلى جمر. تعطيها خينا منشوراً.

- هل هو سيرك أيتها الآنسة؟

- لا. فيلم.

- ومن تكونين حضرتك؟

- أنا خينا، أنا نمرة برودواي.

الأشكال المقنّعة التي تتهامس عند الناصيات والأصوات والضوضاء الخافتة تنتظر سحراً لكي تنتشر وتصبح حقيقية. إيريس لا تقودني، بل أنا أقودها لأنّي أعرف كلّ شيء على الرغم من عتمة الشوارع المفتوحة. عجوز تجلس القرفصاء بعيداً منكمشة كمئزاب تزينه رؤوس وحوش تنفخ فحم موقد آخر... صف من الشرر يغزو الشارع، إنّه النفَس المفرقع الذي يخرج من فم هذه الساحرة الطيبة لإشعال المصابيح التي تنير سبيلنا، ويغيّر سحر الكهرباء المزمجر فجأة رمز الأشياء، السماوي البنفسجي، الوردي الأرجواني، الليموني البرتقالي، والأشكال المتربصة في الناصيات كالمتآمرين... أتعرّف عليها، الكهرباء تكشفها، ولا تكشفني، فأنا ما زلتُ العملاق الذي يعرفُ الجميع في الحيّ، الآسات الأربعة يدخنون في ناصية لا يتآمرون على أحد، إنّهم آنيثيتو وآنسيلمو وأندريس وأنطونيو، هيّا إذن، إيرما، اتركي صاحبكِ، لا تكوني قليلة الأدب، ألا ترين أنّ الضوء اشتعل، ونحن ما زلنا على الرصيف حيث تظهر نسوة أخريات لإشعال مواقدهنّ، ينفخن ويعلقنَ، انظرن إليها، صبية البيت، التي ترقص، خينا يقولون إنه اسمها، ليس صحيحاً، اسمها إيريس، إنّها صديقة العملاق، لنعبر إلى الجانب الثاني من الشارع، ونمسك بيد بعضنا وتتمكن مصابيح سيارة تفرمل للحظة من تشويه صورتنا، تحت الأضوية، غريبين، أكبر وأجمل مما هو يوميٌّ مألوف تشوهه الساعات، بينما تعزلنا تلك المصابيح في لحظة الفرملة تلك، وتحمينا، فلا نسمع صراخ السائق الغاضب، الذي يستمر إلى أن يختفي في واقع ناصيات أخرى. أقود إيريس حتّى الخرابة. نختفي وراء الفورد.

- لنعمل الناناي.

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

لم يتردد فيّ شيء. لا يداي الملتهبتان ولا سكسي المحتدم بينما كانت هي تداعب خد عجينة الورق، ولا وزني الذي يضغط عليها ويجبرها على أن تستدير وهي تخفض عينيها، أنت حبيبي، أريد الزواج منك لأنّك وسيم، لأنّ مداعباتك لذيذة، لا تتركني، زدني منها، أكثر وأنا أمنحها المزيد والمزيد من الحب لأني أستطيع أن أعطيها كلّ الحب حتّى إشباعها... حتى تحين ساعة فراقنا، عليّ أن أذهب، عملاق، أعدك أنني سأخرجُ معك ليلة كاملة لنذهب حيث نضحك ونرقص معاً، نعم، خينا، وسأشتري لك حاجات جميلة، متى، عملاق، قل لي متى، لا أدري، لا أستطيع أن أعدكِ شيئاً لأنّي لا أعرف متى سأعود إلى هذا الحيّ مرة ثانية فإن اكتشفَني السادة الأتراك فسيطردوني من العمل، ألا ترين أنّ عليّ أن أطوف دائماً في الحيّ نفسه بالقرب من محلات مارتين بيسكادور، وماذا أكسب من الطواف دائماً في الحيّ نفسه إن كان ما أفعله هو الإعلان ولذلك فهم يدفعون لي، متى إذن، عملاق، لا أدري، لا أدري، طيب، سأنتظرك كلّ مساء عند نافذة الدور العلوي، سأراقب وأنتظر لأرى إن كنتَ ستأتي لأخرجَ ونلتقي، اعمل لي إشارة وسأنزل... وداعاً، عملاق، مداعبات لذيذة، وداعاً، خينا، وسأظلّ أنتظرك مختفياً بين صخور المغارة.

٦

- أنا والد ابن إيريس.

ما من معجزة. عندي شيء لم يستطع دون خيرونيمو مع كلّ نفوذه وسلطته أن يناله قط: هذه القدرة البسيطة، الحيوانية، على إنجاب ولد.

- كنتُ أتجسسُ على وصول روموالدو. كنتُ أرتّب الأمرَ لكي تستطيع إيريس الخروج، خرجتُ بعدها ببرهة، غيّرتُ رأسي ووضعتُ رأس العملاق وداعبتها. كان روموالدو قد اشترى ساعةً يدوية بالأقساط، وبدأ يسددُ ثمنها من النقود التي كنتُ أعطيها إليه مقابل إعارتي رأس العملاق. بعد أن فحصتْ ماريا بنيتيث إيريس وقالت نعم، واضح أنّها تنتظر ولداً، لأنّ فتيات هذه الأيام، وليس القول بقولي أنا، يحبلن من شمّ البنطلون، ذلك المساء قلتُ لروموالدو إنني لن أحتاج رأس العملاق ثانية.

- وساعتي؟

هززتُ كتفيّ.

- كيف سأسددُ باقي الأقساط؟

لم أردّ عليه. كنتُ أريدُ أن يجدَ الحلّ بنفسه كي لا يلقيَ عليّ بالذنب في أي شيء.

- سأضطرّ إلى تأجير الرأس لصبيان آخرين.

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد ٢١٥

بالضبط. تماماً. رائع، روموالدو، أنت سمسار ممتاز. إيريس تحملُ ولدي في بطنها. كان ضرورياً هدمُ البقية غير النافعة من شخصها التي تحيط بالرحم الذي يحتله ولدي. نظرتُ إلى روموالدو. ألم يبلغ الحلّ الصائب من دون تردد يذكر؟ اقترحتُ عليه أن يستعملَ هو نفسُه رأسَ العملاق ليضاجع خينا.

- أنا لا أحتاج إلى أيّ قناع لأضاجع هذه البنت نصف المعتوهة.

سألتُه إن كان ضاجعها.

- لا.

لم أصدقه. كنتُ أحتاجِ إلى التثبّت من حقيقة أنّ ولد إيريس هو ولدي. طرحتُ عليه رهاناً. إن استطاع أن يُغري خينا من دون رأس العملاق فسأعطيه ما يسدد به كلّ ما تبقّى عليه من أقساط الساعة.

- اتفقنا.

رأيتُ كلّ شيء من النافذة الخلفيّة الصغيرة للفورد. حين بدأ روموالدو بنزع الرأسِ عنه، راحتْ إيريس تعوي: جونجون، جونجون، لا تدعه يطير، أيها الساحر الشرير... وسقط الرأسُ على الأرض. حاول روموالدو تقبيل إيريس ومداعبتها خلف صندوق الفورد لكنّها خمشتْه وصرختْ وبكت ولفّت ساقيها وعضت يديه، اللتين كانتا تحاولان الوصول إلى صدرها، احتدّ روموالدو واحتدم من دم وعراك. وبينما كانا يتصارعان وضعتُ الرأس وارتديتُ ردائي لأهبّ لنجدتها وإنقاذها من يد السافل، حملتُها بين ذراعيّ في الشارع، أواسيها، نعم، إنّه رجل شرير، الانجرار مع غير العملاق خطيئة، أنا الوحيدُ الطيب، خينا، خذي الإعلانات لكي توزعيها، خذي، جلبتُ لكِ هذه المجلات هديّة، انظري، هل تريدين أن أقرأ لكِ هذه الرواية الجميلة المنشورة هنا في (كارينيو)، خذي شريط

الشعر المخملي السماوي هذا وزوجي الجوارب والكوكا كولا وبوظة الثلاثة ألوان.

أقرّ روموالدو بأني كسبتُ الرهان. اعترف بأنّه ما عاد قلقاً بشأن الساعة فلديه الآن زبونان يطلبان الرأس، صبيان سيعطيانه ألفاً بدلاً من ألف وخمس مئة... من يدري لِمَ يريد هذان الصبيّان رأسَ العملاق، هو لا يريد أن يحشرَ أنفه في أذواق الآخرين.

لم تلبث إيريس، وقد سمحتُ لها بالخروج بكثرة، أن جمعت زبائنَ رائعين من الحيّ. أنا كنتُ أختبئ في الفورد لأشاهدها وهي تضاجعني، تصرخُ من اللذة وتقلّبُ عينيها وتضحكُ وتداعب خديّ وتستغرقُ في نظرتي. ولم يلبث صيتُها في المدينة أن ذاع. صارت الأحياء البعيدة تأتي لمضاجعتها. في البداية كان يصل صنّاعٌ وطلابُ مدارس، ثم صار يأتي رجالٌ أنيقون مهذبون في سياراتهم. بعد ذلك رأيتُ سادة في سيارات يقودها سائقون بلباسهم الرسمي، ورأيتُ دبلوماسيين متقلبي الولاء، جنرالاتٍ بأربطةٍ برّاقة، لغويين أكاديميين تملأ صدورهم النياشين ببدلاتهمٍ التي طُرزت أكمامها بخيوط الذهب أو الفضّة، كهنة قانونيين مكرشين وصلعاء مثل كرات شحم معجون، ملّاك أراضي، محامين، سناتورات يتناقشون حول حالة البلد المؤسفة وهم يضاجعونها، ممثلين سينمائيين علا المكياج وجوههم كالعاهرات، معلقي راديو يعلمون بالحقيقة المطلقة. كانوا يقايضون بذخهم بمتعتي، ووجوههم بِوجهي الذي كان يبثّ فيهم الحيوية، لكي يتداعكوا بإيريس ويحتكوا بها ويغرزوا أيديهم في ذلك اللحم الأبيض الذي يعشقني، الذي أراه يخضع لضغطي ومداعباتي من نافذة الفورد الخلفيّة. ذات مرّة رأيتُ دون خيرونيمو دي آثكويتيّا ينزل من سيارته المرسيدس البينز، تحدّث مع روموالدو ودفع له ووضع رأسه عليه. لم أشعر بالخوف: فرحم إيريس أصبح ملكاً لابني. بل لقد

أشفقتُ عليه، لأنه منذ أن تركتُه قبل سنوات كثيرة، حاول كلّ شيء، أيّ شيء، حاول كلّ عجيب وغريب لاستعادة قوته التي أحتفظُ بها في عيني. ما عاد شاباً. أعوانه يبحثون له عن فرصٍ وتجاربَ منحرفة ينقاد إليها يائساً. ولكن عبثاً. حضرتكَ، دون خيرونيمو، تعلمُ أنّ ما تحاوله عبث في عبث، ما لم أسمح أنا لكَ به، ويظلّ المسكين منغلقاً على نفسه غير قادر على الاتصال، فالعضو الرخو كالكمّ من دون الذراع.

حين رأيتهُ ولم أشعر بالخوف أدركتُ أنّ عليّ أن أغامر بشيء يستحق المغامرة: السماح له أن يضاجعَ إيريس ماتيلونا وهو يتزيّا بلبوسي. كان يكفيني أن أنظرَ إليه وهو يتضاجع، أن أؤديَ دوري القديم للحظاتٍ شاهداً على سعادته وانتصاراته.

ابتلعه رأسي. وحين وصلتْ إيريس، قرّبها من الجدار وتمرّغا معاً، ولكن لا شيء، ماذا دهاكَ، أيّها الوسيم، ما عدتَ تحبّني فما عاد عضوكَ ينتصب، هل تحبّ أخرى، لا، لا، انتظري، أنا متعبٌ، انتظري قليلاً، من خلال قماش بدلته، التي باتت ضيقة عليه، رأيتُ مقدار استعجاله، يأسه وهو يتوسل مساعدتي، مردداً اسمي، طامعاً في نظرتي. حين شعرتُ بأنّه يوشك على الانفجار جزعاً، أطللتُ من نافذة الفورد لكي يستطيع أن يراني، لكي يرى أومبرتو بينيالوثا، من كان يرافقه إلى بيوت الدعارة حين كانت إينيس حاملاً وكان هو يخشى أن يقترب منها كي لا يفسدَ أيّ شيء كمال الطفل الذي سيولد، هيّا، أومبرتو، رافقني، وكنتُ أنا هناك، أنظرُ إليه وهو يمارس لذّته مع أيّة عاهرة، ليقول لي انظرْ كم أنا فحلٌ، أومبرتو، انظر كيف أجعلُها تستمتع، أراهن أنّك لن تستطيع أن تجعلها تستمتع كما أجعلُها أنا بقوتي العظيمة وقوّة ذراعيّ وخبرة ساقيّ ويديّ ولساني وشفتيّ، انظر أومبرتو، انظر إليها اسمعْها كيف تصرخ، هل تدرك كم أنتَ مسكين إذ لا تستطيع إيقاظ الحرارة التي أستطيع أنا إيقاظها، الألم يجلدكَ ويجرحكَ، دع الحنينَ يحطّم

كلّ ما بقي قائماً فيك، احزنْ لأنّك عاجزٌ عن فعل ما أقدرُ أنا على فعله... عمّا كنتَ قادراً على فعله، دون خيرونيمو. أمّا الآن فلا. اليوم نعم، لأنّي أسمحُ له أن يرى وجهي تؤطره نافذة السيارة، وألم عيني تنظر إليه، الألم الذي ما زال يسكن حدقتيّ: لذلك استطاع أن يجعل إيريس ماتيلونا تعوي من المتعة.

لا يصعب عليّ تصوّر الحيرة الذي أحسّ به خيرونيمو حين رآني: هل يترك إيريس في مكانها ويقطع فعله الذكوري الوحيد من سنوات طويلة ليطاردني ويتملكني بعد انتظار، أم يظلّ معها ويتمتّع بها مقابل أن يفقدني، وتضيع حضرتُكَ نفسُك وإلى الأبد. لم يرني إلا لثانية، وعلمَ أنني كنتُ أنا، ولم أكن وهماً ولا سراباً. هربتُ لأختفي في البيت. لن أخرج من البيت. ولماذا أخرج؟ فكلّ شيء جاهز ومرتّب، وخطتي مرسومة: لن يكلفني شيئاً إقناعُ دون خيرونيمو بأنّ ولدي، الذي سيولدُ من بطن إيريس ماتيلونا، هو ولدُه، آخر آثكويتيّا مرتجى ومنتظر ومطلوب من بطن إينيس التي رفضت أن تخلّفه. سيعترف دون خيرونيمو به. سيمنحه اسمه وأملاكه. سيكون مالكَ هذا البيت. سينقذه من الهدم، وسيظلّ كما هو، متاهة من الأسوار المأروضة الوحيدة التي أستطيعُ البقاء فيها إلى الأبد.

ماذا سيقول أبي، أبي المسكين، معلّم الابتدائية، لو أنّه علم أن حفيداً له، أنّ ولداً لي، ابن حفيد ميكانيكي قطار كان يربط بسخام فحمه قريتين أو ثلاثاً من قرى الجنوب الفقيرة البائسة، سيحمل لقب آثكويتيّا؟ لا، لا، أومبرتو، يجبُ احترام النظام، من دون غشّ ولا سرقة، لكي يكون الإنسان نبيلاً يجب أن يكون شريفاً أولاً. لا يمكننا أن نكونَ من آل آثكويتيّا. بل لا يمكننا لمسهم. نحن بينيالوثا، لقب سوقي، قبيح، لقب يستعمله الممثلون الكوميديون في النكت الفاحشة، رمزاً للبذاءة المصاحبة للشخصية المثيرة للسخرية، مغلقة

عليه وإلى الأبد داخل سجن اللقب العامّي الذي وصلني نقلاً عن أبي. فقد كان لي أب، دون خيرونيمو، نعم، وإن لم تصدّق حضرتكَ، وإن لم تهتم قط بالبحث والسؤال عن هذا الأمر الذي ليس لأحد أن ينفيه، كان لي أبٌ، وأم، وكانت لي أختٌ، وكانت أوّل من اختفى، ابتلعها زواج مخزٍ لكنّه ضروري مع صاحب محل وراقة الناصية حيث كنتُ أشتري أولَ دفاتري لأخربش أشعاراً، وتشتري هي صوراً مطبوعة لـ (كليو دي ميرودي) و (باستورا إمبيريو) و (بيرتيني)، وقد اختفت الآن وربما ماتتْ في البلدة الجنوبية الأكثر أمطاراً. كان أبي لا يتذكر غير أبيه، ميكانيكي القاطرة، فما بعد ذلك غير ظلمة الناس من مثلنا، ناس من دون تاريخ عائلي خاصٍ، ناس ينتمون إلى الجمهور الذي تنمحي فيه الهويات والأفعال لتولّد حكايات وتقاليدَ شعبية. ما كان يتذكّرُ تاريخنا، كان مجرد فرد من أفراد آلٍ بينيالوثا، معلّم أطفال مدللين حرقوا له أعصابه. أسمعُ صوتَ أبي تحت مصباح البارافين المنتن. في الليل، كان أبي، وبعد أن يأكلَ أيّ طبيخ كان فيه من خيال أمّي أكثر مما فيه من الدسم، يرسم خططاً لي، لكي أتوصلَ بصورة من الصور إلى الانتماء إلى ما هو مختلف عن فراغ عائلتنا البائسة، التي تعدم كل تاريخ وتقاليد وطقوس وذكريات، وكان الليل الكئيب يطول في أمل صوته المتطلع إلى أن يترك لي نمطاً، بينما كانت قطرات الماء الساقطة من السقف المثقوب في المبولة تعانده وتبالغ في العناد. كان أبي يشرح لي ذلك كلّه. كان يطلب ذلك منّي من دون أن يطلبه منّي، بعنف يده الحنون والخجولة أيضاً، التي كانت تحاول لمس يدي من دون أن تجرؤ على فعل ذلك فوق مفرش أختي المطرز، الذي كان يموّه على الابتذال من دون أن يغطّي على رجل المنضدة المكسورة. نعم، أبي، نعم ممكن، ولم لا، أعدكَ بذلك، أقسمُ لك أنني ساكونُ شخصاً مرموقاً، سأحصل على قناع رائع، وجه كبير،

مضيء، باسم، محدد، يثير إعجاب الجميع بدلاً من وجه آل بينيالوثا هذا البائس الخالي من الملامح. كانت أمّي ترفع بصرها لثانية لتنظر إليّ كالمشفقة عليّ من عقم مهمّتي، لتعاود التركيز في التنورة التحتانية التي جاءتها بها واحدة من ثريّات الحيّ لإصلاحها. أن أصبحَ شيئاً يذكر. أن أصبحَ شخصاً مرموقاً. لقد أدركتْ أمّي منذ اللحظة الأولى أنني لن أكونَ شخصاً مرموقاً. ربما لذلك، وعلى الرغم من تضحياتها وجهودها في دعم أحلامنا التي لم تكن تؤمن بتحققها، نسيتُها تماماً. لم أشعر قط بالارتباط بها. كانت منزوية في الأطراف، ترعانا، لكنّها لم تكن تغوص قط في ما كان يجذبنا أنا وأبي وأختي. شخصٌ مرموق. نعم، أومبرتو، كان أبي يقول لي، أن تكون سيداً محترماً. كان لديه يقين يمزّق القلب من أنّه لن يكون كذلك. لن يكون شخصاً مرموقاً. فهو يعدم الوجه. بل لا يستطيع حتّى أن يصنع قناعاً لإخفاء رغبته في ذلك الوجه الذي ما كان يمتلكه لأنّه ولد من دون وجه ومن دون حق في أن يسمّى سيداً محترماً. وكانت تلك الطريقة الوحيدة للحصول عليه. كان يمتلك وحسب أسلوب معلم الابتدائية المنمّق المضحك والقلق من دفع ديونه في مواعيدها، وهي أمور علمتُ في ما بعد أنّها ليس سمات جوهرية في السادة المحترمين. كان يقول لي هناك، تحت المصباح، في البرد الذي له رائحة الطبيخ والأشياء التي راحت تتفتت بالرطوبة، ويكرر على مسامعي، طبعاً هو لم يكن غريراً ولا ساذجاً، فقد كان يدرك أنني لن أكون سيّداً محترماً حقّاً أبداً، مثل ذلك السيّد، مثلاً، الذي ظهر هذا الصباح في الجريدة وهو يوقّع على اتفاقية الحدود مع بلد مجاور، أو مثل أولئك السادة الكبار الذين يصدرون قوانين الرقابة أو الدعم الصناعي أو الزراعي، أو لا مثل أولئك الذين يعقدون صفقات المناجم والأراضي، متحكمين بمقدرات هذا البلد الصغير حيث «الجميع يعرف الجميع» وحيث، مع ذلك، لا أحد،

لا أحد إطلاقاً، باستثناء معلمين آخرين، لا أحد باستثناء جزّار الزريبة الأخرى وبائعة الخضار الأخرى الأبعد منه، لا أحد من «المرموقين» كان يعرفنا نحن آل بينيالوثا... لا، لم يكن غبياً ولا غريراً يتطلّع إلى أن أكون سيداً محترماً مثلهم فقد كان يدرك أنّ ذلك مستحيل، الواحد يولد سيداً محترماً، بفضل إلهي، ثمّ إنّي في نهاية المطاف، ومهما حدث، سأكون دائماً من آل بينيالوثا وهو لم يكن أكثر من معلّم في مدرسة ابتدائية يغطي غبارُ الطباشير بدلته وجدّي لم يكن من قبله غير ميكانيكي قاطرة ترمي بدخان كثير ولا تبتلع إلا فراسخ قليلة. لا. هذا لا. لم يكن ينتظر الكثير ولا يتطلع إلى الكثير. ولكن من يدري أنّني لن أستطيع بالتضحية والتصميم أن أصل إلى أن أكون شيئاً مشابهاً على الأقل، نسخة تستطيع أن تمدّ جسراً، أيّ جسر شرط أن يكون شريفاً، يمكنه من لمسهم لمساً. ولمَ لا؟ ألم يدر الحديث عن ظهور الطبقة الوسطى في بلدنا؟ ألا يمكن أن يحمل الانتماء إلى الطبقة الوسطى - كان ينطق تلك الكلمات بتوقير لا يعلو عليه درجة إلا لفظه لكلمة سيّد محترم - الفرد إلى أن يكون شيئاً مشابهاً؟ محامياً، مثلاً، موثّق عقود أو شيئاً مشابهاً، أو قاضياً. ثمّ الانتقال إلى السياسة. معروفٌ أنّ الكثير من الشبّان مثلي، من دون علاقات ولا مال ولا قرابات ولا حضور، هم شباب من أصول مجهولة كأصلي وبألقاب مضحكة كلقبي، صارت لهم قدم راسخة في السياسة تمكنهم من القفز من فوق الحواجز والوصول إلى أن يكونوا «مرموقين»، هاربين من اليمبوس[11] الذي يغصّ بأولئك الذين يعدمون الملامح. لم يستطع أبي الهرب. بل لم يحاوله قط. كان لعالم الآخرين، عالم «المرموقين» بالحق المكتسب،

١١- اليمبوس Limbo هو في العقيدة المسيحية المكان الذي تذهب إليه أرواح الأطفال الذين يموتون قبل أن يعمّدوا. المعنى الذي تدل عليه الكلمة هنا هو «المنطقة الوسطية أو الوسطى».

«الناس المعروفين»، في نظره أبعادٌ سحريّة وأصداء خرافية. كيف يمكن لخيال والدي المسكين، السقيم المتزمّت في أشياء أخرى، أن يكون جامحاً في هذا المعنى؟ كيف هو عشاؤهم؟ كيف هي بيوتهم. ماذا يقولون وبأيّة كلمات وبأيّ لفظ. أين يمضون مساء الأحد أو مساء أيّ يوم. كان ينفق المال الذي تحصل عليه أمي من الخياطة في شراء كل المجلات والجرائد، وفجأة كان يشتهي شيئاً غالي السعر، عدداً من مجلة (لا اسفيرا). في تلك الأثناء كنّا ننتظر الطعام تحت أهداب الثياب الممزقة - أختي البدينة الكسولة تتنهّد وهي تقرأ أشعار (بيّاسبيسا)، تنظر إلى الأناقة التي رسمها (بارتولوزي)، وصف (غارثيا سانجيث) وهو يتحدث عن نسوة يافعات رائعات، بين ساذجات وخليعات، يستقبلن صديقاتهنّ للحديث عن العاشقين في أماكن غامضة تدعى <المخدع> - أبي يقلّب صفحات الجرائد ليقرأ ويمتصّ ويتشبّع متأملاً بصوت عال هذه الكائنات التي لا يرقى الشكّ إلى وجوههم لأنّه يراها مطبوعة على الورق، لأنّه كان يعرف أشكالهم، وإن لم يكن يعرفهم شخصيّاً، ويطلب منّا أن نسمعَ ما يرويه عنهم، أن نشعرَ بسمّ الحزن الرتيب الذي كان حلمه يحقنه فينا. أتذكّر عينيه الصغيرتين قصيرتي النظر من خلف النظارات وهو يقرأ لنا الأخبار، تلك العينان التي لا أتذكر لونهما لأنهما غرقتا في بحر تشبثهما بالحنين.

بعد وقت طويل، حين ما عاد أبي موجوداً، هذا إذا كان موجوداً ولم يكن كلّه اختراعاً اخترعتُه، ثبت أنّ هوسه كان مجرد خرافة، لأنّ الناس «المرموقين»، ذوي الوجوه، يشبهوننا تقريباً: فهم يأكلون البصل مثلنا، ويجلسون على كراسي أقلّ قبحاً بقليل من كراسينا، التهذيب الذي كان يثير إعجابه ليس له وجود إلا في حفنة من العائلات المنفتحة على العالم. تبيّن أن معظم «الناس المعروفين» هم فلاحون جهلة وبخلاء، يتلفظون بكلمات فظّة، يعربدون في المواخير،

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد ٢١٥

يضربون نساءهم، يخدعونهنّ، هم، في الواقع، كثيرو الشبه بنا وببقيّة المعلمين وبالجزّار وبائع الخضار. ولكن لو أنّ أحداً لمّح بذلك لأبي ما صدّقه. هو كان يعرف أشياء أخرى. يقرأ كل الجرائد. يعرف جيداً الأشياء الهائلة القادرة على تقديم الدعم والترويج للجميع إلا له وإلا لي. كيف لا يؤلمه هذا الاستثناء، وكيف لا يؤلمني، وأنا أرى كم يؤلم أبي؟ فأبي المسكين لم يكن وصولياً، دون خيرونيمو، لا أسمحُ أن تظنّ ولو للحظة أنّه كان وصولياً. بل لا أستطيعُ أن أقولَ إنّه كان طموحاً يطمع في أشياء ماديّة: لم يخطر في باله يوماً أن يقترح عليّ الكسب عن طريق التجارة، مثلاً، لكي أصير «مرموقاً». كلا. أبي كان شيئاً آخر، كان متفاخراً، مهووساً، كائناً معزولاً تماماً عن خيالاته... كان يعيش تأملاً متواصلاً لذلك الحاجز المنيع الذي يفصلنا عن أن نكون «مرموقين». نعم، لا تبلغنّ بكَ الجرأة أن تظنّ شيئاً آخر، كان أبي رجلاً ممزقاً، معزولاً، حزيناً، مألوماً. وفي السيارات التي كانت تتجه صوب المتنزه في المساء مسرعة، كنتُ أشير من على الناصية التي كنّا نعقد المراهنات على رؤيتهم، إلى أولئك المحظوظين الذين لديهم وجه خاص بهم فلا يضطرون إلى الانتحار، كما اضطررتُ أنا بالعمل والكد للحصول عليه: علّمني أن أميّز أولئك السادة المحترمين ذوي الشوارب الهادلة بصحبة سيدات رائعات كنّ في عيني وأنا طفل بقعاً خاطفة تحت مظلات بلون الورد أو الليمون.

كان أبي ذات صباح يقودني من يدي وسط المدينة وكنتُ ذاهباً بالنقود القليلة التي جمعتها أمي المرتابة التي كانت، مع ذلك، تخيط وتخيط، لشراء أول بدلة غامقة لكي أشعر منذ صغري بضرورة أن تكون ملابسي ملابس سيّد محترم. قميص أبيض وربطة عنق سوداء جاهزة العقدة وحذاء جلد لمّاع: الطقم المكرّم الذي يولد ليكون لمّاعاً في المقعد وفي الكوعين. كان أبي يتحرّق مدفوعاً بشوقه الذي

سيطفئه بعد لحظات حين يشتري لي قناع السيّد المحترم، وكنتُ أنا أرافقه فرحاً، فكأنّ البدلة الجديدة ستفتح لي نافذة على منظر طبيعي غير منتظر كلّ شيء فيه ممكن، نعم، ولمَ لا، أبي، سأكون مرموقاً، محامياً كبيراً، سياسياً عظيماً، انظرْ إلى علاماتي الممتازة في المدرسة، اسمعْ ما يقوله أساتذتي عن تفوقي في التاريخ والإنكليزي والفرنسي واللاتين، نعم، سأدرسُ، سأفعلُ كلّ ما تتمناه، أعدكَ بذلك، سأحقق حلمكَ كي لا تعاني أكثر، لا أطيق هذا الحزن الذي تشعر به. البدلة التي جئنا لشرائها يجب أن تكون جيدة، متينة، واسعة لكي لا تضيق عليّ سريعاً، قليلة الرونق لكي لا يتنبه الناس إلى أنّها الوحيدة التي أملكها، ورخيصة قدر الإمكان. لم نكفّ عن التطلع إلى واجهات المحلات الأنيقة وسط المدينة وإن كنّا نعلم أنّنا لن نشتري هناك بل سنشتري بالأقساط في حانوت بسيط في حيّنا لا تثير ماركته الريبة، كنّا نعلم أنّني هناك سأقتني قناعي الأول. كان الوقت ربيعاً، وكانت النساء يرتدين ثياباً خفيفة ولا ضير في التطلّع إلى الواجهات التي تغصّ بالأشياء الفاخرة.

شدّ أبي يدي فجأة. تابعتُ وجهة نظرته ووحّدتُ نظرتي معها. كان يتقدمْ في الشارع، بين الزحام الفرِح في ذلك الصباح، رجل طويل، مقطّب الجبين لكنّه ظريف، أشقر الشعر، نظرته لطيفة مغلفة بشيء فسّرتُه أنا بأنّه ترفّع مؤدبٌ، يرتدي لباساً لم أتخيّل أنّ رجلاً من الرجال يجرؤ على ارتدائه: رمادي في رمادي، فاتح جدّاً، رمادي اللؤلؤة، رمادي الحمامة، دخان، حذاءان طويلان، جزمتان من جلد الشمواه، وجوربان لا رماديان ولا بلون القشرة ولا أصفران ولا أبيضان، من جلد خالص، ناعمان، حيّان تقريباً. كان يحمل ناظور سباق معلّقاً بصدره، ويرتدي قفازاً ويحمل الآخر في يده. حين مررتَ بالقرب منّي في الزحام الصباحي، خدشني ذلك القفاز الذي كنتَ حضرتك

تحمله بيدكَ هنا، في ذراعي، في هذا المكان بالضبط: ما زلتُ أشعر به، ما زال باقياً فيّ بعد هذه السنوات الطويلة، تحت هذه الأسمال التي تخفي أيضاً جرح رصاصة.

يومها، حين نظرتُ إلى حضرتك، دون خيرونيمو، انفتحتْ فيّ ثغرةٌ من جوع ومنه أردتُ أن أهرب من جسدي السقيم لأنضمّ إلى جسم ذلك الرجل الذي كان يمرّ، أن أكونَ جزءاً منه ولو كان ذلك الجزء خياله، أن أكون فيه، أو أن أمزّقه كاملاً، أقطّعه إرباً لأستولي على كلّ ما يملكه، مظهره، لونه، ثقته، ولأنظر إليه كاملاً من دون خوف، فما كان ينقصه شيء، ليس لأنّه كان يملك كلّ شيء بل لأنّه كان كلّ شيء. أمّا أنا فلم أكن شيئاً ولم أكن أحداً، وهذا هو ما علمني إيّاه حنين أبي المقيم. كان ينطق مقاطع اسمه: خيرونيمو دي آثكويتيّا، وقد تمكنتُ من فكّ شفرته من تأتأته، بالنظر إليه دائماً، جائعين نحن الاثنين، بينما حضرتكَ كنتَ تقف على درج البنك للحديث مع مجموعة من الأصدقاء والسلام، رافعاً قبعتك الرمادية، لهذا الشخص المار أو ذاك.

واصلنا السير لأننا لم نكن نستطيع أن نظلّ واقفين هناك، نتطلّع إليه، وهو ما كان يريده هو ونريده نحن. تنهّد أبي. ما كان أقربَ منّا وهو يمرّ. ونحن لا نعرفه، لا نستطيع السلام عليه، بل لا نعرف شخصاً يعرف من يعرفه، لكي يذكر على الأقل اسمنا أمامه. لم يتنهّد أبي لأنّ ذلك كان سيكون كافياً لكي أنجح إن تكرّم دون خيرونيمو ووظّفني عجلة صغيرة في واحد من تروس المسننات الكثيرة التي يتحكّم بها، بعد أن عاد مؤخراً من أوروبا وكان، بحسب ما يقال، على وشك الزواج. لم يتنهد أبي ذلك الصباح من ذلك وحسب، دون خيرونيمو. بل تنهد من أمر آخر، تنهّد من حنين نظرته المتألمة العصية على العلاج، نظرته التي بدأتْ تؤلمني من دون أن يرجى لها شفاء.

تنهد أبي من ألم ما لا يمكن الإمساك به، ألم فكرة فنتازية، مجردة، تنهّد من الحزن الذي يحدثه ما لا يمكن بلوغه، تنهّد من الهوان الذي يحسّه المرء إذ يدرك أنه غير قادر على بلوغه، بسبب هذا الحزن تنهد أبي ذلك الصباح، دون خيرونيمو، بسبب ذلك الحنين.

٧

– مرحباً، تيتو. كيف سارت الأمور معكَ؟

– سيئة.

– لماذا؟

– لم تدعْني. كانت تضحكُ طوال الوقت لأنّ كلبة اندستْ في الفورد وكانت تنظرُ إلينا من النافذة، ثمّ تخرج وتلعق رجلها، وتسحبني من بنطلوني. انظر، لقد مزقتْه من هنا. وكانت خينا تتلوّى من الضحك، الغبيّة. بعد ذلك، حين ظننتُ أنّني سأظفر منها ببغيتي، بعد أن ظننا أنّ الكلبة انصرفت، ظهرت الكلبة ثانية وهي تنظر إلينا من النافذة، وكأنها تضحك، تلعق خطمها وتحرّك رأسها وكأنّها تتذوّق، تصوّر، وحينها لازمتني الضحكة ولم أستطعِ، وخينا أيضاً انفجرت ضاحكة ورفعتْ سروالها وبقيتُ أنا برغبة معلّقة...

– عجباً للغبيّة! ما أسوأ حظك أيها الفتى. انتظر فرصة أخرى.

– سأحصلُ لك على واحدة جيدة بحق. لكنّ اللوم يقع على خينا. فتلك الكلبة الصفراء تتبعها دائماً ويقال إنّها أفسدت الأمر على صبيان آخرين. هذا غير مقبول. سأتكلّم مع روموالدو ليعيد لكَ النقود.

– طبعاً. أنا لم أصل حتى إلى تقبيل صدرها.

جبريل هو أخ تيتو الأكبر، وهو صاحبُ تجارة المجلات

والروايات المستعملة. تمكن من شراء منضدتي فوتبول راح صبيان الحيّ يلعبون بهما. يفرك رومو الدو شاربيه وهو يعدّ العدة للعبة ذكيّة. يحاجج، يتكلّم بصوت عال، يوجّه، يشيع بحركاته نشاطاً أكثر من بقيّة الأولاد. إنّه أكبر منهم بقليل. ينوي شراء دراجة نارية صغيرة. بعض الصبية لا يلعبون معه لأنّه متكبّر، ويحسب نفسه مهمّاً، يقولون، لا أدري ما الذي يدفع رومو الدو إلى التكبّر، لكنّه تغيّر كثيراً منذ أن اشترى الساعة... من الأفضل أن نذهب إلى الرفوف لنأخذ المجلات، نتصفحها ونعيدها إلى مكانها، نأخذ أخرى، نريها لأحد يقف مستنداً إلى كوعه عند طاولة البيع أو جالس بالقرب من خينا في المقعد. بعد الخروج من المدرسة نمضي المساء في دكان جبريل، خصوصاً حين يحلِ الظلام باكراً، بحجّة أنّنا قد نشتري إحدى الروايات، لكنّ علينا أولاً أن نتصفحها جيداً لكي نرى إن كانت تناسبنا. خينا تسمح لمن يقرأ لها المجلة بمداعبة ساقها. خبأ تيتو رأسي وبدلتي خلف طاولة البيع: وجهه ضيّق كوجه عصفور، ملطخ بحبّ الشباب.

– اسمع، رومو الدو، عليك أن تعيد النقود إلى أخي. خينا لم تدعه يفعل شيئاً معها.

– انظر أيّها الصبي، أنا لا أدري ماذا أراد تيتو أن يفعله معها، فأنا لا أعرفها إلا قليلاً. أنا أؤجّر رأس العملاق لكلّ من هبّ ودبّ، لكنّي لا أعرف لمَ يستأجرونه منّي، هذا شأن خاص بكلّ صبي، لذلك ما عليكم أن تأتوني بأسئلة ومشاكل.

– لا تتصنّع البراءة.

– لو كان أخوك رجلاً بحق، فحلاً حقيقياً، لنال منها مبتغاه لا أكثر.

– أخي غلام صغير، فحذارِ أن تتكلّم عنه بسوء...

اقترب الآسات الأربعة للسماع.

- نعم، أيّها اليتيم الصغير. ليس الذنب ذنبي في موضوع الكلبة الصفراء تلك. تيتو استأجر رأس العملاق منّي، وأنا عملتُ له تخفيضاً لأنّه أخوك، لكن ما من سبب يدعوني إلى معرفة غرضه من استئجاره. هذا لا يعنيني.

تركنا المجلات فقد توقعنا أن تحدث مشادة، وغادرنا منضدة الفوتبول. الآسات الأربعة يحبون تيتو كثيراً ولن يتحملوا أن يغشّه شاب مثل روموالدو، فما تيتو إلا فتى صغير أراد أن يطلع ويجرّب... طبعاً، فلا بد من بداية. كان آنثيتو الأكثر غضباً بينهم.

- أيّها القواد العفن.

سدّد له روموالدو ضربة على عينه فاندفع الآسات الثلاثة الآخرون نحوه، لكنّ روموالدو تملّص منهم، لا تظهروا لي سخافاتكم، خينا عاهرة، وليس اسمها خينا، ما علاقتي أنا بها، دعوكم من العراك، أيّها الفتية القذرون، وكل ما يقع لي هو بسبب اختلاطي بأطفال مثلكم، هيّا، أنا ذاهب، أين رأسي، سآخذ رأسي ولن أعود إلى هذا الحيّ. ينحشر أندريس خلف طاولة البيع ويعاود الظهور وهو يلبس رأسي ويمسك به بكلتا يديه ويرقص.

- انزع عنك رأسي، أيّها الغلام العفن.

- رأسه، رأسه، رأس اللؤلؤ، انظروا إليه فقط... رأس السيّد روموالدو.

ينبري له جبريل. ندخل جميعنا في جدال فالموضوع يتطور، والمسألة تسوء. لا تخدعنا، روموالدو، كل من في الحيّ يعرف ما تفعله مع خينا ومع رأس العملاق مستغلاً أنّ البنت نصف بلهاء. ليرحل روموالدو، قلنا جميعاً، لن يحتاجه أحد في هذا الحيّ، منذ أن اشترى

ساعة مع سلسلة ذهبية صار يحسب نفسه شيئاً مهماً، ولن يتقبل أحد بالطبع موضوع الدراجة النارية، ليرحل روموالدو، إنّه قواد عفن. ولكن عليه أولاً أن يعيد النقود إلى تيتو.

- لن أعيدها.

نزع أندريس رأسي.

- سلمْني رأسي، قلتُ لكَ. فأنا ذاهبٌ وينتهي كلّ شيء... ما أكثر اللصوص في هذا الحيّ...

- حقّاً؟ لصوص؟ السيّد روموالدو يريد رأسه، تصوّر، لن ننفذ مطلبه فهو الآن مهمّ وسيشتري دراجة نارية.

- يقال إنّه سيشتري واحدة من تلك السيارات الكبيرة، السوداء، مع سائق.

- أظنّ أنني سمعتُ أنّه يفضّل واحدة بسقف متحرك بيضاء.

- أو حمراء.

لا أحد يلتفتُ إلى إيريس التي تصرخ وهي ترى أندريس يرمي برأسه إلى الأرض. توقف اللعب في منضدتَي الفوتبول. خينا، اهدئي، لا تكوني غبيّة، ليمسكْ بها أحدٌ فهي كالمجنونة ولن تدعنا نتكلم مع «السيّد» روموالدو.

- اسمع آنسيلمو، تصوّر أنّ «السيد» روموالدو، طبعاً فهو الآن مالك رأس العملاق وسيشتري سيارة ولا بدّ أن نطلق عليه لقب «السيد» بكل احترام، تصوّر أنّ السيد روموالدو يرجوكم أن تتكرموا بترك رأسه، رأس العملاق له لأنّكم قد توسخونه.

- ما أغرب هذا! ما كنتُ أعرف أنّ الرأس رأسه. وكنتُ أظنّ أنّ روموالدو هذا شحّاذ ميت من الجوع ليس غير، قواد عفن لا يملك شيئاً.

- كيف تجرؤ!
- حذارِ أنطونيو، اعتنِ برأس «السيد» روموالدو لأنّه رقيق جدّاً.
- اتركوه لي، أيّها القذرون...
يتقدم جبريل.
- لا تأخذنا بصراخك هنا، روموالدو. وأنت أيضاً، خينا، ابقي ساكتة، لا تكوني غبيّة. قد يأتي رجال الدرك ويعتقلونني، ألا ترون أنني غير قانونية، ولا أدفع ضريبة مزاولة المهنة. كفى خينا، اسكتي، أيّتها العفنة، امسكوا بها أيّها الصبيان، إنّها لا تتوقف عن شيء، حتى عن الكلام.

رمتْ إيريس بنفسها على الأرض لتحضنني. غبار الأرضية يحرق عينيّ. يأخذني أندريس، ويبدأ بضربي وكأنني طبل بينما ارتجل الآسات الثلاثة الآخرون وتيتو رقصة توم- توم- توم- توم وكأن ضربات أكفّهم لا تؤلمني توم - توم - توم يرفعون إيريس من على الأرض توم - توم لكي ترقص معهم وهي تبكي على إيقاع صفعاتهم على وجهي توم - توم- توم - توم- توم هيا خينا، ارقصي، أكثر، لفّة أخرى وكسر روموالدو حلقتنا ليهاجم أندريس، الذي تركني أسقط على الأرض. تئن إيريس، تدفع عني الآخرين الذين يريدون إنهاضي، كلنا نريد حيازة رأس العملاق لأن هذه اللعبة الصغيرة صارت مسليّة حقّاً وأسقطنا بين الجميع روموالدو أرضاً. أمسك به الآسات الأربعة وهو على ظهره يرفس ويبصق، لكنّه توقّف فجأة عن الرفس والبصاق. ما عاد من سبب للإمساك به. وضع يده فوق أنفي المعقوف. كانت دائرة وجوهنا الفتيّة تحيط به من فوقه، بين ظريفة ومهددة، إيريس بعينيها اللتين عكرت الدموعُ صفاءهما، قال جبريل لروموالدو:
- سافل.

فتح روموالدو عينيه اللتين جُرّدتا من دقتهما السوداء. يستعيد ببطء جلسته على أحد كوعيه فيمنعه الآسات الأربعة من النهوض ويدوسون عليه. يسقط مرّة أخرى على الأرض، من دون أن يلمسني هذه المرّة، عيناه مغلقتان، عضلاته واهنة، شعره أشعث، ملابسه ممزقة. لا يتحرك فيه غير شفتيه:

- ليس الذنب ذنبي، بل هو ذنب شخص آخر.

يريد أن يشيَ بالموديتو. يريد أن يشرحَ من هو، هو من دلّه على هذه اللعبة التي تشهد نهايتها. لكنّه لا يعرف من أنا. لا أحدَ في الحيّ يعرفني لأني لا أخرجُ. لا يعرفون أنّني في حماية جدران عجينة الورق لرأس العملاق، أنظرُ إلى كلّ شيء.

- أيّ شخص آخر؟

لا يستطيع التوضيح. يقول:

- خينا عاهرة.

- اسمعي خينا، دون روموالدو يقول أشياء قبيحة عنكِ...

- من؟ إنّه الجنجون... عجباً، إنّه مستاء لأني لم أقبل أن يداعبني. يا له من ثقيل، ومن حسن حظي أن العملاق دافع عنّي...

- أليس صحيحاً أنّه ميت من الجوع؟

- لم يهدني شيئاً قط.

- خوّفيه، خينا...

تجأرُ إيريس، تؤدي حركات قبيحة فتمطّ شفتيها وتصكّ على أسنانها وتشبك شعرها.

- كررر، أنا نمرة برودواي، كرررر، سألتهمك حيّا، كررررر...

- التهميه، خينا.

- اركليه.

- كررررر، أنا النمرة...

ضاقت حلقة المجموعة التي شكّلناها لمشاهدة الاستعراض حول روموالدو وإيريس إلى حدّ أنّ أرجلنا غطّت عليّ... منذ خمس دقائق وأنت لا ترينني، إيريس، ها قد نسيتني: أنتِ نمرة برودواي، التي ترقص في الناصية وفي نافذة البيت، منساقة إلى هذه اللعبة الجديدة التي تمحو سابقاتها وتستبدل بها غيرها، تؤدين رقصة متوحشة حول جثّة ضحيتكِ الملقاة. من الأرضيّة، بين عظام الساق أراك تخلعين حذاءك، ترفعين تنورتك لعرض ساقيك، تحرّكين مؤخرتك، نصفّق متحمسين، لقد صفقنا لك دائماً، تدوسين على روموالدو وسنضع نحن أيضاً قدمنا على صدره إن هو حاول النهوض. أندريس يبحث عني ويجدني.

- انظرْ، روموالدو، انظرْ إلى هذا الشيء الجميل الذي عثرتُ عليه. أتريده؟ خذ، العب به، آنيثيتو...

رأسي يطيرُ في الهواء، يتلقاه آنيثيتو، يقذفني ويتلقفني أنطونيو، الذي يقذفني من جديد، أطيرُ، أطيرُ، تشقّ أذناي المتينتان الهواء من فوق رؤوس الصبيان الذين يلعبون بي وكأنني كرة كبيرة، تيتو، جبريل، إيريس المفزوعة تصرخ الجونجون، روموالدو ساحر وقد حوّل عملاقي إلى جونجون وما زلتُ أطير، أطير بخفّة وقد تحوّلتُ إلى جونجون، أطيرُ من يد إلى أخرى إلى أن يتركني أحدهم أسقط على الأرض. الضربة كدمت لي واحدة من أذنيّ. ليست لي يدان لألمس بهما قطعة عجينة الورق الرمادية تلك التي تؤلم في الموضع الذي انكشط صبغه.

- انتبهوا لرأسي، أيّها العفنون، أقول لكم...

- رأس التحفة...

- احذروا أن توسخوها، أيّها السفلة...

- انظر، روموالدو. أترى؟ إنّه يتقشّر هنا عند الأذن. من الأفضل أن نزيل عنه كلّ هذه القطعة.

وبجرّة واحدة نزع آنسيلمو قطعة من الأذن وعرضها بين صراخنا وتصفيقنا. أخذتها إيريس منه. جثت تولول لكي أعيد قطعة الأذن إلى مكانها لكنّ ذلك ما عاد ممكناً، فالقطعة لا تلتصق. يركلها أحدهم ثمّ يدوسون على تلك القطعة من أذني. تظلّ إيريس إلى جانبي، تبكي لأنّها تعرف ما سيحدث، تعرفُ ما سنفعله، ونحن منتشون بصخبنا، بي وأنا لا أملكُ يدين للدفاع عن نفسي ولا رجلين للهرب، عندي فقط عينان لأنظر بهما وجلدٌ رقيق من الصبغ لأحسّ بالضربات.

- انظروا، انظروا ماذا فعلتم بالأذن، سيقتلني صاحبُ الحانوت، لقد حولتموها عمداً إلى قطعة من الجلد، أيّها التعساء، ستضطرون إلى أن تؤدّوا لي ثمن التصليح.

- ما من تصليح، روموالدو. أنت ميّت.

راحوا يتقاذفونني، يتركونني أسقط على الأرض، يرمون بي إلى الهواء، تركض إيريس ورائي لإنقاذي، يسمحون لها بأن تأخذني، ينزعونني من يدها، لا، لا، لا تقتلوا العملاق، إنّه طيب، يقذفون بي إلى الهواء مجدداً، مرضوضاً، متألماً، مكشوطاً، وبدت عجينة الورق الرمادية مكشوفة من تحت ألوان جلدي المصبوغ، يتركونني أسقط على الأرض، تنكسر قبعتي، لكنّ هذا على الأقل لا يؤلم. يزحف روموالدو حتى قدمَيْ واحدٍ منا، حيثُ أنا: آنسيلمو. وحين كان روموالدو يهمّ بأن يغطيني بجسده ليحميني، دفعني آنسيلمو بقدمه ودحرجني حتى قدميْ آنيثيتو، الذي سأل:

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٣١٥

- مرحباً، هل ستعيد النقود إلى تيتو؟

- لا.

وردّ آنيثيتو بركلة على وجهي، انحشرتْ قدمه في لحمي الممزق الذي أمسك بتلك القدم التي تفتتني، ومن جديد ما عاد لي وجه، ملامحي بـدأتْ تتحلل، ستزول، بالكاد أرى بعينيّ المهشمتين، سأصبح أعمى، ولكن ليس أعمى، فلا شيء منّي سيبقى، بدأ آنيثيتو يسير بقدمه التي انحشرت في وجهي، يدوسني من الداخل، يعرج، ونموت من الضحك نحن الآخرون، اسمع، اللعنة كم هو ضيّق، كم هو مسلٍ هذا الآنيثيتو الأحمق وهذا الروموالدو الأبله وهو يلاحقه حبواً للظفر بالرأس، وكأنّ الرأس لم يعد كومة من خرق عجينة الورق، وكأنه قادرٌ على إنقاذه، مكرمشاً، مكشوطاً، منزوع الصبغ وإيريس البلهاء تطارد روموالدو، تجري خلف الرأس وخلف آنيثيتو، لماذا تريده بعد أن لم يعد جديراً إلا بأن يرمى به إلى المزبلة، ومزقته أكثر وهي تحاول أن تنتزعه من آنيثيتو وتصرخ من الفزع، انظر، لقد حازت على القبعة، البسيها خينا، هي كبيرة عليك، ارقصي خينا وأنت تلبسين قبعة العملاق، ارقصي، هكذا، هكذا يعجبني، يا حلوة، أعطني القبعة لأرتديها أنا، لي، لا، لي، أنا أريد، لنقتسمْها، أنا أذن واحدة، لا، لا، رجاءً، ماذا سيقول لي السادة الأتراك، كيف سأسدد رأس العملاق وأنا فقير، وسأطردُ بسببكم من العمل، ستضطرون إلى أن تدفعوا لي الرأس، انظروا، قطعة من عين، أيّها الصبيان البائسون، سأنادي على رجال الدرك ليحبسوكم كلّكم بدءاً بك أنت جبريل، فأنتَ خارج عن القانون وعليكَ أن تكون حذراً، حاول ذلك يا روموالدو التعيس، إذا جاء الدرك فسنحكي لهم أنّك تستغلّ هذه البلهاء المسكينة خينا وهي قاصر، وكلّنا قاصرون، أمّا أنتَ فقد بلغتَ الحادية والعشرين ولم تلتحق بالخدمة العسكرية، انظروا إليها كيف تبكي كالغبية البنت

البلهاء، وبيدها أنف العملاق، ارقصي مع القضيب، خينا، ارقصي، وكفّي عن البكاء، هيّا، لا تكوني حمقاء وارقصي. ارمِ لي بقطعة أخرى من الرأس، جبريل، لي، أنطونيو، لي، تيتو، أنا أريدُ الأذن الأخرى، أسنان الأرنب هذه، شقها، واحدة لك وواحدة لي، وحين يأتي رجال الدرك ونحكي لهم أنّك تستغلّ خينا التي تظنّ نفسها راقصة لأنّ البنت المسكينة لا تعي أنّها عاهرة، لن يعجب رجال الدرك ما سنحكي لهم على الإطلاق، لذلك ستكون أنتَ الخاسر، هيّا، ليتصل أحدكم برجال الدرك، نحن لن يحدث لنا شيء، أمّا أنتَ فنعم، لأنّك قوّاد، لأنّك سافل. لا، خينا، لا تذهبي للإفادة حين يأتي رجال الدرك، انظري كيف يرقص أندريس وهو يضع الأنف كالقضيب، إنّه الشيء الوحيد الباقي، ما عدتُ إلا قضيباً، أنفي الكبير تحوّل إلى قضيب، أنا قضيبٌ مترهل، فارغ، من كارتون، لا أكثر، كلّي ضعيف بلا دم ولا أعصاب، ثمّة من يمسك بي، هيّا، اتركْ قضيبي، أين تراها ذهبتً إيريس البلهاء التي فوّتت على نفسها فرصة حضور أمتع اللحظات طلباً للهرب، لقد خرجتْ راكضة لأنّها تخاف من رجال الدرك، هيّا، أطلقه، إنّك تمزقه، لماذا تعمل منه سيراً إن كانوا قطّعوا البقية إرباً، انظروا القطع في الأرض، جميع القطع الرصاصية لرأس العملاق الذي كان جميلا جدّاً، لا، لا تمزّقوا لي هذا، فهذا هو ما تبقّى لي، اتركوه لي، يتنازعون القضيب بينهم، يمزقونني وهم يتنازعون قضيبي الرائع، في قطعتين، في ثلاث قطع، لم يبق شيء وخينا البلهاء التي ذهبتْ، يقولون إنّها تغلق عينيها وتفتح فمها وتتنهد حين تقبّل كما تفعل الممثلات وتقول ما ألذّ النانا ي، أيها الجميل، مزيداً من المداعبة، أين تراها ذهبت خينا في هذا المطر؟. أما وقد انتهى العملاق فلن تعاود هي الإطلالة من شرفة الدور العلوي كي ترقص لنا، يا خسارة، كانت خينا البلهاء ترقص جيداً، هذا نعم، قد تكون بلهاء ولكن بسبب الرقص، لأنّ البنت ترقص باندفاع

كبير. زحف رومو الدو حتى الباب. ما عاد أحد يتذكره. نهض وهو يلهث. عندها فقط رآه جبريل:

– لن تنصرف.

– أعد النقود، رومو الدو.

– حرامي.

– سافل.

– مُفسد الصبيان.

وقبل أن نتمكن من مسح دموع الضحك، هرب رومو الدو عبر الشارع المظلم. تجمعنا عند الباب نصرخ به سافل، بائس، ميت من الجوع، متوحش، حرامي، ملوّحين بقطع من العملاق كمناديل الوداع. لم يحاول أيّ منّا مطاردته لأنّ المطر اشتدّ واختفى رومو الدو في دقيقة في شارع من دون مصابيح.

– طيب.

– كانت الحفلة جيدة.

– ومجزية عن النقود التي سرقها منكَ...

– طبعاً، أنتم استمتعتم وأنا دفعتُ.

طلب جبريل من أخيه ألا ييتئس، فسيُعيدُ هو له الألف بيزو. وربتَ الآسات الأربعة على ظهره، اهدأ، يا رجل، وما قيمة الألف بيزو، سنأتيكَ بامرأة جيدة بحق، امرأة حقيقية تستطيع معها أن تندس في السرير كما خلقك ربّك، ودعكَ من تفاهات حشر نفسك في رأس عجينة الورق لمضاجعة بنت قرب الحائط، قد يكون ذلك جيداً للمداعبة باليد، أمّا للمضاجعة فليس أفضل من السرير مع امرأة ساخنة محشورة فيه، لليلة كاملة، لا أستطيع أن أظلّ ليلة كاملة خارج البيت

لأنّي أمي وأبي قد يغضبان فأنا صبي صغير، أنا سأوفر لك الغطاء، تيتو، سأخدع أمّي لتتمكن أنتَ من قضاء ليلة كاملة مع امرأة ساخنة في السرير، أما ما عدا ذلك فلا يستحق قلقك وأنا سأعطيكَ ألف بيزو لترضيتكَ وتبدأ أنت بجمع النقود لتدفعها إلى امرأة جيدة بحق.

انطلقنا تحت المطر. فجأة قال أندريس إنّ الوقت متأخر وخرج من الحانوت. طلب جبريل منّا نحنِ الباقين أن نساعده في الترتيب قليلاً، فقد أجابته أمّه إلى طلبه، سأدعكَ تستخدم الغرفة الوحيدة المطلة على الشارع لتجارتكَ في بيع وشراء المجلات والروايات، لكنّي شختُ ولديّ الكثير من العمل ولستُ مستعدة للانتحار في كنس المحلّ ولا لمساعدتكَ في شيء. كنتم أنتم أيها الصبيان من سبّب الفوضى، وعليكم أن تساعدوني في التنظيف.

رفع جبريل المجلات الملقاة في كل مكان وراح يرتبها على الرفوف. وانغمس آخر في منضدة الفوتبول، تركها، وراح يلملم من دون همّه كومة من قطع العملاق. اقترب آنيثيتو وآنسيلمو من طاولة الفوتبول لكنّهما لم يمسّا اللاعبين، فهؤلاء تقليد خاوٍ لأبطال الملحمة الحقيقية. تثاءبا، خرجا من الحانوت، ومن دون وداع انطلقا راكضين تحت المطر، كلّ منها في وجهته. لم يبق غير آنيثيتو يساعد الأخوين في جمع القطع في الجرادل. فإن كانت القطعة كبيرة ولا يتسع الجردل لها كانوا يكسرونها لكي تتسع. هنا لدينا مقطع آخر من العين، أبيض، معٍ نقاط سوداء كالنجوم، والحلمة لا بدّ أنّها لأذن حمراء. حين نظف كلّ شيء، وجد جبريل بدلة العملاق، منهكة وباهتة الألوان خلف طاولة البيع.

– ياه. لقد نسينا هذه!

– ماذا سنفعل بها؟

- لا تنفع في شيء.

- لنهدها إلى خينا.

يضحكان.

- كانت كالمجنونة البلهاء.

- هل يعقل أنّها كانت تظنّ...؟

- إنّها عاهرة. وتدّعي البراءة في موضوع العملاق.

ظلّ آنيثيتو في الباب ينظر إلى المطر، بانتظار أن يتوقف قبل أن يذهب. قال:

- لا أظنّ. إنّها غريبة الأطوار. يقولون إنّها عندما تضاجع فهي تفعل ذلك عن لعب، ولا تضاجع عن جد كالنساء الأخريات الأقل جهلاً، وتردد كالأطفال ناناي ناناي. اسمع، أحياناً أتمنّى أن أذهب وأخبر الراهبات، كي لا يقع مكروه لهذه البنت التي يقولون إنّها فوق ذلك يتيمة.

- لا تتدخل، آنيثيتو.

- بلى، لا تتدخل.

- طبعاً، من الأفضل عدم التدخل.

- هيّا، آنثيتو، أريدُ أن أغلق.

- سيضجر في البيت.

- الروموالدو، لو رأيت كيف كان!

- لن نراه ثانية في هذا الحيّ. ماذا سيقول له السادة الأتراك المشهورون؟

- هيّا، آنيثيتو...

- لا تظلّ تتكلّم هناك.

يتوقف المطر.

- أنا ذاهب: كم بعتَ اليوم؟

- لا أدري. لا أظنّ أنني بعتُ كثيراً، غدا سأعاين الصندوق. العمل يقلّ حين يسقط المطر. أكثر ما أزعجني هو أنّ بعض البشر استغلّوا الصخب الذي أثرتموه ليسرقوا منّي بعض المجلات الجديدة التي كنت قد اتفقت عليها.

أنا ذاهب.

لا يرد الأخوان. صارت بيوت الرصيف المقابل بنفسجية وما عادت أغصان أشجار الجوز بقعاً من السواد، بل رسوم على ضوء المصابيح.

- في أيّة ساعة تفتح غداً؟

- حسب...

- لا أدري إن كنتُ سأمرّ.

- لا تأتِ بعدَ الآن.

- وداعاً جبريل.

- وداعاً.

- وداعاً تيتو...

- وداعاً.

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

٨

القبو دافئ وذكيّ الرائحة وتضيئه شمعة في شمعدانها. أرقدت العجائز السبع إيريس في السرير. هذه الفتاة المسكينة ليست على ما يرام. نزعتْ ريتا ودورا عنها ملابسها بسرعة، جففنَ شعرها، وهو أصعب شيء لأنّ شعرها مجعّد، ما أكثف شعرها بحق الربّ، لن يجفّ شعرها أبداً وقد تصاب بالتهاب رئوي فهو كثيف مبلول، يدثرنها بالملابس، قميص قطني، جوارب، ثوب صوفي، شال، ماذا بعد، نعم، قنينة ماء ساخن عند القدمين وإذا كان الماء يغلي فيجب إدخال المصاصة في القنينة، مصاصة مأخوذة من المكنسة، كي لا تنكسر القنينة الزجاجية من الماء المغلي. تقرّب ماريا بنيتيث المدفأة. يدثرنها بالشالات جيداً، ما أدراني بالذي أصاب هذه الصبيّة، المبللة كما وجدناها، مرميّة في بركة من الماء في باحة البوابة، بلا حذاء، من يدري أين تركتْ حذاءها. يلمسنَ جبهتها، أكّدتْ ماريا بنيتيث لنا أنّها ليست محمومة، ليس الأمر خطيراً، دثار وزيزفون مع الليمون الساخن ومراقبتها لكي لا تحاول أن تنهض من جديد، صبية عنيدة، حين يكون الطقس عاصفاً وبارداً ومع هذا المطر. أعطوها الزيزفون مع الليمون حين تستيقظ، فأماليا تحضّره. دعوها تستريح. دعوها تنام.

– لا داعي للعجلة.

داميانا تكنس. دورا تنسج. روسا بيريث، التي لا تنفع في شيء،

راحت تعمل ضماداً من الغزل لإيقاف النزيف، فكل شيء جائز، فالواحدة لا تعرف أبداً ما قد يحدث مع الولادات الأولى، أمّا مع الطفل الثاني والثالث، فليس الأمر مهماً كثيراً، إحدى خالاتي أنجبت ثمانية عشر ولداً. نشاطاتنا تحدث ضجيجاً طريّاً، قطنياً، ليس فيه ما يقلق نومها. تتململ إيريس:

- سيدة ريتا...

تقترب ريتا. نقترب جميعاً. تجلس ريتا على حافة السرير، تداعب جبهتها، تبحث إيريس عن يدها، تعصرها، عيوننا دائماً مغرورقة بالدموع، تتندّى حين تشهد ذلك المشهد المؤثر.

- كيف تشعرين يا ابنتي؟

تنظر إيريس إلينا متفاجئة، لأنّها تطلّ فجأة على عالم مروّع، جديد، شفتاها ترتجفان، الخوف يغزو ملامحها المتوترة. خبّأت يدها. بكت قليلاً، ثم بكت أكثر فأكثر، فكأنّ روحها تفارقها، ما الذي يؤلمها، تبدو وكأنها لا يؤلمها شيء، تبدو وكأنّ هناك شيئاً آخر، لا أدري إن كان هناك من قال لها إنّهم حكموا على أبيها بالموت بتهمة القتل العمد، نعم، سمعتُ الأم بنيتا والأب آثوكار يتحدثان عن أنّهم سيعدمونه رمياً بالرصاص.

- وظهر هذا في الجريدة.

نظر الجميع إلى داميانا.

- وما أدراكِ أنتِ؟

- قرأتُ ذلك... طبعاً في جريدة من شهرين ظهرتْ فيها صورة والد إيريس، ولا بأس في مظهره... لا بدّ أنّه مات.

- أراهن أنّكِ أخبرتِها بذلك ولهذا ترينها على هذه الحال.

- أنا؟ ولماذا أخبرها؟

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

اخترنا داميانا لتخلفَ بريجيت وتكمّل العدد سبعة من العجائز اللاتي سنتكفّل بطقوس الولادات والوفيات. داميانا صغيرة الحجم، قزمة تقريباً، ذراعاها قصيرتان وساقاها أيضاً، فم كبير أدرد مثل فم طفل رضيع، وجهها تجاعيد متشابكة ومعقدة حول عينين صغيرتين لكنّهما برّاقتان. تواصل الكنس. ليس لديها ما يجعلها قريبة من إيريس، مثلنا، إنّها مستجدة، وهي الأخيرة بين الأخريات. مع ذلك لا يمكن أن ننفي أنّها مطيعة، وهي فرحانة لأننا اخترناها وقدّمناها على ثونيلدا تورو، على الرغم من أنّ هناك من يقول إنّها حين كانت خادمة كانت تُطرد من البيوت لأنّها كانت تُكثر من التسكّع في الشوارع. تحاول أن تكون عند حسن ظننا، وكأنها خادمتنا.

– داميانا، اسلكي لي هذا الخيط بالإبرة، فأنا لا أرى شيئاً.

– داميانا، إبريق الشاي يفور...

– داميانا، انظري، أظنّ أنّك تعرفين طريقة عمل ثقب في حلمة الرضّاعة، انظري، تحمين إبرة بالنار وتنظفين ثم...

خذي إيريس، هذا الزيزفون بالليمون الساخن سيجعلكِ تشعرين بالراحة، كفّي عن البكاء، ما بكِ، لا تديري وجهكِ إلى الحائط، لا تنزوي صوب أولئك الرجال الملتحين القبيحين الذين يحملون بندقية صغيرة... فكرة الموديتو في وضع أولئك الجبابرة عند سرير إيريس، هذه الصبيّة ستصاب بالفزع، انظري إلى الجانب الآخر، لا تبكي، نعم هكذا، ساكتة، لم يحدث شيء، نامي مرة ثانية...

إيريس لا تنام. عيناها تنظران إلى السقف ونحن نحاول الكلام عن أشياء أخرى، البلوزات والحليب الحامض والغازات، لكنّنا لا نكفّ عن التطلّع إلى إيريس وقد ملأت الدموعُ عينيها ولطخت وجهها. عينان جميلتان في الوجه الذي اختفتْ منه فجأة بدانة

الطفولة. ما عدنا نعرفها. ما عدنا ندري ماذا نفعل. بدأتْ تئن. انحشرتْ داميانا، الضئيلة كالجرذ، في حلقتنا، تراقب، تقترب من الطاولة حيث مريلات الطفل، تناولتْ واحدة منها ووضعتها على صدرها ثمّ انحشرت في المهد البرونزي المزيّن بالدانتيل الأزرق، تتمتم آغوا، آغوا، العينان الواسعتان البريئتان، اليدان المرفوعتان تطلبان أن يرضعوهما.

– آغوا...

– هيّا، داميانا، كفى...

– ستوسخين المهد بقدميك القذرتين. نظرتْ إيريس إلى تلك الطفلة العجوز القبيحة التي تمدّ إليها ذراعيها الصغيرتين تناديها ماما، ماما، وتبتسم لها بعينين بريئتين تطلبان منها أن تحملها بين يديها وأن تداعبها لأنّ الأطفال يحبون أن تحملهم أمهاتهم وتداعبنهم والأمهات يحببنَ أن يأخذن بناتهنّ بين أذرعهنّ ويداعبنهنّ، وترفس في الهواء بقدميها المبتليتين بالدوالي، القدمان المعقدتان بالمسامير والعظام الناتئة، الوجه المخطط والمبقّع الذي يستعطي المداعبات، يسيل لعاب العجوز على المريلة الجميلة. تجفف ريتا دموع إيريس، التي تنهض قليلاً وتتناول من المنضدة برنيطة بيضاء ذات كرة من الصوف. انحنتْ على داميانا. ألبستها البرنيطة. كانت داميانا ترغو وتبكي بينما إيريس تربط لها الشريط تحت الحنك المُشعر، وحين انتهتْ من ربط الشريط، صنعت الطفلة حركة بفمها، فضحكنا جميعاً، وضحكت معنا إيريس بصوت عال.

– انزعي عنها البرنيطة، إيريس.

– داميانا مقملة.

– تلك البرنيطة هي لدميتك.

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد ٢١٥

- داميانا هي دميتي.
- ما أقبح وجه دميتك.
- غير صحيح، إنّها جميلة، وتقول ماما...
- أنا «بلدانه»، ماما...
- أعطوني شالاً كي أدثرها.

نعطيها الشال. تنهض إيريس من سريرها وتلفّ وركَي العجوز وساقيها بالشال. أوبّا... أوبا... نساعد إيريس في حمل داميانا بين ذراعيها، وهي تلبس برنيطة كرة الصوف والمريلة المذهبة، والشال. تبدأ الطفلة بالأنين.

- يجب السير بالأطفال لكي يسكتوا.

تجول إيريس بها من ناحية إلى أخرى... إش采ش... إشش يا ابنتي، إششش... حتى خفّ بكاء داميانا.

- نامت.
- ستستيقظ جائعة.

فتحت داميانا عينيها.

- «أليدُ» أبي، ماما...

تجلس إيريس على دكّة جنب المدفأة، جادة مطرقة. فكت أزرار صدريتها. أخرجت أحد ثدييها الثقيلين.

- بابا، ماما...
- ارضعي، طفلتي الصغيرة.
- هيا، داميانا، خذي طعامك، ولا تضطريني أن أترجّاك، متى سأراك وقد صرت أخرى...

يطبق فم داميانا الأدرد على حلمة ثدي إيريس بينما نحن نتعصّر ضحكاً، ما أظرف داميانا، إنّها أكثر ظرفاً من منتشه، تبدو طفلة

سيرك، ما أقبحها من طفلة، انظري إلى المهرّجة التي أنجبتِها، إيريس، ألا تخجلين منها، اخفيها، خير لك أن تخفيها في مكانٍ ما كي لا يراها أحد فيصاب بالرعب أو يضحك عليك، طفلة مشعرة، انظري، أين رأينا طفلة مشعرة، وإيريس تقول لا، دميتي الصغيرة رائعة، تتكلّم، وما أروع ما تمصّ صدري، داميانا، استمري، يا ابنتي، مصّي طفلتي وبعد ذلك سأهزّك وسأداعبكِ وسأطلب من العجائز أن يسمحن لكِ بأن تنامي معي في سريري كي تدفئيني حين أحتاج الدفء، فأنا مبرادة على الرغم من بدانتي، كفى، داميانا، كفى فقد رضعت ما يكفي، لا تكوني شرهة، طمّاعة، هذا يكفي. تخفي إيريس ثدييها. تعود إلى السير والطفلة بين ذراعيها في القبو، تربت على ظهرها لتطرح الغازات. إيريس، اضربي هذه العجوز القذرة على ظهرها بقوّة، فهي إن لم تطرح الغازات فستنتفخ وتبكي ولن تدع أحداً في البيت ينام فحين تبكي داميانا، فهي تبكي حقّاً، هل تذكرن كيف بكت حين ماتت المرحومة بريجيت، لا شكّ أنّ بكاءها سُمع في ساحة السلاح، اضربيها أكثر، إيريس، أكثر. ضربتُها حتّى أطلقتْ داميانا جشأة هزّت القبو وانفجرنا نحن من الضحك.

- نعم، هذا ما لا شكّ أنّه سمع في ساحة السلاح.

- ماما، ماما، لقد تبوّلتُ...

- غير معقول، هذه القذرة.

- ربّما.

- حذارِ أن توسّخ الشال الجديد.

- يجب أن نغيّر لها في الحال، وإلا تحمّص جلدها...

- نعم. عليك أن تغيّري لطفلتك، إيريس...

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

تطرح إيريس داميانا على منشفة كي لا تلطّخ الشرشف. تعطيها ريتا حفاظة جديدة، تحضر لها أماليا مسحوق الطلق، تأتي لها روسا بيريث بإسفنجة، وتأتيها ماريا بنيتيث بمرهم، أمّا دورا فتخشخش بجرس لجذب انتباه الطفلة كي لا تتوتر بينما يغيّرن لها، فالطفلة أحياناً تتوتر. ترفع لها الأم تنورتها المهلهلة وتشمّ تنورتها الداخلية، تنزل جواربها الصوفية والسروال المبلل، أحتاجُ ماء فاتراً، لا، ساخناً لا، لئلا يحرق الطفلة، ولكن من أين لها أن تعرف الكثير عن الأطفال هذه الصبيّة، يبدو أنّها لم تفعل شيئاً في حياتها غير العناية بالأطفال، انظرن إليها، ها قد زال عنها الحزن فما بها كان حزناً، أمّا الآن فهي تضحك، سعيدة، انظرن إليها كيف تضحك من مشهد ذلك السكس الأشل، الخامد، الأسود، المجعد أكثر من تينة يابسة. تغسل إيريس سكس العجوز بعناية وقد عميتْ من الضحك بسبب حركات داميانا. لن يؤلمك هذا يا ابنتي، فسكسكِ طري، رقيق، افتحيه لها، إيريس، ما أنتنها من عجوز، افتحيه لها جيداً، ألا تعلمين يا إيريس أنّ النساء الصغيرات يجب أن يفتح سكسهن جيداً لغسله، من الداخل وإلا فإنّ الوسخ يتجمع مع كثرة الغبار والمرهم ويتلوّث، هكذا، من الداخل، بلطف ولكن بشطف جيد كي لا يبقى شيء من القذارة، بلطف، هكذا، هكذا، في هذا المكان بالضبط، مداعبة ذاك السكس الطري، سكس ابنتي، دميتي التي تتكلّم، وأنا التي لم يكن لي وأنا طفلة غير خرق مربوطة على عصا، إنها أكثر تسلية من الدمية التي وعدوني بها، فهذه دمية حيّة، أداعب سكسكِ بالإسفنجة لكي تهدئي، لكي تتكلمي، لكي تقولي آغوا، ماما، أَمي الحلوة، يداك الخشنتان اللتان هما يدا طفلتي وهي تلمس وجنتي، وأربتُ براحة يدي مرتين على إليتك الطريّة، نعم، إليتاك طريتان، داميانا، وإن اختنقت العجائز من الضحك لأنّك تهزّين وركيك بينما أواصل أنا

غسيلك. ما عدت تحركين وركيكِ، تنغلق عيناك. أقبلكِ في بطنك المكرمشة:

- ما أجمل كرش ابنتي الجميلة.

بدا أن داميانا نامت. تدندن إيريس وهي تنثر مسحوق الطلق على الشعر الأسود. نحاول نحن الأخريات أن نعلّمها كيف تضع لها الحفاظة، هكذا لا، إيريس، هكذا، هكذا، هكذا يكون أفضل، ليس هكذا، دورا، فالحفاظة مشدودة كثيراً وستبكي الطفلة لأنّها تؤلمها ويمكن أن تحمّص جلدها... أسوأ شيء هو عندما تحمرّ بشرة الأطفال... سترين يا داميانا القذرة كم تتألمين عندما تحرقك مؤخرتك من كثرة البول، ألم أقل لكنّ إنّها هكذا ستكون أفضل، هكذا كنتُ أغيّر لأطفال السيدة خيرتروديس ولم تكن بشرتهم تصاب بالحرق.

انصرفت كلّ واحدة منّا إلى عملها. دثّرت إيريس داميانا بالشال وجلستْ في ركن تهدهدها وتهزّها، تهزّها بلطف في ذراعيها، خدها ملتصق بخد العجوز المقشر، تدندن بصوت خفيض:

كانت العذراء تغسل
وسان خوسيه ينشر الغسيل
والطفل كان يبكي
من البرد...

حين عاودت الطفلة البكاء طالبة المزيد من الطعام، ماما، «أليد» طعاماً، أخرجت إيريس ثديها وعادت الطفلة تمصّه. هذه الطفلة مؤرقة، لا تريد أن تنام، من الأفضل أن تغني لها شيئاً آخر، شيئاً يخيفها فتنام وإلا فلن ننتهي أبداً ولن ننام نحن أيضاً.

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

آرونوروباتا
ستأتي البقرا
لتأكل طيزكِ
لأنّ فيه خرا...

***

ما عادت إيريس وداميانا تفترقان عن بعضيهما. نسينا أنّ اسمها داميانا وصرنا ندعوها طفلة إيريس. وحين ننتبه إلى خلو المكان من الغرباء أو من عجائز مندسات، مثل كارميلا بشكواها الأبدية أو ثونيلدا تورو التي تبدو مثل نسر يحوم حولنا في انتظار أن تموت إحدانا لنختارها وهي لا تدري لأجل ماذا نختارها، كانت إيريس تفتح ذراعيها، فتقفز الطفلة الدميمة لتجلس على تنورتها وتقعد القرفصاء بين ذراعيها فتداعبها الأم، تداعب الطفلة المؤدبة التي لا تتغوّط في سروالها، يا حلوتي، «نامي، نامي طفلتي فالبقرة قادمة» ويسيل مخاطها وتنظّف أمّها لها أنفها المشعر، وتبول وتغيّر إيريس لها الحفاظة وحين تطلب طعاماً تعود إلى إخراج ثديها الأبيض والثقيل والطفلة ترضع وتطلق الغازات ثمّ تنام. حين تستيقظ، تكون في العادة مبللة، هي عادة لم تستطع أن تمنعها منها على الرغم من احتجاجات العجائز، مرة أخرى الطفلة مبللة، لأجل الرب، متى ستتعلّم أن تبلّغ كي نتجنّب عبودية غسيل الحفاظة طوال الوقت مع ما تعنيه من عمل كثير... نعم، يجب أن تغيّر لها في الحال وإلا فسيحترق جلدها وكلّنا نعرف أنّ ذلك أسوأ شيء.

تفتح إيريس ساقي داميانا. لا يزعجني قبح سكسها المكشوف. بالعكس. فكوننا، نحن النسوة، ربّات حياء وعفاف، ولا نخجل من أن

نكشف للموديتو عن الجزء الذي نحرص أشدّ الحرص على إخفائه، يعني أنّ الانتماء إلى حلقة العجائز السبع ألغى سكسي. أنا أنكمش شيئاً فشيئاً. أستطيع أن أحافظ على سكسي. كما حافظتُ على صوتي. واسمي، مكرر تسعة آلاف وثلاث مئة مرّة في النسخ المئة من كتابي الذي يحتفظ به دون خيرونيمو في مكتبته، مختومة بين غرائب الكتب التي لا يراجعها أحد أبداً، في الرفوف على يمين المدخل إلى تلك الحجرة ذات الأخشاب التي راح لونها يتغيّر والأثاث المخملي الأكثر صمتاً. هو يحافظ عليّ، من دون أن يشعر، يحتفظ بي، يتعاون معي، يساعدني، أستخدمه لكي يحمي اسمي، لكي يخفي تلك المقاطع فلا يعود أحد غيره يتذكرها، لأنني «أحياناً» أنسى، لا وجود لي، لا صوت لي، لا سكس لي، أنا العجوز السابعة. دمّرتُ ذكائي منذ وقت طويل وأنا أعاون الأم بنيتا في تنظيفٍ وكنسٍ ومحاربة ما لا سبيل إلى محاربته، ماذا أفعل مع العظام الناتئةً في قدمٌ كارمن مورا التي صارت عرجاء، لا شيء أكثر من الحمّص والعجائز يفضّلنَ الفاصوليا ولكي يتدفأنَ، موديتو، إذ لم يبق شيء من الفحم، سيكون من الأفضل أن ننزع أخشاب أدوار الغرف الداخلية وإطارات الشبابيك، والروافد الخشبية، وماذا يهم إن كانوا سيهدّون ويكنسون وينظفون، و«أحياناً» يشعلون شموع المذبح ويضربونني على صدري ويخشخشون الأجراس وهم يساعدون في القدّاس، لا أسمعُ، لا أقدر على النطق، ماذا يريدون أكثر، السكس كان الأصعب، لكنّي العجوز السابعة، وعضوي هو قطعة من لحم وجلد عديم الفائدة ضامر، ليس مختلفاً كثيراً عن فرج داميانا. حين تشرق الشمس أو تهبّ الريح نعلّق حفاظات طفلة إيريس في باحة القديسين المهشّمين لكي تجفّ وتتهوّى، ولكي لا تظلّ طفلة إيريس الصغيرة من دون ملابس نظيفة. ننادي أماليا، التائهة في باحات أخرى تبحث عن الإصبع، لكي تجمع الحفاظات.

انكمشتْ داميانا كثيراً. صارتْ أكثر تكوّراً وأكثر خفّة. فقدت النطق مثلي، لا تقول غير «نام، طعام ماميتا، طعام أكثر، آغوا، آغوا، «أليد عاعّا»، ثم تداعب بعذوبة حلمتي إيريس، تأخذها بأصابعها الخشنة، تلعب بها، تلوكها بلثتها المطاطية، تروّل عليها وهي تضحك لأنّها جمعتْ كلّ الكون في نقطتي اللذة التي تبقي على إيريس حبيسة حلم صنعناه لها لكي نحصد ما نريد: ابنها، ابننا المعجزة الذي سيحملنا جميعاً إلى السماء من دون أن نمرّ بسكرة الموت التي من المستحسن تجنبها، ولدي، ولد دون خيرونيمو دي آثكويتيّا، الذي سيطيل في عمر سلالتنا. نخوض في حوارات حول العادة الشهرية، حول حكمة الأسلاف بخصوص فعالية بعض العصائد وبعض المراهم، حول شرائط الستان، ومشمّع للسرير. إيريس تحولت كذلك، أحلّت تجسداً محل آخر من دون أن تتذكر شيئاً عن السابق، وكأن ذاكرتها مصنوعة من مادة زلقة لا تستقر الأشياء عليها. ما عادت خينا، نمرة برودواي، خطيبة العملاق. ما عادت تتذكر العملاق. هي الآن كلّها وبكاملها أم داميانا. لم تبق من إيريس ولا قطرة واحدة خارج هذه اللعبة الجديدة التي حلّت محلّ السابقة.

لكن ماذا عساي فاعلة بقشرة إيريس، تلك القارة غير النافعة التي تحيط بالرحم، بعد انتهائها من وظيفتها المحددة في الوضع؟ لا أستطيع أن أسمح بأن تمحو تجسداتٌ لاحقة سابقاتها إلى أن تذوب إيريس، مفتتة ومجزأة، قطع منها موجودة في أكفان ميتات عجائز، أو نحتفظ بها تحت أسرّتنا، أنا أيضاً يعجبني أن أحفظ تحت سريري أشياء غير مفيدة، مخطوطات لن أنشرها وملاحظات ودفاتر مليئة بما كنا ندعوه في أوقاتنا «أفكاراً»، وقصاصات من كتابات نقدية تذكر اسمي، عندي أيضاً اسمي محفوظاً بين الحاجات القديمة التي أكدسها تحت سريري، أنا جشعة، لا أريد أن تسرق العجائز الأخريات قطعاً

من القشرة المنزوعة من إيريس، أريدها كلّها كاملة لي. ولأجل ذلك أعدّ أنا هذا البيت الصغير. وجدتها بين مخلفات بريجيت وحفظتها قبل أن تتنبّه الأم بنيتا إلى ما كنتُ أفعل. إنّه علبة موسيقى صغيرة، شاليه سويسري خشبي. إذا رفع أحدهم السقف الملصق بالبقية بمفصلتين، عُزف «كرنفال فنيسيا». إنّها المعزوفة الوحيدة التي يعزفها. وقد تمكنتُ من إصلاحها بعد أن تلاعبتُ بالنوابض. إنّها جاهزة تقريباً. في القبو الدافئ، وبينما تظهر إيريس ثدييها الفاضحين، وهي ترضع داميانا التي لا تشبع أبداً، رحتُ أنا أتسلّى برسم واجهة الشاليه: ثلج على أطراف السطح والمدخنة، العصافير الخشبية، الستائر الحمر بشامات خضر ملمومة في كلّ ناحية، وضعتُ بينها قطعاً صغيرة من مرايا للإشارة إلى إمكانية الإطلالة على الداخل. عليّ أن أرتّب مكاناً لإيريس في ذلك الداخل. لأني قررتُ أن أحوز على ما بقي من إيريس بعد الوضع لكي تحيا هنا في الداخل حياة لعبة. سأضمّ داميانا. حين يولد الطفل الحقيقي، يجبُ أن يظلّ مصير داميانا مرتبطاً بقشرة إيريس غير النافعة... في الشاليه السويسري ستنامان مترابطتين، حبيستيْ مداعباتهما التي ستطورانها وتحسنانها، وستسدان على نفسيهما كل المخارج لأنهما لن تحتاجاها... لن ترغبا في الخروج، ستخشيان ما لا يوافق ذلك المحيط المحدود حيث ستحييان مربوطتين إلى لعبهما. نعم، إيريس، ستكونين سعيدة في بيتك الصغير مع داميانا، أكثر بكثير من الخارج. سأفتح «أحياناً» الغطاء لأنظر إليهما وستسمعين «كرنفال فنيسيا». ستجدينه جميلاً حقّاً، أقسم لك، فسيعجبك لحنه البسيط أكثر من موسيقى الجيركس والفروغس التي كنت ترقصين عليها في شباك الدور العلوي، لأنّ الشاليه السويسري سيجعلكِ تنسين بتكرار موسيقاه التي تلصق بالإذن المرة تلو المرة كلّ ما عداها، ويستبعد كل ماضيكِ وإلى الأبد، قشرة نقيّة، محبوسة في هذا التجسد الأخير،

المحدد بمحيط «كرنفال فنيسيا» الضيّق، الوحيد، الفاتر، المكرر. أقسم لك أنني أحسدك على وجودك المحفوظ داخل علبة الموسيقى. سأحمي هذا التجسد الأخير ولن أسمح لك بأن تهربي وتتحولي إلى شيء آخر، مربوطة في علبة، تحت سريري، مع أوراقي عديمة الجدوى المصنّفة والمرتبة، إلى جنب أشياء أخرى أريد الحفاظ عليها لأنّها أشيائي، أنا العجوز السابعة، قلّة حيائك تبرهن لي على ذلك كلّ يوم.

***

كنتُ أنوي النزول إلى القبو لأني ظننتُ أنّكِ في تلك اللحظة كنت وحدك. كنتُ أريد أن أريك الشاليه السويسري لتبدئي تتلهفين إليه وتطمعين فيه: أدعوكِ أن تطلّي من مرايا النافذة، وأنا أقصّ عليك كلّ أنواع الكذب حول فخامة الداخل، لكي تنقليها إلى داميانا، وتتوسلان أنتما الاثنتان، من دون أن نعلم نحن الأخريات، لكي أترككما تلعبان بالشاليه السويسري، الذي ستضمانه شيئاً فشيئاً إلى حياتكما، وتنتهيان بالدخول إليه عن طريق المرآة الصغيرة الموجودة في الباب.

لم أنزل إلى القبو. بقيتُ في الظل، أسترقُ السمع إليهما، أنظر إليك وإلى طفلتك المرعبة التي ليست بالطفلة لأنّها لا تقول «نام، بولة، ععّا» بل تقول إنّ الأمريكان يقصفون هانوي وأوناسيس يصرّح وباناغرا الخطوط الجوية للرجل العصري، وأيّندي في السلطة، والتنورات القصيرة تطرد من الكاتدرائية الكبيرة، والمثقفون يجب أن يشاركوا في موسم حصاد القصب، هذا العام يصرّح فيديل كاسترو، في- ديل، كاس- ترو، تعلّمي الحروف جيداً، إيريس: ك - ا- س- ت- ر- و، الألف في كاسترو أين تجدينها في: نيكيتا، طبعاً، هذه هي الألف أترين فأنت لست بلهاء ولا يكلّفكِ هذا جهداً، ولكن لماذا تريدين أن تعرفي لما أطاحوا بذلك الذي يدعى (نيكيتا) وأنت لا تجيدين القراءة بعدُ، من الأفضل أن تنتظري قبل أن تسألي عن سبب

حدوث الأشياء، نعم صرتُ أجيدُ القراءة، داميانا، وإن لم يكن بطلاقة، ما عدتُ أخطئ في شيء تقريباً، ألا ترين، هنا: للبيع. إنتاج عشرة آلاف من نبات سنط العنبر، يا إلهي، ماذا سيفعلون بزهور عشرة آلاف نبتة لا تعيش إلا قليلاً، تمضي عوائل كريستي راموس وبالما كريستي وكريستي كريستي وبيير دي بودوان كريستي موسماً في ينابيع بانيمابيداس الحارّة... ما أثقل هذا، ما أكثر أبناء العم... بقايا الزمن الجميل، لا أدري ماذا يعني هذا، داميانا، إنّه مكتوب بلغة أخرى لا أفهمها، لو أنّ الموديتو لم يلصق جريدة أخرى فوق ما يلي... انظري هنا، إيريس، هذا جميل حقّاً، صورة الكلبة (لايكا) تلك التي أرسلوها إلى القمر، لنرَ، أين حرف الألف، طبعاً، ها هو، عرفته على الرغم من أنّه مكتوب بالرسم الكبير، ألا ترين أن هذا مسلّ أكثر من سخافات البط (دونالد) و(الكورين تيّادو)، التي هي كذب محض، إيريس، لا تصدقي حتى كلمة من هذه الأكاذيب، هنا القراءة أكثر تسلية لأنّها أشياء حقيقية تحدث لأشخاص حقيقيين، وليس لقردة مرسومة، يجب أن تقرئي الجرائد، كلّ شيء موجود في الجرائد، هكذا علمتُ بقصة أبيك، نعم، نعم، ابكي، ترين، ها أنتِ تتأثرين بأنّهم أعدموا أباك، وقد جاء تأثرك متأخراً، وماذا بيدك، أيتها الفتاة، إنّه القدر... ترين إذن أن عليك أن تتعلمي القراءة لكي تقرئي الجرائد ولا تكوني جاهلة ولا تدعي هؤلاء العجائز يستغللنك ويقنعنكِ بأنني طفلة، أنا لستُ طفلة، أنا داميانا، وسيدخلون في رأسكِ أنّ الصبي الذي ستلدينه جاء بمعجزة، وبأنك عذراء، وكيف تكونين عذراء إذا كنت حملت به من مضاجعة روموالدو صاحب رأس العملاق ذاك الذي هو أبو طفلك، يجب أن تبحثي عنه، ليأتِ في طلبك لكي يتزوج بك ويكون لك رجلاً يكدح من أجلك ويعيلكِ، وأنتِ ترعين ولده، وليس هؤلاء العجائز، عليك أن تتعلمي الدفاع عن نفسك، لذلك عليك أن تتعلمي القراءة، لنرَ، ماذا

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

يقول هنا، كفّي عن البكاء، ماذا يقول هنا في هذا السطر، ثورة الهيبز، من هم هؤلاء الهيبز، ما عادت الواحدة منا تعرف، لقد شاخت، لكنك تستطيعين أن تعرفي من هم الهيبز، انظري، لدينا هنا صورة، يبدون مخنثين بشعورهم الطويلة، لكنّهم يمشون وهم يعانقون نساء لذلك لا يمكن أن يكونوا مخنثين، وهنا يقول... إنّها داميانا عملاقة مضاءة بالنور المفتوح لنافذة الجرائد تلك التي غلّفتُ بها جدران الأسوار، تطلّ بحدقتي عينيها الحادتين على تلك النافذة، مستعدة للقفز منها مع إيريس، كثير من الضوء في وجهيهما المذهولين أمام الحقيقة، دقّة حروفهما، مقاطعهما، دقة سبابة العجوز وهي تشير إلى الكلمات والعبارات والعناوين على ضوء الشمعة التي تطوف بها داميانا، الواقفة على السرير بالقرب من إيريس، عبرَ ذلك الأدب الذي احتضر فيه ما هو عاجل، والشمعة من ناحية لأخرى، تبحث، من تحت إلى فوق، حتى السقف، تبحث عن أخبار أخرى، عبارات أخرى، كبيرة، مطلة على تلك النافذة.

لا أستطيع أن أتركهما وحدهما أكثر. عليّ أن أراقبهما دقيقة بدقيقة لأنّ داميانا كانت تخدعنا لتسرق منّا الطفل وتختفي معه في حجرة بائسة منتنة حيث لن يتعرّف أحد على ابن دون خيرونيمو دي آثكويتيّا وهو ملفوف بثياب شحّاذ. كل ثانية تمضيها هاتان الاثنتان معاً فيها خطر. عليّ أن أرتّب أمراً للتخلّص من داميانا، لكنّي لا أستطيع مراقبتهما، تنامان معاً ولا أستطيع أن أنام معهما. حين تجتمع العجائز في القبو تأخذ إيريس داميانا بين ذراعيها وتتكلمان بخدين متلاصقين، كمن يدندن، أعرف عمّا تتكلمان، إنّهما تخططان للهروب والخروج للبحث عن رومو الدو، الأب الذي ليس بأب ومع ذلك يجب أن يكون الأب، وتبليغ دون خيرونيمو في الحال ليأتي ويخلّص ولده من الوحل الذي تريد داميانا أن تغرقه فيه، إنّهما لا تدندنان بصوت واطئ، لا

تتلاطفان: بل تتآمران وتخططان بينما دورا تحوك وماريا بنيتث تقلّب الطبيخ على النار وروسا بيريث تكوي وريتا تربط عقدة الستان وأماليا تغسل عينها العوراء بكأس أزرق وداميانا، وقد صغرت من جديد، تنام على تنورة إيريس بانتظار الله أعلم أيّة لحظة، وإيريس، المنتفخة، تحشر إصبعها في أنفها وتتثاءب. وأنا، العجوز السابعة، أقبع في ركن لأرسم زهرة الإيديوليس على علبة الموسيقى الصغيرة، أراقب.

– متى سيولد؟

– هذا غير معروف في مواليد المعجزات.

– من المؤسف ألا أستطيع أن أسألها متى حدث؟

– متى حدث ماذا؟

– طيب، من أيّ وقت يجب البدء بحساب الأشهر التسعة...

– الأشهر التسعة لا تعدّ حين يتعلّق الأمر بمعجزة كما قلتُ لك، أماليا، لا تكوني لجوجة، الطفل سيولد حين يجب أن يولد وكفى... يجب الانتظار...

– مثل العذراء؟

– كيف؟

– طبعاً، عيد التجسد، حين ظهر كبير الملائكة جبريل للعذراء مريم بإصبعه الواقف وقالت هي «لتكن مشيئتك»، يوم ٢٥ آذار. وولادة سيدنا يسوع المسيح وقعت يوم ٢٥ ديسمبر، تسعة أشهر بالضبط.

– لكن إيريس ليست العذراء مريم، إنّها ولادة إعجازية كغيرها، هناك الكثير من الولادات الإعجازية، فليس عليك إذن أن تكوني كثيرة السؤال، أماليا، فكثرة السؤال أمر مذموم...

– لا أدري. وهل ستظلّ إيريس عذراء بعد أن يولد الطفل؟ الأطفال يخرجون من ذلك المكان نفسه...

– آي، لا أدري، سنرى...

– ستكون عذراء إذن؟

– وكيف لا، أماليا. بريجيت قالت ذلك وماريا بنيتيث فحصتها... أليس كذلك، ماريّا؟

لم تردّ ماريا.

– أليس كذلك يا ماريّا؟

تترك ماريا بنيتيث تقليب الطبيخ الذكي الرائحة.

– لا أدري... كنتُ أريد أن أقول لكنّي... لكنّي لم أجد الفرصة.

– ماذا؟

– طيب، حين وجدناها في ذلك اليوم مريضة في الباحة مع تلك النوبة الغريبة التي حصلت لها. ألم يدخل أحد إلى البيت، إنني أسأل؟

– ماذا؟

– لا أدري، ولكن الرجال سفلة وهي جميلة. أخشى... يقولون إنّ المرأة حين تضاجع رجلاً بعد طول انتظار يولد الطفل مسخاً. حكتْ لي المرحومة بريجيت بأنّها لذلك السبب ما كانت تترك زوجها يضاجعها بعد طول انتظار. طبعاً إنّ جميع بناتها ولدن ميتات، هكذا هي الحياة، هذه هي إرادة الرب. ويقولون إن الرجل إذا ضاجع امرأة حبلى فالطفل يولد مسخاً، مسخ برأس كبير وذراعين قصيرتين مثل جناحي البطريق، وفم ضفدع، بجسم مشعر أو مقشّر، حتى إنّه قد يولد من دون رموش، لذلك فالأطفال المسوخ لا يستطيعون النوم ويبكون طوال الليل من حزنهم لأنهم مسوخ ولأنهم أيضاً بلا رموش يغلقونها فلا يقدرون على النوم. إنّه لأمر مروّع ألا يستطيع الإنسان أن ينام في الليل، يقولون...

يقولون... يقولون... يقولون: كلمة قديرة قادرة على كلّ شيء في أفواه العجائز المتآكلة، مقاطع تختزن كلّ معرفة البائسات... يقولون... يقولون إنّ بريجيت كانت مليونيرة، يقولون إنّ الحرير الناعم يسوّى بمكواة دافئة بعد ترطيبه بالماء قليلاً... يقولون إنّهم لن يهدّوا هذا البيت... يقولون إنّنا إذا وضعنا مصاصة في زجاجة الماء وهو يفور فلن ينكسر الزجاج... يقولون... يقولون، وهنّ يتابعن سنين وربّما قروناً تكرار «يقولون»، من دون أن يعرفنّ مَن يقول ولمن يقول ومتى يقول وكيف يقول، لكنّهم يقولون ذلك، وهنّ يرددن رسوخ الكلمة، يقولون إنّه عندما يضاجع رجل امرأة حبلى يولد الطفل مسخاً. في عتمة القبو الذي تحتله عجائز يشبهنَ أكواماً من الأسمال تتحرك، تقلّب ماريا بنيتيث محتوى القدرِ على الجمر المتوهج بينما راح البخار العطر لنقيع الأثينة، الذي يقولون إنّه مفيد للمعدة، يتركز لكي يشكّل الحقيقة الراسخة عن الطفل المسخ لدون خيرونيمو وإيريس، الذي وضعه أحدٌ ما في أحد ما حين حبلت إينيس أخيراً، لا أريدُ أن أمسّها لأني أخشى أن أفسد ولدي الذي يجب أن يكون كاملاً ويقولون إنّ الواحد إذا ضاجع... من يدري أين ومتى سمع دون خيرونيمو تلك الـ «يقولون» التي تُعرّفُ ولده هذا الذي أفسده كل أولاد الحيّ، كلّ متأنقي المركز حين تقاطروا على إيريس، كلّ الجنرالات والأكاديميين والمتوارين داخل رأس العملاق، نعم، دون خيرونيمو، ولذلكَ سيكون مسخاً رائعاً، جديراً بلقب آل آثكويتيّا، أنا، أحدُ آل بينيالوثا، لن أستطيع الإتيان بعظمة طفل مسخ، نعم أستطيع إنجاب طفل قبيح، ضعيف، سيئ التغذية، من أولئك الذين يبكون لأنهم جائعون لا لأنهم يحلمون بواقع الكوابيس الرائعة الراسخة كتلك التي سيحلم بها المسخ المولود من رحم إيريس ماتيلونا الخصب، استمري، ماريّا، أنت طبيبة وتعلمين بما يقولون، واصلي تقليب ذلك القدر الذي يرتفع منه البخار الذي

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

يرسم ذلك الوجه القبيح، ذلك الجسم المشوّه الذي سيقتلع دون خيرونيمو من هدوء جلسته على كرسي النادي حيث يجلس لقراءة الصحيفة ويغفو لاهياً عن كلّ مهمّة نبيلة، تاركاً مسؤولية السلطة، وكل محاولة شاقة كمحاولات الأمس، لأنّه يفضّل أن يربّيَ لُغده المترهّل الذي يخون به ألم والدي الجدير بالاحترام، ليس من حقكَ، دون خيرونيمو، أن تغشه بمناسبة أو من دون مناسبة، كما قد تقول ماريا بنيتيث، التي تواصل تقليب القدر الذي ينادي المسخ المنقذ، وأنتِ، أماليا، تؤكدين أيضاً أنكِ سمعتِ الكلام نفسه، لا تقاطعيها، دورا، ولا أنت، ريتا، بقولكِ إن ذلك لا علاقة له بإيريس لأنّ المسكينة لم تعرف أحداً قط، لا من قبل ولا من بعد، لا وجود للرجال، بريجيت هي من اخترعت الحمل الإعجازي، وبريجيت هي من حملت بابن إيريس، بريجيت هي أم المسخ، بريجيت كانت تعلم بكلّ شيء. واصلتْ ماريا تقليب القدر على الجمر، ذلك الآنكويتيّا الأعوج المحطم يبتسم لي من عند الأبخرة، أريدُ أن أهزهزه بين ذراعيّ بينما العجائز يتكلمن ويعلقن ويقلن ويتهامسن ويستمعن إلى ماريا بنيتيث، وهي طبيبة، أمّا عن المعرفة فيقلن إنّها تعرف أشياء كثيرة، وإن لم يكن بقدر ما تعرف بريجيت:

- وردت على بالي خاطرة. لا تغضبي، ريتا... تلك الليلة التي وجدناها، حسناً ربّما دخل أحد لمضاجعة البريئة المسكينة، هناك رجال سفلة يقولون إنّهم يبحثون عن فتيات صغيرات مثل إيريس لممارسة أفعال مقرفة معهنّ وطبعاً حينها تتسمم كلّ أمزجة البدن بسبب الخوف... فإن وقع ما قلتُ، فإن الطفل إن لم يمت، فمن المؤكد أنّه سيولد مسخاً.

- هو ليس ميتاً.

- أنا وضعتُ يدي أمس على بطنها وكان يتحرك.

- قد يكون سوء هضم، أكلتْ موزة في وقت متأخر...

- لا، يقولون إنّ الموز يؤذي حين يؤكل مع الجعّة ليلاً، فهو ثقيل على المعدة، وإيريس لم تشرب جعّة، ومن أين ستأتي بها.

- معنى هذا أنّ الطفل سيولد مسخاً.

نظرنا جميعاً إلى بعضنا دون أن ندري ما نقول، إلى أن قالت داميانا وهي تجلس على تنورة إيريس النائمة:

- وما الضير في أن يولد الطفل مسخاً؟ لم ندر بماذا نجيب. استمري، داميانا، استمري:

- بل سيكون ذلك أفضل. إن ولد مسخاً فلن يحبه أحد ولن يأتي أحد ليحشر نفسه هنا في البيت ويطالب بالطفل. الناس يخافون من المسوخ. طبعاً يقولون إنّ الأطباء يأتون أحياناً ليأخذوا المولودين المشوهين لفحصهم في المستشفيات وإجراء التجارب عليهم. ما أكثر ما يعاني هؤلاء المساكين. المسوخ ثمينون، هم نادرون، غير موجودين تقريباً. أعرف جارة ولدت طفلاً مسخاً. سرقه الأطباء منها ويقال إنّهم وضعوه في قارورة زجاجية مع ماء ملوّن وكانوا يطعمونه بالأنابيب، ولم ترَ جارتي ابنها ثانية، ولم يدفعوا لها شيئاً مقابله.

أنا أعلم لماذا تحثيهنّ على تصديق أن طفل إيريس سيولد مسخاً: إنّك تقصدين تهدئتهنّ بينما تدبران، أنت وإيريس، للهروب إلى ما تعتقدان أنّه الواقع. أنتِ متأكّدة، أيتها العجوز المسكينة، من أنّ العملاق هو الأب. إنّ روموالدو كان الوحيد الذي شغل رأس العملاق. في عقليتك التقليدية هناك أب يجب البحث عنه لتحميله مسؤولية الابن. لا تعرفين الوجه الآخر للأشياء، دزينات الآباء الذين واراهم قناع العملاق، ما دبّرتُه أنا قبل أن تبدئي قصتك الواقعية البائسة: أسرة، أم، أب، ابن، بيت، إعالة، إطعام، معاناة... تلك الأشياء، واصلي الاعتقاد بها،

داميانا، انسجي قصتكِ، قصّة السعادة المبتذلة، قصّة الحزن اليومي بينما أنا، بالبخار الذي يتركّز ويصبح صلباً، أواصلُ نسج شيء مولود من الحريّة الفوضوية التي تتحرك بموجبها عقول العجائز اللاتي أنا واحدة منهنّ.

– نعم، لكننا لسنا بلهاوات. نحن لا نفكّر في تسليمه إلى الأطباء ولا إلى أيّ أحد، ولا حتّى إلى الأم بنيتا، ولا إلى الأب آثوكار. وبما أننا نعرف الآن أنّ المولود سيكون مسخاً فإنّ علينا أن نبالغ في العناية به لكي لا يعرف أحد بوجوده وأن نبقي عليه محبوساً هنا إلى أن يقرر هو أن يذهب معنا كلنا يحملنا إلى السماء، في عربة جميلة كتلك التي حملت بريجيت، عربة بيضاء بخيل بيض بدل السود وتطير بأجنحة إلى السماء وسط مطر من الزهور وفي غمرة أنغام سماوية...

– لو أنّ المسكينة بريجيت كانت حيّة!

– ليتنا نظلّ أحياء!

– كم كانت جميلة جنازة بريجيت

– جميلة

– أجمل ما شهدناه في البيت.

مراقبتهما طوال اليوم، مراقبة داميانا وإيريس، حتّى تحين ساعة الغداء أو النوم. حين تركنا النعاسُ ملغيّاتٍ في قاع حجراتنا، انتظرتْ إيريس وداميانا السكون التام لتنهضا. مراقبتهما. متابعتهما. لمَ الخوفُ إن كنتُ أحملُ المفاتيح معي دائماً؟ لكنّ داميانا تهديد مشعرٌ وصارخ دخلَ إلى البيت ثمّ دخل إلى حلقتنا، لتدمير كلّ شيء. تصعد إلى الدور العلوي مع إيريس في الليل، صامتتين، لكي تتأملا جمال المدينة، الأضواء الحمر التي ترمش في المطار، مصابيح أبراج الإرسال، خطوط النيون في المباني الزجاجية في مركز المدينة، المصابيح الدوّارة في

الظلام باحثة عنهما، أمسكي بذاك الشعاع، إيريس، أمسكيه فهو يقترب منّا، انتظري المرّة الأخرى وستمسكين عندها به وستصعدين وترفع إيريس ذراعها ويدها وتأخذ الشعاع الذي يفلت ليذهب وينير منعرجات أخرى من المدينة الممتدة حتّى سلسلة الجبال. من النافذة التي فتحتها أنا لهما، داميانا تفرّج إيريس على خريطة المدينة كاملة، النهر، الساحات، المركز، الجادات، حذارِ أن تتيهي، ترسم الطرق التي ستسيران عليها عبر الشوارع التي تعرفها داميانا حق المعرفة، فعندما كانت خادمة كانت معروفة بالتسكع، تتلفظ تلك الأسماء بدقة، مقطعاً مقطعاً لكي تدخل في رأس إيريس الناشف ولا تنساها، لكي لا تضيع كما كنتُ سأضيعُ أنا لو أنني خرجتُ من البيت إلى تلك الشوارع التي تعرفها داميانا ولا أعرفها أنا.

ظننتُ أنهما ستفعلان في النافذة ما هو أكثر، تصوّرتُ أنّهما ستبردان قضبان الحديد لتتدليا بالملاءات المربوطة وتهربا. لكنّهما سرعان ما أغلقتا النافذة. نزلتا. تودعتا بقبلات على الخدين. ذهبتْ كل واحدة منهما للنوم في غرفتها. أنا بقيتُ أطوف في الأروقة، وأنا ممسك بالمفاتيح في جيب صدرية العمل، لن أنام، لا هذه الليلة ولا غيرها، فستدخلان في الليل إلى حجرتي وستأخذان مني المفاتيح من تحت المخدة من دون أن أشعر، وإن حشرتها تحت سريري مع المخطوطات ومع شاليهي السويسري، ستأخذان كلّ شيء حين تهربان من البيت، لأنّهما ستهربان، غداً أو بعد غد، لذلك عليّ أن أبلّغ دون خيرونيمو حالاً بأنّه على وشك أن يفقد ابنه في مجاهيل الفقر، سأخرج هذه الليلة لأبلغه لأني أعلم بما تدبران لكي تسلباه فرصته الوحيدة الباقية في أن يصبح عظيماً ونبيلاً من جديد، حين يواجه أبوّة ولد مسخ، نعم، لا أستطيع أن أضيع الوقت، عليّ أن أضعَ الشاليه والمفاتيح ومخطوطاتي في حزمة من الخرق، بالطبع قد تحملان

الحزمة كلّها، وتهربان بها، وتنثران الخيوط والخرق وقطع الشاليه وماكنة الموسيقى ومخطوطاتي المليئة بحروفي واسمي في الشوارع، وتسلمانها إلى أناس غرباء، ربّما إلى بيتا بونثي التي ستعلم بهذه الطريقة أين تجدني، إلى ناس بلا وجوه مثل أبي أو مثل الضحايا الذين يسرق الدكتور آثولا قسماتهم وأوراقهم، أوراقاً لن يقرأها أحد، لا هما ولا أولئك الذين ستقدمانها إليهم لأنّها لا تنفع في شيء، سترميان بها إلى الأرض لكي تدوس عليها عجلات السيارات، لكي يعمل الأطفال منها قوارب صغيرة أو أقماعاً مخروطية، وكأنها منشورات ملوّنة، حتّى يسقط أحد المنشورات في يديها وتركض بيتا إلى هنا لإجباري على مضاجعتها مرة أخرى، عجوز قذرة، عجوز شبقة، لا تشبع، لا أريد الخروج، لن أخرج...

موديتو، موديتو. صوتها يستعجلني لكي أنفصلَ عن الظل الذي تعرف أنني ألجأ إليه على الرغم من مقدرتي على السير بصمت، جارياً عبر الممرات حين يحثّ خطاه في الظلمة... ليلة أخرى، موديتو، موديتو... حذارِ، إيريس، هناك بسطة درج، حذارِ أن تقعي، فقد تقتلين ولدكِ، وربّما هذا هو ما تريدينه، ربّما هذا هو انتقامكِ، أن تقتلي صورةَ البخار الذي راح ينبعث من قدر ماريا بنيتيث، تلك الساحرة التي ما هي بساحرة بل طبيبة ومشعوذة لأنّنا لسنا ساحراتٌ بل عجائز، لا أكثر، عجائز نحمل امتيازات العجائز. مودو، موديتو، نعم، داميانا ذهبتْ، ألا تعلم أنّ داميانا ذهبت من دون أن تستطيع أنتَ منعها، داميانا تجيد التملّص، لا تحتاج إلى مفاتيحكَ، في هذا البيت ثقوب أنتَ لا تعرفها ومنها يدخل ويخرج أشخاص أنتَ لا تفتشهم، داميانا اختفت، نحن الآن ستُّ عجائز، أعطني المفاتيح، موديتو، أريد الخروج للحاق بداميانا... انتظرْ حتى تناديني هي، لأنّها ستناديني حين تعثر على روموالدو الذي كان يتنكّر بقناع العملاق وهو أبو

ولدي، اركضي في الممرات من دون ضجيج. موديتو، لكني أتوسل إليكِ، إيريس، ألا تكرري كلمة موديتو، موديتو، موديتو، موديتو بصوت عال، فقد يسمعونكِ، فأنتِ تصرخين تقريباً، وكأنّك لا تستطيعين أن تستمري للحظة من دون وجودي، اسكتي، اسكتي، سيسمعوننا. وماذا عن داميانا؟ أرجو ألا تكونَ تنتظرني عند منعطف من منعطفات الممرات، عملاقة، قوية، بلحيتها وبندقيتها لتقتلني برصاصة. موديتو... موديتو... الجرذان والفئران تهرب مع مرورنا، نمزّق خيوط العناكب التي بنتها في الممرات، أكتشفكِ بين أشجار البرتقال المحمّلة بثمار الذهب، مختفية كي تشهدي مروري، عليّ أن أتقدّم إلى غرفة البوّابة لأتأكّد من أنّ قفل الباب مغلق بلفتي مفتاح. هذا ليس ممراً عميقاً: أحد ما، ربّما أنا، رسم منظراً لامتناهياً على نافذة مبنيّة، ربّما اختفتْ داميانا في هذا العمق المزيّف، ابحثي عنها هناك، ولكن لا، أنت تخدعين نفسك، تدركين أنّها ليستْ أكثر من خطوط على جدار مزيّف وتتوقفين وتستديرين في ممر آخر باحثة عني. أُختفي في زاوية لأرتاح لاهثاً بعد مطاردتك، أنت شابة وأنا ضعيف، ما عدتُ أسمع صوتَ خطواتِك، استراحة قصيرة في غرفة البوابة قبل الخروج لأطلب من دون خيرونيمو أن يأتي الآن ليأخذك مع ولده، ولد البخار المسخ داخل رحمك، من قبل أن تأخذك أخرى، الأروقة تضيّق عليّ، نفَسُك يغلي في قفاي مثل نفس الوحوش قبل تقطيعي، استراحة، تنفس هادئ، غارق في هذه الزاوية التي لا يصل إليها الضوء. أنت تلمسينني.

- موديتو.

أحملُ الشاليه السويسري تحت ذراعي. مفاتيحي في جيب صدرية العمل. تتكلمين بصوت واطئ وهادئ، لا أعرفه.

- أريد الخروج.

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

أعرف، إيريس.

أشمّ رائحة قذرة، رائحة ملابس قديمة، رائحة الزيوت التي ندهنكَ بها، هذا المرهم جيد للقصبات، أماليا، أنتِ أقوى مني دلّكي ظهر هذه الفتاة تدليكاً جيداً، وهذا الذي يبدو مجرد نقيع هو ماء ملكي لتدليك القدم المتورمة... بحركة من رأسي أرفضُ طلبكِ. تمسكين بمعصمي. أطلقُ المفاتيح في جيب صدرية العمل. تأخذين يدي وتضعينها فوق صدركِ الذي سيُرضع مسخاً، هو ليس ابن رومو الدو وإن كنت أنت ودامیانا تظنان ذلك، ولا هو ولدي لأني العجوز السابعة وليس عندي سكس، بيتا: أقسم لك إنني لا أمتلك سكساً، فلا تأتي للدخول إلى هذا البيت. إنّه الولد الذي أنشأه دون خيرونيمو دي آثكويتيّا، بتشجيع من نظرتي الحاسدة، في ابنة مجرم.

– المسْ.

ألمسُ.

أحمد

– لذيذ؟

لا أردّ.

– اضغط، أيّها الغبي. أوتظنّ أنني لا أعرف أنّك تريد أن تداعبني؟ خذ، المسني جيداً ثم دعني أخرج.

أسحبُ يدي من صدرك. أشعلُ ضوءاً خفيفاً وأريكِ علبة الموسيقى، أفتحُ الغطاء، تسمعين «كرنفال بيرتيريّا»، ستضيء عيناك، سأجعلهما تطلان على مرايا الباب والنافذة الصغيرة: أدلك على الباب الصغير، أريدكِ أن تدخلي، الآن، في الحال، أريد أن أصطادك في علبة الموسيقى.

– أوتظنّ أنني بلهاء؟ أوتظنّ أنّك ستستطيع أن تجعلني غبية بهذه اللعبة؟

لا أدري بماذا أجيب.

– نعم، أقول لك، افتحْ لي.

لا أسمع. أنا أخرس أطرش، وأنت تعرفين هذا، إيريس، لا أدري لماذا تكلمينني كثيراً إن كنت تعرفين أنني لا أسمع، أنتَ تتصنّع أنّك أخرس. لذلك كنتُ أناديك في الممرات، لكي تسمعني وتدعني أخرج. لستَ أخرس ولا أطرش. حين تخشخش بالمفاتيح في جيب صدرية العمل فأنتَ تدندن بإيقاع أنشودة «نحبّ الربّ في شرائعنا في مدارسنا وفي البيت، نحبّ الـرّبّ...» والخرس الحقيقيون لا يستطيعون ضبط إيقاع أيّ شيء لأنّهم لا يسمعون، لذلك فأنتَ لن تستغفلني. قالت داميانا قبلِ أن تنصرف من البيت إنّها ستشكيك لرئيس الأساقفة، فخذ حذرك، سيأتيك في يوم من هذه الأيام. إذا لم ترد أن أشتكيك للأم بنيتا فدعني أخرج.

تفكير صحيح، إيريس، أهنئكِ، تفكيركِ يضيّق عليّ الخناق ويعرّيني، ويعرّضني لكلّ شيء لأني سأضطرُ إلى إخراج كلّ شيء من تحت سريري، صوتي، قدرتي على السمع، اسمي المنسي، سكسي الجامد، مخطوطاتي غير المكتملة، سأضطرُ إلى استعمال كلّ شيء ونشر كلّ مطوي، ماذا سأصنع بتواضعي، لِمَ لا، سيدتي، تقول انحناءتي، عربتي في خدمتك، أنا لستُ امرأةً عجوزاً، أنا أومبرتو بينيالوثا، والد ابنكِ، الحمل الإعجازي هو من قصص العجائز اللاتي لا تدعينني أنتسبُ إلى حلقتهنّ لأنّكِ تقتلعينني من هذا الملجأ الطري لكي أسمح لكِ بفتح الباب والانجرار إلى المصير الذي اقنعتكِ داميانا بأنّه مصيرك الحقيقي، ولكن لا تصدقيها، إيريس، فللناس مصائر كثيرة، ويمكن لأيّ منها أن تلتهمهم، أمّا ما تعرضه عليكِ داميانا فهو حرفي فقير ماسخ بائس.

- أريد الخروج.

- وحدك؟

- طبعاً.

- لتلتحقي بداميانا؟

- عجوز قذرة.

- لماذا؟

تنتظر لحظة.

أنا حبلى. داميانا خرجت وهي تقصّ عليّ أنّها ستبحث عن رومو الدو، لكنّ ذلك غير صحيح، لن تبحث عنه لأنّها تريد أن تبقى معي. أنا لا أريد أن أذهب للعيش مع تلك العجوز المخنثة داميانا في بيت سيدة قالت إنّها تعرفها وإنها تستطيع إسكاني إلى أن نجد رومو الدو وحيث تعيش نسوة أخريات، لا أريد. أنا أريد أن أذهب للبحث عمّن تركني حبلى، أريد أن أذهب للعيش معه.

- لم يكن رومو الدو.

- من كان إذن؟

- لا أدري من كان؟

- طبعاً، العملاق.

- لا، الذي كان داخل العملاق.

- طبعاً، رومو الدو...

- لا، رجل آخر، سيّد محترم...

- كفى حكايات، دعني أخرج.

من الصعب تحطيم حلمكِ الواقعي، تجسّد لا تريدين تركه، إنّه ما ينتمي لك، ليس هو بحلم تقريباً، أنتِ بالطبع شريكة رومو الدو وأنت تعرفين ذلك ولا تريدين أن تدعيني أحطّم ذلك الحلم لكي تبدئي

بآخر. حلم رومو الدو تفهمينه كاملاً، الذي أقترحُه عليك، لا، سيكون كبيراً عليك، لكنّي أستطيع أن أجعله على مقاسك، أستطيع أن أضعك شيئاً فشيئاً داخله. أنتِ عجولة، لا تستطيعين أكثر، الخروج، الخروج الآن هذا هو ما تريدينه، لا تستطيعين تأجيل رغبتك في الخروج.

- ستضيعين.

- لا يهمني.

- لن تجدي مكاناً تنامين فيه ولا ما تأكلينه.

تهزين كتفيكِ بإيماءة تستخف بخوفي من العراء الذي لا أريد أن تستخفي به لأنيِ أحتاج أن تتبنيه، أن تجعليه ملكك، الآن على الأقل، هذا الليلة: أكلمكِ، تستمعين إليّ، أشرح لكِ أنّ قصّة العملاق كانت مسرحية لأنّ الأبَ الحقيقي كان يختبئ داخلَ رومو الدو، الذي لم يكن سوى قناع آخر كقناع العملاق التي رأتْ أنّهم حطّموه، والآن يجب تحطيم قناع رومو الدو للعثور على الآخر الموجود في الداخل، الأب الحقيقي لابنكِ، يسكن في قصره الحديدي والزجاجي، تستطيعين أن تشاهديه من نافذتك؛ واحد من تلك القصور التي تشعّ بحزمات الضوء التي تحاولين الإمساك بها بيديك لتصعدي إليها، ليست بكِ حاجة إلى الصعود إلى حزمة ضوء، إيريس، أنا سأحطّم قناع رومو الدو وسآتيكِ بالأب الحقيقي، انتظريني هنا، الشوارع مرعبة، هناك رجال ملتحونَ يتربصون وأطباء يتسببون في معاناتك حين يستأصلون منك أعضاء بمشارطهم الدقيقة، وكلاب الدكاترة يطاردون الناس الذين يمشون في الشوارع ليلاً من دون هوية ولا عنوان معروف، الظلام في الخارج ليس كظلام البيت، إيريس، ذلك الظلام هو ظلام الناس المعدمة، الناس الذين لا يمتلكون مكاناً يسقطون فيه موتى، كما يقال، وهم لا يمتلكون مكاناً يسقطون فيه موتى لأنّ ذلك الظلام هو الفراغ الذي يبتلع الواحد فيسقط صارخاً ولن يكفّ عن السقوط صارخاً

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

وصارخاً وساقطاً وساقطاً إذ ليس هناك من قاع، إلى أن يختفي الصوت لكنّ الواحد يظل يسقط ويسقط في تلك المتاهة من الشوارع بأسمائها التي لا تعرفينها، الشوارع التي تغصّ بوجوه أناس سيضحكون منك، أناس يسكنون في بيوت لن يدعوك تدخلين إليها ويعملون أشياء لا تفهمينها، لا تقتربي أكثر، إيريس، لا تلمسيني هكذا، لا، أومبرتو، لا تدع إيريس تستمر في لمسكَ لأنّها ستحطّم أقنعتكَ، إذا لم تهرب فعليك أن تعود إلى أن تصبح أنتَ نفسك الذي ما عدتَ تذكر أين هو ولا من هو، تقرّبين شفتيك المكتنزتين من فمي وتبحثُ فخذاك بين ساقيّ الهزيلتين البائستين المرتجفتين، لا تدعْها تحوّلكَ إلى أومبرتو بينيالوثا بشحنة حنينه العارم، اهرب كي لا يستيقظ سكسكَ مع ضغط راحتيها المكتنزتين، كي لا يستجيب للسانها الذي يستكشف فمك ولسانكَ، عليكَ أن تظلّ منتصباً في الزاوية حيث يضغط عليك ثدياها ووركاها. لا وجود لأومبرتو ولا وجود للموديتو، الموجود هو العجوز السابعة. لا تجدُ يدكَ شيئاً.

– إيريس...

– ماذا؟ سأخرج للبحث عن الوالد.

– أين؟

– أنا أعرف أين يسكن.

– أين؟

– في بيت أصفر مقابل الحديقة له أدوار كثيرة.

– هيا.

– لا، انتظري...

– لماذا؟

– لا أدري إن كان موجوداً.

- لا يهم إن لم يكن موجوداً.

- لديه أربعة كلاب سود شرسة، وحين لا يكون موجوداً تأكل هذه الكلاب الأشخاص الذين يدخلون، وبما أنّها لا تعرفكِ...

- وهل تعرفكَ؟

- تعرفني.

- ولن تأكلكَ؟

- لن تمسني بسوء.

تفكر.

- وهل البيتُ جميل؟

- نعم.

- وهل الشاب أنيق؟

أجيبكِ بنعم، بأنّ دون خيرونيمو دي آثكويتيّا شاب أنيق جدّاً.

- لا أدري... تلك الكلاب...

لذلك سأذهبُ أنا لأجلبه لكِ لكي يأتي في طلبك في سيارته مع سائق، لا، لا أريدها سيارة بسائق، بل أريدها سيارة حمراء وبسقف متحرك. طيب، إيريس، كما تريدين، سأقول له أن يأتي في طلبك في سيارة حمراء وبسقف متحرك وأن يأخذك بعيداً عن هذا البيت وعن الأم بنيتا وعن داميانا وعنّي، لأني لا أريد أن أراك، سأقلّصكِ إلى حجم شاليهي السويسري، كيف أفتح لك الباب لكي تدخلي إلى البيت الصغير المغطى بالثلج، أطيعني، ادخلي بانتظار عودتي مع والد طفلك، خذيه كي تتسلي بينما آتيك به لكي يحمل ولدنا، إيريس، الذي سيصبح مالكاً، ليس لهذا الشاليه الخشبي، بل سيصبح سيداً وسيحمي كلّ متاهة هذه المنطقة حيث يمارس وقتاً لا يمضي بل يقبع بين جدران الطوب التي لن تسقط.

- انتظريني هنا، إيريس.

- طيب. ولكن عجّل إن لم ترغب في أن أتهمك وأن يأخذوك سجيناً، لأنّك إن لم تعجل فسأوقظ الأم بنيتا لأحكي لها كلّ شيء.

- كلّ ماذا؟

لم تردّ.

- أنني أنا الأب؟

- نعم.

- أوتظنين؟

ضحكتْ وهي تقول إنّها لا تظنّ ذلك.

- أطفئي الضوء، إيريس.

- طيب. سأنتظركَ هنا في غرفة البوابة.

- سأعودُ حالاً.

أرفعُ المتراس. أفتحُ الباب وأخرج. أغلقُ. ولكنّهم يعيدون وضع المتراس من الداخل في الحال... أضربُ، أطرق على الباب لكي يفتحوا لي، أنا مريض، المطرُ ينهمر، أنا منهكٌ، محمومٌ، أيتها الأم بنيتا افتحي من فضلك، أرجو صفحكِ لخروجي من البيت، افتحي، افتحي، لا أدري من أغلق الباب بالمتراس، ما عدتُ أرى، ما عدت قادراً على الصراخ، رجال الدرك أساؤوا معاملتي، الكلاب عضتني، أنا محموم، لم يعرفني أحد، أهانوني واحتقروني وحسب ودفعوا بي إلى المتنزه حيث المطر ينهمر وينهمر وأنا أجري وأصرخُ وأطرقُ، ما عدتُ أقوى على الصراخ والطرْق، أيتها الأم بنيتا، أنقذيني، أنجديني، على الأقل لكي لا تعثر عليّ بيتا بونثي، دعيني أدخل، ليس عندي قبضة، ليس عندي صوت، ما أنا إلا هذا الخرطوم المرهق على باب دير في ليلة ماطرة، ولا يفتحون...

٩

ماء، مزيد من الماء... كمّادة باردة على الجبهة لكن لا ترفعي يدكِ عنّي، أيتها الأم بنيتا، من فضلك اتركي يدكِ بيدي هكذا إلى أن يذهبوا، لأنّهم سيذهبون حين يرون أنّ حضرتكِ تحمينني كما حميتِني دائماً بصمتكِ، قولي لهم أن ينصرفوا، اطرديهم، يقولون إنّ رجال الدرك فاسدون، يقولون إنّهم يعذبوننا ليجبرونا على الاعتراف بسرقة شال أو رغيف خبز. ولكن بمَ يريدون أن أعترف إن لم أسرق شيئاً؟ هذا الدركي يغلق قبضة يده. انظري إلى براجمه البيض المتوترة، سيضربني، أيتها الأم بنيتا، تدخّلي، اضغطي على يدي كي لا يؤلمني بضربته... لذلك نركض حين يطاردنا رجال الدرك، نركض ونركض وقبل أن يتمكنوا من الإمساك بنا نجرّح بطوننا هنا، أيتها الأم بنيتا، انظري جراحي، نجرّح بطوننا جراحاً سطحية بسكين حاد، لكي يمسكوا بنا ونحن نسبح في برك من دمائنا نضحك مكركرين... سيحملونني إلى المستشفى، مستشفى جيد لا وجود فيه للدكتور آثولا، الجشع المستهتر، كي لا يسرق مني قطعة صغيرة من الجلد أو قطعة من غدّة، سيكون مستشفى لا يعرفه هو، فلا أحد، ولا حتى هم، يجرؤ على تعذيب جريح لأنّ الجرحى مقدسون. أنا جريح، لكنّي آمن، هم الآن يخافون منّي، وليس العكس، وليس عليّ أن أعترف لهم بشيء، فقط سأقول لحضرتك الحقيقة، أيتها الأم بنيتا، نعم، سرقتُ شيئاً من بيت

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد ٢١٥

دون خيرونيمو، انظري، هذا المجلد الصغير ذا الكعب الأخضر، مجلد واحد فقط، وإن كنتُ أتمنى لو أنّي استطعتُ أن أحملَ النسخ المئة، لكني لم أستطع، تسمّرتُ في مكتبته، تحيطُ بي بالكراسي المخمليّة الرمادية المألوفة وبالأضوية المنخفضة وبجذوع الأشجار في الموقد وهي تطلق شرراً، وأقفُ على سجادة ذات ألوان فيها من العمق ما غمرني بالخوف من الغرق فيها ومن أن تبتلعني بفخامتها... إنقاذ ما يمكن إنقاذه، بسطتُ يدي نحو كتبي، وهي حيث هي دائماً، تلك النسخ المئة، وكما هي، واحدة من غرائبه، تلك النسخ المئة التي اكتتب فيها بسخاء ليساعد طالباً مسكيناً على نشر كتيبه، حيث يكررُ اسمه واسم إينيس في كلّ صفحاته، نظرتْ إينيس إليه بحنان بين الزهور الزرق التي كانت تنظمها في زهريّة زجاجية تحمل ماركة لاليك، نزل خيرونيمو دي آثكويتيّا الدرج وهو يرتدي بدلة السفر للذهاب إلى رينكونادا، إينيس وبيتا تتهامسان في الرواق بالقرب من نخلة الجنّة، بينما يمضين الساعات يحُكن لعمل جهاز بوي... واسمي فوق، فوق النصّ في جميع الصفحات اليسرى، أومبرتو بينيالوثا، أومبرتو بينيالوثا، أومبرتو بينيالوثا، ذلك التكرار في اسمي هدفه تجنّب الخجل منه، مواساة أبي، خداع أمي، لأؤكد لنفسي أنّ أحداً في نهاية المطاف لن يستطيع التشكيك في وجودي بعد أن ظهر اسمي مطبوعاً مرات كثيرة. كم مرّة تكرر؟ لنرَ، أيّتها الأم بنيتا، ساعديني في الحساب، تطلقُ الحمّى عقدة لساني لكنّي لا أستطيع أن أركّز انتباهي لإجراء عملية حسابية، في كلّ نسخة مئة وثمانون صفحة، فهي إذن تسعون مرّة أومبرتو بينيالوثا في كلّ نسخة، زائداً مرّة واحدة في كلّ غلاف، ومرّة واحدة في كلّ غلاف داخلي، وواحدة أخرى على كعب كلّ كتاب... لنجرِ العملية الحسابية: اسمي يتكرر تسعة آلاف وثلاث مئة مرّة في مكتبة دون خيرونيمو دي آثكويتيّا. فكيف لا أخاف أن تبتلعني

تلك السجادة العاكسة للرموز؟ لا، اسمي يتكرر تسعة آلاف ومئتين وسبع مرّات فقط، لأني سرقتُ نسخة قبل هروبي. حين أتعافى وتكفّ يداي عن الارتعاش بسبب الحمى ولا يعود نظري مشوّشاً ربّما أقرأ لحضرتكِ، لحضرتكِ لأنّكِ أنتِ، ولأنك تمسكين بيدي وتستمعين إليَّ، بعضَ الفقرات من ذلك النثر المصنوع، من إبداعات الكاتب الأنيق صاحب الأسلوب الفنّي، من الأحاسيس المرهفة، شاعر الصور الربيعيّة، الشاب العبقري الذي خرج للتو من الخادرة ليتنشق الهواء العطر لمستقبل سعيد، والذي سيكون مبعث فخر للأدب الوطني، وبعد أن أقرأ لكِ وصفاً لامرأة من تلك الأوصاف التي كنتُ أكتبها حينئذ لأني ما كنتُ أعرف أيّة واحدة، كنتُ وحسبُ أتخيلهنّ وقد غمرتهنّ موجة من العطر المشرقيّ لأنّ العطور مشرقية دائماً، ملتفات بالعباءات الموشّاة دائماً، واقفات في وضعيّات منهكة غنجة لكنّها مبتسمة تحطّم القلوب، بينما بدر التمام مقيم في كلّ مكان، عالم ضائع خلف عوالم أخرى ضائعة خلف عوالم أخرى ضائعة، أعجوبة تحلّ محلّ أعجوبة منقضية، رأس كبير من عجينة الورق داخل رأس كبير من عجينة الورق، النسيان يطويه كلّه، أنا وضعتُ نفسي طواعية بين فكيه، زحفتُ حتّى حنجرته لأقفز منها إلى المريء والاختفاء واختفيتُ، نعم، أيتها الأم بنيتا، فمع أنّكِ تمسكين بيدي وتواسيني بكلماتك الرحيمة، فأنا ما عدتُ أنا. ربّما سيكون من الأفضل أن تحشريني، حين تتحسن صحتي، في رزمة الخرق تحت سريري حيث أحتفظ بالشاليه السويسري ومخطوطاتي، هكذا لن يضربوني لأنّهم بقبضاتهم المتوترة يريدون إجباري على الكلام. لا أستطيع. لا أريد الكلام عن سبب خروجي جرياً من بيت دون خيرونيمو دي آثكويتيّا، ركلني الدركي الذي لم يستطع الإمساك بي، وألقيتُ بنفسي بين سيل السيارات التي تضاءل حجمها تحتّ وابل المطر وغصّ بها الشارع،

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد ٢١٥

حرامي، حرامي، أبواق السيارات تنادي المزيد من رجال الدرك، في السيارات ناس عائدون من مشاهدة فيلم (جين مورو) الجديد وذاهبون لتناول البستيك مع مهروس البطاطس: يرونني في مروحة ماسحة الزجاج الأمامي الصافية في سياراتهم، فرملْ، أيّها العفن، كنتُ على وشك الاصطدام، الرؤية معدومة مع هذا المطر، أيّها السافل العفن، يا إلهي كم سقط من مطر هذه السنة، يرونني على مسافة متر في بؤرة الضوء التي يخدشها المطر، أذوبُ في المطر لكنّ ماسحة الزجاج تعيدني وتعيدني وتعيد لي وتعيد لي ثباتي الذي أعدمه، لكي يتمكنوا من رؤيتي، رجل قميء كأنّه أعمى، مبلول الشعر، مبلول كلّه في لحظة فرملتنا، يهرب متلمساً طريقه بين السيارات التي تطارده وتحكم الخناق عليه، رجال الدرك الغاضبون في الرصيف يصفّرون وهم يحسّون خيبة سلطتهم، بينما المهرج المطارَد يرقص في ما يشبه الهذيان وسط الأضوية الحمر التي تعضّ بطتي ساقيه وهو يهرب من بين سيارات السيتروين التي تتزحلق، والفوردات التي تصطدم، وتطلق أبواقها، أيّها السافل القذر وخرطوم الماء هذا الذي لا يتوقف، فرملْ، انتبه، إرنان، ستقتله، وماذا يهمّني وقد كان على وشك أن يجعلني أصدم سيارتي الرينو الجديدة، لكنّه اختفى وراء الموريس هناك في مطر المتنزه، وسيذهب للاختفاء في النهر، لكنّي لست حرامياً، أيتها الأم بنيتا، أقسمُ لك، فالواحد لا يمكنِ أن يسرق اسمه لأنّ من حقه أن يحمله للغرض الذي يريده، أن يستغلّ يوماً من أيام الشتاء تلك حين يحلّ الليل باكراً لحرق كلّ أوراقي، كلّ أسمائي المتشابهة والمكررة، من دون أن أترك أيّ أثر، سأرمي بها من جسر القضبان السود هذا إلى المجرى الحجري وبعد أن أتدلّى حتّى هنا سأشعلُ ورقة، ورقتين، دفتراً ربّما، لأدفئ يديّ قليلاً لأنّ الطقس سيكون بارداً. لكنّ لسان الدفء الصغير ذاك لن يكون كافياً. أحتاجُ إلى المزيد من الدفء

لمواجهة العراء المرعب. أوراقٌ أخرى، أفكار، رسوم، مفكرة أسبوع لم أواصل كتابتها، نسخ مسروقة من مكتبات عامة لم يستعرها أحد، دفاتر ملاحظات مسوّدة بخطي المرتعش والعنيف في الوقت نفسه.

انظري، أيتها الأم بنيتا، كيف تكبر الدائرة الحمراء عند قدميّ، اسمعيهم، إنّهم هم، أولئك الذين لا وجه لهم، الذين يأتون ويتقربون من لهبي واحداً واحداً. شيء ما يتحرك بين تلك الأحراج: يقتربُ كلبٌ ليقعوَ بالقرب من ناري. جسم يرتسم في خط الماء من حيث تتسلل جرذان سمينة تتغذى على النفايات، الجسم يتشكّل، يتقدّم. تهتزّ قطعة من الجدار الصخري وتسقط: لا، لا تخافي، أمّاه، إنّه طفل قفز من فوهة بالوعة. مزيد من الكتب، مزيد من الورق إلى النار وكتبي وأوراقي التي يشتعل فيها اسمي توسّع الدائرة السخيّة التي راحوا يدخلون إليها طلباً للدفء، بعد أن أخضعوا لعمليات جراحية تزيل وجوههم، لا، ليس لأجل هذا فقط، بل للاعتراف بي وقبولي بينهم وقد أزلتُ اسمي نهائياً. لأنّهم هم، أصحاب الامتيازات، الذين لا يشعرون بخوف ولا خجل فلا السلطة ولا الخديعة تستطيع أن تجرّدهم من شيء لأنّهم لا يملكون شيئاً، تلك الصور التي يستحضرها لهب أوراقي. ينحسر مدّ الظلمة، يتركها مكشوفة تقريباً مثل صخور مقنّعة بطحالب ممزقة، لكنّي أتعرّف عليها من تحت الأقنعة: الأمير المشرقي، عمامة، لحية سوداء، عباءة، أظافر طويلة، يمدّ جسمه بشهوانيّة قريباً من ناري فوق خيش كيسه المذهّب الذي سيحمل... لا شيء، أشياء، خرق، كارتونات، لا شيء. عقدة الأطفال والكلاب المبرغثة تشكل حيواناً واحداً فظيعاً على الأرضيّة، أقدام عارية، موحلة، خائرة، عيون تشتعل، جلود بيض مبقعة، دمامل، ذيول، شفاه مقلوبة، آذان نصف شفافة، أنوف تقطر، ويأتي المزيد والمزيد من حاملي الأقنعة الفانية، فإن لم نتنكّر بشيء فلسنا بشيء، رهبان ذوو

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

ملامح محددة يغطّيها تقريباً ظل القلنسوة الذي يصنعه لهبي، انظري إلى تلك العجوز التي تقرّب إلى الضوء ويدها المليئة بالثآليل التي تشبه يد بيتا بونثي وتشفّ إلى درجة أن حضرتكِ وأنا نرى العظام الدقيقة داخل ذلك اللحم الذي تفتت بين الأسمالَ التي راحت تنصهر من حرارة ناري. ألا تشمّين رائحة القماش المبلل يسخن، رائحة شبيهة برائحة كسرة خبز يابس عتيق وُضعت قرب نار أوراقي لتعود إليها طراوتها قليلاً، رائحة أعقاب سجائر تشعل من لهبي؟ حين يتخلص بوي من دون خيرونيمو نهائياً، سيعيد لي كلّ كتبي، التسعة والتسعين نسخة التي ظلّت عنده، لكي يطعم بها هذا اللهب الكبير الذي يأتون إليه، انظري إليهم، أيتها الأم بنيتا، من أين سيأتون، صُفرة بؤسهم، وحمرة قذارتهم، أسمالهم الفاخرة الرمادية، المزيد من الوجوه والأجسام والأيـدي، عيون يفضحها وميض، طيّات أمبراطورية، ملابس مشرّطة تكشف عن بريق زرد مشبّك، عن صدرية مفككة، حواش هي سيور، صدرات هي بيجامات قديمة، شعارات هي رقع، قنزعات هي شعور شعثاء، إلى أن أسقط منهكاً مع آخر أوراقي وآخر نسخي، تنطفئ النار إذ لم يبق شيء من أشيائي أغذيها به. انتظري، أيتها الأم بنيتا، لا تذهبي، مشاغلك ليست ملحّة بالقدر الذي تمنعك من الاستماع إليّ حتى النهاية وتتأمّلين انسحاب الأمـراء البطيء مع حاشيتهم من الأقـزام والزنوج والعبيد والحرس، من المحظيات والقودات، من آباء الاعتراف والأطفال والكلبات الجُرْب، من صنّاع البراذع والغلمان. حضرتك تظنين أنّهم متخفون فقط مما يبدو أنّها حقيقتهم. لننزع عنهم الأقنعة وسيتقلص ما عندهم إلى ما عند أناس مثلي، لا وجه ولا ملامحٍ، اضطروا إلى البحث في مكبات الزبالة وفي الصناديق المنسيّة في العليات، والتقاط فضلات الآخرين من الشوارع لصنع قناع في يوم، وقناع آخر في يوم آخر، يسمح لهم بالتعريف

بأنفسهم وإن للحظات. ليس لديهم ولا حتى قناع. الأقنعة قليلة، لذلك يؤلمني أنّهم حطموا رأس العملاق. أنا لا أفهم، أيتها الأم بنيتا، كيف تستطيعين حضرتكِ أن تواصلي الإيمان بربّ بائس لم يصنع إلا القليل من الأقنعة، فكثيرون نحن الذين بقينا نلتقط من هنا ومن هناك أيّة فضلات نستطيع أن نتنكّر بها لكي نمتلك الإحساس بأننا شيء يذكر، بأننا معروفون، صورة في الجريدة والاسم تحته، هنا يعرف بعضنا بعضاً، في الواقع جميعنا تقريباً أقرباء، أن تكون شيئاً يذكر، أومبرتو هذا هو المهم ويرمش نور المصباح وتعرج الطاولة تحت كوعيْ أختي وهي تحمل وجهها بين يديها كما في صورة (برتيني) الأخيرة، قناع أيضاً هو قناع أختي، قناع (برتيني) لأنّ وجهها لم يكن كافياً، الواحد يتعلّم منافع الأقنعة المرتجلة، حركتها، كيف أخفى الأخيرُ السابق، تكفي قطعة من قماش رسمت عليها مربعات مربوطة إلى الرأس، رقعة بطاطس على الصدغين، حلق الشاربين، الامتناع عن الغسل طوال شهر لتبديل اللون، كيف تغييرها والاختفاء داخل وجودهم المتدفق، حرية ألا تكون أبداً الشيء نفسه لأن الأسمال غير ثابتة، كلّ شيء مرتجل، عائم، اليوم أنا وغداً لن يجدني أحدٌ ولا حتّى أنا أجدُ نفسي لأنّ الواحد هو ما هو ما دام القناع. أحياناً أشفقُ على أناس مثلكِ، أيتها الأم بنيتا، عبدة وجه واسم ووظيفة ومرتبة، ذلك الوجه المواظب الذي لا يمكن التخلي عنه أبداً، الوحدة التي تُبقي عليك حبيسة أن تكوني دائماً الشخص نفسه. هؤلاء الذين أتوا طلباً للدفء في ناري هم، على العكس، متذبذبون متموجون كاللهب وكالأخيلة، يستقبلونني بلطف في مجموعتهم الآن بعد أن أحرقت اسمي نهائياً، فقدتُ صوتي منذ زمن طويل، وما عاد لديّ سكس لأني أستطيع أن أكون عجوزاً بين أخريات كثيرات في البيت، أحرق أوراقي غير المتجانسة بخطوطها التي حاولتْ أن تتوسل لكي أحصلَ على قناع محدد وأبدي، لكنّي لم

أحرقها كلّها، ليس كلها، فما زال هناك مجلدات كثيرة في مكتبة المقاعد الرمادية، لكنهم لا يعلمون بذلك، يظنون أنني مثلهم لأنني تعلمتُ أن أتنكر بالفضلات التي أجدها مرمية في الزوايا أو في الشارع... سأكونُ في يوم من الأيام واحداً منهم... سأنصرفُ من دون أن أترك أثراً... من دون أن أطأ أرضاً... من دون أن أبلغ ظلّاً واضح الحدود والنهايات... هكذا فقط سأتمكّن من التحرر من دون خيرونيمو الذي يحث عني لأنّه يحتاجني ويحتاج أشياء أحتفظ بها ولا أستطيع التفريط بها الآن، ومن بيتا بونثي، التي لن تموت أبداً، تصل إلى هنا مثل صدى مولود في الكابوس الأولي، لا يفلح تغيّر أقنعتي في خداعها، على الأقل في أن تحسبني منهم، ظلال، ظهور محملة بالأكياس، لحى، لثات من دون أسنان، عقب سيكارة ساقط في زاوية الفم، ولا حتّى التحاقي بالبلاط الذي راح يختفي شيئاً فشيئاً... أنا، ضحية مرتجفة لها كيان سقيم، وقد تحولتُ مثلهم إلى جلاد معصوم ضعيف إذ لا يمكن أن نفقد شيئاً فليس لدينا ما يغبطنا عليه أحد أو يتمناه... يذهبون... لنذهب من هنا، أيتها الأم بنيتا، لنتبعهم، الطقس بارد هنا في مجرى النهر الحجري ورجال الدرك، في الأعلى، يواصلون المراقبة والبحث عني لأنّي سرقتُ كتابي من نفسي، ولكن لا، حتّى رجال الدرك ينصرفون لأنّ الوقت متأخر. لنواصل، أيتها الأم بنيتا، لنمتزج بالأخيلة التي تتفرّق، إنني أتعلمُ كيف أكونُ واحداً منها ولم يبق أمامي إلا القليل... حضرتك تقدرين أيضاً، إن شئت، أنا أستطيع أن أعلمكِ كيف، فلديك بعض العلامات الفارقة التي تشير إلى أنّك واحدة منّا، غطاء رأسك الذي زال رونقه، يداك الخشنتان، مرارتك، هيّا، لا تتخلّفي عنّا، لا تختفي، أيتها الأم بنيتا، ولا تتركيني هنا، أرتجف من البرد ومن الحمّى، وحيداً، من دون يدك في يدي، من دون حمايتك في وجه هؤلاء القساة الذين يسيئون معاملتي، حرامي،

حرامي، هيّا، إلى دائرة الشرطة، ركلٌ وشدّ وصراخ، وحضرتك لا تأتين، أيتها الأم بنيتا، تتركينني وحيداً، تطلقين يدي، لا تتركيني، لا تتركيني... ليكفّوا عن ضربي فأنا لم أفعل شيئاً...

***

أنتَ هناك، جالسٌ قبالتي. أسمعُ المطرَ الذي يسقط في الخارج، رتابة القطرات تسقط في الطست تحت زجاج المنور المكسور. ما أسوأ ما رفؤوا لك وجهك! كم كانت عقيمة جهود الدكتور آثولا لعمل تلك الجفون المقلّدة، تلك الجبهة من دون حدّ واضح، ليزرع لك آذاناً حيث يجب، ليرسم لك الفك الذي لم تهبك الطبيعة إيّاه. أنتَ أكثرُ فظاعة من الصورة التي هددتنا بها ماريا بنيتيث بها إن لم «تضاجع إيريس رجلاً من الرجال»، لكنّها لا تعلم أنّ أمّك ضاجعت كلّ صبيان الحيّ، كلّ الرجال المتأنقين والمتنفذين في العاصمة، لذلك ولدتَ هكذا. أريكة من الجلد المبقّع، مكتب بأدراج كثيرة، مرآة محطمة الزجاجة أرى فيها شيئاً يمكن أن يكون وجهي المثير للحزن، هو كلّ ما يملأ هذه القاعة الصغيرة حيث أتى بي رجال الدرك لانتظارك. أشعلوا مصباحاً منخفضاً، عنق أوزة، يضيء تفاصيل الملامح التي توجب على الدكتور آثولا أن يصنعها لكَ، لأنّك ولدتَ من دون وجه على الرغم من أنّك سليل آل آثكويتيّا، المأساة الغريبة لجسمك المتعوج الذي لم يفلح التدليك والتمارين التي ابتدعها باسيليو في تصحيحه. لا تظننّ أنّ رؤيتك تفاجئني. فقد رأيتك كثيراً بعد وفاة دون خيرونيمو، وتابعتكَ بانتظام، من المؤكد أنّك لن تتعرف عليّ فأنا لم أبقَ في خدمتك في الريكونادا بعد أن أتممتَ الرابعة من عمرك، انتظرتُك لساعات كاملة عند بوابة محل الخياطة حيث يخيطون لك الملابس التي لا تستر تشوّه جسمك إلا قليلاً. اصطدمتُ بك ذات يوم عمداً في زحمة ناصية، وشعرتُ بكَ بين ذراعيّ، كما كنتُ أشعر عندما كنتَ طفلاً والآنسة

دولّي تعطيني تلك اللفافة التي كنتَها أنتَ، لكي أهدهدكَ لدقائق. أنتَ لم تنظر إليّ. تابعتَ طريقك. حتّى لو نظرتَ إليّ ورأيتني فما كنتَ لتعرف من أكون. هل تفاجأتَ كثيراً حين قال لك ملازم الحرس في مركز الشرطة هذا باحترام، لأنّه يعلم أنّك ابن السيناتور وتستحقّ الاحترام على الرغم من أنّك مسخ، إنّ متسولاً دخل بيتكَ هذه الليلة لسرقة كتيّب من مئة وثمانين صفحة؟ إنّه ذلك الكتاب الذي تتصفحُه. أنتَ تعرفه جيداً. أشعار، في نهاية المطاف، مئة نسخة، وتُمضي كلّ الوقت تقريباً في مكتبتك، لتستعيد في ما يبدو السنوات التي جعلناك، ملتشور وإمبراتريث وأنا والكل، تضيّعها. رأيتُك، وأنا قابع على دكّة بين شجيرات الأقنثة في المتنزه، تقرأ بالقرب من النافذة المفتوحة إذا كان الفصلُ صيفاً، أو لمحتُك، وأنا اقتربُ إلى الزجاج المضبب إذا كان الفصلُ شتاءً، تتسلّق على الدرج للبحث بين كتب أبيك وكأنك تبحث عن شيء، تتفحص كتبه من دون أن تغيّر مكانها، وكأنّك تريد بهذه الطريقة أن تحافظ على شيء من ذلك الانسجام الذي كان دون خيرونيمو يتصف به والذي تناقضه أنتَ بوجودك. تمشي مشية سيئة، أنتَ أبله وتقلب الحاجات، تنفسك أجشّ، أنتَ ملتوٍ وأحنف. تنتمي إلى رينكونادا كئيبة وغامضة، وجودٌ من ممرات، من زوايا منسيّة، كيانك يرسمه سوسُ الزمن على جدار أبيض. تقلّبُ صفحات كتابي تقليباً عشوائياً، وكأنّك تقلبه من دون تطلّع، عليك أن ترحل، تعود إلى بيتك الأصفر مقابل المتنزه. ثمّ إنّني لا أثير اهتمامك. بل أنتَ مستاء قليلاً، لأنّهم استدعوك إلى مقر الشرطة في تلك الساعة لموضوع تافه. ستذهب. أنتَ لا تعيرني اهتمامك. ستتركُ كتابي وستذهبُ إلى الأبد من دون أن تعرف من أكونُ، إلى مَن تدين بكلّ ما أنتَ عليه وما لستَ عليه، لا تذهب، بوي، لا تذهب، تعرّف عليّ ولو للحظة، ردّ لي فضل وجودك ولو بإعادة النسخ التسع والتسعين من كتابي التي

بقيت لكَ ولا تهمّك، لحرقها والدخول نهائياً إلى عالم الذين نسوا اسمهم ووجههم، لا تتركني هكذا، هذه هي فرصتي الأخيرة، وخوفاً من أن تختفي إلى الأبد أحرّك فضولك بأن أخطّ هذه الكلمات على ورقة: «أنا كتبتُ ذلك الكتاب الذي تتصفحه». أطعتني لأنّك عدتَ إلى الجلوس. تقلّبُ الآن الكتاب بعناية أكبر. حضرتك؟ لماذا دخلتَ في بيتي لتسرق الكتاب؟ لماذا استعملتَ اسمي واسم أبي واسم أمي وكأنّها أسماء خيالية؟ وأنّى لشخص مثل حضرتك أن يعرفنا؟ لا أظنّ أنّ شخصاً مثل حضرتك هو الذي كتب هذا الكتاب... لا أسمعكَ. أنتَ تعرفُ ذلك. في قاعة الحراسة قالوا لكَ إنّهم حين كانوا يهمّون بتعذيبي لكي أعترف باسمي وكأنني أعترف بارتكاب أبشع جريمة، أشرتُ إلى فمي وأذني، لا، لا أفهمُ، لا أسمعُ، أنا أخرس أطرش، وانتصرتُ عليهم بضعفي، لم تضربني قبضاتُ أولئك القساة لأنّ كونك أخرس أطرش يعادل تجريحك بطنك: سقطت يد الدركي المهددة بلا حراك بعد أن كانت توشك أن تصفعني. لم يضربوني. حسناً، وما الذي يمكننا فعله، خذوه إلى قاعة لينتظر وصول صاحب البيت ليصرّح إن كانت وقعت سرقة أم لا، أنا أظنّ أنّ سرقة لم تقع، ولا شكّ أن ذلك البائس دخل البيت ليتقي من المطر، ما أشدّ ما سقط هذا المساء، نعم، إنّه أخرس أطرش. أنا أخرس أطرش. نبّهك إليه الملازم.

وها أنتَ تسألني بأنفة تذكّرني بأنفة أبيك: وما العلاقة... أيّ اتصال «يمكن» أن يكون وقع...؟ لا أسمعكَ. أجعلك تكرر أسئلتك. تكررها وأنتَ تنطقها بعناية لكي أستطيعَ أن أقرأ ما تصيغه من كلمات غير دقيقة اللفظ بشفتيك التي هي شفتا سمكة. ألا ترى أن فمكَ مشوّه إلى درجة أنّ من المستحيل قراءة شفتيك؟ كيف تستطيع أن تثبتَ لي أنّك حقاً مؤلف هذا الكتاب الذي يتحدث عنّي وعن أبي وعن أمي؟ تواصلُ تقليب الصفحات. وفجأة ترفعُ رأسكَ، رأس المئزابِ الحجري

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

ذي الرسوم، وتحت تلك الجفون التي هي تقليد لجفون آدميّة، أرى زرقة القوس الكهربائي، تلك الزرقة التي تتطلب إثباتات وبراهين، لأنّ رجلاً ذا دم باسكي يجب ألا يؤمن بأشياء لا يمكن إثباتها. أنا بردان. يداي ترتعشان بالحمّى ذاتها التي تجعلها ترتعش الآن وأنا أسلّمك، أيّتها الأم بنيتا، المجلد ذا الكعب الأخضر لكي تتأكدي حضرتُك أيضاً من أنّ كلّ ما أقوله حقيقة. ملابسي تلتصق بجسمي لأنّها إلى الآن ثقيلة من البلل. في الورقة أسطّر الجواب: «لكي أثبتَ لكَ أنّ ما أقوله هو الحقيقة، أستطيع أن أكتب من الذاكرة أيّ فصل من فصول الكتب».

توافقُ. تضعُ الورقة على منضدة المكتب بنفسكَ، تنظّم درجة الضوء، تسلّمني قلم باركر ذهبياً، لأنّي غلبتك، فضولك أكبر من رغبتك في العودة إلى البيت، ما يحدث في هذه القاعة الصغيرة في مركز الشرطة ليس بالأمر التافه، وكان للخروج في هذه الليلة الماطرة ما يستحق عناءه. سأكتبُ الديباجة. افتحي الكتاب أيتها الأم بنيتا، إنّه رطبٌ بعض الشيء من المطر لأني لم أستطع أن أحميه حين كنتُ أختبئ من رجال الدرك الذين أمسكوا بي في النهر، لكن اقرئيه لكي تصدقيني حضرتك أيضاً. تجلسُ أنتَ مقابلي، تحت مرآة الحائط. لا أراكَ. لكنّك لا تكفّ لحظة عن النظر إليّ.

***

حين حرّك خيرونيمو دي آثكويتيّا ستارة المهد ليتأمّل ولده الذي طالما انتظره، أراد قتله في عين المكان: ذلك الجسد المقرف المعرّش الملتفّ على حدبته، ذلك الوجه المفتوح في أخدود قاس حيث الشفتان والحنك والأنف تعرّي بذاءة العظام والأنسجة في فوضى من ملامح حمر... كان الارتباك، الفوضى، كان شكلاً مختلفاً من الموت لكنّه أسوأ من الموت. حتّى ذلك الوقت لم تكن شجرة آل آثكويتيّا العائلية الكبيرة الرأس، التي كان هو آخر من يحمل اسمها،

قد أعطت غير ثمار يانعة لا غبار عليها: سياسيون نزيهون، مطارنة وأساقفة ومتعبدة شديدة الورع، وزراء مفوضون في الخارج، نساء ذوات جمال أخّاذ، عسكريون يبذلون دماءهم سخيّة، حتّى مؤرخ شهير تغطّي شهرته القارة كلّها. كان أمراً مشروعاً ألا يكون خيرونيمو آخر آل آثكويتيّا، وأن يتواصل بريق اللقب في بذرة الأولاد والأحفاد لكي تستمرّ السلالة في إنتاج ثمار محسّنة أكثر فأكثر وإلى الأبد.

لكنّ خيرونيمو لم يقتل ولده. فقد سمحَ له الفزعُ الذي أصابه، وهو يرى نفسه أبا لفوضى من هذا العيار، بثوانٍ من التفكّر انقضت بين الانطباع الأول والفعل، ولم يقدم خيرونيمو دي آثكويتيّا على القتل. لأنّ ذلك سيكون تنازلاً، انضماماً إلى الفوضى، تحوّلا إلى ضحية له. قرّر أن يتقبل الأمر، بعد أسابيع من الاعتكاف في حجرة الطفل الوليد والتعايش معه وإطعامه بيده، وبعد تداول مع سكرتيره وأمين سرّه، وهو الوحيد الذي كان يمكنه الدخول إليه في معتكفه: تلك الخدعة القاسية المؤلمة كانت تعني، حينها، أنّ القوى التقليدية التي تلقّى هو وأسلافه الكثير من نعمائها مقابل التزامهم بالحفاظ على نظامها الساري على مقدرات الأرض قد تخلّت عنه. رأى نفسه أيضاً وقد فارقته القوى الأخرى، الأكثر ظلمة، القوى التي أفلحتْ إينيس، وقد جنّ جنونها تشوقاً إلى أن تخلّف منه، في إقناعه بمجيئها. وهكذا صارت قوى النور وقوى الظلام تناصبه العداء سواءً بسواء. ظلّ وحيداً. لكنّه ليس في حاجة إليها. إنّه قوي وسيثبت ذلك، سيثبت أنّ هناك بعداً آخر، قوانين أخرى، طرقاً أخرى لمعرفة الخير والشر، اللذة والألم، القبح والجمال. فالطفل المسخ الذي يرفس باكياً في مهده من جوع لن يهبه وسائل الغلبة وحسب بل سيثبتُ أنّه، خيرونيمو دي آثكويتيّا، هو الأعظم والأجرأ من بين جميع آل آثكويتيّا على مرّ الأزمنة، كما كان يردد سكرتيره على مسامعه من دون كلل. خيرونيمو

لم يقتل. واصل العيش تقريباً – تقريباً – كسابق عهده، واحداً من أكثر الرجال المحسودين في البلد. محسود لأنّه بعد انقضاء مدّة الحداد على امرأته، ما عاد أحد، سوى أشخاص قليلين جدّاً، يتذكر وجود بوي، ولده الذي كان يعيش في رينكونادا، العقار الريفي البعيد الذي لم يذهب إليه خيرونيمو قط. مع ذلك اهتمّ بتوفير كل أسباب الراحة التي يمكن، بل يجب، لابن له أن يحتاجها. ليس غريباً أن تنمحيَ ذكرى بوي من ذاكرة الناس. كان الوقت بالطبع عاملاً مهمّاً، لكنّه لم يكن العامل الوحيد ولا الحاسم. نسي الناس بوي لأنّ نسيانه كان أدعى إلى الراحة. ولأنّ تذكرَه كان سيعني الاعتراف بأنّ رجلاً من قامة خيرونيمو، يحظى بالانسجام ويمثّل بعلوّ شأنه أفضل ما فيهم جميعاً، يمكن أن يحمل بذرة مسخاً، وعندها لن يكون التعايش الودّي مع السيناتور مقلقاً وحسب بل مرعباً. ثمّ إنّه ما من أحد غير ذلك السكرتير كان قد رأى بوي. مَن كانت لديه أدلة على وجوده؟ كان من الأسهل التفكير في التناقض الذي يعنيه أن تنجب منظومة السادة الفضلاء هذه ولداً مشوّهاً، ومن هنا الانتقال إلى القول بأنّ بوي يمثّل، بكل تأكيد، أسطورة سوداء من تلك التي كان من الطبيعي أن ينسجها الحاسدون حول الشخصيات النابهة.

وربّما كان الناسُ على حق، لأنّ خيرونيمو نفسه أسهم بسكوته في محو كلّ أثر لما كان في نظره مأساة. إذ لن يكون قادراً على أداء دور الإقطاعي القوي والسيناتور المدافع عن حقوق أسرته ضدّ مطامع الدخلاء والشخصيّة التي تجذب الأنظار في الصالونات والسباقات والمحافل والنادي والشارع، إلا إذا دارى على عاطفته ورقّة قلبه. تذهب بعض النساء إلى البرلمان، بعاطفة سياسية مزيّفة، ليستمعنَ إلى حديث الأرمل ويتطلعنَ من الشرفة العليا إلى عنقه الكلاسيكي وقامته البطولية: لم تكن أسماء السيدات اللاتي تطلعن إلى شغل الفراغ الذي

تصوّرن رؤيته خلف واجهة مظهره وكلامه الفخمة سرّاً من الأسرار. لكنّ أحداً لم يفلح قط في الوصول إلى ما هو أبعد من تلك الواجهة. كان أعداؤه ينعتونه بالمتعجرف، حتّى بالمغرور. كان، من دون شك، يعي جيداً وسامته وحسن هيئته، ويدرك كلّ حسن ذوق وتهذيب، فيه وفي الآخرين. ربّما لم يكن يزعجُهم سوى بعض التصنّع في اللبس، بعض التكلّف الغابر، الذي هو، من دون شك، ذكرى إقامته الطويلة في أوروبا، حيث، يقال، إنّه أمضى شبابه الطليق وباهظ التكاليف مع متأنقي ذلك الزمن. كان مجرد حضوره درساً في التناسق والانسجام، درساً غير مريح فقد كان من المستحيل مجاراته في تلك الأنحاء غير المتحضرة. حتّى في خطابه الأخير في مجلس الشيوخ، قبل العودة إلى أراضيه ليغلق على نفسه ويحيا حياته الخاصة، اتخذ وهو يتكلّم وضعيّة التمثال المعتادة، المتعبة قليلاً، الرجوليّة والمقنعة كعهدها.

قوبل خطابُ الوداع الذي ألقاه السيناتور بعاصفة مدوية من التصفيق. كانت كلماته من الوضوح والألمعيّة أنّ صحفَ اليوم التالي قدّمت في صفحتها الأولى دون خيرونيمو دي آثكويتيّا بوصفه مرشحاً محتملاً لرئاسة الجمهوريّة. لكنّه نبّه مناصريه الذين خفّوا لتهنئته ألا يعوّلوا عليه، فهو عازم على التمتّع بإجازة طويلة في سفر أو في عدم سفر، لأنّه يفكر في استراحة تدوم لأجل غير محدد.

اختفى خيرونيمو حينذاك من العاصمة من دون أن يقدّم تفسيراً لأحد، باتاً في أمر صداقات والتزامات، وموكّلاً مديرين يحظون بثقته لتصريف التزامات وإجراءات. المهم، قال الجمهور بعد بضعة أشهر، هو أدرى بما يفعل. في الأمور الأخرى، بدأ تقدم العمر يلاحظ عليه وظهرت داخل الحزب التقليدي أصوات جديدة راحت تشير إلى توجهات جديدة. ثمّ – ذكروا بإيجاز قبل أن ينسوا- ألم يكن غريبَ الأطوار بعض الشيء مؤخراً، ألم يكن دائماً، من المنظور الراهن حين

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد ٢١٥

يتوفر المنظور اللازم لتحليله، مختلفاً وغريب الأطوار؟ أليس صحيحاً أنّ عجرفته، التي لا يجرؤ حتى أقرب المقربين إليه على نفي وجودها، انتهت بحبسه خلف سور ليحكم بمفرده، سيداً ومالكاً لحقيقة مطلقة لم يكشف عن سرها لأحد؟

وعلى الرغم من كلّ شيء، وبعد مرور بضعة أعوام، سبّب خبرُ وفاته حزناً حقيقياً. تذكّر البلدُ كلّه، آنذاك، خدمات الشخصية العامة البارزة وأقاموا له أعظم احتفالات التكريم: حملوا نعشه إلى المقبرة على عربة مدفع مغطاة بالألوان الوطنية الثلاثة. أبدى الكثيرون رأيهم في أنّ الأمور ما كان لها أن تجري بتلك الطريقة، فدور خيرونيمو دي آثكويتيّا كان سياسياً أكثر منه تاريخيّاً، وإن اسمه لن تخلده غير نصوص متخصصة. وعلى الرغم من ذلك الجدل حول التكريمات الممنوحة - أو ربّما بسببها -، ذهب الجميع إلى دفنه. بالقرب من مدفن العائلة - احتلّ جثمانه كوّة تحمل اسمه وتاريخ ولادته وموته، وفيها من الرخام قدر ما في كوّات من سبقوه من آل آثكويتيّا - استحضر الخطباء إنجازاته، تعاليم هذه الحياة النموذجية التي تحدد نهاية سلالة يقرّ البلد بأنّه مدين لها، على الرغم من التغييرات التي طرأت على العالم المعاصر. سلسلة حديدية ثقيلة أغلقت بوابات المدفن حيث ستبدأ الزهور بعد ساعات قليلة بالذبول. وأدار السادة ببدلاتهم السود ظهورهم وراحوا يبتعدون ببطء بين أشجار السرو يتأسفون لنهاية تلك الأسرة النبيلة.

***

هل ترى؟ كلمة كلمة. لم أنظر إليكَ ولا مرّة وأنا أكتبُ الديباجة. أمّا أنتَ فلم ترفع نظركَ عنّي: شعرتُ طوال الوقت بقوس نظرتكَ الكهربائي يمعن النظر فيّ. غمرنا هدوءٌ عريض طوال أكثر من ساعتين. أضعُ نقطة النهاية. لكنّي لا أرفعُ بصري عن أوراق ديباجتي، أضع فارزة هنا وعلامة تشديد هناك، أشيرُ إلى فقرة منفصلة بخطين

متوازيين، أيّ شيء، لأني لا أستطيع أن أفارق ما كتبتُه للتوّ على الرغم من أنني أشعر بأنّكَ تنهضُ من المقعد الموضوع تحت المرآة. حين أرفعُ أخيراً بصري أراكَ مؤطراً في تلك المرآة المشوشة، أرى وجهي الحزين مشوهاً في ذلك الماء العكر الذي يغرق فيه قناعي، الحركة الانعكاسية التي لن تدعني أهرب، ذلك المسخ التي يتأملني ويضحك بوجهي لأنّك ذهبتَ، بوي، من دون أن تقرأ ولا حتى الديباجة التي كتبتُها معلناً عن ميلادكَ لكي تعرف من أنتَ، وهم يعودون، من دون كلابهم الجائعة هذه المرّة، لكي يقولوا لي حسناً، يمكنكَ الانصراف، هيا اذهبْ، انصرفْ من هنا فما أكثر الجهد الذي كلّفتنا إيّاه لا نريد أن نعود لرؤية أيّ أثر منكَ، من حسن حظّكَ أننا نطلقُ سراحكَ، الشاب الغندور لن يستطيع الحضور، اتصل هاتفياً لكي يقول إنّه متأسف كثيراً لأنّ الأمر كلّه هو من التفاهة ومن السخافة أنّه لا يستحق قطع الحارتين من بيته إلى مركز الشرطة، وخصوصاً مع هذه العاصفة التي لا تهدأ، لم أرَ قط مطراً بهذا الشكلِ، السماء توشك أن تنطبق، هيّا، ما تلك الأوراق، خذها، إنّها أوراقكَ، احشرها في جيبك إن شئت، نحن لا نريدُ أن نحتفظ بقاذورات، خذْها، هيّا، اخرجْ قلنا، وماذا يهمّنا إن يبتلّ متسوّل مثلكَ، فأنتَ معتاد على هذا، ستلوذ برحبة أحد المتنزهات، تحت الكرش البرونزي لتمثال يركب حصاناً في إحدى الساحات إلى أن يتوقف المطر، ما أدراني، أو ستعود إلى النهر، فتحتَ الجسر يتجمع الناس الذين هم على شاكلتك، هيّا، اخرجْ، وحذارِ أن تدخل إلى بيوت السادة وإن لم يكن بدافع السرقة، وانتبه إلى أنّ الجرّة لا تسلم كلّ مرّة... وهربتُ، أيتها الأم بنيتا، عبر المتنزه وتحت المطر من دون كلاب تطاردني، هربتُ، أهيم في الشوارع، أغرقُ في الفراغ الذي أجدُ نفسي فيه من دون وجهة لأنّ المطر يمحو كلّ شيء، البيت، أين البيت، أين البيت، كيف أصلُ إلى البيت، هذا المطر القاسي

يمكنه إذابة الطين، سينهارُ الطوب القديم، ستنهارُ المتاهات المبللة، ولكن لا، لن تنهار، جميع العجائز، مرحّبات ومعتنيات ومجتهدات، والأم بنيتا أيضاً، ينتظرن أن يفتحن لي البوابة، ليسمحن لي بالدخول وليحبسنني ويحمينني، وكيف لا يحمينني ويعتنين بي وقد وجدنني مرمياً فاقد الوعي بالقرب من البوابة التي لا بدّ أن تفتح لكي أدخل.

١٠

فُتحت البوّابة. استقبلتْه بابتسامة مرحبة وقادتْه عبر الباحة، بين طيور الحَمَام التي انشغلت بالنقر بين البلاطات، إلى الطرف الآخر من الممر. جلس واستندَ على ظهر المقعد. كان صرير الخيزران مرحّباً تحت ظلال سلطان الجبل الذي كان يلتهم الأعمدة المربعة. قالت له الخادمة إنّ عمّه لم يصل بعدُ، لكنّه لن يتأخر في الوصول. تناول خيرونيمو رشفة من العرق وشكرها. طقطق أصابعه ليفزعَ الحَمَام، لكنّ الطيور استمرّت تحت الشمس المتعامدة لاهية عن كلّ شاغل مواظبة على حوارها الرتيب، ولم يفلح انسحاب الخادمة ومرورها من بينها في إثارتها وإخراجها من غيبوبتها.

حين عاد من أوروبا كان الشيء الوحيد الذي لم يُشعرْه بالإحباط في بلده هو أسماك الأنقليس الكبيرة التي كانت تقدم أيّام الجمعة على مائدة عمّه الموقّر الأب دون كليمنته دي آنكويتيّا. السمك، وما يرافقه طبعاً: الصمت المتئد في تلك الباحات، التي كانت عمارتها البدائية من الطوب تدلّ على حياة حدودية تقريباً بالمقارنة مع الحياة التي كان يعرفها، وحديث عمّه، السياسي أكثر منه كنسياً، الدنيوي أكثر منه روحانياً، المملّح بحكايات طريفة لاذعة عن العائلة، تلك العائلة الكبيرة التي ينتمي إليها الجميع. خيرونيمو كان قد بدأ رحلة العودة إلى وطنه ليرى إن كان يستطيع أخيراً أن ينتمي إلى تلك «العائلة»

بانضمامه إلى مستوى ما منها. أمّا الآن، وبعد شهرين، وعلى الرغم من عمّه ومن متعة السمك وسلطان الجبل، فإنّه يفكر في إمكانية العودة إلى نقطة انطلاقه، ولو لمجرد ارتكاب حماقة الارتماء في النار التي كانت تحرق أوروبا. انحنى ليضع الكأس على الطاولة. كانت الحركة البسيطة هذه المرّة كافية لإفزاع الحمام اللاهي الذي طار ليواصل ثرثرته على السطح. لم يكن تأخر دون كلمنته مألوفاً. فهو دائماً من ينتظر مدعويه إلى غداء الجمعة جالساً في تلك الناحية من الممر، بعد أن قرأ جريدة الصباح وجهّز انتقاده لآخر أداء للحزب لكي يلقيه على مدعويه حتّى قبل أن يجلسوا. كان رئيس الأساقفة قد أعفاه من واجباته الكهنوتية لكي يتفرّغ، بعد تكريمه، لقضاء الباقي من حياة السيّد الكبير ابن المهاجرين الأوروبيين، ويستطيع أن يموت في ذلك البيت حيث ولد هو وخيرونيمو. ولكن لا السنوات ولا الأوجاع حدّت من الروح الاجتماعية لرجل الدين. ففي كلّ جمعة كانت تأتلف في غرفة طعامه، حول مائدة عامرة بالأسماك والبحريات، حلقة من الرجال المرموقين الخبراء في ربط اضطرابات سوق المال بالتغييرات الوزاريّة، مجموعة عارفة بصلات القرابة، بأسعار الأغنام والعقارات، أعضاء في هيئات لاستقبال أصحاب المقامات الرفيعة من الأجانب، حاملي المشورة والحكمة، كرماء في منح مواقع إلى الراغبين في أن يكونوا مثلهم وإن لم يكونوا مثلهم. أشاع القيل والقال بين المواطنين قصّة مفادها أنّ من يقرر الأحداث السياسية في البلد هي امرأة تدعى ماريا بنيتيث، الطباخة مدى الحياة لدون كليمنته، التي كانت صورتها الكاريكاتيرية تظهر في منشور مصوّر جريء يرى فيها تجسيداً لنظام الأقلية الحاكمة، وهي تقلّب بملعقتها الكبيرة القدر الذي كتب عليه اسم البلد. أمّا دون كليمنته فكان يعلّق وهو يقهقه:

- لكنّها مجرد دعوات غداء عائلية!

وكان ذلك صحيحاً، لأنّ علاقات القرابة والروابط عند آل آثكويتيّا كانت تغطّي كلّ مرافق السلطة. في أولى دعوات الغداء التي حضرها خيرونيمو، وفي جوّ من دخان السيجار الكوبي الفاخر الذي جاءهم به دون كليمنته، سلّم عليه السادة الأفاضل، ممن لم يشبكوا زرّاً أو اثنين من أزرار صدراتهم، بودّ، متذكرين والده وجدّه، ومعبرين عن سعادتهم لوجوده أخيراً بينهم بعد غيبة دامت خمس سنوات. قال له وزير ذو كرش نهم، تشي جبهته المحمّصة من الأسفل والبيضاء قريباً من الشعر بحضورٍ معتاد لقبعة السادة من أرباب العمل:

- مكانك هنا، يا رجل. لماذا تريد العيش في أوروبا بين كفار وسافلين بينما أنتَ هنا معزز مكرّم؟ طبعاً هناك النساء...

قابل مواكلو الوزير بالضحك علامة شهيّته المفتوحة التي هي مضرب المثل. وفي حركة لإثارة الإعجاب عبّ كأساً أخرى من النبيذ، وبعد النفخة الأولى من سيجاره، قدّر عمرَ خيرونيمو:

- لنرَ. تزوّج والدكَ نهاية الحرب التي استعدنا فيها محافظات الشمال. أتذكّر ذلك جيداً لأنّني اضطررتُ إلى البقاء في الحدود بعد توقيع اتفاقية السلام، ولم أستطع حضورَ العرس. وقد مات والدكَ المسكين أثناء الثورة ميتة الأبطال. أنا كنتُ حينها وزيراً، وقد ألقيتُ كلمة في مراسم الدفن. رأيتكَ: جادّاً، شعرُكَ هو شعر القش الذي يميّز آل آثكويتيّا، على رأس موكب الجنازة. كان عمركَ آنذاك حوالي ثماني سنوات. كلّنا تكلّمنا عن رجولتكَ. كان مقدّراً لك بلا شك أن تحقق الوعود التي حال موتُ أبيك المبكر دون تحقيقها. وكيف لا أتذكر أنّ عمرك كان قريباً من... من السادسة والعشرين حين سافرتَ إلى أوروبا وأنا الذي عرضتُ عليكَ بنفسي أن تكون سكرتيري بقصد الإبقاء عليكَ هنا حين وقعتْ مشكلة الحدود؟ فعمرك الآن هو في حدود الثلاثين.

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

- واحد وثلاثون...

ولتغيير موضوع الحديث غير المريح الذي كان يربط تاريخه الشخصي بتاريخ البلد، شرح خيرونيمو أنّ عودته كانت بسبب الحرب قبل كلّ شيء. قرّب السادة كراسيهم وتركوا كؤوسهم وأحاطوا به ليسألوه عن معركة فردان[١٢]... لكنّ الاهتمام بهذه الموضوعات سرعان ما خفتَ وتحوّل مسار الحديث نحو أجفان الكروم التي استوردت مؤخراً، ونحو إمكانية أن تفتح لهم كارثة فرنسيّة سوقاً للتصدير، وتقوّي هكذا الحزب في الانتخابات القادمة. تلك كانت المشكلة المهمة. وجود مرشح ذي تأثير قوي على الجمهور في محافظة مفصليّة، رجل ذي ثروة مستعد لشراء ما لا يعطى، رجل ذي قوة حقيقية. عُرضتْ أسماء كان خيرونيمو يجهلها، ناقشوا انتماءات سياسية وعائليّة. كان صوت دون كليمنته المتذبذب بين الرجاليّ والنسائي يتردد حاداً في الحوار، بينما راح قاضٍ ابتعد عن الخوض في حديث مكرر ممجوج يهزّ رأسه في زاوية من الزوايا وقد بسط منديل الطعام الممتلئ بفتات الخبز على كرشه. تبادل أعضاء جناحي الحزب المتعارضين الكلمات الثقيلة فوق بقايا طعام الغداء. غادر أحدُ النوّاب غاضباً غرفة الطعام من دون أن يسلّم على أحد. وبعد ذلك، حين بدأ الوسن يفرّق الآكلين ويوزعهم ناحية قيلولات الهضم، وضع الوزير يده على كتف خيرونيمو، وضغط على يده اليمنى ضغطاً خفيفاً:

- مكانكَ معنا.

لماذا لم يقرر الحمام أن ينقلَ حواره إلى سطوح أخرى ويكرره على مسامع أخرى؟ نهض خيرونيمو وراح يتجوّل في الطرف المظلل

١٢- Verdun إحدى أشهر المعارك في الحرب العالمية الأولى بين الألمان والفرنسيين.

من الممر لكي تؤكد له الأعمدة المتتابعة أنّ مكانه هو فعلاً هنا. لكنّه لم يفلح في التكيّف مع ذلك المكان، فقد كان الحافز بائساً. لقد تعلّم في خمس سنوات أمضاها هناك حقّه الطبيعي في التعامل مع أشخاص ذوي نوعية أرفع وأشياء لها مواصفات أروع. بعد أن وجد كمال نفسه ورضاها في ذلك كلّه فإنّ من الصعب عليه أن ينكمش ويركن إلى الشعور البدائي بالرضا في مسامرات بيت عمّه الكاهن. <يقال إنّ بوي يمتلك مقاطعة غربية في مكان ما، أنا لا أتذكر الاسم وأعتقد أنّه اخترع ذلك...> هذا ما كانت تقوله صديقاته في باريس. وكان ذلك صحيحاً إلى حدّ ما. لقد عاد بسبب الحرب. صحيح. لكنّه قبل ذلك عاد لأنّه أصيب في الآونة الأخيرة بجرح في صميم كبريائه. ولكي يتجاوز توازن حياته اختبار تشدده وتطلّبه فإن عليه أن يكون مختلفاً، أن يولد من جذر خاص به، حتمي، أقوى من إرادته. إنّ غياب الحرية هو الذي يحدد الواجبات. لا غير. وحين تخطّى خيرونيمو عتبة الثلاثين وصل إلى قناعة مفادها أنّ الواجبات هي، في نهاية المطاف، ما يورّثُ النبل. لا غير. حين نشبت الحرب رأى أنّ لا مكان طبيعياً له داخل الصخب. كانت مشاركته ستحظى بطابع اللفتة الرياضية المهذبة. ولمّا تحقق من أنّ التأنّق لم يكن إلا هروباً، عاد إلى أرضه الأمريكية، الخشنة البدائية بحثاً عن واجبات تضفي على حريته نبلاً.

ولكن كيف اتخذ القرار بالعودة إلى عالم تصدر حقائقه السامية عن طبيخ سمك في صلصة الخل؟ بلغته رائحة السمك الذي كانت ماريا بنيتيث تعدّه وخلط بينه وبين عطر سلطان الجبل. حين سمع وقع خطوات سارع إلى تناول جرعة من العرق. في قاع الكأس ظهر الكاهن، محدودباً يتوكأ على عصاه. وقبل أن يسعف الوقتُ خيرونيمو بالوقوف على قدميه، قال العجوز:

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد ٢١٥

- تأخرتُ لأنّي كنتُ أسعى في أمر يخصّك.

- يخصّني؟

- نعم، يخصّكَ. كيف وجدتَ هذا العرق؟

تشمّم المشروب قبل أن يساعده ابنُ أخيه على الجلوس على كرسي الخيزران، فوق الشال المنسل الذي كان يتخذه وسادة رسمت حدودها مؤخرة دون كليمنته الهزيلة. بدا العرق على وجه الكاهن كالندى فوق زر ورديّ لكنّه ذابل من طول امتناعه عن الشرب. حنكه المجزّأ، قامته، عيناه الزرقاوان من دون كهرباء والمحاطتان برموش فاتحة اللون، كانت محاكاة باهتة، لكنّها لا تقبل الخلط، لخامة خيرونيمو الواضحة.

- كيف صحتكَ عمّي؟

- لا بأس وحسب، يا ولدي. هموم كثيرة. لكنّها ما عادت تهمّني، ما نحتاجه الآن هو أن تكون أنتَ بخير. لديّ ما أعرضه عليكَ.

تنشّق دون كليمنته كأسَ ابن أخيه بحنين: كان امتناعه عن الشرب، فضلاً عن حالته الصحية، لا يسمحان له بالاستمتاع بالملذات التي يقدّمها إلى زوّاره إلا هكذا، عن بعد. واصل دون كليمنته قائلاً:

- جئتُ من الحزب. وقد كان المجتمعون متفقين على أنّك أنتَ الرجل الذي نحتاجه مرشحاً لمنصب النائب عن المُحا...

لم يستطع خيرونيمو كتم ضحكته. هل هذه هي المغريات التي انتظر أن يقدّمها له بلده؟ وجد نفسه يتعامل مع صيادلة المحافظة وأساتذة قرويين راغبين في إثارة اهتمامه لإعادة بناء جسر جرفته الفيضانات الأخيرة. كيف يمكنه أن يشرح لعمّه أنّ ما تطلبه روحه لكي تحمله على البقاء في الأراضي الأمريكية ليس ذلك، بل هو شيء أكثر دقّة؟ كان الحلّ الذي يقترحه عليه عمّه بدائياً. بدائي إلى درجة أنّه

لم يحرّك فيه غير قهقهة لم تثبّط همّة دون كليمنته، المشغول بإعطاء التعليمات ليفتحوا قنينة نبيذ خاصة جدّاً.

– لأننا اليوم سنحتفل.

– بماذا؟

– بترشحك للنيابة.

– أنا لا تهمني السياسة.

– كنتُ أعلمُ أنّني سأواجه صعوبات معك. بعد وفاة أبيك، أمّك لم تفعل غير تدليلك. ليس أسوأ من السفر، فهو يملأ رأس الشباب بالسخافات وينتهي بهم الأمر بالزواج من أجنبيات. بوي! أيّة تفاهة هذه! لنتكتّم على أنّ صديقاتك الفرنسيات كُنّ ينادينك باسم المخنثين هذا، وإلا خسرتَ الانتخابات.

– لكنّي لن...

– لقد أعلمتُ أصدقائي المدعوين أنني متوعك اليوم ولن أستقبل أحداً. لا أريد أن تخجلني تفاهات الصبيِ المدلل أمام الناس الذين ينتظرون الكثير منكَ. تقول إنّ سياسة بلدكَ لا تعنيك! ما أعظم هذه النكتة! لنذهبْ إلى غرفة الطعام، ولدي؟

تبع خيرونيمو دون كليمنته بصمت. الذكريات المشوشة المحبوكة في ظلمة الأشياء المحبوسة في الغرف التي راحا يقطعانها لم تكن كافية لتجعله ينسى أنّ ما هو جاد في نظر أصحاب هذا الأثاث القبيح وهذه الستائر الثقيلة التي تخفي فوضى الباحة «الداخلية»، هو ما هو نافع وقريب وحسب. مع ذلك... مع ذلك... ومع ارتفاع الجدل السهل الذي كان يهزم هذا كلّه في داخله، كان شيء خاص به يبقى معلّقاً في أطراف (خاكاراندا) وفي <المقاعد المنجّد>. كان يصعب عليه الحفاظ على تركيبة واضحة في الوقت الذي يحمي فيه الضوءُ

المذيب، أو العتمةُ الباردة كعتمة جدران الطوب في غرفة الطعام، مثلاً، كلّ شيء، باستثناء البطيخة المحفورة فوق صينية الفضّة، من هجوم الذكاء.

– عمّي.

– ماذا؟

– جئت لأخبركَ بأني عائد إلى أوروبا.

– لا يمكنك السفر خيرونيمو. اسمعني، ولدي، وكن عاقلاً. لم يبق غيرُك... بعد أن اخترتُ أنا أن أصبحَ راهباً، غفر الربّ لي. أنتَ آخرُ من يستطيع نقل اللقب. ألا تعلم أنّي رأيتُ في منامي أنّ واحداً من آل آثكويتيّا سيعود للظهور في الحياة السياسية للبلد! وكم كان تلهّفي كبيراً وأنا أنتظركَ، وحللتُ محلك في ما كانت واجباتك، بينما كنتَ تتسلّى بأفعال دنيئة في باريس! لكنّك الآن هنا ولن أدعكَ تذهب. ما أسوأ حساء السبانخ هذا الذي صنعته لي اليوم ماريّا! لنرَ مع ماذا قدمتْ لكَ السمك؟

– مع الكَبر. إنّه لذيذ.

– ما أطيب رائحته!

– أنا لا أفهم شيئاً في السياسية عمّي.

– لا أسمح لك بأن تقول إنّ سياسة بلدك لا تعنيك. هذا كفر. هذا معناه أن أناساً دخيلين وطموحين، كلّ نوع من الراديكاليين الكفّار، يستطيعون أن يغيّروا أسس المجتمع كما خلقه الربّ حين أوكلَ إلينا بالسلطة. «هو» قسّم الثروات حسب ما رآه مناسباً، وأعطى الفقراء متعاً بسيطة وكلّفنا نحن بالواجبات التي تجعل منّا ممثليه على الأرض. وصاياه تحرّم التجاوز على ترتيبه الإلهي وهذا هو بالضبط ما يفعله هؤلاء الأشرار الذين لا يعرفهم أحد. هل أنت مسيحي؟

- حضرتك عمدتني بنفسك.

- هذا لا يعني شيئاً. فبعد خمس سنوات في أوروبا كلّ شيء ممكن، فالشك صار مألوفاً جدّاً هناك. لكنّ الشكوك صارت معقدة في الأزمنة الأخيرة مع الحملات التي تستهدف الدين. علينا أن نذبّ عن أنفسنا ونداف عن الرب، المهدد في أوامره وفي سلطته. الدفاع عن ممتلكاتك من خلال السياسة هو دفاع عن الربّ. أراهن أنّك لم تشغل بالك حتّى بزيارة ما هو لك. هل ذهبتَ إلى البيت؟

- في رينكونادا...

- لا، بيت الرياضات، بيت تشيمبا..

- لا أدري، أنا أخلط بينهما، فهي متشابهة.

- لا أفهم كيف يمكنكَ أن تقول إنّك تخلط بينهما. كيف لا تريدني أن أشك في إيمانك وأنتَ الذي لم تكلّف نفسك قط عناء الردّ عليّ بشأن إمكانية تطويب قريبتنا إينيس دي آثكويتيّا.

- لم أذهب إلى روما في تلك الفترة ثمّ نسيت.

- كان عليك أن تقوم بسفرة خاصة، وأنتَ الذي قمتَ بزيارات تافهة إلى أنحاء أخرى. لو كنّا نمتلك سلاح تطويبها، الذي تحدثْتْ عنه جميع الصحف، ولو أنّك تمكّنتَ من التلويح به رمزاً لسلطتنا التي منحنا الربّ إياها، لما كلّفنا كسبُ الانتخابات ما كلّفنا.

- من هو صاحب فكره ترشيحي؟

- أنا.

- أنا لا أنتمي للحزب.

- أنا سجلتك اليوم. لم يبق غير أن تذهب للتوقيع، لا أكثر، ماذا يكلّفك ذلك، إنّه في طريقك...

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد ٢١٥

نهض خيرونيمو وألقى بالمنديل على الطاولة. غصّ دون كليمنته بخضرة طعامه المهروس. وبعينين مغرورقتين بالدمع من السعال تمكن من سؤال ابن أخيه:

- إلى أين أنتَ ذاهب؟

كان خيرونيمو مستعداً للرد: لآخذ أول سفينة تحملني بعيداً عنكم وعن هذا العالم الذي يريد أن يقنعني بأني لستُ أكثر من صورة مرعبة، ربّما قزم، أو أحدب أو تمثال مفزع مبهم راح الخراب يرسمه على تلك الجدران القبيحة المبنية من الطين القديم والمهمل، أنا شيء آخر، أنتمي إلى عالم أوضح، حتّى اللفتة الرياضيّة الغريبة في التضحية بحياتي بسبب قضيّة لا تربطني بها إلا إرادتي هي أفضل من هذا الحبس داخل باحات لا ترحم حيث ما من مخرج غير التكاثر، أفضل من هذا السجن الذي يريد عمّي دون كليمنته أن يحتفظ بي فيه لاستعمالاته الخبيثة، أنا متأكّد من أنه سيقطع كلّ شيء فيّ، سيستولي على أعضائي، سيشوهني ليحولني إلى دمية مطيعة تنفذ أغراضه، لكنّ عمّي المسكين واصل السعال، ملطخاً منديله بالسبانخ، السعال يمكن أن يقتله. وبدلاً من الانصراف، اقترب خيرونيمو من عمّه وسقاه ببطء كأساً من الماء وربتَ على ظهره كما يربتُ على ظهر الطفل، وأكّد له أنّه خالد فعلاً، وأنّه سيدفنهم جميعاً بكلِ تأكيد، وإنّ ماريّا بنيتث قادمة لمساعدته، وطلب منه ألا يسعل كثيراً، أن يكون متيقناً من أنّه لن يموتَ في غرفة طعامه غاصّاً بحبات خضار ماسخة.

١١

كانت الرحلات التي بدأها خيرونيمو دي آثكويتيّا لرسم صورة في أذهان الناخبين للمرشح القوي لمنصب نائب في البرلمان لا تترك له إلا القليل من الوقت لممارسة سواها من النشاطات. مع ذلك كان يذهب، بين رحلة ورحلة، إلى الاحتفالات التي كانت نساء كثيرات من قريباته يدعونه إليها ليرى فيه الناسُ مأثرة أخرى من مآثر العائلة. وحدث ما كان له أن يحدث، ما كانت طقوس الأقوياء تستدعي وقوعه: لقد فُتنَ خيرونيمو بالفتاة الأجمل والأكثر براءة ممن كنّ يرقصنَ آنذاك في الصالونات، ابنة عمّ بعيدة لها جدّات كثيرات من آل آثكويتيّا.

إينيس سانتيّانا، وريثة أطيانٍ وأموال، كما كان هو، وكانت، وهذا هو الأهم، صاحبةَ جمال فتّانً متنقّل كجمال العصفور، ألوان هادئة كالمغسولة بالعسل. كان خيرونيمو إلى جانبها يبدو عملاقاً. عينان صفراوان، وأحياناً بنيتان، وأحياناً خضراوان، خصوصاً في الليل حين يحيط بها سرب المراهقين من ذوي البشرة غير المتكاملة، المتخشبين داخل بدلات الفراك، يترجونها أن تنعم عليهم بالرقص معهم، لتنتقي مبتسمة، توافق، تؤجّل. لكنّ ظهور خيرونيمو شتتَ في الحال سرب خاطبي ودّها، فليس في مقدور أيّ شاب أحمق أوروبي الأصل أن ينافس رجلاً كاملاً مكتملاً غنيّاً ووسيماً ما زال مجللاً بأبّهة القارة المتفوقة التي جاء منها.

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد ٢١٥

لم تصمد إينيس أمام إلحاح المتودد المندفع. لم يكن هناك ما يدفعها إلى صدّه أو مقاومته، ثمّ إنّها أحبّته منذ اللحظة الأولى ولم تطرح العلاقة إلا تحت صيغة الزواج المقدسة وهو ما كان يرضي الجميع. أثناء السهرات الهادئة في بيت آل سانتيّانا الريفي، كان خيرونيمو يعطي نصائح دنيوية إلى من سيكونُ أكبرَ أصهاره، ويروي حكايات مثيرة إلى الصغار منهم، بينما يمسك، بحسب التقاليد والأعراف، بشلّة الصوف لكي تلفّها والدة إينيس. وفي الليل، عند أطراف الصالونات، حيث يرقص الشباب تحت الضوء، كانت النسوة، اللاتي يتقنّ إيداع عواطفهنّ في آخرين، يتنهدن راضيات باللقاء بين ذينك الكائنين المحظوظين، يقدمن النذور من أجل أن يضع خيرونيمو رأسه أخيراً في موضعه بعد أن بلغ السنّ التي تستدعي ذلك.

في يوم الأحد السابق ليوم الأحد المقرر للزواج، انتهت وليمة الغداء الريفيّة، التي أقامتها العائلتان مجتمعتين احتفالاً بالمستقبل المشرق الذي ينتظر الزوجين الجديدين، وقد أحاطت النسوة بإينيس لسؤالها عن تفاصيل جهازها، أمّا الرجال فقد جلسوا بعيداً عنهنّ وقد احمرّت وجوههم من حرٍّ ومن شرب، يروّحون بخوص السعف، ويتفقون على تفاصيل حملة خيرونيمو الانتخابية، التي ستدخل مرحلتها النهائية عند عودته من شهر عسله. نظرت العروسُ إلى خيرونيمو من الطرف الآخر لمائدة الطعام التي نُصبت تحت العريشة. لم تكن العادات التي فرضتها التقاليد القديمة تسمح بقدر كبير من الخلوة بين الخطيبين في الأشهر الأخيرة التي تسبق الزواج. بل لقد أفسدوا عليِ إينيس عن دراية وقتها بزيارات وخياطات ودعوات وهدايا، فلم تحظَ شفتاها إلا بالقليل من الوقت لتلتقيا بشفتي خيرونيمو في عتمة الرواق حين تخليه العائلة باتفاق ضمنيّ للحظات عند حلول المساء.

انتظرتْ إينيس تحت العريشة انتهاء خيرونيمو من كأس النبيذ التي

كان يتناولها مع دون كليمنته، الذي أحسّ بالحيوية مع النقلة التي شهدتها حياته المتجسّدة في حياة خيرونيمو. وسحبت خطيبها وسط احتجاجات الكبار المصرّين على معاملتها معاملة الصبيّة الصغيرة، لتستمتع وإيّاه بظلمة أشجار الدراق في البيت الريفي.

ما كانت إينيس تفهم ما كان يعنيه ذلك كلّه بالنسبة إلى خيرونيمو. كانت القواعد والأعراف، الطقوس الثابتة والمرعية، كما الرموز في شعارات المدن والعوائل، التي تنظّم إجراءات الخطوبة، ترسم صورته وصورتها، متشابكتين كما كانا تحت الأشجار المحمّلة بالثمار، وكأنهما في رصيعة حجرية: لم تكن تلك الرصيعة إلا حلقة من إفريز أبدي مؤلف من رصائع كثيرة، ولم يكونا هما، الخطيبان، إلا تجسيداً آنيّاً لمقاصد أوسع بكثير من تفاصيل نفسياتهم الفرديّة. كان جسم إينيس وروحها، اللذان لم يمسّا، ينتظران أن يشجعها لإخراجها من تلك الرصيعة الأولى وإدخالها في ترف الرصيعة التالية.

لا بدّ أنّ خيرونيمو اضطر إلى نسيان أشياء كثيرة ليتخذ القرار بالدخول في ذلك العالم. كان حبّه لإينيس يضعه في مركز لعبة القواعد والمراحل والصيغ هذه. لكنّ يقينه من أنّه، خيرونيمو، كان سيستطيع أن يشارك في صيغ أخرى من الحياة أكثر تطوّراً لو أنّه فضّل ذلك، كان أيضاً يضعه في الخارج، على مسافة ساخرة من هذه اللعبة كلّها. كان يحرص وحسب على أن تتحقق فيهما، هو وخطيبته، الأسطورة الرائعة للزوجين الكاملين. ولماذا يشرح لإينيس أنّ الإنسان يكون كبيراً بقدر ما يضحي متطوّعاً، وقويّاً بقدر ما يحبس في داخله، بقدر ما يحفظ؟

– هل توافق؟ وعدتُها أن أتزوّج بك. هي تراكَ حين يتركوننا وحيدين في الرواق. تنظر إلينا ونحن نتبادل القبل، مختبئة بين نباتات الخارج. قالتْ لي إنّكَ تبدو كالأمير، تجدكَ رائعاً...

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

قبّلها خيرونيمو لإسكاتها. ذلك البطن الذي يتحرك وهو ملتصق ببطنه ستنفتح لتطلب له الخلود: إفريز الرصائع سيمتدّ إلى الأبد عن طريق أبنائه وأحفاده. رأى في بشرة الفتاة الفاتحة، في صوتها، شهوانيّة لم تكن هي تشكّ في قوتها: هو سيطبعها بطابعه. همهم خيرونيمو:

– لم يبق إلا القليل...

– بل بقي الكثير...

أبعدها خيرونيمو، وواصلا التنزّه وقد تشابكت ذراعاهما.

– سيكون اسمي كاسمها. ما أغربَ ذلك، أليس كذلك؟، أن تتسمى الواحدة باسم قديسة.

– عمّ تتكلّمين؟

– حسناً، عن جدتكَ هذه وجدتي التي كان اسمها إينيس دي آثكويتيّا... صاحبة البيت، يقال إنّها طوباويّة.

– أنا لم أسمع بهذا...

– لأنّ أمّكَ ماتت وأنتَ طفلٌ صغير ثمّ إنّك رجلٌ وهذه أمور تخصّ النساء.

– وأنا أيضاً لم أسمع بذلك من أمّك...

– أنا أعرف أنّها طوباويّة وأنّها أتتْ بمعجزات.

– وكيف تعرفين؟

– بيتا حكت لي القصّة. كانوا تسعة أخوة، وإنّ مربية الطفلة – الطوباويّة أهدتْ لها صليباً معمولاً من أغصان رُبطتْ بقوّة، كانت تحتفظ به دائماً، ويقال إنّ ذلك الصليب الذي عملته لها مربيتها هو ما أنقذ البيت من الزلزال. لتحكِ لك بيتا القصة.

– أيّة بيتا؟

– ومن غيرها؟ بيتا بونثي. منذ ساعات وأنا أحدثكَ عنها، لكنّكَ لا

تسمعني لأنّكَ تعتقد أنّني ني طفلة لا تعرفُ شيئاً ولا تقول إلا تفاهاتٍ. سترى حين نتزوّج. إنّها تحتفظ لكَ بهديّة...

– مَن؟

– بيتا بونثي، ومن عساها تكون، خيرونيمو. لقد حكيتُ لك ألف مرّة إنها كانتْ ودودة معي حين مرضتُ. كانوا قد أتوا بها من ضيعة جدّي فيرمين لكي تطرّز ملاءات أمي حين تزوجت ثم بقيت في البيت للمساعدة في الخياطة. هي تحتفظ لك بهدية تقول إنّها تليق بك. لنذهب لزيارتها.

– هيّا.

بحثوا عن مسكن بيتا وراء أقفاص الدجاج والعنابر، حيث يتوزّع البيت في فوضى من المباني الخدمية التي تخلو من أيّة لمسة جمالية: على العكس من الواجهة. توقّفتْ إينيس أمام باب. شيء ما حدث لها، وكأنّ ذلك الباب صار مهماً فجأة. التفتت بعنف:

– سآخذها معي. أمّي أعطتني إيّاها. قالت لي إنّ في إمكاني أن آخذها إن شئتُ ذلك لأنّها هنا لا تفيد في شيء.

– لكني لم أقل لكِ ألا تفعلي.

– لكنّكَ أحياناً غريبٌ جدّاً.

– وهل سترغب هي في ذلك؟

– بيتا بونثي ترغبُ في أيّ شيء أرغبُ فيه أنا. لن تمانع، أليس كذلك، حبيبي؟ لن تزعجنا. سترى.

دفعتْ إينيس الباب. اندفعتْ في الداخل صوب خيرونيمو رائحة حادة منبعثة من قبو النبيذ، رائحة شبيهة برائحة أكياس الفاصوليا والبطاطس والحمص والعدس، رائحة أكداس البرسيم والقش والبرسيم الأحمر، رائحة البصل المحفوظ، رائحة الفلفل الأحمر

مكتبة أحمد ٢١٥
telegram @ktabpdf

والفلفل، رائحة الثوم المعلّق في ضفائر على الروافد. بعد شدّة الضوء وحر النهار في الخارج، كان من الصعب الاستدلال وحساب الأبعاد في تلك القبّة. نادى خيرونيمو على إينيس بصوت منخفض. ظنّ أنّها ستردّ عليه من مكان بعيد، كالصدى، لكنّه أحسّ بها وهي تمسك بيده وتهمس في أذنه:

- من هنا.

راح خيرونيمو يخصم بنظره من ارتفاع السقف ذي الروافد، الذي تدلّتْ منه دروعٌ وأعنّة، بقدر ما كانت إينيس تنبّهه ليتفادى جراراتٍ وأكياساً وأكداساً. ولكنّ رائحة مختلفة حلّتْ محلّ الروائح الطبيعيةَ المتناسقة حال اقترابهما من جدار من الأكداس: رائحة ملابس عتيقة، موقد، طعام مسخّن، أشياء اسودّت من الدخان، رائحة غريبة عن فضاء القبو النبيل. خطّ ومضُ بريقٍ خطأً من القش انتفش بدقّة. في تلك الزاوية كان الضوء المرتعش الصادر من شمعة يحميها جدار الأكداس ينقذ بعض الحاجيات. أخيلة قضبان السرير الطريّة كانت تتراقص هزيلة على الجدار حيث كان القديسون الذين بهتت ألوانهم يباركون الزمن المنتهي في الروزنامات القديمة وفي إبرة الساعة الوحيدة الباقية. كائن جالس في دور من الأدوار أعاد وضع إبريق الشاي على نار الموقد.

- بيتا.

- ها قد أتيتِ!

رتّبتْ كومةُ الأسمال نفسَها للردّ على نداء إينيس بردّ آدمي. جرى بين العجوز والطفلة حوار لم يكن خيرونيمو مستعداً للقبول به. فهذا المشهد لا يتوافق مع أيّة رصيعة حجرية أبديّة. وإن توافق مع إحداها ففي الحلقة الأخرى، في الأسطورة العدوّة التي تناقض أسطورته، أسطورة المحكومين والقذرين الذين يتعوجون على يسار الرب الأب

القدير. كان عليه أن يأخذ إينيس فوراً. أن يمنعها من المشاركة في تلك الحلقة الأخرى من الرصائع المرتبطة بالخدمة، بالنسيان، بالموت. فليست إينيس إلا طفلة يمكن أن تلطّخ نفسها بأيّ شيء.

- وأتيتُ لحضرتك بخيرونيمو، بيتا.

اقتربت العجوز من خيرونيمو متفحصة.

- ويريدُ أن تأتي للعيش معنا.

- ألن يضايقكم ذلك، سيدي؟

تدخلت إينيس قبل أن يردّ خيرونيمو:

- كلا. فالبيتُ الجديد كبير.

- كما تشائين، بنيتي.

- ألم تكن عندك هدية له؟

بحثت العجوز بين الصرر المخفيّة تحت سريرها. وضعتْ في يدي خيرونيمو علبة صغيرة بيضاء.

- افتحْها.

أطاع خيرونيمو، لا لشيء بل ليأخذ فسحة من الوقت ليقرر ما يجب فعله لقطع علاقة إينيس بالعالم السفلي، عالم اليسار، عالم الباطن، عالم الأشياء المقدر لها أن تبدو مخفيّة فلا ترى النور أبداً. وجد داخل العلبة ثلاثة مناديل بيض من أرقّ أنواع قماش الباتيستا القطني، بحواش وحروف أولى رائعة التطريز بعثت الرعشة في بدنه. كيف من الممكن أن تخرج هذه من تحت ذلك السرير ومن بين يدي تلك العجوز الموبوءة بالثآليل؟ كانت أجمل ثلاثة مناديل رآها في حياته... فإن كان قد حلم في مناديل فبتلك، طراوتها، توازنها، رقتها، نعم، كان قد حلم بهذه المناديل، تماماً، هذه المناديل التي يحملها بين يديه... لقد دخلت تلك العجوز في حلمه وسرقته. وإلا

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

من أين،ومن أيّ مركز قوة خفيّ يمكن أن تكون بيتا أخرجت مفاهيم الذوق وحسن الصنعة الحكيمة لعمل تلك التحف الثلاث، وهي قابعة في بؤس عالمها؟ سوط من الإعجاب جعل نظامه يترنّح حين وجد في بيتا بونثي عدوّاً جبّاراً.

- شكراً. علينا الآن أن ننصرف.

- ولكن، خيرونيمو... ألم ترد أن تحكي لك بيتا قصّة الطوباويّة؟ وقصّة البيت؟ إنّها عجوز وتعرف أشياء لا أحد يتذكرها.

- لا أريد أن أعرفَ شيئاً. هيّا.

أمسكت به من ذراعه.

- وداعاً.

قبل أن يأخذ إينيس، ترك خيرونيمو قطعة نقود في يدي العجوز: كانت يدين مسكونتين بالثآليل مشوهتين مرتعشتين بأظافر متكسرة وصفر، يدين قادرتين على كلّ شيء، حتى على خلق جمال لم يكن لهما الحق في خلقه لأنّهما إن خلقتاه فسينحّى هو إلى مرتبة أدنى، مرتبة معجب بجمال تلك المناديل الثلاثة الأدنى. واجهته إينيس في الخارج:

- لماذا فعلتَ ذلك؟

راحت إينيس تبكي، يجرها خيرونيمو، الذي لم يطلقها إلا بعد أن اجتازا المغسل، عند مضيق من شرشفين أبيضين طويلين معلقين في سلكين متوازيين، تتبعهما عوائلهما من المناديل.

- لماذا فعلتُ ماذا؟

- كلّ شيء. لماذا أعطيتها نقوداً.

- لا أريد أن تكون لكِ أيّة علاقة بها.

- بيتا أنقذتْ حياتي.

كان الطقسُ بارداً في المغسل. برد زَلِق، لا يتأثر بانعكاسات الشمس في ماء الأحواض المائل للزرقة وفي الأرضية التي تتلقى قطرات الماء الساقطة من الملابس المنشورة. كان خيرونيمو يريد الانصراف نهائياً وإن بكت إينيس. أمسكت به يدا خطيبته الطفوليتان لإيقافه ولتقول له:

- أنا كنتُ صغيرة جدّاً. حين كانت أمي حاملاً بفرمين كانت حالتها خطيرة، ولكي لا أزعجهم بعثوا بي إلى حيث راهبات بيت عذراء التجسد في تشيمبا. بيتا رافقتني. وفي البيت بدأتُ أشعر بآلام فظيعة في بطني، هنا تقريباً، ألم مفزع، وبدا وكأن الألم سيشقني من الداخل إلى نصفين. أحياناً يخطر في بالي أنّ تلك الآلام ربما تعاودني فأفزع بسبب ذلك. بعثوا بالأطباء إلى البيت، كان أبي هو من بعثهم، كانوا يزورونني يومياً لأنّهم كانوا نادمين على أن أرسلوا بي إلى مكان بعيد وما عادوا قادرين على إخراجي منه، كنتُ مريضة جدّاً. ما كان الأطباء يفهمون ما يجري. كانوا يهزّون رؤوسهم، يهزّون رؤوسهم وحسب، وعلى الرغم من صغر سنّي فقد رأيت أن مصيري سيكون الموت هناك. كنتُ أموت، خيرونيمو، كنتُ أموتُ من شيء لا أحد يقدر على فهمه أو علاجه. كانت كلّ وخزة ألم يمكن أن تكون الأخيرة. وذات ليلة، حين شعرتُ بأشدّ الآلام، نهضتْ بيتا. إنني أراها، محدودبة الظهر في الظلام، تواسيني، وعلى الرغم من شدّة الألم فقد سكتُّ وسمعتُ ذلك الصمت الرهيب الذي يسمع أحياناً في البيت. سمحتُ لبيتا بأن تجردني من ملابسي. قرّبتْ شفتيها من بطني ووضعتهما هنا، خيرونيمو، بالضبط في بؤرة الألم وبدأت ترشفُ وترشفُ وترشفُ إلى أن اختفى الألم تماماً مع آخر رشفة لها من بطني. أحسستُ بفراغ في داخلي، هنا. حلّفتني ألا أقصّ ذلك لأحد. أنتَ الأوّل. حتى أمي لا تعرف بهذه القصّة. عندها حدث

مكتبة أحمد ٢١٥ telegram @ktabpdf

شيء غريب: لقد أحست المسكينة بيتا بالمرض وبدأت تشعر بالآلام ذاتها التي كنت أشعرُ أنا بها. ولازمتها آلامي تلك طوال حياتها.

- ساحرة. ما كان عليكما أن تخرجا من ذلك البيت الملعون إطلاقاً. لقد سممتْ تفكيركِ وقد حان الوقت لأنظفه أنا لكِ. وبدءاً سأقول لأمّكِ أن تمنعكِ من رؤية بيتا بونثي نهائياً، سأهدّ البيت في الحال...

- لن تجرؤ...

تقدّمت إينيس نحو خيرونيمو. خمشتْ وجهه. تراجعَ أمام هجمة الأظافر الخمسة المجهولة، والتفّ بواحد من الشراشف وقطع حبل الغسيل. سقطتْ عليه المادة الدبقة الرطبة، ورمتْ به أرضاً على ثقل وزنه. حين تمكّن خيرونيمو من التخلّص من ذلك الكفن الدبق كانت إينيس قد اختفت. وضع يده على خده ليتحسسها فعادت إليه يده تقطر دماً: خدوش عميقة ومباشرة، مخالب تجيد القطع وإحداث الألم. استعمل مناديل بيتا لإيقاف نزيف الدم. خرج من البيت متخفياً كي لا يراه أحد. بماذا سينفعه التوضيح الآن؟ ما عاد من مجال للتراجع، إذ لم يبق على موعد الزواج غير سبعة أيام.

في يوم العرس دخل خيرونيمو إلى كنيسة الرحمة وعلى خدّه الأيسر ندب حمر. تقدّم بين صفوف الزهور البيض والوجوه المسرورة، شامخاً، واثقاً، مسيطراً على الحضور لكي لا يسأل أحد عن تلك الندب الظاهرة على وجه العريس.

غطّت مشاعر إينيس، وهي ترتدي بدلة العرس الموشاة الضيقة كالدرع، على فزعها إذ أقسمت طاعة مزيفة لزوجها أمام نظرة دون كليمنته المليئة بالثقة. طلب منها دون كليمنته، وهو يتزيّن بزينة المعبود المذهبة وبين دخان المباخر، أمام الرب، الأكثر قدرة بين أقارب

الحاضرين إلى الاحتفال، ألا تضمر نوايا دنيئة. وأقسمت إينيس زوراً أمام المذبح الذهبي، بين التراتيل والكلمات المقدسة العتيقة، وهي عليمة بما تنوي فعله. حين أخذتها أمّها في الأسبوع السابق إلى دون كليمنته ليعظها حول الزواج ويحذّرها من أن منع جسدها عن زوجها هو خطيئة قاتلة، لم يتنبّه إلى أنّه وضع سلاحاً في يدي إينيس.

كان تعلم تماماً كم كان خيرونيمو يشتهيها. لذلك، ارتكبتْ في ليلة الدخلة ببرود وعن سابق تصميم الخطيئة القاتلة وحرمت زوجها من جسدها، وكانت هي أيضاً تشتهيه. وكانت ستستمر في حرمانه طوال الحياة لولا جسدُها العاري الذي أنار بصيرة خيرونيمو ساعة الفجر وهو يتأملها راقدة بالقرب منه. انتصرت عليه: تعهّد لها بكلّ شيء، بما تشاء، بما تطلب، بل جعلته يتعهد، في اللحظة التي قدّرتْ أنّه ما عاد مدركاً لما يتعهد به مقابل تنازلها، بألا يفرّق بينها وبين بيتا بونثي إطلاقاً وتحت أيّ ظرف أو سبب. من تلك الليلة لم ينفرد خيرونيمو وإينيس ببعضهما في فراش الزوجية. كان هناك شبح يرافقهما على الدوام، شبحي أنا، شبح بوي، شبح بيتا. في ليلة الدخلة كان دون كليمنته وبيتا بونثي هما من شجعهما، في سعي كلّ منهما إلى التفوّق، كلاعبي دمى يحركان دميتيهما المعمولتين من عجينة الورق.

١٢

تهرّ كلابه الأربعة السود وهي تتنازعُ قطعة اللحم التي ما تزال ساخنة، الحيّة تقريباً. تمزّقها، تنبحُ عليها وهي على الأرض وتقلّبها، يسيلُ اللعابُ من أخطامها الحُمر، من أحناكها المدملة، الأنياب، العيون البرّاقة في وجوهها الضيّقة. بعد أن التهمت القطعة بالجلد الذي عليها، عادت ترقص حوله كي يداعبها: لكلابي الأربعة السود التي تشبه أخيلة الذئاب غريزة دمويّة، وقوائم ثقيلة ضارية ومن أكرم الأصول. إنّها لا تطيعُ أحداً غيري، فأنا صاحبُ اللحم الذي تأكله والمزرعة التي ترعاها.

- ارمِ لها برئة أخرى.

يلقي الفلّاحُ بالأحشاء خارجَ متناول قفزاتها، فلا تتلقفها لأنّها تتناحرُ وتهرّ... انهشي، أيّتها الكلاب المتوحشة، لا تنشغلي، لا تتقاتلي، ألا ترين أنّ تلك الكلبة الصفراء تسرقُ منكِ الرئة، عضّيها، اقتليها، لقد انتهزت الكلبة الهزيلة، التي تحوم حول وجبة كلابي الأصيلة، اختلاط القوائم والأخطام كي تسرق منها اللحمة بالجلد الذي عليها، ها هي، مسرعة، منكمشة، مرتجفة، ذيلها بين رجليها، تسحل الرئة في الرحبة ثم تختفي وراء المصلّى. وقبل أن تتنبه كلابي الأربعة السود إلى تلك الإهانة يرمي لها المزارع بقطعة أخرى من اللحم الملتصق بالجلد. فهل فعل ذلك لإشغالها ولتغطية هروب

الشريرة؟ من المؤكد أنّه سيقبضُ ثمن صوته في انتخابات الغد، سيأكل من لحمي ويشرب من نبيذي ثمّ يصوّت ضدّي لأنّه يكرهني.

- هل الكلبة الصفراء كلبتك؟

- كلا، سيدي. إنّها ليست لأحد.

- كيف لا يكون لها صاحب؟

- تدخل أحياناً لسرقة الزبالة من باحة المطبخ. وتدخل أيضاً في مزرعة الصيد حين تخرج على الحصان مع الكلاب السود.

- ولِمَ لا تطردونها؟

- السيدة لا تسمح لنا بذلك.

هناك، تستلقي كلابي على العشب الندي الذي نما بالقرب من الساقية. لقد طافت طوالَ النهار بالزرائب حيث نُحرت العجول احتفالاً بفوزي في الانتخابات. هناك ظهرت الكلبة الصفراء من جديد، تلحس الجلود المدماة المعلقة بباب الحظيرة، وتلطّخ خطمها بالدم الذي تجمّع عليه الذباب الدبق الذي بلّدته حرارة الطقس، بالقرب من حظائر الجانب الآخر من الساحة حيث تدعك الخنازير ظهورها بالأوتاد. الكلبة الصفراء خطّاف هزيل، متلهف شرهٌ نهمٌ قادر على أكل أيّ شيء، حتّى الأكثر إثارة للتقزز. تحوم حول قوائم الخيل المربوطة إلى العارضة، لكنّها تتردد في عضّ عظام سيقانها. وبانتظار متعة أكبر، تكتفي بتشمّم بركة بولها وحشر أنفها في روثها الندي. عليّ أن أكلّمَ إينيس عن الكلبة الصفراء، هذا غير ممكن، فمن غير المقبول أن تتهاون إينيس مع حيوان قذرٍ مثل هذا وهي التي لا تخرج إلى الشمس من دون أن تعتمر قبعة ببرقع ولا تلمس غصناً من دون أن ترتدي قفازاً.

***

كان الوقت مساءً حين استلقيتُ إلى جانبها في الممر. غطيتُ قدميها بمعطف من وبر اللاما وغطيتُ قدميّ بواحد آخر مثله. رأينا ظهورَ علامات النجوم الغريبة بين الأخيلة المتدلية من أشجار مزرعة رينكونادا. كان غناء الضفادع يحدّ من عالم خلوتنا، ونحن نحمي نفسينا من كلّ دخيل.

- بمَ تفكرين؟

تمطّت إينيس بكسل.

- أنا؟ لا أفكر في شيء...

لمَ لا تفكّرين في شيء؟ يجب أن تفكّري في شيء ما، يجب أن تخبريني بم تفكرين ولو كان من باب «يا إلهي ما أقبح لون فستان لورا» أو «كم هو محزن أن يبدو زواج كارلوس من بلانكيتا متعثراً». ربّما أنّكِ لا تفكرين في شيء حقّاً، وإن كان عدم التفكير في شيء في لحظات الخلوة هو، إينيس، نوعاً من الدفاع أو الهروب الذي يُبقي على تفكيركِ صافياً، مغلقاً بسبب غياب كينونتكِ لكي لا يلحق بكِ خوفٌ ولا أسئلة... فكّري في أيّ شيء، شرط أن تفكّري وتستطيعي أن تقولي لي بم تفكّرين، حتّى لو كان ما تفكرين فيه هو تلك الكلبة الصفراء التي سأحدثكِ عنها إن تذكّرتُ شيئاً على هذا القدر من التفاهة، حين لن تعودي موجودة في مكان آخر غير هذا، والآن، ومعي، في مكان آخر حيث تفكّرين في شيء محدد هو ذاته الذي لا أكفّ عن التفكير فيه حتى في اللحظات التي يُفترض بالحب الحقيقي الذي أشعر به نحوكِ أن يقضي على كلّ تفكير، لي ولكِ، لكنّه لا يستطيع أن يقضي على عدم، على فراغ، وهو ما تبدينه لي وما أطلب أن تبديه لي، إذ ليس عليك أن تبدي ليَ الشيء الآخر لأنّه ليس حقيقة. أستطيع أن أهجركِ وأن أكرهكِ، وأن أبحثَ في أخرى سواك ما حرمني منه دمكِ

الشهري المعاند طوال خمس سنوات من الزواج. لكني لا أستطيع. فأيّ شيء غير السعادة التامة الكاملة سيفتح باب الرعب على مصراعيه.

ماسة زرقاء تشتعل بين شجيرات المزرعة، تخمد نارها ثمّ تعاود الاشتعال مذهّبة هناك، مرتعشة هنا ثم تنطفئ مرّة أخرى، وبين أحواض الزرع الغامق تلك يولد المزيد من البريق الذي ينظرُ إلينا أنا وأنت، ثم يختفي، جواهر، نجوم، عيون، بريق تواريه الأوراق، يظهر من جديد مُضاعفاً، متبدداً، متجوّلاً بين الأشجار الكالحة، لا يتربص بنا بل يحرسنا لأنّه عيون كلابي التي تطوف بين أزهار الأورطنسيا، بطيئة الآن، حمرّ، ورديّة، متيقظة، هناك انطفأتْ تانك العينان الفولاذيتان التي تشتعل الآن في مكان أقرب، هنا، بين الشجيرات أسفل الممر الذي نستلقي فيه أنا وأنت، شررٌ ثابتٌ في خط ضياء دقيق مثل حافة ورقة تشفّ عن صورتك المكتملة. أسقطُ يدي فتلامس عن دون قصد تقريباً يدك. تغطّين صورتكِ لأنّك تنظرين إليّ موزعة في رسوم أخرى تقدّم لي رؤية أخرى من ذلك الوجه الذي لا يفكر في شيء لأنّه ليس موجوداً، لكنّ العيون المذهبة، العيون الفولاذيّة، الشرر الأخضر أو الأزرق المنبعث من بين أوراق المزرعة السوداء تؤكد لي أنّ إينيس موجودة، وبعد أن تهدأ العيون تنتقلِ من مكانها، تبرق، تنطفئ، تسمّرنا في انعكاس سريع يتحلل، كلّ شيء مظلم، لا ترى، حان الوقت لأمحو فيها كلّ ما هو ليس إيماناً تاماً بسعادتنا، لهدم لهفة تلك الكلمة التي تهمس بها عند مرورها، لا شيء، لا أفكّر في شيء، لديّ الوقت لتحطيمها لأنّ هناك قطرة ترتعش في ورقة وفي تلك القطرة حدقة، حدقة متوهجة تنظر إلينا، شرر آخر بعيد، أقرب، دقيق، ذائب، عيون شهود تطالب بسعادتنا، ترقبنا فربّما فضحت الظلمة شرخاً في تلك السعادة، لا نستطيع أن نخيّب ظنّ الرقباء المتلهفين لرؤية حبنا مكتملاً. ألمس يدك من جديد. أترون كيف أنّ إينيس لا ترتعش إلا

بالكاد، لكنّها ترتعش؟ أنتم تستطيعون فقط تأمّل تلك الرعشة، لكنكم لا تستطيعون الإحساس بها، أنتم مجرد عيون تتطلّع إلى أن نبرهن لكم على سعادتنا الآن، وهنا، أنتم الشهود تأمرون، فإن لم أخضع في الحال لطلبكم في إثبات قدرتنا على الاستمتاع، فستختفون وتجعلون كلّ شيء يتلاشى إن لم تكن هناك عيون تنظر إلينا، وتتركونني لأتحوّل إلى قطعة من قطع اللحم تلك التي أطعمها كلابي السود التي لن تتعرف على دم سيدها، ستلتهمني إن لم أثبتْ لكم الآن وهنا أنّ سعادتنا كاملة. أضغط على يد إينيس. إنّها باردة، تامة. تستجيبُ ليدي التي تضغط عليها بالكاد، وأضغط عليها أكثر وأجرّها إلى أحواض زرع الأورطنسيا كي نختفي كمراهقين.

- خيرونيمو... لا...

- نعم.

- لدينا البيت كلّه والليل كاملاً...

- لا يهم، هنا.

- أنا خائفة.

- ممّ؟

- يمكن أن يرونا.

- من؟

- لا أدري...

- لا تكوني غبيّة.

استقرّت دائرة النظرات البرّاقة في الدغل الذي كان يحيط بنا. لا تخشي الرقباء، إينيس. انظري كم هي جميلة عيونهم بتموجاتها الزرق. كلّهم ملكي. دعيني أعرّيكِ أمام بريق نظراتهم. اضطجعي على فراش الأوراق هذا. تأملوها، فلأجل ذلك أمتلككم، وتطلّعوا

إليّ أيضاً، فأنا أتعرّى أيضاً، تأملوني أيضاً: احتفلوا بقدرتي المنتصبة، اغبطوني عليها فلأجل ذلك أطعمكم، انظروا كيف أستلقي إلى جنب إينيس بين برد الأوراق الواخز، كيف أجبرها على فتح عينيها البنيّتين، الخضراوين، كي تنظر إلى تلك العيون البراقة التي تتأملنا فيطيل ألمها في قامتنا، كيف تداعبكِ يداي، شفتاي التي تطوف في طراوتك التي تدفأ، تسخن، تشتعل، سكسي يجعلك تتنهدين، تئنين، تنسين أنّك لا تفكرين في شيء، وأنا أحتلّ كلّ الفراغ الذي لا تسلمينه لي والذي رفضت أن تسلميه لي طوال خمس سنوات من السعادة، اسمعوها تئن، كيف يتراجع حياء إينيس ويسقط ويتركها أكثر عرياً وأكثر التصاقاً بي، تهمس باسمي العجيب، وهي تئن على قدر ما أغزوها، تصرخ في النهاية من دون أن تعبأ بأن يسمعها أحد أو أن يراها أحد حين أنتصر فيها في النهاية وأسقط بكليتي أمام ذلك المطلق من العيون الفولاذية، الصفر، الخضر، الجليدية، البراقة، التي تشتعل متذبذبة وتختفي وتعاود الظهور متلهفة لرؤية المزيد، مجددة قدرتي، كلّما رأيتُ نظرات تشعّ فسفوراً من بين النباتات التي كانت تخفيني أنا أيضاً، أيتها الأم بنيتا، لأني كنتُ أحرسها، اثنتان من تلك العيون المشتعلة في ظلام مزرعة رينكونادا، اثنتان من أحداق تلك الجوقة اللازمة لمتعة متفردة، اثنتان من تلك العيون، الأكثر شراهة، الأكثر ألماً، الأكثر جروحاً، هي عيناي، أيتها الأم بنيتا، هاتان العينان نفساهما اللتان ترينها حضرتكِ الآن معكرتين من الحمّى، والتي تحاولين إنزال جفنيهما بيدكِ لكي أستريح وأنام، نم، موديتو، نم، استرحْ، نم، أغلق عينيكَ، تقولين لي حضرتكِ، أطفئ نظرتكَ التي أدّتْ وظيفتها ونفعت، واخفضْ جفنيك ونم، لكنّي لا أستطيع إغلاقهما لأنّها تشتعل في محجريهما وأنا أنظر إليهما يستمتعان بين الأوراق، أذناي منتبهتان إلى الكلمات المتقطعة وإلى همس جسديهما، وأنفي إلى عطر الحب، ويدي، هذه اليد التي

تمسكين بها، من دون أن يتنبها وهما في زحمة الأحاسيس، بهذه اليد ألمسُ ذينك الجسدين بينما كانا يخلقان السعادة المرة تلو المرة، حتّى راحت العيون من بين النباتات تنطفئ ودون خيرونيمو يبحث عنها ليتجدد في نظراتها البرّاقة المعتمة، أين هي، أين هي، لقد ذهبتْ، إينيس، لقد ذهبتْ، وبقينا في ظلام دامس، ربّما لم تكن توجد عيون ترقبنا قط، وكان كلّ شيء مظلماً دائماً، كلا، ها هي العيون الصفر، وهذا أنا ذا مرّة أخرى، أشتهيكِ الآن أكثرَ من أيّ وقت مضى لأنّي أعرفُ أنّكِ تعبانة ولأنّي أنا تعبان، تلك العيون الصفر والمقذية ترى كيف أولجُ فيك، كيف تستردين الحياة، العيون المقذية قريبة من عيوننا، أكثر، أكثر، إلى أن أطلقتْ إينيس الصرخة الأخيرة، أيتها الأم بنيتا، التي لم تكن صرخة وحسب، بل كانت صرخة رعب، لأنّها حين فتحتْ عينيها لترى مجموعة نظرات الرقباء البرّاقة من حول وجه خيرونيمو، رأت الكلبة الصفراء التي اقتربتْ لتشمم أو لتلحس النسغ الذي تركه جسداهما فوق الأوراق: الكلبة الصفراء، تلهث ويسيل لعابها، تغطيها الدمامل والثآليل، الجوع مقيّد في نظرتها، هي، صاحبة القدرة على إحداث الصرخة.

***

حين وصل الخبرُ بأنّ أحدَهم أقدم على سرقة صناديق الانتخاب أثناء التصويت في إحدى القرى الجبليّة، في المنطقة التي زرع فيه الراديكاليون الفتنة بين عمال المناجم بوعود بتحقيق مطالبهم، رأى الزعماء المحافظون المتجمعون حول دون خيرونيمو دي آثكويتيّا أنّ الحكمة تقتضي غلق أبواب النادي الاجتماعي ونوافذه. لم يكن الحزب ينوي أن يصل بنفوذه إلى منطقة المناجم. وكان من المفروغ لديهم أنّ تلك المنطقة ستسقط في أيدي الراديكاليين. لكنّ أحمق مجهولاً، سكيراً غير مدرك بلا شك، دخل إلى المدرسة التي كان عمال

المناجم يدلون فيها بأصواتهم على ظهر حصانه وفرّ بالصناديق ليحوز بذلك الفعل البطولي رضا دون خيرونيمو كما تصوّر. وكانت العاقبة خطيرة، فقد تجمعت في الساحة، مقابل النادي الاجتماعي، حشود جاهلة مدفوعة، بلا شك، بوحي من الراديكاليين، الذين استغلوا تلك الفرصة الذهبية ووجهوا أصابع الاتهام إلى أصحاب النفوذ والسلطة من الكاثيكه في ما بدا بوضوح ولكلّ ذي نظر خطوة غير محسوبة سياسياً.

ما عاد من شيء يحول دون أن يطلق العمال الموتورون، الذين خفّوا من القرى إلى مركز المحافظة، شرارة العنف، بل ما عاد ما يحول دون أن تسيل الدماء. لكنّ حشود الثملين راحت تطوف من دون مركز في الساحة. يدخنون، يتوزعون في مجموعات تهمهم، ولكن من دون نيّة واضحة على الثورة.

أمضى دون خيرونيمو دي آثكويتيّا المساء كلّه معتكفاً في النادي الاجتماعي، يعبّ زجاجات النبيذ الأحمر مع مناصريه بانتظار أن يتفرّق المحتشدون. لكنّهم لم يتفرّقوا. حلّ مساء معتم. راحت كتلة رمادية هامسة تتجمّع تحت صفّين من أشجار النخيل، يحدّان الساحة من جميع جهاتها. لم توقد المصابيح.

فكر دون خيرونيمو دي آثكويتيّا في الخروج لأخذ سيارته والذهاب إلى رينكونادا وكأنّ شيئاً لم يحدث، فتلك هي حقيقة ما يريد لنفسه. لكنّ أتباعه، الذين كانوا يتطلعون من خلال النوافذ، ترجوه ألا يحاول الخروج. فمصلحة البلد، ومصلحة الحزب تقتضيان أن يبقى، أن ينتظر، فخروجه سيكون تحدياً خطيراً، سيكون الشرارة اللازمة لإشعال المعركة. أمّا هو فقد احتجّ بأنّ الدافع إلى الاستعجال هو اغتنام لحظات الفوضى السائدة بين الغوغاء ليخرج هو من النادي الاجتماعي، ومن ثمّ يخرج الآخرون بعده شيئاً فشيئاً، ومن جهات

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

شتّى، وكأنّ شيئاً لم يحدث، لأنّهم، وقد تعب من تكرار ذلك عليهم، ليسوا مذنبين في شيء. كما أنّ من اللازم الضروري أن تكون براءته من تهمة سرقة الصناديق تامة وواضحة للجمهور. كان الزعماء الآخرون، وهم أعرفُ بعقلية العمّال البسطاء، يعتقدون أنّ من الأفضل، في حالة قرروا الخروج من النادي الاجتماعي، أن يخرجوا متخفين، قبل أن يهيّج محرّض ما، وهو موجود دائماً، الناس. إنّ من العبث الخروج بالعجرفة السافرة التي كان خيرونيمو يقترحها، ومن الأفضل التسلّق إلى السقف والانسلال إلى بيوت أخرى وصولاً إلى الشوارع الخلفيّة، حيث لن ينتبه أحد إليهم لأنّ الانتباه كان مشدوداً إلى الساحة، في باب النادي الاجتماعي. وهكذا سيجد الثائرون مقرَّ الأوليكارشية المغتصبة فارغاً حين سيقدمون على مهاجمته.

لكنّ دون خيرونيمو كان يصرّ على أنّ ذلك يعني إقراراً بجرم لم يرتكبه، وهو أفضل طريقة للتسليم لهم والوقوع في أيديهم والإطاحة بنتائج الانتخابات. حمقى، جهلة، سفلة عفنون، خونة، غير جديرين بالثقة، أيّ سافل عفن دسّ يده في هذا. لم يقتنع الكاثيكيون من أصحاب الدثار والمهماز، ممن كانوا يشربون مع دون خيرونيمو على طاولة المقصف أو كانوا يتنزهون بين أصص الدريقات في الرواق، برأيه. زجاجة أخرى من النبيذ الأحمر، من ذلك الجيد الذي تحتفظُ به بانجو، وإلا، فأي نبيذ أحمر شرط ألا يكون خلّاً وبعض سندويشات الملفوف الحرّيف، لم يبق شيء، حتى الخبز بدأ ينفد ومن المؤكد أننا سنضطر إلى قضاء الليل هنا إن لم يفرّقهم رجال الدرك، لا أدري ما الذي ينتظر هؤلاء الدركيون الملعونون. السفلة يكرهوننا. انظر إليهم كيف يتهامسون هناك في الخارج دون أن يجرؤوا على فعل شيء إن لم يأمرهم به أحد. إنّهم يحسدوننا. يريدون أن يأخذوا كلّ شيء منّا. يتحدثون عن مطالب لكنّهم ليسوا أكثر من شراذم لصوص، مجرمين

يجب ألا يسيروا مطلقي السراح. انظروا كم هم سعداء. طبعاً، فهم الآن على الأقل أصحاب الحق نظرياً وقانونياً. نهض دون خيرونيمو على قدميه.

– هيا، أومبرتو.

– نعم، دون خيرونيمو، أمرك.

– ما الذي جرى للكهرباء في هذه القرية؟

– سيلقون بالذنب على حضرتك أيضاً.

راحت الحشود الملتحمة تزحف من جادات النخيل الجانبية لتتجمع في الجادة المقابلة للنادي الاجتماعي. أطلّ بعض السادة محاولين التعرف على هويّة المشاركين ليقرروا، في ما بعد، على من تحلّ نقمتهم وعقابهم. تحتفظُ السماء من فوق سعف النخيل بشيء من الضياء الذي اخترقته إبرة برج الأبرشيّة، مقابل النادي الاجتماعي من الناحية الأخرى من الساحة: هناك تنتظر سيارة دون خيرونيمو. لكنّ الوصول إليها يستدعي المرور بمئات ومئات من الرجال الصامتين الذين كانوا ينظرون إلى باب النادي الذي كانوا محرومين من دخوله، يتساءلون: كيف هو من الداخل؟ يقال إنّ حفلات الشرب والطعام رائعة، وإنّ عزباً كاملة تنتقل جيئة وذهاباً على مائدة القمار، وإنّ مالك عزبة «لاس بيدريغاليس» انتحر عندما ظهر المال الملفوف بالخرق حين لم يكن أحدٌ ينتظر ظهوره. فبماذا سنلعب نحن؟ بدراهمَ معدودة؟ بدورة من النبيذ حين نملك منه الكثير وبالهروب حين لا يمكننا دفع ثمن النبيذ الذي راهنّا عليه؟ مئات الرجال الصامتين في الساحة أولئك يكرهوننا، لا بدّ أنّهم يبيتون شيئاً، إنّهم ينتظرون، يتنقلون من جهة إلى أخرى، يتهامسون، وأيديهم في جيوبهم. لا نسمع هدير أصواتهم، لكننا لن نلبث أن نسمعه. يصعد رجل على دكّة الساحة ويبدأ بالهتاف،

استغلال، ظلم، رشاوى، خيانة، هذه الانتخابات التكميلية لتعويض السيناتور الميت الذي كان منّا تكشف التجاوزات التي سترتكب في حقنا في الانتخابات الرئاسية القادمة، إنّه تعليق مشؤوم على ما ستكون عليه تلك الانتخابات إن سمحنا للمتأنقين من آل آثكويتيّا هؤلاء...

– هل تحمل المسدسات، أومبرتو؟

– نعم.

– أعطني أكبرها.

– ماذا سنفعل؟

– اتبعني.

– لكن ماذا سنفعل، دون خيرونيمو؟

– افعلْ ما سأفعله تماماً.

– ماذا سيفعل هؤلاء المجانين؟

– ارفعوا المتراس عن الباب.

– إنّهم مجانين

– خيرونيمو، كلا...

– ماذا جرى. ارفعوا المتراس قلتُ لكم...

سيقتلونك، خيرونيمو، سيصفّونك، ألا ترى أنّ الكراهية التي يكنّها هذا الحشد المجهول لنا تتركز على شخصك، لا تخرجْ، انتظرْ قليلاً حتّى نرى ماذا سيحدث. لم يطعْ أحدٌ أمرَه برفع المتراس، فرفعه هو: ذلك المتراس الحديدي القديم الثقيل الذي كان يتطلب يومياً أن يرفعه اثنان من العاملين، رفعه هو وحده. لقد انتفختْ ذراعه من تحت قماش سترته، واحمرّ وجهه لدقيقة حتى برقت عيناه الزوقاوان. هدأ الصراخ في الخارج حين لاحظ أحدهم:

- إنّهم يفتحون الباب.

- انظروا...

فتحوا الباب وخرج. اعتمر قبعته بعد أن نظر إلى السماء كمن يخشى هطول المطر. ألقى بسيجاره إلى الأرض. ظلّ ينظر إليهم من أعلى الدرج. صدرت همهمة من الحشود. وراح الرجال البعيدون عن مركز التجمع ينادون بعضهم بعضاً، تعال، تعالوا، خرج الغندور، إنّه هناك، لا تغفلوا عنه فمشاهدته تستحق العناء، يتنادون على عجل، يركضون من كافة أطراف الساحة، يتركون البارات خالية، وأبواب البيوت مشرعة، القرية كلّها في الساحة لتأمّل دون خيرونيمو دي آثكويتيّا. كانت لحظة دهشة، لحظة أيد محشورة في الجيوب، لحظة أحاديث وسجائر مطفيّة لأنّ الأهم كان المشاهدة. كان الماء هو الوحيد الذي واصل السقوط بلامبالاة من ثقوب الحوريات في النبع الذي كان يزيّن مركز الساحة.

طالب أحدهم:

- ليقلْ شيئاً!

- نعم. نريد تفسيراً.

- ليس لديّ ما أقوله أو أفسّره.

نزل الدرج.

- طيب، دعوني أمرّ، أنا ذاهب إلى العزبة، وما عاد هناك ما يمكن فعله هنا...

كان صوته مسموعاً. كان هادئاً، خصوصياً، فكأنّه يقول لي، كما في مرات كثيرة، إننا سنعود إلى رينكونادا لأن الوقت متأخر وهو لا يريد لإينيس أن تقلق منتظرة. توقف لإشعال سيجار آخر. تأخر في إشعاله. تقدم خطوة فتنحّى الجمهور ليفسح له المجال. لم يعبر، كما

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

ظننتُ، صوب نبع الحوريات المرحات في وسط الساحة، للوصول إلى الطرف وأخذ السيارة بسهولة. سار بهدوء في جادات النخيل المحيطة بالساحة، وكأنّ شيئاً خطيراً لم يقع، شاقّاً الجمهور في شارع من وجوه مكفهرّة تحت قبعات القش، أجسام تفوح منها رائحة النبيذ، ونظرات عدوانية، وقبضات متوترة لكنّها ما زالت مخفوضة. في حافات الزحام الخارجية، بدأت دماء الواقفين على الدكات ومتسلقي أعمدة النور للمشاهدة والصراخ تفور في عروقهم، اضربوا هذا الغندور العفن، اقتلوه، اخصوه...

- لماذا لم تشعل الأضوية؟

- لقد حان وقت إضاءتها، الذنب ذنب العمدة.

- لا تتوقف عن فعل ما أفعل أنا، أومبرتو.

- لا

ومع اقتراب دون خيرونيمو من الأبرشية راح العنف ينتقل من أطراف الحشد إلى داخله. قبعات تلوّح في الهواء. صرخات تحمل اسم الشرير مكتوباً بقصد الاقتصاص منه، عبارات بذيئة، شتائم، انتقلت كراهية الرعاع كلها إلى مركز الحشد، حول دون خيرونيمو، الذي كان يسير وهو يدخن سيجاراً آخر وسط تلك الفسحة المحاطة بوجوه متشابهة ضيّقت الطوق.

- دعوني أمرّ.

سأله عملاق غير حليق الوجه:

- إلى أين تريد؟

- إلى سيارتي.

لم يفسح له العملاق.

- دعني أمرّ.

ضاقت الفسحة أكثر. إنّها الدقيقة التي سبقت إراقة الدماء. رآه دون خيرونيمو: تراجع حتى باب الأبرشية وتحصّن بها وشهر مسدسه:

- ماذا تريدون؟

سكتوا.

- ماذا جرى. تكلّموا. أيّ خراء تريدون؟

تراجع الصف الأول من شبه الدائرة مذهولين أمام المسدس. وبدأ دون خيرونيمو يصرخ بهم، وكأنّ مسّاً أصابه، أو كأنّه ثمل فجأة من أثر بسالته فيهم، وراح يهدد نصف الدائرة بمسدسه:

- ماذا جرى! أيّها السفلة العفنون، تكلموا، قولوا لي ما الذي فعلته واستوجب منكم هذا القدر من السخط، ماذا تريدون، إنّكم من الغباء أنّكم غير قادرين على الإفصاح بما تريدون، لماذا أنتم ساخطون، لا تعرفون، يا سفلة يا قذرون، يا سفلة يا جبناء...

رأيتُ شيئاً بارزاً يلمع. يدٌ تبحثُ عن مسدس تحت العباءة. فرع من شجرة مستعد، عصا، قبضة تتصلّب، أحد ما ينحني لالتقاط حجر، نظرة بلغت مبلغ الانفجار وهي تدفع به دفعاً إلى باب الأبرشيّة، فتح الباب واختفى دون خيرونيمو وكأن الأرض ابتلعته.

في الداخل، ساعدتُ راعي الأبرشية في غلق الباب بالمتراس. وسقطت قبضات تلك الحيوانات الشرسة على باب الكنيسة وارتفع صراخُ الجمهور.

- اتبعني، دون خيرونيمو، من هنا، اعبر، عندي لك درج جاهز لكي تصعد إلى السطح وتعبر إلى البيت الخلفي. هناك بانتظارك سيارة. ليست سيارتك، لكي لا يشكّ أحد بشيء.

خُدعوا، فوجئوا باختفاء المذنب فجأة، شعروا بإحباط من لا يجد أمامه أحداً يصبّ عليه غضبه، فواصلوا الصياح برهة، لكنّهم بدؤوا

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد ٢١٥

يتفرّقون، من دون مركز، من دون أن يعرفوا ماذا يفعلون فقد كان مستحيلاً الإطاحة بباب الأبرشية. فالكنيسة تبقى كنيسة مهما بلغت درجة التطرّف. ساعدنا الخوري في الصعود إلى السطح. نظرنا من فوق وكان المحتشدون ما يزالون يحيطون بالأبرشية. وفجأة صرخ أحدهم:

- ها هو ذاك... إنّه هناك...

أتذكّر تلك اليد المرفوعة، أيتها الأم بنيتا، أتذكر تقاسيم وجه أول رجل أشار إلى السطح، أتذكّر كلّ واحدة من تلك النظرات التي رفعوها.

- أين؟

- هناك.

وجد الجمهورُ مركزه من جديد. هناك، إنّه يركض على سطح بيت راعي الأبرشية، انظروا إليه، إنّه هو، دون خيرونيمو دي آثكويتيّا الذي يتحرك، ليس صحيحاً أنّ الغندور يتحرك، ولكن انظروا إليه، ورأى آلاف الشهود دون خيرونيمو واقفاً فوق السطح، عظيماً، بطولياً، خيالاً بارزاً في الضياء القليل الباقي في السماء.

- اقتلوه.

سُمع صوتُ رصاصة.

أمام آلاف العيون الشاهدة على الحدث، انثنتْ قامة دون خيرونيمو دي آثكويتيّا النبيلة من الألم، فقدَ توازنه وسقط في باحة الخوري من ناحية السطح، وبدلاً من تسليم المذنب إلى الجمهور ليمزقه، فقد أخفاه.

حين تنبّه الحشدُ المتجمع في الساحة إلى ما فعله واحدٌ متوحش غير واعٍ، وكانوا جميعهم ذلك الواحد، بدؤوا يسألون عمّن يكون،

من فعل ذلك، من كان الأحمق، من كان المجرم، أكنتَ أنتَ، لوجو، لا، كان آناكليتو، لا، أنا لا أملكُ مسدساً، كان هو، كنتَ أنتَ، صاحب القبعة الرمادية كان يحمل مسدساً، لا بدّ أنه ذلك الشخص ذو الشارب المتهدل الذي لا يعرفه أحد منّا، هو هناك، صاحب الشارب المتهدل يركض، لا، إنّه لا يركض، أنا أعرفه، إنه غير قادر على قتل برغوث، لا أحد يركض، لا أحد يعرف من هو المجرم الأحمق الذي قتله، وما لذلك من جدوى لأنّ هؤلاء المتأنقين هم الرابحون دائماً، يا له من رجل جريء دون خيرونيمو هذا، قد يكون متأنقاً لكنّه شجاع، لقد شتمنا، يستهين بنا ويستعبدنا ويستغلنا وسيخدعنا وسيشترينا في الانتخابات الرئاسيّة وسيشتري أصواتاً لمرشحه، سيسكرنا بنبيذ أقبيته وسيحملنا في عربات كالحيوانات لنصوّت للمرشح الذي يقرره هو، نعم، كان يجب قتل الغندور. اقتحم خيالة الدرك المكان لاعتقال أحد ما، ولكن اعتقال من، ولماذا، طيب، ليقل أحد ما حدث، على أيّة حال يجب تفريق هذا الحشد إذ لا يمكن اعتقال ألف رجل، أين السيناتور، مؤكد أنّه خرج في هيئة سيناتور وإن كان من المحتمل أنّهم قتلوه، هيّا، عودوا إلى بيوتكم، ليذهب كلّ في ناحية من دون مشاكل، سنحقق في الأمر لاحقاً، نعتقل أحداً ما، لا يهمّ، لن نصل إلى جذر المسألة، تفرقوا... لم يبق أحد في الساحة. ضرب قائد الدرك باب الأبرشية. تأخر الخوري في فتحها.

– تفضّل أيها النقيب تفضّل. حان الوقت لتتدخلوا.

هذا هو الحادث كما سجّلته القصّة، أيتها الأم بنيتا، وكما ظهر في الصحف وكما سجلتُه أنا في تلك الصفحات التي تقرئينها حضرتكِ. لكن من سقط جريحاً لم يكن دون خيرونيمو، أيتها الأم بنيتا: كنتُ أنا.

***

حين صاح بهم أيّها السفلة العفنون، حسناً، انتهى الأمر، قولوا لي ماذا تريدون أيها القذرون، قولوا لي ما الذي فعلته واستوجب منكم هذا القدر من السخط، في مواجهة ألف عين كانت تنظر إليه في الساحة التي لم تشعل فيها الأنوار، أنا كنتُ مختفياً تقريباً خلف طيّات عباءته. لم يكن أحد يراني. كان هو، وحيداً أمام الحشد المعربد المستعد للمهاجمة من دون أن يهاجم. مع ذلك، أيتها الأم بنيتا، أستطيع أن أعترفَ لحضرتكِ بذلك لأني مريض ومحموم وللمرضى امتيازاتهم، صحيح أنني كنتُ معه، لكنّي كنتُ أيضاً ضدّه، كنتُ معهم، أحقد عليه، أكرهه لأنّ صوتي لن يمتلك سلطة الصراخ أيّها السفلة العفنون، ماذا تريدون، انتهى الأمر، انصرفوا إذن إن لم تكونوا تريدون شيئاً، كنتُ أتمنى الانتقال إلى صفهم لأنّه كان يشتمني، على الرغم من أنني كنتُ أحتمي بعباءته، كنتُ أتمنّى أن أنتقل إلى صفّ الجمهور المجهول مرّة أخرى، أن أضاعف كرهي من خلال أولئك المئات الذين كانوا يكرهونه، أن أختبئ بين أولئك الذين كانوا سيصفّونه، أن أصطفّ إلى جانب الضحايا الذين يوشكون أن يكونوا جلادين، نعم، أيتها الأم بنيتا، لماذا لا أعترفُ لكَ بالحقيقة: في تلك اللحظة بلغ تلهفي إلى أن أكون دون خيرونيمو وأمتلك صوتاً لا يكون غريباً عندما أقول سفلة عفنون إنني كنتُ سأرمي به مستمتعاً لنمزقه بيننا جميعاً، ونستحوذ على أحشائه ونتغذى على أنينه، على سقوطه، على نهاية سعادته، على دمه. كان في مقدوري فعلُ ذلك، أيتها الأم. الناس يعرفون أنني موضع ثقتهم في كلّ شيء، ولا سيّما في الأشياء التي كان هو يفضّل ألا يفعلها. أصرخ بهم: إنّه هو المذنب، أنا، أومبرتو بينيالوثا، سكرتيره، أقسم لكم وأعلمُ أنّه هو من رتّب للأمر كلّه. وكان في ذلك ما يكفي لكي يهاجموه بالعصي والسكاكين وأشاهد أنا منظر دماء دون خيرونيمو وهي تسيل عند أقدامنا.

وماذا عنّي أنا، إذن؟ ماذا سيحصل للقسمات غير المستقرة التي راح وجهي يكتسبها؟ ألن أنهي بهذا العمل جميع فرصي في المشاركة في كينونة دون خيرونيمو دي آثكويتيّا؟ أنا الآن على الأقل جزء منه، جزء ليس ذا بال حتّى إنّه لا يراني تقريباً إلى جانب قامته، ولكنّي جزء على أيّة حال. لذلك سمحتُ بأن يواصلوا النظر إليه مهددين متوعدين ولكن من دون فعل، فهكذا لن يعود إليّ ولو جزء بسيط من تلك الكراهية التي تعكس حجم سلطته.

فتح لنا الخوري الراعي الباب. أغلقناه من الداخل بالمتراس. كان كلّ شيء عنده جاهزاً في الباحة: سلّم يدوي للصعود إلى السطح والعبور من هناك إلى البيت الخلفي حيث كانت تنتظرنا السيارة للهروب بينما انتباه الجمهور منصب على الأبرشيّة. صعدتُ أنا أولاً، وكنتُ أخفّ وزناً، لأتحقق من متانة القرميد المكسو بالطحلب. كان الأمر سهلاً: تسلّق جانب السطح المنحدر من جهة باحة الخوري والنزول من الجانب المنحدر الآخر، حيث يوجد درجٌ مهيأ للنزول إلى باحة البيت الخلفي. قلتُ لدون خيرونيمو أن ينتظر لحظة للتأكد من أنّ كلّ شيء جاهز في الطرف الآخر. لكنّي لم أكن قادراً وأنا في الأعلى على السيطرة عليه. حين سمعتُ صراخ الحشود المتجمهرة عند باب الأبرشيّة، لم أستطع تمالك نفسي، أيتها الأم بنيتا، واضطررتُ إلى الذهاب للوقوف عند حافة السطح المقابلة للساحة.

- أومبرتو...

كان دون خيرونيمو يناديني.

- هل أنتَ مجنون؟ ماذا تفعل؟

لم أستطع الرد عليه. توقفتُ دقيقة، دقيقتين، في السطح مقابل الساحة. صرختُ:

مكتبة أحمد ٢١٥
telegram @ktabpdf

- اقتلوني إن أردتم، أيّها السفلة العفنون، ها أنا ذا...

لا تسجّل الرواية صرختي لأنّ صوتي لا يسمع. كلماتي لم تدخل التاريخ. لكنّ أحدهم أشار إليّ. ألف عين رأتْ دون خيرونيمو دي آثكويتيّا فوق السطح. سُمع صوت الرصاصة. ألف شاهد رآني أنثني ألماً من الرصاصة التي خدشت ذراعي هنا بالضبط، أيتها الأم بنيتا، في المكان الذي خدشني فيه قبل سنوات قفاز دون خيرونيمو الكامل. الندبة تتصلب كالعقدة، مدماة كالوسم. فكيف لا تظلّ العلامة التي تذكرني بأن ألف عين، مجهولةٍ كعيني، كانت شاهداً على أنني خيرونيمو دي آثكويتيّا؟ أنا لم أسرق هويته. هم ثبّتوها لي. التاريخ سجّل تلك اللحظة على أنّها لحظة الذروة في مسيرة سلطة أوليكارشيّة بدأت، منذ ذلك الوقت، بالانحسار والأفول. لكنّ الجمهور الذي يقرأ التاريخ، المناوئ للحزب التقليدي أو المناصر له، لا يستطيع إلا أن يصرّح بإعجابه بالجرأة التي أبداها دون خيرونيمو ذلك المساء في ساحة البلدة. ما زال الجمهور يجهل أنّ من أثار إعجابه هو أومبرتو بينيالوثا، تلك الشخصية البطولية والدامية التي شتمتهم، المقصوصة والملصقة على ما بقي من غروب.

- حذارِ، أومبرتو...

- هل قتلوكَ؟

لا، لم يقتلوني. حين انثنيتُ ألماً فقدتُ التوازن وسقطتُ نحو الباحة. أفلحتُ في الإمساك بالقرميد والتشبّث بالمئزاب، بينما ركض الخوري بالسلّم وصعد دون خيرونيمو لينزلني محمولاً. سقطتُ مغشياً عليّ. أضجعوني في ممر راهب الأبرشية، بين أصص أزهار البغونيا وأقفاصه المحركة للمشاعر حيث تنط عصافير وأسماك.

أعظم أحزان حياتي، أيتها الأم بنيتا، هي أنني أمضيتُ لحظة

النجومية الوحيدة، اللحظة الوحيدة التي أدّيتُ فيها دور البطل وليس دور الكومبارس - تلك اللحظة السريعة التي شقّ فيه دون خيرونيمو والراهب ردنَ قميصي وعالجا جرحي -، غائباً عن الوعي. لا أحتفظ بذكرى عن تلك اللحظة. فبعد دقائق قليلة، حين استرددْتُ وعيي، وجدتُ دون خيرونيمو وقد كشف عن ذراعه الملطخ بالدم، نعم، بدمي، أيتها الأم بنيتا، بدم أومبرتو بينيالوثا، وضمّد ذراعه في المكان نفسه الذي كان يؤلمني. حين انتهوا من تضميده قرّبوا ذراعي المجروحة من ذراعه وعصروا جرحي ليسيل أكبر قدرٍ ممكنٍ من دمي وليلطخوا به ضمادات البطولة المزيفة. يجب أن يتمّ كلّ ذلكَ بسرعة، قال، لئلا ينتبهوا إلى أنّكَ كنتَ أنتَ، ولستُ أنا، من سقط جريحاً، ومن الضروري انتهاز هذه الفرصة، لأنّي بهذا الاعتداء على حياتي - نعم، كان اعتداءً على حياته، إذ لم أكن أطمع ولم أستطع أن أطمع في أن أكون أكثر من تجسيدٍ عرضي لقيمته - امتلكتُ سلاحاً أشهره في وجه من يحاولون اتهامي بالتجاوز والتعسّف، وفي إمكاني أن أظهرَ ذراعي المدماة لرجال الدرك وللصحفيين ممن يحاولون اتهامي بعدم احترام القانون، ها هم يضربون باب الأبرشية لكي يدعوهم يدخلون. لقد تلقفوني في خمس دقائق: صعدوا بي إلى السطح عن طريق الدرجِ، اخفِ ألمك، أومبرتو، فهو ليس شديداً، لا تدع أحداً يلتفت إلى أنّكَ جريح، اصعدْ وحدك، انزلْ من الجانب الآخر، لن يسألَ أحدٌ عنكَ، سرْ بسرعة في السيارة إلى رينكونادا. وذهبتُ إلى الحقل، أيتها الأم بنيتا. تلاشيتُ.

خرج دون خيرونيمو دي آثكويتيّا، متنكراً بدم أومبرتو بينيالوثا، إلى باب الأبرشية ليستقبل السلطات ويريهم دمَه، ويسمعهم احتجاجه بأن ما وقع له هو المصيبة التي ما بعدها مصيبة، فالبلد لا يقدم أيّة ضمانة لمن يضحون بأنفسهم في سبيل خدمته، فليس هناك من سلطة، لا أحد

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد ٢١٥

يمتثل لأبسط القوانين، على الرغم من أنّهم يجرؤون على اتهامه بتجاوز لن يقدر هو، وهو رجل يمثل النظام، على إتيانه، لا، لماذا البحث عن المذنب إن لم يكن الشخص الذي أطلق النار مهماً ولا الجرح في حدّ ذاته خطيراً، ما يهم حقاً هو موقف الحزب السياسي العدو الذي استخدم عاملاً مسكيناً جاهلاً دفعه محرّضون يتقنون الاختفاء حين تحين لحظة المسؤولية، لكي يمحوه، يمحو خيرونيمو دي آثكويتيّا، لأنّه فاز بكلّ نزاهة في المعارك الانتخابية. قدّم تصريحات رائعة للصحفيين، وقد نقلها هؤلاء في الحال إلى صحف العاصمة. في تلك الليلة ظهر ملحق إخباري مع صور لدون خيرونيمو - تحتفظ إينيس بنسخ مصفرّة منها في واحدة من حقائب غرفتها-، وللخوري بين أسماكه، للحشود في الساحة، وإشارة مطولة ومثيرة للاعتداء.

قطع دون خيرونيمو ثانية الساحة، منتصراً وهو يظهر ذراعه الملفوفة بالضماد، ويستعرض بدمي أمام شهود جرّدوا من العنف، تتبعه حراسة من خيالة الدرك. إنّه دون خيرونيمو دي آثكويتيّا سيناتور الجمهورية. على الرغم من الابتسامة، كان يلاحظ على أذنيه وقسمات وجهه المحدد ألم الجرح، وإن لم يكفّ عن الترديد بأنّ الجرح طفيف، لا تقلقوا على جرحي، هناك أشياء أهم في الميزان. في الساحة وفي الحانات سرت شائعات بأنّهم لم يتمكنوا من إخراج الرصاصة من جسده، ومن المحتمل أن يضطروا إلى بتر ذراعه، ربّما لن يبتروها كلّها لكن... انظروا إلى الغندور، لا تهتزّ منه شعرة، جذّاب كما هو دائماً، ما أشجعَ هذا الغندور... ربّما هو ليس متعجرفاً كما يقولون، بل ربّما يصبح سيناتوراً عظيماً.

١٣

كثيراً ما كانت إينيس تذهب لتمضية المساء مع بيتا بونثي حين كان خيرونيمو يتركها في رينكونادا. كان وجودهما معاً مناسبة لاستذكار مشاهد الطفولة: انتشال شخصيات ضائعة في الذاكرة، ألعاباً لم تكن ربّما ألعاباً، بعابع، عبادات، والمهمة المثيرة في حفظ ما فقدَ كلّ مبرر لوجوده. كانت الحياة، أيتها الأم بنيتا، تدبّ في ذلك كلّه ونحن قابعتان في عتمة غرفة العجوز، في مؤخرة آخر ممر وآخر باحة حيث تنتظر بيتا بونثي دائماً، وحيث يشي الطلاء المقشّر بتركيبة الطوب، وترسم الرطوبة الوجوه الفظيعة لما كان ممكناً أو لما يمكن له أن يحدث هناك أو هنا، أيتها الأم بنيتا.

وبينما كانت المرأتان تواصلان الحديث عن تفاهات، محبوسة في مخبأ العجوز، قابعة في قاع متاهة بيوت رينكونادا، كان خيرونيمو يخرج للإيفاء بواجبات الرجل الناجح: الطواف بالحقل على رأس مجموعة تفتح تحت إمرته قناة لتسميد مئة قطعة أخرى من الأرض، توجيه العمال الذين أدمى قطافُ العنب أيديهم، بناء أقبية نبيذ جديدة، مخازن حبوب جديدة، وسم الحيوانات المخصصة للذبح. ما كان يورد ذكراً لبيتا قط. فقد كانت سلطة صمته تحذفها. لكنّ بيتا كانت تتبع الزوجين حين يخرجان من الحقل إلى المدينة أو من المدينة إلى الحقل. في بداية الزواج، حين لم يكن اليأس قد شرخَ سعادتهما،

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد ٢١٥

كانت إينيس تتسلّى مع مربيتها بحياكة ملابس بوي، تخيط القمصان الداخلية وتطرّز على الثياب الرقيقة الحروف الأولى وأكاليل الزهر الزاهية. لكنّها راحتْ، شيئاً فشيئاً، ومع تأخر الوريث، توطّن نفسها على النذر والصلوات والانتظار، وتواصل الحياكة والتطريز، ولكن بحماس أقلّ. كان من المستحيل أن تتحدث مع خيرونيمو عن الكائن الذي لا يأتي. ما كان سيقبل الخوض في موضوع يمكن أن يكدّر صفو الراحة القسرية الذي يميّز رصيعته الراهنة.

للحديث عن تلك الأمور كانت لديها بيتا بونثي، تتلقّى الألم الذي كانتْ هي تكظمه. كانتا تتكلّمان وتتكلّمان، تتحسّس الألم الذي كان يشتدّ مع سنوات العقم، تعيش مع مربيتها ما لا تستطيع أن تعيشه مع زوجها، فقد كان من الضروري اللازم أن تكون جميلة وأنيقة وناعمة ومغرمة ومحسودة من قبل الجميع، الذين لن يحسدوها لو علموا بأنّها تتردد، عند المساء، على حجرة مربيتها، للحديث معها مطولاً، لفك نسيج الكمال، للصلاة على القديسة ريتا دي كاسيا، راعية المستحيلات، وللتأوّه. ربّما من دون أن تشعر – لا أدري، أيتها الأم بنيتا، مع أنّي لن أستغرب أن تعرف كلتا المرأتين، باتفاق عميق على حساب الوقت الذي يمكن للأمل أن يستمر، ما كنّ يفعلن بالضبط –، مع تعاظم الاستياء الصامت لدى الزوجين وابتعاد احتمال أن يولد بوي وتغلغله في قاع الممر حين لم تكن تتردد غير كلمة لا شيء لا شيء لا شيء، لا أفكر في شيء، راح حجمُ تلك الملابس التي كانت المرأتان تخيطانها للطفل يصغر ويصغر على امتداد تلك السنوات الخمس، إلى أن وصلتا إلى عمل ملابس لا تناسب إلاّ دمية صغيرة. كانتا، أيضاً، تتسليان ببناء أسرّةٍ ومناضد وكراس وكومودينات وخزانات ملابس ودواليب من عجينة الورق وخشب أعواد الثقاب الرقيق، ومزهريات صغيرة من لبّ الخبز المصبوغ، كان كلّ شيء يصغر ويصغر مع

انشغال سانتا ريتا دي كاسيا، شفيعة المستحيلات، وكلّ القوى الأخرى، عنهما وعدم اكتراثها بهما، إلى أن أصبحت تلك الأشياء وتلك الملابس، أيّتها الأم بنيتا، من صغر الحجم أن صار لازماً رفعها بالملقط ومعاينتها بالعدسة المكبرة لتأمّل فخامة تفاصيلها المهووسة. قريباً سآخذك إلى غرفة إينيس، قبل أن تعود من روما، لأريكِ حاجيات بوي، نعم، صدّقيني، آخذكِ الآن، إن شئت ذلك، لأثبتَ لك أنّ ما أقوله حقيقة: أنا فتحتُ جرارات صندوق الدنيا ذاك كلّها لأنّه يغريني بسرقة بعض تلك الأشياء لتزيين البيت الذي ستسكن فيه إيريس ماتيلونا بعد ولادة بوي. أعرف شراشف اللينو، وأغطية الستان، والبدلات الصغيرة المحاكة أو المطرزة، كلّ ما كانت إينيس تفعله مع بيتا بونثي في الغرفة الواقعة في نهاية البيت، حين كانت ما تزال تأمل أن تسمعها القديسة ريتا دي كاسيا، أو الطوباويّة. أمّا في الأدراج السفلية من صندوق الدنيا، حيث كلّ شيء مرتّب بعناية بحسب تاريخ خيبة الأمل، فتوجد الأشياء الأخرى، الأشياء التي يتقلص حجمها بين دُرْج ودُرْج، ما عادت القديسة ريتا تعيرنا سمعها، علينا أن نصلّي لإينيس دي آثكويتيّا، ولكن إينيس دي آثكويتيّا ليست قديسة، بيتا، وماذا يهم ألا تكون قديسة، ولن تكون طوباوية، لكنّ هناك أرواحاً غير قديسة قادرة على عمل المعجزات، أشياء أكبر من المعجزات التي يأتيها قديسو المذابح، لأنّ تلك الأرواح غير القديسة تواصل الطواف في العالم، لا تختفي، تعيش معنا، يمكنها أن تنصحنا، لنتوجه بالصلاة إلى إينيس دي آثكويتيّا، لنتوكّل عليها فهي من أسلافك وهي ستقدم لنا النصائح لعمل شيء فليس لهذا الوضع أن يستمرّ، وتحوكان أشياء أصغر حجماً لأنّ الطوباوية لا تساعدهما أيضاً ولا تنصحهما، أشياء متناهية في الصغر مع مرور الأشهر سدًى، بل إنّ في دُرْج صندوق الدنيا الأخير علباً تحوي تلك الملابس وذلك الأثاث الذي يبلغ من صغره أنني أخاف

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

أن ألمسه، فقد أحطمه. لقد أمضيتُ أمسيات كاملة في غرفة إينيس لأتأمّل كيف راحت آمالها تتلاشى من درج إلى درج، ومن سنة إلى سنة، ومن شهر إلى شهر، ومن أسبوع إلى أسبوع، إلى أن وصلتُ إلى رسوم منمنمة تعود إلى الوقت الذي أعطتني فيه إينيس موعداً هنا في غرفة بيتا بونثي. ليس لهذا الوضع أن يستمر. كان من المستحيل بناء شيء أو حياكة لباس أصغر فما من خيط أرفع ولا خشب أدق، وكان من المستحيل أيضاً قطع دورة الكمال التي كان خيرونيمو يحيط بها نفسه وشريكته. أمّا الأخرى فما كانت تردّ، قابعة من الماضي، على أدعية تلكما المرأتين اللتين جُنّتا حتى ما عادتا تعرفان ما يمكن فعله. إنّها النهاية. نفدَ الرجاءُ وتلاشى الأمل. ما من قوّة تعينهما. أيّة قوّة.

أيّة قوة؟ أنا متأكد من أنّ الطفلة–الطوباوية في تراث آل آثكويتيّا، وهي نفسها الطفلة– الساحرة التي انتشلتها العباءة الأبوية الفضفاضة من مركز الحكاية التي جرت أحداثها في محافظة ماولي لإنقاذها من السمعة المشينة، أنا متأكّد من أنّ ذلك الكائن همس أخيراً بخطة في أذن بيتا المنتبهة. وأعطتني إينيس، مدفوعة بكلتيهما، موعداً هنا في غرفة مربيتها ليلة الانتخابات.

بينما كان دون خيرونيمو، متنكراً بقناع أومبرتو بينيالوثا، يسجّل الانتصار في ساحة البلدة، كانت السيارة التي كنتُ أتلوّى فيها من ألم جرح دون خيرونيمو تغذّ السير في طرقات رينكونادا الترابية آنذاك. نعم، لقد سَرق جرحي، أيّتها الأم بنيتا، لكنّي أؤكد لك أن لا أحدَ يسرق جرحاً من دون أن يدفع ثمنه. لو أنّه كان طلبه منّي على سبيل الإعارة لأجبته إلى طلبه بكلّ سرور، لأنّي كنتُ معجباً بدون خيرونيمو، لكنّه سرقه منّي وأنا غائبٌ عن الوعي، أخذه منّي من دون إذني، لاقتناعه بأنّ جرحي، كما هي حال كلّ شيء يخصّني، هو من ممتلكاته. حين سرقه منّي تركني صحيحاً معافًى، من دون أيّ جرح. نعم، أيتها الأم

بنيتا، كان هو من حوّلني إلى دون خيرونيمو دي آثكويتيّا، هو وعيون الشهود الألف في الساحة، هو والصحفيون الذين يشهدون على شجاعتي.

خفّت إينيس على ضوء المصابيح التي كانت ترتعش في أيدي العمّال لتشهد وصول السيارة إلى مدخل المزرعة، لم أكن أستعمل تلك السيارة إلا وأنا في صحبة دون خيرونيمو. قفزتُ من السيارة وكأنني لا أشعرُ بأيّ تعب وألم. كيف هو، كيف يشعر، كيف هو خيرونيمو، هل سيعود، متى؟ وبينما كنّا نتجوّلُ في الممر المقابل للمزرعة، ترقبنا، أنا وهي الآن، عيون الكلاب التي تتوقد شرراً، قصصتُ عليها حقيقة ما جرى. ارتختْ ركبتاي وكأنني أوشكُ على السقوط مغشياً عليّ من جديد. أخذتني إينيس من ذراعي الأخرى، استلقِ هنا على أريكة خيرونيمو ودعني أغطّي قدميكَ بشاله، دعني أرافقكَ برهة إن لم تكن تشعر بالراحة، كي لا يحدث لكَ مكروه، كان يكفيني أن تمسّ يدي يدك لكي يحدث كلّ شيء. شعرتُ بإعجابها يشعل فيّ النار وبالعناية الموجهة إلى الكائن الجديد الذي أنا عليه الآن. تستنطقني، تستعجلني وتستعجل جوابي وتطرح السؤال بعد السؤال، فكأنّها تتمنى، كما تمنّيتُ أنا، أن تكون تلك الرصاصة التي خدشت ذراعي أصابتْ قلب زوجها. وما الغرابة، أيتها الأم بنيتا، في أن تشعر إينيس بشيء من ذلك: فهي في نهاية المطاف، كما هي حالي، لم تكن غير خادمة لدون خيرونيمو، خادمة عملها إنجاب طفل ينقذ الأب.

حين أكلمُ إينيس عن هذه الأمور، أرى، أيتها الأم بنيتا، أنّها لا يمكن أن تكون تمنّتْ موت خيرونيمو كما تمنيته أنا، لأنها تحبّه. تيقّنتُ من حبّها تلك الليلة أمام المزرعة، ولأنّي أنا خيرونيمو فقد أحسستُ بحبّ إينيس. ارتعشتُ. سألتني إن كنتُ برداناً. نعم... نعم... قليلاً، على الرغم من أنّ تلك الليلة كانت دافئة. ألحّتْ عليّ أنّ أخلد إلى

الفراش. فالنوم أفضلُ لي. رافقتني حتّى باب غرفة نومي. كانت توشكُ أن تنجز الاستبدال، كانت توشك على الدخول إلى غرفتي لتسلّم نفسها لزوجها. ظلّت في الخارج.

– تصبح على خير، أومبرتو.

– تصبحين على خير...

– آه. كنتُ أريد أن أقول لكَ شيئاً: إن شعرتَ بسوء أو آلمتك ذراعُـك، فلكَ أن تذهب إلى بيتا بونثي. هي تعرفُ كلّ أسراري وتحفظها، لذلك لا ضيرَ في أن تعرف بأن الجرحَ هو جرحُك وليس جرح خيرونيمو... وهي التي لا تنام إلا قليلاً وتفهم في هذه الأمور، إنّها طبيبة....

طبيبة، قـوّادة، ساحرة، قابلة، بكّاءة، مخبرة سريّة، كلّ صنائع العجائز، مطرزة، حائكة، حكواتية، حامية تقاليد ومعتقدات، حافظة أشياء لا فائدة منها ولا نفع تحت السرير، نفايات مخدوميها، سيّدة الآلام والظلام والخوف والأسرار التي لا سبيل إلى الكشف عنها والتصريح بها والوحدة والخجل الذي لا يتحمله الآخرون. كنتُ أترددُ لقضاء وقت هنا في حجرة بيتا بونثي. أجلس معها بالقرب من هذا الموقد حيث تسخّن الماء لأجل المتة وتحمّص حلاوة السكّر على الجمر إلى أن يملأ الدخان الحلو العتمة. الماء يغلي في الإبريق. تصبّه في اليقطينة المجوفة وكانت قد وضعت فيه، بالإضافة إلى أعشاب المتة، غصناً من الشمّار، كانت تنتظر لحظة، تحرّك المصاصة وتمصّ للتذوّق، لذيذ، اشربْ حضرتكَ أولاً دون أومبرتو فأمصُّ، وتعود هي إلى ملء المتّة وتمصّ هي ثمّ تعود إلى ملئه وأنا أشرب متّة أخرى ساخنة من دون أن أشعر بتقزز من انتقال المصّاصة من تلك الشفاه المأكولة إلى شفتيّ لأنّ ذلك الاتصال بيننا عن طريق المتّة كان

يؤسسُ وعياً بأنّ وضعينا بالقرب من خيرونيمو وإينيس كانا متناسبين. نادراً ما كنّا نتكلّم. وعن ماذا سأتكلّم مع عجوز مثل بيتا بونثي وأنا الجامعيّ الكاتبُ؟ كنّا نتحدث عمّن هو مريض وعن طبيعة مرضه وعمّا يجب عمله لتحسين وضعه الصحي، وعن موعد عودتنا إلى العاصمة لأنّ موجات الصقيع بدأت. عند الوصول إلى إينيس وإلى خيرونيمو، كانت كلماتنا تدور حولهما في اتجاهات مختلفة تاركة فراغاً في الوسط، لكنّه كان فراغاً يملأ كلّ أحاديثنا بمعنى لا غموض فيه، وإن اقتصرَ تعليقنا على حالة الطقس الحسنة اليوم بعد أن كان أمس غائماً ولماذا طردوا ديونيسوس ومتى ستعود روسالبا من إجازتها وبأنّ الجميع مصابون بالزكام بسبب المطر الشديد هذا الخريف. حديث تافه، ولكن لا أحدَ يحضّر المتة كما تحضّرها بيتا بونثي، تثير الشهيّة، فبعد تذوّق متتها تبدو الأخرى من دون طعم، وأنا كنتُ أحضر وأعاود الحضور إلى مسكن بيتا، لكي لا نتكلّم عن أننا لا نستطيع الكلام لأنّ حتّى مخدومينا لا يتجرّؤون على الحديث عن ذلك الموضوع وبما أننا في نهاية المطاف لسنا إلا خدماً... كان يعجبني الحضور إلى حيث بيتا لكي أجلس على الأرضيّة بالقرب من الموقد، وهي الأرضيّة ذاتها التي كانت تجلس عليها إينيس لتنقل ألمها إلى العجوز، وهكذا، وبعد أن تتخلص من ألمها، تبرأ منه وتستطيع أن تواصل وجودها بالقرب من خيرونيمو داخل حدود رصيعة السعادة الزوجية الكاملة. كان ترددي على بيتا لتناول المتة، للجلوس بالقرب من الموقد. ولكن أيضاً لألمس عن طريق العجوز إينيس أخرى أكثر تكاملاً من إينيس خيرونيمو. كنتُ أنتبه أحياناً إلى أنّ إينيس، بطريقة مضمرة وبعبارة عديمة اللون من عبارات بيتا، كانت تطلب منّي المساعدة:

- اليوم كانت الطفلة نصف حزينة...

- لماذا؟

- هذا المساء لم تكن على ما يرام أبداً... كانت صحتها في ما مضى جيدة.

أنا وبيتا كنّا نعرف أنّها لم تكن على ما يرام. أنا لا أسأل. كان على الأشياء أن تظلّ خرساء، لأنّي في أعماق ذلك الصمت كنتُ أتنبأ بمصير لي، فإذا ما كسرتُ الصمت فسأزيلُ ذلك المصير. مع الوقت، راحت عبارة «لم تكن على ما يرام»، التي طالما رددتها العجوز في حديثها عن إينيس، تتحوّل إلى صرخة ملحّة لا تطلب مساعدتي، بل تطالبني بها، أنا كنتُ خادماً، وهي، إينيس، التي كان زوجها يدفع لي راتبي، كان لها الحق في خدماتي. الطفلة ليست على ما يرام. ليست على ما يرام إطلاقاً. إنّها محزونة. منكسرة النفس. أخشى أن يقع لها مكروه إن هم لم يفعلوا لها شيئاً. إينيسيتا ليست على ما يرام إطلاقاً. أنا رأيتها للتوّ متألقة في الصالون وهي ترتدي فستان الدانتيل بلون التانغو لاستقبال المدعوين إلى حفلة عيد ميلادها التي لم يدعوني إليها بالطبع. أو لمحتُ الشريكين يعدوان بحصانيهما الرائعين في الطريق المحفوف بشجر الحور الخريفيّة.

كان ذلك حين ما عادت يداها تستطيعان تركيب أثاث ولا خياطة قميص أصغر حجماً، فاقترحت عليها بيتا الخطة. هاته لي، ذلك ما تقوله لي جدّتكِ الساحرة التي تتكلّم عن طريقي، قلت لك هاته لي، هات لي دون خيرونيمو، إينيس، اقنعيه بأنّي موجوده، بأن يأتي لرؤيتي، هي تقول إذا وافق على أن يضاجعكِ ليلة واحدة هنا في غرفتي، على فراشي بشراشفه القذرة المنتنة برائحة جسمي العجوز، فوق المرتبة التي تخفي عدداً غير محدود من العلب الغامضة، في هذا الظلام الذي تفوح منه رائحة شيء مستهلك، سكون ساكن لكنّه غير ساكن من قفزات طائر السمّان في قفصه، حينئذ، إينيسيتا، حينئذ، أقسم لك، ستحبلين.

بالطبع. ولكن كيف نأتي بخيرونيمو إلى هذه الغرفة، كيف نحضره إلى هنا، إلى غرفة بيتا، إن كانت بيتا غير موجودة لأنّ تقززه منها كان يلغيها؟ أمّا أنا، خادمُه، فأستطيع أن آتي: هو سرق منّي جرحي، وإينيس، حين ودّعتني على باب غرفة نومي، قالت لي ذلك من دون أن تقوله لي: أنتَ هوَ.

حين استيقظتُ لاحقاً في تلك الليلة وبي ألم من جرحي يقيّد ذراعي، تيقنتُ من أنّه لم يكن ألماً حقيقياً، بل كانت قدرة بيتا بونثي تنكأ لي جرحي لتستعجلني الذهاب إلى موعد إينيس في هذا المخبأ، والوفاء بواجب الخادم، فهم لذلك يدفعون لكَ، دون أومبرتو، ألا ترى أنّهم من أجل ذلك يدفعون لكَ، لا تنمْ، انهضْ، لا يمكنكَ النوم، دون أومبرتو، فإينيسيتا تحتاجكَ، تعال، نحن ننتظركَ في غرفتي، إن لم تأت فسأجعل ذراعكَ تؤلمك أكثر، أكثر كثيراً، سأشلّها لكَ دائماً، هيا، تعال، نحن ننتظركَ، عليكَ أن تأتي الآن، تعال... الآن.

ارتديتُ ملابسي بتأنّ لأنّ الجرحَ يمنعني من تحريك ذراعي بحرية. كان عليّ أن أقطع أحواشاً وباحات، ممراتٍ ومنعرجات من الطوب وغرفاً خاوية ومرافق غير ذات نفع، فوضى المباني المقامة من قرون لغايات طواها النسيان، أن أتيه في مجازات الطين المتهالك هذه، لكنّي لم أته، أيتها الأم بنيتا، لأنّي ومع تقدّمي كان الألم يطلق ذراعي ويشير عليّ بأن أواصل السير، لأنّ هذا هو الاتجاه الصحيح، إنّها بيتا تقودني إلى هنا، تحملني تجرّني حتّى نهاية هذه الممرات وهذه الباحات الطينيّة. انتبهتُ إلى أنّ هذا هو الباب لأنّ الألم زال عن ذراعي فجأة. فتحتُ الباب. كان المخبأ مظلماً، مليئاً بدخان قطعة من السكر المحترق في الموقد وبقفز طائر السمّان في قفصه. في الخارج، البيت والحقل كانا يتآمران بهدوء تام. فتح هذا الباب خلفي ثم انغلق.

- خيرونيمو.

نعم، نعم، أنا خيرونيمو دي آثكويتيّا، أحملُ جرحي الدامي لأريكِ إيّاه: أخذتُها بين ذراعيّ. حملتُها إلى سرير بيتا. كانت إينيس تبكي وهي تردد وتردد اسم خيرونيمو لإلغاء ما يمكن أن يكون بقي من أومبرتو، وكلّما كررت الاسم أكثر كان خيرونيمو يكبر، نعم، نعم، لقد ألغيت أومبرتو الذي يرضى بأن يُلغى شرطَ أن يلمسكِ، أنا خيرونيمو، المسيني، أنت تعرفين لحمي، لا تخافي، أنا خيرونيمو وسأكونه إلى الأبد إن كنتِ تسمحين لي بذلك. حاولتُ تقبيلها لكنّها أبعدتْ عنّي فمها، أيتها الأم بنيتا، تفهمين، أبقتْ على شفتيّ بعيدتين عن وجهها وكأنها شفتان نجستان. على الرغم من كلّ شيء أنا لم أكن خيرونيمو. فقط سكسي الكبير كان خيرونيمو. لقد تعرّفتْ عليه. لذلك سمحتْ لي برفع ثوبها، فتحتْ ساقيها، وعرضتْ عليّ سكسها، مبقية على وجهي وجسمي بعيدين عنها لكي لا يستطيع شيء يخصّني أن يمسّها باستثناء عضوي، الذي كان خيرونيمو، لكي لا تستمتع يداي بجمالها، لكي يدوم حنين الخادم الذي كان يخدمها ومع ذلك كانت تردد خيرونيمو، خيرونيمو، وأولجَ خيرونيمو فيها، أيتها الأم بنيتا، تاركاً أومبرتو في الخارج، أخرسُ منذ تلك اللحظة لأنّها لم تشأ أن تسمع صوتي وهو يطالبها بالتعرّف عليّ. أجبريها، بيتا، كي تدعني على الأقل ألمس يدها، أنت لديكِ القدرة على إجبارها. لكنّها لم تسمح لي حتّى بذلك لأنّ يديها كانتا مشغولتين بإبعاد كلّ ما يعود إليّ عنها باستثناء سكسي. أنا، هذا القشر الذي هو أومبرتو بينيالوثا، لم أكن أنفعها في شيء. لذلك جئتُ لأحتفظ بها في هذا البيت المليء بالقذارات، بالعجائز وبالكراكيب وبالأشياء الدنيئة النجسة.

***

أناروا أضوية الممرّ. الكلاب الأربعة السود ترقص، تقفز، تنبح حول خيرونيمو دي آثكويتيّا بينما يأمر بأن تُعدّ السيارة لتكون جاهزة الساعة السابعة صباحاً لأنّ عليه أن يعود في تلك الساعة إلى العاصمة. والآن إلى الفراش. تحاول كلابه أن تتودد إليه لعقاً مسترعية انتباهه ومستجدية مداعباته.

- انصرفوا، أنا متعب.

تقوده إينيس إلى غرفة نومه. ليس به رغبة في الردّ ولا في التعليق. ما كان يريد غير النوم، فالوقت متأخر، وهو متعب، متعب، ما أكثر الهمّ، وما أكثر ما عليه فعله وليس عندي غير ساعات قليلة للنوم، الضمادات تضايقني، انزعيها عنّي، إينيس، من فضلك، نعم، كلّها، لا، كيف تظنين أنّ ذراعي ستؤلمني بعد أن أخبركَ أومبرتو بلا شك بأنّ الجرحَ ليس جرحي بل جرحَه هو، عليكِ أن تغسلي لي دم أومبرتو بماء دافئ، ليس ثمّة إحساسٌ أسوأ من الإحساس بالدم اليابس، ولا سيّما إذا كان لشخص آخر، إسفنجة، صابون لكي تزول كلّ هذه الوساخة التي تلطخني، وإن لم يكن دماً غريباً، إينيس، لقد اشتريته لكي يقدّم لي هذه الخدمات، أنا أدفع لأومبرتو، الرجل الطيب أومبرتو، الخدوم، الذي يمكن الاعتماد عليه في كلّ شيء، سأقدم له هدية جيدة، ما الذي تعتقدين أنّه يحتاج إليه، أرى أنّ عباءة وقبعة ستعجبانه لأنّه يتفاخر بين أصدقائه في المقاصف بأنه كاتب، هو ذكي، وثقافته ممتازة، وهو الذي لم يسافر، وإحساس رائع، وأنت ترين كم هو جميل أن تتحدث في مناسبات كثيرة عن أمور لا تفهمينها. الآن اغسلي دمه عن ذراعي. فما عاد ذا فائدة لي. فقد عرضته، وانتهى دوره، وما عاد أكثر من قشرة غير ذات نفع تزيلينها عن ذراعي بالماء الفاتر والصابون المعطّر لكي تضمديني غداً، قبل ساعة الرحيل، بضمادات نظيفة تطيلُ في عمر الخدعة. تصبحين على

خير، إينيس. عليّ أن أنام لأنّ غداً سيكون يوم عمل متعب على الرغم من الانتصار.

يرقد كلّ منهما في سريره. يطفئان النور. تمر دقائق قليلة أو كثيرة، خيرونيمو لا يعرف كم دقيقة مرّت لأنّ الليل ينبسط وينقبض وهو يغلق عينيه ويفتحهما غير عارف إن كان استطاع النوم أم لا ولا في أيّ جزء من الليل يعاود الاستيقاظ مع صرخات طيور الزقزاق التي تطير باتجاه البحيرة. يستمع بانتباه: سعة أراضيه تتشكل في الليل حيث يحصي القمرُ برودة الأشياء التي يمتلكها، يعود سربُ الطيور، نفسه، أو غيره، حصان يخبّ وعلى صهوته فارس مجهول متجه نحو مصير مجهول، نباح الكلاب، قريبٌ في بعضه قصيّ في بعضه، يؤشّر اتساع الحقل في الليل، نباح يأتي من الحظائر، أمّا الآخر، الصادر من الغرب، فلا بدّ أنّه نباح كلب رئيس الخدم، ونباح آخر قريب، هنا في هذا المكان، عند أسفل الشباك بين اللبلاب، ما أقرب صوت الجسم الذي يتحرك بين الأوراق، فكأنّ العواء يخرج من داخل غرفة نومي، فكأنّ إينيس هي من يعوي، هي الآن لا تعوي، إنّها تئن وحسب، لا تكفّ عن الأنين عند أسفل شباكي وهي تطلق عواءً حادّاً يشقّ صدر الليل، نحيب خفيف يتصاعد من جديد لينتهي في عواء يقضّ مضجعي، آخر، وآخر ممطوط كالقوس يبلغ القمر. لماذا، لماذا اليوم بالذات، حين يلزم أن أرتاح، لماذا؟ لماذا هذه الحاجة غير المفهومة من طرف كلاب الحقل إلى النباح على القمر؟ لماذا تعوي هذه الكلبة على القمر هذه الليلة بالذات، وتحت شباكي بالذات؟ ينهض خيرونيمو. يهمّ بالذهاب إلى الشباك لطردها.

– اتركها.

إنّها الكلمة الأولى التي تنطق بها إينيس من ساعات كثيرة. هل تعرف لماذا تعوي هذه الكلبة في الليل، ماذا تريد أن تقول للقمر، ما الرسالة التي

تحملها إليه، أيّة أشياء تخفي تلك الظلمة الفضيّة في الخارج حيث تنمو الأشياء وتتضاعف وتتصرّف بعيداً عن سلطته؟ يجبُ أن تكفّ الكلبة فلا تعاود العواء. هو دون خيرونيمو دي آثكويتيّا، وعليه أن ينام للذهاب غداً إلى العاصمة للإدلاء بتصريحات مهمة. تعاود الكلبة العواء.

- هذه الكلبة لا تدعني أنام.

تظلّ إينيس ساكتة.

- لماذا تتحرك تلك الكلبة الصفراء في الحديقة؟

ينهض: ينتظر أن تردّ إينيس على سؤاله.

- سأطردها...

- لا.

يسقط خيرونيمو من جديد على سريره. الكلبة الصفراء تركض بحرية بين شجيرات الحديقة، تحاور القمر، تئن، تعاود الهرب والاقتراب والوقوف أسفل شباكه للعواء بطريقة لا تطاق. ينهار سكونٌ ليس هو من السكون بشيء، لأنّ العناكب والأرضة والخنافس ترسم في تلك الأحراج وبين تلك الأشجار التي هي ملكه، خطوط حياتها: تجرّ قطعة من ورقة، تعبر حاجزاً عملاقاً من غصين ساقط، تحفر ثقوباً مغطاة بلعاب أبيض، وفي دقائق تتضاعف إلى آلاف الأجيال التي تحفر أنفاقاً وممرات في جذع أو تنشر بقعة الوباء الصدئة في ظهر الورقة، أسمع كلّ هذا في السكون، أنا قادر على الإحساس بكلّ ذلك إلى أن تعود الكلبة الصفراء، اللصة الهزيلة، إلى الوقوف تحت شباك لإطلاق عواء آخر على القمر. ينتعل خيرونيمو خفّيه. تعود إينيس لتقول:

- لا

- عليّ أن أطردها.

وحين ربط بقوة حزام ردائه أدرك ما عليه فعله:

- سأقتلها.

- لا

- هل الكلبة الصفراء كلبتكِ؟

- لا

- إذن؟

تمسكُ به إينيس تريد منعه من الخروج من غرفة النوم، لكنّ خيرونيمو يدفعها ويخرج. يتوقف في الممر ليصفر لكلابه الأربعة السود... طبعاً، لهذا ظلت الكلبة بمنأى من العقاب، لأنّ كلابه الكريمة الأربعة محبوسة في الباحة غافية تحت أشجار البرتقال. جاءته لترقص حوله.

- اهدؤوا... اهدؤوا... هيا بنا...

تمتثل الكلاب السود لأمره. تسير خلفه كظلّه، قوائمها ساكنة، أنيابها مغطّاة. شجرة الواك القويّة هذه. وأبعد منها المرج. سور أشجار الغار ثمّ فسحة الحصى: هناك تقبع الكلبة تعوي تحت الشباك وهي لا تعلم أنّه ليس في داخل غرفة نومه بل بين أشجار الغار، مستعداً لمعاقبتها.

حين مدّت عنقها وجّهتْ خطمها المدبب إلى مركز السماء عند فراغها من العواء، جزءٌ من استقلالية الأشياء التي تنمو وتخشخش وتزحف وتتكاثر. مرهقة هي ثرثرة الهوام التي لا اسم لها. إلى أن تبدأ عدوّة كلابه الأربعة عواءً آخر، رقيقاً مبكياً في البداية، ثمّ يتحوّل إلى خطاب غير مفهوم إن لم يبادر هو إلى قطعه. أشار خيرونيمو إلى الكلبة. فرقع أصابعه فانطلقت كلابه، كانت تكفي لحظة واحدة، وامتزج اللعاب بالقوائم بالدماء بالتراب، دقيقة، لا أكثر، قتلت فيها كلابي الأربعة السود كأخيلة الذئاب الكلبة لكي تقطع حوارها مع النجم المتواطئ.

***

في اليوم التالي انطلق دون خيرونيمو إلى العاصمة وأنا معه. لم يسمح لي الوقت بالتجوال بالحديقة بحثاً عن البقايا التي تؤكد كلّ شيء: عليّ أن أعترف بأني لم أفكّر حتّى في أن أفعل شيئاً كهذا، فقد كنتُ آنذاك على ثقة تامة من الحقيقة الوحيدة المفردة.

ولكن بعد أشهر، حين أُعلن عن حمل إينيس دي آثكويتيّا المجيد وعدنا للاستراحة هنا في رينكونادا، شعرتُ بالرغبة في سؤال البستانيين، الذين لا بدّ أنّهم نظفوا فسحة الحصى المحاطة بأشجار الغار. لم يتذكّر أحدٌ منهم البقايا ولا آثار العراك والدم، لا شيء، لأنّ من البديهي أنّ جثة كلبة ضالّة، مسكونة بالجوع والثآليل، مسألة لا تسترعي اهتمام أحقر مساعدي البستاني انتباهاً ولا تعلق بذاكرة أحد، لا أدري، سيدي، ربّما حدث ذلك لكنّي لا أتذكر، وكيف لنا أن نتذكر إن كانت صفراء أم لا، وإن كنّا عثرنا عليها مقطعة الأوصال وميتة، إن لم نكن نذكر حتّى أننا عثرنا على جثة كلبة ومن ثلاثة أشهر كما تقول حضرتك، سيدي، لن يذكر كائن من كان أشياء كهذه، فما أكثر القاذورات التي تجتمع في هذه الحديقة الكبيرة.

وماذا لو أن الكلبة لم تمت؟ ولو أن إينيس في الحقيقة لم تذهب إلى الموعد وأنّ الكلبة كانت تغطّي على غيابها؟ راح بوي ينمو في بطنها. لم يبق أيّ دليل على أنّ خيرونيمو غاب تلك الليلة عن غرفة نومه لكي تأتي إينيس للقائي، مستفيدة من حجة الغياب الدامية التي ضحّت فيها بمربيتها. ربّما لم تمت الكلبة الصفراء كما أكدتْ ميرثيدس باروسو في روايتها للحكاية، ربّما أفلتتْ وهي تحوم قريباً منّا، قد تكون هي من طاردني متخفياً في شخصية عجوز أخرى واضطرني إلى القدوم إلى هنا ولم يدعني أخرج، تكفيراً عمّا يجب التكفير عنه وإخفاءً لما يجب إخفاؤه. ألا تلاحظين، أيتها الأم بنيتا، أنّ من المحتمل جدّاً أن تكون إينيس وخيرونيمو قد تضاجعا تلك

الليلة في غرفة نومهما ليهدآ بعد يوم العمل، بينما كان المهم يقع في مستويات أخرى؟

العجائز من مثل بيتا بونثي يمتلكن القدرة على طي الوقت وخلطه، ضربه وقسمته، تتكسّر الأحداث في أيديهن الموبوءة بالثآليل كما يتكسر الضوء في الموشور الأكثر بريقاً، يقطعن الحدث المتواصل في قطع يرتبنها بشكل متواز، يحنين تلك القطع ويدورنها بما يخدمهنّ لكي تتحقق أغراضهنّ. المهم هو أن تهب إينيس خيرونيمو غلاماً. كان مستعجلاً أن تهبه إياه للحيلولة دون أن ينهار كلّ شيء. إنّها اللحظة الجنونية التي ينفد فيها الوقت تماماً قبل وقوع الكارثة، الكارثة التي لن يفلح في منع وقوعها إلا الفعل السريع: التضحية بكائن من يكون، وبأيّة طريقة، لأنّ الأشياء لا يمكن أن تمضي هكذا - من أين سيأتين بخيط أرفع، ولا خشب ولا ورقَ أرقّ-، إذلال وجرح، استبدال وسرقة، الانتقام ممزوج بالحب والسعادة، الخجل بالمجد والحقد والمتعة. أنّى لنا أن نعرف أنّ بيتا بونثي هي من رتبت الأحداث في تلك الليلة، وكيف، وماذا رتّبت؟ ربما لم تمت الكلبة الصفراء. ربما لم تمسّ أيّة قطعة من لحمي أيّة قطعة من لحم إينيس، ولكن...

غير معقول، غير معقول، أيتها الأم بنيتا، كان سيحدث، كان غليل شوقي وشوق أبي سيشفى لأنّ شراهتي كانت ستبلغ الهدف الوحيد القادر على إطفاء ظمأ جميع آل بينيالوثا في أن نكفّ أخيراً عن أن نكون مجرد شهود على الجمال لنتحوّل إلى مشاركين فيه. تقدّمتْ منطلقة من الظلام. أمسكتُ بها وحملتُها إلى السرير واستحوذتُ عليها كما قلتُ لك. أظنّ أنني سمعتُ، من خلف الصمت الذي كان يعزلنا، عواء الضحيّة ورأيت التراب الذي أثارته الكلاب السود وهي تمزقتها. مع ذلك كان الصمتُ في الغرفة من العمق أنني أشكّ في أنني سمعتُ شيئاً سوى لهاث رفيقتي على الفراش. لم أسمع أنّات الكلبة لأنّ إينيس

وخيرونيمو كانا في غرفة نومهما يتضاجعان معزولين بصمت آخر مختلف عن ذاك الذي كان يعزلنا، ولكن كان يعزل من، من، أيتها الأم بنيتا، في تلك الظلمة كان في إمكاني ألا أمنح حبّي لاينيس بل لأخرى، لبيتا، بيتا بونثي، التي حلّت محلّ إينيس لأنها الشريكة التي تناسبني، بيتا، المتهالكة العجوز التالفة القذرة، عضوي الكبير دخل فيها، تلذذ بلحمها المتعفّن، تأوّهتُ من اللذة، على الرغم من قرب يديها الموبوءة بالثآليل وعينيها التي عكرها القذى، وأنا أستجدي القبلة من فمها الذي شققته التجاعيد، نعم، في عتمة تلك الليلة فقط رأت عينا الشحرور أنّ ما التهم سكسي الرائع الجديد كان سكس العجوز، المدوّد من اقتراب الموت، وأنّ ذلك اللحم التالف تلقاني.

في لحظة هزّة الجماع صرخت هي:

- خيرونيمو.

وصرختُ أنا:

- إينيس.

بقينا أنا وبيتا محرومين من المتعة. هي وأنا، الشريكان المظلمان، حبلنا بالطفل الذي كان الشريكان المضيئان عاجزين عن حمله. العجوز خططت لذلك كلّه: الجرح في الذراع، عيون الشهود وهي تنظر إلينا في الحديقة، عواء الكلبة، تواطؤ القمر، ظلمة هذه الغرفة وأخرى، حتّى الوحدة في غرفتي، فأحياناً يراودني أمل بأن تكون بيتا قد تلاعبت بحلمي أيضاً، وأغامر بالظنّ بأنّ كلّ شيء كان حلماً اكتسب فاعلية الواقع حين تولّت بيتا تدبيره. كان مجرد الحلم به كافياً لكي تحبل إينيس، وليس لأنّي ضاجعتُ بيتا في الوقت نفسه الذي تضاجعا فيه على هذا السرير ذي الشراشف الوسخة وعلى هذه المرتبة الموبوءة بالعث، وفوق هذا السرير الحديدي الذي يصرّ مُخفياً العلب

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد ٢١٥

الصغيرة الغامضة التي كنّا، نحن العجائز، نخفيها تحت الأسرّة. لم يعثر البستانيون على جثة الكلبة وغزا رعبُ الكابوس أرَقي. تواصل الضحيّة الطواف حولي. ما كنتُ لأستطيع أن أشكّل زوجاً مع إينيس حتّى لو كنتُ خيرونيمو. مصيري، كما هو مصير بيتا، هو البقاء خارج اعتراف الحب وإن لم يكن خارج الفعل الآلي للحب: حين سقطتْ إينيس بين ذراعي خيرونيمو المتعبتين، بعثنا نحن فيهما الروح، لأنّ نظراتنا المتألمة بحثتْ في ظلمة غرفة الشريكين الغريبة، ورأتْ وجهيهما في وجهينا اللذين شوههما الحنين، وهما ينفذان من على الشراشف القذرة مهمتنا.

الرعب، أيّتها الأم بنيتا، هو الرعب من الأشياء التي تنسى بسرعة. توجد، كما تعلمين حضرتك، الآلاف من الذرائع، ولا يمكن العيش دائماً على حافة الرعب لذلك تقرئين «أبانا الذي في السموات» والصلاة الملائكية، نعم، فللهروب من الخوف ضحيت بحياتكَ بدفنها في عقم هذا البيت. حين تأكد في النهاية حملُ إينيس، تمكنتُ من نسيان خوفي طوال وقت: بقيتُ مذهولاً حين أدركتُ أنّ دون خيرونيمو سرقني خصوبتي، لكنّي في المقابل سلبته قدرته. يبدو أنّ عضوه المتلذذ استنفذ طاقته، تحوّل إلى زائدة مخجلة، بينما نما سكسي، أحمر كالجمرة. ولا بدّ أنّ شيئاً مشابهاً وقع لبيتا: لأنّ بقايا الكلبة الضحيّة كنست من الحديقة ولم يبق لها أثر حتى في ذاكرة مساعدي بستانيي الحديقة، لقد ولدتْ بيتا بونثي من جديد. بدا للجميع بديهياً أن ما أعطاه طاقة جديدة كان فرحته وهو يرى أخيراً أن طفلته ستلد ابناً. لكن لا. لم يكن الأمر هو ذاك. كنتُ أدرك يقيناً يوماً بعد يوم، بتطلعي إلى غمزات عيني العجوز الدبقتين وتقلصات فمها، أن تلك العجوز المقرفة كانت تطاردني أنا، وأن عضوي، في ظلمة غرفتها تلك الليلة، أيقظ في جسدها اليابس الشهوة الجنسية

التي سرقتها في تلك اللحظة من إينيس وسلّمتها، في المقابل، متعة أن تكون أماً لولد خيرونيمو. هذه المتعة ألغت كلّ رغبة في إينيس، لكنّها أشعلتْ مشاعر العجوز التي تضايقني بلا هوادة لتكرر بشبقية متجددة فعل تلك الليلة، وأنا لا أريد، أيتها الأم بنيتا، أرفضُ، وما زلت أرفضُ، أنا أريدُ إينيس جميلة، بضّة البشرة، حيّة النهدين، بالخطوط التي ما زالت يداي تحلمان بها، وبالشعر العميق، والإبطين والقفا والعانة اللذيذة. لا، بيتا. لا تتبعيني. عضوي الحريص على الجمال بدأ يتعفّن من الاتصال بلحمك المدوّد، لا تبحثي عنّي أكثر، موتي وإلى الأبد، لا تركني إلى ثقتك بأنّي شريكك لكوني منبوذاً بائساً، الخوف من اضطهادكِ هو الذي جعلني ألجأ إلى هنا، ما عدتُ مُلكاً لها، أيتها الأم بنيتا، وإن كان من الأفضل أن أقول لها إنني أنتمي إليها، إنني أنتمي إليها لكي تتركني هكذا في أمان على الأقل لحين ولادة بوي، لقد وعدتكِ إينيس بأنّك ستكونين القابلة حين ولادة الطفل على الرغم من أنّك لن تكوني القابلة لأنّ دون خيرونيمو قال لي دعها تظنّ ذلك، أومبرتو، لماذا تناقضها، كيف يخطرُ ببالكَ أنني سأسمحُ أن تحضر طبيبة جاهلة مخاضَ إينيس وتقف على ولادة بوي، ولكن لتظنّ الاثنتان، كي تطمئنّا، أنني سأفي بوعدي بينما سأتعاقد مع أفضل المختصين. سأتخلص منها لاحقاً. فليست هي إلا لعبة، دمية من خرق للإبقاء على إينيس فرحانة. وفي هذه الأثناء عليهما أن تخيطا وتطرزا وتحيكا، سنلقي بتلك الخرق إلى الزبالة لاحقاً، لا تقلِ لهما شيئاً، أومبرتو، معكَ أستطيع أن أتكلّم عن هذه الأشياء وعن كلّ الأشياء، هذا الخوف الذي أشعر به من مضاجعة إينيس وهي حبلى بابني يجعلني غيرَ مرتاح، أومبرتو، أنا رجل متأججٌ ولا أستطيع أن أمسك نفسي طويلاً، رافقني، تعال معي، فبما أنني لا أستطيع أن ألمس إينيس لأنّها أيضاً لا تريد أن يمسّها أحد، فأنا أحتاج إلى أن أستعمل قدرتي مع نسوة أخريات، ابحثْ لي عن

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

نساء، لنذهب إلى بيت للدعارة لأني لا أريد أن أتورط مع أيّة امرأة، أريدُ فقط نساءً من دون وجه، ابحثْ لي عن بيت دعارة منزوٍ فأنت عارف بخبايا هذه المدينة، ادفع ما تطلبه القوادة لكي تحضّر لي نساءً شابات، ولتغلق البيت أمام الجمهور، ولتدعنا ندخل وحدنا أنا وأنتَ، رتّب الأمر لي أنتَ لأنّك طالما رتّبت لي الأمور ترتيباً جيداً، تعال، رافقني إلى حيث السيدة فلورا التي هيّأت لي أجساداً شابة، انظر كيف أعرّي هذه المرأة التي اسمها روزا من ملابسها، أنزعُ عنها تنورتها الداخلية، أخدشُها لتشعر بمداعباتي، هذه اسمها أورتنسيا، لها نهدان كبيران ألعب بهما، لا، لا تخرجْ من الغرفة، أومبرتو، انظر كيف أتعرّى أنا أيضاً وكأنني أسلخُ جلد نفسي، ابقَ حيثُ أنت كي ترى قدرتي على المضاجعة، أريد أن يصيبكَ الذهول وأنت ترى ذكوريتي التي لا تمتلكها أنتَ، ومعرفتي بهذه الفنون التي تجهلها أنتَ، أريد أن تتأكد بنظرتكَ الحاسدة من قدرتي على هدّ المقاومة المصطنعة التي تبديها فيوليتا، أعرني حسدكَ لكي أكون قويّاً، انظر إلى جسدينا المتشابكين، فكّ رموز كلماتنا الملوثة بالقبلات، رائحة خلوتنا، المسنا بيدكَ لكي يعاني جلدكَ، لأني كاملٌ وإن لم أكن كاملاً تماماً حين أكون بمفردي مع إينيس، وأنتّ تعرف ذلك، أومبرتو، أعرف أنّ الخوف من إلحاق الأذى بالطفل الذي تحمله هي في أحشائها ما هو إلا حكاية من حكايات العجائز، لكنّه العذر الذي أحتجّ به كي لا أكشف عن عجزي منذ تلك الليلة التي أنسلتُ فيها بوي، أنتَ مالكُ قدرتي، أومبرتو، لقد أخذتَها منّي كما أخذتُ أنا جرحك في الذراع، لا تستطيع تركي أبداً، أحتاجُ إلى نظرتكَ الحاسدة إلى جانبي لكي أحتفظ برجولتي، وإلا، سيظلّ هذا رخواً مترهلاً بين الساقين، فاتراً بالكاد، انظرْ إليّ، وأنا كنتُ أنظرُ إليه، أيتها الأم بنيتا، كنتُ أنظر إليه، بلا كلل متألماً، بحسد، ولكنّي كنتُ أنظر إليه بشيء آخر: باحتقار، أيتها الأم بنيتا.

ليكن ذلك في علمك. فهو حين يضاجع فيوليتا أو روزا أو أورتينسيا أو ليلا بمباركة من نظرتي، فإنّ هذا لا يعني أنني أشجّعه وأستحوذ عن طريقه على المرأة التي يستحوذها وحسب، بل يعني أنّ قدرتي كانت تلج فيه أيضاً، أنا كنتُ أولج في الذكر الفحل، كنتُ ألوط به، فأجبره على العواء تلذذاً من عناق نظرتي، وإن ظنّ هو أنّ متعته كانت أخرى، أعاقبُ مخدومي بأن أجعل منه مهاناً، كان احتقاري ينمو ويشوهه، ما عاد دون خيرونيمو يقدر على ألا تلوط به نظرتي التي صارت تحطّ من قدره إلى أن لم يعد يرضيه غير إيلاجي، افعلْ ما بدا لك، أومبرتو، ما تشاء، المهم ألا تبتعد عني. في الليل، وحيداً في سرير العقاب، لأنّ أسرّة الشهود وحيدة دائماً، بدأتُ أسمعُ بيتا تتجوّل خارج حجرتي، تسعل أو تتنحنح، خطوات واهنة كخطوات عجائز هذا البيت، كنتُ أراها ترصدني من وراء شجرة أو باب، من شباك مفتوح على النصف بانتظار لحظة قبولي، لكنّي لن أقبل، لا أريد أن أكررَ المشهد، لم يكن لذلك المشهد من وجود، كان كابوساً لإنجاب المسوخ وهو كذلك إلى الآن، لأنّ بيتا تطوف بهذا البيت، لا أفهم كيف خمّنتْ أنني موجود هنا، ربّما أخبرتها داميانا بذلك لكنّي لا أعرف إن كانت تعرف داميانا وداميانا لا تعرف من أكون، بالطبع كانت داميانا مشهورة بتسكعها في الشوارع ويقال إنّ الشوارع تعلّم أشياء كثيرة، تهامس العاملات على النواصي وهنّ يحملن أكياس الخبز أو الخضار أو وهن ينتظرنَ دورهنّ في المكاتب بينما الصوت ينتقل من ناصية إلى أخرى، من الطبيعي ألا تعرفني بيتا بونثي الآن، بعد أن غيّر الدكتور آثولا وجهي بعملياته، وإن لم يغيّر نظرتي، ذلك لم يغيره لي، لم يسرق منّي عيني المتألمتين، أحتفظُ بهما، دون خيرونيمو لا يستطيع أن يجعل الدكتور آثولا يسلبني إياهما لأنهما عيناي، لأنّهما الشيء الوحيد الذي يعود لي.

ولكن ما أهميّة ذلك إن كان بوي سيولد؟ كان كلّ شيء جاهزاً. كان

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد ٢١٥

خيرونيمو قد أفلح أخيراً في إخراج إينيس من الرصيعة الثابتة للسعادة الزوجيّة الكاملة: قادها بيده الملاطفة لتناول المواقف المقدرة في الرصيعة التالية، التي سيظهران فيها أبوين والدين. في تلك الأثناء كنا أنا وبيتا، الكائنان الخرافيان، المسخان القبيحان، نؤدي مهمتنا في رفع تلك الرصيعة الجديدة بتناسب من الخارج، مثل زوجين من حيوانات الشعارات الفخمة.

حين حرّك خيرونيمو دي آثكويتيّا ستارة المهد ليتأمّل ولده الذي طالما انتظره، أراد قتله في عين المكان: ذلك الجسد المقرف المعرّش الملتفّ على حدبته، ذلك الوجه المفتوح في أخدود قاس حيث الشفتان والحنك والأنف تعرّي بذاءة العظام والأنسجة في فوضى من ملامح حمر... كان الارتباك، الفوضى، كان شكلاً مختلفاً من الموت لكنّه أسوأ من الموت.

١٤

أمر دون خيرونيمو دي آثكويتيّا بأن تُخلى بيوتُ رينكونادا من كل أثاث وفرش وكتب ولوحات تشير إلى العالم الخارجي: ألا يُحدثَ شيء في ولده حنيناً إلى ما لن يعرفهُ أبداً. أمر أيضاً بسدّ الأبواب والشبابيك التي تؤدي إلى الخارج، باستثناء بابٍ احتفظ هو بمفتاحه. لقد تحوّل البيتُ إلى قشر خاوٍ ومختوم مؤلّف من سلسلة من الحجرات المهجورة، ومن الممرات والمعابر، إلى يمبوس ذي أسوار مفتوحة على داخل الباحات التي أمرَ بأن تقلع منها أشجارُ البرتقال العتيقة ذات الثمار الذهبيّة والنبات الجهنّمي وزهور الورطنسيا الزرق وصفوف الزنبق، لتحلّ محلّها شجيرات مقلّمة في أشكال هندسية دقيقة تخفي وفرته الطبيعية. أمر بهدم المباني المكدسة حول القاطع العالي المقام: أمر بأن يدمّروا تلك المتاهة القذرة من الطوب والدهاليز والممرات والباحات والأقبية، كان من الضروري تفكيك تلك الأنسجة والأربطة الطينية، حلّ أمراسها التي نمت مع السنوات، لتحدد بوضوح الباحات الأربع المخصصة لابنه ولتهينها. أمر ببناء سرادقات متناثرة في الحديقة التي لن يعرفها الطفل لتكون سكناً للخدم. أمر بقطع جميع الأشجار التي يمكن رؤية كؤوسها من داخل البيت. وأمر بغلق الباحة الأخيرة، باحة البركة، بسور منيع، وبنى في صدر تلك البركة المستطيلة تمثال الرامية الصيّادة من حجر رمادي نقش حسب المواصفات التي طلبها:

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

حدباء، نامية العظام، ساقان معوجتان، تحمل جعبة سهامها على حدبتها والهلال على جبهتها المجعّدة. زيّن بقية الباحات بمسوخ أخرى حجريّة: صوّر أبولو عارياً على شاكلة جسم بوي المحدودب وتقاسيمه حين يصبح مراهقاً، الأنف أنف وحش والفك فكه، الأذنان متنافرتان، الشفتان أرنبيتان، الذراعان مشوهتان والسكس العظيم المعلّق الذي انتزع وهو في المهد صيحات الإعجاب من الممرضات. لا بدّ للطفل حين يكبر من أن يجد كماله في كمال أبولو ذاك، وغرائزه الجنسيّة، حين يفتح عينيه، في صورة الرامية الصيّادة أو في فينوس مجدّرة أو في مؤخرة عظيمة عبث بها السيلوليت، راحت تؤدي لعبة الإغراء في مغارة لبلاب.

راعى دون خيرونيمو كلّ هذه التفاصيل، فلا شيء مما سيحيط بالطفل بوي سيكون قبيحاً، لا شيء منحطاً، لا شيء حقيراً. فالقبح شيء والمساخة شيء آخر مختلف تماماً تكاد توازي في أثرها الجمال، معكوساً، لذلك فهي أيضاً تستحقّ امتيازات شبيهة. ستكون المساخة الشيء الوحيد الذي سيطرحه دون خيرونيمو على ولده منذ ولادته.

أرسل سكرتيره لكي يطوف مدناً وضياعاً وحقولاً وموانئ ومناجم بحثاً عن أناس جديرين بالسكن في عالم بوي. كان من الصعب العثور عليهم في البداية، لأنّ المسوخ يميلون إلى الاختباء، عازلين خجلهم من مصائرهم في مخابئ بائسة. لكنّ أومبرتو بينيالوثا سرعان ما أصبح خبيراً في المسوخ. في أحد أديرة المحافظة، مثلاً، اكتشفَ راهباً ضعيف الايمان، لكنّه ذكيّ، شوّهته حدبة عظيمة. ذهب للقائه مرة بعد مرّة، وأغراه برواتب عالية وبحياة تمنحه المحيط الذي يختاره هو، ضمن عالم لا يكون فيه التشوّه استثناء بل قاعدة: هرب الأخ ماتيو من الدير حيث كسا هوله طوال سنوات برداء التقوى. في بيوت الدعارة، في المهرجانات، في حلقات السيرك المقامة في الأحياء الفقيرة، جنّد

أومبرتو أقزاماً من كلّ نوع وصنف، رؤوساً عظيمة، وجوهاً مجعّدة كالدمى الهرمة، سيقاناً مبتورة، بخلاء، متعجرفين، أذكياء، أصواتاً مرتفعة. اكتشف الآنسة دولي، «أسمن امرأة في العالم» ذات الشهرة الواسعة والبدانة المميّزة والمشي الهزّاز، الأنثى التي تستعرض وهي ترتدي بكيني من الدانتيل وترقص فوق نشارة حلبة السيرك، شريكة لاري، زوجها، المهرّج ذي الذراعين والساقين الطويلتين والرأس الصغير الذي يقبع كرأس الدبّوس على طارف عنقه الهزيل.

في الليل، حين كان المسوخ يخرجون من جحورهم، ليطوفوا في الحدائق وفي الأراضي المهجورة عند أطراف المدينة، كان أومبرتو بينيالوثا يترصد لمخلوقات مشوّهة بعينها، لم يفلحِ العزلُ في إفساد ذكائها، ليتعاقد معها لخدمة بوي. عثر على بيرتا، مثلاً، التي شُلّ نصف جسمها الأسفل فراحت تجره جرّاً مثل ذيل البرص بدفع من يديها وذراعيها الضامرتين: شخصية معروفة في المقاعد الرخيصة من دور السينما في الحيّ، تلتهم بعينيها الذكيتين الحكمة من فيلم بعد فيلم وهي مستلقية على المصاطب الخشبية. وميلشور، الذي يقرأ الصحف والمجلات القديمة في كهف الزبالة الذي اتخذه سكناً، كانت بقعة حمراء واحدة تمحو بتخثراتها ملامحه. صار من دواعي فخر أومبرتو أن يقدّم لخيرونيمو نماذج أغرب فأغرب، مخلوقات نادرة لها أنوف وفكوك ملتوية، أسنان مصفرّة تنبت عشوائياً لتملأ الأفواه، عماليق عظام، مهقاوات شفافات كالأرواحِ، صبايا لهنّ أطراف البطريق وآذان من أجنحة الخفاش، شخصيّات تتخطّى عيوبُهن عتبة القبح لتصعد بهنّ إلى درجة المسخ الرفيعة.

وعلى الرغم من حالة العزلة التي يعيشها المسوخ، سرعان ما انتشر بينهم أنّ سيداً ما بلغت به غرابة الأطوار أن عرض مبالغ كبيرة لقاء خدماتهم. وهكذا لم يحتج أومبرتو بينيالوثا، بعد وقت،

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

إلى الولوج في ليل المدينة لإخراج المسوخ من جحورهم، فقد بدأ هؤلاء، ومن دون دعوة من أحد، بالتردد على بيت دون خيرونيمو، ليتزاحموا في الشارع رافعين أصواتهم في الشارع مطالبين بمنحهم إذناً في إجراء مقابلة، وهكذا ارتفع سعر ما كان حتّى ذلك الوقت مصدر حزن وابتلاء، وصاروا يستجدون عملاً، مكاناً، وظيفة، أيّ مكان يعرضه السيّد عليهم في ذلك العالم الخالي من الإهانات. تلقّى دون خيرونيمو رسائل، برقيات، تقارير، أوصافاً مفصّلة، صوراً. ذهب مسوخ من كلّ ناحية، نزلوا من الجبال وخرجوا من الغابات وصعدوا من الأقبية، بل قدموا أحياناً من مناطق بعيدة، حتّى من الخارج ليتوسلوا بأن يسمح لهم أيضاً بالدخول إلى تلك الجنّة التي كان دون خيرونيمو دي آثكويتيّا يصنعها.

في المكتب القريب من مكتبة دون خيرونيمو كان أومبرتو بينيلوثا يقابل الحشود، راضياً عن تنوّع المعروض. ما كان يسمح بالمرور إلى المكتبة لغير النماذج الأغرب: وفي المكتبة كان دون خيرونيمو يطلب منهم، بعد اختبارهم والحديث معهم، التوقيع على عقد أو كان يرفضهم. كان المرفوضون، في الواقع، قليلين. فالمسألة في النهاية ليست مسألة إحاطة بوي مباشرة بمسوخ يعون ما يفعلون، بل بتوفير عالم من المسوخ الثانويين يحيط بمسوخ الدرجة الأولى ويخدمهم: خبازون ولبّانون ونجارون وسمكريون وبقّالون وعمال من كلّ صنف، وصولاً إلى إزاحة عالم ما هو طبيعي بعيداً قبل إخفائه نهائياً.

في مواجهة تلك «النخبة» من مسوخ الدرجة الأولى، التي ستربّي بوي وتعتني به، كان على خيرونيمو أن ينجز عملاً دقيقاً يتمثل في إقناعهم بأنّ الكائن غير الطبيعي، المسخ، لا يخوّل الرجالَ الحق في الاستهانة به والشفقة عليه، لأنّه لا يمثّل حالة أدنى مرتبة من الجنس

البشري: لأنّ هذا، شرح دون خيرونيمو، يمثّل ردّة فعل بدائية تخفي غموض مشاعر خفيّة مشابهة للحسد، أو لشهوة جنسية مشينة لا يمكن التصريح بها ولا تصدر إلا عن كائنات استثنائية مثلهم هم المسوخ. لأنّ ردّة الفعل لدى الإنسانية العادية لا تكون إلا إزاء الدرجات الاعتيادية التي تتراوح بين ما هو جميل وما هو قبيح، وهي في النهاية درجات من الشيء نفسه. أمّا المسخ، قال دون خيرونيمو بانفعال قصد إثارتهم بتصوفه، فينتمي إلى نوع مختلف، متميّز، له حقوق خاصّة به وقواعد خصوصيّة تستثني مفهومَي الجمال والقبح بوصفهما مراتب باهتة، لأنّ المساخة في جوهرها هي غاية كلتا الصفتين مركبتين ومتفاقمتين وصولاً إلى ما هو رفيع. الكائنات الطبيعيّة، التي يرعبها كلّ ما هو استثنائي، تحبسهم في مؤسسات أو في أقفاص السيرك، تهمشهم بالاحتقار لانتزاع قوتهم. لكنّ دون خيرونيمو دي آثكويتيّا سيعيد لهم امتيازاتهم مضاعفة مئات المرات.

لهذا الغرض- ومكافأة عن خدمة ولده، وهو مسخ أيضاً، لكنّه لن يعاني مثلهم من إهانة أن يكون مسخاً في عالم غير متفهم - كان يهيئ ضيعته في رينكونادا، التي شهدت باحاتها وطرقها المحفوفة بأشجار الحور الخريفية، في أوقات سعيدة مواتية، حبّاً كان من الكمال أنّه لم يثمر إلا عن كائن رائع مثل بوي. على الطفل أن يترعرع محبوساً في تلك الباحات الهندسية، الرمادية، من دون أن يعرف شيئاً غير خدمه، وأن يعلّم منذ اللحظة الأولى أنّه بداية ذلك العالم المخلوق له وأنّه نهايته ومركزه. ليس في مقدوره، وليس مسموحاً له أن يرى، ولأيّ سبب كان، غير هذا الرأي، ولا أن يعرف الحنين القاتل، الذي يعرفونه هم، الخدم، للملذات التي منعت عنهم لأنّهم ولدوا وعاشوا في عالم غير متناسق في نظرهم.

لكنّ المسوخ بدؤوا يتساءلون إن كان مجزياً أن يُضحّوا بأنفسهم في

توهم إزالة عالم كان وجوده هو ما جعل منهم، لسوء الحظ، ضحايا؟ وفيم ستنفعهم، إذن، الأموال التي ستعود عليهم بها رواتبهم الضخمة وهذه الثقة الجديدة في أنّهم متفوقون، إن لم يسمح لهم إلا بالدخول إلى الباحات المجردة وإلى الغرف المفرّغة حيث سينمو بوي؟ لا، لا، لا... ليكنْ في علمكم، خاطبهم دون خيرونيمو يحثّهم، ستؤول إليكم، بالإضافة إلى الرواتب، البقية الباقية من رينكونادا لتنظموا عالمكم الخاص بكم، بالمبادئ الأخلاقية والسياسة والاقتصاد والتقاليد التي تريدون، بالقيود والحريات التي ترتؤون، بالمتع والآلام التي تخطر على بالكم، إنّه يمنحهم الحرية الكاملة ليخترعوا نظاماً خاصاً بهم أو فوضى خاصة بهم، كما ابتدع هو نظاماً لولده. ولم يطلب في المقابل إلا شيئاً واحداً: ألا يتخيّل بوي وجود الألم واللذة، السعادة والمصيبة، ما تحجبه الجدران من عالمه المصطنع، وألا يسمع من بعيد همس الموسيقى.

لم يفهم الجميع مقاصد دون خيرونيمو المعقدة. فعاد بعضهم إلى مخابئهم في أراضٍ مهجورة، أو إلى كهوفهم المحفورة في شجيرات العوسج، أو إلى أديرتهم أو إلى حلبة سيركهم، مرعوبين مما فهموا أنّها مطالب. لكنّ بعضهم الآخر استمعوا ووعوا. طرحت إمبراتريث، خاصة، أسئلة كثيرة وذكية. كانت هي أول من جُنّد: قريبة دون خيرونيمو من فرع فقير معدم، لكنّها حظيت بتعليم واصلته هي من قراءة المجلات والكتب، كانت تدير ورشة لصنع الملابس الداخلية الرقيقة وتتمتع بسلطة تهابها العاملات، على الرغم من قامتها، التي تذكّر بقامة «البرغوث الصغير»، ورأسها الكبير وخطمها الذي يسيل منه اللعاب وأنيابها وفروة كلب البُلْدُغ التي تكسو بدنها. هي من سيدير بيت بوي المغلق بإحكام. إنّها المسخ الوحيد الذي يتعامل مع دون خيرونيمو معاملة الندّ، وهي الوحيدة

التي تحظى، على الرغم من رابطة القرابة البعيدة معه، بحرية الدخول عليه عبر المنافذ الخاصة، من دون المرور بمكتب السكرتير الذي يحرس بالقرب من المكتبة.

- وأومبرتو؟

- ماذا تريدين أن تعرفي عن أومبرتو؟

أشعلتْ سيجارة وعقدت ساقيها.

- أقصد، أين سيكون مكانه بيننا؟

- لقد كلّمتُكِ عن ذلك. كلّ سُلطة ستصدرُ عنه. ليس عليكِ أن تري فيه ممثلاً لِي في رينكونادا بل هو أنا مجسد فيه أعيش بينكم وأعتني ببوي. بعد الاجتماع الأخير لنا الذي سنعقده في الأسبوع القادم، لن تستطيعوا التحادث إليّ إلا عن طريق أومبرتو. وسيكون الطردُ عقوبة كلّ من يحاول الاتصال بي مباشرة.

- حتّى أنا، قريبتك؟

- دعكِ من هذه التفاهات، إمبراتريث: انسي موضوع القرابة، فما يربطنا ببعض هو جدّ ثالث وحسب. أومبرتو سيكون أنا بينكم ولن يجتمع بي إلا مرّة واحدة في العام.

تململتْ إمبراتريث بين وسائد الأريكة المخملية الرمادية. ساقاها، اللتان تحكيان ساقي دمية قبيحة تحمل عطر مستوكو، لا تمسّان حافة الأريكة إلا بالكاد.

- لم تردّ على سؤالي، خيرونيمو.

- ماذا، إذن؟

- شيء ناقشناه بيننا، أنا وبيرتا وملتشور، لأنّه يقلقنا...

- حقاً؟

- انظر، لكي تكون الأمور واضحة: أومبرتو ليس مسخاً. إنّه

كائن طبيعي، مألوف واعتيادي، قبيح وتافه جدّاً المسكين. لكنّك تقدّر أنّ وضعه بيننا سيكون غير واضح.

– لماذا؟

– لأنّ حضورَه سيذكرنا دائماً بما لسنا عليه. سينتهي الأمر بنا إلى أن نكرهه.

– قد تكونين على حق. لكنّ دور أومبرتو بينكم مهم لسببين على الأقل. أولاً لأنّ وجود كائن طبيعي وسط عالم من المسوخ سيكسبه مرتبة المسخ لأنّه «غير طبيعي»، لأنّكم ستكونون أنتم الطبيعيين. وهو سيجسد في نظر بوي تجربة ما هو مسخ.

– سبب وجيه. والسبب الآخر؟

– أومبرتو كاتب موهوب وذو قريحة لكنّه لم يحظَ بالسلام ولم تسنح له الفرصة لنشر قابلياته الإبداعية كاملة. وقد كلّفته بكتابة حوليات عالم بوي، قصة جرأتي وإقدامي حين وضعتُ ولدي خارج سياق الحياة الطبيعي.

نفثت إمبراتريث دخان سيجارتها.

– أومبرتو كاتب؟ ما كنتُ أعرف. جيد. قد يكون هذا أكثر الأمور تسلية في رينكونادا.

***

سمحت الدفعة الأولى من الرواتب المجزية التي منحها دون خيرونيمو لهم بالتخلص من كلّ مقتنياتهم السابقة، بدلاتهم المتواضعة التي تحاول إخفاء تشوهاتهم الفظيعة، أردية الرهبان وقفطانات القساوسة، أسمالهم القذرة، بدلات حلقات السيرك أو صالات المسرح أو بيوت الدعارة، لتسنّى لهم أن يقيموا في رينكونادا بملابس جديدة. جلبتْ بيرتا أربع حقائب مليئة بالأحذية: أحذية من

الجلد اللماع، أحذية من جلد السحالي، أحذية من جلد التمساح، مذهبة بكعب مدبب للسهرة، وبكعب مسطح وجلد غير لمّاع <للسبورت>، بل لقد بدؤوا يتهامسون منذ اليوم الأول عن أنّ هناك زوجاً من الأحذية له إبزيم من ألماس حقيقي. كان باسيليو، ذو الرأس الكبير والقوّة الفائقة، يستعرض فانيلات طبعت عليها صور سوبرمان ومارلين مونرو وتشي غيفارا، ويرتدي سراويل سباحة من الستان، أحذية كرة قدم بكعب مقوّى، مناشف وأردية منزليّة مع الحروف الأولى من اسم البطل. بدأتْ إمبراتريث، بعد نصف ساعة من وصولها إلى الحقل، تجرّب عمائم حمراً مخملية، و<معطف> أستراخان، وقبعات قش نسائية، وقلانس من التول البنفسجي الفاتح، كانت قد نقلتها في دزينة من علب القبعات. وعلّق الدكتور آثولا، الذي أكسبته لكنته الإسبانية الاحترام منذ اللحظة الأولى، بعينه الكريمة، التي تتلألأ رضا وسط جبهته تقريباً، ويديه اللتين تشبهان يدي طائر جارح، عشر بدلات جديدة من القماش الإنكليزي في مشاجب من خشب الماهوجني، واختار بدلة زرقاء ليست غامقة وعلى قدر كبير من التفاهة ليتبختر بها في الحديقة في اليوم الأول، مأخوذاً بمهابة السلسلة الجبلية للبلد الأمريكي الذي جاء به إليه دون خيرونيمو ليتولى العناية بابنه دافعاً له راتبه بالذهب.

حلّتْ بعد ذلك فرحة اختيار الغرف والشقق، التي أثثتْ، وفقاً لذوق كلّ منهم، بالحاجات التي استبعدت لأنّها لا تتوافق مع لون باحات بوي وغرفه الرمادي المجرد: كراسي صغيرة رقيقة لها طراز كراسي الإدارة، لوحة بالباستيل من رسم (روسالبا كاريرا)، لوحة الغروب الكبير فوق الأطلال وعليها توقيع (كلود لوران)، كومودينات فينيسية، <قطع أثاث صغيرة> من الخشب المطعم، ستائر من الموهير، من مخمل جنوا، من النسيج المطبوع <توال دي جوي>، التي رست

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد ٢١٥

على من كان يصرخ أعلى ويتدافع أكثر. ابتسم باسيليو، هو أكبر من تلك الصغائر: بسط على أرضية غرفته كيس نوم فاخراً من منتجات (آبركرومبي لاند فتش)، زيّن جدرانها بصور لفرق كرة القدم وفرق موسيقية، وعلّق في الغرفة المجاورة <كرة ملاكمة> للتدرّب عليها.

الوقت صيف، والزيزان تعزف كونشرتو الحر المعروف في بهاء الحديقة. ارتدى المسوخ، الذين لم يكونوا في نوبتهم بالقرب من بوي، المايوهات للقفز إلى المسبح. كانت بيرتا، بيديها العريضتين كالجذور، تدهن البقع الحمر في جسم ملتشور، ثمّ كان هو، بعد ذلك، يزيّت ساقي بيرتا الهامدتين، حتّى قدميها اللتين تحتذيان خُفّاً من الدانتيل الملون بألوان القوس قزح. كانا مستلقيين الواحد جنب الآخر، صامتين، وقد أغمضا أعينهما تحت نظارات غامقة، يتحمصان تحت الشمس. قالت إمبراتريث من مكانها المظلل لمليسا، التي لم تكن تستطيع أن تتعرض لأشعة النور لأنّها مهقاء.

- الأمر واضح: سترون، سيكون زواجاً سريعاً وقد أخبرتني بيرتا أنني سأكون الإشبينة. لدي فستان مع <زينة الرأس> المناسبة.

أمّا الذين لم ينزلوا إلى المسبح منهم فقد راحوا يتناولون الكوكتيلات تحت المظلات الملونة أو يلعبون الكروكيت أو كرة القدم في المروج. كان لاري ومس دولي، بعد انتهائهما من واجباتهما وبعد أن نام بوي في مهده، مستلقيين في الممر. المهم، لكلّ ذوقه، تهمس بيرتا، أمّا عنّي أنا، فلا أقبل بلاري هذا حتّى لو عُرضَ عليّ هدية، يا للقرف، ما أطوله، بينما تبحث إمبراتريث بلسانها، الذي يشبه لسان الكلب، عن حبّة الفريز في قاع كأس المانهاتن، وتردد:

- لا شكّ أنّه ذوق فاسد هابط. لاري! حتّى لو عُرضَ عليّ هديّة!

١٥

كانت ولادة بوي، من وجهة النظر العلميّة وبحسب رأي الخبراء، تمثّل انحرافاً: تلك البشاعة التي تقلّصُ جسمه وتعقفُ أنفه وتجعل من فكّه كالخطّاف، تلك الشفة المشقوقة كشفة الأرنب، التي تفتح وجهه مثل لحم الفاكهة حتّى اللهاة... شيء لا يصدّق، شيء غير مقبول، قال الأطباء، الأطفال المشوهون لا يعيشون إلا أياماً، أو أسابيعَ على أبعد تقدير، هذه الحالة من الشفة المشقوقة لم يُسمع بها، هذه الحدبة، هاتان الساقان، يبدو أنّ كلّ العيوب الممكنة تجمّعت في هذا الجسم، لا، حضرتكَ، دون خيرونيمو، عليكَ أن تتقبّل فكرة أنّ ولدكَ سيموت، وربما في ذلك صالح، تخيّل مصير كائن كهذا.

- افعلوا ما في وسعكم كي لا يموت. أمّا مصيرُ ولدي فهي مسألة تخصّني.

وجد أعوانه الأوروبيون في بلباو واحداً من كبار الخبراء في حالات من هذا النوع، الدكتور كريسوفورو آثولا، الذي كان هو نفسه ضحيّة سلسلة من التشوهات. أثارت الحالة، بحسب الرواية التي أبلغوه بها، اهتمام الدكتور آثولا. وأثار اهتمامه أكثر الرقم المذهل الذي ذكروه له عن الراتب الذي سيتقاضاه، وإن كان السفر إلى أمريكا والبقاء فيها لسنوات عدة يعني ابتعادَه عن أبحاثه العلمية. ولكن لا يهمّ. فسيعود غنيّاً بكلّ شيء، بالمعرفة، لأنّ حالة آثكويتيّا كانت حالة فريدة لكلّ

ذي عيان، وبجيب ملآن ليواصل أبحاثه... وربّما سيستطيع تحقيق طموحه في تأسيس عيادة متخصصة.

ما إن وصلَ حتّى باشر العمل، فوضع للطفل بوي جفنين مقلدتين وراف له وجهه ورسم له فماً يمكن استعماله وعـدّل له الفوضى التشريحيّة التي كانت تهدد حياته. كان دون خيرونيمو يستعجله. ليتمّ كلّ شيء فوراً، قبل أن تنطبع في ذاكرة ولده الطرية ذكرى معاناته الجسمانية، ورعبُ الأنابيب والأمصال والحقن ونقل الدم، وقبل أن يسجّل وعيُه حالات النعاس الاصطناعي التي قطّعه الدكتور آثولا خلالها وخاطه لترتيب الأجهزة الأساسية في فوضى جسمه ولتنظيم عملها.

نعم، لقد نبّهه دون خيرونيمو أنّ عليه أن يفعلَ كل ما في وسعه لكي يعيش بوي. لكن عليه ألا يخطئ في شيء: ألا يقودنه شيء إلى الشروع في محاولات دنيئة لإضفاء صفة طبيعية على ما ليس هو بطبيعي، ولا تغيير صفة المسخ في بوي. فكلّ محاولة في هذا الاتجاه ستكون سطحيّة، ستكون مسألة جلد وأنسجة ولن تمحوَ الإهمالَ المهين الذي تركته فيه كلّ القوى. أيّة محاولة لتقليد الجمال ستكون بمثابة فرض قناع مخجل على ولده لإخفاء هزيمةٍ لو قُلبت أو نظر إليها من زاوية أخرى لبدت نصراً.

احتل أومبرتو بينيالوثا في رينكونادا ذلك البرج في الحديقة التي أمر دون خيرونيمو ببنائه أثناء حمل إينيس، لكي يقيم فيه بوي، ولكي يستطيع من شبابيكه وشرفاته أن يتآلف مع أبراج النجوم. أمر بتعليق لوحة (كلود لورين) فوق المستوقد. وأمر بجلب كراسي من المخمل الرمادي مثل التي عند دون خيرونيمو، ملأ الرفوف بالكتب المرغوبة دائماً، غطّى الأرضية بفرش هادئ الألوان. ووضع بالقرب من أحد الشبابيك التي تطلّ على الحديقة مكتباً كبيراً من خشب الجوز المتين،

ووضع عليه آلته الكاتبة أوليفيتي ورزمة من الورق للتبييض وأخرى للنسخ وعلب كاربون وأقلام رصاص ومماحي وحبراً ودبابيس مكتب ومشابك ورق. بات كلّ شيء جاهزاً للبدء.

كان أومبرتو بينيالوثا في البداية يسافر كثيراً إلى العاصمة لكي يستعرض أمام أصدقائه القدامى فخامة مظهره الجديد الغامض في مصدره، ويلمس إعجابهم بعباءته وقبعته اللتين تفصحان عن بوهيمي أنيق الملبس. لكنّ النبيذ كان مألوفاً في لقاءات الكتّاب والفنانين في مقاهي المركز. وحتّى لو لم يكن مألوفاً فإنّه غير قادر على الشرب. إنّها المشكلة الدائمة. معدته. اللعنة! كان ذلك يقع له كلما أوشك على البدء بعمل يعشقه، كما حدث له حين كان طالباً وكتب كتيبه. وهو حين لا يشرب يظلّ معزولاً. ثمّ ما أضيقَ تطلعات هؤلاء الكتّاب التافهين الذين يؤمنون بوجود «واقع» يمكن تصويره، وكم هم مملون الرسامون التافهون من ذوي العقليات التنافسيّة والوطنية، وكم هي فظّة رغباتهم، وكم هو حرفي قيلهم وقالهم الذي يتسلون به! صار يميل شيئاً فشيئاً إلى الصمت، في الأطراف، وهو الذي كان له الصوت الصداح في هذه الاجتماعات. وحين بادروا بعد قليل وسألوه عن سبب صمته أجابهم بأنّ عمله الجديد يأخذ كلّ وقته ويستنفد كلّ خياله.

وكان ذلك صحيحاً. فما عاد يثير اهتمامه إلا ما له اتّصال بعالم رينكونادا. وراحت إقامته في المدينة تصبح أقصر يوماً بعد يوم. كان يعود سعيداً إلى برجه، إلى مكتبته التي تسيطر عليها أطلال (كلود لورين)، إلى أحاديثه مع الدكتور آثولا وإمبراتريث والراهب ماتيو في شرفته.

راح الأخ ماتيو، مثل راهب من العصور الوسطى في صومعته، يعملُ رسوماً تشريحية مفصّلة لمسلوخين صممها أومبرتو تحت إشراف الدكتور آثولا. أمّا تفاصيل الأعضاء وجداول الوظائف فهي مخصصة

للردّ على الأسئلة التي قد يطرحها بوي حين يبلغ سنّ السؤال، وإحالة أجوبته إلى تلك الرسوم التي توضّح كماله هو. وحين عرض الأخ ماتيو ذات مساء بالقرب من المستوقد الاسطرلابات وخرائط الكون كاملة، والتي لم تكن سوى سماء الباحات وأرضيتها، أجمع الحاضرون على أنّها غير ضروريّة، لأنّ على بوي أن يكبر وهو على قناعة من أنّ الأشياء ستولد حين يركّز نظرته فيها وستموت حين يكفّ عن النظر إليها، وأنّها ليست أكثر من تلك القشرة التي رأتها عيناه، فلا وجود لأشكال أخرى من الولادة والموت، ووصل الأمر إلى حد أنّ من بين أهم الكلمات التي لن يتعلمها بوي هي تلك التي تشير إلى الأصل والنهاية. لا شيء عن الأسباب ولا عن الأوقات، عن الخارج وعن الداخل، عن القبل وعن البعد، عن الرحيل وعن الوصول، لا شيء عن النظم ولا عن التعميمات. طائر ما يقطع السماء في ساعة معينة ليس هو طائراً «ما» يقطع السماء في ساعة «معينة»، لا يتوجّه إلى أماكن أخرى إذ لا وجود لأماكن أخرى، ولا إلى ساعات أخرى إذ لا وجود لساعات أخرى: على بوي أن يعيش في حاضر مسحور، في يمبوس الحادث، يمبوس الظرف الخاص، في عزلة الشيء واللحظة المجردة من الشفرة ومن المعنى التي يمكن أن يخضعه إلى قاعدة ما ويعرضه، بعد إخضاعه، على ذلك الخواء اللامتناهي الخالي من الجواب، الذي يجب أن يكون بوي جاهلاً به. المسوخ جميعهم استثناءات. ولا ينتمي أيّ منهم إلى سلالات ولا أنواع. على وجه التحديد، كان دور بيرتا – التي طالما جلست في مخدع إمبراتريث لتشكو لها من المشقّة التي تلاقيها في عملها–، هو سحل أطرافها السفلى في ممرات بوي، أو الاستلقاء على مصطبة، أو التكوّر في مدرج لتداعب بالقرب من نهديها العاريين قطّاً ذا رأس ضخم، بيرتا، بيرتا، حاضرة منذ البداية أمام عيني الطفل في دورها المتمثل في إيضاح ما لا تفسير له، ما هو استثنائي واعتباطي.

كان أومبرتو، على الرغم من امتيازاته، ينتظر جائعاً اجتماعه السنوي مع دون خيرونيمو: فكمال التجربة لا يمكن أن يتحقق، في النهاية، إلا بالتشارك مع آخر، مع أحدٍ يقف أيضاً خارج اللعبة لأنّه ليس مسخاً. ثمّ إنّ كلّ الذكريات والعواطفَ والسنوات الطويلة معاً.. كيف كان بوي؟ هل كان الدكتور آثولا على ذلك القدر من الخبرة والتخصص كما أكّد له أعوانه؟ هل أنهى عملياته؟ هل بدأ بوي بالمشي، بالكلام...؟ لا، هذا لا، سيتأخر قليلاً بالقياس إلى الطفل الاعتيادي، وإن أكّد الدكتور آثولا سلسلة من «الاختبارات» أنّ ذكاء بوي سينمو نموّاً عجيباً على الرغم من التأخر الأولي الناتج عن العمليات الكثيرة.

– ذلك ما كان منتظراً.

– طبعاً.

وماذا عنه هو، أومبرتو؟ هل هو سعيد؟ شعر أومبرتو، حين طلبه دون خيرونيمو شخصياً، بأنّه يعاود اللقاء بجزئه الآخر، وبأنّه هكذا فقط يمكنه أن يكون رجلاً كاملاً، مرة واحدة في السنة.

– أتريد سيجاراً؟

– لا، شكراً، دون خيرونيمو، لا...

– كونياك؟

– لا أجرؤ...

– خسارة...

لم يكن الدكتور آثولا إذن قادراً على معالجة أحماض معدته، آلامها، تشنجاتها؟ خسارة... الصبر هو ما يحتاجه. هل بدأ بكتابة تلك الحوليات عن رينكونادا؟ لا... لا، حسناً، ما زال الوقت مبكراً على كتابتها، التشنجات، الأحماض المزمنة كلما بدأ بتسطير إحدى خواطره على الورق، الآلام، كانت تطرحه طوال أيام وأيام... طبعاً.

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

لكنّ هيكل العمل، الشخوص، المواقف، جزئية ما ساخرة هنا، طرفة هناك... كلّ ذلك العالم كان يغلي في داخل رأسه ويطرد كلّ ما عداه: جزء كبير من الوقت، اعترف لدون خيرونيمو الذي لم يستطع كتم إعجابه بالفنان، ما كان يعرف أيّ واقع يختار، واقع الداخل أم واقع الخارج، لا يدري إن كان اخترعَ ما كان يفكّر فيه أم إنّ ما كان يفكر فيه هو الذي اخترعَ ما كانت عيناه ترى. كان عالماً مغلقاً، مغرقاً، كالعيش في كيس ومحاولة عض الجوت بحثاً عن مخرج أو طَلباً لمدخل للهواء وللتحقق من مكان مصيره، إن كان في الخارج أم في الداخل أم في مكان آخر، ليأخذْ قليلاً من الهواء المنعش الذي لم تسد عليه وساوسه المنافذ، أين بدأ يكون هو ويتخلى عن أن يكون الآخرين... من هنا يأتي الألم، العضة اللازمة للخروج، أو لمنع دخول الهواء.

- خسارة، أومبرتو!

- المهم...!

فلماذا لا يُقدم على إجراء حاسم إذن؟ عملية تجريها اليدان الماهرتان للدكتور آثولا، الذي يبدو أنّ أومبيروتو يضع فيه الكثير من الثقة. فربّما يستطيع هو أن يزيل تلك النقطة المدمّرة. لا، لا، دون خيرونيمو، ليس الأمر خطيراً إلى هذا الحد. ربّما ليس هو حتّى ذلك، ولا حتّى قرحة، ربّما هو واحد من الأشياء الكثيرة التي أتخيلها، وأنا الحبيس...

- حبيس؟

- نعم.

- في رينكونادا؟

- إنّها مختلفة جدّاً...

- لكنّها أجمل بكثير.

- لا أدري، هناك أشياء أفتقدها... باحات قديمة كان يعجبني التجوّل بها، ممرات أشتاق إليها...

***

أمرتْ إمبراتريث باسيليو أن يهرول إلى حيث أومبرتو ليقول له إنّ عليه أن يعجّل بالذهاب لتناول الشاي معها ذلك المساء. كانت تنتظره في <مخدعها>. استقبلته جالسة وراء مكتب صغير من الخشب المطعم، معمول في القرن الثامن عشر لابنة أحد الماركيزات. نهضت للترحيب به ترحيباً وديّاً بمجرد دخوله. كانت كعكة شعرها مزينة بمشبّك من القماش، وحواجبها منزوعة الشعر، وفي مكياج الرموش الضارب إلى الزرقة تلمع أقراص صغيرة من الفضّة تشبه تلك المنثورة على رموش عارضة الأزياء التي تزيّن صورتها غلاف العدد الأخير من مجلة (فوغ)، التي أزاحها أومبرتو من فوق المنضدة المقابلة للكنبة لكي يضع باسيلو الصينية مع شاي (لابسانغ- سوشونغ) المعطّر.

- أم إنّكَ تفضل الياسمين؟

- لا، لا، شكراً. هذا يلائم معدتي أفضل.

- إنّه (توويننغ)، وهو لذيذ.

- نعم، إنّه لذيذ.

جلست إمبراتريث قبالة أومبرتو. ملأت كأسين من الشاي، وبعد أن قاطعتْ إحدى ساقيها الصغيرتين الممتلئتين القصيرتين بالأخرى، وضعتْ سيجارة المارلبورو كنغ سايز بين أصابعها المجعدة كالبراغي، وانتظرت أن يبادر محاورُها إلى إشعالها لها. حين انحنى أومبرتو لإشعال سيجارتها لاحظ أنّ جبهتها، وقد تجعدت أكثر ممّا هو معتاد، كانت تنبسط عند أول نفخة دخان وتبتسم له لتلوح أنيابها سيّالة تحت الحواشي اللحمية في أطراف فمها.

- ما الأمر، إمبراتريث؟

- لا شيء. ألا يمكن أن أدعوك لتناول الشاي إلا لأمر خاص؟

- لكنّ باسيليو قال إنّه أمر مستعجل.

- باسيليو في عجلة من أمره دائماً. وهو لم يقل ما قال إلا ليكسب وقتاً يلعب فيه كرة القدم مع فتيانه.

ما زال أومبرتو لا يصدّق أنّها دعته من دون سبب، في وقت غير مناسب وفي عزّ عصرٍ حار لمجرد الرغبة في أن يكونا معاً... وهو أمرٌ لا يمنحه المتعة وحسب بل الامتياز. لم تقطب إمبراتريث جبينها مرة أخرى إلا حين غادر باسيليو حجرتها. حينها اعترفتْ له بأنّه محق، لأنّها فعلاً تواجه مشكلة، ولمّا لم تشأ أن يعرف أحد بذلك غيرهما، فقد أمرتْ باسيليو الوفي بإبلاغه بالحضور بدلاً من طلب ذلك منه تلفونياً. فعاملة البدالة، صاحبة الآذان الضخمة كجناحي الخفّاش، حشريّة، وهذا...

- ماذا جرى، إمبراتريث؟

- بوي يعاني من إسهال أخضر.

- يجب استشارة الدكتور آثولا في الحال إذن، إمبراتريث، هذا خطير، لنأمر بإحضاره، هذا غير ممكن، تلفونك...

- انتظرْ...

ارتجّ صدرُ إمبراتريث بسبب الحدث الغريب الذي عليها أن ترويه له، أو ربّما بسبب الخلوة التي تجد نفسها فيها على ذلك القدر من القرب منه في حجرتها الورديّة. لينتظر الدكتور آثولا. كان عليهما أن يتشاورا أولاً. كان واضحاً أنّ الدكتور آثولا، في سنته الأخيرة، حين لم تعد العمليات المتتابعة والمراقبة اليومية ضرورية، فقد الكثير من اهتمامه بحالة بوي. الحقيقة هي أنّ مهمته انتهتْ. فلماذا لم يعد

إلى أبحاثه في معهده في بلباو، وهو الذي كان يكرر حتى الملل أنّه يحنّ إليه؟ صحيح أنّه تورّط في العام الماضي مع واحدة من الكثيرات اللاتي ينطبق عليهن وصف «أسمن امرأة في العالم» ممن يكثرن في رينكونادا...

- والآن وبعد أن تشاجروا، مع جميعهنّ، تحرّش أومبرتو حتى ببيرتا التي تعرف حضرتكَ أنّها لا تشعر بشيء من هنا إلى تحت، تحرّش بها حين سكرت المسكينة في الحفلة التي نظمناها للاحتفال بعيد ميلاد الأخ ماتيو...

- لم أكن موجوداً في تلك الحفلة...

- كلا، فحضرتكَ لا تذهب إلى الحفلات، وأخبركَ بأنني سأبدأ بفعل ذلك أيضاً. أنا وحضرتكَ علينا أن نبقيَ على رأسينا صاحيين حتّى لو غفل الآخرون.

أنا وحضرتكَ: إمبراتريث تطرح التناظر المرعب. منذ زمن وهي تلمّح إليه به، بصدرها الذي يعلو ويهبط حين يدنو منها، بذلك الحرص على أشياء بسيطة تعجبه، شاي (لابسانغ- سوجونغ) مثلاً، الذي كان يصعب الحصول عليه، وإهدائه الرباعية الخامسة عشرة، التي كان يفضلها، بمناسبة عيد ميلاده بدلاً من رباعية (لينر). أمّا هذه المرة فهيِ المرة الأولى التي تعلن فيها عن الشريكين بهذه الطريقة: أنا وحضرتك.

- على أيّة حال فالدكتور آثولا في مأزق كهذا...

- لا، أومبرتو...

كان متيقناً من أنّ إمبراتريث ترتّب لاستبعاد الآخرين جميعاً. في البداية وقعتْ مساواة بين مسوخ الدرجة الأولى، بالاحتفال بولائمهم وحفلاتهم التنكرية والعوم في مسابحهم التي يشارك فيها الجميع.

بعد ذلك، راحت «النخبة»، التي كوّنتها إمبراتريث عن طريق دعوات لتناول الشاي معها، تتقلّص وتتقلّص وصولاً إلى استبعاد بيرتا وملتشور، اللذين ما عادت تقريباً تحدثهما. قبل أيام لا أعرف ماذا قالت عن الأخ ماتيو... والآن الدكتور آثولا. وبعد ذلك؟ فهل ستستبعده هو أيضاً؟

- يجب التخلّص من الدكتور آثولا، أومبرتو. على الرغم من أنّ بوي سيكمل الرابعة من عمره وبالكاد يستطيع الكلام، فإنّه ينمو كما كان متوقعاً، ونموّه يسرع يوماً بعد يوم. والآن، موضوع الإسهال الأخضر، من جراء إهمال الدكتور آثولا، فمن المؤكّد أنّه لم يهتمّ بضبط تركيبة عصيدة بوي وفقاً لحاجات نموّه.

لإزالة المتعة ومعالجة نقصانها من طعام بوي، فقد أطعموه منذ طفولته الأولى عصيدة متجانسة في تركيبتها. التركيبات الغذائية التي كانت تغذيه وفق الأصول، بروتينات، حديد، كالسيوم، فيتامينات، كانت تسوّغ كلّها بطعم الفانيللا. لم تحدث له قط مشاكل في الهضم. والآن، فجأة، خراء أخضر...

- هل سألت مس دوللي؟

- أنا متأكدة من أنّها تعرف أكثر من الدكتور آثولا ما يجب إعطاء الطفل لكي يشفى. لقد كانت صحتها جيدة بعد الوضع. تعمل بنشاط أكثر. لو أنّ الجميع مثلها...

- ماذا ولدت؟

- طفلاً.

- مسخاً أم طبيعيّاً.

- آه، لا، طبيعي مرة أخرى المسكينة. واضطروا هذه المرة أيضاً إلى التخلّص منه. إنّه العيب الوحيد الذي أجده في مس دوللي: ولاداتها كل تسعة أشهر تنتهي ببكاء لأنّ أيّاً من أولادها لا يشبهها ولا

يشبه لاري. يمكن لمس دوللي، بالإضافة إلى نبلها، أن تمتلك، على الأقل، لياقة التأخر في إنجاب الأولاد قدر ما تتأخر أنثى الفيل كي لا تحملنا مشاكل كل تسعة أشهر.

سكتت إمبراتريث بانتظار أن يرفع باسيليو صينية الشاي. تابعت بنظرها خروج العملاق الضخم ذي الصدر العريض والساقين القصيرتين وذراعي إنسان الغاب والفكّ المتدلي. أتراه عشيق إمبراتريث؟ لمَ لا؟ لا مكان في جسم إمبراتريث الضئيل إلا لشبق كان يراه أومبرتو جامحاً. ابتسمت إمبراتريث بخبث بعد أن أغلق باسيليو الباب.

- تلك مشكلة أخرى ستصادفنا...

- مع باسيليو، الطيب؟

- أكثر من اللازم. ألم تره في الحديقة يتدرّب مع أصدقائه المراهقين اليافعين الذين لا أدري من أين يأتي بهم، من مسوخ الدرجة الثانية والثالثة وحتى الرابعة والخامسة؟ ألم تره في المسبح وهو يعلم السباحة الحرة لذلك الأحدب الأشقر الذي له وجه دمية من خزف؟

- إمبراتريث، يا إلهي!

- أي، أومبرتو! في كلّ هذه الأجواء المريبة تفوح رائحة لواط. طبعاً فأنا في داخلي «امرأة لوطية»

- حسناً، إمبراتريث. لدينا الآن أشياء أهمّ تشغل فكرنا.

- الخراء الأخضر، مثلاً؟

ضحك أومبرتو. وأظهرت إمبراتريث لأومبرتو، وهي تشدّ مشبك القماش بيدها المليئة بالخواتم، إبطاً طريّاً نزع الشعرُ عنه حديثاً.

***

كانت شمس الصيف من الشدة أنّ قلنسوة التول البنفسجي الفاتح لم تحل دون أن يضطرم بطن إمبراتريث ونهداها وساقاها وكتفاها. وعلى الرغم من أنّها في البداية كانت مهتمة بما قاله هوكسلي عن رباعية بيتهوفن تلك، فقد كان من المستحيل عليها التركيز في الحوار، وكان عليها أن تقضم أظافرها لمقاومة الرغبة الجنونية في حك شعر عانتها. مؤسفة هي تلك القاعدة التي تقضي بعدم دخول أحد بملابسه إلى باحات بوي ولا مرافقه: لم تكن ترضى عن نفسها وهي عارية، بينما كان ارتداؤها ملابسها يعود عليها بالنفع. أمّا موضوع القلنسوة فقد كان تنازلاً: خفيفة جدّاً، واسعة جدّاً. كانت تشعر وكأنّها فطرة وهي تسير إلى جانب أومبرتو حول بركة الرامية الصيادة، غير قادرة على إضافة شيء إلى الحديث لأنّ الشيء الوحيد الذي تستطيع التفكير فيه، الشيء الوحيد الذي تريده من العالم، هو أن تحكّ شعر عانتها كالمجنونة. وذلك، طبعاً، ما لا تستطيع فعله أمام أومبرتو، ولا سيّما حين يتكلّم عن رباعيات بيتهوفن الأخيرة.

هبّت نسمة عليلة خلف تمثال الرامية الصيّادة ومجموعة كلابها، بالقرب من السور المغطّى باللبلاب الذي يغلق الباحة الأخيرة. كان لاري، رئيس البستانيين، قد ترك، من حسن الحظ، تقليم اللبلاب، الذي كان في هذا الموضع يسقط كالشلال، ليوفر إمكانية الاختباء إن تواصل تجوالهما بطيئاً وإن أفلحت هي في أن يصفّر أومبرتو بموسيقى الأداجيو الهادئة، لأنّه عندما يفعل ذلك كان يغمض عينيه فتنتهز هي ذلك لتحكّ قليلاً.

سكت أومبرتو فجأة. أحد ما، مختبئ في شيء يمكن أن يكون مغارة خلف شلال اللبلاب، كان يتكلّم:

– با... با

- ما... ما

- ماما

تمتمة طفل وصوت قُبلة. ثم ساد الصمت. فتح أومبرتو وإمبراتريث ستار اللبلاب: ذراع لاري الطويلة تجاهد للإحاطة بجسم مس دوللي. كان يقدّم بيده ثدي زوجته المترع لبوي، الذي كان يمص، فيسيل حليب العملاقة على وجهه، الذي راحت ندباته تتخلص من طوقها البنفسجي. صاحت إمبراتريث:

- الخراء الأخضر!

- إمبراتريث!

- ستقتلينه، مس دوللي!

وأومبرتو:

- من علّمه «بابا» و «ماما»؟

ضمّت مس دوللي الطفل إلى نهديها الضخمين العاريين وخرجت من المخبأ يتبعها لاري. بدا الاثنان موشكين على البكاء حين ظهر لهما أومبرتو وإمبراتريث عند حافة البركة ليقولا لهما بصوت واحد:

- أعطونا الطفل.

وأومبرتو:

- الاثنان مطرودان. من غير المعقول أنكما خدعتمانا طوال هذه السنين على الرغم من الثقة التي منحناكما إياها، ولا سيّما حضرتك، مس دوللي. لم تفهما حتى الحرف الأول من مشروعنا. لا تستحقان أن تكونا مسخين، ولا حتى من الدرجة الثانية، ولا الثالثة، وأنتما تلعبان لعبة تربية طفل مسخ مثلكما، هو ولد دون خيرونيمو دي آثكويتيّا لا أقلّ. عليكما الانصراف هذه الليلة.

جفّفت العملاقة دموعها. نظرت إلى وجهه وقالت:

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

- لقد علّمناه أشياء كثيرة.

- ماذا؟

سأل لاري الطفل، وهو يشير بإصبعه إلى أومبرتو:

- قل لي يا ولدي كيف هو دون أومبرتو؟

صرّح الفم المعدّل:

- قبيح... قبيح

وراح يبكي صارخاً، وهو يخفي وجهه بين نهدي مس دوللي، باسطاً ذراعيه إلى لاري لكي يحميه، بينما لم يستطع أومبرتو مقاومة فضوله في التطلّع إلى صورته في ماء البركة، قبيح، شقي، لا مسخ ولا جميل، تافه، بالطبع فالمسألة كلها هي مسألة تناسب في الأحجام وتناسق بين الأجزاء، وأنا أصنع لبوي عالماً يتناسق معه، لكنّي لا أتناسق فأنا لستُ مسخاً، إنّي لأهب في هذه اللحظة حياتي كلّها لأكون كذلك، قبيح، قبيح، راح بوي يردد وهو بين ذراعي مس دوللي، قبيح، قبيح، قبيح، ولاري ومس دوللي وإمبراتريث يضحكون مقهقهين: ثلاثتهم. انتزع أومبرتو الطفل بقوة من بين ذراعي مربيته. توقف المسوخ الثلاثة عن الضحك. بدأ الطفل يصرخ وهو بين ذراعي أومبرتو، فأعاده إلى مس دوللي:

- أسكتيه.

كانت إمبراتريث قد انتهزت الفوضى لتحكّ شعر عانتها على راحتها، وإن لم يخفف ذلك شيئاً عنها. كانت غاضبة من مس دوللي، التي جلستْ على حافة بركة الرامية الصيّادة تهزّ الطفل في حجرها. نظّفتْ مخاطه ولعابه، وقبلته وداعبته ليكفّ عن البكاء. انحنى لاري، وقد وقف على قدميه كمالك الحزين، للمساعدة في تخفيف البكاء. بدأت مس دوللي تدندن:

سيدتي القديسة آنا
لماذا يبكي الطفل
من أجل تفاحة
ضاعت منه.

ولمّا رأى لاري أنّ الطفلَ يواصل البكاء دندن من مكانه العالي وبنعومة أكبر وهو يضع إحدى يديه على كتف مس دوللي:

كانت العذراء تغسل الملابس،
والقديس يوسف ينشرها
والطفل يبكي
من البرد القارس.

من ظل تمثال الرامية الصيّادة الذي لجأت إليه إمبراتريث لتحكّ وهي تروّح بقلنسوتها، دمدمت آمرة بأن لا مزيد من التفاهات، بأن يسلموها الطفل، بأن الطفل لن يشعر بالخوف منها، لأنّها ستمتلكه في نهاية الأمر، فهو وهي أقرباء... وتقدمت الموكب، عارية، خجولة، وقد ارتدت قلنسوة التول البنفسجي الفاتح وحملت الطفل بين ذراعيها، يتبعها أومبرتو ومس دوللي ولاري. التفوا حول البركة إلى أن بلغوا ممرات الباحة الأخرى. قالت لهم إمبراتريث:

- حضّرا حاجاتكما للانصراف هذه الليلة.

أوقفهم أومبرتو:

- لا، لن يخرجا من هذه الباحة. إن خرجا فسيقصّون الأشياء

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد ٢١٥

للعالم كلّه، وبما أنّهما كذابان فستحصل فوضى. سأنادي ملتشور ليجهّز السيارة في ظرف نصف ساعة.

– لكنهما، أومبرتو، لا يمكنهما أن يخرجا عاريين. فهما لديهما أشياؤهما التي اشتروها بالرواتب التي تلقوها طيلة أربع سنين من العمل.

– لا يستحقان شيئاً. ليذهبا بيد إلى الخلف وأخرى إلى الأمام كما جاءا. اذهبي حضرتك إمبراتريث للبحث لهما عن سروال وفستان، لا أكثر. ومن هنا من هذه الباحة لن يتوجها إلا إلى المحطة. وليمتنعا عن الكلام مع أحد. وأنا سأواصل العناية بالطفل.

ابتسمت إمبراتريث بعذوبة:

– لكنه قد يستيقظ، أومبرتو، ويخاف منك لأنّ حضرتكَ... مختلف.

السنّارة. الخطّاف الدامي. تغلغل فيه، اصطاده، تاركاً إيّاه متشبثاً بقزمة مسخة تقول له إنّ الطفل يخشى تفاهته الطبيعيّة، الشاهد على عاره، الشهود هم الذين يمتلكون القوّة، هي أيضاً ضحكت منه مع المسخَيْن الآخرين بالقرب من البركة، هي، هزّت الطفل بين ذراعيها الصغيرتين المكتنزتين، هزّته وظيفياً كما تنصّ قواعد اللعبة التي اخترعتُها أنا ودون خيرونيمو، نعم أنا نفسي اخترعتُ قواعد هذه اللعبة التي أمسكت بي بخطّاف يجعلني أنزف.

١٦

حالما انطلقت السيارة حاملة مس دوللي وزوجَها، تنبّه أومبرتو إلى أنّ واجبه أمام دون خيرونيمو وأمام نفسه يقتضي أن يتولّى هو زمام الأمور. قرّر أن يدعو في ذلك المساء جميع المسوخ من الدرجة الأولى إلى اجتماع في شرفة البرج ليصل عن طريق استجوابهم واحداً واحداً إلى حقيقة كلّ خلل قد يكون غاب عن عينيه، لأنّه كان في الواقع يراقب الأحداث من الأطراف وحسب.

قرّر أن يعرض تصرّف دوللي ولاري، الذي اكتشفه في ذلك المساء بالقرب من بركة الرامية الصيادة، مثالاً على الخلل الجنائي، نعم، الجنائي، لأنّ موضوع الخراء الأخضر مثّل تهديداً لحياة بوي.

كان لتلك الدعوة هدف آخر: التأكيد، والتوضيح، للمرة الأولى والأخيرة، على تفوقه لكونه كائناً طبيعياً. هم يعتمدون عليه. وليس العكس. هو السجّان. وليسوا هم، بتربصهم وتهامسهم. كان هو مَن اخترعهم، وليسوا هم من اخترعوه. كلّ شيء هو من بنات أفكاره: رينكونادا، باحات بوي، التنظيم، وجبة الطعام، الدكتور آثولا، تركيبة البيت، هدم المرافق التي كان من السهل التيه فيها، كلّ شيء. هم أنفسهم، أعمالهم، هم وهي من مخترعاته. فليس لهم أن يتمرّدوا. ها قد رأوا ما يمكن أن يحدث لهم: ما حدث لمس دوللي ولاري، الطرد من هذا العالم المريح، المحميّ بمسوخ من الدرجة الثانية والثالثة

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

والرابعة والخامسة، الذين يخدمون مسوخ الدرجة الممتازة للحلول محلهم يوماً ما، طبقات متتابعة تحفّ بتلك النواة، بتلك «النخبة» التي هي هم. وفي اللحظة التي أراد فيها أن يرفع سماعة التلفون ليطلب من عاملة البدالة أن تدعوهم لكي يكونوا في شرفته بعد ثلاثين دقيقة، سمع من بعيد، صوت موسيقى يعبر إلى سمعه من الطرف الآخر من الحديقة حيث تنهض سرادقات المسوخ، صوت موسيقى و... نعم، نعم، قهقهات. لم يرفع السماعة.

- ماذا يجري...!

وضع مكعبين من الثلج في كأس. ملأه حتى نصفه بالويسكي الخالص. تقدم والكأس بين يديه حتى درابزين الشرفة. استمعَ. نعم، شيء من الموسيقى... وكثيرٌ من القهقهات، فكأنّ هناك من يحتفل بمناسبة. شمّ الويسكي. ما أكثر ما يضرّه! ولكن، ماذا جرى، ليست الأمور اليوم على ما يرام ويجب الانتباه كثيراً. كان عليه أن يلطّف أعصابه بطريقة ما. رشف رشفة طويلة، كوته بعد أن هزّته. ترك الكأس على الدرابزين واستند بيديه كلتيهما عليه، مصغياً إلى همسات المساء المتشابكة تلك التي كانت تحبسه، الجداجد، الضفادع الصيفية، الأصوات، الضحكات التي غربلتها أشجارُ الحور والكستناء، محاولاً أن يميّز بين تلك الأصوات ربّما اسمه الذي بترته قهقهة عند العبارة التي كانت ستضع الوخزة الكافية للقضاء عليه.

كان ساذجاً حين سمحَ لملتشور أن يستعمل السيارة التي قادتْ مس دوللي ولاري إلى المحطة. كانت المسافة قصيرة. لكنّ تلك الدقائق العشر كانت أكثر من كافية لكي يقصّ الشريكان على ملتشور الوجه الآخر من حكاية البركة، التي كان فيها هو، أومبرتو بينيالوثا، الكائن الطبيعي، الاعتيادي والمألوف، الذي لا يلتفت أحدٌ في المدينة لينظر إلى خطواته أو ليحدّق فيه، هدفاً لتندّر ثلاثة من المسوخ. مظهره

غير المؤذي سبب رعباً لطفل مسخ أيضاً. راحت نبرة الضحك، ونقيق الضفادع أيضاً، تشتد مع حلول الليل: أفواه أفعى، جلد حيوان زاحف، عينا بوم، ذراعا كلب، حشرة، أصوات حيوان، كلبة جائعة، تضحك منه. كان واضحاً أنّ خبر تندّر مس دوللي ولاري وإمبراتريث عليه وتطلعه إلى صورته في الماء، مرعوباً من سخرية المسوخ، صار يشيع بطريقة ما في أنحاء رينكونادا. الضحكات كانت تأتي من جميع الأنحاء. لم تكن مجرد ضحكات بل همهمة وتهامس، مسوخ يتنقلون بين الأبواب ناشرين الخبر، قهقهات مخنوقة مدوّية، عاملة البدالة مشغولة أكثر من أيّ وقت مضى، عاملة التلغراف تعلّق وتتدخل لتعديل روايات الذين يتهاتفون للاتفاق على مواعيد تناسب درجاتهم وصداقاتهم، تضحكُ منه، تفتتُ الخبر، تلعبُ به، تحطمُ سلطته نهائياً، ضجيج أجراس التلفونات تمتزج مع القهقهات ومع نقيق الضفادع، سمعَ بوضوح، بوضوح شديد، تأتأة ملتشور وهو يروي شيئاً... ولكن لا: لم تكن تأتأة ملتشور، لم تكن ضربة الكرة وارتدادها على ساحة التنس حيث كان ملتشور ومليسا ينهيان لعبتهما قبل انطفاء الأضواء. لا، المسوخ لم يكونوا مجتمعين للكلام عنه. ركّز عينيه العكرتين: مليسا، البيضاء تماماً ببدلة التنس، كانت قد استلقت في شبكة النوم لعمل كروشيه. وبيرتا، بالقرب منها، تحكي لها للمرة الألف قصّة حياتها العاطفية المأساوية. خوسيه ماريّا، الأحدب صاحب وجه الدمية الخزفية، كان يظهر ويختفي بين الشجيرات، يمارس رياضة العدو القصير اليومية. في شقة إمبراتريث، مقابل برج أومبرتو، أشعلت الأضواء. اتجهت القزمة، وهي ترتدي <ثوب البيت>، للجلوس شأنها كلّ مساء لمراجعة الحسابات.

كان الواقع يعرض أمام عينيه الأدلة على أنّهم لم يكونوا يضحكون عليه. حياة رينكونادا تمضي كالعادة. صحيح أنّ مس دوللي ولاري

اختفيا، ولكن ما أهميّة ذلك. لاري لم يكن نافعاً. كان بين المسوخ، الذين راحوا يصلون شيئاً فشيئاً إلى رينكونادا، عملاقة أخرى جاهلة وبدينة، حجمها كحجم مس دوللي أو أكبر، مع ميزة أنّها عقيم وأنّها، على الرغم من أنّها جديدة نسبياً على المكان، كانت تصرّ على أن <ترتقي اجتماعياً>. هدأتها إمبراتريث وطلبتْ منها ألا تقلق، فالبدانة العملاقة هي الصيغة الأعم في خلقة المسخ. وبما أنّ الطفل ما يزال صغيراً فلن يكلّف شيئاً استبدال عملاقة بأخرى من دون أن يشعر. فالفرق بين «أسمن امرأة في العالم» وأخرى معدوم، كلهنّ سواسية، كالسود أو كالصينيين.

تنهّد أومبرتو. أوشكَ على تناول جرعة أخرى من الويسكي لكنّه عدلَ عن ذلك لأنّ أمواجاً فوّارة من المرارة والحموضة صعدتْ من معدته الملتهبة إلى حنجرته. رمى ببقيّة الويسكي إلى العشب ودخل إلى مكتبته: العمل هو أفضل شيء لنسيان همومه. مثل إمبراتريث التي كانت تغوص كل مساء في حساب وسواسي لنفقات رينكونادا من أجل نسيان حبها. جلس أومبرتو قبالة آلته الكاتبة. ضبط الضوء. كان يعرف على وجه الدقة ما سيكتب. فالبناء لديه كامل والهيكل مخطط حتى في أدق التفاصيل، جميع الشخوص مكتملة، جميع المواقف، جميع الحكايات المركبة، حتّى الفقرة الابتدائية مع فارزتها الأخيرة، يتردد صداها في عقله، فقرة القفز التي من علوّها سيسقط شلال جميع الأشياء التي يحبسها في الداخل، المستعدة منذ وقت طويل للقفز.

حين حرّك دون خيرونيمو دي آثكويتيّا ستارة المهد ليتأمّل ولده الذي طالما انتظره، أراد قتله في عين المكان: ذلك الجسد المقرف المعرّش الملتفّ على حدبته، ذلك الوجه المفتوح في أخدود قاس حيث الشفتان والحنك والأنف تعرّي بذاءة العظام والأنسجة في فوضى من ملامح حمر... كان الارتباك، الفوضى، كان شكلاً مختلفاً

من الموت لكنّه أسوأ من الموت. لكنّ خيرونيمو لم يقتل ولده. فقد سمحَ له الفزعُ الذي أصابه، وهو يرى نفسه أباً لفوضى من هذا العيار، بثوانٍ من التفكر انقضت بين الانطباع الأول والفعل، ولم يقدم خيرونيمو دي آثكويتيّا على القتل. لأنّ ذلك سيكون تنازلاً، انضماماً إلى الفوضى، تحوّلاً إلى ضحية له. جيد جدّاً: تلك الخدعة القاسية المؤلمة كانت تعني، حينها، أنّ القوى التقليدية التي تلقّى هو وأسلافه الكثير من نعمائها مقابل التزامهم بالحفاظ على نظامها الساري على مقدرات «الأرض» قد تخلّت عنه...

كلا. ليست هي «الأرض» بل الأرض مكتوبة بحروف صغيرة. المهم. كلّ شيء في الرأس، كلّ شيء. صفحة من الأصل، ثقيلة، سميكة، فخمة: هكذا يكون العمل ممتعاً. وورق الكاربون هذا بزرقته الجميلة. وصوت أوراق النسخ اللذيذة، الناعمة، أصوات أنثويّة تهمس، تهمهم... كانت أصواتاً أنثويّة. وذكورية. إنّها لا تدمدم بل تضحك. تقهقه. رائع! كان قد ترك باب شرفته مفتوحاً فراحت نسمة المساء، بطراوتها اللذيذة، تحمل له همسات شخوص رينكونادا. نهض ليغلق باب الشرفة.

لكنّه خرج إلى الشرفة بدلاً من إغلاق بابها. كان الظلام قد حلّ. كم من الوقت ظلّ جالساً قبالة آلته الكاتبة من دون أن يكتب شيئاً؟ لو أنه لم يتناول جرعة الويسكي تلك لسهل عليه التركيز! أكيد أن تشنجات معدته لن تدعه ينام هذه الليلة ولن يكون غداً قادراً على كتابة سطر واحد. رأى وهو مستند إلى الدرابزين ستائر شقة إمبراتريث تزاح. رأى باسيليو يروح جيئة وذهاباً، عليه سترة وقفازات بيض، يحمل الصواني ويعود بها بين الحضور... أطايب الطعام والشراب يقدمها إلى المسوخ لكنّه يمنعها عنه. الدكتور آثولا، طبعاً... مليسا... روساريو مع عكازتيها... بيرتا... ملتشور... الأخ ماتيو وهو يدشّن قفطاناً

<ووش آند وير>، للصيف الذي بدأ لطيفاً، جميع مسوخ الدرجة الأولى يتبادلون الحديث والتعليقات ويضحكون عالياً منه وهو الذي لم يكن مدعواً إلى الحفلة لأنّه ما كان يذهب إلى حفلات المسوخ، بل يظل منزوياً، لأنّه الكائن الطبيعي الوحيد في رينكونادا.

ربّما كانوا يضحكون عليه دائماً. تلك الضحكات كانت تشكّل الدائرة الأولى التي تطوقه وتحبسه. ومع السنين راحت هذه الدوائر تتراكم تلالاً من العمالقة ومن الحُدْب والمسوخ من ذوي الرؤوس الكبيرة والقدمين المبسوطتين واليدين المدحوتين، دوائر ودوائر متحدة المركز حول الدائرة الأولى، دائرة بعد دائرة، دائرة تطوّق التي قبلها، وهو، أومبرتو، في مركز جميع تلك الضحكات لجميع أولئك المسوخ، لجميع تلك الدوائر، وهو في المركز لأنّه هو السجين، وليس بوي، كان دون خيرونيمو يريد أن يسجنه هو لا أن يسجن بوي، الجميع يضحكون عليه، على السجين الغريق في زنزانة ضحكاتهم، الشبابيك المبنيّة، الزجاج المصبوغ بلون الشوكولاته إلى حد قامة شخص لكي لا يستطيع أحد أن ينظر إلى الخارج، المشبكات، قضبان الحديد، الأبواب المغلقة، الممرات التي يتيه فيها الواحد، الباحات التي لا يتعرف عليها، ضحكات المسوخ الذين يرعون قطعاناً في الجبل، كبار الرؤوس الذين يزرعون القمح، الحُدْب الذين يصطادون السمك في البحيرة ويقنصون الطير والحيوان في الغابات، الأقزام الذين يسمُون الأغنام بانتظار أن يختفي مسوخ الدوائر الداخلية أو أن يموتوا ليتمكنوا هم من الارتقاء، ملفوفين في طبقات متعاقبة من المسوخ الأدنى أهمية، العالم هو هذا، عالمنا الذي يضحك، هذه «النخبة»، هؤلاء المسجونون المنتخبون، الذين اختارهم من يحسدوننا، والذي لا نحسده إلا هو، دون أومبرتو الذي لا يحسد أحداً، الغريق لأنّه لا يستطيع أن يحسد أحداً، وحتّى لو علمتم بأني

أحسد، فأنا أحسدُه هو، أحسدُ من اخترعني ومن وضعني هنا في مركز هذا الحسد الذي يخنقني. كيف يمكن أن تكون إمبراتريث قاسية القلب إلى حد أن تنظّم حفلة في اليوم ذاته الذي كانت فيه أصداء ضحكتها وضحكة الشريكين المطرودين ما زالت تتردد، تمزّق سمعها وتتغلغل فيه؟ ما يهمّ إمبراتريث هي الحفلات وحسب. ففي كل عام تنظّم حفلة تنكرية راقصة دائماً حول موضوع واحد: «المعبد الصيني»، «قصر فرساي»، «في عصر نيرون»... يتذكر موضوع حفلة العام الفائت: «بلاط المعجزات»، المسوخ كلّهم متنكرون بملابس متسولين ومشوهين ولصوص وراهبات وعجائز درداوات وساحرات، بيت إمبراتريث نفسه، الذي أهّل لهذا الغرض، تحوّل إلى متاهة من الأروقة التي يصعب فيها التنفس، أسوار شبه مهدمة، باحات مهجورة... كانت مسلية جدّاً، يقولون، هو رأى التحضيرات، بل أسدى بعض النصائح بخصوص الديكور: كيف تخفى بقع الرطوبة في الجدران، كيف تصوّر رسوم ممرات مظلمة في جزء من الجدار عن طريق بضعة خطوط. ما الذي خطط له الشريكان المسخان أثناء نصف الساعة تلك التي سمح له غباؤه بتركهما في الباحة وذهب للبحث في الخزانات عن قميص وسروال؟ كانت إمبراتريث قادرة على تسميم الكثير خلال نصف ساعة... أمّا عن أن إمبراتريث كانتْ دبّرتْ أشياء، دبّرت من دون شك: مثلاً، دسائسها لرمي بيرتا بين أحضان الدكتور آثولا الذي تخلّى عنها بعد ليلة المتعة المعروفة تلك، واضطرّت هي، بعد أن علّقت الكثير من الآمال، إلى العودة إلى ملتشور الذي فتح لها صدره لحسن الحظ، <فاصل موسيقي> لإنغريد برغمان وليسلي هوارد، رآها الجميع في صالة العروض الخاصة لبيرتا، لأنّ ملتشور في نهاية الأمر لم يكن غير ميكانيكي بسيط، بينما دور بيرتا في رينكونادا كان تجميلياً، فخرياً. لحسن الحظ، عقب ذلك الحادث ظلّ ملتشور

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد ٢١٥

ساخطاً على إمبراتريث. من يعلم إن كان حقده ذاك على القزمة جعله يشوّه رواية الشريكين المطرودين عن الحادث الذي تركه ذلك المساء في أسوأ حال بينما ترك إمبراتريث عدوته في موضع سخرية وتندّر. لكنّ أومبرتو لمح في لحظة الأمل تلك صورة ملتشور، بادية في الضوء المنبعث من الشباك، وبيده كأس من الشمبانيا تصطدم بكأس الشمبانيا التي كانت إمبراتريث تمدها نحو كأسه. لا. ملتشور روى كلّ شيء كما حدث بالضبط. بالتأكيد، كانا يتعاونان في نشر رواية مضخّمة عن حادثة البركة، رواية يحولانها إلى سخرية، إلى مهزلة، لا شكّ أنّها كانت تنتقل في هذه الساعات من فم إلى فم ومن طرف إلى آخر من أطراف رينكونادا. سمعْتُهُ: ما عادت الضفادع تنقّ عند المساء، إنّه اسمي، مصيبتي، تتردد على أفواه ساخرة، متحالفة، كلّها تضحك وأنا لا أفلح في أن أبعد تلك الضحكات المدوية وإن جلستُ على آلتي الكاتبة لأواصل الكتابة، لا، لا، مواصلة الكتابة لا، لأني لم أبدأ بكتابة شيء بعد، ولكن ليكن في معلوم الجميع أنني سأبدأ ذات مساء بالكتابة لأحرر نفسي من هذا الاختناق الذي تسببه لي القهقهات التي حبسني فيها دون خيرونيمو.

الآن، ما أستطيع فعله حقّاً هو شيء لعلاج ألم معدتي. هذه الطعنة في بطني. في الجانب الأيسر. لا، إنّها ليست طعنة، بل عضّة دائمة، أسنان حادة لا تنفكّ تعض، سنّارة مغروسة فيّ، نعم، تلك الأنياب المتعطشة للدم التي أعرفها، أعلمُ تمام العلم أنياب من هي، لن تكفّ عنّ عضّي قبل أن تنزع منّي تلك القطعة الصغيرة التي يضعني ألمها في المركز. الويسكي. اللعنة على الويسكي. لماذا شربته؟ لا يعجبني... في الواقع إنني فضّلتُ النبيذ الأحمر دائماً...، وحصلتُ طبعاً على العواقب ذاتها.

أستلقي على السرير. أعمالي كاملة ستنفجرُ في داخلي، ستكون

لكلّ قطعة من جسمي حياة خاصة بها، منفصلة عن حياتي، لن يعود لأومبرتو من وجود، لن يبقى غير هؤلاء المسوخ، الطاغية الذي حبسني في رينكونادا لكي أخترعه، لون إينيس العسلي، موت بريجيت، حمل إيريس ماتيلونا الهستيري، الطوباويّة التي لم تفلح في أن تصبح طوباويّة، والد أومبرتو بينيالوثا وهو يشير إلى دون خيرونيمو بملابسه للذهاب إلى نادي الفروسيّة، ويدك الطيبة، الكريمة، أيتها الأم بنيتا، التي لا تطلق يدي ولن تطلقها وإصغاؤك لكلمات الأخرس، كلماتي، وصلواتك، هذا البيت هو رينكونادا، رينكونادا الماضي والحاضر والمستقبل، الهروب، الجريمة، كلّ ذلك يعيش حيّاً في رأسي، منظور بيتا بونثي يعكس كلّ شيء ويخلطه ويُنشئ رسوماً متناظرة ومتنافرة، يخلق كلّ شيء من دون أن يصل إلى الورق لأنّي دائماً أسمع الأصوات والضحكات تلفّني وتربطني، أنظر إلى النور في شبابيك إمبراتريث، باسيليو وهو يأتي بالصواني ويرفعها، ربّما يستعد المسوخ للرقص، ألمي، هنا، هنا، عضة الأنياب المتعطشة للدم التي لا تطلق فريستها الصغيرة، سنّارة إمبراتريث تتغلغل فيّ. أنهض لاستدعاء الدكتور آثولا هاتفياً. أين أستطيعُ أن أجدَهُ؟ إنّها حالة مستعجلة. تقول عاملة التلفون: حيث الآنسة إمبراتريث.

***

– هل صغُر عليك لباس السباحة؟

– ألا ترى أنّه ضيّق؟ أحمد

– لقد سمنت في رينكونادا.

– ليس هذا صحيحاً. لقد غسلتُه وصغر.

– كيف تقولين إنّك لم تسمني، مس دوللي، مع كلّ ما كنّا نأكله هناك!

– ولِمَ لم تسمن أنتَ؟ حسناً. لقد سمنتُ. أفضل. فهكذا سيكون من الأسهل عليّ العثور على عمل. طبعاً سيلزمني أن أتعلّم الأغاني والرقصات الشائعة هذه الأيام، إنّها تتغير كثيراً، وإن كان هناك بالطبع غناء ورقص قديم، مثل (بابالوو)، الذي لن يزول مع الوقت. كان في مقدورك أن تهتمّ بهذا بدلاً من قضاء الوقت باكياً على بوي، وإلا فسأضطر إلى إعالتك على الرغم من أنّ الطلب في فرق السيرك على «أسمن امرأة في العالم» ما عاد كبيراً كما كان سابقاً. هناك الكثير من السمينات الآن، يقولون إنّهن بسبب السياسة الجديدة يأكلنَ كثيراً وعلى الرغم من أنني لا أستطيع أن أقول بأنني في حال سيئة...

– تظنين نفسكِ (تيني غريفيث)!

– يا ريت! ربّما كنتُها في أفضل أيام رينكونادا. لكنّي أخشى أن أبدأ بالانصهار بعد أن صاروا يطردوننا من كلّ مكان لأننا لا ندفع.

كانت مس دوللي تخيط خرزات سقطت من حمالاتها، وهي تجلس على حافة سريرها، وتضع نظارتها على عينيها...

– سأضطر إلى رفع بعضها لكي تنغلق. الذنب ذنب إمبراتريث لأنّها لم تقف في صفنا. قالت لنا الكثير خلال تلك الدقائق التي تأخر أثناءها دون أومبرتو في الذهاب للبحث لنا عن ملابس، ووعدتنا بأن تبذل جهدها كي نعود بعد أن تتخلّص من دون أومبرتو، وإنه لم يبق إلا القليل لأنّ دون أومبرتو مغرم بها وحين ستقترح عليه الزواج بها فإنّ رينكونادا كلّها ستكون ملك يديها وعندها ستبعث من يبحث عنا...

– كيف سيكون الطفل؟

– سأشعر بأسف كبير إن لم أشهد زواج دون أومبرتو بإمبراتريث. لقد أرتني الملابس التي جهزتها. هل تتخيّل كيف ستكون حفلة العرس!

تثاءب الاثنان.

- هل ننام؟

- علينا أن ننتظرها.

- كم الساعة؟

- الحادية عشرة.

- إنّها على وشك الوصول.

انتظرا حتى الحادية عشرة والنصف، وهما يقلّبان حجرة النزل الحقيرة التي غلفت بالورق أسوأ تغليف، ويسمعان بكاء الطفلة في الحجرة المجاورة. سمعا طرقاً على الباب.

- إنّها هي. أفتح لها.

ارتدتْ مس دوللي الكيمونو لتسمح بدخول عجوز مشوّهة بعناقيد من الثآليل تغطي ملامحها، ومسخ مقزز ذي يدين خشنتين وفم غير محدد، وعينين ضغط عليهم مرجان محرشف. خفض لاري الضوء. أجلستها مس دوللي على الكرسي الوحيد الموجود. وجلسا هما على السرير ليسألاها:

- طيب. ماذا قال دون خيرونيمو؟

سعلت العجوز.

- فضّلتُ ألا أذهب لرؤيته. فكرتُ في شيء آخر ربّما سيكون أفضل.

- ماذا؟

- أن أذهب أنا إلى رينكونادا.

- وماذا سيفيدنا هذا؟ هناك مئات، آلاف من المسوخ، بل هناك، يقولون، أخوة سياميون، وإن لم أرهم، ينتظرون أن يُؤخذوا في الحسبان لوظيفة بسيطة من الوظائف. لا أظنّ أنّهم سيعيرون حضرتكِ بالاً كبيراً فلستِ في نهاية الأمر إلا امرأة مريضة...

– ممكن. لكنّي أعرف دون أومبرتو جيداً وأعرف أين نقاط ضعفه. لن أحتاج حتى إلى الاقتراب من البيوت. أستطيع أن أختبئ في أيّة ناحية وأبدأ بإطلاق الإشاعات... ما حدث في البركة...

– وبماذا سيفيدنا هذا؟ لا بدّ أنّ الناس جميعاً علموا بذلك، لأننا حكيناه لملتشور.

– عن طريق الناس المقيمين عندي في رينكونادا أعلم جيداً أنّ دون أومبرتو لم يكن مغرماً بإمبراتريث وحده، بل كانت هي أيضاً مجنونة بحبه. إن تزوجا فلن يجد المسوخ من يقودهم في وجه هذين الشريكين الشريرين، لأنهما عاشقان، أعرف أنّهما يتضاجعان كلّ ليلة. هو لا يشبع. من الضروري فسخ تلك الشراكة. لتتحول هي إلى عدوّة لدون أومبرتو.

لكنّ إمبراتريث هي عدوتي، بيتا! أسمع ضحكتها كلّ ليلة من برجي، تكرهني، فأيّة حاجة بك للمجيء إلى رينكونادا لتدعمي كراهية موجودة فعلاً، فإنكِ أنتِ من يريد السيطرة عليّ، لا تأتي، فأنت لست مسخاً، سأعطي أوامرَ كي لا يسمحوا لك بالدخول، وإن دخلتِ، بأن يقتلوكِ، ومن سيفتقد عجوزاً متشردة مريضة بلا هوية تموت في الحقل، لا أحد، سآمر بأن يقتلوك قبل أن تصلي إلى هنا، لا شيء من هذا موجوداً لكنّي لا أستطيع أن أتوقّف عن التفكير إلا في هؤلاء المسوخ الذين يضحكون عليّ لاستعبادي بأمر من دون خيرونيمو وليسرقوا منّي كلّ شيء، أيتها الأم بنيتا، ذلك هو ما يريدون، أنا محبوس داخل دسائسهم ومكائدهم التي أحيكها أنا لأغرقَ وكأنني أريد أن أغرق ولا أريد أن يبلعني الوحل الذي لا يتركَ لي مجالاً للتفكير في أشياء أخرى، يمزّق لي الحنين إلى أوقات أخرى حين كانت لديّ القدرة على التفكير في أشياء أخرى، النظر إلى الخارج، عبر الشبّاك، الضوء، الريح، الوجوه، الأوراق، الكتب، المحادثات،

الكلّ بعيد جدّاً، قبل رينكونادا، قبل أن تكوني حضرتك، أيتها الأم بنيتا، موجودة بالقرب من سريري تصلّين وتداعبين يدي، قبل أن يكون دون خيرونيمو موجوداً، ذلك المساء الصيفي حين كنتُ، وأنا أبحث عن القليل من البرودة لدراسة نصوصي القانونية، أجوب أروقة الطابق الثاني من المتحف الأنثروبولوجي بينما كان الصيف الترابي في الخارج يغطّي كلّ شيء بغطاء من الملل. في بيتي كان يصعب عليّ أن أدرس. كان أبي، وهو بالغ التشدد، يحتدّ إن أحدثتْ أمّي أقلّ ضوضاء بقدور المطبخ. كان ينظّم، وهو جالس مقابلي عند الطرف الآخر من المنضدة، نصوصي فيخلطها، أو إنّه يضبط درجة الضوء من دون أن أطلب منه ذلك، أو يغلق الشبابيك لكي لا يزعجني ضجيج الشارع، وما كان ذلك الضجيج يزعجني البتّة. هربتُ. المتنزهات: كانت المتنزهات تخيفني دائماً. الكنائس كانت باردة، لكنّ الضوء فيها قليل. بينما المتحف الأنثروبولوجي كان يظلّ شبه خال أثناء أيام الأسبوع. ثمّة حارس نوّام، راح رأسه يسقط من النعاس وهو عاكف في زاوية من الزوايا وقد بدا نسخة رديئة غير جديرة بالتحنيط محكوم عليها بأن تتفتت ويرمى بها في الزبالة. رواق الدور الثاني يصنع شكلاً بيضوياً كبيراً يمكنني السير فراسخ وفراسخ من دون أن تقطعه ناصية أو عطفة، وأنا أحفظ المقالات: حين تسيح عيناي أرى من أعلى، في قاعة الدور الأول، الهيكل العظمي الضخم لكسلان الأرض المعاد بناؤه، الذي لا يزوره أحد أثناء أيام الأسبوع ويزوره ناس قليلون في أيام العطل. كان السلام، أيتها الأم بنيتا. الأمان. تحضير امتحاناتي للعبور من الصف الثاني إلى الثالث حقوق، السير بلا انقطاع حول ذلك الشكل البيضوي، الحصول على بكالوريوس، الدرجة الأولى، بعد ذلك الدكتوراه، وسأحوز وأنا قاض أو موثّق عقود وجهاً خاصاً بي... كان كلّ شيء في متناول يدي ما دمت أواصل السير حول الشكل

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

البيضوي في رواق الدور الثاني. كانت هناك فترينات زجاجية ملحقة بجدران الرواق تضمّ أشياء من الطين اليابس، أحجاراً من نحت بدائي، طاسات محفورة في الخشب، إبراً من العظام، وفي فترينة كبيرة تشبه حوض الأسماك، كانت مومياوات (أتكامينيا)، مكدسة، مختلطة، عارية، تتمزّق، في وضعية الجنين، أقدامها إلى الأعلى، يابسة، تبتسم لي من وراء الزجاج. توقفتُ للنظر إليها. إنني أعرفها. إنّها صديقاتي. كان وجهي المنعكس في زجاج تلك الفترينة يتطابق تماماً مع وجه بعض المومياوات. ابتساماتها هي ابتسامتي التي ترتسم أمام الموت لأنّي سأصبح محامياً على قدر من الأهمية ولن أحتاج إلى شموس الصحراء القديمة للحفاظ على ملامحي، ابتساماتها تحميني من أيّ خطر عدا خطر رؤيته هو، وهو يلبس الرمادي الفاتح، واقفاً على قدميه خلفي، يراقب مومياوات (أتكامينيا) من دون أن يتطابق وجهه مع أيّ من تلك الابتسامات. عرفتُه. حدّثني. أجبتُه. سرنا معاً في الرواق الذي يضمّ في شكله البيضوي كسلان أرض الدور الأول. أنا أدرس القانون، لماذا؟

كان حينها، أيتها الأم بنيتا. كان في مقدوري إنقاذ نفسي بأن أقفز إلى الدور الآخر ليرتطم رأسي بالأرض. كان في مقدوري أن أهرب، كان في مقدوري أن أتنكر بزي أحد ساكني (آروكاريا) بالزينة الكئيبة المعروضة على مانيكان كان في إمكاني أن أحلّ محلّه، لكنّي لم أهرب. لا أفهم لماذا رددتُ على دون خيرونيمو: بماذا رددت عليه. قلتُ له: أنا كاتب. ولأنّ ذاكرتي ممتازة كان يكفيني قليل من الدراسة. وفي الأمسيات الماطرة كنتُ أذهب إلى المكتبة الوطنية للمطالعة، الكثير لنيتشه، الكثير لهولدرلين، الكثير لشكسبير، الكثير لغوته، ولكن الكثير أيضاً لإنسوا وبارغاس بيلا وغارثيا سانجيث وبياسبيسا وإميليو كاريرا، نعم، هم، ولكن أقرأ للكلاسيكيين أيضاً، وإن بدا على

أسلوبي أنّ أثر (إنسوا) أكبر من أثر (غوته)، فقد فتحوا لي جميعهم النوافذ المغلقة الآن والخانقة، وبعد ردّي على دون خيرونيمو في ذلك المساء الصيفي المشؤوم حبسوني في هذا البيت. قلتُ له: أنا كاتب. سألني عن اسمي. فاحمرّ وجهي عند الإجابة:

– أومبرتو بينيالوثا.

– سأرقب ظهور كتابك القادم.

– يسعدني أنه يثير اهتمامك.

– يثير اهتمامي كلّ ما يعود لك...

– شكراً.

– وكأنّه يعود لي...

– شكراً، إمبراتريث.

– ليس عليك أن تشكرني، أومبرتو.

– ما أكثر أفضالك...!

– كيف نحصل له على شاي (لابسانغ- سوشونغ)؟

خفضتْ جفنيها. برقت نمشات مكياجها الأزرق الفضيّة، وعند الابتسام، في طيّات فمها الذي يشبه خطم <البولدُغ> سال اللعاب من أنيابها اللزجة. ما عاد جسم القزمة يعاني من دوار الجبال كما كان الحال بداية الصيف: بشرتها الصافية، نهداها الصغيران، هي كلّها كانت باللون الكستنائي المصقول الذي تكفّلت به دهون (غيرلاين) التي بدأت باستعمالها بعد حادثة البركة. سارا مسافة أطول، ببطء شديد، إنّهما يوشكان على أن يمس أحدهما الآخر. كانت هناك زاوية. هناك سيحبسها بين ذراعيه، سيحبس تلك القزمة المقرفة، سيستحوذ عليها لأنّه يشتهيها، نعم، ولِمَ يخدع نفسه، كان يوشك أن

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد ٢١٥

يضاجعها بعد دقيقة من ذلك، حين يبلغان العتمة، لأنّ عضوه انتصب فجأة حين احتكّ بها ولم تستطع عينا إمبراتريث الناظرتان إلى الأرض تفادي ملاحظة ذلك، كانت تشتهي ذلك المسخ، ذلك الدعموص الذي له رأس كلب يعضّ ولا يطلق وينتزع القطعة، يمسك بها بين ذراعيه، يولج فيها سكسه، يقتلها لذة وهو يسلك فيها صارخاً سكسه العظيم...

شعرَ بسرواله مبللاً. خار عضوه. غطّى وجهه براحتيه وقد أسند كوعيه إلى المنضدة على جانبي الأوليفيتي. كيف الهروب؟ وإلى أين؟ إلغاء نفسه. ألّا يشتهي أحداً ولا يشتهيه أحد. الصفحة محشورة في الآلة، بيضاء. أن يذهب للبحث عن إمبراتريث. أن يخدعها لتسلّم نفسها إليه.

– إمبراتريث، رجاءً، اعذري لي طلبي. أنا في نهاية الأمر لا أساوي شيئاً، فلستُ أكثر من بوهيمي يهيم ساعات الغروب بحثاً عن مثل أعلى يهرب مني دائماً، لم تمسّه يداي المفردتان قط... إمبراتريث... تزوّجيني...

سقط رأس أومبرتو على الآلة الكاتبة. وقلبت ذراعاه مصباح المكتب. انزلق جسمه من الكرسي وأصبح كومة من الأنقاض في الأرض.

***

بحثت قدماي عن الخفّين. تدثرتُ قدر استطاعتي برداء البيت، إمبراتريث، إمبراتريث، إمبراتريث، قطعتُ الحقل حتى شقة القزمة، على الأقل كي لا أموت وحيداً، ومن يدري إن كان ذلك أفضل، ولكن لا، الموت بين ذراعي قزمة مقرفة خير من الموت مهملاً في برج صامت مخصص للكائن الكامل.

فتحوا. شكراً، أيتها الأم بنيتا، فحضرتك موجودة في كلّ مكان على الدوام لكي يفتحوا لي الباب في اللحظة المناسبة. الجميع عراة في حجرة إمبراتريث، كلّ المسوخ الذين يجرونني، ملتشور، وباسيليو، أرى تشوهاتهما المتحدية وكأنهما لا يشعران بالخجل منها، لا توهماني بأنكما غير خجلين، أنتما مختبئان هنا في رينكونادا لأنكما تعلمان أن لا أحد سيلتفت ليراكما تضحكان، أنتما لاجئان، دائرة الرعب تحيط بكما، تحبسكما، لن تستطيعا الخروج أبداً من رينكونادا، تستطيعان الخروج إن أردتما ذلك، فلديكما إذنٌ بالخروج، لكنّكما لا تخرجان، لا تستطيعان الخروج، مثلي أنا، فأنا لدي إذن بالخروج، لكنّي لا أستطيع أن أخرج على الرغم من أنني طبيعي، ترون أنني طبيعي، وكيف لا ترون ذلك وأنتم ترونني على <أريكة> إمبراتريث المفروشة بالموهير الزهريّ... أنتم أيّها المسوخ، تخشون الخروج، نخشى الخروج، نخشى أن يرانا أحد لذلك نختبئ هنا، وكيف لا يخشى الدكتور آثولا من أن يروه وقد غطّت الحراشف جسمه كلّه ويداه التي هي يدا طير جارح، تلمساني وتفتشاني وتتفحصاني بينما إمبراتريث تنزع عني رداء البيت وتتركني بالبجامة، تتحسس جبهتي وستواصل التحسس ولن أقوى مع ذلك الاتصال بالقزمة على السيطرة على التحكّم بنفسي أكثر، أفتح نفسي كاملاً وأتغوّط ويسقط خرائي السائل والمنتن والأسود ليلطّخ الموهير، وسجادة الأوبسون، <الأثاث المصغّر>، والستائر، يغطّي المسوخ وهم عراة وجوههم بمناديل بيضاء، يغطون أنوفهم، يهربون، لا يطيقونني، فأنا مقرف، يقدّر الدكتور آثولا أنني أنزف منذ بضعة أيام، هذا أمر خطير، يجب إجراء جراحة، لا يمكن إجراء الجراحة لأنّي ضعيف جدّاً، فقد فقدتُ دماً كثيراً، يفتح جفني، أبيض، لا بدّ من فحص الدم، قياس الضغط، هاتوا لي الأجهزة، ينزل ضغط الدم وينزل، ينزل، وينزل، يسدّ

المسوخ أنوفهم متقززين من شخصي لكنّ الفضول يسمّرهم بالقرب منّي، يغطون وجوههم بالمناديل لأنّي أواصل التغوّط، نقل دم، يقول الدكتور آثولا، لا يمكن أن أخشى شيئاً وأنا بين يدي الدكتور آثولا. من يريد التبرع بالدم لدون أومبرتو، أنا، أنا، أنا، أنا، الجميع يريدون التبرع بدمهم المسخ وكأنهم يريدون التخلص منه، لقد ارتدوا اللباس الأبيض ليخفوا أنني فاجأتهم في حفلة مجون، عراة لكنّهم يرتدون البياض، متنكرين بزي ممرضين بصدريات وكمّامات لا تخفي مسخهم، أنتِ مليسا، أعرفكِ من نظاراتك السوداء، وأنتَ باسيليو، وكيف أتيه عَنكَ، وأنتِ إمبراتريث وأنتَ آثولا وأنتَ ماتيو وحتى عاملة الهاتف ذات الأذنين التي تشبه جناحي الخفّاش تركت البدالة لترتدي الثياب البيضاء أيضاً وتشهدَ ما يجب أن تشهده، أعضاء رهبانية غامضة، رهبان من ملابس تنكرية ببراقع بيض من أجل رقصة فنتازيّة لا يكون فيها القناع واجباً لأنّ لكلّ وجهه، والمسوخ الذين يرتدون البرانس البيض والأقنعة العجيبة يستعملون الترمومترات والأنابيب والإبر والحقن الشرجية وأشعة أكس وقنينة أمصال تفرغ محتواها فيّ من مكانها المرتفع. كيس أحمر يملأ وريد ذراعي الأخرى بدم مسخ وأحسّ بدم باسيليو الفتي وهو ينساب في داخلي وتنمو ذراعاي وينتفخ فكاي، إنّها تحيلني إلى مسخ، دم بيرتا يشلّ قدميّ اللتين ما عدتُ أجرهما إلا كما تجرّ السحلية ذنبها، ومع فظاعاتهم الخاصة والفردية التي ألغتها برانسهم البيض ما عدتُ أميّز أحدهم عن الآخر، لا يهمّ لأنّي أميّز الدماء التي دخلت فيّ وكأنّها من طعوم مختلفة أعرفها، دم إمبراتريث يقلصني، ودم بوي يحدث فيّ حدبة، ودم ملتشور يملؤني جلطات حمراً تكوّن نوعاً من الرخام حين ينكمش في بياض الدم الذي وهبتني إياه مليسا، فقدتُ شكلي، ليس عندي حدودٌ معينة، أنا متقلبٌ، متغيّر فكأني موضوع في ماء متحرك يُنظرُ إليّ من خلاله،

يشوّهني حتّى ما أعود أنا، أنا غُروبُ الوعي المبهم هذا المسكون بالصور البيض التي تأتي وتنغز وريدي، كم عدد الكريات الحمر، ما عادت فيه تقريباً كريات حمر، يحقنوني، لكي لا أشعر بألم، لكنّي لا أشعر بألم، بل أنتم تخترعون لي هذا المرض، لماذا تريدون إقناعي بأنّ حالتي خطيرة إن لم أكن أشعر بألم، تأتون وتقيسون حرارتي، تأتون وتقيسون ضغطي، تهزّون رؤوسكم، ليس على ما يرام، ليست الأمور على ما يرام، إنّه يفقد دماً كثيراً، يجب إعطاؤه وحدة أخرى من الدم، دم من يكون، أنتبهُ، أحاولُ أن أعرف ما يحتويه ذلك الدم، أيّة فظاعة غريبة ستدخل في كياني، أيّ دم وفير سيضاف إلى دمي الحقير، ولمن يعود هذا اللون المجهول الذي يتغلغل فيّ قطرة فقطرة بقصد إنقاذ حياتي. ولكن لماذا ينقذونني؟ أيّة أهداف دنيئة تقود هؤلاء المسوخ المتنكرين ببرانس أنيقة من القرن الثامن عشر لا تطلّ منها غير الوجوه الفظيعة؟ يهمس أحدهم: «لن يخرج من هنا». دعوني أخرج، لا أريد أن أموت مخنوقاً بين جدران الطوب هذه التي تتقشر، ما أنتم إلا بقع رطوبة في الوحل، دعوني أخرج! دعوني على الأقل أعبر الخط غير المحسوس الذي يفصل شبه الظل عن الظلمة. بل لن ألحظ ذلك. أنا على الحافة. ولكن لا، لا يدعوني أعبر إلى الظلمة حيث لا وجود لأي همّ، يريدون الإبقاء عليّ في هذا الطرف، في شبه الظلّ حيث الحاجات لا تمتلك حافة والأشياء لا تنتقل إلا بصعوبة، تصرّ عاملة التلفون على التبرع لي بدمها الذي لا أريده، أفرك أذني، أسحقها لكي لا تكبر، أشقّ الغضروف، لا يخرج دم، طبعاً، فليس عندي دم، تكبر أذني على الرغم منّي، من دون حلمة، مثل مظلّة كبيرة تلتقط كلّ شيء، يريدون إنقاذي بدمها، أشتعلُ بدم ملتشور الأحمر، أذوبُ في ثلج دم مليسا، لا تلعبوا أكثر معي، إنّها لعبة، لا تنكروا ذلك، دعوني أعبر الخط، فهناك لا شيء يتحرّك، لا شيء يرى، الموت بسلام، لا أريد أن توخزوني مرّة أخرى.

دكتور آثولا، لا، لا أستطيع مقاومة ذلك الخرطوم الذي تحشره فيّ عن طريق الأنف حتى المعدة، هذه السرنجة التي تسحب لترات ولترات من دمي، دم أومبرتو بينيالوثا حين كنتُ أومبرتو بينيالوثا، دم ما قبل أن يضخّوا دماً مسخاً في أوردتي، حين كنتُ أنا وليس مسخاً متذبذباً، كريسوفورو آثولا يكرهني ويغار منّي لأنّه يعرف أنّ إمبراتريث مغرمة بي، يسرقني دمي ليعوضه بدم مأخوذ من المسوخ، دم لا أريده، لقد سمّروني إلى هذا السرير بينما ينتظر المسوخ صاخبين خارج باب غرفتي دمي الذي قد يكون قديماً لكنّه على الأقل دم طبيعي يشربونه، لا يحقنون أنفسهم، يطلبون صارخين دمي، المزيد من دم أومبرتو بينيالوثا، المزيد من دم أومبرتو بينيالوثا، أسمع صراخ الحشود المتعطشة التي تتجمع عند بابي، لا أستطيع الحركة لأنهم شلّوا حركتي بهذه الخراطيم المؤلمة، ولأنّ زيارات المسوخ مستمرة وهم متنكرون ببرانسهم ووجوهم الوسيمة التي يتبادلونها، يسألونني عن حالي، ويطلبون منّي قلقين ألا أقلق، لأنّ كلّ شيء سيجري على ما يرام، لأنها أمور روتينيّة، لا، لم يسأل أحد عن صحتي، هؤلاء الأطباء والممرضات يقولون إنّهم لا يعرفون ما اسمي، يسألونني، يأتون ببطاقات لملئها بمعلومات يحفظونها عن ظهر قلب لكنّهم يقولون إنّهم لا يعرفونني، لأنّهم وجدوني مرمياً في بركة من الخراء المخلوط بالدم وأنّى لهم أن يعرفوا اسمي، إنّهم ينزعون منّي هويتي، حتى هذه سرقوها منّي، أومبرتو بينيالوثا، أومبرتو بينيالوثا، أومبرتو بينيالوثا، أصرخ لهم باسمي لكنّ صوتي غير مسموع فيحركون رؤوسهم مشفقين عليّ، مسكين، يا له من مسكين، ويحفظون بطاقاتهم التي رفضوا أن يكتبوا فيها اسمي. أيتها الأم بنيتا، إنّهم يستهزئون بي لأنّهم يدركون أنّ ضعفي وصل بي إلى درجة أني نسيت اسمي، أنا عاجز عن التعريف بنفسي، ساعديني أيتها الأم فأنت تقية رحيمة، وإن كنتُ

لا أريد أن أعرف من أنا، ثمّ إنني ما عدتُ من كنتُ، هذا إذا كنتُ شيئاً في يوم من الأيام، لا تذهبي، أيتها الأم بنيتا، لا تطلقي يدي، لا تدعيني أموت وحيداً، لا أعرف كيف سمحوا لك بالدخول إلى هنا. لا. اذهبي. حضرتك لست الأم بنيتا. بل أنتَ أحد ما متنكر بالأم بنيتا. انصرفي. هنا أنَا لستُ بالشخص النكرة، أستطيع أن أنادي على إمبراتريث في الوقت الذي أشاء، هي لا تحبني كما تحبّني الأم بنيتا وحسب بل إنّها ترغبُ فيّ وتحبني وتريد الزواج بي وقد وعدتها بالزواج لأني أحبها أنا أيضاً، أستطيع أن أدعوها لتأتي وتجلس جنب سريري وتمسح العرق عن جبهتي بقطعة من القطن المعطّر بالكولونيا وأن تأخذ بيدي وتداعبها بعذوبة وتطلب منّي ألا أقلق، ألا أخاف، فهي تسهر على راحتي، وجميع المسوخ في رينكونادا محزونون لمأساتي، يتبرعون بلترات ولترات من الدم، سمينات، عملاقات، طوال ونحيفون، أشقاء سياميون، ضخام الرأس، حدب، برصاوات، أقزام من جميع الأنواع التي يمكن تصورها، كل ذلك الدم يجري الآن في أوردتي بينما الدكتور آثولا يسحب مني دمي القديم الدنيء سحباً بالخرطوم الذي أدخله في أنفي ويقول لي ألا أخاف، أن لا بأس عليّ، إنّه دم قديم، فنحن ننظف معدتك، لكنّي أعرفَ أنّ الأمر ليس ذلك. إنّها سرقة. أعرف أنّ دمي ذاك دم صالح.

هو أسود لأنّه مركّز وسيحتفظون به في زجاجات كتب عليها اسم يعرفونه لكنّه انمحى من ذاكرتي، أيتها الأم بنيتا، أنا تلك المجموعة من المسوخ الذين نقلوا لي تشويهات ليستولوا على دمي التافه.

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

١٧

هل أنا أطرش فوق ما أنا أخرس؟ وفوق ما أنا أعمى تقريباً إذ لا أميّز إلا بالكاد الرزم من الأجسام البيض التي ربّما تكون كراسيّ أو خزانات أو مغاسل أو شخصيات أو ستائر تظهر وتختفي وتبدّل مكانها وتنحجب وتنطفئ وتطوف من دون أن تعطي تفسيراً ثمّ، في غمرة طوافها، تنطفئ وتنمحي؟ لا أسمع وقع خطواتها. لا ضجيج. فكلّ شيء معمول من القطن والشاش وليس للقطن زوائد ولا حواف، إنّه طري، من الممكن نفشه، أستطيع أن أغرز أصابعي في حزمة القطن تلك، التي هي شخص، طبيب، ممرضة، أيّ شيء، أو أن أضغط بذراعيّ رزمة القطن الغريبة هذه المعلقة في الحائط، التي تشبه ضياءً مذيباً. أنا أيضاً من قطن. بيدي أطوف في جسمي. لا أشعر بشكله ولا مادته لأنّه معمول من القطن وأصابعي من القطن والقطن لا يقدر أن يستكشف ولا أن يشعر ولا أن يتعرّف، فقط يستطيع أن يحتفظ بطراوته وبياضه، «أحياناً» يميل عليّ إيحاءُ وجه خدوم، يفتح الوجه فمه ليقول شيئاً لا أسمعهُ، وتعاود المادة البيضاء الطريّة بلعَ تلك الخطوط لشخص يقترب من سريري، لأنّي في سرير، الشيء الوحيد الذي ليس من القطن هي القضبان البيض الأربعة أسفل سريري، حيث يعلّق المخطط البياني وعليه اسمي الذي يأخذه الطبيب ليدرسه وليناقش الممرضة البيضاء حوله. أحشر رأسي في قطن الوسادة.

- إنّه ينام.

- أحسن.

- هكذا لن يشعر بشيء.

ما الذي يجبُ ألا أشعرَ به؟ ممرضات أخريات يقتربنَ، وجوههن مستورة بكمامات من الشاش، الآن لا أستطيع أن أرى حتى أقنعتهنّ، يتهامسن يمسحن على الشراشف، يحرّكنَ كيس دم بعيد، قريب من السقف الأبيض، يتفحصن المخطط البياني، يحشرن المحرار في فمي، يتهامسن، يتسمن، يتسمن دائماً، يتسمن كثيراً حين ليس هناك من سبب لذلك، تضربني إحداهن ضرباً خفيفاً براحتها على يدي كما يُضرب طفل طيب:

- نمْ.

ذاك هو ما يريدون. لكنّي لن أنـام. ذلك الدم الذي يجري في الأنبوب إلى وريدي يسمح لي بالتشبّث بشيء أسود، أحمر، لمقاومة هذا النعاس الأبيض الذي يملؤني، ولأسمع بهذه الطريقة مقاطع من حوار تلك الكائنات المقنّعة التي تتهامس بأنّ دون خيرونيمو أمرهم بالحديث عن أنّه لن يوفّر مالاً ولا جهداً لإجراء عملية لي والعناية بي، وبأنّهم استأصلوا ٨٠٪ وتركوا ٢٠٪ وبأنّ ذلك كان خطيراً جدّاً، وبأنّ الموت يحوم غير بعيد عنّي.

أصبحت الأيـدي التي ترفع ثياب نومي، التي تجبرني على أن أضطجع جانبياً، التي تنزع عنّي سروال البيجاما الخشن خشنة فجأة، وخشنة هي الإبرة العدوّة التي تدخل فيّ، والسائل الذي تحقنه في إليتي، وخشن وقاس هو سهري الذي لا يصالح النوم إلا لماماً. إنّها جالسة بالقرب من سريري ترتّب السرنجات والإبر بصخب لا يطاق في إناء الحديد الخزفي الأبيض بشريطه الأزرق الرقيق. لماذا لا تفعل

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

ذلك بحرص وصمت أكبر إن كان دون خيرونيمو أمر بالعناية بي؟ أنظرُ إليها لأكرر ذلك عليها، ولكنّي لزمتُ الصمت لأني أتعرف عليها. إنّها هي. على الرغم من كمامتها البيضاء المرفوعة على مشبّك، مموهة بغطاء الرأس، إنّها هي تراقبني، هي التي تحرّك كيسَ الدم وتفتح الصمام قليلاً، أكثر، أكثر، كثيراً، وأحترقُ، أصبحُ أحمر، أشتعلُ ولا أستطيعُ تحمّل الحر والنار وألم جراحاتي لأنّ فيّ جراحاً لا أدري أين تؤلمني، لكنّها ستقتلني من الألم لأنّ ذلك الدم الذي يخرج من الكيس يخرج متدفقاً، يشعلني، كلّ شيء، كلّ شيء أحمر، ممزقاً بمخالب، منهوشاً بأنياب، مقطعاً على طاولة العمليات، السكين يستأصل ثلاثة أرباعي، الحرقة التي تكوي، الدم الذي يتدفق وأمتصّه، أنا مضروب في مئة وأحمر والألـم مضروب في مئة وأحمر، أنا ممزّق بأظافر وسكاكين وأسنان... الدم يسيل، يتدفق، يُقطع قليلاً، أكثر، وأبدأ أشعر بالدفء، أبرد، أتجمد، أنا هذه القطعة من الثلج الذي يقطر ويقطر، أنفي يقطر وتقطر يداي وقدماي، قطعة من الثلج تذوب ولا يبقى شيء. وتأتي ممرضات يكشفن عنّي دثاري، يتحاورن من دون أن يخشين مضايقتي، يجردنني من ملابسي وعليهن علامات الشعور بالاشمئزاز لأنّي وسخ، ومع مرور الساعات أصبح أكثر نتانة وأكثر قذارة ويتقززن من غسيلي وإن كنّ معتادات على هذه الأشياء، أنا من يثير قرفهنّ، البيجاما النظيفة التي يلبسونني إياها خشنة، لقد اخترن الأقدم والأكثر رقعاً، تحركني أربع ممرضات لتغيير الشرشف السفلي بينما يتحدثن بصوت عال عن بيدرو بيريث الذي اشترى سيارة وخرج للنزهة مع فرناندو فرنانديث الذي سُرّح من عمله لوصوله متأخراً لكنّه قال لغونثالو غونثاليث إن ليس من حقه فعل ذلك وينادين بصوت عال على ممرضة أخرى وقفتْ تضحك خارج بابي لتطلب من الصيدلية قنينة أخرى من المصل، ما عدن صامتات، ما عدن يحترمنني، لا يعاملنني

كما يعامل مريض أوصى به دون خيرونيمو، بل مثل سجين، أنا أظنّ أنّهن يضحكنَ منّي لأنّهن يعلمن أنّه أمرَ باستئصال ٨٠٪ من جسمي ولا يمكن احترام أحد استأصلوا ٨٠٪ منه... ماء، ماء، أظنّ أنني أقول ماء، ماء، لكن عليّ أن أقول شيئاً آخر لأنّهن يحرّكن رؤوسهنّ رافضات أن يعطينني إياه ولا يمكن رفض إعطاء كأس من الماء إلى أيّ أحد وإن استؤصل ٨٠٪ من جسمه. شيء ما قلب الممرضات ضدّي، سيجعلنني أتألم، فلأجل هذا هنّ موجودات، القضبان الأربعة في قدم السرير ليست قضبان قدم السرير بل قضبان الشباك الحديدية، لقد حبسوني في هذه الحجرة حيث يكرهني الجميع ممرضات وأطباء، والدليل على ذلك أنّهم يمنعونني من الأكل والماء وهو ما لا يمكن منعه على أحد، وتحت كمامات الشاش يرفعون أنوفهم من الرائحة المنتنة التي تنبعث منّي. وحتى لو لم تنبعث منّي رائحة منتنة فهم يقرفون منّي لأنّي أنا، ولأني وقعتُ أخيراً في يد دون خيرونيمو، المؤامرة أعدّت وتشكلت، وصدّقتُ كلّ شيء، سقطتُ في الفخ، التقطتُ السنّارة، منذ وقت طويل دبّر ما تتوّج بهذا: الإبقاء عليّ مربوطاً إلى سرير في زنزانة بقضبان، مخدراً، غير قادر على الحركة، مربوطاً إلى خراطيم وأنابيب مطاطية محشورة في أنفي، ودم مسخ أحتاجه لكي لا يغمى عليّ، حبيساً في هذه الحجرة البيضاء الصغيرة، مقابل هذا الشباك الذي أرى من خلاله شارعاً، بيوتاً، محطة خدمة، أحداً يمر من الرصيف المقابل، ميكانيكياً يرتدي بدلة زرقاء يجلس القرفصاء لفحص هواء عجلات سيارة، سيارة الصباح الأولى لأنّ الوقت مبكر وممرضات الوردية الجديدة أيقظنني بضحكاتهنّ في الممر، برنين تلفوناتهنّ: نعم، دون خيرونيمو، استيقظ للتو، أعطيناه حقنة أخرى للتو، لن يتعطل شيء، لا تقلق حضرتكَ، اتركه في رعايتنا، ستنفذ جميع الأفكار التي أعددتَها حضرتكَ بجد لسنوات طويلة، الذنب ذنبه، عليه أن يدفع عواقب

جسارته حين قال لك ذلك المساء في المتحف الأنثروبولوجي إنّه كان شيئاً ما، كاتباً، فليكتب إذن، لكنه لا يكتب شيئاً، بل يمضي الوقت متكلماً عمّا سيكتب، حياته، حياة الطوباويّة القريبة، رواية، مقالة فلسفيّة، يغيّر كلّ يوم أو هو دائماً الشيء نفسه بصيغ مختلفة، لا يحسم أمره، لا يستطيع أن يبدأ، كلّما جلس أمام الآلة الكاتبة انتهى بورقة بيضاء محشورة في الأوليفيتي، وإن تذكّرتَ جيداً، دون خيرونيمو، نستطيع التأكيد بأنّ هذا الفرد لم يقل لك إنّه «يريد أن يصبح كاتباً»، وهو ما كان سيكون في صبيّ مثله آنذاك مؤثراً ومفهوماً، بل قال لك: «إنّه» كاتب، فكأنّما ولد كاتباً، طبعاً، أنتنّ ممرضات وعليكنّ أن تقمنَ بدورة صعبة ومكلّفة لتكنّ كذلك ولا يمكنكنّ فهم أنّني حين قلتُ: «إنني» كاتب لم أكذب، كنتُ كاتباً حين شعرتُ بأنّ هذه الشخصيّة أجدر بالخيال منها بالواقع. قطعتُ العهد. قلتُ بصوت عالٍ ما لم أقله لأحد قط:

- أنا كاتبٌ.

قطعتُ ذلك العهد مع حضرتكَ، دون خيرونيمو. ما كان في مقدورنا أن نفترق، ربطتُ نفسي إلى رينكونادا، إلى إينيس، إلى بيتا، إلى حضرتكَ، إلى البيت، إلى الأم بنيتا، إلى هذه الصور البيضاء لحفلة الرقص التي نظمتها إمبراتريث قبل أعوام: «في المستشفى». لقد حلّ هذا الأمر محل الطلب الباهت الذي وجهه لي أبي، الدكتور في القانون: ولدي، هذا أمر يستحق العناء، إن أفلحتَ في أن تصبح هذا فستكون شخصاً نابهاً، وأنا لم أحك شيئاً لأبي بل لم أعترف حتى لنفسي بأنني كنتُ أكتبُ أبياتاً شعريّة في الليل، على ضوء الشموع لكي لا يشكّ بذلك أحدٌ في بيوتنا المختلفة دائماً، المتشابهة دائماً، الصغيرة دائماً، ببالكون واحد لكي تجلس أختي لتنسج حلمها في امتلاك بيانو مغطى بشال مانيلا. كنتُ أحياناً أقول لأبي في الليل:

- عليّ أن أذهب إلى اجتماع حزبي.

كان هو يعقد لي ربطة العنق. وحين أصل إلى الناصية كنتُ أفكّ العقدة. كنتُ أذهب إلى بار هيركوليس وأجلس إلى طاولة في الزاوية لأنتهي من كتابي. كانت روسيتا تأتي لي بساندويش وكأس من النبيذ الأحمر:

- إن لم تكن معكَ نقود فادفعْ لاحقاً.

كنتُ أنتظرُ حتى ساعة الإقفال. أرافقها إلى بيتها: اسمي ثويلا بلانكا روسا لوبيث أرياغادا، قالت لي، وقد شعرتْ بالخجل حين تنبّهتْ إلي أنّ اسمها بدا لي متكلّفاً، لكنّ ضحكتي لم تدم إلا قليلاً بعد أن تغلّبَتْ عليها طيبة الفتاة وهي تعترف لي بأنّ أباها، حين ولدتْ بعد أربعة أخوة ذكور، وبعد ما رآه من جمالها ومن بياض بشرتها وتوردها أطلق عليها لحظة تعميدها ذلك الاسم: ثويلا بلانكا روسا. كنتُ أداعبُ باطن ذراعيها، ما أقلّ لون الورد في روسا، وأعيرها شالي فالوقت خريف وأوراق الموز تتساقط. وفجأة صار كلّ شيء خطيراً، جدّيّاً ومثيراً للعواطف، وإن رأيتُ أنّ من المضحك التسمّي باسم ثويلا بلانكا روسا. نعم، مضحكٌ لكنّه جدّي: ذلك التكلّف كان ضالتي، ما كنتُ أحتاج إلى قفزات ولا إلى جسور لكي أدرك أنّ ضالتي هم أصدقائي الجدد في الجامعة، أولئك الشعراء المسلولون الذين كانوا يجتمعون في بار هيركوليس، أحذية مبللة ملطخة بنشارة الخشب على الأرضيّة، يلعبون الدومينو مع عامل ذي برنيطة حمراء من عمّال المحطة المجاورة، بعضهم فوضويون، آخرون متدهورون منهارون، فقراء جميعهم، وداعاً للنصوص، أنا كنتُ قد بعتُ نصوصي لشراء السجائر، فلا للحزب التقليدي ولا لأربطة العنق ولا للألقاب الطنانة، أصدقائي الذين لم يحسنوا حلاقة لحاهم كانوا لا يذهبون إطلاقاً تقريباً إلى الدرس، كانوا يجتمعون في بار هيركوليس قبل أي شيء للتندر

على مدرسيهم، لفتح علبة أرسلتها من الجنوب أم فلاحة مشتاقة لأنّهم ذبحوا الخنزير لكي يأكل ابنها السجق المعمول من دمه وملفوفاً وأفخاذاً مع أصدقائه، كان موردهم قليلاً فما كانوا يستطيعون أن يرسلوا له على الأقل تلك العلبة المعطرة من الفلفل الأحمر والكزبرة والثوم لتساعده على تحمّل برد الشتاء، أو قهوة للبقاء مستيقظاً، نهايات الأعصاب مشدودة، أصدقاء، رفاق، تنبعث منهم رائحة النبيذ الذي شربوه وقد عقدوا أربطة أعناقهم العريضة على قفاهم من البرد في البار وفي البنسيونات التي يسكنون فيها وفي الشوارع التي يسلكونها مشياً على الأقدام، مبللين من المطر، وطراق الحذاء مستهلك، وثقبه مسدود من الداخل بقطعة من عجينة الورق، ولكن مشياً على القدم فلا بدّ من توفير سنتات بطاقة الترام لدعوة الصديق إلى كأس من النبيذ الأحمر، بيع كتب الدراسة، رهن الساعة، ماذا تجني من الكتابة، أومبرتو، إن لم تكن تمتلك ولا درهماً للنشر ثمّ إنّك تحتاج إلى نفوذ لكي ينشر لك ناشر، تحتاج اسماً وأنت لا تمتلك اسماً، أفقدُ الرغبة في الدراسة وفي (نيتشه) الذي ما عدنا حتى نتكلم عنه لأنّ ذلك من اهتمامات البرجوازيين الصغار في السنة الأولى والثانية ومتأنقي الجوارب الجلدية. يسعل لويس، يسعل بشدة فيحملونه وما عدنا نعرف عنه شيئاً.

– لا بدّ أنّه مات.

– محظوظ أنّه مات شاباً.

– اطلبي لي كأساً أخرى، روسيتا. سأدفع لك يوم الاثنين.

– كيف ستنشر إذن، أومبرتو؟

بالاكتتاب، طبعاً. تكلمتُ مع صاحب مطبعة. دفعة أولية تكفي. بعد ذلك، ومع بيع المزيد من النسخ سأدفع البقية، لكنّ الدفعة

الأولية ضرورية. حينئذ كتبتُ لحضرتكَ مذكّراً بلقائنا في المتحف الأنثروبولوجي، حين عَرضتُ عليكَ كتابي الذي لم يكن منشوراً بعدُ لانعدام المال اللازم لتلك الدفعة الأولية. في بقية البريد وجدتُ عقب أيام رسالة ودية مرفقة بشيك لا يكتتب بنسخة واحدة بل بمئة نسخة من أصل خمس مئة. حملتُ مخطوطتي والنقود إلى صاحب المطبعة.

وحين ظهر للمرة الأولى اسمي الذي ما عدتُ أذكره، لكنّي أعرف أنّه مكتوب أسفل سريري في المخطط البياني الذي تطلع عليه أحياناً البرانس البيض وهنّ يهززن رؤوسهنّ، والذي لا تعرفينه حضرتك، أيتها الأم بنيتا، لأنّي بالنسبة إليك لستُ إلا الموديتو الذي يكنس وينظف ويتلقى البقشيش ويصلّح المواسير ويغلّق الشبابيك، بكى أبي من الفخر. «عبقرية مبتدئة لا تجرؤ على الخروج من شرنقتها إلا قليلاً، لكنّها تعدُ بإحساسٍ فنّي عال، بشعور مرهف يبلغ حد المرض، يتلذذ بفخامة الصور المتدهورة أحياناً، لكنّه اسم ظهر لكي لا ينسى، لأنّه وإن كان جديداً فقد ترك بصمته، مطبوعاً برقّة إحساسه الفنّي في أدبنا: أومبرتو بينيالوثا». هكذا أدعى، أمّاه: أومبرتو بينيالوثا. كنتُ أعرفُ أنني لن أنسى اسمي إلى الأبد، فلا أحد سيسرقني إيّاه، ولماذا سترغب هؤلاء الممرضات المتشحات بالبياض، هذه الصور القطنية، في اسم على هذا القدر من القبح. أبي لم يكن يعرف... وكيف له أن يتنبأ بميولي هذه، لماذا أخفيتها عنه، كان سيفهم، حرفة الأدب يمكنها أيضاً أن ترفع الرجال إلى القمّة. اسمي مكتوب هكذا، بحروف كبيرة متصدراً مقالة الصفحة الأدبية في أهم صحف الأحد، يعطي سمعة للعائلة، فلتقرأه، فهناك في ذلك المقال من الجريدة يظهر واضحاً، أومبرتو بينيالوثا، الذي كان أيضاً اسمه، طلب المقص من أمي وطعنه بقسوة في الورقة لقصّ ذلك المقال. قلتُ له إنّكَ كنتَ حضرتكِ، دون خيرونيمو، من تكرّم واكتتب بمئة نسخة من الطبعة الأولى ليصبح

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد ٢١٥

ممكناً ظهور كتابي ذي المئة والثمانين صفحة وذي الكعب الأخضر القبيح.

– دون خيرونيمو دي آثكويتيّا! كيف تعرفتَ عليه؟

– هذا شأني.

ظلّ ينظر إليّ مشوشاً قبل أن يسألني:

– هل زرتَه لتقديم الشكر له؟

– لا

– هذه هي مصيبة المصائب. غيّر ملابسكَ... بدلتكَ الغامقة، أفضل قمصانك... وإن لم تكن جاهزة فلتكوها لك أمك. ستذهب لزيارته. كيف يمكنك أن تقصّر في شعورك بالعرفان؟ كيف يمكن لولدي، الذي يحمل اسمي...

كانت تلك المرة الأولى التي يجروٴ فيها على التحدث عن اسمه.

– الذي يحمل اسمي أن يتصرّف تصرّف الجاحد...

صرختُ بأني أموتُ من ألم معدتي منذُ أن وخزتني بالمقص لتسرق مني انتصاري. لتتوقفَ أختي الغبيّة عن لصق قصاصات المقالات التي تذكر اسمي في ألبومها، وتكفّ عن تزيين حافات كلّ مقال بأكاليل الزهور والحمام، أعذْلي ذلك الألبوم لأحرقه، إن أردتَ معرفة الحقيقة فأنا ما عدتُ أنتمي إلى الحزب، أنا أسكرُ كلّ ليلة تقريباً في المقاصف مع أصدقاء يفرحون حقاً بانتصاري الذي ليس هو بالانتصار بل مجرد نجاح صغير وهم يعرفون ذلك ويقدرونه بطريقة عادلة لا تزيد ولا تقلّ عما يستحقه فعلاً، ما عدتُ أذهبُ إلى المدرسة، لا أفكرُ في أن أصبح محامياً ولا موثق عقود، لا أريدُ أن أصبح شيئاً، دعني وشأني، لا تسلبني القليل الذي لديّ وهو ملكي، كتابي... لن تحملي مهراً لزواجكِ، يا ابنتي، كان يقول لأختي، لكنّ زوجك سيفخر بهذا الذي

تستطيعين أن تعطيه إياه: كتاب القصاصات الذي يكرر ويكرر بأنّ أخاك موجود، بأنّه ذو شأن، بأنّ له اسماً.

- لا يمكنكَ أن تلطخ اسمي.

- ومتى كان لكَ اسم!

ضربتُ الباب بقوة وأنا أخرجُ. ولم أعد ثانية. في الليلة التي ظهرتَ حضرتك فيها، دون خيرونيمو، في بار هيركوليس تبحث عنّي، كنتُ أسكن، ومنذ أشهر، مع روسيتا في حجرة تنبعث منها رائحة النظافة، كائنة فوق مصبغة لغسل الملابس وكيِّها. ومع جسدها الغض الصغير، المدثّر مع ذلك دائماً، الملتفّ على جسمي ليلاً، ما عاد لأبي ولا لمطالبه من وجود، حتى تشنجات معدتي بدأت تختفي. ما كانتْ تسألني عمّا أكتبُ. وما كان يسألني أيضاً عمال المحطة ذوو البرنيطة الحمراء الذين كنتُ ألعبُ معهم الدومينو. وبدأ رفاقي الجامعيون يتفرقون للحديث في بارات أخرى، أمّا أنا فقد بقيتُ في هذا، أكيّف نفسي فيه لأنّ روسيتا كانت تبتسم لي من وراء ماكينة القهوة... ما كنتُ أفتقدهم، الشاعر المسلول مات في كوخ كما كان يجب أن يموت، مانولو حصل على عمل في صندوق المستخدمين الخصوصيين، موظف صغير، عجوز، وماذا في يدي لأفعله له، لقد تعبتُ من الجوعَ ومن سماع أمي وهي تردد أن لا شيء عندنا، لا شيء، لا شيء، نيكانور عاد إلى مدينته التي يكثر فيها المطر ليتزوج هناك من خطيبة صباه التي وافق عليها أبواه لأنّ أملاكهما كانت قريبة من أملاك أولئك، قطع أراض صغيرة قد تصبح عند دمجها... لكنّ نيكانور لم يحدثنا قط عن هذه الخطيبة السريّة، وأنا كنتُ ألعب الدومينو هادئاً إلى أن رأيتُ حضرتكَ تظهر عند الباب. تقدمتَ نحن طاولة الخدمة لتسأل روسيتا إن كنتُ موجوداً. أشرتَ إليّ بإصبعك البريء هناك في نهاية الصالة بالقرب من مدفأة لا تدفئ إلا قليلاً، ونظرتَ إليّ من فوق كومة الزبائن

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

المنتنين تحت الضوء الضارب إلى الصفرة، أنت، روسيتا، أشرت عليّ لتسليمي إلى دون خيرونيمو، مربوط القدمين واليدين، عاجزاً عن المقاومة. شعرتُ بالألم هنا، في موضع هو الآن مغطى بطبقات من القطن والشاش والقماش اللاصق وصار يشتد ويحتدّ ويحتدّ كلّما اقتربتَ منّي بين الطاولات المزدحمة. أسندتُ كوعي على الرخام على جانبي أوراق لعبي وأنا أحاول التركيز على الحركة اللاحقة، لكنّ المقص قطع نفَسي، حضرتك من خلفي، صامتاً... كيف عرفتَ بمكاني، ربّما ذهبتَ إلى بيت أبي، ربّما أدخلكَ أبي المتملق الذليل إلى صالتنا المؤثرة، تلك الطاولة العرجاء، تلك السجادة التي نسجتها أختي، ربّما أطلعك على الألبوم، وقدّم لك أمي محتشمة مرتابة، الساخرة في داخلها...

- خنزير ثلاثة.

طرحتْ يدُ دون خيرونيمو الكارت. نهضتُ لمواجهته:

- لماذا جئتَ، أيّها الغندور العفن؟

حضرتكَ ضحكتَ. لا، في البداية ابتسمت فقط.

- ألا تعرفني؟

خفتَ صوت الأحاديث في الطاولات الأخرى. كان صاحب البار وروسيتا ينظران إلينا من بين النقانق المعلقة والدخان. همس أحدهم:

- ستقع مشادة.

حينئذ ضحكتَ حضرتك بحق.

- لا، لن تقع مشادة.

استدرتَ وخرجتَ من بين الطاولات. خصمي، الذي بقي يراقب ما كان يحدث وراء ظهري، قال إنّ المتأنّق توقف دقيقة قبل أن ينصرف، كتب شيئاً وسلّمه إلى روسيتا. ربحتُ الجولة.

- أنا ذاهب.

- أهكذا باكراً هذه الليلة؟

- مباراة الثأر غداً.

كنتُ أعلمُ أن ليس هناك من غد. لففتُ الربطة على عنقي. دنوتُ من طاولة الخدمة لأقول لروسيتا:

- أنا ذاهب.

- إلى أين؟

- لستُ على ما يرام، بطني...

كنتُ أهمّ بالخروج حين نادتني:

- اسمعْ

- ماذا؟

- الغندور ينتظركَ غداً الساعة العاشرة في بيته. هذه بطاقته وفيها عنوانه. مزقتُها.

- ليذهب إلى الجحيم.

طبعاً، لم أكن أحتاج إلى عنوانه، كنتُ أعرف واجهة بيته الصفراء مقابل أشجار المتنزه، لذلك لم يكن تمزيق البطاقة إلا حركة استعراضيّة لكي لا تنتبه روسيتا إلى أنني بعد تلك الليلة لن أنام محشوراً في لحمها.

١٨

منذ البداية، منذ هيركوليس، لا، منذ قبل هيركوليس، منذ تلك الأمسية في المتحف الأنثروبولوجي أو قبل ذلك حتّى، حين خدشني قفازُه في ذراعي بالشارع، كان كلّ شيء قد رُتّب بعناية، خطوة بخطوة، بصبر وأناة، حبسني داخل ثقته حين دخلتُ في خدمته، جعلني شاهداً على حبّه ليُمسك بي، إينيس كانت طعمَ سنارته، التفوق بين المسوخ حيث كان عليّ أن أجسده بلحمي الحقير وأن أكون والد ابنه، الإغواء الأخير، السنارة الأدق، التقطتُها، السنّارة اخترقتني وما عدتُ قادراً على الانعتاق، مربوطاً إلى سرير يتوهج فجأة ويتجمد فجأة، حقنة بعد حقنة لا تدع لي مجالاً للتفكير فلا تنكرنّ أنّها مخصصة لذلك، لانتزاع الضوء مني وإغراقي في هذه العتمة التي ما هي بالحياة ولا هي بالموت، كيس دم بعد كيس دم يحول دون موتي لكنّه لا يسمح لي أيضاً بلمّ الفضلات المتناثرة التي بقيت في وعيي، لماذا، دون خيرونيمو، لماذا، أليس هو لتحويلي إلى أمبونج، أليس هذا هو ما تريدني من أجله العجائز الطيبات اللاتي أعيش بينهنّ لأنّ ذلك سيعني السلام التام، كلّ شيء مخيّط بدل أن يكون كلّ شيء مفتوحاً في قطوع دقيقة بمشرط الدكتور آثولا، مخيّط أنا وأنا أسمعُ خطواتهنّ المترددة المتذبذبة في الخارج، لا، هنّ لا يردنَ فتح شقوقٍ فيّ، هنّ يأتين لخياطة جراحي لأنّهن طيبات، أراهنّ من النافذة وهنّ

يتمشين في الشارع ينتظرنَني عند ناصية محطة الخدمة، يبدو أنّ من تبتسم لي من النافذة المقابلة هي دورا، لماذا لا تدعهنّ يدخلنَ لرؤيتي، في جميع العيادات ساعات زيارة، أمّا هذه فلا، لأنّها ليست عيادة، هي سجنٌ أبيض، ولذلك فإنّ العجائز الطيبات اللاتي أنا واحدة منهنّ ينتظرنني في مربع النافذة ليمنحنني السلام ويحملنني ويغلّفنني في علبة لكي لا أبرد، لذلك جلبن أكياسهنّ التي أعددنها، لا يردن منّي شيئاً، هنّ صبورات، ينتظرنَ على غير عجل لأنّ وقت العجائز لا نهاية له، يحللن الواحدة مكان الأخرى، لا، لسنا في عجلة من أمرنا، يمكننا الانتظار حتى يفرغ كيس الدم في وريد الموديتو المسكين.

الطقسُ باردٌ في الخارج. تهبّ ريحٌ باردة أعرفُ أنني لن أشعرَ بها مجدداً أبداً، كما الحال مع الماء الذي ما عدتُ أستطعمه لأنّهم يرفضون إعطائي إيّاه، وكأن الماء يؤذي أحدهم... لا أرى ريحاً، لا أرى أعلاماً ولا بيارق ولا أشجاراً ولا أميّز ملابس المارّة، في الواقع يبدو أن ليس هناك مارةٌ ولا سيّارات، لا شيء يتحرّك في هذا المشهد من المدينة التي يتنبأ الواحد فيها ببرد الشتاء. سيجدونني هنا دائماً في هذا الكونسرفاتوار الساخن جدّاً.

أغمض عينيّ كي أبعدَ حنيني القاتل للشارع. خلف جفنيّ أرى اليقين: «يريدون الإبقاء عليكَ حيّاً هنا من دون أن يدَعوكَ تخرج ليسرقوا منك أعضاءك، وها أنتَ ترى، لقد أخذوا منك ٨٠٪...». طبعاً! هذا هو ما سيفعلون. ما يفعلونه الآن. أفتحُ عينيّ: لم يتحرّكْ شيء في مربّع نافذتي. أحاول النهوض. لا أستطيع. من يدري كم من الوقت مضى وهم يربطونني إلى هذا السرير، غارقاً في هذا الغروب. طبعاً! بدؤوا باستبدال دمي: رأيتُ بأمّ عيني الدكتور آثولا وهو يُخرج سرنجة بعد سرنجة من الدم من معدتي ويسلمه إلى الحشد الصاخب الذي ينتظر دمي الجيد، وبه يهدؤون للحظات. يستعدون للمتابعة

مع البقيّة: سيستأصلون أعضاء صحيحة ليضعوها للمسوخ بدلاً من أعضائهم المعطوبة. البارحة شعرتُ بالمنشار الذي كان يقطع قدميّ، كيف رسموا دائرة حمراء حول كعبي اليمنى، بعد ذلك، اليسرى. وهذا الصباح استيقظتُ وقد صارت عظمت قدماي وظهرتْ بين أصابعها أغشية صفرٌ، قدمان مسطحتان، وأظنّ أنّهم فعلوا الشيء ذاته مع يديّ، لا أريدُ النظر إليهما، لقد سرقوني إياهما واستبدلوا بها هاتين اليدين المفروشتين الغريبتين اللتين لا أريدُ رؤيتهما ولذلك أخفيهما تحت الشرشف كي لا أرى الأغشية المقززة التي تربط أصابعي المتشابكة في نسيج عنكبوتي غليظ من لحم مسخ. لا بدّ من وجود قائمة من الأولويات التي ستتحكم بها إمبراتريث. لم تأت، إمبراتريث، لا شكّ أنّها مشغولة في مكتب الاستقبال، ترتدي برنيطة بيضاء منشّاة، لتخفف من جشع المسوخ لحيازة أعضائي، يجب أن نتحرّك بالدور، أولاً مسوخ الدرجة الأولى، بعد ذلك مسوخ الدرجة الثانية، قلّ لي ما اسمكَ، ماذا تريد، وجه كامل جديد لتحل محل وجهه ذي الملامح المشوّهة، هذا هو أصعب شيء لأنّ هناك طلبات كثيرة على الوجه، الجميع يريدون وجوهاً جديدة وليس هناك منها إلا القليل، تتأخر العملية أكثر، إنّها أبطأ وأدقّ، فالوجه، لنقل، أهمّ من القدم.

بعد ذلك جلدي، سيسلخون جلدي ليغطّوا به جسم مليسا الأمهق، وسأستيقظ بعد مَن يدري كم يوم من التخدير وقد تحوّلتُ إلى روح بيضاء بنظارة سوداء... وأنفي، وكليتاي، وذراعاي، ومعدتي، لا، معدتي نزعوها منّي، على الأقل ٨٠٪، كبد، رئتان، كلّها صحيحة أعطوها للمسوخ الصاخبين الذين يصطفّون أمام مكتب إمبراتريث الصارمة، لأنّها مدققة، واعية للأسبقيات والاحتياجات، تسجّل صليباً، نقطة، إذا كان أحمر فمعناه مستعجل، قاعة الانتظار تغصّ بالمسوخ الطامعين في تفاهتي، بالعمالقة الذين يريدون قامتي، بالمبقعين الذين

يتطلعون إلى بشرتي الزرقاء الضاربة إلى السواد، بالأمهات الطبيعيات اللاتي يجلبن أبناء مشوهين لكي أعطيهم أنا شيئاً، أيّ شيء صحيح ما دام يشفي ولدي المسخ هذا، أبناء طبيعيون يجلبون آباء مشوهين ليروا إن كان في الإمكان في سنّهم هذا فعل شيء لمحو العار، بأن يحمّلوني أعضاءهم المعطوبة التي راحت تشكل أنا جديداً لن يرَ النور أبداً، الدمامة كلّها مجتمعة، حيث سأكونُ فيه محكوماً بأن أظلّ أتعرّف على نفسي، في ذلك الجحيم المتذبذب بين ما هو مريض وما هو مشوّه وما هو مضحك وما هو خاطئ الذي سأكونه أنا، بينما أعضائي الصحيحة المزروعة في من كانوا مسوخاً ستجعلهم أصحاء، وستجرّدهم من دمامتهم حتّى يتحولوا إلى كائنات تافهة تماماً مثلي بينما أنا مربوط إلى هذا السرير، أنظرُ إلى مربع تلك النافذة المغلقة وحسب، أنتظرُ أن يخدروني مرّة أخرى ليسرقوا كلية أخرى، أذناً، الأظافر ليضعوا مكانها مخالب، سيصبح جميع المسوخ صحيحي الجسم في رينكونادا، سيصبح الجميع طبيعيين، تافهين، أحراراً، عامين عاديين لكي يبدؤوا حياة طبيعية عادية في المدينة أو في الريف، لكي يكون لديهم جيران ويعقدوا صداقات، وأنا، هنا في الداخل، محبوس فيهم...

هذا غير ممكن. لا بدّ أنّ الأمور جرت على نحو مختلف. شيء آخر. فأنا في نهاية الأمر كائن محدود. ليس عندي سوى رئتين، أنف واحد، أذنين، اثنتين وثلاثين سنّاً، يدين، قدمين... حين صحوتُ، لا أعرفُ أيّة ساعة من النهار أو الليل إذ لم يتغيّر شيء في نافذتي، لا الضوء ولا الظلمة، انتبهتُ إلى شيء غريب جدّاً: فقدماي ويداي ما عادتا مسطّحتين، وحين زرعوا أطراف المسوخ المعطوبة وأعضاءهم فيّ استعادت صورتها الطبيعية. لذلك فهم يخدرونني. وأنا مخدّر، أحسّ بمبضع الدكتور آثولا يقطعني، أحسّ بهم ينشرون عظامي، يشقون،

يخيطون، يقطعون، ينزعون، يقتلعون قطعاً من جسمي هي ليست من جسمي لكنّها حين زُرعت في جسمي استعادت حالتها الطبيعية، أنام، لكنّي أحسّ بكلّ شيء، لذلك فهم يغلقون عليّ هنا ولن أخرج لأني مُستنبتُ أعضاء ومصنعُ أطراف صحيحة، لذلك لا يتركني دون خيرونيمو أموت، لذلك أقام هذا المصنع الذي لا يعمل فيه سوايَ، ولا ينتج فيه شيء غير جسمي. ولكي لا أنتبه إلى هذا الاستغلال فأنا باق في حالة شبه وعي، مفرّغ إلا من القليل من الهواء، قليل جدّاً، كاف لكي لا أموت تماماً، ومع تبادل الأعضاء هذا سيطول وقتي ويطول، ولأنني لن أكون شخصاً من جديد، بل سأكونُ أرضاً لزراعة قطع من أشخاص آخرين، فلن أموتَ أبداً، سأطيلَ غروبي إلى الأبد من دون أن يحدث شيء غير التخدير الدوري، النزيف اللاحق، الذي لا يعرفه دم المسوخ الراغبين دائماً في التبرع بما يفيض عن حاجتهم، لا شيء يحدث، لا جديد، يتقلص الفرقُ بين النوم واليقظة، لا، دون خيرونيمو لن يتركني أموت، يريدُ أن يتغذى عليّ كل مسوخ العالم وأن يختفوا من على وجه الأرض وقد تركوا لي حمل دمامتهم. في الممرات والباحات خارج بابي أسمع صياحهم: أذنٌ لي، إبهامُ القدم اليمنى، لا، يجب أن يكون الأيمن لا الأيسر، طيب، عليك إذن أن تنتظر لأنّ الإبهام الأيمن مطلوب... أربعِ ورديات، من يدري كم من الوقت، «أحياناً» تتأخر الإبهامات كثيراً في النمو من جديد، جفن، قطعة من الجلد، إصبعٌ ليد مسخة ولدت بأربعة أصابع، سينمو لي من بعدُ آخر وسيعاودون أخذ أصابع منّي ووضع أخرى لي، وأخذ أنفي ووضع آخر بدلاً عنه... يستطيل الوقت الذي أنا لاهٍ عنه، لا شيء يتغيّر، لا شيء يتحرك في الشارع الذي تؤطره نافذتي، لا ليلاً ولا نهاراً، لا مع البرد ولا مع الحر، هذا الاستبدال الأبدي للأعضاء الذي يجددني، دون أن يكون لي الحق في الموت، الزمن الثابت والمطاط، الأشياء المتشابهة، لا ماء

ولا لا ماء، كلّ شيء أبيض، كلّ شيء في شبه عتمة، أصوات مطفأة، الساعة من دون عقارب، القلب من دون نبض، لا أحسّ بالجوع في ساعات الجوع وفي أيّة ساعة لأنّي لا أمتلك معدة، سرقوها منّي، ٨٠٪ وأحياناً أكثر، الوقت لا يمضي في شبه العتمة هذه التي تحرمني من حق هزة الجماع النهائية.

***

يظنون أنني نائم. يتكلمون بصوت خفيض. الدكتور آثولا يفحص الرسم البياني. حرارتي؟ ضغطي؟ الزيادة في كرياتي الحمر أو اختفاءها؟ يريه لدون خيرونيمو. يعلّق على الرسم، يسألان الممرضات اللائي يحطن بهما عن بعض التفاصيل، نعم، هنّ يقلنَ نعم والدكتور آثولا يعود إلى تعليق الرسم البياني. أنا لا أفتح عينيّ، ولكن بما أنّهم وضعوا لي جفوناً مقلدة، شفافة، فأنا أرى كل شيء. دعهم يظنون أنني نائم. أنا لستُ مستعداً لأن يكلّمني دون خيرونيمو ولا أن يعاملني بلطف، وكأنّ شيئاً لا يحدث هنا. إنّه عدوّي. كلّهم أعداء. لن أفتح عينيّ.

– إنّه جيد جدّاً، دون خيرونيمو.

– وفي ظروف مناسبة للعملية الكبرى؟

– إنّهما عمليتان متزامنتان، دون خيرونيمو. سأخدركما كليكما على طاولتين متجاورتين وفي الوقت نفسه، وبينما أفتح حضرتكَ وأجهزكَ للزرع، عليّ أن أستأصل أعضاء أومبرتو لأنقلها إلى جسمكَ، المهيأ لتلقيها...

– شرط أن أكونَ بخير. يمكنكَ أن تفعل بأعضائي التناسلية ما تشاء، بل يمكنكَ رميها في الزبالة. لقد عادت غير ذات فائدة لي بعد أن تمكن هذا السافل الحسود الخائن من أن يسكرني بدسيسته لكي أضاجعَ... أنا... عجوزاً مقرفة، مقززة ذات سكس عفن، لوّث

سكسي وعطّله إلى الأبد. بينما هو، الذي كان يبدو منقاداً، كان مع إينيس. لا، عجباً، لا! إينيس ما كانت تعرف هي الأخرى بأنّ من كان يضاجعها هو أومبرتو، كانت تظنّ أنني كنتُ أنا! لن أغفر لهذا السافل القذر أنه مسّ امرأتي، لن أغفر له أنه تجرأ على الاقتراب مما هو بالنسبة إلى من هو مثله، محرّم، مما ولد هو محروم من مسّه. يجب معاقبته. ما عليه أن يستعمل سكسه مطلقاً. ازرعْه فيّ، أمّا سكسي فلا تضعوه له وإن كان غير ذي نفع، ارموا به في الزبالة.

حين خرجوا من حجرتي فتحتُ عيني. نظرتُ إلى النافذة، الشارع بلا نهاية، ثابتٌ مثل صورة شيء يومي مألوف، بلا أهمية، بلا جمال، صورة مأخوذة لمجرد الأخذ، من دون هدف، ربّما فقط للانتهاء مرّة واحدة من شريط فيه صور أخرى مهمّة، وليس هذا المنظر البائس لشارع لا يتغيّر فيه شيء. غمرتني راحة كبيرة حين نظرتُ إلى تلك الصورة المكبرة الملصقة على الجدار والتي في مقابلها، في هذه الحجرة، ستمضي حياة التبديلات اللانهائية التي أحياها. سلام وفرح. ولمَ لا؟ دون خيرونيمو أكّد ذلك: أنا، تلك الليلة، في حجرة بيتا بونثي، ضاجعتُ إينيس. تحسستُ جمالها. وما يهمّ إن كان الموتُ حينها محظوراً عليّ؟ والماء؟ والنوم الناجز واليقظة التامة؟ كيف لي ألا أشعر بالسكينة وأنا أنظر إلى ذلك الشارع الوحيد الذي يضيع في البعد الرتيب لما ستكون عليه حياتي؟ وبماذا ستفيدني إذن أعضائي التناسليّة؟ لينزعوها منّي، ليرموا بها إلى الكلاب لتأكلها! قفزتُ من فوق الحاجز. لمستُ المحرّم: إينيس. نعم، دون خيرونيمو لا يستطيع أن يعلم بهذا الانتصار الأخير الذي حققتُه، هو يظنّ أنّه سيسلبني أعضائي التناسليّة كما سرق منّي جرحي، ولكن هيهات، دون خيرونيمو، هيهات: أنا أهديها لكَ، ما عدتُ محتاجاً إليها. خذها، إنّها لكَ. ليستأصلْها لي الدكتور آثولا. وجدتُ السكينة. أشكال أعرفها بدأت تتحرك في

الشارع. أسمعُ وقع خطوات. يتسمون لي، في البداية بحذر، من الطريق، وهم ينتظرونني في الناصية، هم الآن يؤشرون لي، أن أنزل، ريتا تقول إنّها ستفتح لي الباب، دورا تؤكد لي أنّهنّ سيحتفين بي، سيقدمن لي المأوى، بريجيت تلوّح بيدها منادية، أسمعُ صوتَ نواقيس برج فراي أندريسيتو، الرابعة عصراً، شمس، إنّه الشتاء مع ذلك هناك شمس، لا بدّ أنّ الهواء في الخارج بارد، لينتظرنني، أؤشر لهنّ طالباً منهنّ أن ينتظرنني قليلاً، لن أستطيع اليوم النزول للالتقاء بهنّ، ربّما غداً أيضاً لن أستطيع، لكنّي سأستطيع النزول بكل تأكيد بعد غدٍ أو بعده سيكونون حينها قد أجروا لي العملية. تعال، تعال، موديتو، موديتو لأنّهم نسوا تعويض حنجرتكَ بغيرها وأصبحتَ أخرس، وسمعكَ بسواه، وصرتَ أطرش، تعال، نحن بانتظارك لنرحب بك، لن نطلب منك شيئاً، لا نريد غير أن نعتني بك، أن نكون طيبات معك، نغلّفك، انظر إلى الأكياس التي جلبناها لنحملك من دون أن يشعر أحدٌ بذلك، أمّا نحنُ فما عاد يهمّنا أنّك لا تمتلك سكساً لأننا عجائز هرمات فكأننا لم نمتلك يوماً سكساً، ولدينا أشياء أخرى نتسلى بها، سترى، أشياء أكثر تعقيداً تحدث في الجانب الخفيّ مما تراه، قطوعاً مائلة تعكس الوقت والصور، سنعلمكَ كيف تستعملها لأنّكَ، مثلكَ مثلنا، حُرمتَ من كلّ شيء وتملكُ قوة المحرومين والبائسين والعُجُز والمنسيين، تعال لتلعب معنا، لا، فما هي إلا ألعاب بريئة، لكنّك سترى الأشياء التي يمكن أن تحدث حين نستعملها، الطقوس التي نجيد خلقها، والشعائر البريئة والصارمة في الوقت نفسه. في أروقتنا الرطبة وجدراننا المهدمة وباحاتنا المهجورة لا وجود للجنس، لذلك لن تكون مسخاً عنّيناً، ستكون مثلنا، عجوزاً أخرى تجاوزت حالة الاستبداد، اضحك من دون خيرونيمو، فإنّك أنتَ من استعبده بأن أعطيتَه ما لديك الآن والذي لن تمتلكه غداً أو بعد غدٍ وستكون حراً لتأتي للعيش معنا،

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

نكنس قليلاً، ننظف، نهيئ الناس للموت، نرتّل الصلوات ونضحك على نكات مرثيديس باروسو ورقصات إيريس ماتيلونا الحديثة قبل أن تنتظر الطفل المعجزة لأنّها الآن كأنها تعرف بأنها حبلى لذلك فهي ترقص قليلاً، نتناول كأس المتة ونسعل ونغتاب مخدومينا الجاحدين الذين لا يتذكرون الواحدة منّا بعد كلّ ما ضحّت به من أجلهم، وجولة صلوات إضافية إذ يقلن إنّهنّ سمعن ليلة أمس دون كليمنته وهو يتجوّل مرّة أخرى... هششششش، أيتها النسوة، لا تتكلمن كثيراً، لا تصرخن، لا تنادوني هكذا، الزموا الهدوء، صامتات، فقد يسمعونكن وأنتنّ تنادينني بصوت عال:

- انزل، موديتو.

- انزلْ.

- نحن ننتظركَ.

يحتشدنَ على الرصيف المقابل، ينادينني، إشارات من أيديهنّ، مناديلهن في الهواء، على رسلكنّ أيتها النسوة، اهدأن، سأذهب معكنّ، لن أتأخر كثيراً، سيدعونني أخرج لاستنشاق الهواء، سيسمحون أن يحملنني لكي يكون كلّ شيء كما يجب أن يكون.

***

حضرتكِ أيضاً تحوكين شيئاً لبوي؟ من حشركِ في مؤامرة العجائز السبع؟ لا بد أنّ الأمر حدث أثناء غيابي في المستشفى بينما كانوا يستأصلون الـ ٨٠٪. أنا لا أعرفكِ هكذا، أيّتها الأم بنيتا، ساكنة، وكأن لديك كلّ وقت الخلود، مثلي أَنا، شبه نائم، هامداً، من دون بلوغ سكون الخمود، ولا زجاج النافذة، الذي لا بدّ أنّه بارد جدّاً. هل قيدوني؟ حضرتكِ ترين، أيتها الأم بنيتا، لا أستطيع الحركة. أم إنّك ربّما لا ترينني. لا شكّ أنّ من الصعب ألا تري في سرير كبير كهذا

سوى الـ ٢٠٪ التي أبقوها منّي. مع ذلك لا بدّ أنني في دور نقاهة، وإلا ستسيرين مضطربة تتحركين من جهة إلى أخرى، عازمة على فعل شيء من أجلي ولكن لا، فأنت تجلسين ساكنة إلى جانبي تحوكين شيئاً يمكن أن يكون شالاً أبيض، لأنّ كلّ شيء هنا أبيض، لأجل بوي. سكينة هذا المساء اللانهائي الذي تعرفينه، مثلي، المقدر له أن يظلّ بلا نهاية تغريك في شبه ظلمة الشارع المبتذل الذي يؤطر نافذتي وحيث لا شيء يتغير أبداً بالنسبة إليّ. حضرتكِ تتناولين يدي لأنّك تعرفين أنني أخاف ألا أموت، ولكنّي لا أخافَ دائماً، أيتها الأم بنيتا، أحياناً تثيرني الثقة بأنّ زمني سيطول من دون أصل ومن دون نهاية في هذا الشارع الذي هو نسخة أخرى من الجنّة، واجهات، أرصفة، أعمدة نور، رصف، نوافذ، أبواب، شجرة يابسة، هوائيات، أسلاك، فمن هنا ومحفوظاً من قبلك، كلّ شيء ليس هو نسخة أخرى من جهنّم كما كان خواء الشوارع البائسة التي عانيتُ منها حين هربتُ من رينكونادا بعد أن أدركتُ أنّ كلّ شيء كان مخططاً له لا للتمركز حول بوي، بل للإيقاع بي أنا، لاصطيادي، وهربتُ، وحيداً، إلى البرد، من دون ملامحٍ لأنّ الدكتور آثولا لم يترك لي إلا ٢٠٪، متنكراً بزي متسوّل خوفاً من أن يتعرّف أحد على نظرتي، وكان البرد والجوع والحرمان والفقر، الثابتة هي حينئذ الوجوه العدوّة في الشارع الذي ترمي بي إليه صاحبات البانسيونات ركلاً حين لم أكن أدفع لأني لم يكن لدي ما أدفعه، هائماً في الوقت الفسيح الذي ينبسط أمامي، ليلاً ونهاراً، ليل ونهار متشابهان دائماً، بعضها أقسى من البعض لكنّها متشابهة في عداوتهما حين كنتُ أهيم ليس في المتنزهات ليلاً، المتنزهات التي تضمّ تماثيل فرسان ومنحوتات وجوه ووحوش وبركاً، بل في المتنزهات الأخرى، متنزهات أطراف المدينة، التي هي بين متنزه ومرتع للمواشي، أرض حرام لا يحرسها أحد ولذلك نسكنها نحن

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

في الليل، نشعل نيراناً صغيرة كي ندفئ بها أيدينا أو الشاي، ونطفئ نار الأوراق المتساقطة تلك لكي لا يكتشفنا أحد، ولا يكتشف بعضُنا البعض فربما قتلنا بعضنا البعض. الآن وأنا فقط الـ ٢٠٪ أهيم في الشوارع من دون أن أخشى أن تكتشفني بيتا، أدخل في المتنزهات المهجورة ليس للاختباء منها بل لتتأكّد من أنني لستُ من تبحثُ عنه هي. لتفهمْ بأنّه ما عاد مجزياً المجهود الذي تبذله العجوز المسكينة فلستُ أنا من عليها أن تلاحقه بل عليها أن تلاحقه هو، هو يمتلك كلّ شيء، بيتا، هو من أولج فيك وهو من جعلك تصرخين من اللذة في هزّة الجماع الوحيدة التي تبحث عنها حياتُك منذ أعمق أعماق القرون بدءاً من الكابوس الأوليّ الذي خرجنا منه، كان هو من وطئ جسدك تلك الليلة في سريركِ، ولستُ أنا، أنا أولجتُ في إينيس، لذلك جردني هو من أعضائي التي مسّتها، ولذلك رموا بي إلى الشارع، إلى هذا الشارع الذي أراه من النافذة، حيث لا شيء يحدث، محطة الخدمة فارغة، الشارع يمتد ويتراجع ثمّ يعود إلى الامتداد والانثناء في الزمن الثابت، المتسوّل السقيم والملتحي، الذي يرتدي أسمالاً، الذي يشاهد عادة وهو يطلب صدقة عند باب الكنائس لأنّ المسكين أخرس أطرش، يهيم في الشارع، يختفي من النظر فكأنّ الريح تحمله، يذهب إلى المتنزه حيث يختبئ آخرون مثله، لكنّه لا يختبئ، أيتها الأم بنيتا، أقسمُ لك، يشعل ناره من أوراق الشجر المتساقطة في حفرة وينام على أمل أن تأتي بيتا ليلاً وتفتش في سرواله وكأنّها تريد سرقته، أيتها الأم بنيتا، لكنّ بيتا لا تريد أن تسرق، جاءت لتبحث فيّ ما بحثت عنه دائماً. أنا لا أستيقظ لأنّ بيتا لن تجد شيئاً. سيبتلع الليل زمجرة غيظها التي لن أسمعها وستذهب للبحث في جهة أخرى بعد أن تغلق سراويلي... وإن كنتُ لا أدري، أيتها الأم بنيتا، لستُ متأكداً تماماً، أحياناً أشعر بالخوف لأنّي لا أعرف جيداً في أيّ جزء من

عملية التبديل والتطعيم أوصلني الدكتور آثولا، من المحتمل أنّه لم يعمل التغيير بعدُ، وأنّ كلّ هذا مجرد تحضيرات ولا يوجد متسول في الشارع أراه من النافذة، ولا عجائز، ذهبن، عدنَ إلى البيت، كم أشعر بالرغبة في العودة إلى البيت لأتجول في ممراتي في الليل وأرى دورا وريتا، لكنّهما ما عادتا في الشارع المؤطر بالنافذة التي أراها من سريري، بارد هو سريري، باردة هي النافذة، والشارع من دون سيارات ولا ميكانيكيين ولا محطة خدمة، الأرصفة من دون مارّة، الريح من دون أوراق في الأشجار ومن دون ملابس تجففها، كلّ شيء ثابت، متوقف في لحظة مديدة، وحضرتكِ إلى جانبي، تعتنين بي، تسهرين على راحتي بصمت، تراقبينني، نعم، أنتِ لا تعتنين بي، أنت تراقبينني، إمبراتريث، أعرفك من تحت برنس الستان الأبيض الجميل الذي تريدين به أن توهمينا بأنّك ممرضة، لقد عملت هذا التوقف إلى جانب سريري قبل أن تعودي إلى الرقص الفنتازي حيث دمامتك التي سيظنون أنّها وهي مموهة سِتربح الجائزة. تجلسين ولا تنصرفين. لا بد أنّك وجدت شيئاً. أنتِ لا تتحركين من جانبي، تمضي الساعات وأنت بقربي تراقبينني، تحتجزينني هنا لكي لا أفرّ ولكي أفي بوعدي في الزواج بك. أنت لا ترتدين لباس الممرضات. ليس هو برنساً جميلاً من طراز القرن الثامن عشر. إنّه رداء العروس المرعب الذي كنت تهيئينه دائماً، مطرزاً ومطعماً بالأحجار الكريمة، الذيل يفترش الأرض رائعاً، الخمار الأبيض الذي لا يغطي وجهك إلا قليلاً يهتزّ مع تنفسك، أنتِ لا تخرجين ثوب عرسك نهاراً ولا ليلاً، انتظاراً للفرصة، بانتظار أن أستيقظَ لتصطاديني في تلك اللحظة، تسريحة الكعكة والخصل والضفائر بلون البلاتين، محاجر العينين المراقبتين مرقطة باللمعان، تاج الأحجار البراقة الذي يمسك بتول نقائك الأبيض الجاهز للاحتفال النهائي، لن يفلتَ منّي، هذه هي

مكتبة أحمد ٢١٥ telegram @ktabpdf

فرصتك الوحيدة، أن تكوني مستعدة ليلاً نهاراً متربصة تراقبينني لكي لا أهرب.

لكن... عليكِ أن تعرفي ذلك ولهذا فإنّك تنتظرين مستعدة: لم يجروا لي عملية، أنا كامل، لم يزرعوا فيه الأعضاء التي استحوذتْ على إينيس ولا ألقوا بتلك التي تعود إلى خيرونيمو دي آثكويتيّا إلى الزبالة، أنا كامل وأنتِ، لذلك، تترصدين لي هنا في الداخل، ولذلك تترصد لي بيتا بونثي في الخارج في ذلك المتنزه الذي لا أرى حيث، ربّما بعد أن خدرتني بمتة سحرية، ضاجعتني بدلاً من الانصراف غاضبة حين لم تجد شيئاً. أججتْ رغبتها من أجلي. تنتظرني في المتنزه. لم يجروا لي العملية بعد. دون خيرونيمو لم يجد الوقت، بسبب انشغاله بأمور تخص الدولة: لينتظرْ في العتمة، لينتظر في الغروب، الوقتُ لا يهمد، الزمن دائم، لينتظر وهو ينظر إلى النافذة، ولتراقبه إمبراتريث، لكنّ إمبراتريث لم تكن في يوم من الأيام خادمة لأحد، إنّها مالكة نفسها، ولذلك، لأنّهم لم يجروا لي العملية ولأني كامل وخطير، لذلك تتجول كالوحش في الممرات إلى أن أستيقظ، تجنّ من القلق تجرّ ذيل فستان العروس مثل ذيل طاووس أبيض، في ممرات العيادة البيضاء، وتاجها اللماع، تجاعيد جبهتها وطيات خديها المرتعشتين من الخوف من أن يأخذني دون خيرونيمو من يديها، يدي في يدها، ينزاح البرقع فيكشف وجهها المريع، الوجه المجعد من الألم، ممرضات، إنّها هي بالقرب من سريري، القزمة الشبقة اللجوج، أيتها الممرضات، لا أستطيع أن أنفّر هذا الوجه، أعطوني حقنة أخرى كي لا أحسّ بآلام أخرى تزداد وتزداد، أنتنّ طيبات، أقسم لكِ، إمبراتريث، سأتزوج بك إذا أفلحت في أن يحقنّني لقتل هذا الألم الذي يقتلني، أقسمُ لكِ إنني سأتزوج هنا، وأنا مضطجع في السرير وأنت تعرضين ذيلك المطرز وتاجكِ إن أفلحت في أن يحقنوني المزيد لأمحو وجهك الدميم،

لكنّي أرى الشكّ في عينيك، وهذا هو سبب تجوالك، تشكين برجولتي، ربّما أجروا لي العملية، أعادوا لي السكس الذي لوثته بيتا، مترهل، غير ذي نفع، لم تفلحي في رؤيته حين فتحتُ بيجامتي، تتجولين، أشعر في الممر بمكنسة ذيلك الفاخرة تسحل مع استدارتك مرّة أخرى. تجلسين بالقرب منّي. تأخذين بيدي. كلّ شيء مغطى ببرقع أبيض، نعم أنا قادر، إمبراتريث، صدقيني، أومبرتو بينيالوثا، على الرغم من أنّه شريك بيتا، قادر على أن يسعدك، أريد أن أثبتَ لك بأنّي أمتلك سكساً، لذلك أرفعُ ملاءات السرير، لَذلك، لأني أريدُ أن أجربه عليكِ لكي تعلمي أنني أستأهل وتحصلي لي على حقنة لكي أمحو وجهك المرعب، أرفع ثوبَ العروس لأغتصبكِ، ذاك هو ما تريدين، إمبراتريث، لا تنكري ذلك، لا تحاولي أن تمنعيني، بحركات مصطنعة، من أن أنهض، لا تتصنعي مناحات ومنادب حين تحاولين نزع يدي التي أحشرها في صدر القزمة العجوز المقرف المنمش الذي هو صدركِ وأصابعي التي تبحث سكسك لإثارته وإن كان دبقاً مهتاجاً دائماً، لا تنصرفي، لا تنصرفي، لا تتركيني وحدي، لا تهربي صارخة لأني أحاول اغتصابكِ، لا تركضي متعثرة بذيل بدلة عرسك، لا تحتجي، أنت التي اضطررتني إلى أن أستحوذ عليك هنا في هذا المكان والآن تتركينني في هذا القبو المغلق، أنابيب اختبار وقصبات تفور، وأنابيب أمصال ونقل دم فضلاً عن الكثير من الخيوط التي لا أعرف ماهيتها وهي تحد حركتي، أريد أن أهربَ، نعم، يجب أن أهرب لكي لا يقتلوني خنقاً، أن أفتح النافذة لأستنشق قليلاً من الهواء غير الراكد، لكنّ النافذة ليست نافذة، أتنبّه الآن إلى الخدعة، إنّها صورة مكبّرة لنافذة ألصقوها على حائط الطوب للإيحاء بضوء وفضاء كاذبين، لكي ترغب في فتحها، في لمس زجاجها غير البارد لأنّه ليس زجاجاً بل ورق رقيق مفروش على الطين، صورة، كذبة،

مكتبة أحمد ٢١٥ telegram @ktabpdf

ما من نافذة، ما من باب، ما من مخرج، ما من مكان يؤدي بكَ إلى الخارج، أخمش، أشق، أمزّق قطعاً من تلك الصورة التي تشير كذباً إلى مخرج ليس له وجود في أيّة ناحية، أنزعها نزعاً، أحطّم قطعاً من صورة النافذة على أمل أن أجد ثقباً حقيقياً، تؤلمني أظفاري، أشق، أخربش، لا شيء، لا يوجد شيء، لا يوجد ولا حتى ضوء في هذه الحجرة الصغيرة كالقبر، أقتلع الصورة كلّها، لا شيء، جدارٌ من الطوب، سورٌ من الطين المغلّف بورق الجرائد، مع أخبار مروعة لا أهمية لها، فيضان في يانغ- تسي- كيانغ، زلزال في سكوبيه، مجاعة في شمال غرب البرازيل، هذه الأحجية المصورة للغز المرعب، طبقة بعد طبقة من الأخبار التي ما عادت خبراً، اقتلعتُ النافذة وضوءها المصطنع وهواءها وريحها وشارعها من دون أن أهتمّ بالمكان الذي كان يمكنني منه متابعاً الطريق الذي أشّرته العجائز اللاتي كنّ ينادينني، لا شيء، قبر من الأخبار العاجلة الهالكة، من الموضوعات المطروقة الزائلة، من المساجلات التي انتهت وإلى الأبد، ما هي ولا حتّى غرفة، إنّها أرض، ما عاد هناك ورق، طين، أحجار، ثقب، حفرة غير محفورة أنا أحفرها في الطين اليابس، زنزانة أرضيّة عند مركز الأرض أبقوا عليّ فيها حبيساً وأغلقوها عليّ، لا أكسب شيئاً من الصراخ لطلب النجدة، إمبراتريث، إمبراتريث، أنقذيني، صوتي لا يُسمع، الدكتور آثولا استأصل حنجرتي، لا أريد أن أتكلّم، لا أريد أن أصرخ لأنّ أحداً لن يسمعني، أنا وحيد في وسط الأرض، محاط بجدران عمياء في هذا القبو الذي يطبقُ عليّ، صخور، طابوق، تراب، عظام، أحفر، أحفر وأحطم بالأظافر والأسنان ذكرى تلك النافذة الكاذبة التي وضعوها لكي أظنّ أن هناك خارجاً، أحفر بيدي المدماة لأنّ عليّ أن أصل إلى شيء، في الأعلى، في الأسفل، ليس هناك اتجاه إذ ليس هناك خارج وإن كان لا بدّ أن يكون هناك لأنّي أتذكر شيئاً آخر، لكنّه

أكثر قليلاً من هذه الزنزانة المغلقة التي أصارع فيها، التي لا تتسع إلا بالكاد لجسدي، إنّني أستنفد الهواء، أحفر أنفاقاً وأروقة وممرات ومعابر في الأرض للخروج، أنشئ باحات وغرفاً للطواف بها، حيزاً ما، وليس محبس القبر هذا الذي أعضّه، أخمشه، أحطمه من دون جدوى، حيزي يضيق، أنا أختنق إذ لم توجد نافذة قط، إذ ليس هناك ما ينظر إليه من خلال النافذة، الهواء الطري كان سراباً، والماء الذي يجري في الساقية كان اختراعاً لا يسمحون لي بلمسه، ولا حتى بأن أشعر في وجهي بالنسمة المشاكسة التي تحرّك أشجار البرتقال في إشارة إلى ضرورة ارتداء الشال، والشمس الباهتة من خلال أغصان أشجار البرتقال في إشارة إلى ضوءٍ تحت مائي نسبح فيه من دون عجلة، الأجزاء التالفة من هذا السور يجب كنسها وتنظيف كلّ شيء، جرائد قديمة مشقوقة، اكنسْ كلّ شيء، موديتو، ليتحوّل إلى كومة جيدة التكديس لكي لا ترى قذارة، نعم، دورا، لا تستعجليني، لا تضايقيني فأنا متعب قليلاً، ألا ترين أنني أكنس بينما حضرتك تغطين فمك بشالك لكي تضحكي من شيء تقوله لكِ ريتا ثمّ تكشفين عن هذه المغارة الدرداء، هنا لا أحد يغطي وجهه، ليس هناك أقنعة ولا وجوه ولا كمامات، لا، الجميع هنا له وجهه الخاص به الذي فعل به الزمن الخطي فعله، كما هو واجب، والموديتو بمكنسته يعمل كومة أخرى بقطع الجبصين الذي تساقط والمزيد من الجرائد الممزقة، ما أكثر الجرائد، هناك غرف مليئة بالجرائد القديمة في البيت، ما أكثر الورق غير المفيد الذي يرسله لنا رئيس الأساقفة. الأم بنيتا والسيدة راكيل رويث تجولتا في الممر بلا توقف خلال ساعات وساعات، يتناقشن، تكلمن عن كل شيء لكنّهم تكلمن قبل كلّ شيء عن وصول السيدة إينيس، نعم، وهي في قمّة خجلها يقولون المسكينة والجرائد اليسارية الآن لا تفعل شيئاً آخر غير مهاجمتها وانتقادها والسخرية منها

بسبب موضوع التطويب. تأمّل السخافة، على الرغم من الملايين التي تمتلكها تعمل نذر فقر! من المؤكد أنها مغتاظة جدّاً لأنّ خيرونيمو وقّع أوراق نقل ملكية البيت من دون التشاور معها مستغلاً أنّها في أوروبا، على الرغم من أنني متأكدة من أنّ خيرونيمو لم يستشر إينيس قط في شيء، وحين تصل ستجد البيت قد بيع بالمزاد، وستجد العجائز في ملاجئ أخرى، وجدران الطوب مهدمة... عن هذا كانتا تتحدثان، وهما تدوران المرة تلو المرة حول الباحة، بينما الموديتو يكنس وريتا ودورا تتسليان بإلقاء قطع اللفت الأحمر في كيس من ورق الجرائد لحفظه وأكله حين تحين المناسبة، طريّة هي رؤوس اللفت. هيّا، ريتا، تناديك الأم بنيتا، السيدة راكيل عليها أن تذهب، تعالي لفتح البوابة لنا، سأذهب لتوديعها... ها أنا أعود، هذا ما تقوله لي عيناها، انتظرني، موديتو، أنا عائدة، واصل الكنس، ليستمر كلّ شيء كما هو فأنا عائدة إلى باحة أشجار البرتقال بعد أن أودّع السيدة راكيل في الباب، يقولون إنّهم سيهدّون هذا، لكنّهم يقولون هذا منذ أن كنتُ صبيّة، أيّتها الأم بنيتا، وكنتُ آتي للقيام برياضاتي الروحية هنا، سترين، لن يهدوا شيئاً، كلّ شيء سيسير على حاله، الموديتو يكنس، دورا تنحني على لفتها، تتفحص بعناية الدرنات الدموية كبقايا أعضاء مقطوعة وستلتهمها العجائز.

١٩

لَمَ هذا التعبير المضطرب على وجهكِ، أيتها الأم بنيتا؟ أتركُ مكنستي لأخفّ إليكِ حين تنادينني من دون أن تناديني. ودّعت السيدة راكيل عند الباب، عادتْ إلى باحة أشجار البرتقال، وهي تنظرُ من ناحية لأخرى كمن يبحث عن شيء معين، لكنها لا تريد أن تطلب شيئاً، لا يهمّ، أنا أفهم أنّها تطلبهُ منّي، هيا موديتو تقولُ لي، لا تضطرني إلى أن أترجّاك لترافقني، اتبعني في الأروقة التي تؤدي إلى المصلّى. الصلاةُ وحدَها هي القادرة على إزالة ذلك الضيق الذي أراه مرسوماً على قلنسوتها الوسخة، رافقني موديتو، أقصى ما أتمنّاه هو أن أكونَ وحيدة وأنتَ تتقنُ مرافقتي وتركي وحيدة في المصلّى حيث ما عاد يقام قدّاس: ما هو إلا قبوُ نبيذ من الطوب، مع مصاطب ومذبح وقديسين من الجبصين، كراسي الركوع وكراسي الاعتراف، لوازم لعبادة ما عاد لها وجود، لكنّ العجائز واصلن الذهاب مساءً، يطفن بالممرات وقد أمسكتْ كلّ واحدة منهنّ بملابس الأخرى، لتلاوة الصلوات في المصلّى الذي ما عاد مصلى. في ذلك المساء لم تكن هناك، من حسن الحظ، أيّة عجوز تقاطع بهمهماتها وابتهالاتها المكررة تأملاتي، ولهفتي للصلاة لكَ، إلهي، في هذا المكان الملعون الذي حاولتُ الوصولَ عبره إليكَ منذ ما يقرب... لا أعرف، اثنين وعشرين، لا، ثلاثة وعشرين عاماً. كانت رئيسة الراهبات تقول لي في

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

البداية نعم، أنا أبحثُ لك عن مهمة أخرى فيها نشاط أكبر، إذ لا يمكن لمتدينة ذكية مثلكِ أن تضيّع وقتها في ذلك البيت وأظنّ أنني في العام القادم سأستطيع أن أرسلك إلى... ما عدتُ أذكر إلى أين. فاصبري يا ابنتي. واصلي عملكِ بالتواضع الذي أبديته على الدوام... ولكنّي أمّاه، أحتاج إلى قليل من المساعدة، لا، ليس نقوداً فقط، أرسلي لي راهبات أخريات، نشيطات، شابات، فالاثنتان اللتان عندي، الأم آنسيلما والأم خوليا، اختلطتا مع العجائز رثّات الثياب اللائي يحطن بي، العجائز ابتلعن المتدينات اللاتي أرسلنَ لمساعدتي، لكنّهنّ الآن يشاركنهنّ أسمالهنّ وعاداتهنّ الغريبة ومعتقداتهنّ الخرافيّة، ما عدتُ أميّز الأم خوليا والأم آنسيلما من بقية العجائز. فقط الموديتو. هل ما زلتَ هناك، موديتو، في ظلّ كرسي الاعتراف، ترافقني؟ هل أنتِ هناك، أيّتها الأم بنيتا، جالسة على المقاعد الخلفية، تحاولين عبثاً الصلاة؟ كانت رئيسة الراهبات تقول: انتظري قليلاً. انتظرتُ. كنّا نغوص، مع الموديتو، في عمل عقيم يحاول الإبقاء على ما يشبه الكرامة والنظام في البيت، من دون الموديتو سيكون مستحيلاً علاج الانهيار، كل عام نستطيع علاج الأقل، نعم، أمّا الآن فلم يبق شيء تقريباً، لا أدري ما الذي تكنسه في الباحة اليوم، انهيار آخر، طيب، لا بدّ من فعل شيء، نعم، أمّاه، لا بدّ من فعل شيء، والأم الرئيسة تقول للأم بنيتا انتظري، يا ابنتي، انتظري، أعدكِ أنّني في العام القادم سأضعكِ مديرة لمدرسة، فأنتِ بشرحكِ ودرسكِ تضيعين طاقتكِ في البيت، لكنّهم أرسلوا رئيسة الراهبات تلك إلى روما أو إنّها كانت تموت ولم تكن الرئيسة الجديدة تعرف عمل الأم بنيتا، لذلك كانت تقول لها أيضاً انتظري يا ابنتي، انتظري، عليّ أن أعرفكِ أكثر لكي أعرف إمكانياتكِ، لا أحد يمتلك تقارير مكتوبة عن عملكِ الذي لم يترك أثراً، يقولون... يقولون... ولا يكفي ما يقولون، لذلك عليّ أن أتأكّد من ذلك بنفسي، من فضلكِ، أمّاه، إنني أموتُ في

البيت من الضجر، لأنني لا أجد هنا من أستطيع الكلام معه، أموت من الخوف من أن يلتهمني فوج العجائز هذا كما التهمن الراهبات الأخريات، أموت من كوني محاطة بغباء وهرم، عمري الآن ثمانية وأربعون عاماً، خمسون، أربعة وخمسون، ثمانية وخمسون، انتظري يا ابنتي، لكنهم بعد ذلك لن يقولوا انتظري بل استسلمي لقدرِكِ، قدّمي قربانك للربّ فبذلك ستفوزين بالجنّة لأنّ في بقائك في البيت تضحية كبيرة، فلو لم تكوني معنا لانهار البيت علينا، وسينهار البيت الآن على الرغم من وجودي، ذلك ما أكدته لي السيدة راكيل، سيأتي الدلالون لجرد كلّ هذه القاذورات، مصاطب خشبية، قديسون من الجبصين، صورة حجريّة حلوة للعذراء والطفل، الآن ما عاد هناك مصلّى: ورقة وقّعها رئيس الأساقفة أوقعت عليه اللعنة. لكنّ حضورك الأحمرَ ما زال متوهجاً في قنديل القربان المقدس. وبعد الدلالين ستأتي الجرافات والمدقات والشاحنات والعمال بمعاولهم... إلى أين سنذهب، موديتو... ماذا سيحلّ بنا، أيتها الأم بنيتا، أين سنلجأ، مشروع السيدة راكيل هو مؤامرة أخرى لاستعبادنا نحن العجائز، لذلك كنتُ أراك تتجادلين مع السيدة راكيل، وتدورين المرة تلو الأخرى في ممرات باحة أشجار البرتقال، أنا كنتُ أراقبهنّ من الظل، لم يحدث شيء، كانت كارميلا تجتاز وهي تدندن «تعالوا وسنذهب جميعاً» أنا مع مكنستي، دورا وريتا تقتلعان بقايا أعضاء ملطخة بالدماء، نعم، سيدة راكيل، الأب آثوكار وعدني بأن يكون منصب القيّمة الرئيسة على مدينة الطفل من نصيبي لكن لا يمكن الحديث لحضرتكِ عن الأب آثوكار من دون أن تسخطي، آي، أيتها الأم بنيتا، سذاجتكِ غير معقولة على الرغم من سنوات عمركِ، خوري كذاب، مسيّس، نعم، سيهدّون هذا، ولكن لن تكون هناك مدينة للطفل لأنّه سيفرغ النقود في جيبه، أمّا قطعة الأرض هذه فسيقسمونها ويبيعونها لينفقوا الأموال في حملات

سياسية لدعم مرشحهم، أنا أرى كلّ ذلك، فهو واضح وضوح الماء، وهذا هو ما يفسر الاستعجال في الهدم لأنّ الانتخابات قريبة، فلا يأتيّني هذا الخوري، الذي لا أحد يدري من أين جاء، بأكاذيب، لن تبنى مدينة للطفل، وسيتخلون عنكنّ، وما أدراني أين سيرمون بكنّ... طبعاً أنا، أيتها الأم بنيتا، أستطيع أن أعرضَ عليكِ شيئاً آخر... شيئاً أفضل... شيئاً رائعاً... يرمش لهب القربان المقدس ويرتجف بينما يطوف خياله في مقصورة الكاهن ليقنعني، ويهدّ إيماني في أنني سأستطيع التحرر من العجائز في يوم من الأيام لأعمل مع شباب وأمام نوافذ عريضة، تتكلّم، تومئ، وكأنّها تعظني، أسمعُها من مصطبة المصلّى الخلفية تقول لي إنّها تستطيع أن تقدّم لي شيئاً أهمّ من ذلك بكثير:

- ماذا؟

- إن عرضتُ عليكِ تنظيم مكان لإيواء النساء الهرمات، فهل ستكونين مستعدة لإدارته؟

- لكن ليست هناك أيّة إمكانية، يا سيدة راكيل. سنحتاج إلى أموال طائلة.

أعددتُ قائمة بأسماء جميع النزيلات مع سيرتهنّ الشخصية، أو ما يتذكّرنه هنّ أو ما يردن أن يحكين منه. كان ضرورياً إدخال الكثيرات منهن إلى المستشفى. يجب إرسال عدد منهنّ إلى مستشفى الأمراض العقليّة... أماليا المسكينة، مثلاً، هل تذكرينها حضرتك، تلك المرأة الصغيرة نصف العوراء التي كانت تخدم بريجيت تبكي بكاء مرّاً لأنّها تقول إنّها لا تجد الإصبع، ولا أحد يعرف، لا هي ولا غيرها، عن أيّ إصبع تتحدث، لكنّها تبحث عنه في كلّ ناحية من دون أن تعرف حتى كيف هو ذلك الإصبع الذي لم تره قط، لا تتحدث عن شيء آخر... واليتيمات الصغيرات المشهورات...

- وبريجيت؟

- ماذا جرى لك سيدة راكيل! أنت غريبة نوعاً ما... أنتِ نفسك دفنتها منذ سنة، كيف لا تتذكرين...

- أتذكرُ بالطبع.

- إذن؟

- أنا أصفّي ميراثَ بريجيت.

- لا أفهم ما العلاقة... لا يمكن أن تكوني حضرتُك من يكلّمني بصوت عال من مقصورة الكاهن، أيتها السيدة راكيل، حضرتكِ لا تصرخين إلا على أحفادكِ حين يسرقون الحلوى منكِ، إنّها بريجيت من يسير في مقصورة الكَاهن ويفتش في المذبح، لَا بدّ أنّها تنظف كعادتها دائماً، ترفو، ترقّع، ولكن لا، ليست هي بريجيت لأنّها ترتدي السواد وبريجيت لا تحبّ الأسود، وعليه لا بدّ أن تكوني حضرتك تقولين لي إنّ بريجيت وفّرت كل قرش ربحته من عملها عندك طوال خمسين عاماً. لم يعرف عنها قط أنّها أَنفقت قرشاً واحداً في أيّ شيء. ما كانت تخرج وما كانت لديها عائلة وترملت وهي شابة بعد أن مات زوجها المُزارع في حديقة بيت أمّي وكنتُ أنا أهدي لها كلّ شيء، شراشف، سرير، راديو، أحذية، ما كانت تطلب، وكلّ ملابسي كانت تناسبها لأنّ جسمينا كانا متشابهين. كانت تحفظ نقودها في ثقب في مرتبتها. وقبل أن نذهب لقضاء إجازة نهاية السنة، كنتُ أحمل مدخراتها في علبة صغيرة إلى زوجي لكي يستثمرها في أسهم في البورصة تعود عليها بفائدة جيدة، لأني لا أعرف إن كنتَ تعرف، يا موديتو، بأنّ زوج السيدة راكيل واحد من أشهر سماسرة البورصة وأغناهم، نعم، نعم أنتَ تعرف ذلك، كان صديقاً لدون خيرونيمو، يلعبان الروكامبور معاً في نادي الاتحاد ويستلقيان على كراسي

متماثلة في المكتبة وهما يضعان الجريدة على وجهيهما. ومع السنين تضاعفت نقود بريجيت على يد زوجي. كان زوجي يحب بريجيت كثيراً. أحياناً كان يعجبه الذهاب بنفسه إلى البيت ليزورها ويعلمها بحالة استثماراتها. كان يبقى للحديث معها برهة ثم يقول لي:

– ما أغرب هذا. هذه المرأة الصغيرة التي لا تخرج من البيت إطلاقاً والتي لا تفهم إلا في الصلاة التاسوعية وفي التراتيل لديها أفكار عن البورصة أفضل مما لديّ أنا منها. لا يمكنكِ أن تتصوري كم جعلتني أفكار بريجيت أكسب في البورصة. وهل تصدق ذلك موديتو؟ هذا غير ممكن. نعم، أنا أصدقه، أيتها الأم بنيتا، لأني أعرفُ أنّ بريجيت قادرة على ذلك وعلى أكثر من ذلك بكثير. المسألة هي أن بريجيت في فترة من الفترات كانت متوترة جدّاً، إلى أن اتصلتْ ذات صباح بدائرة زوجي، وعلى الرغم من معارضته الشديدة فقد وجّهته بريجيت بأن يبيع كلّ أسهمها وأن يشتري لها بالنقود ذهباً. اعتقدَ زوجي أنّ بريجيت جنّت. مع ذلك أطاعها، لأنّ الذهب لم يكن في يوم من الأيام استثماراً سيئاً وهو لا يخسر شيئاً. الغريب أنّ الحزن لازم زوجي بعد تلك الحادثة، ولاحظتُه عصبياً... إلى أن نهض ذات يوم باكراً، حمل كلّ السندات والأسهم التي تكوّن ثروتنا وباعها واشترى بثمنها ذهباً، تماماً كما فعلتْ بريجيت، وظنّ السماسرة الآخرون أنّه جُنّ. ولم يفلح في العثور على تفسير لما فعل. أنا وحدي أعرفُ أنّ ما أنقذه لم يكن ذكاء سمسار البورصة، كما قيل عقب أيام قليلة حين حدث ذلك الهبوط القوي في البورصة العالمية وفقدت الناس كلّ شيء وانتحر الكثيرون منهم... نحن كنّا من أنقذ كلّ شيء، وبعد ذلك، حين بدأ الناس يبيعون أشياءهم الثمينة مقابل لا شيء، نحن اشترينا بسعر جيد.

– سيدة راكيل، إذا أردت التبرّع بمال بريجيت فلماذا لا تتبرعين به لمدينة الطفل...

- أيتها الأم بنيتا، أنت أكثر سذاجة مما يبدو. دعيني أواصل حكايتي لك: حين ترمّلتُ قبل خمسة عشر عاماً لم ترد بريجيت أن يمسّ أحدٌ نقودها التي وضعها زوجي في عقارات مدنية حين بيعت رخيصة بعد انهيار البورصة. كان مكتبه يدير لها تلك الأموال. ما كانت تثق إلا به وبي. لذلك حين توفي زوجي، سحبت بريجيت كلّ أموالها من دائرته ووضعتها باسمي، بيوتها وشققها، لأنّها كانت تقول:

- ولكنّي، سيدة راكيل، لا أجيد قراءة ولا كتابة، بل لا أوقّع، لذلك فلا بد أن يكون كلّ شيء مسجلاً باسمك. أترين، أيتها الأم بنيتا؟ إنّه استبداد الضعفاء: لا يحملون الصبيان، ومصارينهم تتقطع من الضحك، إلى السجن لتعذيبهم، الأصم الأخرس يقهر قبضات الشرطة وعملية الدكتور آثولا أنقذتني فما من أحد يستطيع الآن أن يطمع في شيء لي... لنسمع هذا الكائن الذي يتكلم من مقصورة الكاهن، تلك الصورة المضاءة بالنور الأحمر المتهالك في قنديل القربان المقدس: منذ ذلك الحين تفرّغتُ لتصريف شؤون بريجيت. ببدلات الإيجار، التي واصلتْ تكديسها في ثقب المرتبة، كنتُ أشتري لها بيوتاً أخرى وشققاً أخرى. ولمّا كانتْ لا تحب الخروج «للتسكع» في الشوارع كالخادمات الأخريات اللاتي كانت تحتقرهنّ بسبب ذلك، كان عليّ أنا أن أتابع لها كلّ شيء: كنتُ أذهبُ إلى البيوت المعروضة للبيع، أصفُها لها، أصفُ لها الحيّ، نوعية المباني، حينئذ كانت بريجيت تطَلب منّي أنَ أدعها تفكّر، وفي الصباح التالي، حين كانت تأتيني بالفطور والجريدة إلى السرير، كانت تقول لي:

- اشتري.

وبدلاً من البقاء في السرير أقلّب الموديل الأخير أو أكلّم كنّاتي بالهاتف، كنتُ أنهض باكراً للذهاب وإتمام هذه الصفقة أو تلك، بيت، قطعة أرض لبريجيت. أعطتني توكيلات رسميّة، أيتها الأم بنيتا.

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

من المفزع أن يحمّلوكِ توكيلات سواك. ولمّا لم تكن تحبّ الجدال وتدمدم: يقولون إنّ الناس هذه الأيام يحبون الجدل ووقحون، كانت تكلّفني بجباية إيجارات عقاراتها. كنتُ أوّقع بدلاً عنها الوصولات، صكوك البيع والشراء باسمي، وأنا كنتُ أترددُ على موثقي العقود، أبحثُ عن سمكري موثوق ليصلّح قطعة الحمام التي خلّفها المستأجران، اللذان اضطررنا إلى طردهما لأنّهما لم يكونا متزوجين، في حالة مزرية، والخلاصة فأنا كنتُ أفعل كلّ شيء. كان يعجبني أن أقوم بهذه الأشياء لبريجيت، أيتها الأم بنيتا، ولمَاذا أنكر أنني كنتُ أتسلّى، وأن ذلك المال، غير النافع، الذي لم يكن له من هدف غير التكاثر من دون أن ينفع في شيء، كان يعود لي أكثر من كلّ ما ورثته. حضرتُك تعلمين أنّ حياة امرأة مثلي، عندها أولاد كبار ومديرون مكلفون بكلّ شيء، هي حياة مملة جداً. وكما كانت صديقاتي يتسلينَ بلعب الورق كنتُ أنا أتسلّى بتكديس هذه الثروة، الافتراضيّة، التي لا تنفع في شيء، كنتُ أعمل على أن تنمو كالسرطان، من دون أن تكون لها علاقة بشيء، من دون أن تنفع شيئاً. كانت لعبة. لكنّي لم أكن ألعب، اللعبة كانت تلعب معي، لأني لم أكن أستطيع الخروج منها، اعتدتها، أدمنتُ عليها، أركض من شقة إلى شقّة، أسخط على زجاجة مكسورة، أصابُ بالتهاب القصبات في ممرات بيوت بريجيت المؤجرة، في أديرتها الصغيرة مبتعدة عن صديقاتي، أهمل أحفادي الذين كانوا يثيرون فيّ اهتماماً أقلّ من الاهتمام الذي تثيره فيّ هذه اللعبة، ينبحّ صوتي من كثرة ما أصرخ على أحد المستأجرين ممن لا يريدون الدفع أو لا يقدرون عليه، بينما هي، بريجيت، تنتظرني في بيتي تنعم بالدفء، هادئة دائماً ومتزينة بكعكة شعرها الرمادي <الذي صفّ بعناية شديدة>. كانت تجثو عند قدميّ لتخلع لي حذائي الملطخ بالوحل لأنّي اضطررتُ إلى الطواف في بلدة كاملة للتحقق

من صحة أنّ بعض المستأجرين يؤجرون من الباطن بعض الغرف، يقولون، وأنا لا يعجبني أن يؤجروا من الباطن في بيوتي. في المساء كنتُ أسقطُ منهكة على سريري بسبب هذه اللعبة التي حشرتني فيها بريجيت، وهي كانت تأتينا بكأس من الشاي وقطعاً رقيقة من الخبز المحمص، تماماً كما كنتُ أحبها، تعقد ذراعيها على صدرها باحترام وتقف بالقرب من سريري وتستجوبني: أليس كثيراً ما دفعته في ورق التغليف لشقّة ريكيلمي، يقولون إنّ هناك مصنعاً في سان إيسيدورو فيه ورق جميل ورخيص... يقولون... يقولون... لا أدري من أين تأتي تلك الأصوات التي تقول، تلاحقني تلك اليقولون فأخرج مندفعة لألعب لعبة مال بريجيت غير النافع ذاك. حين خطرتْ لي الفكرة المشؤومة في أن أقترح عليها أنّ تكتب وصيّة، بكتْ كثيراً، طبعاً، الآن، وبعد تلك السنوات الطويلة من الخدمة لم أكن أريدُ أن أواصل مساعدتها بنقودها... وساءت الأمور حين قلتُ لها لا، ما أردتُ أن أقوله لها هو أنّها ليس مجبرة على أن تواصل العمل في خدمتي، فهي امرأة غنيّة، ويكفيها أن تسكن في واحدة من شققها مع صبيّة... مثل إيريس ماتيلونا، مثلاً، لتخدمها وتعيش كالملكة... أف! لو أنّك رأيت كم بكتْ، ما تريدين حضرتكِ هو التخلّص مني الآن لأنّي أصبحتُ عجوزاً، أن ترمي بي إلى الشارع كما ترمين بالزبالة. حينئذ، ولأنّ بريجيت كانت حاقدة ولم تغفر لي قط ذلك الاقتراح بالذهابَ للسكن في إحدى شققها، تكلمتْ مع إينيس وطلبتْ منها أن تأتي وتعيش في هذا البيت لأنّها تساءلت ولماذا تظلّ معي إن لم تكن تنفع في شيء. وراق لها أن تعيش هنا في البيت، أظن لأنّي كان عليّ المجيء من الطرف الآخر من المدينة، بين يوم ويوم، لأحمل لها أخبار أعمالها. لكنّها ماتت من دون وصيّة. كلّ ثروتها مسجلة باسمي. وأنا أعمل على تصفيتها... لا أدري ماذا سأفعل بكلّ هذا المال، ما زلتُ أجبي

الإيجارات، ما زلتُ أعمل صفقات العقارات كما لو كانت بريجيت على قيد الحياة... يقولون إنّ في حي ماتاديرو... يقولون إنّ طباخات الغاز السائل... لكنّي لا أستطيع أن أظلّ حبيسة أموال بريجيت، لا أستطيع سماع تلك اليقولون، أريد أن أتخلّص منها، أنا متعبة، أريد أن أزيح بريجيت عن كاهلي لكي أعيش ما بقي من حياتي أنا... طبعاً ربّما لم يبقَ منها شيء...

إنّها ترتدي السواد، هناك في مقصورة الكاهن. لو كان هناك المزيد من الضوء لاستطعتُ أن أرى بوضوح تعبير وجهها وتمييز حركاتها وإيماءاتها. لقد سمنتْ كثيراً. موديتو، اذهبْ وأشعل بعض الشمعات لكي أرى ماذا تفعل، اذهب لمساعدتها على تحريك ذلك الكرسي المذهّب، أظنّ أنّها تحركه، لماذا تحركه يا ترى، انتظرْ، انتظر، موديتو، إنّها كثيرة الشبه بمرثيديس باروسو، كبيرة الجسم بدينة وترتدي السواد، تتوقف لتقول لي ما لا تستطيع هي أن تعرفه:

– لذلك أتيتُ للتشاور في الأمر مع حضرتك. بما أنّ كلّ شيء سينتهي في ظرف أسابيع، وأنت تعرفين بذلك، فقد أمر الأب آثوكار بعمل الجرد، قذارات، طبعاً، لكنّ من الممكن إخراج بعض الأشياء، وأنتنّ سيلزم عليكنّ الذهاب إلى مكان آخر وما من مكان تذهبن إليه... أنا كنتُ أظنّ، أيتها الأم بنيتا، أنا كنتُ أفكر في أنّ... بأموال بريجيت... مؤسسة معقولة، حديثة، بأطباء متخصصين، تشرفينَ على كلّ شيء فيها. «مؤسسة بريجيت... بريجيت...» هل تصدقين أنني لا أتذكر حتى لقبها؟

أنا أبقى في الظل أتفحّص ذلك الكائن الذي سمعته الأم بنيتا وهو يقترح عليها فكرة أن نعيش جميعاً في مستشفى معقّم، بكمامات بيض وممرضات يعتنين بنا. لكنّي أعرفك جيداً، أيتها الأم بنيتا، وأعرف أنّك سترفضين، وبأنّك لن تحاولي، ولأيّ سبب كان، حتّى لو أصرّتْ

هي على أن تشتري بيتاً حديثاً مريحاً بحديقة، وربّما متنزه، إقناعها على الرغم من أنّ حضرتك توضحين لذلك الكائن الذي لا يبلغه إلا قليل من نور «الحضور» في هذا المصلّى الذي ما عاد مصلى، بأنّ العجائز كثيرات، أكثر من اللازم...

– لكنّ عددهنّ يتقلص. ما عاد الناس يمتلكون خدماً يعتنون بهم طوال الحياة كما كان الأمر سابقاً. أنا أردتُ أن أقترح عليكِ بالضبط عدم قبول المزيد من العجائز. نبقي على ما لدينا منهنّ، وسيمتن شيئاً فشيئاً إلى أن يختفين جميعاً ولا تبقى أيّة واحدة منهنّ. بالخبرة التي تمتلكينها حضرتك، يمكنك التكفّل بإدارة البيت الجديد، بيت أبيض، جميل... ولتعش فيه العجائز الباقيات حياة رغيدة نيابة عن بريجيت، اصطياف، تدفئة مركزية، أطباء جيدون، حافلات صغيرة للتنزه على شاطئ البحر أو في الحقل، وهكذا تنفق أموال بريجيت غير النافعة، فإن لم أنفقها فستظلّ تثقل كاهلي...

– لا... لا... لا أريد المزيد من العجائز... فهنّ يجتهدن دائماً لجلب المواقد على الرغم من التدفئة، وأقفاص طيور السمّان أو عصافير اللويكاس، وعلب صغيرة تحت السرير... لا...

سحبتْ تلك الشخصيّة المنفوخة، التي ترتدي السواد، الكرسيّ المذهب إلى قنديل القربان المقدس، لا، لا تصعدي، منتشه، أنت بدينة جدّاً، عجوز جدّاً، بلهاء جدّاً، الكرسي عادي، قذر، من خشب وجص، ولن يقاوم، لا تصعدي...

– كلا، سيدة راكيل، تخلّصي من بريجيت هذه بأيّة طريقة. لا ترسليها إليّ. منذ عشرين عاماً وأنا أعيش محفوفة بالشيخوخة والهرم. قد يكون الأب آثوكار ما تظنين، لكنّه يعرف ما يفعل.

– سأحرق النقود. مجرد ورق. ورق وحسب، وورق جريدة

telegram @ktabpdf

مقطّع ومقصوص لا يصلح إلا للحرق، لا أظنّ أنّ بريجيت ستأبه لحرقه...

يا لمرثيديس باروسو المسكينة، تريد الصعود على الكرسي لتسرق قنديل القربان المقدس! وهو الشيء ذو القيمة الوحيد الموجود في هذا البيت، أيتها الأم بنيتا، أمّا ما عداه فهي قذارات، أحتاجُه لمصلى صاحب النيافة رئيس الأساقفة، الذي سنفتتحه قريباً، وهذا القنديل، وهو من عهد الكولونيالية، ذو أهمية كبيرة، وسيسطع بنوره هناك أكثر، محزنٌ أن يكون مدفوناً في هذا البيت. حضروا لحمل منتشه في سيارة نقل لم تكن سوداء، ولو من باب الاحترام، واضطررنا أن نضع لها حفنة من زهور الجيرانيوم المغبرة التي أخذناها من باحة الباب لكي لا ترحل المسكينة من دون زهور، وهي التي كانت، مع فقرها، ظريفة ومسلية... لم يكن الأمر كما حدث في مراسم تشييع بريجيت، نعم، تلك كانت مراسم تشييع حقيقية دفعت تكاليفها حضرتُكِ، سيدة راكيل، لأنّك طيبة وكريمة، طبعاً، أيتها الأَم بنيتا، بريجيت كان لديها منعطفات أكثر مما لهذا البيت منها: جنازة بريجيت لم تكن هدية منّي. بريجيت، على الرغم من خوفها من الموت، حين بحثت أمر الوصية، لم تخشَ تخيّل جنازتها الفخمة، محفوفة بالطقوس والأبّهة. أمّا الإنفاق على جنازة رائعة لا تدين لأحد بها، أمّا التخطيط لها بكلّ تفاصيلها، فقد كان هاجسها في حياتها. منذ قبل أن تأتي للعيش هنا وهي تتصل تلفونياً بكافة شركات الجنازات الفخمة للسؤال عن الأسعار وعن نوعية التابوت - أنا، طبعاً، كان عليّ أن أذهب لمعاينتها وتزويدها بالتفاصيل-، بأيّ معدن هو مبطّن، وبأيّة نوعية من المخمل أو الستان، كم عدد الأحصنة، ستائر سود مع شراريب مذهبة، شمعدانات تحمل شموعاً حقيقية، من الشمع، وليست كهربائية كالتي توجد الآن. لكنّها لم تكن تريد، تحت أيّ ظرف، أن تعرف بقية العجائز هنا أنّها هي

من أنفقتْ على جنازتها. كان حلم حياتها الكبير، من خلال هذه الجنازة، هو أن تتميّز عن جميع الخادمات الأخريات، ليس بثروتها الخاصة: لم أفلح قط في إعطائها صورة واضحة عن حجم أموالها، لأنّها كانت تفهم تفصيل ثروتها، وليس مجموعها. ما كانت تريده هو إثارة إعجابهنّ بأنّ لديها سيدة تحبها حبّاً جمّاً إلى درجة أنّها أهدتها تلك الجنازة: كان تحويلي إلى مسخ الحب ذاك، الذي لم أكنه، هو الترف التي اشترته بثروتها. طبعاً كنتُ سأدفعُ لها جنازة بأيّ شكل من الأشكال، فقد كنتُ أنا وبريجيت متحدتين، لكنيّ لن أنفق من أجل نفسي ولا من أجل أولادي في جنازة فخمة كجنازة بريجيت. لاحظي أنّها أعطتني نقوداً في ظروف صغيرة متفرقة لكي أشتري لها أكاليل من الزهور تحمل اسم عائلتي كلّها. كانوا هم سيرسلون زهوراً على أيّة حال، ولكن ليس بالسعر الباهظ الذي أمرتني هي أن أشتريها به...

نادها، نادها موديتو حضرتكِ تتوسلين إليّ لكنّ صوتي لن يُسمعِ في الظَلمة، أمّاه. هذه الصورة في مقصورة الكاهن، نادها، ولنصلّ معاً لكي تعود الروح إلى المَطهَر، منتشه، انصرفي، ماذا تفعلين في مقصورة الكاهن، لنصلّ، حماكِ الربّ، أيتها الملكة والأم، شهيدة الرحمة، حياتنا وحلاوتنا ورجاؤنا، ندعوكِ أنتِ من حياتنا الدنيا، من وادي الدموع هذا... الصورة تبدو من صنع اللهب المتذبذب الصادر عن قنديل القربان المقدس... لا، بالطبع إنّها ليست السيدة راكيل إنّها منتشه التي من فقرها تأتي إلى المعبد لتسرق، لا تفتحيه، منتشه، إنّه عمل من أعمال تدنيس المقدسات، الكاهن وحده يمكنه أن يفتحه حين يكون الرب بداخله، لكنّ منتشه تفتحه وتنحني فوق السجادة البيضاء وتصلّي... أعرف الإيماءة التي تنحني بها، موديتو، والإيماءة التي تفتح بها باب المعبد، التي تدخل بها يدها وتخرج العلبة الصغيرة التي تضمّ القربان وتحشرها بين أزرار القفطان، لأنّها

telegram @ktabpdf

قفطان، ليست هي منتشه، إنّه خوري منتفخ وبدين مثل منتشه التي تجثو ثم تنهض... إنّه هو. أتعرّف عليه حين يلتفت لمراقبة اللهب الأحمر الذي يعلّقه هناك في الأعلى: شعر مصبوغ فكأنّه صبغه بحبر صيني على الجمجمة، الحاجبان الكثّان اللذان لا أراهما بل أخمنهما، العينان الغامقتان، الكبيرتان، من الستان، رمشان محلزنان وجفنان مكتنزان. لمَ لا تطيعني، موديتو، وتناديه وتعلمه بأننا هنا، في المصطبة الأخيرة، ننظر إليه من الظلمة، لكي لا يفعل شيئاً لا ينبغي لنا أن نراه؟ لا بدّ أنّه حلم من أحلامي المرعبة أن أرى السيد آثوكار ينظر إلى قنديل القربان المقدس، يقف تحته، يبسط يده، لا يبلغه، يحشر إصبعه في فمه كما تفعل إيريس ماتيلونا ويظلّ مفكراً. ثمّ يمدّ يده مرّة أخرى ويقفز: لكنه لا يفلح في لمس القنديل. إنّه السيد آثوكار من جاء لسرقة قنديل القربان المقدس! ما أفظعه من كابوس، يا إلهي، أن ترى في منامك الأب آثوكار يأتي لإطفاء نور القربان المقدس، لإيقاف نبض قلب البيت! وقّع رئيس الأساقفة على فعل التدنيس، لكنّ الفعل لم ينفذ إلا الآن... إطفاء «الحضور»... سرقة القنديل... القربان.. إنّه يفرك الآن يديه السمينتين، البيضاوين، المغطاتين بالشعر الأسود. ينظر إلى القنديل. إنّها خطيئة كبيرة، الحلم بأنّ مطراناً صالحاً، نعم، إنّه صالح، يجب أن يكون صالحاً فهو أمين سر رئيس الأساقفة، بأنّ مطراناً مرموقاً لكنّه بدين جدّاً، يشخر وهو يدفع كرسياً دمقسياً ليصل به بالضبط تحت قنديل القربان المقدس. يريد إنزاله، سيأخذه. لقد نبّهني إلى ذلك، لكن ليس هكذا، هذه سرقة، أيها الأب آثوكار... ليحملها، وأنتَ، موديتو، يا من تقف هناك خلف كرسي الاعتراف، ساعده على إطفاء ضوء القربان المقدس وتركنا من دون «الحضور». انتظر... انظر... سيصعد، يريد التسلق على كرسي الجبصين المذهب وهو هشّ جدّاً، لا تصعد، أبتاه، لا تصعد

لأنّ حضرتك أبله وبدين والموديتو خفيف الحركة وسأرسله ليجلب سلّماً لكي ينزل قنديل القربان المقدس الذي تريد حضرتك أخذه، لا تجبرني على أن أراك وأنت تفعل أموراً مثيرة للسخرية، أتوسّل إليك. فذلك الكرسي بدائي مثله مثل طاولاتي المعمولة من المرمر المعاد وقواعد أعمدتي الخشبية التي توحي بأنّها مرمرية ومشمع الأرضيّة المستهلك والمصاطب الخشبية ضعيفة وستنكسر إن صعدت لأنّ وزنك ثقيل، أرجوك، استمع إلى ما أقول. وأنتَ أيضاً، موديتو، لا تبقَ في مكانك تتطلّع إلى كابوسي وتستمع إلى صوتي من دون أن تردّ عليّ. هيّا، أوقفه، كي لا يصعد على الكرسي، إنّه يشمّر عن قفطانه، يجاهد، يغالب، سيكلفه الصعود كثيراً. رفع ساقاً سمينة بعد أن كشف عنها القفطان، تركها معلقة في الهواء لثانية وقد وقف على طرف قدمه وكأنّها قدم راقصة باليه، ينزلها، إنّه لا يستطيع. لا يدري ماذا يفعل. يجلس على الكرسي. يتأمّل القنديل. يقف على قدميه ويقفز لبلوغ القنديل لكنّه لا يستطيع بالطبع، يتمكن فقط من مسه، يتأرجح القنديل ويرمش اللهب ومعه جميع الأخيلة في المصلّى، أنا وهو والموديتو والقديسون، الجميع يرقصون. يجثو الآن على المقعد الدمقسي الأحمر ويحاول أن يرفع جسمه بالتمسك بمسند الظهر، لا، أيها الأب آثوكار، فمسند الظهر غير مربوط الوثاق، أنا أعرف ذلك الكرسي... قوائمه البذيئة... أربطته... إلهي، إلهي، لا تسمح لي بالانتقام من الأب آثوكار الذي يعرف أنّ هذا البيت هو قذارة صرف، إننا نحن قذارة محض، لا تسمح لي بالانتقام منه عن طريق هذا الحلم، أنا أكرهه لأنّه وعدني بتخليصي من العجائز لكنّه لن يفعل ذلك وأكرهه وأريد السيطرة على حلمي ولا أستطيع. يستنشق الهواء بصعوبة. نهض وهو يتسلّق الكرسي، الذي يئن تحت وطأة وزنه، لا تتحرك، أبتاه، ستسقط، لا تتحرك، لكنّ حضرتك ترفع ذراعيك، تمسّ

القنديل والكرسي يتأرجح، يهتزّ وهو يتنبّه ويبسط ذراعيه ليحافظ على توازنه كمن يرقص على حبل في السيرك... كل شيء يتمايل، نحن نتمايل جميعنا ولا يستطيع إنزال القنديل المطلوب. الكرسي يهتزّ. هو الآن خائف. إنّه نادم. يريد النزول. يرفع القفطان من جديد وينزل متلمساً قدمه كالطفل الذي يضع قدمه في الماء ثم يسحبها لأنّ الماء بارد... يرقص على الكرسي المذهّب، ذلك الجسم المكوّر بذراعين ممدودتين... ستسقط، أبتاه، الموديتو قادم إليك لمساعدتك، يرفع القدم الثانية، يقف على طرفها، يثني ركبته الأخرى، أسمعك تتنفس بصوت عال لأنّك بدين وتشعر بالخوف، ساعده، موديتو، فكّر في خطيئتي برؤية هذا الحلم الفاضح في منامي، أخرجني من هذا الكابوس، موديتو، لا أريد أن أستمر في ارتكاب الخطايا بهذا الحلم لكن ماذا في مقدوري أن أفعل لإيقاف حلم يجرّ ويجرّ والأم بنيتا تضغط قبضتها على فمها كي لا تبكي من الخوف، بريجيت يجب أن تنقذني، هي ستنقذنا جميعاً، ذلك ما وعدتني به السيدة راكيل، تغطّي فمها كي لا تبكي خوفاً من أن يواصل الأب آتوكار حركات الرقص البهلوانية فوق الكرسي الضعيف، والأم بنيتا تضغط قبضتها وتغطّي فمها لتبلع بكاءها، ذاك الذي يصعد في صدري ويؤلمني، أشعر بالمزيد من الدموع، يهتزّ صدري وشيء ما يصعد ويصعد، يا إلهي، لا أستطيع التحكم بهذا الدوار، لا تسمح لي بفعله، ربّاه، لا تسمح لي، وحين يقف الأب آتوكار على طرف قدمه في الهواء مستعداً للنزول، تنطلق قهقهة الأم بنيتا عالية في المصلّى الذي لن يعود مصلّى لأنّ قهقهتي دنسته وإلى الأبد... زلق المطران وسقط.

- خراء...

نهضت الأم بنيتا من الظل محاولة إصلاح ما أفسدته قهقهتها وركضتُ أنا وإياها في الوقت ذاته إلى مقصورة الكاهن لمساعدة

الخوري الذي كان ينفخ ويتنشق الهواء بصوت عال ويلعن محاولاً الوقوف على قدميه:

- آآآآآآآآآي...

تساعده الأم بنيتا والموديتو على النهوض. يسقط مرّة أخرى، نسحبه فينفخ هو حتى يستقيم، ينظّف قفطانه من الغبار، ويمرر يده على شعره لإعادة زيف سواده التام. فجأة تغيّر إيقاع تنفسه.

- لماذا لم تفصحي عن وجودك أيتها الأم بنيتا؟

حضرتك لا تستطيعين أن تقولي: لأنّك كنت نائمة. الأفضل ألا تقولي شيئاً، لا تقولي لأنّكِ كنتِ تتكلمين مع السيدة راكيل التي قالت لي شيئاً من الأفضل أن تخبركَ به هي... حضرتك يمكنك فعل شيء لكي تساعدنا السيدة راكيل، أو رئيس الأساقفة، لا أدري من، فنحن نحتاج إلى ملجأ لأنّ كلّ شيءٍ ينتهي... لكنني لا أستطيع. سكوت وطاعة كما سكتّ وأطعتُ دائماً.

- لماذا لم تطلبي من الموديتو أن يساعدني؟

سكوت. سكوت.

- لا أدري إن كنت تذكرين أنني اتصلتُ بكِ قبل وقت لأطلب منك أن تجهّزي لي هذا القنديل لآخـذه... قبلَ أن يأتي الدلالون ويقسّموا الحاجات لرسو المزاد على أحدهم تمهيداً للهدم...

- نعم، نعم...

- إنقاذ هذه القطعة الرائعة...

- نعم، نعم، أيها الأب آثوكار، كل ما عداها قذارة، أفهم ذلك، أقبله، الجرافات ستمسحنا، ستجعلنا في مستوى الأرض التي قام عليها هذا البيت. وماذا عنّا نحن؟ أنا والموديتو والعجائز؟ هل سنسقط أيضاً؟ عيناك البراقتان اللتان تحجرتا فجأة تقول لي بأنني لن أكون القيمة على

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

مدينة الطفل. قهقهتي أدانتني. لا. كنّا مدانين جميعاً من قبل لأنّكم نسيتمونا، أيها الأب آثوكار، لا صدقة ولا أدنى رحمة لأننا غير مهمين ولأننا تقريباً لسنا آدميين بل نفايات، نعم، نعم، لا تقل إن الأمر ليس كذلك، تستهين بنا كما تستهين ببقية القذارة في البيت ومصيرنا ليس له أهمية... بأيّ حق تطلب منّي ألا أفكر في هذا إن كنتَ حضرتك ورئيس الأساقفة تركتمونا جائعات، من دون ملابس، مريضات طوال سنوات وسنوات... لا، أيّها الأب...

- اهدئي يا ابنتي!

- تطلب مني أن أهدأ ولا تعطيني ما يهدئني.

ينهض الأب آثوكار: إنّه ضخم، أسود، برّاق، كلّه من ستان متوهّج، السلطة منتصبة، الصوت واثق، الإصبع الأبيض الذي يهدد قاس، تهديد سينفذ لأنّه سيكون المكلف بتنفيذه.

- هذا نقص في الانضباط لا أتساهل فيه، أيتها الأم بنيتا. سأضطر إلى الحديث مع رئيستك لأنّ الأمر لا يمكن أن يظلّ هكذا.

- منذ ستة أشهر وأنا لا أعرف شيئاً عنها. ولا تكلّف نفسها الردّ على التلفون حين أتصل بها، إنّها مشغولة جدّاً...

- طيب، طيب، انتهى الأمر... وغداً سأرسل في طلب القنديل، اتركيه لي في غرفة البوابة عند ريتا. الآن سآخذ لوازم القربان المقدس من خبز ونبيذ، وبعد أن ينزلوا القنديل، ليغلق الموديتو كلّ أبواب المصلّى. وليفتحوها فقط للدلالين حين يأتون للجرد.

يوشك على الخروج من المصلّى الذي ما عاد مصلّى. يلتفت إلى المذبح. سيجثو ليرسم علامة الصليب، لكنّه يتذكّر أنّ القربان ما عاد في المعبد الذي ما عاد معبداً وأنّه، الأب آثوكار، مطران محترم، يحمله في صدره، تحت قفطانه، بالقرب من قلبه. يلتفت نحو الراهبة من جديد:

- إلى اللقاء، أمّاه.

- إلى اللقاء أبتاه.

يستعيد وجه السيد آثوكار طراوته. يستردّ للحظة بريق عينيه. تركز الراهبة نظرها فيه.

- نعم، أبتاه؟

- أتمنّى ألا تتحدثي مع أحد بذلك...

حضرتك الآن، أيتها الأم بنيتا، الآمرة. حضرتك الآن هي من لا تخفض عينيها لأنّك تعرفين أنّ ما دنّس المصلى لم تكن قهقهتك المسكينة بل الكلمة الوسخة التي فاه بها الخوري عند سقوطه من الكرسي.

- ماذا تقصد بقولك ألا أتحدث مع أحد بذلك؟

حضرتكِ تسألينه بقسوة، كما يجب أن يكون، لأنّ حضرتكِ تعرفين: ألا تتحدثي عن شخصه المضحك وهو يرقص من الجشع على الكرسي الذي يصرّ صريراً، ألا تتحدثي عن كلمته البذيئة حين سقط. لكن حضرتكِ تريدين من ذلك الراهب، ذلك الرجل الذي يذلكِ، أن يترجاكِ. وهو حين يقول لكِ ذلك إنّما يقرّ بمذلته هو. نعم. لتَذعن عيناه البَراقتان وكلمته الفخمة وهو يطلب منك ألا تتحدث مع أحد بذلك. تعاود عينا المطران التصلّب:

- لا شيء، أيتها الأم بنيتا... لا تقلقي...

لم يبق إلا الضوء الصغير الأحمر، ما زال حيّاً، مؤلماً كفضلة العضو المقطوع، متدلياً على جانب من المذبح. لم يبقَ غير إطفائه وإنزال تلك التحفة، أمّا ما تحتويه فما عاد يعني شيئاً لأنّ الأب آثوكار أخذ القربان، الظرف فقط هو ما يهم لأنّه ثمين، إنّه قطعة فريدة، أمّاه. اللهب ما زال متوهجاً، مع ذلك فقد تحوّل المكان إلى غرفة فارغة أخرى من غرف

مكتبة أحمد ٢١٥
telegram @ktabpdf

البيت. نحسّ بالريح التي تنفذ من الفتحات كما الحال في أيّة غرفة من الغرف. لوح زجاج مكسور، ربّما اثنين أو ثلاثة، يجب أخذ الحيطة من قطع الزجاج. هناك في العطفة، الجرذان تقرض وتقرض وتقرض لتختبئ من يدري على أيّ عمق من أسوار الطوب. أنا ما زلتُ قادراً على الصلاة في هذا القشر الفارغ. هذا اللهب الأحمر هو صلاتي... ماذا سيحلّ بنا، يا إلهي، حين تهوي هذه الجدران الطينية. لا أريد التفكير في ذلك. تغلق عينيها.

- سيدي يسوع المسيح، الرب والرجل الحقيقي...

حين فتحتْ عينيها تنبّهت إلى أنّها كانت نائمة مرّة أخرى. مرة أخرى، موديتو؟ ألا يمكن أن تكون جزءاً آخر من المرة نفسها؟ مودو، موديتو، لا تتركني وحدي، أين أنتَ، أشعر بالهزيمة... تهديدي لا يخيف أحداً، صلاتي لا تبلغ نهايتها أبداً لأني أتعب وأنام... سأذهب للنوم لأني عجوز ولا أدري متى أكون نائمة ومتى أكون صاحية... أشعل شمعة، موديتو، أضئ لي الممر لأصل إلى غرفتي وآوي إلى سريري.

٢٠

فتح الدلالون المصلّى وأخرجوا كلّ شيء، ووضعوا ما أخرجوا في مجموعات صفّوها في الممرات، وعلّقوا على كلّ مجموعة بطاقة ورقماً: كراسيّ اعتراف مأروضة، كراسيّ كثيرة مذهبة عرجاء تآكل دمقسها الأحمر وتمزّق وتلطّخ، مصاطب خشبية، قواعد أعمدة خشبية تحاكي الرخام، كراسيّ ركوع مخملية مغبرة معطوبة النوابض.

نبّه الدلالون الأم بنيتا:

- هذا لا يساوي ثمنه إلا خشباً.

- قولوا هذا للأب آثوكار.

- حسناً. لكي لا يمنّي نفسه بالكثير.

- لا أظنّ ذلك. فالقليل الثمين الذي كان موجوداً أُخذ قبلَ وقت قصير.

أخرج الدلالون أيضاً الشيء الوحيد الذي قد يعدّ زينة حقيقية في المصلّى، كنزه: الزجاجات الأربع الكبيرة التي تعود إلى بداية القرن وتظهر فيها أربعُ مجموعات من نساء البيت المُحْسنات، يرتدين شالات سود، جاثيات، منحنيات على أيديهن متحدات في الصلاة، أسماؤهنّ الموقرة تضيء أسفل كلّ زجاجة، يُحطنَ بكبيرِ الملائكة القديس جبريل، الذي رفعَ إصبَعه، وبالعذراء ذات العينين الخفرتين، وهذه هي المجموعة الأولى؛ ويحطنَ بعذراء الحبل من دون دنس

وهي تسحق بقدميها الطاهرتين رأس الوحش الذي يضع الكرة الأرضية بين براثنه، وهذه هي المجموعة الثانية، ويحطنَ بالقديسة حنّا التي ولدت العذراءَ من دون الخطيئة الأولى، وهذه هي المجموعة الثالثة؛ ويحطن بالعذراء التي تزور القديسة إلياصبات، التي انتفختْ بطنُها من القديس غير المنظور يوحنا المعمدان، الذي يسعد في قراره الداخلي لأنّ تلك الذراع تطهره هو أيضاً من الخطيئة الأولى، وهذه هي المجموعة الرابعة. القطعُ الزجاجيّة من عمل كتالاني، فيها الكثير من الفن بحسب رأي بعض العارفين، وهي مهمة لأنّها شاهد على الذوق الذي ساد في تلك الحقبة. بعد نزعها من النوافذ، أضيفت إلى الأعمدة المربعة الموجودة في الرواق بقصد أن تخترقها يوم المزاد شمس مغرية - الألوان كانت في الواقع جميلة جدّاً، وأيضاً الحافات والديكورات الشبيهة بالصينية، أزهار اللوتس وطيور البلشون وأشياء تبدو أعشاباً مائية- لكي يدفع المشترون المحتملون أيّ شيء مقابلها، مع أنّ أحداً لا يعرف فيم ستنفع تلك الزجاجات، بعد أن أبعد وجودُ تلك السيدات الصالحات اللائي يرتدين السواد واللاتي ما عادت هويتهنّ تعني لأحدٍ شيئاً، عن المجموعة أيّة إمكانية أخرى محتملة للإفادة منها.

بقيتْ في جدران المصلى وأبوابه المغلقة بصلبان الخشب أربعُ فتحات كبيرة، راحت بعض الطيور، بعدما رأتْ تأخر المزاد، تعشش في تلك الفتحات وبدأت العناكب تمدّ بيوتها الفانية المكنوسة بتيارات الهواء التي تحرّك في الليل لهب الشموع - ضوء خافت، كي لا يرى من الخارج- التي توقدها النزيلات. عطستْ إيريس ماتيلونا، وكانت تجلس على كرسي الذهب والدمقس الأحمر الموضوع في وسط مقصورة الكاهن، التي ما عادت أكثر من تخت خشبي. قالت دورا:

- السلام عليك أيتها العذراءُ الطاهرة.

في تنورة إيريس عطس الطفلُ أيضاً.

– يا من ولدتِ من دون خطيئة.

– تدثري جيداً يا إيريس ودثّري الطفل، فالتهاب القصبات شديد العدوى في هذا الفصل من السنة ويقال إنّ الإنفلونزا منتشرة جدّاً في الحيّ.

رفعتْ إيريس عنق معطفها البنّي، الذي غطّى باتساعه على حملها، ذلك الحمل اللجوج، المُقلق، الحائر، الذي طال شهوراً وشهوراً مشفوعاً بخشيتهنّ جميعاً، كررنا إنّه معجزة، معجزة، رددتْ ذلك بريجيت، هي تفهم في هذه الأمور، حين يكون الحملُ إعجازياً قد تكون مدته قصيرة، وقد تكونُ أطولَ بكثير، إلى أن يقدّرَ الطفل، بعلمه وحكمته، أنّ اللحظة المناسبة قد حانت لكي نذهب بجمعنا معه إلى السماء لحظة ولادته، وفي أقرب وقت ممكن، لأنّهم سيهدّون هذا البيت ومن يدري ماذا سيكون من أمرنا حين يبدؤون الهدم، إلى أين سيرسلوننا، الواحدة منّا تقلق، وكيف لا تقلق، ولكن يجب ألا نخاف بل يجب أن تكون لنا ثقة بالطفل، الأشياء ستقع حين يريد هو، وفي هذه الأثناء علينا نحن أن نوليَ إيريس عنايتنا وأن نرعاها، لقد صارت هذه الصبيّة سيئة المزاج، سريعة الغضب، لكن يجب طاعتها وتوقيرها بأن نحيطها بالأناشيد والشموع والصلوات. عاد الطفلُ إلى العطاس.

– حذارِ، إيريس...

تثاءبتْ:

– نعم. حفلة البارحة كانتْ مملّة. انظرنَ كيف يسيلُ مخاط الطفل. إن لم تكن الحفلة غداً مسلّية سأشكيكن للأم بنيتا. كفاية. لقد تعبتُ من قضاء وقتي جالسة هنا والطفل بين ذراعيّ، لندخلْ. أنا نعسانة. أريد أن أنام. الطفل مبلول ولذلك يعطس.

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

– البول لا يبرّد، بل يحافظ على الحرارة.

– يحدث هذا فقط حين يرتدي الطفل سروالاً مطاطياً، أماليا، ونحن لم نضع للطفل...

– حقّاً؟ ما كنتُ أعرفُ ذلك.

– ومتى عرفت أيّ شيء أماليا؟

قبل شهر، وقبل أن يحضر الدلالون لترتيب المجموعات، أمرَ رئيسُ الأساقفة بإخراج القديسين. ظلّت النزيلات حزينات بعد أن أصبحَ المصلّى خالياً، مع علمهنّ بأنّ المصلّى ما عاد مصلّى بعد أن دُنّس. لكنّ الموديتو طلب منهنّ ألا يكنّ حمقاوات، وسألهنّ عن سبب بكائهنّ، وأمرهنّ أن يذهبنَ إلى باحته، حيث عثرنَ على قطع مطويّة من الجبصين، أغطية، فراء، جواهر، خنجر مغروس في صدر شهيد، أكاليل وتيجان وعيون حارسة فقدت ألوانها وقطع من رأس مع بقايا سلطة، الكلأ ينمو، يجب الكشف عن أفاع شيطانيّة من دون ألسنة تحت شجيرات العلّيق المتشابكة، وجوه ذائبة بين المُدرّة والخرطال، سيقان معوجّة من ألم الانجذاب، أصابع تتصفّح كتاباً كبيراً من الجبصين أو تمرّرُ حبات مسبحة. لمّح الموديتو إلى أنّ رئيس الأساقفة قد يأخذ القديسين منهنّ، لكنّ في مقدورهنّ أن يصنعنَ غيرهم، وإنّ تركهنّ المصلى ليتحوّل إلى كوخ هو مصيبة المصائب. كانت النزيلات يفخرنَ بلقاهنّ وبإبداعاتهنّ. نلنَ قسطاً وافراً من التسلية نسين خلالها إيريس وطفلها، لأنّ بناء كائنات، وتنظيم هويّات عشوائية من لصق قطَع قد تصيب وقد تخطئ كان من قبيل اللعب، وما أدرانا، فقد ينتج مِن لصق تلك القطع قديس حقيقي، ولكن ما أهمية ذلك، فلذلك يوجد الموديتو الذي لا يستطيع الآن القيام بأعمال ثقيلة، هو يعرف، يرسم ملامح في الوجوه المطموسة المعالم، ويقترح

تشكيلات مهمّة من القطع قد لا تخطر على بال أيّة واحدة منّا، إيريس تشكّل قديسين بين نبتات المدرة، ودورا تقبع خلف شجيرات العليق، وشجيرة الشمّار هذه التي تتشابك جذورها بقديس يبدو أنّه يوحنا المعمدان، يجب عملُ حفرة لتخليصه من الجذور، جناحٌ عليه وجه امرأة، شعر المجدليّة بفم تنين لا ينفث دخاناً، يجب أن نموّه الخط الموجود في القفا بالقليل من الطلاء حيث لصقنا هذا الرأس الذي لا يعود لهذا الجسم، لا، لا تموهْنَه، إنّها الطوباوية إينيس دي آثكويتيّا التي أبقتْ طوال الحياة على الندبة في رقبتها، ولذلك القلنسوة، ولذلك هذا البيت المشيّد للحبس وللإخفاء. تقول أماليا:

– لكننا لا نستطيع أن نوقرها لأنّ التطويب لم يتمّ. يا للسيدة إينيس المسكينة.

– لكن من الممكن أن يتم. يقولون إنّها ستترك كلّ الأوراق في روما لكي يتكفّل المحامون هناك والسفير بالموضوع، على الرغم من أنّهم يقولون بأنّ السفير لدى السدة الرسولية شيوعي لذلك لم يتمّ التطويب. يجب انتظار أن تتبدّل الحكومة وأن يرسلوا سفيراً جديداً أقلّ سوءاً لكي يتم الموضوع.

قالت أماليا، بعد أن فكّرت:

– هذا أسوأ. لنترك إقامة نصب لقديسة اسمها إينيس دي آثكويتيّا. يقولون إنّ السلطات إذا بلغها وقوع عبادة لقديس قبل أن تطوّبه روما، فلا يمكن لذلك القديس أن يكون قديساً لأنّ هذا سيكون من أعمال الوثنيّة، ويحرّك الكرادلة رؤوسهم ويقولون لا، تلك هي واحدة من الشروط الرئيسة لإتمام التطويب.

– ومن أين تأتي هذه بكلّ هذا؟

– لماذا تعيرون أماليا اهتمامكم إن كانت لا تعرف شيئاً؟

– ألا تدركين أماليا بأنّ ما تقولين هو حكايات عجائز؟ ولا تتباكي على كلّ شيء...

– أنا لا أتباكى، بل العين العوراء تدمع وليس أكثر. لم أستطع العثور على إصبع القديس جبريل كبير الملائكة...

– انظرن، هذا القديس الصغير الرائع الذي شكّلته.

– إنّه غريب بعض الشيء، السيقان قصيرة جدّاً...

– والرأس كبير جدّاً...

– لا يهمّ، ما دام قديساً، هو قديس لأني صنعتُه من قطع قديس. قل لي موديتو، ماذا نسمّيه؟

تتجمعُ العجائز حولي، بين الشجيرات، بين قطع الجبصين، لكي أقررَ وأرسمَ بفرشاتي، على قواعد إبداعات أخيلتهم الفوضوية، أسماء قديسين. القديسة بريجيت، الأولى، بسبب دقة أصابعها، بمظهرها غير المفيد، وبسبب طبعها العاطفي. القديس فيديل، بسبب لحيته، ورسمتُ له حزاماً بثلاثة صفوف من الرصاص. والقديس خيرونيمو، طويلُ القامة أنيق، أنفقتُ نهاراً كاملاً، مع العجائز وهن يجلسن ويدمدمن حولي، للحصول على الدرجة الدقيقة من زرقة عينيه. كانت الطوباويّة إينيس دي آثكويتيّا، بجرح الجونجون الكبير في عنقها وأذنيها الكبيرتين، ومنذ البداية، أكثر القديسات شعبية. والقديسة بيتا بونثي بنظرتها الشبقة، والقديس الدكتور آثولا، الذي وجدناه كلّنا كثير الشبه بأماليا، التي كانت عينها العوراء تدمع وتدمع.

– وماذا يهمّ أن ينقص القديسَ جبريل إصبعٌ من أصابعه، أماليا؟

– يهمّ.

لكنّكِ انتهيت منه تقريباً. دعينا نحمله على عربة الموديتو لنضعه في المصلّى، سيكون منظره جميلاً للعيان.

- لا أريد. ما لم أجد الإصبع.

- ما قصّة هذه الحمقاء مع الإصبع؟

تفتش أماليا وهي تحبو منتحبة بين العلّيق.

- لا تعيروها اهتمامكم، إنّها تهذي.

- لقد تغيّر طبعها بعد وفاة المسكينة بريجيت.

- أنا لم أرَ في حياتي إصبع القديس جبريل.

- لن يطول مقام أماليا بيننا.

- لن يطول.

رحن يحملن إبداعاتهنّ على عربة الموديتو لتأهيل المصلّى الفارغ، ورتبنها حول إيريس ماتيلونا وهي جالسة على العرش والطفل بين ذراعيها، تحيط بها حاشية لا ترى إلا بالكاد على الضوء المرتجف الصادر من الشموع التي قيدت حولنا، تظلّلها سقيفة تنفث الريح التي تنفذ عبر أربعة ثقوب في النوافذ.

المتآمرات ما عدن سبعاً. لا أحدَ يعرف كيف انتشرت الإشاعة في البيت... يقولون إنّ في المصلّى... يقولون إنّ إيريس ماتيلونا... يقولون إنّهنّ يشعلن لها شمعات، إنّهن يحطنها بالزهور والأغصان، يقولون إنّها تصنع المعجزات، يقولون، يقولون... يشاع في زوايا أتفه الباحات، يسمع وقعُ خطوات هاربة، العجائز يتجسسنَ، نظرات بطرف العين في المطبخ، أسئلة هدفها التوريط وجر اللسان، حقائق كسبها المقامر أو خسرها حين لم تكن ورقة الأعرج ملكاً، يقولون إنّ... وقع خطوات، ظلال، همهمات، آذان ملتصقة بالجدران، كيف لا تنتشر الإشاعة، حين توجد معجزة من الطبيعي أن يشيع الأمر، وكان ضرورياً قبول المزيد والمزيد من العجائز في الحلقة السريّة لأنّنا إن رفضناهنّ فقد يصبحن خطيرات، ما أكثر ما تتكلم تلك التي ترتدي

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

ملابس من قدمت نذراً العذراء لوردس، والتي تسكن في باحة المغسل، حسودات كلهنّ، حشريات، طفيليات، قوّادات، وماذا في مقدورنا أن نفعل إزاء حمل طال كثيراً، علينا أن نصلي، يؤدي سرب العجائز في الليل الصلوات تلو الصلوات في المصلّى محيطاً بإيريس المتوجة وطفلها في لفّة على ركبتيها، دميتها التي لن تفارقها تحت أيّ ظرف ولا مقابل أيّ شيء، صلوات وأناشيد لكي تضع هذه الصبيّة المزعجة مولودها بسهولة ويسر، لكي يولد الطفل الحقيقي وتنتفي الحاجة إلى «هذا» البديل الذي يطمئن الصبيّة، إنّها تتميّز غضباً، إنّهن يبتهلن ألا يتأخر الطفل الذي حملت به من دون أن تدنسها اللذة، وأن يتمكنّ من هدهدته بين أذرعهنّ قبل أن يمتن، هذا إن لم يحملهنّ الطفلُ إلى السماء قبل أن يمتنَ. على الرغم من الريح الهوجاء في زوايا المصلّى وعلى الرغم من السعال والعطاس والخوف من الإصابة بالتهاب الرئتين، وعلى الرغم من النعاس الذي يغلب المرء أحياناً وهو في عزّ صلاته، راحت العجائز يصلين ويصلين، يوقرن إيريس، فيروق لها ذلك ويثير ضحكها، ويروق لها أيضاً أن ينفثوا عليها الدخان المعطر، بل أن يرقّصوها هكذا!!!!!!، هكذا!!!!!!!!!! بالأذرع، وثني الركب التي تصرّ، ليعجّل الطفل، هنّ جهّزن أغراضهنّ للذهاب مع الطفل إلى السماء، فذلك هو ما وعدت به بريجيت، بعض الحاجيات لا أكثر، لحملها مربوطة في علب، الساعة المنبهة، شال، أوراق للعب البريسكا، فهناك لن يدعونهنّ يلعبن لعبة الجبل، ألا ترى أنّ لعبة الجبل هي لعبة الشيطان، إبريق الشاي، وقد لا نحتاج أن نحمل هذه الأشياء إلى السماء إذ يقال إنّهم هناك يوفرون لنا كلّ شيء، ويوفرونه جديداً.

تواصل إيريس الانتفاخ متدثرة بمعطفها. عيناها حمراوان. عددتُ لها اليوم ثماني عطسات. طبعاً فالليلة شديدة البرد. وأنا عطستُ مرات أخرى. لكنّها شبه نائمة على أريكتها من الضجر لذلك لا تنظفُ لي

أنفي. يجلبن الآن عربتي. فقد حان الوقت. تجلس إيريس على العربة. يضعنني فوق تنورتها. لكنّها، وهي الأم الرؤوم، تصرّ على أن يلبسوني برنيطة الطفل، التي تتدلى منها كرة الصوف، لكي لا أظلّ مزكوماً. تعاود العجائز تسمير الألواح التي أغلقتُ بها المصلّى، لكي يبدو وكأنّ أحداً لم يدخل إليه بعد أن أخرجَ الدلالون كلّ الأشياء. تتقدمهنَ عجوزان تحملان شموعاً داخل أقماع من ورق الصحف، يسحبنَ عربتي، يحملنني أنا وإيريس فوق لوحتها، يتبعهنّ موكب قوادات وقابلات رثات الملابس، وطبيبات تضوع منهنّ رائعة الأعشاب، وخبيرات في تجبير الكسور، ونائحات، ومربيات، وساحرات من درجة دنيا حتّى إنّهن لا يعرفن أنّهن ساحرات، يصلين في الممرات ويسعلنَ ويتحدثن ويلعن بلغمهنّ.

منذ أن أجرى لي الدكتور آثولا العمليّة، لم تتغير ملامحُ وجهي وحسب، بعد أن ترك لي هذا القناع الخالي تقريباً من التقاسيم التي لم يهتمّ أحد بإعادة رسمها، بل لقد قلّصني إلى ما أنا عليه، بعد أن استولى على الـ ٨٠٪ وترك الـ ٢٠٪، مقلّصاً ومريضاً، متركزاً حول نظرتي. العجائز ينزلنني إلى القبو ويضجعنني على أحد الأسرّة. لقد صرفن النزيلات اللائي جئن مؤخراً، القبو ليس كبيراً، لا تكنّ فضوليات أيتها النسوة لأجلِ الربّ، سنسمح لكِ بالنزول في يوم آخر، لوسي، القبو لا يتسع لكلّ من يريد الآن رؤية إيريس وهي تغيّر ملابس دميتها وتقديم المساعدة، لا يتسع المكان لنا جميعاً وستعقن حركتنا ونحن لدينا الكثير لنعمله، حين نحتاجكنّ سننادي عليكنّ. هيّا إيريس، دعينا نعرّيك، البسي القميص، ارقدي فالوقت متأخر، لقد جاز علينا الوقت ونحن نصلّي في المصلّى، إيريس تريد أن تغيّر بنفسها لطفلها لكنّها تدعنا نساعدها لأنّ من الصعب عليها بمفردها أن تغيّر لطفل هو في الواقع كبير، كهذه الدمية. ينزعن عنّي الحفاظة.

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

- هذه الدمية أقلّ تبولاً من داميانا.

أمامَ أعينهنّ يتكشف سكسي المنتصب. هنّ يعتقدن أنّه سكس الموديتو، ولكن لا، هو فقط متنكر بسكس الموديتو المنقاد، وإن حلقنه لي بأمر من إيريس ليصبح مثل سكس طفل صغير، إنّه سكسك، دون خيرونيمو، الذي صار من حصتها، لأني تمكنتُ من الهرب «قبل» أن يجري الدكتور آثولا عملية النقل. يمسكنَ بسكسي لغسله بالإسفنجة، يعلّقن قائلات ما أبشع هذا، لا أدري كيف يمكن لبعض النسوة أن يكنّ على هذا القدر من القرف وينثرن مسحوق الطلق عليه وكأنّه قطعة حلوى يوشكن على التهامها وإخفائها كما اختفى السكس الملوّث الذي يحمله دون خيرونيمو، الذي لا يتقرب إلى إينيس منذ سنوات وسنوات وسنوات لأني لا أريدُ أن يتقرّب منها، لذلك أموّه سكسي القوي بسكس طفل، سيدي، لأجل الربّ، متى سيولد الطفل حقاً لكي لا يلزم فعل هذا القرف مع الموديتو، لا يهمّ أن يفعلنه مع طفل، ما عدتُ أمتلك معدة لأواصل فعل هذه الأشياء لهذه الدمية، كلّما حان الوقت لأغسل للموديتو أشعر برغبة في التقيؤ، اغسليه أنتِ، إيريس، إنّه دميتكِ، إنك تتركين لنا أثقل شيء، وتضحّي البلهاء منّا بنفسها بينما هي تستريح، حتّى متى ستجعليننا ننتظر طفلك، أقول لكِ إنّ إيمان بعضنا بدأ يضعف مع التأخير، لا تظني أن كلّ الإشاعاتَ لصالحك، داخلَ الشكّ الكثيرات، أخريات خائفات لأنّهن يقلن إنّه مناف للقانون أو أشياء كهذه، قبل أيام سمعتُ من يقول إنّ هناك عجوزاً تَسكن في باحة النخلة تقول إنّها جريمة حقيقية، وبأنها ستشي بالأمر لأننا جميعاً مجنونات، جميع النزيلات تقريباً يعرفن أن شيئاً ما يحدث، يشممن رائحة أمر غريب في محادثاتنا السريّة، نحن أنفسنا بدأنا السلب والنهب، ها أنتَ ترى أماليا، وهي تبحث ليل نهار عن إصبع القديس جبريل، وما عادت تقترب من هنا،

استعجلي إذن إيريس، ماذا سنفعل يا إلهي إن جاؤوا لهدم البيت قبل أن يولد الطفل، سيلقون بنا إلى الشارع لنتسوّل، لننام على العتبات وفي المتنزهات، لا، لا تكنّ بلهاوات، لن يهدموا شيئاً وإن أجروا المزاد، هذه ستكون واحدة من المعجزات الرئيسة التي سيحققها الطفل حين يولد، فلنلعبْ في هذه الأثناء مع الموديتو الذي يسمحُ بفعلِ أيّ شيءٍ معه لأنّ المسكين يسير كالمنذهل، شبه نائم، فلا يبدو حياً ولا ميتاً، أيتها الأم بنيتا، ماذا جرى لهذا الرجل المسكين. حضرتك تقولين إنّكِ ما عدت تدرين ماذا تفعلين معه. ما عاد يساعد في شيء. أَحياناً يختبئ، ولأنّه يعرف البيت جيداً، فهو يسكن هنا قبلنا بكثير، بل قبل الأم بنيتا نفسها، فإنّه يضيع منّا وعلينا أن نخرج للبحث عنه بعد أن نتوزع على الأروقة والممرات والباحات والعلّيات لحين العثور عليه، لأنّ علينا أن نعثر عليه، وإلا غضبتْ إيريس منّا، تخمشنا بوحشية وتضربنا بالعصا، ليجلبوا لها دميتها حالاً وإلا، ستلقي بنفسها من الدرج لتقتل الطفل المعجزة وهكذا لن تكون هناك معجزة، وسنظلّ جميعنا كالبلهاوات نمصّ أصابعنا، ولنر ماذا ستفعلن حينها، لن تكون هناك معجزة، أيّة معجزة، وستمتن جميعاً لأنكنّ عجائز ومريضات، فأتوا لي إذن بدميتي، سأشكيكن إلى الأم بنيتا لتعاقبكنّ، وإلى الأب آثوكار ليرمي بكنّ إلى الشارع، أحفظُ رقم هاتف رئيس الأساقفة الخاص وسأتصل به لأحكي له كل شيء إن لم تأتي لي بدميتي، منذ يومين ودميتي ضائعة، أعرجُ، شبه عمياء لأنّ هذه الحبّة التي ظهرت في عيني تضايقني كثيراً، وأنا أقبّلُ وشاح القدّاس ليحالفني الحظ في العثور عليها، ونحنُ مرتعبات من الظلام الذي لا يزول، علينا أن نتوزع في أنحاء البيت، في ممرات لم نمرّ بها من قبل، وباحات توجد فيها أرانب بريّة انظري، روساريو، أرنبٌ بري صغير في هذه الباحة، لنصطد أحداها، فهي لذيذة بالثوم، وليس لدينا الآن ما نملأ به القدر، انظرن يا بنات لقد

عثرنا على أرانب برية في الباحة هناك في الداخل، وكيف تقولين إنّها أرانب برية كارميلا، لا تكوني بلهاء يا امرأة، إنّها أرانبُ وحسب، ولكنّ الأرانب لذيذة أيضاً للأكل، بل هي ليست حتى أرانب، إنّها أرانبُ تجارب، وماذا تفعل صغار أرانب التجارب في هذه الباحة لا أعرف. لا يظهر الموديتو. إيريس تصرخ وستتهمنا جميعاً، تقف على الدرابزين لترمي بنفسها وتقتل طفلها إن لم نأت لها بدميتها، إلى أن صرخت ريتا، ها هو، ها هو، عثرتُ عليه، جالساً على الأرض وقد لفّ ذراعيه على ساقيه وأخفى وجهه بين ركبتيه، وديعاً، طيباً، يستسلم الموديتو لنا فنمسكُ به من دون أن يبدي أيّة مقاومة ونطعمه ولكن قليلاً لأنّه الآن تقريباً لا يأكل... وحين ضاع في مرات أخرى، كان الأمر مختلفاً، لأننا حين كنّا نعثر عليه ويرى أننا سنمسكُ به كان يركض كأنّه طفل ويضيع منّا بين الممرات لأننا لا نستطيع أن نركض مثله، إلى أن نعثر عليه بعد أيام - أحياناً علينا أن نغلق على إيريس بالمفتاح كي لا تفعل أشياء خطيرة ولا تصرخ كما تصرخ ولا تضربنا بعصاها- في إحدى الغرف التي خزنت فيها الصحف والمجلات والكتب القديمة، في ملاجئ يهيئها الموديتو بين أكوام من ورق ما عاد نافعاً، أكداس من المجلات، كتب قرضتها الجرذان، أكوام من الصحف، تلال من الإنسكلوبيديات الناقصة، من الكتب فخمة التجليد مبقعة باللون الأحمر لأنّ الأغلفة فقدتْ لونها، أحياناً نجده يقرأ لأنّهم يقولون إنّ الموديتو قرأ كلّ الكتب وكلّ المجلات وكلّ الصحف الموجودة في البيت ولذلك ما عادتْ لديه قوة، ومع ذلك، حين نعثر عليه في تلك المخابئ، لاجئاً إلى مغارات الحروف العقيمة تلك، يفرّ منّا ثانية، يتسلّق أكداس الصحف أحياناً حتّى السماء الصافية، لكننا، على الرغم من صرير عظامنا، وعلى الرغم من شكوانا وتذمرنا، نتسلّق لمطاردته، مدفوعات بالخوف من تهديد إيريس، على جبال «الزيك زاك» و«لا

اسفيرا» و «جي. سي. تو.» المجلّدة والملدّنة التي أحفظها عن ظهر قلب، يحاصرنني كما يُحاصرُ الحيوان، ويصرخن لكي يأتي المزيد من العجائز للمساعدة، إلى أن يُمسكن بي، موديتو، موديتو، لا تكن أحمق، سلّمْ نفسكَ، لماذا تهرب، نحن نحبّكَ ولم نعاملكَ بسوء قط، لا نريد إلا أن نطلب منك معروفاً وهو أن تساعدنا في تسلية إيريس إلى حين ولادة الطفل.

يبدأن بتقميطي، بشد وثاقي بضمادات من أربطة من قماش. القدمان مربوطتان. ثمّ يربطن ساقيّ لكي لا أتمكن من تحريكهما. حين يصلن إلى سكسي يربطنه كما يربطن حيواناً مؤذياً، وكأنّهنّ يخمنّ أنني أتحكمُ به على الرغم من قناعه الطفولي، كي لا يعلم أحدٌ بما أخفي، ويثبّتن سكسي بربطه بفخذي لإلغائه. بعد ذلك يحشرنني في نوع من الجراب، بعد أن يربطن ذراعيّ إلى ضلوعي، ويربطنني في ربطة عنق لا تترك غير رأسي في الخارج. يرقدنني في سرير إيريس، إلى جنبها، ذلك ما كانت تطلبه هي للحد من عصبيتها، أن يربطنني جيداً ويرقدن الدمية إلى جنبها في السرير، تحت الشراشف، لأنّها تحبّ أن تنام مع طفلها الصغير، كما حين كان أبوها وأمّها ينامان في السرير نفسه ويعملان ناناي بينما هي نائمة إلى أن لم تعد إيريس ذات صباح تتذكر أكثر وكلّ شيء يرتدّ نحو حاضر دميتها، في سريرها، إلى جانبها للعب معها.

– خذي طفلكِ، إيريس.

– نامي الآن.

– ولينم هو أيضاً.

– لحسن الحظ إنّ هذا الصغير ليس سيئاً في النوم كما كانت داميانا الحمقاء، إنّه ينام بسرعة ومن دون بكاء. ولكن لا تسمحي، إيريس،

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد ٢١٥

أن يعمل معك أيّة قذارة، ولكي لا يلمسك ولكي لا ينتصب عضوه فقد بالغنا في ربطه، فلينم معك كالدمية الحقيقية، كأنّ الموديتو دمية حقيقية، ولن يكون قادراً على فعل شيء، ما أطيبه المسكين، ربّما كان قديساً هو أيضاً، انظرن إلى الوجه الذي وجدناه عليه أمس وهو يقرأ شيئاً مجلداً بدا إنجيلاً لأنّ الكتب السميكة المجلدة بالكثير من الذهب هي أناجيل، وتقول بعضهنّ إنّهن شاهدنه يكتب بعض الأشياء التي أظنّ أنها تسمّى أفكاراً وهي الأشياء التي يكتبها القديسون، لذلك فما من ضير في أن ينام مع إيريس فهي عفيفة أيضاً، ولكن لا بدّ من جدار عازل منيع حتّى بين القديسة والقديس(١٣)، فمن الأفضل التحوّط لأنّ الرجال جميعاً هم في نهاية الأمر خنازير يقضون حياتهم بحثاً عن فرص للتحرش بالفتيات، من الأفضل ربطه لكي لا يلمسها بيديه الرجالية القذرتين، بلحمه الجشع الذي عليه أن يدفنه، لأنّه إن تمكن من لمسها فقد تراودها أفكار سيئة، تلك خطيئة، وحينها لن تظلّ إيريس عفيفة وطاهرة، وإن فقدت عفتها وأضاعت طهارتها فلن تحدث معجزة ولن يأتي الطفل الذي اضطررنا إلى أن نقول لها إنّها تنتظره لكي لا ترمي بنا إلى الماء، الأشياء ما عادت كما كانت في زمن بريجيت، لقد تغيرتْ كثيراً، وإن لم يكن هناك طفل معجزة فسنضطر نحن حينها إلى البقاء في حياتنا الدنيا، في وادي الدموع هذا بانتظار المنيّة التي ستأتينا في ليلة رعب، والتي سنلمح وجهها، في هذا البيت الذي يقولون إنّه سيقع على الرغم من أنّ السيدة إينيس ستصل من روما، ماذا سيفعلون بنا حين يهدون هذا البيت إن كانوا نسونا، حتى صاحب النيافة، كلهم إلا الطفل الذي سيولد لتخليصنا، والذي لن يسمحَ بأن يحشرونا في شاحنة صغيرة تابعة لجمعية البرّ والإحسان الحكومية كما حشروا المسكينة

١٣- مثل شعبي يدعو إلى أقصى درجات الحيطة في الخلوة بين رجل وامرأة حتى مع من يدون مأموني الجانب. Entre santa y santo pared de cal y canto.

مرثيدس باروسو ليلقوا بنا لنتعفّن في المقبرة الجماعية، لأننا طبعاً، ما كنّا سنشكو لو أنّ الجنازة ستكون كالتي جهزتها السيدة راكيل، التي لا تشبهها سيدة، لبريجيت، ذلك سيكون أمراً مختلفاً، فليس مخيفاً أن تكوني حبيسة صندوق جيد، في لحد من المرمر الحقيقي، الأبيض، وقد كتب اسمك وتاريخ وفاتك وكلّ شيء، وعائلة رويث حاضرة تصلّي وقد بدا عليها حزن حقيقي لموت المسكينة بريجيت، لكنّ أحداً لن يحظى بما حظيتْ به بريجيت، ولذلك يجب الاعتناء بإيريس، فلا بدّ من قدوم طفل يصنع معجزة طرد الرجال الأشرار الذين يأتون بالصناديق السود، ولكي تصبح هذه الصناديق بيضاً، حين يمس بإصبعه المقدسة العربات والحصن التي ستحملنا إلى السماء، وحينها لن تبعث على الخوف، لأننا نعتقد أنّ الأشياء البيض غير مؤذية ولذلك ما كانت بريجيت ترتدي ذلك الشال الأسود الذي أهدتها إياه الآنسة مالو في عيد ميلادها والذي ظلّ جديداً... من يدري مَن أخذه... ربّما فقد لونه وصار أبيض لأنّ المعجزة يمكن أن تبدأ في أيّ يوم، لذلك، ولكي تكون الواحدة جاهزة مستعدة، يجب عمل علب صغيرة بالأشياء التي سنحملها معنا، إبريق الشاي، الساعة المنبهة، جوارب سميكة فقد تهب الريح، وشالاً من أيّ لون.

***

يطفئن الأضواء. ينصرفنَ. يتركن عجوزاً واحدة مناوبة تنام في السرير الآخر الموجود في القبو. أسمعُها تتحرك بين الملاءات. أشعرُ بحرارة جسم إيريس تغمرني من خلال الضمادات والقماش الذي يضغط عليّ ويمنعني من كل حركة. نامت العجوز. تهمهم بأشياء. تلوك بفمها، تنام. أنا وأنت، مستلقيان الواحد إلى جنب الآخر، تعلّمنا أن نرصدَ اللحظة التي يدخل فيها تنفّس العجائز المضطرب في مرحلة النوم، الذي يحشرهنّ أيضاً في أكياس تمنع حركاتهنّ وتوقف مراقبتهنّ.

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

أنت لا تلمسينني.

ما زلتِ لا تتكلمين معي، يجب الانتظار. ليس انتظار اللحظة التي يخنق فيها النومُ العجوز المناوبة وحسب، بل اللحظة التي يحطم فيها الألمُ مقاومتي وأتجرأ على الشكوى لك والتوسل إليك. أنت نفسكِ علمتِهنّ أن يربطنني لكي أصبح مشلولاً تماماً، أنا أخافُ من الدمية، قلت، وتقودينهنّ لأنّهنّ عبيدات رحمكِ، أن يرقدنني إلى جانبك حتّى أتعب، لعجزي عن الحركة، بسرعة ويؤلمني ظهري الكسيح بسرعة فأبتغي تغيير وضعيتي للوصول إلى بعض الراحة التي تحرمينني منها حين ترفضين تحريكي وأنا لا أستطيع أن أتحرك وحدي، فأضطرّ إلى الترجي منكِ، إيريس، إيريس، أنتِ وحدكِ خططت لذلك كلّه، أنا تحتَ سلطتكِ، أعلمُ هذا، أهمهم: أناشدكَ أن تحركيني قليلاً لأني مُقعد، ما عدتُ أستطيع تحمل المزيد، ربّما سأضطر إلى البقاء في هذه الوضعية الثابتة إلى الأبد هنا في هذا القبو، ربّما سأكون عاجزاً عن أن أخطوَ خطوة واحدة أو أن أبسطَ إصبعاً واحدة حين تنزع العجائز الضمادات عنّي عند الفجر.

تتنفسين بطريقة مختلفة عن العجائز النائمات. ما عدتُ أستطيع تحملَ المزيد. أعلم أنني سأصابُ سريعاً بتشنجات. أستعجلكِ.

– إيريس.

لا تردين عليّ، لكي أضطر إلى ترجيك:

– حركيني قليلاً.

– لا أريد.

– من فضلك، إيريس.

– هششششششش...

ولا تلمسينني.

مشلول، ساكن تماماً، يولد التشنّج حيث يولد دائماً، في أوتار مشط القدم، تتصلّب، الألم يصلّب الكعب الحبيس الثابت جرّاء الضمادات ويصعد التشنج في أوتار ساقيّ الجامدتين وفي جسمي كلّه العاجز عن دفع الألم الذي يستطيع دفعه بأيّة حركة بسيطة تكفّلت أنت بأن يصبح عاجزاً عن فعلها، ما زال التشنّج يصعد، يصلّب، يشلّ شقّيَ الأيسر كلّه، حتّى الذراع، حتّى الترقوة، ما عدتُ قادراً على الدفاع عن نفسي ولو بتحريك أوتار الرقبة، ليس لي الحق بأدنى حركة قادرة على إزالة التشنج، أنت انتزعت مني حق الحركة لتحيليني إلى دميتكِ لأنّكِ تعلمين أنّني وأنا مربوط هكذا أتصلّب والألم يصعد إلى جسمي حتى يبلغ رقبتي، وسأضطر إلى الصراخ من الألم ولا أصرخ، فقط أعود إلى الهمس:

– إيريس

لا تردين.

– قليلاً.

– لا

– إنني أموتُ من الألم.

– هذا عقابكَ.

– إيريس.

– هل يؤلمكَ كثيراً؟

– نعم.

– هل تتمنى أن تتحرك؟

– وماذا ستفعل من أجلي إن حرّكتُكَ؟

– ما تأمرينني به.

– كذّاب عفن.

- لا إيريس... ما عدتُ أتحمل...

- هذا من كذبك. كم مرة أمرتكَ أن تأتيني بالرجل الذي زرعَ الطفل في بطني؟ لا شيء. دائماً تأتيني بحكايات، أخبار... هناك من قال... رسالة، لا شيء، الرجل، ولا الماء. في يوم من هذه الأيام سأضعُ هذا الطفل. بل أظنّ أنني تجاوزت الوقت، بالطبع أنا لا أذكرُ التواريخ، هنا في الداخل كل الأيام سواء، لكنّي أظنّ أن الوقت يجب أن يكون الآن، لذلك فهذا الرجل يجب أن يأتي للبحث عنّي وحسب وأن يعترف بالطفل. لا أريدُ أن يكون يتيماً عافه أبواه... وإن ولد هنا في البيت ماذا ستقول الأم بنيتا. إن لم تأت لي بالرجل قبل أن يولد الطفل، فسأتهمك بكل شيء...

أهمهمُ:

- اسمعي، إيريس...

- من دون أسئلة.

- عندي فكرة.

- لقد ضقتُ ذرعاً بأفكارك.

- هذه الفكرة مع ذلك جيدة.

- لا أصدقُ ما تقول.

- حركيني قليلاً.

- لا...

- كيف تريدينَ أن أكلمكِ إذن؟

تغيّر لي إيريس وضعي في السرير، تساعدني على ثني ساقيّ وبسطهما فكأنّها تضعهما في ماء بارد يطريهما، يخفّف ألمهما قليلاً. أنا أعلم. ستبقي إيريس عليّ في هذه الوضعية إلى أن تأخذَ مني ما تريد، وحينها، حين أبدأ بالتصلّب مرّة أخرى في هذا السكون، أنا أعرف،

ستكلمني ثانية وساعدها أنا بأشياء أخرى لكي تعاود تحريكي ويعود الألم الجديد إلى الاختفاء أو إنّه يخفّ على الأقل. أكلمها همساً في أذنها لكي لا أوقظ العجوز المناوبة:

- المشكلة أنّه ما عاد هنا، إيريس. لقد اختفى والدُ طفلكِ حين قالوا له إنني أبحثُ عنه وفقدتُ أثره. إنّه يبدّل سكنه وحارته كلما سمع بأنني أبحث عنه حتّى أفقد أثره من جديد، لو أنك ترين الأشياء التي عليّ أن أتنكّر بها لكي لا يشكّوا في أنني أنا من يبحث عنه... إنّه يخاف لأنّه مُطارَد... هو خائف لأنّهم يجرون خلفه وهذا هو أكثر ما يبعث على الخوف، حين يشعر المرء بأنّه مطارد فيبدأ باختلاق الأعذار وينسج قصصاً يزعم فيها أحداثاً لم تحدث قط لتبرير ذلك الخوف...

- ما عدت أفهمكَ... تكلم بوضوح...

- في الليل حين تفكين الضمادات بينما العجوز المناوبة نائمة، وتجبرينني على ارتداء ملابسي وترمين بي إلى الشارع كما يُرمى بالكلب وتسرقين مني المفاتيح وتنتظرينني حتى الفجر خلف الباب، أنا أطوف أنحاء المدينة، إيريس، المدينة مروعة، لا أدري لِمَ تريدين الخروج إن كانوا هنا يعطونك كلّ شيء، صاروا يعرفونني في البارات وفي بيوت الدعارة وفي المهرجانات وفي السيركات وفي أروقة مسارح الحي حيث توجد مصاطب خشبية تشابه تلك التي كانت موجودة من قبل في المصلّى، أبحث عنه في كلّ الأنحاء، أقسمُ لكِ، لكنّهم دائماً يقولون لي إنّه ما عاد يأتي إلى هنا، حكوا له أنني أبحث عنه للانتقام وخاف وغيّر طريقه، بالطبع لا يخطر على بال أحد أنّ أداة الانتقام هي أنا، لذلك لا يهمهم أن يقصّوا عليّ كلّ شيء.

تستمعين إليّ لأنّك تعتقدين أنّها رواية.

- اسمعيني إيريس...

- نعم، لكني لن أظلّ في هذا البيت الزبالة دائماً، مع هؤلاء العجائز ومعكَ.

- أترككِ تخرجين متى شئت.

- وما أكسب؟ ألم تقل إنّ داميانا موجودة هناك؟ أنا لا أريد أن تحدث لي مشاكل مع تلك العجوز السافلة. إذا خرجتُ بمفردي، هي من قال لي ذلك، سيأخذونني لكي ألدَ في مستشفى يعاملون الفتيات فيه معاملة سيئة. نعم، أنا أيضاً، أحياناً، في الليل، أسمعُ خطوات داميانا تحوم في البيت، تصفر لكي أطلّ على الشرفة، ولكني لا أطلّ، لا أريدُ الذهاب معها. أفضّل الانتظار إلى أن يأتي هو للبحث عنّي، ألعبُ مع العجائز لعبة المعجزات لكي يساعدنني على الولادة ويتكفلن هنّ بتربية الطفلة إن لم تعثر لي أنتَ على الرجل. لستُ مستعدة للتجول في الشارع كالمتسولة مع الصغير. نقود، ذلك هو ما عليك أن تأتيني به إن لم تعثر على الرجل.

- عن هذا أردتُ الكلام معك.

- عن ماذا؟

- فكّي عنّي الرباط قليلاً.

- هكذا خدعتني في المرات السابقة.

- أطلقيني وأقول لكِ...

تحت شراشف السرير، إيريس تتلاعب بالخيوط والحبال التي تجعلُ منّي رزمة. أستطيع أن أتحرك، عندي ساقان: إنّها موجودة بغض النظر عن ألم التشنجات وبعيداً عن عدم الراحة والخوف من القيد الأبدي، إيريس، إيريس، فكي المزيد من وثاقي وسأحكي لك عن أيّ مشروع لأخدعكِ من جديد، سخافة خرافية مثل الروايات المصورة التي تصدقينها وسأدخلك كلّك في ذلك الحلم كما في

علبتي الموسيقية، تفكين وثاقي أكثر، يقولون إنّه كان يقول للجميع إنّه لا يحبّ سواكِ... وثاق آخر... وإنّه لا يستطيع أن يعطيكِ شيئاً لأنّه فقير... آخر... وإنّه لا يستحقكِ... الآن هذا الرباط... فماذا سيجني من الحضور للبحث عنك إنْ لم يستطع أن يعطي ولده ولا حتى التربية... أقتربُ أكثر من سمعكِ اليقظ لأنصحكِ أخيراً هذه الليلة بأن لا طائل من مواصلة البحث عنه، لأنّك قد تضعين بين لحظة وأخرى ثمّ إنّ روموالدو ذاك كان ميتاً من الجوع، لم يكن يملك حتى رأس العملاق التي سلب به عقلك، هرب ذلك الروموالدو، لم يترك أيّ أثر، فكأنّهم حين قطعوا رأس العملاق قطعوا أيضاً روموالدو، من الأفضل أن تنسي ذلك الأحمق، إيريس، لا تكوني بلهاء، أنا أيضاً أريد الرحيل عن هذا البيت على الرغم منِ خوفي من الشوارع، بل أفضّل أحياناً تشنجات النوم مربوطاً ومثبتاً بالقرب منك طوال ليلة كاملة على الخروج هائماً على وجهي، لكنّني الآن، خلال هذه الليالي، حين تفكين رباطي وتطردينني من البيت وتغلقين الباب بالمفتاح من الداخل كي لا تسمحي لي بالدخول إن لم أعطكِ تفسيراً حول روموالدو، سرتُ باحثاً هناك، ورأيتُ بيوتاً كثيرة، تجسستُ على النوافذ والآن نعم أعرف أين أكسب مالاً. مالاً كثيراً.

- يا لكَ من لص عفن!

- لماذا؟

- قد أكونُ عاهرة، لكنّي لن أكون لصة.

- ومن قال إنّكِ عاهرة؟

- داميانا.

أنتِ لستِ عاهرة، إيريس، أنت عفيفة طاهرة، أنا أعرفُ، أؤكد لكِ ذلك، أعدك بذلك. وفي الليل الساكن والمستور من القبو أنمّقُ

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

الأكذوبة في سمعكِ لأنقذ نفسي ولكي تفكيّ وثاقي لأنّ الألم سيقتلني، لذلك أخترعُ وأرتجلُ بحسب ردود فعلكِ: بيت كبير، أصفر، مقابل متنزه مرعب على الطرف الآخر من النهر، أتكلّم وأحكي لكِ عن أولئك الناس الأغنياء الذين يعيشون في ذلك البيت الأصفر، هم مدينون لي بكل الأموال التي يملكونها وكل السلطة التي يتمتعون بها، لذلك فلن تكون سرقة، إيريس، أنا فقير وسقيم لأنّهم سرقوا منّي كلّ شيء، لم يدفعوا لي شيئاً مما يتوجب عليهم أن يدفعوه لأنّهم لولاي أنا لما كان لهم وجود، أنا وضعتُ لهم كلّ شيء في أيديهم، أنا وهبتهم الجمال والسلطة والكبرياء، ولولاي لتبخروا، أتفهمين، أموالهم جواهرهم وكلّ ما لديهم يعود لي: في ظلمة القبو تضيءُ عيناك مبهورتين بهذه الحكاية الجديدة التي أنسجها لأني أحتاج أن أخدعك لكي لا تقتليني من الألم، لذلك إن شئتِ أستطيع أن أذهب لآخذ تلك الأموال، لا لسرقتها، تلك الأموال في البيت الأصفر المقابل للمتنزه هي أموالي، ليس أسهل من أخذ تلك الأموال، وما أروعَ أن أعرفَ هؤلاء الناس، الذين يدينون لي بكل ثروتهم، وأن أحفظ عن ظهر قلب سلسلة الأرقام التي تفتح خزنة المدخرات التي يحتفظ بها هو في مكتبته، مخفيّة وراء كتب لها كعب أخضر، عند المدخل في الأعلى على يسارك. هو أحياناً يفتح خزنة مدخراته ليعدّ ملايينه. أنا أستطيع أن آخذ كل تلك الأموال من حيث هي موجودة، إيريس، نعم، إيريس، نعم، فكّي وثاقي، فكي وثاقي أكثر قليلاً، أكثر، ما علينا أن نتأخر، صدقيني هذه المرة، وسنفعل ما تشائين بالأموال.

– لكنّي لا أريد الذهاب للعيش معكَ.

– طيب. نصف لك ونصف لي، لكي تستطيعي أن تفعلي بها ما تشائين.

تفكرين في الأمر.

- لا. هذا لا يناسبني. أنا قاصرٌ. الأفضل لي هو أن أبقى هنا. ماذا سيقولون إن وصلتُ هكذا، وحدي، من دون أوراق، لأضع طفلاً في عيادة؟

حينئذ هممتُ:

- لنتزوّج.

- الموت أقربُ إليك من ذلك!

- قلتُ لك أن نتزوج لكي تستطيعي أن تفعلي ما تشائين لا أكثر. بالأموال الكثيرة التي سأعطيكِ إياها، وبأوراق الزواج، سيمكنكَ أن تفعلي ما يعنّ لك من دون أن يسألك أحد عن أيّ شيء. ويناسبكَ أيضاً أن نتزوج لكي لا يكون طفلك يتيماً، ولكي يكون لديه على الأقل اسم عائلة...

- أيّ اسم عائلة؟

- عائلتي.

- وما هو اسم عائلتك؟

لا تستطيعين إرغامي على ذكره.

- وما أهمية ذلك الآن. سأحكي لك في ما بعد...

راحت يدا إيريس تخفف القيد عنّي وهي تستمع، شاردة، إلى حكايتي التي تشوّه حلمها وتحررني: أنا عارٍ، وسكسي حليق، لكنّه طليق بالقرب منها، أرقدُ مثل رجل إلى جانبِ امرأة. في مقدوري أن أغتصبكِ، إيريس، هنا في هذا المكان، من دون أن تنتبه هذه العجوز، بل من دون أن تنتبهي أنتِ تقريباً، ولكن لا، لن أفعل ذلك لأني لا أمتلكُ سكساً وأريد أن تعلَم جميع العجائز أنني لا أمتلك سكساً لكي ينقلن الخبر إلى بيتا بونثي وتهدأ وربّما تقرر، أخيراً، أن تموت، أنا

لستُ أكثر من عجوز أخرى مناوبة لكي أراقبك ولكي أكون متيقظة، فلعلّ هذه الليلة هي ليلة الولادة. أنتِ تقولين:

- ليس عندي أوراق ولا حتى أوراق عزباء.

- ولا أنا.

- كيف إذن...؟

لا تهمّ الطريقة، إيريس، لا تقلقي، الأولوية للمال، فبالمال يمكن عمل كلّ شيء، هكذا يقول العارفون. بعد ذلك سنرى ما الذي يمكننا عمله، لا تكوني حمقاء، قلتُ لكِ إنّها ليست سرقة، يمكنني أن أعملَ ما أريد مع هؤلاء الناس، حبسهم في علبة الموسيقى لكي يصابوا بالجنون من ترديد «كرنفال فينيسيا» الأبدي، سنحبسهم في هذا الكوخ الصغير مع عصافير وزهور الإديلويس المصبوغة. ناوليني البنطلون والقميص من تحت السرير. دعيني ألبس وأنا راقدٌ هنا إلى جانبك تغطيني الشراشف واللحف لكي لا تنتبه العجوز، هيّا، لننهضْ، البسي المعطف فوق قميص نومكِ: انظري، أسمح لكِ بأن ترشديني، بأن تأخذيني مقيد اليدين أو مربوطاً بحزام على رقبتي لتقوديني في الممرات حتى الباب كما يقاد الكلب، أنتِ تحتفظين بالمفاتيح الآن، أنتِ المتحكمة، أنت الآمرة، أنتِ التي تأمرينني بالخروج إلى الشارع للطواف في هذه المساحة الواسعة حيث لا وجود للعجائز الصالحات اللاتي لحقهن الغباء من طول السنين، وتغلقين الباب بالمفتاح بعد أن تطرديني دفعاً.

أحضره لي. اليوم من دون تأخير. إن لم تصل مع روموالدو فسأخبر السيدة ريتا أنّك حاولتَ عملاً فاحشاً معي، وأنّ عليهم غداً أن يلفوك بقوة أكبر، أشد بكثير من اليوم، فلن تستطيع تحريك إصبع حتى تموت من الألم وتقتلك التشنجات والتعب موديتو العفن وأنا

جنبك لن أحركك ولن ألمسكَ حتى لو صرختَ وتوسلتَ، أعلمُ أنّك تستطيع أن تختبئ داخل البيت، «بيتك»، لكننا من كثرة ما بحثنا عنك وطاردناك فقد تحوّل الأمر إلى ما يشبه اللعبة، إلى ما يشبه لعبة الغميضة أو لعبة العقيدة ولكنّها أكثر تسلية، في الأقبية وفي العلّيات والأروقة والسقائف، صرنا نعرف البيت قدر ما تعرفه أنتَ تقريباً ومن السهل العثور عليكَ، انظري، سيدة ريتا، سأقول لكِ غداً، هذا الطفل سيئ، قذر وسأقول لك لماذا ففي الليل ينتصب عضوه، لماذا لا نبتره له، هذا أفضل، هكذا لن ينتصب، أنا لا أدري ما فائدة العضو، سيدة ريتا، لذلك فمن الأفضل أن نقطعه كي لا ينتصب لأنّه يضايقني ولا يدعني أنام، وإذن، إن لم تفِ بوعدك هذه الليلة، أيها الأخرس العفن، أقسم لك بأني سأعمل على أن تقطع هؤلاء العجائز عضوك.

- حسناً.

- أنتظركَ في البوابة.

- حسناً.

- اجلب مالاً كثيراً.

- حسناً.

تفتحين. أظل واقفاً عند العتبة. تطردينني دفعاً وتغلقين الباب خلفي كما فعلتِ في المرات السابقة. أنا وحيدٌ في الشارع، المطر يسقط ولا أدري ماذا أفعل، وأيّه حكاية أخترعها لكي تفتحي لي غداً صباحاً حين أدق على باب البيت ثلاث دقات وبينما تفتحين أنتِ الباب لي سأبدأ أنا بنسج قصة ستبدو حقيقية، سأبحثُ عن خرز، حبّات، خرزات ملونة، ذلك سيكفي، سأقول لك إنّها من فستان، مثلاً، وإنّ أحداً ما بعثها لك لكي تختاري، وحول تلك الخرزات سأنسج حكاية ستوقعك في شباكها... وسأكون أنا حينها قد دخلتُ.

في الداخل، وقد أصبحتُ حُراً طليقاً، ليس غريقاً، محاطاً من جديد بأسوار الطوب، سأنتهز ذهول إيريس من حكايتي لأهرب من قسوتها وأختفي في البيت الذي ليس له غور. أنتنّ تعتقدن أنكنّ بلغتنّ معرفة البيت كاملة. لكنكنّ مخطئات. دائماً هناك زوايا، صناديق لم تمسّ، ظلمات راسخة يجب استكشافها للتعرف عليها والتي أنا وحدي أستطيع اجتيازها والتي يستحيل العودة منها، أقسم لك إنّكن لن تعثرن عليّ هذه المرّة، أتحداك أن يفلحن في ذلك. أو أنهنّ سيعثرن عليّ فقط حين أريدُ أنا ذلك، حين ينمو شيء ما في داخلي مثل مجسّات الحلزون وأشعر باللحظة الحيّة التي أحتاج فيها أن تكتشفني العجائز وتكتشفيني أنتِ لكي يعاودن ربطي وتضميدي وتعليبي مرة أخرى، وهكذا أعود إلى تحقيق قدري، قدر لعبة القماش المربوطة التي صُنعت لتسلية واحدة من تجسّدات ابنة سجين... وانتظار أن تحين الساعة التي ستلقين بي فيها من جديد إلى لجّة الشارع.

٢١

حقائب، دروج، سلالم، أكياس... كومة من الأكياس أختبئ بينها ومحراتٌ لا أحدَ يعرف كيف وصل إلى هنا، وكرسيٌّ ذو مساند وقاعدة تمثال، تعالَ، تعالَ، موديتو، سربُ العجائز يطاردني حتى هذه العليّة، تعال، تعال، لا تخفْ فنحن الآن لا نلعب وما علينا أن نخاف إلا من ألعابنا، تعال، أمرتنا الأم بنيتا باستدعائكَ، فهي تريد أن تتكلم معكَ. عدلتُ في جلستي فإذا أنا الموديتو مرّة أخرى أو ما تبقى منه، أتضاءلُ كلّ يوم، يا إلهي، ماذا سنفعلُ بصاحب الوجه السقيم هذا كما تقول الأم بنيتا، الذي يزداد هزالاً يوماً بعد يوم ويزداد صغراً، لكنّها أمرتكن أن تستدعينني وأن أذهب إلى غرفة البوابة لتبلغني هي بخبر وصول برقية من سويسرا وتريدني أن أقرأها أنا أيضاً. وجدتُها بيدين ساقطتين على الصدرية والورقة إلى جانبها على المصطبة القريبة من حجرة التلفون. تزايدَ همسُ العجائز المبتهجات اللائي بدأن يتقاطرن للاطلاع على الخبر بينما كنتُ أنا أقرأ البرقية: نذرُ الفقر يوحي إليّ بأن أقضي الأيام الأخيرة من حياتي في بيت يعود لي. نقطة. أرجو أن تحددوا مكان الباحة الأصلية التي سكنتْ فيها الطوباوية لكي أعدّ لي غرفة وحمّاماً. نقطة. التعليمات في رسالة. نقطة. محبتي. نقطة. إينيس آتكويتيّا.

تكلّمين السيدة راكيل مطولاً بالهاتف لأنّك لا تجرئين ولن تجرئي على الكلام مع دون خيرونيمو، وكيف تكلمينه إن كان يتجاهلك

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

ويتجاهل البيت ويتجاهلنا جميعاً. السيدة راكيل تقول لك طبعاً، تقول لكِ إنّ معك كلّ الحق في ألا تكلمي دون خيرونيمو، أنا أعرف إينيس كما أعرف راحة يدي، نذرُ فقر وهي المنعّمة المترفة، لم أقل لكِ منذ وقتٍ، أيتها الأم بنيتا، إنّ إينيس ستغضب من خيرونيمو لأنّه نقل ملكية البيتَ إلى الأسقفيّة وإنّها ستنتقم... أترين، هذا هو الانتقام، إينيس لا تنتقم وِجاهاً، ولا سيّما مع خيرونيمو، من المستحيل الانتقام من خيرونيمو مباشرة لأنّه لا يواجه، فكأنه لا وجه له أو لأنّه من طوله لا يصل صوت الواحدة إليه، لذلك فإنّ إينيس ستنتقم بأن تأتي للسكن في البيت، لأنّها تعلم أنّها إن أقامتْ في البيت فإنّ رئيس الأساقفة لن يجرؤ على المساس بالبيت ما دامت هي فيه، ومهما كانت درجة العلاقة والأملاك التي نقلت، فإنّ إينيس لا علاقة لها بقصص وحكايات، أيتها الأم بنيتا، ولا بدّ أنّها غاضبة أشدّ الغضب لأنّها أخفقتْ في موضوع التطويب الذي كنّا نعلم جميعاً أنّها لن تنجح فيه، لكنّها لم تعرنا اهتمامها، فضحك الجميع وخيرونيمو منها، طبعاً، وهي تقيم هنا لأنّ رئيس الأساقفة لن يمسّ بهذه الطريقة ولا قرميدة واحدة منه، طبعاً، إن فعل شيئاً فستبدّل وصيتها التي هي لصالح الأسقفية وتترك ثروتها لأيّ كان، لجمعية حماية الحيوان، وما أدراني لمن، ولن يغامر رئيس الأساقفة بفقدان ثروة آل آثكويتيّا، تصوّري حضرتك، الراهب آثوكار سينزعج، أمّا خيرونيمو فمن الأفضل ألا نبلغه بشيء بالهاتف، أيتها الأم بنيتا، لتكن مفاجأة له، اسمعي، أماه، من الأفضل أن نجعلها تغلّف غرفتها بالورق، فإينيس تكره الجدران غير المغلفة لأنّها تقول إنّها رطبة وتسبب الروماتيزم، إن أردت أنا أساعدها على اختيار الورق، أنا أعرفُ ذوقها وهناك معملٌ في شارع القديس إيسيدرو يصنع ورقاً جميلاً جدّاً مطبوعاً بالصور، ولمّا كان من الأفضل أن نعملَ ذلك كلّه في إطار العائلة فقد أمرت السيدة راكيل زوجَ حفيدتها مالو،

وهو مهندس شاب، أناقته خليط من شعر طويل على فوضى بنطلون جينز، بأن يلعب ما سماه هو بلعبة الألغاز في متاهة الباحات هذه، كيف يُعقل أنّهم لم يحتفظوا بأرشيف يساعدنا على تثبيت تواريخ الأبنية المختلفة حتى وإن بنيت بطريقة الترقيع واللصق ومن دون حسّ معماري، وما قد يبدو للعيان وحدة واحدة ليس هو في الحقيقة، أيتها الأم بنيتا، إلا فوضى لا تخلو من بعض الجمال، بالطبع فإنّ السيدة راكيل لا تعرف عمّا تتكلّم حين تقول بأنّ المصيبة الكبرى هي حين لا تتدخل الحكومة في الموضوع، بأموالها التي تنفقها على هذا العدد الكبير من التفاهات، لإنقاذ واحد من المباني العتيقة القليلة الباقية، لا يمكن القول بأنّ المبنى عتيق، أمّاه، إنّه قديم وحسب، طبعاً الآن يجب تحديد شيء ربّما نستطيع القول إنّ هذه الباحة التي تسمونها باحة النخلة هي الأقدم: تأمّلي خلوّ المساند الحجرية التي تمسك بقواعد أعمدة الرواق من الزينة، الغرف الضيقة والطوب السميك والممرات الفقيرة، تبدو كالسجن، ثمّ إنّ وجودها حول هذه النخلة، التي لا شكّ أنّ عمرها لا يقل عن مئة وخمسين سنة، يعطينا دليلاً مؤكداً نسبياً... من المؤسف أن لا تبقى نخلات كهذه وإن بدا أنّ هذه الباحة كانت في ما مضى غابة نخيل، أمّا آخر النخلات فقد قضت عليها السيدات اللائي يقرأن مجلات الديكور الأمريكية حيث يتعلمن أنّ النخلات «لا تستعمل»، ليت مدينة الطفل تحترم على الأقل هذه النخلة الموقرة الجميلة، فهي تمنح الباحة الصغيرة بقرميدها المتموّج المطحلب خصوصية ظريفة ولكن ليس هناك أيّ مؤشر أكيد على أنّ هذه الباحة هي الباحة الأصليّة، أيتها الأم بنيتا، هي بدائية، ولكن ما من دليل مؤكد، من يدري، يمكن...

أكيد؟ من يطمح إلى الوصول إلى شيء أكيد في هذا الموضوع المضطرب والمشوّش؟ ما معنى، مثلاً، أن تقول إينيس في برقيتها

«طوباوية» بعد أن بتّ الفاتيكان منذ أشهر كثيرة في الموضوع، نعم، أنا آسفة جدّاً، إينيس، لكنّه حسمَه وإلى الأبد؟ هذه البرقية هي تمرّد على السلطات الكنسية العليا، هرطقة محليّة مثل طبيخ الفاصوليا بنكهة السحر... هرطقة لا قيمة لها بالنسبة لآخرين، إينيس، ولكن ليس بالنسبة لك، لأنّها تكشف عجزكِ التام: لم تقدري على منح زوجكِ طفلاً، وقد أثبتِ الآن أنّك عاجزةَ أيضاً عن أن تزيّني اسم العائلة بطوباويّة يعبدها الجمهور، وتوقّر بتوقيرها العائلة التي قطعَ رحمك العاقر دابرها. وعلى الرغم من أنّ الفاتيكان لم يوافق لك على الإذن «بالبدء» بملف التطويب، تأملي، لم يمنحوك حتى الإذن بالشروع فيه، وأنتِ ما زلتِ تتكلمين عن «الطوباويّة». أيّ مسار فظيع تتخذه جهودكِ كي لا تموت تلك الراهبة، التي لم تقدم نذور الرهبانية قط، والتي ماتت في هذا البيت نهاية القرن الثامن عشر، معكِ نهائياً، ولكي تكونا، عند موتها، وكأنكما لا أنتِ ولا هي قد عشتما قط؟

لم تحظَ إينيس بأدنى إمكانية لنيل التطويب. جميع الأدلة غير مؤكدة، ما هو طاغ هو الـ «يقولون»، لا يعرف إلا اسم الشخص الذي سمع الـ «يقولون»، وليس اسم الشخص الذي قال الـ «يقولون»... ما عاد يقال إلا أن أحداً حكى شيئاً لأحد في غرفة مختفية من بيت مختفٍ في شارع ما عاد اسمه هو نفسه وليس له العنوان نفسه مع ذلك لا يعرف لماذا هو الشارع نفسه، كلمات كررتها جدة إينيس أو أمّها، أو بيتا بونثي، أو عمّات فقيرات بائسات لا يسدّ رمق كبريائهنّ غير إشاعات من هذا النوع، وإن وجدتْ رزمة من الأوراق لا تشي إلا بالقليل: بيانات ولادة، شهادات وفاة، وتقرير متأخر من هنا أو هناك يذكّر بأحداث قيل إنّها يمكن أن تعدّ إعجازية. الشيء الوحيد الذي يظهر واقعاً راسخاً وقانونياً، مدعوماً بأدلة موثقة، هو تأسيس الوقف: في نهاية القرن الثامن عشر وصل إقطاعي ثرّي من

أصل باسكي، أرمل، وأب لتسعة أولاد وبنت واحدة، من إقطاعاته الواقعة إلى جنوب النهر ماولي ليحبس ابنته ذات السبعة عشر عاماً في دير للراهبات الكبوشيات المعتزلات، اللاتي كانت الأخت الكبيرة للإقطاعي رئيستهنّ. ولأسباب لا تذكرها الوثيقة، لم تقدّم الطفلة نذور الرهبانيّة الكابوتشية، كما كان منتظراً. ولكن حدث بالتأكيد، وفي محادثات مطولة ضاعت حقيقتها في سر قُمرة حائط الدير، أنّ رئيسة الدير الحكيمة أقنعتْ أخاها بأنّ من الأفضل في مثل هذه الحالة إنشاء مؤسسة تربط العائلة مباشرة بالرب، وتنيط به سبحانه مسؤوليّة حمايتها. ألم يسمعْ أخوها بأنّ راهبات التجسّد بالذات لا يمتلكن بيتاً خاصاً بهنّ؟ لمَ لا نبني لهنّ بيتاً يحتفظن فيه بإينيس حتى نهاية حياتها، لأنّ المسألة تتعلّق بالحفاظ عليها؟ وهذا ما كان. وحين بُني البيت انتقلت إليه الراهبات السجانات، يرعين إينيس ويقمن على طلباتها. كانت المؤسسة غنيّة، خصصت لها أكثر أراضي تشيمبا قيمة، وصارت موضوع تعليقات لطيفة من المجتمع كلّه آنذاك، إلى أن محتْ حروب الاستقلال كلّ اهتمام بالقداسات والكرم، وما عاد ممكناً إلا الحديث عن الدم وعن النار، وعن العدو الذي يهدد جميع الأرجاء. ماتت إينيس دي آثكويتيّا وهي في العشرين من العمر في هذا البيت، بأريج القداسة. كل هذا من التاريخ. مع ذلك فقد وصلتْ، ومن خلال كتب ألّفتها نساء تحدثن عن الشائعة في ما بعد، أو عن طريق رحالة أوروبية سهّل لها فضولها وتطفلها الدخول إلى ما كان يقال في خلوة منازل البلدة، أصداءٌ خفيفة عن ورعها الذي قلّ نظيره، ولا سيّما في ما يمكن أن يعدّ معجزتها الأشهر: أثناء واحد من أشدّ زلازل نهاية القرن الثامن عشر، وهو الذي هدم معظم منازل العاصمة والحقول المحيطة، ظلّ بيت عذراء التجسد في تشيمبا على حاله، شامخاً قوياً، على الرغم من أنّه لم يكن أكثر من بناء مشيد من الطوب والقرميد، حاله حال جميع المباني

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد ٢١٥

التي تعود إلى تلك الأزمنة. يقولون... يقولون إنّ إينيس دي آثكويتيّا، قبل أن تبدأ الهزات الخفيفة - من المفيد أيضاً ملاحظة غرابة أنّها على الرغم من أنّها كانت ترتدي ملابس عذراء التجسد لم تقدم النذور في تلك الرهبانية - جثت وسط الباحة بينما كانت الراهبات يراقبنها بتوقير من الرواق. حينئذ، راحت رعود ما تحت الأرض والهزات تصدّع الحقول وتنذر بهدّ أسوار البيت، فما كان من إينيس إلا أن بسطت ذراعيها أفقياً لترسم بجسمها شكل الصليب وتعرضهما في مجهود من يضحّي بكيانه كلّه من أجل إسناد تلك الأسوار، وأسندتْها، ولم يسقط البيت. أصيبت الراهبات بالهلع، ولم يستطعن الهرب لأنّهن كنّ في حالة اعتكاف، كما لم يسمح لهنّ بالتطلع إلى تينك اليدين اللتين أنقذتا البيت إلا قليلاً وعلى ضوء البرق الذي كان يضيء الجبال: لقد بدتا وكأنهما تحولتا بسبب الجهد إلى غصنين يابسين أو إلى عرجون، شأنهما شأن يدي عجوز بثآليل. كانت إينيس تأكل وحدها في صومعتها دائماً- لم تمارس حياة الجماعة قط-، ولم تكن تخرج منها إلا للذهاب إلى المصلّى، أو للتجول بمفردها صامتة في الرواق، ويداها مطويتان تحت صدرية ردائها، تمسك بصليب من أغصان يابسة مربوطة بالحبال، أهدتها إيّاه مربيتها العجوز المسكينة بمناسبة تناولها الأول، وكان الشيء الوحيد الذي تمكنتْ من جلبه أو أرادتْ جلبه، خفية بالتأكيد، من أراضيها جنوب نهر ماولي. أصيبت المتدينات عقب الزلزال بهوس التطلع إلى يدي إينيس المعجزتين: نعم، نعم، كانت حقيقية، كانت أصابعها، أثناء صلواتها في المصلّى، مشرقة، غائبة عمّا حولها، أو في اتصال مع مستوى وجودي لا تمتلك الراهبات مدخلاً إليه، بين ظلال طيات الرداء، تبدو متحدة مع العصيّ المدهونة الملتوية والمسودة من أثر السنين أو ربّما من أثر قرون صليب مربيتها، كانت يداها تتحولان إلى أغصان يابسة، ومع ارتفاعهما أكثر

فأكثر جرّاء النشوة والانجذاب ومغادرة الراهبات المصلى مذعورات موقرات، كانت ذراعا إينيس تمتدان، وقد تحولتا إلى أغصان، نحو داخل الأكمام، حتّى إذا لم يبق غير شمعة أو شمعتين مشتعلتين، بدت إينيس، بعينيها المثبتتين في الهلال الذي تدوس عليه العذراء البتول، وبذراعيها المفتوحتين في وضعية الصلاة، وكأنها تحولت إلى شيء يشبه جذعاً عتيقاً ربطت تجاعيده وعقده إلى جذع وجه الألم الهرم، ملغية وجه الصبية النضر، إلى أن يسترد الضوء، مع بزوغ الفجر، هوية ابنة المؤسس.

عبرت أسطورة تقواها حدودَ الدير، وانتقلت من دير إلى دير ثمّ شاعت في العاصمة. شعر آل آثكويتيّا بالرضا عن أنّ بينهم، فضلاً عن الأبطال، قديسة، أو على الأقل طوباوية مشهورة تزيّن بحميتها وحماسها شجرة العائلة.

ولكن حلّتْ أوقاتٌ مضطربة، أوقاتٌ غير مناسبة للتعاطي بالقداسات، كان ما يهمّ فيها هو نيل النصر السريع، الكراهية المتأججة والانتقام الذي لا يشفي غليله شيء، الخطر الذي كان يلزم لقهره التضحية بالنفس... ثمّ بعد ذلك، تنظيم الجمهورية الأصغر والبعيدة، اختراع قوانين، تحديد طبقات، إسقاط امتيازات لإصدار أخرى... كان ضرورياً أن تمرّ عدة عقود بعد وفاة إينيس دي آثكويتيّا قبل أن تصل الإشاعة المحفوظة في الأروقة، والتي راحتْ تتلاشى في الخارج، إلى علم رئيس الأساقفة في صورة مقترح رسمي للبدء بإجراءات التطويب، وقعته رئيسة الراهبات في البيت. كان ضرورياً قبل كلّ شيء استخراج الرفات. تؤكّد إينيس أنّ حديثاً دار في عائلتها طوال أجيال بأنّ رئيس الأساقفة صُعق عند فتح التابوت إذ وجد الستان طريّاً نظيفاً جديداً، وكأنّ السنين الطويلة لم تمض عليه وكأنّ جسداً لم يرقد فيه. بالطبع فما من وثيقة تورد ذكراً لهذا الأمر، لكان أثار

فضول الفاتيكان. الحقيقة هي أنّ الزمن لا بدّ أن يكون مسح مكان دفن الطفلة– الطوباوية، التي اختفتْ من دون أثر غير هذا البيت المبني سجناً لها، والذي راح يكبر شيئاً فشيئاً، ويتوسّع حولَ أسطورة سجينة ابتدائية تحللت في الذاكرة.

***

كلّ ما يحيط بحياة الطفلة – الطوباوية ومعجزاتها تقريباً لا يعدو عن أن يكون رجماً بالغيب أو صدى تقولات. مع ذلك، لا يبدو من شطحات الخيال افتراض أنّ رئيسة الكبوشيات الحكيمة، التي أرهق ضميرَها السرُّ الذي ائتمنها عليه أخوها، رتّبتْ، قبل أن تدخل حالة الحزن النهائي وتموت، كلّ شيء بتكتم شديد كي لا تدفن إينيس دي آثكويتيّا، التي ماتت جرّاء وباء من تلك الكثيرة الشائعة في الماضي، إينيس دي آثكويتيّا الساحرة، في أرض مقدسة، على الرغم من صلة القربى بينهما وعلى الرغم من انتمائها إلى آل آثكويتيّا: لذلك رفضتْ منذ البداية أن تستضيفها بين أرواحها الملائكيّة، ولذلك لم تقدّم البنت نذور الرهبانية قط، لا في الكبوشيات ولا في التجسد، ولذلك لم يعثر رئيس الأساقفة على التابوت الذي ضمّ رفاتها في مدفن العائلة: كان غياب التابوت والرفات هو لبّ الواقع الذي راح آل آثكويتيّا وخدمهم خلال قرن ونصف يحولونه إلى تلك الأسطورة الجميلة التي تتحدث عن ستان نظيف في تابوتٍ لم يرهُ أحد.

لا بدّ أنّ إينيس سمعت تفاصيل حكاية جدتها الطوباويّة التي كانت بيتا بونثي تقصّها وتقلّب رواياتها العديدة، بينما كانت العجوز، في أمسيات الطفولة الطويلة، تعلّمها الخياطة والتطريز بالقرب من الموقد. لكنّ بيتا، حين تتدخل في أيّ شيء، فإنّها تجعله متذبذباً بلا وزن، الزمن يتمطّى، وتغيب البداية والنهاية عن النظر ولا يعود أحد يدري أيّ جزء من الزمن يشغله الحاضر المفترض... وكان على بيتا أيضاً أن تحكي

لإينيس حكاية الطفلة-الساحرة. هذه الحكاية مطاطية، متدفقة ومن يدري إن كانت إحدى تلك الروايات المتعددة، التي كانت بيتا تقصّها عليها، قد أفلحت في التمطط حتى تراكبت حكاية الطفلة- الساحرة مع قصّة الطفلة- الطوباويّة، لتعود هكذا الاثنتان بكامل قوتهما.

فمن الواجب الاعتراف بأنّ حكاية الطفلة-الساحرة لا تفي بالغرض، حتى من وجهة النظر الأدبية. خط الرواية يجعلنا، عند البداية، نركّز نظرنا في الشخصيّة البطلة لابنة الكاثيكه - لأنها جميلة ولأنها تنتمي إلى عائلة نبيلة. ولكنّ نشر المعطف الأبوي الفضفاض لإخفاء ما كان يقع في غرفة نوم ابنته حَرفَ اتجاه القصّة وشطرها إلى شطرين. في الشطر الشعبي، وهو الخالد، الذي ستواصل العجائز والعمال المتعبون والأطفال روايته قروناً وقروناً، ينتشل الكاثيكه ابنته من وسط الرواية، ويحلّ محلها عجوزاً بثآليل لا يهتمّ بهويتها أحدٌ، دفعتْ منفردة ما كان عليهما معاً أن تدفعاه لو أن الشخصية التي كانت حتى ذلك الوقت الرئيسة لم تختفِ من دون أن تترك آثاراً في الرواية. الشطر الآخر هو الأسطورة الملائكية والأرستقراطية المحبوسة حدّ الاختناق في عائلة يوشك نجمها على الأفول: طفلة نقيّة طاهرة تعاني من انجذابات صوفيّة وتنقذ من الكارثة عدداً من الباحات التي لا قيمة لها، وفق ما قال المهندس الذي كان يتفحصها قبل أيام. أنا رأيتُ دون خيرونيمو يرفع ذراعه ومعها عباءته الوبرية التي تشبه عباءة الكاثيكه، للإشارة إلى أنّ هنا لم يحدث شيء، إلى أنّ هذه الأراضي محظورة محرمة، إلى أنّ قصده من إيماءته هي إزالة الجزء الذي هو مستعد لعرضه من الجسم كلّه. اجتثاثه. من المؤكد أنّ دون خيرونيمو رفع عباءته أمام إينيس، بقصد واضح هو فصل هذه الجزيئة، التي يمكن التلاعب بها من سرّ عائلي هو تقليد الطفلة- الطوباويّة، عن خلود الحكاية الشعبية الذي لا يسبر غوره، وترك الاثنتين مبتورتين، غير مكتملتين، بجوانب

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

غامضة، مجردتين من الكمال في العروض الذي يمكن للتركيب أن يوفره لهما: أفلح خيرونيمو في جعل إينيس تنسى حكاية الطفلة- الساحرة. ما لم يخطط له خيرونيمو هو أنّ حركة ذراعه للتغطية ألقت على إينيس بظلّ من الخوف من الفناء- وما كانت من قبلُ تعدّه خاصاً بها، وإن جربته خارجياً، عن طريق حبّها لخيرونيمو الذي خانته بسبب عجزها عن أن تمنحه ولداً-، خوف دفعها إلى السفر إلى روما بقصد فعل كل ما هو ممكن لفتح باب التاريخ أمام الطفلة-الطوباويّة التي كان في إمكانها هي، وآل آثكويتيّا من خلالها، أن يظلوا بفضلها على قيد الحياة. لذلك يتشبّث فكرها الفوضوي لاعقلانياً بهذا الفرع من ذلك الأكبر الذي يضيع بين ثنايا النسيان النبيلة، لكي يمنح جدتها مرتبة «الطوباويّة» لتحظى هكذا بتوقير الأجيال القادمة واحترامها. لكنّ المشكلة هي أنّها تلك ليست جدتها المباشرة، بل إنّها جدة بيتا بونثي: محاولة خيرونيمو فصل واقع محيط قوي وذمّه تخلق مرحلة أخرى من الارتياب.

لكنّ الارتياب ليس وليد الساعة. إنّه ارتياب دائم. ما الذي أخفته ذراعا الكاثيكه حين بسطتا عباءته فوق فتحة الباب؟ هل كانت اللحظة حين كان فيها رأس الجونجون الشرير يوشك على أن يتحد مع جسم الطفلة عن طريق جرح أحمر في رقبتها، وحين لم تفلح أذنا جناحي خفاش في الاختفاء، فكان من الضروري العاجل إخفاء كلّ شيء تحت العباءة البيضاء لرداء التجسد؟ هل كان لنظرة الأب أنّ تمنع يدي ابنته من أن تستعيدا نضارتهما، أن تجعلهما تبقيان وإلى الأبد على أشكال عرجونية، كأعواد سود شوهتها عقد وشقوق، من فروع يابسة، ملتوية، كان من الضروري العاجل إخفاؤها وإلى الأبد تحت صدرية رهبانية من الرهبانيات؟ أليس من المحتمل أن يكون الكاثيكه قد أحسّ، وهو يرى صور هؤلاء النسوة التي تختلط مثل رسوم دخانيّة، متغيرة ومتنقلة

ومترددة ومتذبذبة دائماً، بالخوف من رؤية ابنته تتحلل فقرر حبسها من فوره في أيّ مكان، في غرفته، في الكبوشيات، في هذا البيت المشيد على هيئة شبكة لاصطياد أي تجسد من ابنته الغالية، وإن كان تجسداً هجيناً أو غير واضح؟

ممكن. كلّ شيء ممكن حين تتدخل بيتا بونثي. ومن أجل الانتصار على بيتا لا أستطيع الكفّ عن التساؤل، بقصد تأكيده، ما هو الحدث الحقيقي الأخرق الذي أنتج هذا المسخ بوجوهه الكثيرة المليئة بالعقد، والذي ولّد هذه الروايات اللامحدودة والإضافات المضللة الممكنة التي لا تحمل أيّ مفيد والتي، مع ذلك، لها صلة ما بالموضوع. ما الذي حدث في الواقع؟ في نهاية القرن الثامن عشر هجر مزارع غني متحدر من أصل باسكي، وهو أب لتسعة أولاد وبنت واحدة، إقطاعاته جنوب نهر الماولي وأغلق على ابنته في دير، مؤسساً بذلك وقفاً مرتبطاً بعائلة آثكويتيّا: هذا ما يقوله التاريخ. ولكن لماذا يحبس أبٌ حنون أرمل كهل ابنته الوحيدة في دير وإلى الأبد؟ لماذا يعاقبها على أنّها ساحرة ما دامت الساحرات غير موجودات وغير موجودة أيضاً طيور الجونجون ولا الإنبوجات ولا الكهوف؟ عاقب المربية لكي يواصل العوام الإيمان بأقنعة الخوف تلك؟ لماذا بنى بيتاً ليحبس ابنته فيه إن كان حقاً أنّ انجذاباً صوفيّاً كان يستحوذ عليها وأنّها كانت مشروعاً لطوباويّة يمكن، بل يجب، إذاعة قداستها وإعلانها؟

لم تكن إينيس دي آثكويتيّا ساحرة ولم تكن قديسة. أنا متأكد من أنّ ما حدث كان أبسط من ذلك كلّه: وقعت المراهقة الوحيدة، المحبوسة في عالم الريف البعيد في القرن الثامن عشر، حيث ما من دروب ولا طرق، في الأرض البكر الخالية إلا من الحيوانات والرجال المعربدين، في غرام فتى، ربّما كان أكثر لطفاً ووسامة، أو ببساطة أنظف، من إخوتها وأبيها. وتحت حماية العجوز القوّادة التي ما

كانت لتحرم الفتاة المنعمة المترفة من شيء، أقامت علاقة مع الفتى الذي سعت العجوز وراءه. ربّما كان جاراً. أو صبياً، أو سيداً، أيّاً كان، لا يهم. أسأل نفسي إن لم يكن مخاض ابنته هو ما غطّت عليه العباءة الأبوية حين انبسطت فوق بوابة الحقيقة الكبيرة جدّاً. ألم يوجّه غضب العمال نحو العجوز لكي يحطموها لأنّها كانت الوحيدة التي تعرف السر؟ ألا ينتشل ابنته من الواقع لكي تدفع، وهي حبيسة هذا الدار، ثمن خطيئة دنيئة، بأن تمنح الحياة لأسطورة بدلاً من أن تمنحها لنغل؟

وماذا عن هذا النغل؟ وماذا عن أبي النغل؟

كان ضرورياً بالطبع التخلص من الاثنين. كان يكفي للتخلص من الأب عدم البحث عنه. تجاهله. فلا شيء حدث هنا. ستقدم ابنتي الغالية، العفيفة الطاهرة، نذرها وتنخرط في إحدى الرهبانيات، واعترافاً مني بفضل الرب سبحانه أن وهبها عفتها المثالية، أقيمُ هذا الوقف. ما من وصمة عار. ما من ولد، لم يوجد قط ولن يوجد أبداً. وإذا لم يكن هناك ولد، طبعاً، لا يمكن أن يكون هناك أب ولا انتقام من أب لا وجود له. صمت الكاثيكه المطبق، الذي لم يبحِ بالسرّ حتى لأولاده لأنّهم لن يفهموا انتقاماً يبلغ من الدقة أنّه ليس انتقاماً، ألغى ذلك الأب المسكين الخجول، الذي هرب قبل أن يقتله أولئك المتوحشون التسعة، لكنّهم لم يقتلوه لأنّهم لم يطاردوه لأنّه غير موجود، ما من أب، ما من ابن، ابنتي إينيس ستقدم نذرها راهبة في إخوانية دينية، هي عفيفة طاهرة، هنا لم يحدث شيء...

تخلّص الكاثيكه من حفيده بأن تركه في بيت عامل في عزبة أخرى من أملاكه مرّوا بها وهم في طريقهم إلى العاصمة. كبر النغل كاليتيم من دون اسم ولا أصل، يربيه أيّ كان، وسخ وهزيل، ولا يتميّز عن أبناء العمال الوسخين والهزيلين. بالتأكيد فهو حين أصبح رجلاً، كان أولاده وسخين وهزيلين نشروا دم آل آثكويتيّا في الإقليم كلّه ومزجوه

مع دم فلاحي جنوب نهر الماولي. حين يخلّف سيدٌ أبناءً غير شرعيين من نساء أراضيه، فإنّ الأولاد يحفظون بشيء من الفخر علامة الابن غير الشرعي للمخدوم، فكأنّ هذا الفخر الخفي يرسم في النغل تقاسيم وجه الأب الذي يعترف الجميع، باستثناء أبيه وأمّه الرسميين، بأنّه ابنه. أمّا إذا كانت المرأة هي من وضع طفلاً غير شرعي، فإنّ الولد يفقد كل أثر من هويته فوراً، ويمسح كلّ ما يدل على أصله الرفيع: في هذه الحالة، ليس هو الشريط الأسود الذي يقطع الشعارات من دون مسح الأسلحة وحسب، بل هي الوصمة التي تغمق لونها وتدمغها لكي لا يتعرف عليها أحد، فما من ولد هنا، لم يحدث شيء هنا...

ولدت بيتا بونثي في إحدى عزب آل آثكويتيّا إلى الجنوب من نهر ماولي، من عائلة غامضة ومجهولة مقربة من العائلة النبيلة، تزرع أراضيها وتعنى ببيوتها، وتقطف محصولها من الذرة وترعى خرافها وتعصر أعناب نبيذها. يقولون... يقولون إنّ أمّ بيتا كانت عظيمة المؤخرة وبأنّهم، في أوقات البعوض، كانوا يطرحونها عارية عند قدم السرير الذي تنام فيه جدة إينيس، لكي تتغذّى الحشرات على أردافها السمينة وتترك السيدة غاطة في نومها، وتترك لحمها نظيفاً نضيراً.

أنا متأكّد من أنّني، في تلك الليلة وفي حجرة بيتا في رينكونادا، عندما ماتت الكلبة الصفراء التي لم يستطع أحد العثور على بقاياها، وصلتُ إلى درجة الظنّ التام بأنّ إينيس هي من كانت تئنّ تحت ثقلي من اللذة، لأنّ ما يجري في عروق بيتا هو دم إينيس دي آثكويتيّا الأخرى التي تنحدر بيتا منها، وإن دفنتْ أجيال وأجيال من الأسلاف المهانين كلّ أثر للعرق النبيل في أعماق وجهها، وجه الساحرة الهجينة... ربّما تجسّدت الطفلة - القديسة نفسها، الطفلة - الساحرة نفسها تحت ثقلي في تلك الليلة لتتلقيا منّي ما كوّن المسخ. نعم، أرى وجه الجدة في ظلمات حبّي. ورصدتُ أحياناً، وأنا أركّز انتباهي لأتمعّن

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

في قسمات ريتا المأروضة، علامات خافتة، كالصدى يصل مرتداً من مسافة لامتناهية عبر شعاب من الأجيال البائسة، للقسمات المضيئة، قسمات عائلة الأسياد النبيلة، قسمات إينيس الساحرة وإينيس الطوباويّة اللتين بعثتا في بيتا التي تلاحقني للسيطرة عليّ وللبرهنة لي على أنّها تنتمي إلى عائلة، وتمتلك أصلاً، وأن لها أمّاً وأباً وأجداداً وآباء أجداد وأبناء حفيد الحفيد، كانت واحدة منهم، بالتأكيد، طوباوية وساحرة.

تريدُ أن تثبتَ لي ذلك لتضحك منّي لأنها تعرف أنني فقدتُ أصلي، أو بالأحرى لأنها تعرف الحقيقة، حقيقة أنّ الدكتور آثولا استأصل الـ ٨٠٪ التي تحتوي أومبرتو بينيالوثا الكاتب، أومبرتو بينيالوثا سكرتير الرجل الكبير، أومبرتو بينيالوثا بعباءته وقبعته وهو ينشد القصائد في الحانات، أومبرتو بينيالوثا ابن معلم الابتدائية، وحفيد ميكانيكي قطار اللعب الذي ألقى من الدخان ما يحجب الرؤية خلفه. نعم، حتى تلك الأصول المتواضعة سرقها مني الدكتور آثولا، وتركني وقد تحولتُ إلى تلك الـ ٢٠٪ البائسة. العجائز يقلن أشياء كثيرة في هذا البيت. أمّا الآن وبعد أن كدّس الدلالون أكواماً من الأشياء في الممرات، فقد صرن أقلّ كلاماً لأنهنّ يجلسن على كومة من ثماني مراتب ويقفزنَ فوقها كالأطفال الذين لم تظهر أسنانهم بعد، انظري، ثونيلدا، لا شكّ أنّ الجنّة تشبه هذا، مع ذلك دائماً يبقى لهنّ وقت للقيل والقال، يقولون إنّ السيدة إينيسَ ستصل الأسبوع القادم، يقولون إنّها وصلت لكنها لم تأت بعد وربما لن تأتي، لا، يقولون إنّه ليس صحيحاً، إنّها لم تصل، إنّها ذهبت للحجّ إلى عذراء فاطمة وإلى عذراء لوردس، يقولون إنّ السيدة راكيل حين أهدتْ مفتاح غرفتها إلى الأم بنيتا، بدت الأم بنيتا متعبة وقالت لها ماذا تريدين أن نفعل بكلّ تلك الأشياء، وكأنّ السيدة راكيل ليس لديها أشياء ثمينة، ما أطيب السيدة راكيل، لكنّ الأم قالت بما أنّ الموديتو هو هكذا فلن أجد من يساعدني على إخراج الأشياء

من غرفته وترتيبها فمنذ أن صار الموديتو هكذا أصبح وكأنّه عجوز أخرى من العجائز، سيدة راكيل، مثله مثل الأم آنسيلما والأم خوليتا، متى سينتهي هذا، فحتّى الموديتو أصبح مريضاً، إنّه يكاد لا يقوى على الوقوف، وبينما كان يسمّر الأبواب سقط من السلّم فاضطررتُ إلى الاستعانة باليتيمات، مسكين موديتو، من أين جاء يا تُرى... يتهامسن، يدمدمن، منذ سنوات وسنوات والعجائز يتهامسن، ويظلّ هذا التهامس لاصقاً بالجدران، لكنّ العجائز لن يبقين طويلاً لأنهنّ مسنّات وسيمتن سريعاً وتصل عجائز أُخر يسمعن القيل والقال الذي ينتقل محرّفاً إلى العجائز الأحدث اللائي سيمتن بعد السابقات بقليل، بعد أن ينقلن تراث الأشباح ومجموعة الإشاعات المأخوذة هنا في البيت إلى خليفاتهنّ... يقولون... يقولون إنّ الموديتو ولد هنا في البيت، فواضح إذن، كلمينتينا، يا للمسكين، لم يخرج قط إلى الشارع طيلة حياته لأنّه يخاف مزامير السيارات، فكيف سيكون إذن، مرثيديس- أخرى، وليست مرثيدس باروسو التي حملتها شاحنة النقل الصغيرة التابعة لجمعية البر والإحسان الحكومية التي تأتي لحملنا كلنا تقريباً-، كيف سيخاف من زمور السيارات إن كان... ربّما، لكنّه دائماً كان هنا، يقولون من قبل أن تأتي الأم بنيتا، حين كانت هناك الكثيرات، الكثيرات من الراهبات، وليس كما الآن، ويقولون إنّ فتاة شابة أصبحت عند عتبة البيت فأدخلتها الراهبات اللاتي كنّ طيبات، ولسن غاضبات ولا متسلطات كالأم بنيتا، التي لا أدري لمَ تكون هكذا، حتى الباحة وهناك، يقولون، وضعت الصبية طفلاً بعد سبعة أشهر من الحمل، وربّته النزيلات واعتنين به وأنقذنه من الموت لكنّهن لم يستطعن إنقاذ سمعه ولا صوته، ويقولون إنّ الموديتو لذلك، لأنه ابن سبعة أشهر، فهو صغير الجسم، طبعاً إنّه يصغر أكثر، وهو، يقولون، نصف أبله طبعاً الواحدة منا لا تستطيع إطلاقاً أن تعرف إن كان الناس

بلهاء حين لا يقولون شيئاً انظرن إليه كيف يسير مؤخراً، يسير سيراً غريباً الموديتو المسكين، هو لا يتحرك تقريباً، الرجل المسكين يبدو وكأنّه كسيح. جسمه يهرشه من كثرة القذارة ورأسه مليء بالقمل لكنّي لا أستطيعُ حكّ رأسي، يداه وذراعاه مترهلتان، يجلس في الشمس طيلة النهار، حين توجد شمس، على الأريكة القديمة التي أهدتها إلى الأم بنيتا سيدة جاءت إلى غرفتها بعد أن تقرر هدم البيت، لاختيار الأشياء التي أرادت أن تحملها معها وقررت ألّا تقبلها، إنّها كبيرة جدّاً، أين سأحشرها، وحين قالت لها الأم بنيتا شكراً، وماذا تريدين أن أفعل أنا بقطعة أثاث كبيرة كهذه في ساعة المزاد هذه، وأنا ماذا أفعل بها إن لم يكن لها مكان في شقتي الحديثة كما أنّ الأشياء من الطراز القوطي القديم ما عادت تستعمل يقول <الهاوس آند غاردن> الذي ينشر أشياء جميلة لكنّ المشكلة ليست في ذلك، بل لأنني صاحبة ذوق كافٍ لترتيب أشيائي، بحسب جميع صديقاتي، لذلك لا أفهم، بل أشعرُ بشيء من الإهانة حين تقولين حضرتك إنّ هذه الأريكة لا تنفعك في شيء، كيف يمكن ذلك، إنّها جيدة، إنّها من خشب الجوز، كانت من أثاث <هول> بيت أمّي في شارع الثامن عشر، يقولون أيضاً إنّهم لن يهدوا البيت حقاً لأنّ إينيس ستأتي للعيش هنا... يقولون إنّها قدمت نذر الفقر... مع ملايينها... شخص ما رآها في روما، أو في سويسرا، لا أدري، في إحدى تلك النواحي، قال إنّه تغيّرت كثيراً، يقولون إنّها ما عادت تصبغ شعرها، يقولون إنّ شعرها شاب وصار قبيحاً، يقولون إنّهم ربّوا الموديتو ليكون سادناً بين النزيلات والراهبات هنا في البيت، لـ «ذلك» فهو بالغ الطيبة لكنّه بلغ من السقم ومن التعب أنّه يبدو وكأنّه ما عاد حتى يرى، ليس هذا صحيحاً، أنا أرى، أنظرُ، نظرتي المشتاقة هي الشيء الوحيد الحي الذي بقي لي مما كان موجوداً دائماً وهي تربطني بأصلي الذي بقي لي الآن لأنّهم يقولون... يقولون إنّ سيدة

كانت تعيش هنا في باحة المغسل سمعت من امرأة صغيرة ماتت من وقت طويل وأنّ هذه سمعت من أخرى عرفتني حينذاك تقول إنني كنتُ طفلاً جميلاً، وإنّ وجهي كان من تلك الوجوه الصغيرة الشمعية لطفل ممراض ولكنّ عينيّ كانتا كبيرتين وحزينتين فكأنني كنتُ دائماً على وشك البكاء، وإن متسولة من بلدة بيوتها معمولة من الصفيح والكارتون وجدتني ذات يوم عند بابها، عارياً، في الليلة ذاتها التي طردتني فيها إيريس وأمرتني أن أذهب في طلبه ولأجلبه لها، لكنّي لم أستطع إلا البقاء وراء الزجاج في الواجهة، أنظرُ إلى الداخل وأنظر إليه من مكاني تحت المطر، في مكتبته بكراسيها الرمادية وهو يفتح جزءاً من مكتبته لم يكن يضمّ مئة مجلد من كتاب لونه مائل إلى الخضرة كتب اسمي على كعبه، بل كان تقليداً له، إنّه مجرد باب يغطي صندوق الكتب الذي لا يهمني محتواه، ما يهمني هو العودة إلى البيت مع واحد بالمئة أقلّ بعد أن عرفتُ أن اسمي موجود فقط على كعب تلك الكتب المقلدة المئة، وربّما كان اسمي نفسه مقلداً، بانتظار أن تسمح لي إيريس بالدخول كتلك المتسولة التي وجدتني عند بابها في برد العراء ذات ليلة. ليس في البلدة من كان يعرف من هي أمّي ولماذا أقول أبي، فذلك ما لن يُعرف أبداً، فلا أحد له أب، وخصوصاً إذا كان معلم مدرسة ابتدائية قصير النظر، بدلته غامقة مغبرة بطباشير السبّورة. لكنّ نظرتي كانت من الحزن - حزينة وحسب في ذلك الحين، حالة أدنى من الحنين الذي سيمنحني في ما بعد الكثيرَ من القوة - ما جعل المتسولة التي وجدتني تنتبه إلى إمكانياتي ولم تتخلص منّي كما العادة، لأني كنتُ أمثّل فماً آخر ولم يكن الوقت ملائماً لأعمال البر... يقولون إنّ تلك العجوز كانت تحملني ملفوفاً بالأسمال، القليلة، لكي يكسبني البردُ جلداً يميل لونه إلى الخضار، للتسوّل في الشوارع أو عند أبواب الكنائس، ساعة الخروج من الصلاة التاسوعيّة مساءً. وحين كانت

مكتبة أحمد ٢١٥ telegram @ktabpdf

تلاحظ أنّ المصلين بدؤوا بالخروج من المعبد كانت تقرصني لكي أبكي. كانت تعابيري من الألم وأنّاتي من التأثير أنّ الناس المحسنين كانوا يتجمعون حول العجوز لينظروا إليّ وأنا أبكي ليملؤوا لها يدها بقطع النقود... يقولون إنّ تلك السيدة لم تكن تطعمني الكثير لأسمن لكي أكون دائماً على حافة البكاء، جائعاً، شفافاً، فهكذا كان مظهري أكثر إثارة للشفقة وتجارياً أكثر... تقول، لاحظي لوسي، تقول ألسنة السوء إنّ تلك العجوز مرضتْ وما عادتْ صحتها تسمح لها بالخروج تهيم على وجهها طالبة الصدقة وأنا بين ذراعيها، أنمو على الرغم من الجوع، ما عدتُ ضئيل الجسم، وبما أنّه لم تعد تخرج، ولأنّ صيتي ذاع في كافة أنحاء المدينة، وصارت تؤجرني لعجائز أخريات كنّ يحملنني بين أذرعهنّ جائعاً، دامع العينين لحث الجمهور على التصدّق، كانت العجائز اللائي يستأجرنني يلاطفنني، لا سيما حين كان المتصدقون يلتفون حولنا لإعطائنا صدقة حبّاً للرب، لا تبكِ يا ولدي الجميل، ما أجمل ابني الصغير المسكين، انظروا كيف يبكي، طبعاً، في رئته بقعة، مسكين، حفيدي الوحيد، وابنتي في المستشفى والأب ما أدراني أين هو، ذلك السافل الذي تركنا ورحل، وأنا، كما ترون، عجوز مسكينة عاجزة غير قادرة على شراء القليل من الحليب له، قطعة من خبز أضعها في فمه لكي لا يبكي هذا المخلوق كثيراً كما يبكي الآن، وحين لا يبكي فهذا أسوأ لأنّ تعبير عينيه... ومع العودة إلى البلدة تجرّ خفّيها على الدرب كي لا تدفع أجرة الميكروباص، ترنّ قطع النقود في جيبها الثقيل المختبئ بين طيّات أسمالها، لتعيدني إلى العجوز التي لم تكن أمّي ولا جدتي بل مالكتي، والتي ماتت في ما بعد وتركتني إرثاً لعجوز أخرى، وتركتني تلك العجوز إلى أخرى... إلى أن، يقولون، لاحظي ميلانيا، جلبتْه إلى هنا، إلى البيت، أولى النزيلات، سيدة صموتٌ وطيبة، يقولون إنّها كانت، واسمها بيتا بونثي، كانت

حينئذ مالكة الموديتو التي كانت كبيرة للخروج والتسول معه، كانت تلك السيدة عجوزاً طاعنة في السن، ويقولون إنّها خرجت ذات مساء بمفردها للسير بين ممرات هذا البيت الطويلة، والتي يحلّ فيها الظلام مبكراً، وهناك باحات كثيرة وأقبية كثيرة وممرات كثيرة، لا أدري إن رأيت كومة الوسائد التي جمعها الدلالون في ممر الباحة الأخرى، وسائد ومراتب من الريش ومخدات، عجباً، ميلانيا، هي جديرة بأن تشاهديها، هناك أشياء جيدة، وكما أقول لك، يقولون إنّ هذه السيدة خرجت ذات يوم للسير عبر الممرات واختفت هنا في البيت ولم يعاودوا رؤيتها قط، فكأنّ الأعماق ابتلعتها، بحثوا عنها في كلّ الأقبية وفي كلّ الأدوار من دون طائل، لم تظهر ولم يظهر أيضاً في السجلات أنّها ميتة، لذلك لا أعلم أين تكون...

- والآن قطعوا الكهرباء.
- ما أفظع هذا، أليس كذلك؟
- ولِمَ قطعوه؟
- لأنّهم سيهدّون البناء
- لكنّهم لن يهدّوا.
- كيف لن يهدّوا؟
- كيف سيهدّون إذا كانت السيدة إينيس ستأتي؟
- من قال لك ذلك، أماليا؟
- يقولون...
- لا تستطيع المجيء من دون كهرباء...
- هم قطعوه مؤقتاً ليس غير...
- لماذا؟
- إنّهم يصلّحون أسلاكَ غرفة السيدة إينيس.

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

- ولكن أفضّل ألا نخرج للسير في الممرات كي لا نضيع كتلك السيدة التي يقولون إنّها ضاعت هنا، كيف كان اسمها، لا، ليس اسمها بيتا بونثي، كان اسمها بيتا آرثي، لا، بيتا بيريث آرثي، طبعاً، ولم تكن هي من جلب الموديتو، لأنّ من جلب الموديتو كانت سيدة أخرى... يقولون إن من جلبه لم يكن حتى سيدة، بل إنّ الموديتو وصل إلى هنا ذات يوم حين كان المطر يهطل و...

٢٢

كان لونُ الورق الذي اختارته السيدة راكيل لغرفة إينيس بنياً فاتحاً جدّاً، شبه شفاف، رسمت عليه قيثارات كتلك التي تعزف عليها ملائكة السماء، بعضها أبيض والآخر بلون بنّي غامق قليلاً. بسيط جدّاً أنيق جدّاً ومن دون أيّة فخامة، كما يجب أن تكون عليه غرفة من قدّمت نذر فقر. ولكني لصقتُ تحت ذلك الورق الملائكي المتّزن، بين الجدار والورق الجديد، قصد حمايته من خشونة الطوب، قميصاً من ورق الجرائد كما في مغارات العجائز، أخبارٌ مرعبة غير عاجلة ولكنّ رعبها ما زال سارياً، آلاف السجناء السياسيين منسيون في السجون منذ ما يقرب من ثلاثين سنة، آلاف الأرواح أزهقتها فيضانات نهر يانغ - تسي- كيانغ، إبادة حيوانات الواتوسي، مجاعة تضرب شمال شرق البرازيل، وجوه منذرة مذعورة، أيد تستغيث من بين أطلال مدن دمرتها الحروب أو الزلاَزل، عيون تطلُب الرحمة أمام هول المقدّر المحتوم الذي وقع، الذي يقع، صرخات يكتمها البعد والزمن لأنّ الرعب المنزوع من سياقه أشدّ هولاً، وهو أشد هولاً حين يتحوّل إلى ورق جرائد أستعملُها لترتيب أحجية مروعة تحت الورق المصبوغ الذي يغطي كلّ شيء ويحافظ على الرعب من دون مسّ.

- جميل.

فتحت الحقيبة فوق سريرها.

مكتبة أحمد ٢١٥ telegram @ktabpdf

- نعم، أليس ذلك؟

أخرجتْ فستانها الأسود ومعطفها ولبستْ خفّين ورداء منزل أحمر.

- كم أنت أنيقة، سيدة إينيس! سمعتُ دائماً من يقول إنّ البضاعة الإيطالية اليوم جميلة جدّاً...

- إنّها سويسريّة. إنّه الشيء الوحيد الذي اشتريته من أوروبا، بالإضافة إلى نصف دزينة من الفساتين السوداء المتشابهة التي ستدوم معي حتى مماتي.

تساعدها الأم بنيتا في تعليق فساتينها السود الكئيبة في الخزانة وتقول لها إنّها كانت تظنّ أنّ إجراءات التطويب كانت في مرحلة متقدمة جدّاً ولذلك تأخرتْ كثيراً في أوروبا. أمّا صفّ الأحذية السود مع قوالبها فمكانه الجزء الأسفل من خزانة الملابس.

- لا، كنتُ في مصحّة في سويسرا عقب الصدمة التي أصبتُ بها حين رفضني الكرادلة...

وتحرك رأسها، إطلاقاً، كما يبدو أن الكرادلة حركوا رؤوسهم حين قالوا لها لا، حين قالوا لها إنّ الطوباويّة ليست طوباويّة، أنت عجزت عن أن تمدّي في عمر عائلتك عن طريق طفل، ولم تستطيعي أيضاً أن تفعلي ذلك بإخراج موضوع الطوباويّة من صندوق الأشياء القديمة، لتعلقي بهرجها على شجرة العائلة... تحركين رأسك: تنظرين إلى نفسك في المرآة، تلمسينَ شعركِ وتواصلين...- أريد أيضاً أن تمسّدي لي شعري كي يشيب، تتذكرين أنني قبل ذهابي كنتُ أصبغه فاتحاً، قليلاً كما حين كنتُ شابة. أردتُ الوصول بتسريحة الغسّالة هذه، من دون فخامة، شأن العجائز اللائي يعشن هنا. وحضرتك، أيتها الأم بنيتا، كيف حالكِ؟

- مشغولة جدّاً بموضوع الجرد للمزاد.

- ما من مزاد.

- هل تكلمت مع رئيس الأساقفة؟

- ألم أقل لكِ إنني لم أتكلّم مع أحد؟ أخذتُ التاكسي من الطائرة مباشرة، جلبتُ معي حقيبة وأرسلتُ بقية الحقائب في تاكسي آخر إلى البيت. لنرَ ما الذي سيفعله هؤلاء الدلالون هنا غداً... ناديني... سأصرخ في وجوههم وأطردهم وليخبروا خيرونيمو بما حدث.

تغلق الأم بنيتا دفة الشباك. تنحني لحشر حقيبة إينيس تحت السرير. حين عدّلتْ قامتها رأتها تحدّقُ في القيثارات وكأنّها تريد اختراقها، وفي قميص الأخبار القديمة، وكأنها تحاول التوغل في أعماق طوب الجدران لنزع أحشاء شيء موجود وراء كلّ ذلك والذي لا تعرفين حضرتك، أيتها الأم بنيتا، ما هو. ومن دون أن تغيّر تعابير عينيها المثبتتين في الحائط، سألت الأم بنيتا من دون أن تنظر إليها:

- والبوّابة؟ ما كان اسمُها؟

- ريتا.

- وكيف حالُها؟

- بخير.

- هل من رسالة لي عندها؟

- لم تخبرني بشيء.

- طبعاً، خيرونيمو لم يتصل. لا يعرف أنّني وصلتُ. لا بدّ أنّ التاكسي الذي حمل أشيائي وصِل وهو في النادي ولن يعرف أنني وصلتُ إلا في ما بعد. إن اتصلَ، فلتقل له ريتا إنني في المصلّى وإنّهم لا يستطيعون مقاطعتي أثناء الصلاة. أنا جئتُ للصلاة وللتوبة هنا.

– ولكن سيدة إينيس!

– ماذا؟

– ألا تعلمين؟

– لا...

– ألم يخبروكِ بأنّ أوّل ما فعلوا هو أنّهم دنسوا المصلّى، وهو منذ أشهر مغلق، وقد أخرجوا منه المزججات وكلّ شيء؟

غطّتْ إينيس وجهها بكفيها.

– ولمَ فعلوا هذا الشيء الرهيب؟

– كان الأب آثوكار مستعجلاً في موضوع المزاد للشروع في الهدم... لكنّ الأمور طالت. لا يقيمون قداساً ولا شيئاً آخر...

غطتْ إينيس وجهها: كان وجهاً آخر، وجهاً أفزعكِ، أيتها الأم بنيتا، فكأنّ وجهاً من الوجوه القابعة خلف قيثارات التغليف اخترقه ليحتلّ بهوله وسط الغرفة.

– أيريد خيرونيمو أن يتركني حتى من دون قدّاس؟

– لا تقولي ذلك...

– حضرتكِ لا تعرفينه...

– لا...

– لا تعرفين كيف هو...

– لا...

– أنا لم آت إلى هذا البيت لأظلّ من دون قدّاس. سأطلبُ منهم أن ينقلوا مصلّى بيتي إلى هنا. نستطيع إقامته في الغرفة المجاورة. وإذا كان الأب آثوكار يدرك ما يناسبه، فليبعثْ لي بأيّ خوري ليقيم لي القداس ويحملَ لي التناول كلّ يوم... حسناً، غداً سأرتبُ كلّ شيء. أنا الآن نعسانة... سأرقد...

- خسارة! فالنزيلات مجتمعات كلّهنّ في المطبخ ينتظرنَ أن تذهبي لتحيتهنّ...

- هذه الليلة لا... أنا متعبة... غداً. آه، أيتها الأم بنيتا، تذكري، ولتتذكر زيتا أيضاً، إن اتصل خيرونيمو بي فأنا لن أستطيع الحديث معه... أمّا عن مجيئه، فهو لن يأتي... لن يدعني أعيش بهدوء بمكالماته الهاتفية. قولوا له دائماً إنني مشغولة.

- أمرك.

- شكراً.

- هل تحتاجين شيئاً آخر هذه الليلة سيدة إينيس؟

تطوفُ بغرفتها تتحسسُ القيثارات بأناملها. تسحبها، كالمجروحة، وتحشر يديها في جيب ردائها الأحمر. تنظر إلى الراهبة:

- لا أدري، أيتها الأم بنيتا...

- طيب، أذهبُ إذن...

- أين تنامين حضرتك؟

- في الباحة الأخرى.

- كم هو واسع البيت!

- كبير جدّاً.

- وكأنه كبرَ وأنا في الخارج.

- لن يستطيع أحد معرفة كلّ أركانه.

- يقولون إنّ الموديتو هو الوحيد الذي يعرف البيت كلّه. هل هذا صحيح؟

- يقولون. لكنّهم يقولون أشياء كثيرة... ممكن... كلّ شيء ممكن في هذا البيت.

- لا تقولي ذلك، أمّاه لأجل الربّ.

تجلسُ على السرير.

- هنا عندك جرسٌ لمناداتي إن احتجتني في شيء.

- شكراً.

- عفواً.

- أمّاه...

- هل ستسمعينني إذا صرختُ؟

- ولماذا ستصرخين؟

- أنا أخافُ من العناكب.

- لقد نظفنا المكان جيداً.

- المشكلة أنّ...

وضعت الأم بنيتا يديها الرفيقتين على كتفيكِ. أقفُ أمامكِ أبحثُ عن نظرتكِ لأهدئها بنظرتها، لكنّكِ أشحت بنظرتكِ عنها.

- ماذا حرى لكِ سيدة إينيس؟ احكي لي...

أنت لا تنظرين إليها.

- انظري، أمّاه، منذ أن أخفق موضوع التطويب وأنا أعاني من أرق رهيب. لم يتمكنوا من علاجه لي حتّى في سويسرا، لذلك دخلتُ إلى المستشفى. وفي المرات القليلة التي أتمكن فيها من النوم، لو أنّكِ رأيتِ الكوابيس، إنّها كالسجن، وكأنني لن أستطيع أن أتحررَ منها أبداً، وكأنني حُكمَ عليّ أن أعيش دائماً داخل كابوس، وفي مراتٍ كثيرة لا أدري إن كنتُ داخله أم خارجه...

- لا تعرفين إن كنت نائمة أم صاحية... هذا رهيب...

- وكيف تعرفين؟

- لقد حدث لي ذلك أيضاً...

- ولكن ليس مثلي، إنّه يخيفني كثيراً. أظنّ أنّ من الأفضل أن تنصّبوا لي هاتفاً هنا في غرفتي من باب الاحتياط...

- الاحتياط من ماذا، سيدة إينيس؟

- أشم رائحة إسمنت.

- لا يبدو...

- ألم يكونوا يبنون؟

- يبنون ماذا؟ سيهدّون.

- هذا البيت لم يكن واسعاً كما وصفوه.

- لكنه لا يمكن أن يكون قد نما وكبر.

- لكنّه لم يكن بالحجم الذي وصف به.

- كيف هو إذن سيدة إينيس!

أنتِ ركزت نظركِ من دون أن تعلمي أنكِ تركزين نظركِ، حين الدخولَ إلى البيت: الأبواب التي بنيتُها بالإسمنت والطابوق، لأنّ من الواجب غلق غرف وأروقة بالبناء منعاً للضياع، أنا أتكفّل بذلك، النوافذ التي رحتُ أختمها كي لا يحطموها: وفوق ذلك، من دون أن تنتبه الأم بنيتا ولا سواها، رحتُ أبيّض وأصبغ بقع الرطوبة والشيخوخة بحيث لا يشكّ أحد بأنّ وراءها غرفاً وأروقة وباحات وممرات. لا أحد يلاحظ التغيير. فقط أنت من يعرف أنّ البناء والغلق يوسّع محيط البيت، لا يقلّصه، فما من أَحد، إطلاقاً، لا هدّامين ولا دلالين، سيستطيع الدخول إلى أماكن مغلقة.

- هل هو الحَمام الذي يصدر منه هذا الصوت؟

- كلا. إنّها ساقية الباحة.

- لن تدعني أنام.

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

- غداً سآمر بإصلاحها.
- بل هذه الليلة. يجب أن أستريح.
- سأرى.
- انتظري، لا تنصرفي الآن.
- هل تحتاجين شيئاً آخر؟
- أظن لا.
- طيب، إذن...
- أيتها الأم بنيتا...
- نعم؟
- حضرتك تؤمنين، أليس كذلك؟
- في ماذا؟
- في الطوباوية.
- حسناً، أنا...
- لقد تركوني وحيدة.
- وزوجكِ؟
- لا تعرفينه!

الأم بنيتا لا تفهم. تجلسُ هي إلى جانبكِ على السرير، فتنهضين أنتِ وتبدئين بالطواف في الغرفة، ترين نفسكَ عرضاً في مرآة خزانة الملابس، ربّما تخمّنين الوجوه الخفيّة التي تتحدد خلف القيثارات، وأنت تطوفين في غرفتكِ من الأعلى إلى الأسفل، من الأعلى إلى الأسفل.

- لكن هل لكِ، أيتها الأم بنيتا، أن تقولي إن كان هناك دليل أكبر على أنها كانت طوباويّة من وجود هذا البيت؟

- استلقي، أفضل...

– قولي لي، فأنت امرأة مؤمنة.

– سيدة إينيس...

– قولي لي...

– موضوع الزلزال الشهير ذاك...؟

– وإنّها مدفونة هنا، في البيت، وإنني سأبحثُ عن رفاتها وإن اضطررتُ للحفر بأظافري... انظري كيف هي أظافري. هل تذكرين كم كنتُ أعتني بيدي؟ كانتا من مظاهر ترفي. انظري إليها الآن...

تُخرجينَ يديكِ من جيبيكِ وتعرضينها، مرتجفتين، الأظافر مكسرة. تأخذهما الأم بنيتا، تضمهما إلى بعضهما كي لا ترتعشا كما ترتعشان ثم تعاود تركهما في حجرك الأحمر.

– يا خسارة.

– هل تعرفين ماذا يحدث؟

– لا أبالي... ما عادت التفاهات تهمها...

– لا، المشكلة هي أنني في الليل، وأنا نائمة، في المرات القليلة التي أنام فيها، يبدو أنني أحاول التشبث بشيء، بأيّ شيء، أخمش الشرشف، السرير، أيّ شيء... لو رأيتِ على أيّة حال تركتُ موضع المخدة من سريري في فندق روما الكبير لأنّي كنتُ أحلم بشيء لا أتذكره وكنتُ أحاول التشبّث بأيّ شيء، وبعد ذلك، في النهار، لكي لا تؤلمني أظافري أقضمها فتؤلمني أكثر... لذلك دخلتُ المستشفى في سويسرا. كنتُ على أسوأ حال في روما.

– هلّا رقدت؟

– لا.

– أتريدين فنجاناً من الشاي؟

– لحرق كلّ شيء، لهذا أتيتُ، لحرق كلّ ما احتفظتُ به في

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد ٢١٥

غرفي. لذلك سأبدأ. لكني أريد أن أنبهكِ إلى شيء، أيتها الأم بنيتا: لن أحرقَ شيئاً من دون أن أعاينه من قفاه ومن وجهه ومن داخله. سأقرأ جميع الرسائل والقصاصات والعقود وظهور الصور الفوتوغرافية. سأبحثُ في جميع الجرارات، في جميع الصناديق، في جيوب كلّ البدلات والفساتين والمعاطف وحتّى الملابس التنكرية التي أحتفظ بها يأكلها العثّ على الرغم من أنّ الموديتو يعتني بكلّ شيء... في البطانات وداخل الحقائب، وكل شيء سأتفحصه لا تظنّي أنني سأهديه أو سأتصدق به بل سأحرقه والموديتو سيساعدني...

- ولكنّك تريدين العثور على ماذا؟

- على شيء، شيء يدلّني إلى الطريق. كان هناك شيء. كي لا أخمش عند النوم، هذا إذا نمت، وإن كنتُ أظنّ أنني لا أستطيع النوم كثيراً.

- هل ترغبين في مخدة إضافية؟

- لا. أريد أن أعملَ سر التوبة.

- بما أنّك نزعت رداء البيت، اندسي في الفراش، ولا تسيريّ هكذا نصف نائمة، فجدران هذه الغرفة غلفت بالورق حديثاً وهي رطبة قليلاً. ستجف خلال يومين.

- ماذا كنتُ أحكي لكِ، أيتها الأم بنيتا؟

- كنت تقولين إنّك تريدين العثور على لا أدري ماذا.

- هذا هو ما يضايقني أكثر.

- ماذا؟

- أن لا أحد، ولا أنا، نتذكر.

- نامي الآن. استريحي. أمامنا الكثير من الوقت للحديث. لا تبتئسي. هنا جميعنا سنهتم بك، وسترين. ويمكنك البقاء الوقت الذي تشائين...

أنتِ بشعرك الأشعث الرصاصي المحلول فوق كتفيكِ، القدمان عاريتان، الأم بنيتا تحاول إجبارك على ارتداء الخفين، تترجاك أن ترقدي، أن تهدئي، أن تشربي كأساً من الماء.

– كيف تجرئين على دعوتي لقضاء الوقت الذي أريدهُ في هذا البيت، والبيت بيتي؟ نعم، قد يكون خيرونيمو وقّع كلّ الأوراق لكنّ البيت يعود لي، لا أريدُ أن يهدّوه، لن أسمحَ لعامل أن يمسّ واحداً من هذه الجدران، البيت فيه سر، شيء غامضٌ لا أفهمه لا أنا ولا حضرتكِ ولا أحد، لكنه بيتي لأني أعلم أنّ فيه سراً، حتّى لو لم أكشف عن ذلك السر وحتى لو قتلني ذلك السر، فالبيت بيتي، الملكية تأتي قانوناً عن طريق الذكور، طبعاً، لكنّنا نحن النساء مَن حافظ على البيت. أنا متأكدة من أنّ هذا البيت لم يخرج من أيدي آل آثكويتيّا لأنّ تتابع نساء تقيّات ورعات ما عاد أحد يذكرهنّ، كلّ واحدة منهنّ على طريقتها، لكلّ منهنّ مهاراتها، نقاط ضعفها، أسرارها ومكائدها الصغيرة التي لم يسجلها التاريخ، راحت كلّ واحدة تحول دون أن ينفصل زوجها عن هذا البيت، دائماً لأسباب غير عقلانية، غير موضوعية، من المستحيل فهم تلك الأسباب التي جعلتْ أجيالاً من نساء أسرة آثكويتيّا ينسجن ويرتبن شبكة من الحماية لهذا البيت... لا أدري ما الذي ننتظره من البيت... تخيّلي أننا، ونحن نعمل يوماً من الأيام حفرة في باحة الزيزفون، مثلاً، نعثر على بقايا الطوباويّة... أنا سأحتفظ بها لي وحدي، الطوباويّة لي، فلا أحد، ولا حتى حضرتكِ، يؤمن بها... سأحتفظ بها لأنّ من الواجب الاحتفاظ بالأشياء، بالكثير من العناية وإن بدت قليلة الفائدة، تغليفها، لأنّهم حين تخرج الواحدة شيئاً ذا قيمة إلى العيان يستولون عليه، هذا لي، أعطني إياه، أنت لا تفهمين شيئاً، اذهبي إلى خياطتك، اذهبي إلى لعب البريدج، اتصلي بالتلفون بابنة عمّك بينما هم يستولون على ما عثرت عليه الواحدة، هم يدركون معناه ويقدرون

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

على شرحه، ويشرحون إلى حد أن الأشياء تعود غير ذات معنى... أنا لا أريدُ أن أعرف ماذا يعني أيّ شيء، أريدُ أن أجدَ شيئاً كي لا أخمش في الليل حين أنام، هذا إذا نمتُ، لن أعرف... شكراً، أيتها الأم بنيتا، نعم، ذلك الشال، عند أسفل السرير، ضعيه عليّ من فضلك، هكذا...

– هل تريدين أن أطفئ النور الفوقاني وأترك لك الشمعدان؟

– لا تطفئي أيّاً منها، سأنامُ وجميع الأنوار مضاءة واتركي لي أيضاً ضوء الممر الخارجي، لا أفهم لماذا أنفقوا الأموال لبناء ملاحق للبيت مؤخراً إن كانوا سيهدونه... ما أوسع ما أرى البيت هذه الليلة... قد تكون مسألة اعتياد...

– سترين أنّك ستكونين في ظرف أيام مسرورة أكثر مما كنتِ في المستشفى، ولن تحلمي.

طبعاً، أيتها الأم بنيتا، ولماذا ستحلم إن كنتُ سأتولّى بنفسي إدارة حلمها، قيادتها إلى أن تضيع في الممرات وتصادف من أريد أنا أن تصادف ومتى أريد.

– خسارة، إنّهم لم يفطنوا إلى ترتيب حجرة لي بجانب حجرتك، أمّاه.

– لكنّ حضرتكِ بعثت برقيّة تطلبين أن نهيئ الباحة الأقدم.

– صحيح.

– ما عليك أن تخافي.

– لا.

– هي تسهر على حمايتك.

– إن كان لها وجود...

– صلّي للرب.

– الربّ لديه ما هو أهمّ.

- اشربي ماء، وخذي دواءك المنوّم.

- لا أريد تناوله الآن. فما أدراني أيّ حلم سأراه هذه الليلة، الليلة الأولى لي هنا في البيت، ربّما أرى مناماً ثمّ أجد أنّ أحدهم، لا أدري من هو ولا لماذا، أغلق، وأنا نائمة، باب الحلم بالإسمنت والطابوق... لماذا أشعر بهذه الرائحة الغريبة...

تنظرين في كل الأنحاء.

- هناك أحد ما.

سمعكِ الحاد أم حاجتك إلى حضوري، أحسّت بهروبي في الممر. تشيرين على الأم بنيتا أن تقترب منك وتهمسين في أذنها:

- الوثيقة التي تؤكده...

- التي تؤكد ماذا؟

- اختفتْ.

- غير ممكن.

- بلى. كانت محفوظة في حجرتي. أنا متأكدة. خيرونيمو أخفاها لكي يفشل موضوع التطويب.

- ولكن، سيدة إينيس...

- كلّ ما هو ضروري يختفي، ولا يظل إلا ما هو غير نافع. ربّما لم تختف بأمر من خيرونيمو... لا أدري، اختفتْ لأنّ الأشياء أحياناً تختفي لمجرد الاختفاء، لأنّ الرجال يحتاجونها ويستعملونها ويستخدمونها إلى حدّ استهلاكها وحد إخفائها... إلا إذا أخفيناها، نحن النساء الجاهلات اللائي لا نفهم شيئاً ولا نعرف شيئاً عنِ أيّ شيء ونتعب من أيّ شيء ونبكي لأنّ ليس لدينا ما نتسلّى به، نحن أحياناً نحتفظ بالأشياء، بإخفائها لكي لا يستعملوها هم ثمّ يلقون بها وينتقلون إلى غيرها... نحن لا، نحتفظ بها لأننا نتهاتف ونعلّق ونقول

تفاهات ونتبادل القيل والقال، لكن في تلك الحماقات وفي تلك النميمة التي نتبادلها في التلفون، في السرير، صباحاً، مع فتات الخبز المحمص في الفطور في الفراش، في تلك التعليقات الغبيّة، أحياناً، تحفظ الواحدة شيئاً مهماً متنكراً في شيء تافه، وامرأة أخرى، ابنة عمّ عليك واجب زيارتها، مثلاً، وتتصلين بها تلفونياً لأنّ زيارتها تشعرك بالملل، تحفظ ذلك، تغلفه، تحافظ عليه وتنقله. لكنّي ليس لديّ من أقصّ عليه قصّة الطوباويّة، لا أحد يريد أن يصدّق أنّها كانت موجودة حتّى، وأقلّ من ذلك أن تكون طوباويّة... مسكينة... ماتت شابة... بعد أن أموت لن يهتمّ أحد إن كانت الطوباويّة ماتت شابة. إذا نمتُ جيداً هذه الليلة وأصبحتُ نشيطة فسأبدأ بحرق كلّ الأشياء الموجودة في حجرتي. بلّغي الموديتو أن يكون جاهزاً باكراً لمساعدتي، نعم، وإن لم تكن لديه قوة الماضي، وإن لم يعد أكثر من رزمة، أو أيّ شيء، هو يعرف ماذا يوجد في حجرتي، سنبدأ حالما ينبلج الصباح لأنّي أرى أنّني، مع الضجيج الذي تحدثه تلك الساقية التي كنتُ أظنّ أنّها خزان ماء المرحاض، فلن أنام ولو لوقت قصير... الآن، بعد الرحلة، إلّا حين حاجتي الماسة للراحة. لنرَ، ناوليني الحبوب المنومة، أماه... ما أدراني ما الذي سأصادفه في منامي، الأسوأ هو حين لا أستطيع أن أتذكر الفظائع التي أراها في منامي. ولكن انتظري، أماه، انتظري حتى أُخرِج كريم الوجه... ناوليني المرآة الموجودة في الكيس الأحمر الموجود في حقيبتي السوداء الموجودة داخل الكيس البلاستيكي الموجود في الجزدان المغلق الموجود داخل الشنطة الموجودة تحت السرير. شكراً أيتها الأم بنيتا.

***

لم أتحرك طوالَ اليوم تقريباً، لم أنتقل إلا أحياناً من المقعد إلى طرف أحد الممرات لكي أجلس، ووجهي بين يديّ، قبل أن أذهب

إلى المطبخ حين يكون الطقس بارداً، ملتصقاً بجدران الممرات، أنت ترينني وأنت تمرين تتكلمين مع ثونيلدا تورو وتحركين رأسك متنهدة ومتأمّلة أَن أتعافى، يا لموديتو المسكين، يجب أن يقع له ما هو فيه، أنطونيتا، كيف سيلازمه كلّ هذا الوقت، أنا أتأمّل أن تتحسن حاله لنبدأ البحث بين الأشياء التافهة في حجرتي لأنّي لا أستطيع فعل ذلك بمفردي، هو يستطيع مساعدتي، يعرف أين يوجد كلّ ما غاب عن بالي مكانُ وجوده، أفضّلُ الانتظار عدة أيام حتّى يتعافى وهكذا أستريح قليلاً قبل الشروع في المهمة، لكنكِ، إينيس، تتجولين من دون عمل، ورعك لا يعثر على مركز لأنّ الأب آثوكار لم يحصل بعد على الاستثناء الذي يرخّص بإقامة مصلاك إلى جوار حجرتك، ليس من السهل الصلاة بخشوع حين يكون الركوع على الأرض. هنّ يتبعنكِ، سيدة إينيس الطيبة، من المؤسف أنّك الآن لا تعتنين بنفسك إلاّ قليلاً، كم كان جميلاً رؤيتك قادمة من أوروبا وأنت بالغة الأناقة والرشاقة، ولكن طبعاً، كيف، إن كنت قدمت نذر فقر، يقولون إنّك غنيّة إلى درجة أنّك اشتريت هذا البيت للقدوم إليه والسكن فيه ولذلك لم يُعقد المزاد، ستجلبين مصلاك مع مذبح من الذهب، ثم يقولون إنّك ستجلبين شيئاً فشيئاً كلّ أثاثك وحاجياتك لتأثيث البيت ليكون جميلاً، لذلك لم يحضر أولئك الرجال المندسون الذين كانوا يأتون من قبل للدخول في كلّ الأنحاء لعمل الحصص المرقمة تمهيداً للمزاد، بل يريدون تفكيك أغراضنا البسيطة، أين يريدون أن نسكن إن فككوا أكواخنا، ليس في مقدورنا بعد كلّ هذه السنين أن نغيّر سكننا، خصوصاً إن كانوا يريدون هدمه، ليس صحيحاً، سيدة إينيس...

– لن يهدموا.

– لن يهدموا، سيدة إينيس؟

– ما دمتُ على قيد الحياة.

مكتبة أحمد ٢١٥
telegram @ktabpdf

- وحضرتك تتمتعين بصحة جيدة.
- لستِ مثلنا، فنحن نسعلُ كثيراً.
- صحيح، لكنّكنّ لا تعانين من الأرق مثلي.
- أرق، سيدة إينيس؟
- أنام قليلاً.
- مسكينة!

مسكينة، ما أفظعَ ألا ينامَ المرء، أمّا عنّا فنحن ننام كثيراً حتّى إننا لا نعرف كم من الوقت نكون نائمات وكم نكون صاحيات، أنطونيتا، تلك العجوز الطويلة النحيفة، التي رأيناكِ تتحدثين معها في تلك المرّة، مشهورة لأنّها تنام واقفة، وتواصِل الكلام، واقفة ونائمة. حضرتكِ طبعاً لا تستطيعين التسلّي بالكنس، كما نفعل نحن، أو بتقشير البطاطس، خسارة، إنك لا تحبين الخياطة ولا التطريز، غرزة الصليب جميلة جدّاً.

- قبل كانت تروق لي.
- الآن لا.
- لا أشعر بالاستقرار.
- اقتلي الوقت.
- في ما بعد...

ريتا ستشاهدينها كثيراً في البوابة. حين عادت دورا من زيارتها السنوية ذات مساء إلى بيت مخدوميها - قبل عيد سانتا تيريسا بيومين، لتحضير الحلوى ليوم قديس السيدة، لأنّ دورا فنّانة في صناعة الحلوى والكعك ويداها يدا ملاك-، كنّ ثلاثتهنّ في صالة ريتا، في الجانب الداخلي من بوابة الشارع، حيث التلفون المعلق على الحائط، وحيث لا متسع إلا لمنضدة وكرسيين ومدفأة. أحضروا لإينيس كرسياً آخر،

واحداً من تلك المذهبة ذات المقاعد المنجدة بالدمقس القرمزي لتجلس عليه برهة. ظهرت دورا تحمل علبتين. فتحت العلبة الأكبر: حلوى صفار البيض، قطع من الكعك، حلوى بياض البيض، حلوى المكسرات، حلوى الأمراء، ما أبرع دورا في عمل الحلوى، سيدة إينيس، قالت لها ريتا وهي تخرج الإبريق من الموقد لتضع المتة فيه.

- ذوقي...

ذقتِ.

- ما أطيبَ حلوى المكسرات!

- لكنّي سأقول لك، دورا، إنني أجد أنّ كعك قهوة الموكا هذا ليس بجودة العام الماضي، من يدري لماذا.

- لقد أكثرتُ من القهوة.

- فاتني أن أقول لك، سيدة إينيس...

- ماذا؟

- اتصل الأب آثوكار.

- لماذا؟

- سيكون هنا غداً عند الساعة الحادية عشرة بالضبط.

- آه، ربّما لكي أوقّع الأوراق الخاصة بمصلايَ.

- لأجل ذلك.

- ولم يتصلوا بشأن البيت؟

- دون خيرونيمو.

- ماذا قال؟

- سأل عن موعد ذهابك إلى بيته.

قهقهتِ. فتحت العجائز عيونهنّ وقد فوجئنَ، كيف يمكن، بعد حياة القصر، كما يقولون، وبعد أن عاشا وحدهما مع دزينة من الخدم،

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد ٢١٥

أن تأتي للعيش هنا ثم تضحك لأنّ زوجها طلب منها أن تذهب للعيش هناك، ولكن سيدة إينيس، لأجلّ الربّ، نحن نتمنّى أن يكون معنا شخص مهتمّ بنا فنحن وحيدات، ولا أحد يفتقدنا أو يهتمّ بحالنا ولا بما يحدث لنا، طبعاً ما عدا الأم بنيتا، بالطبع لا نريد أن تتركي البيت، لأنّهم سيهدونه حينها وسيرمون بنا إلى الشارع لنتسوّل، ولكن يجب أن يكون لنا طفل لنتسوّل به ولكي يعطونا نقوداً، فالناس من دون الطفل لا تعطي ونحن من أين سنحصل على طفل. ركلت ريتا دورا من تحت المنضدة كي لا تتحدث عن أشياء لا يجب الحديث عنها أمام أناس من مثل السيدة إينيس، فقد تستاء، هي لن تفهم، لن يفهمنا أحدٌ أكثر مما نفهم نحن، عليها أن تكون واحدة منّا لكي تفهم وتؤمن بطفل إيريس التي تعاني حين تنام معها لأنّ إيريس تعذبها، ما زالت تطردني كلّ ليلة لكي أخرج إلى العراء ولا تدعني أدخل حتى الفجر، لأسقط منهكاً ذاوياً في أحد الممرات، في الكرسي القوطي القديم الذي كان في <هول> بيت أمي في شارع الثامن عشر، كيف لا ينفعكِ، أمّاه، وإن لم ينفعك بيعيه في المزاد وليأخذوا ثمنه تبرعاً منّي لمدينة الطفل، ولكن لا يأتينّ أحدٌ ليطلب منّي المزيد من المال بعد ذلك، لم أستطع حتى أن ألمح إينيس، يقولون إنّها وصلتْ في حالة يرثى لها، أموت رغبة في رؤيتها، لكنّها حين يقرع الجرس تختبئ كما يخبّئون حصّالة النقود، جئت هذا الأسبوع مرّة واحدة وفي الأسبوع الماضي مرتين، لكني لم أحظَ حتى بلمحها، صديقاتي لا يصدقنني حين أقول لهنّ بالتلفون إن إينيس تهرب وتختبئ وكأنّها مصابة بالجذام، يقولون، طبعاً ربّما بها جذام، ولذلك حبسها خيرونيمو بحجّة أنّها نذرت نذر فقر، فلتخدعْ سوانا بهذه الدعوى، وكأننا لا نعرف أنّها كانت جمّاعة للملابس المستعملة وإن كنتُ سمعتُ أنّها الآن شيباء شعرها مصفف في كعكة وترتدي فساتين سود تبدو بها مثل قريبة خوري القرية، ماذا عسى خيرونيمو

أن يقول، رائعة، الأسبوع القادم عليّ أن أذهب مرة أخرى إلى البيت لأخذ قياس شبكة للنوم وسأكلفها بعمل وسائد لها، بالطبع فإنّ من رابع المستحيلات أن تترك إينيس نفسها على ذلك المظهر، المسألة مسألة القليل من الاهتمام، انظرْ إليَّ فأنا أكبر منها بثلاث سنين لا بسنتين. لم يتمكنوا من رؤيتك لأنك تختبئين ما إن يُقرع الجرس. وحين لا يقرعه أحد تمضين المساء مع ريتا، جنب التلفون.

- وهذه العلبة الأخرى، دورا، ما هي؟

- مضمار سباق للكلاب أهداني إياه الطفل الأصغر.

- لنرَ ذلك؟

- أنا أجيدُ لعب سباق الخيل، لكنّي لا أجيد سباق الكلاب. ربّما تلعب بالطريق نفسها.

- أهداني الطفل مضمار سباق الكلاب لأنّه فقد ثلاثة كلاب ولم يبق غير هذه الثلاثة، هي من البلاستيك، هذا أحمر، وهذا أزرق، وهذا أصفر.

- كلبة.

- ماذا تقولين، سيدة إينيس؟

- أقول إنّها كلبة.

- وكيف عرفتِ ذلك؟

- لأنها أفضلُ في الركض.

- هل تريدين اللعب، سيدة إينيس؟

- نعم.

- ولكن كيف؟ الطفل أهداني المضمار لأنّه فقدَ أيضاً الزهر ولا يمكن لعب سباق الكلاب ولا سباق الخيل من دون زهر.

- يقولون إنّ ماريا بنيتيث عندها زهر.

- لِمَ لا تستعيرينه، دورا؟ فأنا أتشوّق لرؤية كلبتي الصفراء تركض، لأرى ماذا يحدث.

حين ذهبتْ دورا فتحت أنت ساقيك، أسندت كوعيك على ركبتيك وبسطتِ يديك فوق النار. بعد ذلك، قلت لريتا، وأنت حريصة على ألا تثيري ريبتها، أن تتصل ببيتك بالتلفون، وأن تسأل عن خيرونيمو من دون أن تقول له إنّها هي على الخط، وأن تطلبَ منه بتكليف منها أن يرسل غداً لعبة الليدو، ولعبة الداما، ولعبة الدومينو... المهم، كلّ الألعاب التي يجدها أو التي تخطر على باله. أدارت ريتا الرقم. أنت بقيت تنتظرين جانباً.

- ألا يردّون؟

- لا.

- ما أغربَ هذا!

- لماذا؟

- لأنّه في هذه الساعة يكون في البيت، مستلقياً يستمع إلى نشرة الأخبار السياسية في الإذاعة، والتلفون بالقرب منه. ثمّ إنّ جميع الخادمات...

- الآن... آلو!

تعتذر ريتا، وقد أتعبتها عباراتُ التبجيل والابتسام، فكأنّ دون خيرونيمو ينظر إليها من خلال الجهاز، فهي تخشى أنّها أيقظته، لا، لا لم توقظه، تتكلم مع ريتا، بوابة البيت، يسلّم عليها دون خيرونيمو ويقول لها إنّه يعرفها لأنّه تكلّم معها عدة مرّات مؤخراً، وكيف حال إينيس، إنّه يفزع لأنّهم حين يتصلون به في هذه الساعة في البيت فلأنّ شيئاً ما حدث لإينيس، لا، سيدي، كيف يخطر هذا ببالك، إنّ السيدة على خير ما يرام، على خير حال من الهدوء والفرح، تأخذ

إينيس التلفون من ريتا لتسمع صوتَ زوجها وتعيده لها لكي ترد ريتا، تتركهما يتكلمان برهة قليلة أخرى ثم تعاود أخذ السماعة منها لتسمع صوته، ثمّ يتوادعان ويضعان السماعة. تأتي دورا معٍ ماريا بنيتث. غرفة البوابة الصغيرة تتسع بالكاد للنسوة الأربع. ريتا تقطب حاجبيها.

– ما الذي جاء بهذه؟

– لصقت بي. لم تشأ أن تعيرني الزهر إلا بشرط أن ترافقني. كانت نائمة. واضطررتُ إلى الانتظار لتلبس ثيابها وتأتي معي.

– ما أثقلها من عجوز!

– يا إلهي، سيدة إينيس!

– ماذا؟

– تكلّمت كما تتكلم ريتا.

– مرة ثانية.

– ما أثقلها من عجوز! حشرية، لا أدري ما الذي تريد أن تتطفّل عليه في غرفتي الصغيرة من دون دعوة من أحد. إن لم تستطع الواحدة أن تثبت في مكان واحد، وليست هذه كلماتي، فلا بدّ أنّ رائحة الحلوى جذبتها...

يستمعن منبهرات إلى صوتك وإلى عبارات العجائز التي تنطقين بها. يضحكن بقهقهة، حتّى أنت تضحكين مقهقهة. تقولين لهنّ إنّك قادرة على تقليد جميع الأصوات. صوت دورا. صوت ريتا. صوت ماريا بنيتث. بل تستطيعين تقليد صوت بريجيت، التي سيمرّ عام على موتها. يلعبن لعبة الحزورات. تخرج ريتا من الغرفة ويغلقن الباب. تبقى الاثنتان الأخريان مع إينيس في الداخل وهي تقلد طريقة ماريا بنتيث في الكلام: ماريا بنتيث، تحزر ريتا. ثم تخرج ماريا بنتيث. تتكلم إينيس مثل دورا: دورا، تحزر ماريا، كم هي مسليّة هذه اللعبة، إنّها

كالسيرك، لنلعبها في يوم من الأيام مع عجائز أكثر، مع جميع العجائز حين نكون مجتمعات في المطبخ بعد قداس يوم من أيام الأحد ومع اليتيمات اللائي سيتسلين كثيراً بهذه اللعبة الجديدة وبالألعاب التي قال دون خيرونيمو إنّه سيرسلها مع سائقه غداً. واقترحت دورا:

– أراهن أنّ دون خيرونيمو سيعرف من التلفون أنّ حضرتك لست ريتا.

– أراهن أن لا.

– أراهن أن نعم.

– على ماذا تراهنين، دورا؟

– على المضمار.

– هيّا.

– وإن فزتُ أنا؟

– سأعطيك هذا الفستان الأسود.

– ليس إلى هذه الدرجة سيدة إينيس.

– وليس لديكِ أكثر من ستة فساتين سود.

– أراهنكِ على هذا الفستان الصوفي، إنّه سويسري، وجيد، جيد الدثار، سيكون مناسباً لك، مقابل المضمار التي أهداك إياه ذلك الطفل.

– طيب.

تدوّرين رقم بيتك. تنتظرين قليلاً. إنّه هو. ماذا تريدين، ريتا، ماذا حدثَ مرّة أخرى، لقد أقلقتني لأنّي متأكد من أنّ شيئاً ما جرى لإينيس ولا تردن أن تخبرنني به، لا، لا، كيف يخطر ببالك، دون خيرونيمو، هي فقط تشعر بالبرد وتريد أن ترسلوا لها معاطفها الجلدية، معطف

الفيزون الذي تقول إنّه متين ويتحمّل، معطف الاستراخان، وأيضاً الصندوق الصغير التي يضمّ حليها التي هي ليست بالكثيرة ولا بالمهمة جدّاً، ولكن تقول السيدة إينيس، الرحيمة، التي عملت نذراً عليها أن تسدده بكل حليها الآن بعد أن التزمت بنذر فقر، فالواحدة لا تستطيع أن تمتلك جواهر حين تعمل نذر فقر تقول السيدة، دون خيرونيمو. ماذا تريدني أن أقول لها، دون خيرونيمو؟ أقول لها غداً الساعة الثانية عشرة؟ أقول لها إنّ حضرتكَ ستأتي؟ هي لن تتمكن من رؤيتك لأنّها تريد الاستراحة، ربّما لاحقاً، الأسبوع القادم أو التالي، الآن لا لأنّها تريد أن تصلي كثيراً وتتوب من كلّ ذنوبها وإن كنتُ لا أدري عن أيّة ذنوب تتحدث سيدة كاثوليكيّة بقدر السيدة إينيس، طيب، أرسلْ حضرتك كلّ شيء، الألعاب والصحون وعلب الحلي غداً الساعة الثانية عشرة مع السائق. ولمَ لا، دون خيرونيمو، وحضرتكَ أيضاً اعتنِ بنفسك. وعذراً للإزعاج، سيدي، فأنا لم أفعلْ ما فعلتُ إلا تنفيذاً لأوامر السيدة إينيس. وضعت السمّاعة: حضراتكن العجائز الأربع أطلقتن قهقهة وبينما كنتنّ تضحكنَ وتدمع عيونكنّ من الضحك، أنت ذهبتِ لعمل طرد يضمّ مضمار دورا.

- الزهر هو زهر ماريا بنيتث.

- خذيه، ماريا.

- شكراً سيدتي.

- لأجل ماذا تستعملينه؟

- كنتُ أحتفظ به.

- هل ألعبه لك؟

- على ماذا؟

- على لعبة المضمار.

– مع من؟

– كما تريدين.

– هل سيناسبني ذلك الفستان؟

– هل ألعبه لك ضد زهرك؟

– طيب، ماريا، أنت الكلبة الحمراء، وأنا الكلبة الصفراء. خسارة أن تكون هذه الحيوانات عادية جدّاً، من البلاستيك، لمعرفتي به فمن المؤكد أنّ خيرونيمو سيرسل لي غداً الشطرنج الصيني ورقعة داما من العاج والأبنوس، فهكذا هو غفلة وتكبّراً. ولكن انظري، دورا، رقعة المضمار هذه قديمة جدّاً، إنّها قذارة، ألا ترين أنّها تنشطر من نصفها هنا من حيث تطوى، وهو المكان الذي تنشطر فيه دائماً رقع المضمار، غداً، حين أجد فسحة قليلة من الوقت سأخيطه لكي لا يتمزّق.

– أنا خائفة، سيدتي، لا تتكلمي مثل بريجيت!

– أخشى أن تحسب هذه خطيئة، هي ميتة من سنة! إنّها تقلّد حتّى صوتها العجوز!...

– عجوز أنا.

– لكنّكِ لست ماريا ولا دورا ولا ريتا ولا بريجيت؛ حضرتكِ هي أنتِ نفسك...

– لكن في مقدوري أن أكونَ بريجيت.

– كيف؟

– أطفئن الأنوار.

– مستحيل...!

– أماليا، يا امرأة، ناوليني علبة البسكوت واذهبي إلى الأم بنيتا وقولي لها أن تأتي إلى هنا برهة حين يسمح لها وقتها فعليّ أن أخبرها

بشيء، ولكن لا تكلّفنّ نفسها بسببي، لتأت فقط حين يسمح لها وقتها...

حينئذ تضحكين مثل بريجيت، والعجائز الثلاث، عابسات، مركونات، ينظرن إلى فكك المتمتم من دون أسنان، إلى يديك اللتين تحركينهما مثل يدي بريجيت، البنصر مرفوع قليلاً، يترجينك ألا تفعلي ذلك، فذلك يخيفهنّ، وحينها تعاودين الضحك وتقولين لهنّ هيّا، أيتها الصبيات، قرّبنَ الكراسي لكي نلعب، لا، سألعب مع ماريا فقط، هيا، صاحبة الرقم الأعلى تبدأ. أنا، ستة. أنت، أربعة، أنا أبدأ: ستة مرة أخرى، ممتاز، الدور لي مرّة أخرى: أربعة، إلى الماء، إلى الخلف. أنتِ، ماريا، لا تحرّكي الزهر كثيراً بيديك الخشبيتين، ترمين الزهر، كلبتكِ تتقدم، تركض، تخبّ، تسبق، كلبتي لا تستطيع، تسقط في الماء مرة ومرة ومرة، يا لسوء الحظ، لا أستطيع المرور، تركتني في الخلف، كلبتي الصفراء عجوز، لا تنفع في شيء، عرجاء، منكمشة، لا تركض، تجرّ نفسَها بالقوة، ولا تستطيع تقريباً الخروج من الماء بينما تصل كلبة ماريا من دون عناء إلى خط النهاية.

- فازت ماريا!

- فزت...

- ذلك لأنّه كلب!

ستلقين بالحيوان البلاستيكي إلى الموقد، يتشوط، ترينه يحترق بعينيك المهتاجتين اللتين تنتظران أن يفنى في موجة من دخان منتن الرائحة، أن يذوب وهو يصرّ فوق الجمر، تتهيجّ العينان وتحكان من جرّاء دخان البلاستيك، ما أنتن هذه الرائحة، قد تكون رائحة كبريت، ما أكثف هذا الدخان، في تلك الأثناء تعرّيكِ العجائز في عمود الدخان، ينزعن عنك فستانك الصوفي الأسود الجيد الذي

ربحته ماريا، سيلزم أن آخذ القليل من كم الإبط، رأيتك في الدخان، إينيس، جسمك العاري يرتجف، نعم، رأيته، رأيته، لا تستطيعين أن تنكري أنني الآن نعم رأيت جسمكِ وأنا أعرفه بعد أن عرّتك العجائز وهنّ يضحكن من خسارتكِ وخرجت مهزومة مطأطأة الرأس، بينما العجائز الثلاث يناشدنك وهنّ واقفات عند الباب الذي كان يطرح دخاناً منتناً أن تحتاطي من تيارات الهواء، انظري كيف تحمل الريح دخان الكلبة الصفراء، نوماً هانئاً، سيدة إينيس.

- يا ريت.

- تصبحين على خير.

أحمد

- تصبحين على خير.

٢٣

لا أريدُ أن تحرقي شيئاً الآن. سنحرق كلّ شيء حين يحين الوقت. لذلك أمضي اليوم مريضاً، قابعاً في مقعدي ذي الطراز القوطي القديم، في الشمس، أراقبكِ وأنتِ تنتظرين أن أتعافى لكي أساعدك: تجلسين في ممر المطبخ تقشرين البطاطس في قِدْرٍ مع عجوز رثّة الثياب يمكن أن تكون أم آنسيلما، وعجوزين أخريين يقصصنَ عليكِ وقائعَ جنازة بريجيت. تنهضين. تقولين إنّ عليكِ الذهاب لكنس غرفتك، لا، لا، سيدّة إينيسيتا، لا تكلّفي نفسكِ، سأكنسها لكِ أنا، وسأغسل لكِ ملابسكِ الداخلية، جواربكِ، الملابس البيضاء لا تنشر في الشمس لأنّها تصفرّ ولكن يمكن نشرها في الشمس إذا نُشرت بالمقلوب، لا يهمّ لأنّي لا أمتلك ملابس داخلية بيضاء وأريد أن أفعل ذلك كلّه بنفسي، لا أريدُ أن يعمل أحد نيابة عنّي. ليس لأنّي اتخذتُ قراراً بذلك، بل لأني وجدتُ نفسي ذات يوم أكنس غرفتي، أرتّب سريري، أغسل ملابسي وكأنها شيء اعتيادي. أقشّر البطاطس. قولوا لهم ألا يرسلوا لي مصلاي. فأنا أصلّي جاثية على الأرض كالأخريات، وإن كنّ هنّ يستطعن أن يمضين حياتهنّ من دون أسرار مقدسة، فباستطاعتي أنا أيضاً أن أفعل ذلك. تأتي السيدات، صديقاتي أو معارفي، للبحث عن أشياء في غرفهنّ ويسألن الأم بنيتا: ألا يقولون إنّ إينيس آثكويتيّا تسكن هنا الآن؟ لم أرَها منذ قبل أن تذهب إلى أوروبا! كيف هي؟ لماذا لا

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد ٢١٥

تقولين لها إنني أودّ أن أتكلّم معها قليلاً؟ هنّ لا ينتبهنَ إلى أنني موجود في الطرف الآخر من الباحة، يمررن من جنبي ولا يعرفنني ثم يعاودن الخروج، مغتاظات لأنّهن جئن للتطفل ولم يرينني: يقولون إنّ إينيس في حالة يرثى لها، تصوّري، على الرغم من ملايينها، وإنّها هرمة تثير الحزن، وهي التي كانت واحدة من أكثر النساء أناقة، أمر لا يصدّق، ولكنّ السيدات لا يتعرفنَ عليّ وهنّ عائدات من غرفهنّ - وكنّ من قبل بيجا وأولغا وروسا وتيري، أمّا الآن فهنّ السيدات -، بل اكتفين بلفة من سجادة الممر تجرّها إيريس ماتيلونا في العربة التي كانت للموديتو، لأنّه ما عاد قادراً على جرّها لأنّه ليس على ما يرام، فهو يمضي النهار جالساً على ذلك المقعد المزيّن برؤوس الوحوش الخشبية وتقتربين وتضعين يدك الرحيمة على ذراعي وتسألين: كيف أصبحتَ؟

أكتفي بتحريك رأسي. عيناي معتمتان. واصلت طريقك بعد أن نزعتِ يدك عن ذراعي المشلولتين من جراء الضمادات، جسمي المنهك من جرّاء طوافي الليلي، لو أنّك تعلمين، إينيس، لو أنّك تعرفين ما أعرفُ وما لا أريدُ أن أقوله لك، لا أستطيع أن أقوله لكِ لأنّه هو ما يجعلني مشلولاً ومنهكاً، ذلك هو ما يقلّص حجمي أكثر فأكثر، لقد عدتُ من الضآلة أنّ في مقدور عجوز فانية أن تحملني بين ذراعيها، لكنّي في الليل أخرجُ وأذهب إلى البيت الأصفر المقابل للمتنزه لكيّ أطلّ من النافذة وأسمع أصواتاً، دون خيرونيمو والسيدة راكيل يتحدثان، ستأتي السيدة راكيل اليوم، هي احترمتكِ لكنّ دون خيرونيمو يترجاها وهي توافق وستأتي لتقول لكِ بأنّكِ مملّة مع خيرونيمو، إينيس.

- ماذا تريدين أن أفعل؟

- لا أدري.

- أن أذهب معه إلى سريره؟

- كيف يمكنك أن تفكري في فعلة دنيئة كهذه؟

- هل رأيت؟

- ماذا؟

- إنّها فعلة دنيئة.

- هذه مجرد عبارة تقال...

ليتركوني بسلام، وخصوصاً خيرونيمو. للخدم الحق في التقاعد ولا أرى سبباً يمنعني من التمتع بذلك الحق، ثلاثة وستون عاماً، يا إلهي، لو أني أنجبتُ أبناءً، لو أني الآن جدّة لتركني خيرونيمو بسلام. لن يتركَكِ بسلام، أنت تعرفين ذلك، هو يريد أن ينتقم لأنّك لم تنجبي له الولد الذي كان يحتاجه ولن يدعني أستريح، فكرة أن يعود خيرونيمو ليمسّني جنسياً تصيبني بالجنون، لا أستطيع تحمل ذلك... تعانقينها حضرتكِ وتبكيان معاً وتطلبين منها ألا تبكي، إنّك لا تستطيعين أن تصدقي أنّ خيرونيمو وهو سيد محترم... ذلك ما تظنينه أنت، راكيل، إنّه يتربصُ بي في الخارج وطالما تربّص بي وانتظرني فلن أنعم بالراحة، الشيء الوحيد الذي يمكن أن أمتلكه هو الخوف والشيء الوحيد الذي يحميني هي هذه الجدران التي يريد هدّها، لذلك عليّ أن أمتزج بالعجائز.

- هل علمتِ بموت بريجيت؟

- سآمرُ بإقامة قداديس على روحها.

- شكراً. كانت تحبّك.

- وأنا أيضاً كنتُ أحبها.

- ما أغرب هذا، إينيس... كنتُ أشعرُ بك فظة، عدوانية، وكأنكِ

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

ما عدتِ تحبينني، ولكني حين أشعر أنّك أحببت بريجيت حقاً، أشعر أنّ حبّكَ يمسّني. فأنتِ لا تمتلكين عاطفة إينيس، فكأنّهم استأصلوها منكِ في عملية جراحية، طبعاً، العيادة في سويسرا، صار الجميع يعرف ذلك... يقولون إنّ إينيس كانت في سويسرا تصوّري... فلماذا ذهبت يا ترى وهي التي تنعم بصحة حديدية... في مصحّ... للأعصاب... نعم، يمكن أن يكون للأعصاب، ولكن هناك أشياء أخرى لا تعرفنها: إينيس لم تذهب إلى أوروبا لموضوع الطوباويّة، تلك لم تكن إلا حجة غياب، كان في مقدورها إتمام ذلك الموضوع في ظرف أسبوعين وهي أمضت هناك عاماً كاملاً. كان في مقدورها متابعة الموضوع بالمراسلة، يقول دون خيرونيمو للسيدة راكيل في مكتبته ذات المقاعد الرمادية، يريها «الدوسيه»، بل إنّه يؤكد لها أنّه يفهم أنّك دخلت المستشفى في سويسرا كلّ الوقت الذي كنت في حاجة إليه للتعافي من الصدمة – موضوع التطويب ما هو إلا تفاهة من تفاهات إينيس، المهم، لماذا عليّ أن أحشر أنفي–، لكنّ دون خيرونيمو يقول للسيدة راكيل شيئاً آخر لا أستطيع سماعه، ضجيجُ السيارات التي تمرّ، الخوف من أن يكشفوني وأنا أطلّ على بيت رجل غنيّ، يمكن أن يعتقلوني لذلك أختبئ حين يمر أحد ما، لا أتمكّن من سماع كلّ الحوار الذي أحتاج سماعه لكي أفهم، لا أسمعُ لأنّ الريح تهبّ وتسلبني القدرة على السمع، أنتما تتكلمان من خلف زجاج المكتبة المضاءة، النار في الموقد، صداقة سنوات، أكثر من نصف قرن، قرابة بعيدة، خلوة لا أتمكّن من لمسها، يتحادثان في أشياء ويتكاشفان أسراراً لا يستطيع أحد من هذا الطرف من الزجاج سماعها لأنّ الضجيج لا يطاق ولا ألتقط إلا نتفاً من الحوار الذي كان يجب أن أتبينه كلّه قبل أن تتكلمي حضرتك مع إينيس:

– ألم تحجّي إلى عذراء فاطمة وعذراء لوردس؟

– بلى. لكنّي لم أذهب إلى أوروبا من أجل ذلك، راكيل.

– أعرفُ ذلك، أنت ذهبت من أجل موضوع التطويب.

– لا، من أجل شيء أصعب بكثير. ذهبتُ لأشيخَ. لأفعل الشيء الوحيد الممكن لكي يتركني في سلام.

– لا أفهم...

– العيادة في سويسرا...

الدكتور آثولا بعينه الوحيدة التي تبرق من جشع. يداه المقشرتان، أصابعه المخلبية التي يستحيل التملص منها، طرحك على سرير يشبه السرير الذي أعرفُه، فتح لحمكِ، لعب بأحشائك، فحصها، أعاد ترتيبها، اختار بعض ما أثار اهتمامه منها، وبينما كان معاونوه المسوخ أيضاً من وراء كماماتهم البيض الناصعة يخيطونك، نزع هو القفازات المطاطية. إمبراتريث، التي ترتدي قلنسوة رئيسة الممرضات خفّت لمعرفة نتائج العملية:

– نزوة امرأة غنية لا أكثر.

– فيمَ ينفع استئصال الرحم في سن الثالثة والستين؟ لا أفهم ذلك.

– ذلك هو السر الذي كانت جميع النسوة اللائي ذهبن إلى بيت تشيمبا يردن معرفته، يا ابنتي.

– وما هو ذاك السر، كريس؟

– لماذا جاءت لكي يستأصلوا رحمها؟

– حسناً، عيادتنا هي الأشهر في كلّ أوروبا، ولذلك فليس مستغرباً أن ذهبت إينيس...

الدكتور آثولا نظر إليها بعينه الوحيدة المشوبة بالحنان، الحب، الاعتراف، الرضا، الكمال. وضع مخلبه على يد إمبراتريث المكتنزة.

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد ٢١٥

- ماذا كنتُ ساكون لولا طاقتك ودفعك؟ أنا مدينٌ لك بكلّ شيء...

- ليس بكلّ شيء...

- كنتُ سأظلّ أعبّ الخمرَ في رينكونادا، عبداً عند بوي، لو لم نهرب في الوقت المناسب في تلك الليلة في مقهى المركز...

إمبراتريث تتململ. كريس أصبح مع السنين عاطفياً. كثيراً ما يتذكر أوقاتاً أخرى.

- نعم، كريس، انظرْ. هل نحتفظ برحمها؟

- لأجل ماذا؟ لا.

بالطبع لا، فهو لا يفيد في شيء. تجلسين على طرف السرير وتغطين وجهكِ بيديكِ، بينما السيدة راكيل تستمع إليك مرتاعة لأنّك تختلقين أشياء، إينيس، لقد كنت دائماً مؤلفة حكايات، لديك ميول العجائز، لا يكلّفك ذلك غير أن تسمحي بأن تظهر العجوز فيكِ وتتمكن منكِ، لذلك تستمع إليك السيدة راكيل وهي تجلس مشدودة في كرسيها وحقيبتها في حجرها تمسك بها بقوّة بكلتا يديها لأنّها لا هي ولا سواها يمكن أن يصدقوا أنّك في سنّك ما زلتِ تحيضين كل شهر، تحيضين دماً وسخاً ومنتظماً يستعبدني كما يستعبد صبيّة صغيرة، في سنّي، فكأنه عقابٌ ينزل من الربّ على جرم كبير ارتكبتُه ولا أذكرُه، كلّ شهر، وبإلحاح، لا تعرفين كم صلّيتُ، ولا سيّما حين كنتُ أصغر سناً وكان عندي أمل في أن أنجب طفلاً لخيرونيمو، كنّا نصلّي ونصلّي مع بيتا بونثي، صلاة دائمة للعذراء، صلاة ربّانية بطلاقة وصلاة ربانية بالمقلوب، صلوات كنّا نخترعها لنلتمس نعمة ممّن يقدر على الإنعام، وشاحات قداس مع بقايا لا أدري مَن يكون كانت بيتا تخيطها لي في الصدرة، لن تتخيلي كيف كنّا نصلّي مع بيتا لكي لا يدنسني الدم هذا

الشهر، ليعلنَ هكذا طهارتي وقدوم بوي، عبدة دمي المدنّسة حتى الثالثة والستين، كفّي عن البكاء، إينيس، دعي السيدة راكيل تواسيكِ عبثاً لأنّك تواصلين البكاء والنحيب، مع كلّ شهر أملٌ في أن يشهد ذلك الشهرُ أخيراً نهاية أنوثتك، في أن تنالي السلام لتبدئي شيخوختك كما يحدث للجميع، ولكن ليس من دون هدنة، دم في كل شهر... مسخ، راكيل، مسخ. المشكلة هي أنّ خيرونيمو طالما فتن بالمسوخ.

– طبعاً. هل تتذكر سكرتيركَ الذي خدمكَ قبل سنوات، ذاك الذي كان نصف قزم لكنّه لم يكن قزماً وكانت شفته شفة أرنب سيئة الخياط، وكالأحدب... كارثة؟

– أظنّ أني أذكره.

– ما كان اسمُه؟

– نعم، أعرف من تقصدين...

– كان اسمه... انتظري...

– وماذا سأتذكر!

– كان غريباً.

– لكنّه لم يكن مسخاً مثلي، راكيل، نعم، أنت تعترفين بأنّكَ المسخ الحقيقي، إينيس، وما زلتِ كذلك على الرغم من عمليتك لأنّكَ ستؤكدين للسيدة راكيل أنّ خيرونيمو ما كان يتركك بسلام حتى قبل سفرك، وأنّ زوجك المسخ أيضاً كان يجبركِ حتّى الثالثة والستين من عمرك على مضاجعته كل ليلة وكأنكما صبية صغار، لن يصدقك أحدٌ، إينيس، وتلك الليلة ستذهب السيدة راكيل لزيارة خيرونيمو لاستجوابه، لا أسمع جيداً لأنّ تراماً معطوباً وشاحنة يمرّان في الوقت نفسه، سيارات، صفارات تعلن عن حريق وشركاء يتهامسون في الأعتاب وقرع نواقيس عذراء الرحمة، لا أتمكن من سماع ما توضحه حضرتكَ

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد ٢١٥

للسيدة راكيل وعليّ أن أعود راكضاً إلى البيت كي لا تفوتني اعترافات إينيس وهي تبكي، لكي أكتشفَ الكذبة على الأقل وإن لم أكتشف الحقيقة، خيرونيمو كان يبدأ بلطف، بحنان بالغ، بملاطفات كنتُ في النهاية أتسامح فيها، ولمَ لا، وإن لم يكن يبقى عندي إلا قليل من الصبر وكنتُ أتمنّى صراحة أن أصلي أو أقرأ جريدة المساء، لكنّه لم يكن يتركني. كان يلمسني أكثر فأكثر، شيئاً فشيئاً، تأملي، ما عادت الواحدة في هذه السن جميلة وهي في السرير، ولا وهي تسير في ممرات البيت، إينيس، حينِ تتوقفين بالقرب من مقعدي للحديث مع صور الوحوش، كيف حالكِ، موديتو، كيف أصبحتَ، يبدو أنّ هذا الرجل يصغر في كلّ يوم أكثر، مسكين، وتواصلين السير نحو غرفتك وتؤكدين للسيدة راكيل وأنتِ جالسة على طرف سريرك أنّ الواحدة مع تقدم السن تشعر بشيء من الخَجل، لا أدري، كلّ شيء منهار، الانهيار الكامل هكذا هو أن تشعر الواحدة بشيء من التقزز، أمّا خيرونيمو فلا، فكأنه لا يحسّ بذلك فلا يسمح لي أن أكون في سني ولا أن يكون لبرودة العجوز في جسمي حق الوجود، وشيئاً فشيئاً، وكل ليلة، كان يوقظ من أعماق جسد العجوز المتعبة المرأةَ الشابة التي لم أكنها من قبلُ ولا الآن. كان في مقدوري أن أسلّمه نفسي ببرود، كان أملي الأخير هو أن أقدر على فعل ذلك، ولكن لا، مستحيل، خيرونيمو لم تكن تكفيه تلك التمثيلية المألوفة في الكثير من النسوة، كان يغلبني، راكيل، ما أفظع ذلك، كان يوقظ ميتة، ويفلحُ في أن يبثّ الحرارة فيّ وأن أستجيبَ له على الرغم منّي وأنا ابنة الثلاثة والستين عاماً، كان كمن يضطر إلى أن يكلفني بعمل رهيب قوامه بث الروح في إينيس شابة ومتحمسة للتجسد فيها. من المتعب أن تنبعث فيك الروحُ كلّ ليلة.

– ما أقلّ ما يُبدي خيرونيمو من احترام! ولمَ لا يبحث عن امرأة أخرى؟

– ألا تدركين ما يبحث عنه؟

– أظنّ أنّه يبحث عمّا يبحث عنه جميع الرجال.

– لا.

– كيف؟

– ألم أخبركِ أنني ظللتُ كما أنا كلّ شهر؟

طبعاً، ذلك هو ما كان يهمّه فيك، إينيس، لا تظنّي شيئاً آخر، لم يحببكِ قط وأنت عرفت ذلك دائماً وتعرفين ذلك الآن ولكي تنتقمي سمحتِ للدكتور آثولا أن يجري لك عملية الاستئصال، وكان ذلك الشيء الوحيدَ الذي كان يربطه بك وبأية امرأة أخرى. خيرونيمو كان في مقدوره أن ينال المحبوبات اللاتي يتمناهنّ، تقولين للسيدة راكيل لإقناعها بأنّ ليس كلّ ذلك كذباً، بأنّ زوجك لم يبقَ هامداً بعد تلك الليلة، ستموتين خجلاً لو علمتْ صديقاتك بأنّ خيرونيمو لم يعاود لمسَك لأنّي لم أسمح بذلك، سرقتُ منه إمكانية أن يفعل ذلك، وجئتُ لأحتفظَ بها هنا حيث تربطني العجائز كلّ ليلة لإلغائي وأنا أسمحُ لهن بإلغائي لأني بذلك ألغي خيرونيمو، ذلك ما عليكِ أن تحكيه للسيدة راكيل بدلاً من هذه القصص، أنا سأقصّ عليها كيف كنّا نذهب إلى بيت السيدة فلورا، أورتنسيا وروسا وآمابولا يتداعكن معه ويحتككن به أمام ناظريّ فيُعدنَ له كلّ قوته، لا، أنت لا تريدين أن يعلم بذلك أحد، أنت تشعرين بالخجل لأنّه تركك بعد تلك الليلة في رينكونادا وإلى الأبد وأنت تقولين للسيدة راكيل إنّك ابتهلت إلى الرب أن يهيم خيرونيمو بأخرى لكي يدعك بسلام. لقد تركك دائماً بسلام. قلتِ لها إنّه كان يبعث فيك الروح كلّ ليلة بينما كنتِ أنتِ دائماً جثّة هامدة.

التجأتُ إلى أسفل أسكفة النافذة بعد أن بدأ المطر بالهطول، أسمعه تقريباً، من خلال السجف، أشعر تقريباً بأني احترقتُ بقوس

عينيه الكهربائي الأزرق، كانت تكذب، خيرونيمو يقول ذلك، كانت إينيس تكذب عليّ كثيراً، كانت تقولُ لي إنّ الدورة تأخرت هذا الشهر أسبوعاً، أسبوعين، وأنا لم أكن ألمسها لكي لا أفسد أمرَ ولدي. كنتُ أهدي لها الجواهر، الفيزون، كلّ شيء... إلى أن ما عدتُ أقدر على المزيد، راكيل، ما كان في مقدوري أن أواصل خداعه، ما كان في مقدوري تحمّل حلمه، وحينئذ، اعترفتُ له وأنا أبكي وقلتُ له نعم، لا، مرة أخرى لا، دم مرّة أخرى. ما كان في مقدوري أن أتحمّل منظره وهو يعاني من الأمل، لا يمكنك أن تتصوّري كم جعلتني هذه المرأة أعاني، راكيل، لكن حضرتكَ، دون خيرونيمو، تكذبُ أيضاً، لأنّكَ ما عدتَ تعاني منذ وقت طويل، حين قتلتَ الكلبة الصفراء في رينكونادا وغطستَ إلى الأبد في مقعدك في النادي وفي خطبكَ في مجلس الشيوخ... لذلك، راكيل، ولكي لا أرى المسكين يتعذب فقد تركتُ الأمور تمضي على ما هي عليه وليلة بعد ليلة، أقسمُ لك، ومن دون توقف، كان زوجي يستحضر في هذه المرأة العجوز التي هي أنا، العجوز التي ترغب في الراحة والسلام من أجل تقواها ومن أجل تفرغها للعبادة، كان يستحضر في جسدي البارد جسداً مشتعلاً يستجيب له، لكنّه لم يكن جسدي، ولأني لم أكنْ أنا، كنتُ أستجيبُ على الرغم من أنني كنتُ مستعدة لأهب أيّ شيء من أجل ألا أستجيب... لقد قتل فيّ الحق في ألا أكون مسخاً.

إنّه حوار تجرينه مع رؤوس الوحوش المنقوشة على الأريكة، تجسدات الخوف، صمّاء، خرساء، وربما عمياء، أعوان الفراغ، الفزع الذي يفضّل الالتواء والتحوّل إلى مسخ قبل ألا يصير شيئاً... انظري إلى هذه الباحة التي تملؤها الشمس: شمّرت العجائز عن أذرعهن لأنّ الطقس حار. أذرع وحش. أيدي وحش تحمل إبريق شاي مسود. تجلس إحداهنّ عند طرف الممر وتتثاءب ويبدو وكأنّنا

كلّنا، نحن والباحة والشمس، سنضيع في الممر الذي يبدأ من فمها ولا ينتهي في مكان. عجوز أخرى تربط كومة من المجلات. تمرّ الأم بنيتا، يبتسمن لها، يسلمنَ عليها، يسألنها أشياء، هي تنصرف لأنّ لديها الكثير مما تفعله وتغلق الباب. أشمّ رائحة الطعام المقرفة في المطبخ، وجوه توحدها خيوط تجاعيدها وأنت تعترفين بأنّها من إخفاقك كامرأة لخيرونيمو تصرّ على أن تهبه جدّة تربط نسبه بالربّ.

- هذا كلام عجائز، إينيس.

- ممكن، راكيل، لكنّ للعجائز قوى وامتيازات لا تعرفها الشابات، فوضى تسمح بكلّ شيء، غياب لواجبات يجب الإيفاء بها، لأنّ إيفاءهن بها أو عدم إيفائهن بها لن يهمّ أحداً. وحين يُبقي خيرونيمو عليّ شابة بالمضايقة والإلحاح فهو يسلبني امتيازات العجائز وقواهنّ. هل تذكرين أنني طالما كنتُ آتي إلى هذا البيت؟

- هوسكِ هذا في تكديس الأغراض التافهة... أنا لم أجد ذلك طبيعياً قط.

- أنت على خطأ كبير. ذلك طبيعي جدّاً، العجائز يكدسن الأشياء، وهو يحدث هنا بالطبيعيّة التي تمرض بها العجائز أو يشخن، كلّ يوم أقلّ نفعاً من دون أن يؤثر ذلك على أحد، يقيدن أسماءهن للاختفاء، السهولة التي يمُتنَ بها يحسدن عليها... أنا أغبطهنّ، إنّه شكل من أشكال الحرية التي لم أكن أقدر على شرائه، كنتُ أواصلُ عبوديتي لنظام، لحلقات تجدد الأمل إلى أن ما عدت أستطيع المزيد وذهبتُ إلى أوروبا بحجة الطوباويّة.

أستمع إليك ولا أستطيع تصديقكِ. أنت تختزلينها في حجّة غياب. لماذا تدخلين إذن يومياً إلى غرفكِ للبحث؟ عن أيّ شيء تبحثين؟ أم إنّك تبحثين لمجرد البحث كما تبحث العجائز بين الكراكيب لمجرد

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد ٢١٥

البحث؟ لقد نزع الدكتور آثولا منك كلّ إمكانية لتكوني امرأة، ما عدتُ أستطيع، راكيل، هو لا يستطيع، أنا حر، ما عدت «قادراً» على الإحساس، فأنا أنتمي إلى جنس مركّب هو جنس العجائز.

- وخيرونيمو يعرف؟

- طبعاً.

- كيف؟

- كتبتُ إليه بعد العملية مباشرة. فكّرتُ أنّ من الأفضل أن أبلّغه عند الوصول، لكنّي تنبّهتُ أثناء النقاهة إلى أنني لن أجرؤ على مواجهته، من المستحيل تماماً أن أنظر إليه وجهاً لوجه وأقول له ما فعلتُه من أجل أن أحرر نفسي... لا، لم تكن بي قدرة فقررتُ أن أكتب له بدلاً من أن أشرح له الأمر وجهاً لوجه...

- وحينها تخلّص من البيت؟ كلّنا ظننا أنّ ذلك كان واحدة من نوبات الغضب التي كانت تنتابه لأنّكِ لم تعودي أو شيء من هذا القبيل، نعم، سيدة راكيل، هو لا يلاحَظ عليه شيء من الخارج، وشعرَ بغضب ورعب وحاجة إلى التخلّص من كلّ شيء، طبعاً، ولماذا الحفاظ على البيت، كان وكأن هذا البيت يجسّد أمله... وما عاد ينفع في شيء، لكنّه لم ينفع في شيء البتة، إينيس، وهذا ما لم تفهميه قط، وهذا هو أهمّ ما في البيت وأكثر ما يخيف فيه، لذلك نحن جميعاً محبوسون في داخله ولذلك أغلّقُ بالبناء غرفاً ونوافذ وممرات وباحات، لكي لا يستخدمها أحد، لكي تختفي من الذاكرة، محو هذا البيت الذي يعلم خيرونيمو أنّك تحبينه... الآن الأوساخ، أكوام القاذورات التي كدسها الدلالون في الممرات مع بطاقات مكتوبة بقلم رصاص أزرق، انتهى المزاد، هذه الأكداس ستبقى هناك إلى الأبد، أنا في أريكتي، أكوام الوسائد الموبوءة بالعث تحمل الرقم ٢٠١٣، لن يدفع أحدٌ شيئاً، لن

يأتي غير بائعي الروبابكيا، لن يكون هناك مزاد، ولن تكون هناك مدينة الطفل، لن يكون هناك إلا عجائز بعدد يزداد باستمرار، سنعمل جرداً بالطقوس والعادات الغريبة التي تمارس بعناية، سنكره بعضنا البعض، سنستمع إلى ما تتهامس به عجوزان في الطرف الآخر من الجدار، من لديه القليل من المتّة، ظهرت في عين لوسي حبّة، وأفضل شيء لعلاج الحبّة هو دعكها بمؤخرة ذبابة، هكذا تزول، ليكن هذا هو عالمك، الأفضل ألا يأتيَ لزيارتك، أنا الآن أغلّق أبواباً كي لا يدخلَ أبداً إلى هذا البيت، أفضّل ألا أراه هنا أبداً، أفضّل أن أفقد نظري فضلاً عن سمعي ونطقي لكي لا أراه. أريد أن أحميك. ليس ما يريده منك هو الولد، إينيس، فالولد لم يكن موضع اهتمامه قط. ألا يثير فزعكِ التفكير في أنّ ما يريده هو «أنت»؟ لقد أحسنت إذ احتميت بأسطورة ذلك الولد، وتركت دون خيرونيمو خارجاً، يستغيث في العراء. أنت تخشين أن يأتي الآن ليلمسكِ ويواصل الرغبة في لمسكِ حتى من دون أمل، ذلك سيكون الأسوأ، فهو ما لا يمكن كبحه، ما لا أستطيع تحمّله... تقولين الكثير من الأشياء الغريبة، إينيس، ما عدت نفسك التي كنت من قبل، صديقتي التي عرفتكِ مدى الحياة، ابنة عمّي تقريباً، إينيس وراكيل هما الظفر واللحم، لا أتعرّف عليكِ ولا أنكر أنّك تولّدين فيّ شيئاً من التقزز ومن الخوف.

– ومن أين لك أن تعرفيني إن كنتُ أنا نفسي لا أعرف نفسي؟ فكأنّ أخرى تقول ما أقول وتشعر بما أشعر.

طبعاً، السيدة راكيل تنظر إليكِ وترى أنّكِ لستِ أنت. لأوّل مرة لا تكذبين، وإن كنت لا تعلمين. ما تركه الدكتور آثولا منكِ قليل: الشعر، وهو الآن رمادي، لكنّه نفسه، الأظافر تتشظى وهي تخمش الكوابيس ذاتها التي تخمّش في أساسي البيت العجائز لإنقاذ نفسها، لكي لا تسقط، لكي لا يأخذنها، لكي لا يحبسنها، وطبعاً جلدك،

سطحكِ، المهمل والملطخ الآن، لكنّه سطحكِ. ما لا تعرفينه هو أنّ الدكتور آثولا وإمبراتريث غيّرا كلّ شيء داخلَ كيس جلدك ذلك، أنتِ تظنين أنهما تركا شيئاً لكنّهما لم يتركا أيّ شيء، تتصورين أنّهما سلَباك رحمك فقط ولكن فيمَ سينفعهما إن كان عديم النفع، كانت تهمهما قطعٌ أهمّ، يصعب الحصول عليها، لزرعها في أجساد زبائن آخرين يدفعون لهما أكثر وهكذا يغتنيان كما اغتنيا من عيادتهما في سويسرا، عين آثولا الحاذقة ومخالبه التي تحسن الاختيار، الكمامة البيضاء، تركيز إمبراتريث التي تعمل الحسابات وترتّب الأفواج من خلف مكتب أبيض أعرفه في صالة بيضاء أعرفها، محاطة بالممرضات البيض اللاتي يرتدين كمامات ويتنقلن ساكتات بأحذيتهنّ المطاطية الخفيفة البيض لكي لا يزعج أيّ ضجيج المرضى الذين يأتون من جميع أنحاء العالم لكي ينتزع منهم المسخان ما يريدان أن ينتزعاه ويزرعا فيهم ما يريدان أن يزرعاه، يغيّران الكائنات، يستبدلان شخصاً أو عدة أشخاص بشخص، يشوّهان الناس، يصنعان كائنات تظنّ أنها نفسها لكنّها كائن آخر أو ربّما كائنات أخرى، يمزجان، يخلطان، يتبادلان، جميع التغييرات ممكنة في مختبراتهما البيضاء حيث لا احترام لوحدة الكائن، وفي صالة مبرّدة بيضاء، يحتفظان في قارورات من زجاج كتبت عليها إمبراتريث أسعارَ الأعضاء التي يسرقانها منّا جميعاً ويبيعانها بأسعار مرتفعة لأنّها في نهاية الأمر العيادة الأشهر في العالم كلّه، الأكثر نجاحاً، فمن كان سيتصوّر، كريس، أننا سنحصل على النجاح الذي حصلنا عليه، طبعاً أنتَ لم تتصورْه قط وأنا لستُ متأكدة من أنّك أردتَه، لقد كلّفني إخراجكَ من سباتكَ الطويل في رينكونادا جهداً كبيراً، إيقاظك وإقناعك، هيّا، هيا، كريس، هذه هي اللحظة المناسبة، إن لم نهرب الآن فسينتقم خيرونيمو منّا، هيّا، لننصرفْ من هنا، عليّ أن أعجّل، فإن

لم أعجّل فسيكون الوقت متأخراً ولهذا تركتُ حقائبي جاهزة في اليوم السابق من دون أن أنسى جزئية واحدة. في صباح اليوم التالي حملها باسيليو باكراً إلى السيارة التي كانت تنتظر مخفيّة على مبعدة من بيوت رينكونادا، خلف شجرات علّيق، لكي لا يراه بوي ويبدأ بطرح الأسئلة.

وبانتظار عودة العملاق ليحملها على كتفيه، وضعت اللمسات الأخيرة على <تواليتها> الصباحي، بطيئة دائماً، وأكثر بطأ في يوم كهذا. حاولتْ فعل ذلك بأقل ضجّة ممكنة كي لا توقظ كريس، الذي كان يشخر في فراش الزوجية. كان ينام كثيراً. في الواقع، كلّ الوقت تقريباً، حتى وقت متأخر من الصباح، قيلولة لا نهاية لها، وسنان في شبكة النوم أثناء النهار، تثاؤب عند الغروب أو بين صحن وصحن. ضجرٌ، كان كريس يعلل. لكن الواقع هو أنّه كان يمضي وقته هكذا لأنّه كان يشرب كثيراً: يوشك نَفَسُه أن يلتهب إن أشعل له عود ثقاب، عينه الوحيدة المعتمة، الجاحظة، المحقونة بالدم، وكأس الويسكي في متناوله دائماً. بالطبع يضجر. ولكن بذنبه هو: العمل، ما يسمّى عملاً حقّاً، طيب، لا شيء، منذ سنوات، مع بوي الذي صحّ الآن وكبر وصار ينمو مثله مثل أيّ مراهق... قليل من حبّ الشباب، التهاب اللوزتين في الشتاء، انخلاع كعب إحدى القدمين الواهنتين دائماً، وأشياء من هذا القبيل.

لقد اضطرتْ إمبراتريث أكثر من مرّة إلى أن تطلب منه ألا يكون غبياً وأن يكفّ عن إزعاجها بموضوع عيادته التي يحنّ إليها، وأن يتوقف عن ترديد كلامه عن ندمه على أنه جاء ليغرق في رينكونادا، وهي صحراء من حيث الحوافز التي تدفعه إلى استرداد طموحه القديم في الانتماء إلى طليعة تخصصه. اخرسْ. تصرخ به إمبراتريث: ضعيفُ الإرادة، هذا هو وصفُك، حتى لو زعمتَ أنّك تحنّ إلى نشاطاتك

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد ٢١٥

العلمية فأنت تفضّل قيلولتك، وشرابك، ومغامراتك العاطفية مع أيّة «أسمن امرأة في العالم». وما إن اكتشفتْ إمبراتريث المكيدة حتى راحت تغذيها بالخبز والماء حتى أفقدتها فتنتها. حين تزوجتْ منه ظنّت أنّها تزوّجتْ من شخص «ذي شأن»، من رجل علم حقيقي... لتنتهي إلى ما انتهت إليه: سكّير يشخر. في البداية، حين كانت شكوى زوجها تثير أشجانها كانت تقول له طيب، كفاك، لقد وفّرنا ثروة أودعناها في <بنك جنيف>، يمكننا إن أردتَ أن نهرب لنقيم العيادة في سويسرا، أنا سأساعدك لتحويلها إلى مركز يشعّ علماً ومعرفة على العالم كلّه. تلك المشاريع الكبرى في السنوات الأولى راحتْ تضعف إلى أن قلّصها الزمن إلى لاشيء. حين ترك خلفه ما كان كريس يدعوه «الحملة البطولية» لإنقاذ حياة المسخ الذي لولا يداه الخبيرتان، المسختان أيضاً، لمات، أراد نشر دراسة حول الحالة لكنّ دون خيرونيمو منعه من ذلك:

– دكتور آثولا، أنا تعاقدتُ مع حضرتكَ لكي تعالج ولدي لا لتستخدمه لكسب الشهرة.

واستقر الموضوع على لاشيء. تناول تلك الليلة ثلاث كؤوس من الويسكي بدلاً من كأس واحدة. بعد ذلك، كلّ شيء، مشاريع، طموحات، وانتهى كلّ شيء إلى لاشيء. كريس كان يقول لزوجته:

– دون خيرونيمو أفقدني حماسي.

– دعكَ من الترهات. أنتَ تشبه أومبرتو بينيالوثا، الذي كان يزعم أنّ خيرونيمو سرق منه إرادة تأليف كتابه الشهير، وأنّه كان مضطراً للتخلّص من خيرونيمو لاسترداد قوته.

لم تكن إمبراتريث راضية قط: كانت قد تزوجت من صفرٍ على الشمال، من سيد نكرة. كانت ترمي له بالكلمات الثقال المتواصلة،

وحين كانا حديثي العهد بالزواج كان الأمر ينتهي بأن يضرب الزوج إمبراتريث ثم ينتهي آنذاك بالمصالحة مع ملذات السرير الزوجي.

خيرونيمو فوضهما كليهما، باعتبارهما زوجين، وباعتبارهما كائنين ذكيين ومتحدين، ليتكفلا بمواصلة تجربة رينكونادا والوصول بها إلى مداها بعد اختفاء أومبرتو. كلّ المسؤولية تقع الآن على كتفيها المسكينين الأنثويين! كان عذابها الحقيقي هو في رحلتها السنوية تلك لتعرض على خيرونيمو بانوراما رينكونادا خلال العام الذي يوشك على الانتهاء: كمية الكذب الموجّه لإدخال الفرحة على قلب خيرونيمو من دون إغرائه بزيارة، كما اقترح هو ذات مرّة حين مرر يده عليها وهي ترسم له لوحة ورديّة عن الحالة... طيب، لم يكن سهلاً. فكرة أن يحضر خيرونيمو يوماً من الأيام إلى رينكونادا، تلك الفكرة المرعبة جعلت إمبراتريث تُسقطُ على زجاج <الكوافيرة> الغطاء الفضّي لقارورة العطر. استيقظ كريسوفورو وهو يتثاءب.

- قهوتي.

- صباح الخير.

- ما أشدّ ما يؤلمني رأسي!

- طبعاً، فالبارحة كنتَ في حال يرثى لها، وقد اضطررتُ أن أطلب المساعدة من باسيليو لإرقادك. تثاءب مرّة أخرى. عبس.

- إمبراتريث.

- ماذا؟

- قولي لي الحقيقة.

- حقيقة ماذا؟

- هل كان (جيفاس ريغال) هو ويسكي الليلة الماضية حقّاً؟

إمبراتريث، التي سمنت مع السنوات، كانت ترتدي مشدّ بطنها. هي الآن، لحسن الحظ، من يفرض القواعد وما عادت الحماقة التي فرضها أومبرتو بينيالوثا على جميع خدم بوي بالسير عراة سارية.

– نعم.

– أنت تكذبين. كان نوعاً رديئاً من الويسكي، وطنيّاً. لكي تسرقي مني نقودي فأنت تضعين الويسكي العادي في زجاجات مستعملة من (جيفاس ريغال).

ارتدى كريس رداءه المنزلي المعمول من مطرزات إيطاليّة مقلّمة. مسحت إمبراتريث على قفازيها المعمولين من جلد الماعز. كانت تعرف العلامات التي تسبق تلك العواصف التي ما عادت تمتلك عليها صبراً، لأنّها لن تنتهي إلى ما كانت تنتهي إليه من قبل. فخير لها أن تنصرف في أسرع وقت ممكن، ولا سيّما حين يكون كريس سيئ المزاج: كل شيء جاهز لكي لا تقع حوادث مزعجة في الأيام الأربعة التي ستمضيها في العاصمة، والتي ستنتهزها للاطلاع على بعض المجموعات، وماذا بقي لها من متعة غير تلك مع زوج كهذا.

– حسناً. أنا ذاهبة.

– بلّغي دون خيرونيمو تحياتي.

– سأبلغه تحياتك بكل سرور، أيّها الوسيم.

يتثاءب، وهو يلاحظ:

– كم أنت مضحكة بهذا الفستان ذي الطيّات! لا سنّك ولا قفاك يحتملان <مغامرات> عاطفية.

أحد المبادئ القليلة التي كانت تبقي على إمبراتريث حيّة وحيوية هو ذوقها الرفيع في مسائل الموضة. لذلك فإنّ تجرّأ ذلك الزوج، الذي وهبها الربّ إياه عقاباً لها على خطاياها، على انتقادها جعلها

تطلق كلّ ما كانت عزمت السكوت عنه: طبعاً ممتاز، هو مع مشاكله مع (جيفاس ريغال) ومع طيات الفستان، أمّا هي، نعم هي، الامرأة المسكينة الضعيفة، فقد كانت الشُجاعة الوحيدة التي تدافع عن جنّتهم بهذه الرحلة السنوية لتدبير متاهة الأكاذيب تلك، الراسخة مثل جدران طوب عتيقة توقع بها خيرونيمو، والإبقاء عليه بعيداً عن رينكونادا، الباب مغلق بالبناء، عاماً بعد عام تجددُ بناء الغلق وتحافظ على أسوار المسوخ من الدرجة الثالثة والرابعة، الذين كانوا، وهم يدافعون عن «النخبة»، يبقون على خيرونيمو في الخارج. ما الذي يمكن أن يقع لكريس، مثلاً، وللجميع، إن هي قررتْ هذا المساء، في المكتبة ذات المقاعد المخملية الرمادية العميقة، أن تخبره بحقيقة ما حدث في رينكونادا طيلة تلك السنين؟ طبعاً، ستنهار الجنّة التي لن يجرؤ أحد على الخروج منها، سيسمعون في الخارج الضحكات المؤلمة التي لم يسمعوها في عالمهم المغلق، بل التي نسوها. في مقدورها هي، بكلمة واحدة، أن تهدّ الرواق وتهدّم البوّابة: الحديقة بمسبحها الأولمبي وساحات التنس وظلالها الملونة، وضيعات الوديان المسكونة بالمسوخ من الدرجة الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة، المسوخ الذين راحوا في عقد من الزمان يصلون إلى رينكونادا مفعمين بالأمل، يقطنون أطرافها، يطردون سكانها الأصليين، ليحيطوها بطبقات وطبقات وطبقات من المسوخ الذين جاؤوا من كافة أنحاء العالم تجذبهم الأسطورة، متطلعين إلى بلوغ الدرجة الأولى من المسوخ، بتقليدهم للارتقاء وصولاً إلى طبقة «النخبة» المؤلفة من سكان عالم سعيد، الجميع فيه يعرف الجميع وتسود فيه قواعد تناسبُ الجميع لكن الآخرين يؤمنون بعقائد، ليقدموا بحسدهم وبطموحهم الحماية لـ «النخبة» المبهرة، ويفصلونها أكثر فأكثر عن الواقع البعيد للكائنات الاعتيادية... هي، إمبراتريث، كانت تستطيع أن تقول لابن عمها

جملة وتقضي عليهم بذلك. لكنّها، لحمايتهم، كانت تقدّم نفسها قرباناً كلّ عام بالنزول إلى جهنّم. وما كان له ولا لهم أن يظنّوا عكس ذلك، «كانت» جهنّم: لم تكن تلك الرحلة القصيرة التي كانت تقع كلّ عام مزحة. وكم من الدمع كلّفتها هذه التضحية حين عرّضت نفسها لنظرات الذهول التي كانت تلاحقها في الشارع ولضحكات بنات عمها العانسات اللائي لم يصدقن قط أنّ إمبراتريث قادرة على اصطياد زوج، وما زلن يضحكن على الرغم من أنّها اصطادت ولم يصطدن هنّ، الشعور مجدداً، وكل عام، بألم عجزها عن خداع لحمها غير المألوف، الاضطرار إلى تذكّر أنّها استعراض غريب، استثناء مستغرب... بينما هم... تبكي إمبراتريث... بينما هم ينسونه بسهولة متكاسلين، هنا، مختبئين. ماذا سيقول، أو بالأحرى ماذا سيفعل خيرونيمو إن قصتْ عليه هي ما كان يحدث... منذ سنوات عدّة...؟ قل لي، كريس، منذ متى؟ منذ أن رحلَ أومبرتو. طبعاً. ماذا سيفعل خيرونيمو لو رأى أصناف الطعام التي يلتهمها بوي؟ والحلوى الاستعراضية كقلاع حلوى المرنغي والمثلجات وكريستال الفواكه الملونة؟ والبرانس المخملية بلون البرقوق التي كان يحب ارتداءها، والبدلات الفخمة التي كان يرتديها في الولائم التي كان يدعو إليها الجميع، الموائد المحمّلة بصحون الفواكه المتعددة الطوابق، الشمعدانات ذات الأذرع الكثيرة، الديوك الرومية، طيور الحجل، تعبير الخنزير بالتفاحة التي في فمه ونظرته المعدنوسية؟ ليشربوا، ليأكلوا، ليسكروا! صرخات غير متجانسة مخنوقة بموسيقى أدوات متشابكة كان الأخ ماتيو يصنعها وفق تصاميم قديمة جدّاً، وكان هو نفسه ينفذها. بعضهم في أحضان بعض على السجادات والوسائد، عناقيد من الأقزام يصعدون إلى ثديي «أسمن امرأة في العالم» العارين، ليشفطوهما اثنين اثنين وثلاثة ثلاثة ويتدلوا من ضفائر العملاقات،

الحُدبُ يعضون مؤخرة بيرتا، بوي يجلدها، يجلد إمبراتريث بعناقيد العنب، ينثر السكر المسحوق على جسم ملتشور الذي كان يرقد سكران، وينثر النبيذ الأحمر على مليسا، ويرقّص روساريو بعكازتيها. ماذا سيقول لو أنّه علم بأنّ بوي منذ صغره كان يلاحق جميع النساء شاهراً عضوه الكبير، وبأنّهن كنّ، بأمر صارم من إمبراتريث، كائنة من تكون، بيرتا، هي نفسها، مليسا، عاملة البدالة ذات الأذن التي تشبه جناح الخفّاش، أيّة واحدة، يسمحن له بملاحقتهن قليلاً، لكي يستسلمن لرغباته بعد الصرخات التي يتطلبها الموقف، خلف أجمة؟ ماذا سيقول خيرونيمو؟

–

– طبعاً، لا تدري بما تجيب.

لا، لن يجيب أحد. وراحت عاماً بعد عام تزوّد خيرونيمو بتقارير عن النمو الوهمي لبوي، تركّز فيها على الخطوط العامة للمشروع الأولي الذي ظلّ نافذاً حتّى اختفاء أومبرتو. حين علم خيرونيمو بفرار سكرتيره كان على وشك أن ينهي كلّ شيء. جاء إلى رينكونادا للقيام بزيارة تفتيشيّة. لكنّ إعجابه باليمبوس الذي كان يسيطر على ذهن بوي ذي السنوات الخمس بلغ حداً أن قرر أن يترك كلّ شيء في يد إمبراتريث، ابنة عمه المحبوبة، والدكتور كريسوفورو آثولا، الطبيب النابه حقاً بدلالة النتائج. ومع اجتيازه مرحلة الطفولة إلى مرحلة الحلم ومن مرحلة الحلم إلى المراهقة، صار من الواضح جدّاً استحالة الإبقاء عليه في اليمبوس. كيف نجنّبه ألم الأضراس وتسكين الأسبرين الرائع؟ لماذا تؤلمني، لماذا تكفّ عن إيلامي، ما الذي يحدث لي وما الذي يتوقف عن الحدوث؟ كيف نخفي عنه برد الشتاء ودفء الربيع؟ لا تكفّ إمبراتريث من تكرار أنّها متأكدة من أنّ أومبرتو فرّ جبناً حين بدأ يعي أنّ أسلوب اليمبوس سيفشل لأنّ بوي له طبيعة لا يمكن التحكم

بها، أنّ كلّ شيء في الواقع لا يمكن التحكم به. أو أنّه لا يمكن التحكم به من وجهة نظره هو، لأنّها، إمبراتريث، كانت تتحكم به إن أردنا قول الحقيقة، على طريقتها، وقد تحكمتْ به طوال أكثر من عشر سنوات: بالكذب. كانت تكفي تلك الكذبات السنوية. وضعف ساقي بوي، وهي علّة لم تشأ قط معالجتها، أخفت إمبراتريث جميع وسائل الحركة من سيارات وعربات وحناطير وبغال وأحصنة وحمير ودرجات هوائية وعربات يد وكلّ ما يساعد على الحركة البشرية، وتركته حبيساً ضمن محيط قدرة ساقيه الضعيفتين، بل إنّها سمحتْ لبوي بالخروج إلى الحديقة وإلى حيث يريد، متأكدة من أنّ العالم الذي يمكنه التعرّف إليه يظلّ محدداً أوتوماتيكياً بضعفه. صدّق الجميع إمبراتريث:

– لا تقصّي عليّ حكايات. لم تكن هذه فكرة خيرونيمو. لا بدّ أنّها من بنات أفكار أومبرتو. المشكلة هي أنّ أومبرتو يريد أن يكون له سيركه الخاص به، يريد أن يضحك منّا، وبهذه الخدعة، من دون أن يعلم خيرونيمو نفسه بذلك، كان يعدّه، يعدّ خيرونيمو ضمن شخوص سيركه، لأنّ خيرونيمو في نظره هو من يحمل صفة المسخ أكثر من الجميع. المهم. الأساس ما زال قائماً: بوي لا يدري أنّ في الخارج عالماً من أشخاص قساة ومختلفين. أمّا ما عدا ذلك فترهات. أشياء ابتدعها أومبرتو، وهو كذّاب.

ذات مرّة، قبل سنوات، صرّح كريسوفورو آثولا، الذي حضر ثملاً إلى أحد الاجتماعات التي سبقت رحيل إمبراتريث إلى المدينة، أمام جميع مسوخ الدرجة الأولى:

– هل أومبرتو كذاب؟

– أومبرتو.

– المشكلة هي أنّكِ حاقدة عليه.

– من؟ أنا؟ ولماذا أحقد عليه؟

– لأنّه تركَكِ مُعلّقة.

– أنا؟

التزم المسوخ الصمت.

– طبعاً. قلتِ إنّه كان يريد الزواج بك. فلماذا، إن كان ما أقوله كذباً، كان لديكِ كلّ جهاز عرسك، حتّى فستان عرسك بذيله المطرز وتاجكِ، مهيّأ حين قررنا الزواج بين عشيّة وضحاها، بعد زيارة دون خيرونيمو الشهيرة؟

– أنا نادمة على الساعة التي...

– أتحداك أن تنكري أنّك كنت مغرمة به.

ولكي لا يترك صمتُ مسوخ الدرجة الأولى خجلها عارياً، أمسكت إمبراتريث بالثور من قرنيه:

– لا تلتفتوا إلى ما يقوله كريس المسكين، فهو مريض. صحيح أنني كنتُ على <علاقة> مع أومبرتو بينيالوثا، ولمَ النكران. لكني أريد أن أوضّح شيئاً: لم أكن قط مغرمة به حقيقة. إنّما تصنّعتُ ذلك لأنّ قصدي منذ البداية كان الإمساك بالزمام. كنتُ أتابع كيف ورّط ذلك السافل المريض نفسياً خيرونيمو... كان من اللازم إنقاذه. عالمٌ محدود وحاضر متواصل لا يتغيّر. من المستحيل أنّ كائناً مثل خيرونيمو يخترع أشياء كهذه. فالمسكين ليس على قدر كبير من الذكاء. رحلته الشهيرة إلى أوروبا لم تنفعه إلا باصطحاب <العاهرات>، شأنه شأن جميع أمريكيي الجنوب السفلة الذين يرقصون التانغو في تلك الفترة: ومن يدري من أين جاءه الزهري الذي جعل من بوي على ما هو عليه وسمح لنا بهذا الوضع المتميّز. المهم، ما أريدُ أن تفهموه هو أنّ خيرونيمو سيد طيب، عادي واعتيادي، ضليع في مسائل السياسة

الوطنية ويعرف الجميع. كان يمكنه أن يكتفي بإرسال بوي إلى المستشفى: فجميع الأسر لديها مجنون أو مسخ أو فاسد. لا. لكنّه كان اختراعاً من أومبرتو بينيالوثا للانتقام من خيرونيمو. هل تظنون حضراتكم أنّ هناك من لا يعرف أنّ سكرتير خيرونيمو، رفيق عربدة، ومنفذ أخسّ الخدمات، لم يكن مغرماً بإينيس، وأنّه فعل كلّ ما في وسعه ليسلبها من مخدومه؟ وحين تنبّهتُ إلى أنّ كره أومبرتو ينمو ويكبر حتّى صار خطيراً، تدخلتُ لحماية قريبي الغافل. وللمزيد من معلوماتك، كريس، فقد أمضيتُ علاقة رائعة مع أومبرتو.

كانت إمبراتريث تعود من العاصمة عاماً بعد عام لتقول لهم إنّ اهتمام خيرونيمو ببوي، بهم، برينكونادا، آخذ بالتناقص. لو أنّها أفلحتْ في أن يحررَ خيرونيمو وصية يجعلها فيها قائمة على بوي، حسناً، ليصبْه شيء من الخَرَف فيمنحها الولاية على بوي هذا العام، بل الآن، ويرفع راتبها ويودع مبلغاً كبيراً في البنك تحت تصرفها للإنفاق على شؤون رينكونادا.

مفاتيحها. حقيبتها. حافظة أوراقها. كان باسيليو ينتظر لحملها على كتفيه حتّى السيارة المخفيّة، لكي لا يسأل بوي... لقد أصبح مؤخراً لا يطاق بأسئلته الكثيرة. وصار يصعب إلهاؤه بالألعاب، بل بالحفلات والنساء والمسابقات الرياضيّة التي ينظمها باسيليو بطريقة تؤدي دائماً إلى أن يكسبها! لا، ما عادت الألعاب تكفي، تحولّ الآن كلّ شيء إلى لماذا ولأجل ماذا وكيف ومتى... تعقيد رهيب. (كورال بلوش دي ريبلون) أم (فلامنغو باريون دي دوروثي غراي)؟ (كورال بلوش). سترى إن كانت أقلام أحمر الشفاه هذا العام أغمق حقّاً: سيكون ذلك فظيعاً لأنّه لا يلائمها البتّة. تابع الدكتور آثولا، وهو يربط شريط صدريته، إمبراتريث حتّى المنضدة التي وجد عليه القهوة جاهزة:

– كم أنت أنيقة.

– لكنّك قلتَ لي للتو بأنّك تراني مضحكة؟

– ستقابلين من؟

– خيرونيمو، بالطبع.

– وهل تظنين أنّك ستغرينه بزينتك هذه؟

حرّكت إمبراتريث عينيها من غضب.

– هل هذا هو ما هداكَ إليه تفكيركَ؟

– لم تردّي على سؤالي إن كنتِ تنوين مقابلته.

– مقابلة من؟

– أومبرتو.

تنهدت إمبراتريث:

– هل لكَ أن تعطيني عنوانه؟

– عنوان من؟

– عنوان أومبرتو. إن عثرتُ عليه فسأقابله، لأنّك إن أردتَ معرفة الحقيقة الخالصة فأنا أموت رغبة في لقائه. حاولتُ أن أعرف أين هو وما هي أخباره، أعواني يطوفون أنحاء البلاد ليبحثوا لي عنه. لكنّه غير موجود. لقد اختفى. ابتلعته الأرض ولم يترك أيّ أثر. فكأنّه لم يكن له وجود قط. أحياناً أفكر... نعم، أفكر أنني اخترعتُه، حلمتُ به كما حلم هو بهذا العالم الذي بتنا أسراه. كانت الأمور مختلفة جدّاً حين كان موجوداً.

– نعم. كنّا نمضي وقتاً طيباً.

– هل تذكر الشاي الذي كنتُ أقدمُه؟

– وجلسات المساء في شرفته، والنسيم العليل حين يعود الحوار...

– وماذا عن الجدل حول الأفلام التجريبية للفرنسيين الشباب والأمريكان التي كانت بيرتا تطلبها لصالة العرض التي بنتها؟

- ممم... كان كلّ شيء له مرتبة أخرى...

- لذلك. فإن عثرتُ عليه فستكون النهاية.

- هل سترحلين معه؟

- لا أدري. وهل هذا يهمّك؟

كان كريسوفورو آثولا معتاداً على أن تثور أعصاب إمبراتريث قبل ذهابها للقاء خيرونيمو. مفهوم. مسكينة. من أين تأتي بكل ذلك الدفع وكلّ تلك الطاقة ولماذا؟ ترك كريس مناديل الطعام فوق المنضدة وانحنى ليقبّل الخدّ الذي قرّبته إمبراتريث منه.

- هل تريد أن آتي لكَ بشيء، كريس؟

- نعم. زجاجة (جيفاس) أصلي.

- أحمق.

- حظاً سعيداً.

- وداعاً، كريس، كن عاقلاً، يا بُنيّ.

٢٤

الأحد، في الصباح الباكر، فتحتْ إيريس له الباب: معطف الفيزون بلون الكاراميل على ذراعه، وصندوق الجواهر الجلدي في يده. سلّمها الأشياء. فرشتْ ورق جرائد فوق عربتي ورتبتْ فوقها كلّ ما جلبه السائق، لكي لا يتسخ شيء.

- انتظرْ.

عاد من السيارة بعلب من مختلف الأحجام، رقعٌ مغلّفة، علبٌ مليئة بقطعٍ تُصدر صوتاً، يبدو لي أن هذه هي لعبة الداما، علّقتْ ريتا وهي تهزّ مَحتوى علبة من تلك العلب بالقرب من أذن إيريس ماتيلونا، وهذا، ماذا عساه يكون، ما أكثر هذه اللعب يا إلهي، ماذا سنفعل بكلّ هذه المخترعات، لن يعود لدينا بعد الآن وقت ولا حتّى للضجر.

- كيف حال السيدة إينيسيتا؟

ابتسمتْ إيريس للسائق، على ما يرام، أكيد أنها لم تكن قط أحسنَ حالاً من الآن، حتى في بيتها، وإن كان هذا البيت هو بيتها أيضاً.

- سلّمي عليها. قولي لها إننا هناك نشتاق إليها كثيراً.

انغلق الحاجز. حشرتْ ريتا يديها المحمرتين بين طيات الفيزون، ما ألطفَ هذا الجلد، ما اسمه، ما أرقّه، لا شكّ أنّه دافئ، لذلك طلبت السيدة معاطفها الجلدية، مسكينة، هنا في البيت لا توجد تدفئة وهي بلا شك غير معتادة مثلنا، لنرَ، إيريس، جرّبي المعطف، لا، فوق

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد ٢١٥

الكتفين لا أكثر، لكنّي أنزعُ عنك المعطف الرائع لأنّه ليس لكِ، عليكِ أن تنبذي الترف، بل ألا تقتربي منه: هيّا، اتركنَ ذلك، إنها أشياء تعود للسيدة إينيس، سأشكيكنّ إلى الأم بنيتا، ولتنقلْ إيريس كلّ شيء إلى الداخل.

أسيرُ خلف إيريس التي تجرّ عربتي بعد أن فارقتني قوتي، أعبر باحة البوابة، ممر باحة المطبخ، حيث علينا أن نطرد العجائز اللائي يأتين لمعاينة الأشياء التي جاؤوا بها، انظري، أنطونيتا، فراء، يتحسّسنَ، يمسكن، ابتعدنَ، إنّها أشياء السيدة وستغضب منكنّ إن لمستنّ العلب، ما أجملها من علب بترصيع مذهب، أيّة أشياء في داخل علب كثيرة متقنة الصنع يبدو أنّها علب متاجر، باحة الزيزفون، أمرُّ مقابل المصلّى وأنثني نحو رواق باحة النخلة وأصلُ إلى بابكِ. أدق. تفتحين لي. رداء البيت الأحمر الذي ترتدينه مبقع، البطانة وسخة، ينقصه زرٌّ من أزراره. تذهبين لتمشطي لأنّك شعثاء، وحين ترينني تحشرين المشط في خصلات قفاك الرمادية، لكنّ عينيك العكرتين من نعاس تبدوان رائعتين حين تتسمران في الأشياء التي جلبتُها لك: لتتركْ إيريس لي معطف الفيزون وفرو أستراخان والصندوق الصغير هنا على شراشفي المبعثرة، لا داعي لإدخال العلب إلى غرفتي، موديتو، ليساعدنني في ارتداء الفيزون فوق رداء البيت ولنحمل كل هذه العلب إلى المطبخ، لا بدّ أنّ العجائز الآن يتناولن الفطور. نسير وراءك بعربتي المحملة بالألعاب على طول الممرات التي تكنسينها بحاشية ردائكِ الأحمر، المشط المحشور في خصلات شعرك، طيات فيزونك الفاخرة تتدلّى على ظهركِ الذي بدأ بالتحدب، وبين يديكِ الصندوق الجلدي الأزرق مزيناً بأزهار الزنبق الذهبيّة.

العجائز مجتمعات في المطبخ لتناول طعام الفطور: خبز، القهوة تفورُ في المغلاة، عطاس، تهامس، دخان منبعث من الخشب المشتعل

في جوف المطبخ الأسود، أشكال لا تفصح إلا عن ملمح، خط يرسم شبحاً، رؤوس وفكوك ترتجف لاإرادياً، منظور ذراع رسمها الضوء بين أسمال من دون أن يرسم اليد، أقداح من طلاء رماد، كوع بالقرب من الخبز المتناثر فوق خشب المنضدة المغسول والمستهلك، قطع من كائنات تعاود التشكّل لتنهض، دخلت المالكة، السيدة ترتدي ثوباً قرمزياً، ملتفّة بمعطفها الجلدي، تحمل صندوقاً مزخرفاً، يتبعها بهلولها الذي راح يوزّع علب الهدايا التي تتلقفها أيد مرتعشة، أظافر متشققة تمزّق الأغلفة، أصابع مرتجفة تنزع الأغطية عن العلب، انظر، رقعة لودو، كم من الوقت مضى وأنا لا ألعب هذه اللعبة، وهذه رقعة داما، وهذه لعبة الصورة المركبة، وهذه رقعة شطرنج، لكنّ الشطرنج لعبة صعبة، أنا أجد أنّها لعبة للرجال، سباقات خيل وسيارات وكلاب وقطع مربعة بيض وسود، برؤوس وثقوب، انظري كليمنتينا ما وقع لي، ماذا عساه يكون، ما أغربه، يبدو لعبة دومينو لكنّه لعبة اسمها (ماهجونغ) لا أحد يعرف طريقة لعبها لكن أحجارها جميلة جدّاً، ورق قمار، ورق قمار كثير، دزينات من شدات اللعب، حان الوقت فعلاً لكي لا نضجر أبداً لأنّ لدينا ألعاباً كثيرة ومختلفة نلعب بها طوال حياتنا، سيدة إينيس، جزاكِ الربّ عنّا خير الجزاء، حضرتكِ روح محسنة حقاً، أنت قديسة. قبلتْ عجوزٌ يدها، وجثت ثانية لتقبلَ حاشية فيزونها، وراحتْ تتشكّل مجموعات حول الرقع والشدات، إينيس تتجوّل بين المناضد تراقب نادي القمار، الحمام في الخارج ينقر في شمس الباحة الواهنة بينما تتجمّع الصور في الداخل، في الدخان الكثيف الخانق، على الرقع، وتخلط الأيدي أوراق اللعب في العتمة، دست بريسكا بورق جديد برّاق ليس كالدست بورقي الممزق الذي سأحتفظ به إذ ينقصه كارت الأميرة التي تحمل الهراوة، أنت تعطين، ثونيلدا، جاء دورك للسحب، أنا لا أريدُ اللعب مع إيرِنا لأنّها غشاشة،

تعالي إلى هذه المنضدة، إيريس، إن أردتِ لعب الدومينو أنا أعلّمكِ، لا، إيريس تلعب معنا لعبة سباق الخيل لأنّها لعبة بنات صغيرات، ولتلعب إيليانا معكنّ إن أردتن أو ميريّا، لقد نسيتن القهوة التي صارت تدخن والخبز وعيون الجمر المفتوحة والقداس الذي ستسمعنه في راديو بريجيت الذي يتصدّر البوفيه، يقول الأب آثوكار إنّ سماع القداس في الراديو ينفعنا لأننا عجائز ولأننا مرضى ويصعب علينا المشي، لكننا اليوم لا نسمع القداس لأنّ محسنتنا جلبت لنا ألعاباً وهي تراقبنا وتتجول بيننا بينما نلعب، مبتسمة للفرحة التي تراها في عيوننا الدامعة، تستمع إلى ضجيج زهرات اللعب وهي تحرّك في كوبها، أيد مشلولة تقريباً تنظّم أكداساً من الأحجار الخضر، ومن الأحجار السود للعبة يجهلونها، تسقط كريّات من الكريستال وتتدحرج على الأرض، تقرفص إحدى العجائز، تحبو أخرى من تحت الطاولة بحثاً عن كريّة كريستال بيضاء ضاعت بين الأرجل التي ارتدتْ خفافاً ممزقة، أقدام منتفخة، تخفي دواليها جوارب قذرة، لكنّ العجائز ذوات التنورات التحتانية المبقعة والعظام الناتئة في الأقدام لا يتنبهن إلى عجوز تحبو لأنّ كرة كريستالية من كرياتي، لونها كلون الحليب، تنقصني، أبعدي رجلكِ، كليمنتينا، وما أهمية أن تنقص كرة واحدة، هيّا، لنبدأ اللعب، بريسكا نعم، حمار، نعم، جيفلوتا نعم، أمّا البوكر فلا، ولا الجبل... لا، لا لأجل الرب، لا تلعبنّ لعبة الجبل لأنّها لعبة الشيطان وهي لعبة يعاقب عليها القانون أنا لا أدري أيّة لعبة هذه التي تُلعبُ بأحجار كثيرة الألوان، والرقعة الجميلة المحفوظة بعناية لكي تقرأ لي ريتا التعليمات المذكورة هنا في الغلاف فأنا لا أقرأ ولا يظنن أحدٌ أنني لا أقرأ لأنني لا أعرف القراءة بل لأنّ الحروف صغيرة ونظري ضعيف، هذه ليست قواعد الدومينو، ماريّا، حضرتك تخترعين القواعد التي تناسبك، ماذا تقولين عنّي من أنني لستُ إلا عجوزاً جاهلة، مضت ساعة القداس

ولكن لا يهم لأنّهم يبثون الصلوات على مدار الساعة وبعده هناك تلاوة لقداسٍ غاية في الجمال، ولكن يفوتنا سماعه أيضاً لأنّ أيدينا المتشققة تهزّ أكواب الزهر، أصابعنا الصلصاليّة تسحب آساً ذهبياً وتقدم الحصان الأزرق ستة مربعات ثم تخلط أحجار الرقعة لأنّ روسا بيريث غشّت، أنا لن ألعب ثانية مع روسا بيريث، لتذهب إلى طاولة أخرى، تحاجج أفواهنا الغائرة التي تنفخ غضباً بينما يتصاعد الدخان من النار وتبرد القهوة والسيدة إينيس تتجول، تتجول، تضع يدها لثانية على كتف ثونيلدا التي تبتسم لها، تتجول ولا تقول شيئاً، تنظر، تستمع، تتجول متدثرة بمعطف الفيزون بلون الكراميل، تجرّ رداءها الأحمر بين الطاولات حيث تتدحرج زهرات اللعب، تركض الخيل، يتصارع الملوك والفيلة، تتكدس الأحجار السود وتنتهي البيض، قولي سيدة إينيس ألم يكن هذا غشّاً؟ لا شكّ أنّ حضرتك تفهمين في سباق السيارات هذه، لا، لا أفهم شيئاً في سباق السيارات، لكنّي أفهم في سباق الكلاب.

– هيا، تنحيْنَ جانباً.

تجلسين على المصطبة. تضعين الصندوق الأزرق المزخرف بالقرب من الرقعة. تقولين إنّك الكلبة الصفراء. اللاعبات الخمس الأخريات يخترن حيواناتهنّ ويصففنها في اللعبة. تحرّكين كوب الزهر. تقلبينه على الطاولة، وتحته الزهر، قبل أن تقولي:

– حسناً، أجملُ ما في اللعب هو الرهان على شيء، فمن دون ربح أو خسارة تصيب أحدهم فاللعب لا يكون مشوقاً. إن ربحت الكلبة الصفراء فعلى كلّ واحدة منكنّ أن تعطيني شيئاً. على ماذا تراهنين، ريتا؟

– على شالي المربع.

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

– نعم. وأنت، أنطونيتا؟

– على هذه الصدرية الموردة.

– إنّها من الشيت. وروسا بيريث؟

– لا أدري... على نعالي...

– لنرَ؟

– انظري.

– إنّها بالية. وأنت لوسي؟

– على دبّوس الشعر هذا من نوع (كاري ليختيمو).

– هذا قليل.

– إذن على دبابيسي الأربعة.

انتزعت الدبابيس من كعكعة شعرها فأمطر شعرها رماداً على كتفيها. تضعين دبابيس لوسي فوق الصندوق الأزرق.

– وأنتِ أورستيلا؟

– على وشاح القداس.

– هو من قماش.

– لكنه كبير، ومطرز... كان لأمّي.

– نعم.

توشكين أن تكشفي عن الزهر، ولكن قبل أن تفعلي ذلك تنظرين إلى العجائز الخمس، واحدة واحدة. لا تكشفين عن الزهر.

– ألا تسألنني على ماذا أراهن أنا؟

– آي، يا سيدة إينيسيتا، لأجل الرب، لا تكلفي نفسك!

– لقد أهديتنا الكثير من الأشياء.

– كيف يخطر لك أن تقولي هذا سيدة إينيس!

– لا، لا، سيدتي...

يدك متشنجة فوق كوب الزهر. تتوتر حيوانات اللعبة بسبب بداية السباق. وجهك عابس، تلك العجائز لا يفهمن شيئاً عن الموضوع.

– لا، هكذا لن تكون اللعبة مسلية، يجب أن أراهن على شيء أنا أيضاً. أتعلمن ما أريد أن أراهنكنّ عليه؟ إن خسرتُ، فسأعطيكنّ معطف الجلد هذا، إنّه فراء جيد، فيزون، جميل جدّاً، انظرن، يمكنكنّ لمسه، متى لمستنّ شيئاً على هذا القدر من النعومة، إنّه رائع، الجميع يغبطونني عليه. ما عدتُ في حاجة إليه. ولماذا أريد أشياء كهذه ما دمتُ عملتُ نذر فقر. وسأعطي فرو استراخان إلى من ستكون الثانية. وسأعطي لوحة الماس التي أحتفظ بها هنا في علبة الجواهر إلى الثالثة، ولؤلؤ الأقراط إلى الرابعة وحجر الياقوت الأزرق إلى الخامسة. جواهري موجوة هنا. أتردن رؤيتها؟ هو أهداني إياها... لكني لا أحتاجها. لا، لن أريها لأحد إلى أن تربح إحداكن. حينها سأفتح علبة الجواهر. وليس قبل ذلك.

بينما كنت تعددين مراهناتك أخمدت الدهشة الأصوات في جميع الطاولات، ثمّ علا الضجيج، كراسي تسحب وتسقط، أحجار وكريات تتساقط، عجائز يتجمهرن حول منضدتكِ منجذبات برهاناتك الفاخرة، بكلمات الفراء واللآلئ والألماس والياقوت الأزرق الطنانة، جدار من الوجوه الهرمة كالطوب، متقشرة، عيون صغيرة مترمشة وأفواه مرتجفة، عجائز طامعات أمام ما لا يمكن تصوره، بطانة أسمال منتنة ورمادية، أو حتّى بنيّة، حوالي اللاعبات الست، أنت مبتسمة، بشوشة، كلّ العيون تتركز في يدك الموضوعة فوق كوب الزهر، التي لم تبدأ إلى الآن اللعب أمام النزيلات واليتيمات اللاتي يحبسن أنفاسهنّ، مذهولات أمام العظمة التي ستشهدها عيونهنّ. ترفعين الكوب:

– أربعة. واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة...

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

تهرب الكلبة الصفراء تلاحقها الكلبات الأخريات، يطاردها الفرسان المنتقمون الذين لا يتركون غير ذكرى عجاجة في ليلة مقمرة، تختبئ وراء شجيرات العليق التي تخدّش جلدها الجربان، تخوض في برك وبحيرات وقرون ومستنقعات لكنّها لا تفلح أبداً في إشباع الجوع الّذي يعصف بمصارينها لأنّ الزبالة التي تأكلها ليست كافية، والعظام التي تقرضها والنفايات التي تفلح في نهبها وتهرب لكي لا يعاقبوها كما عاقبوها دائماً، تجري في الاتجاه الذي يحدده لها النجم المتواطئ، تصعد تلالاً وتهبط في جداول وتجري وتجري لتفي بما عليها أن تفي به، ولن تفي به أبداً، تختبئ لكي لا تقطّعها الوحوش الضارية إرباً لأنّ تلك الوحوش تكرهها لأنّها دميمة وهزيلة وشرهة، لكنّ الكلبة الصفراء تجري وتجري عبر الحقول والصحارى وجدب الأراضي الصخرية وغابات الشوك التي تنمو لوخزها، وعبر الشوارع والساحات لتقترب قليلاً في الليل من البيوت، لتطوف لعلها تجد شيئاً، الكلبة سقيمة مقملة منكمشة، الكلبة الصفراء ليست شرسة، لا تهاجم أبداً، لا تعض حتى لو تمنّت ذلك، ولكن حين تسهو الكلاب الأربعة السود في لعبها لا تفوّت فرصة حشر نفسها بين أرجلها وسرقة رئتها، وفي الليل، في الساحة، تراقب عيناها المتوهجتان كما راقبت دائماً، وتعوي للقمر طالبة منه النُصح ومفاتيح الحل، وتبلغه بما لا يعرف وتطلب منه مساعدة فيمنحها القمرُ إياها لأنّ عمّال الحديقة لم يعثروا على جثمانها المقطع، الكلبة الصفراء تجري وتجري وتجري، ضعيفة لكنّها تجري من دون أن تستطيع الكلبات الباقيات اللحاق بها، دائماً في المقدمة على الرغم من الإنهاك، ومن الحاجة إلى الراحة، تنام طوال أجيال في الغابات حيث لا يعثر عليها أحد وحين تستيقظ تخرج لتبحث في المزابل عن طعام، الصبية يركلونها، هيّا، انصرفي، دعينا نتضاجع على راحتنا أيتها الكلبة القذرة لـمَ تنظرين إلينا، لا تمزقي

بنطلوني وإلا مزقتُ فمك بركلة، أنظر إليها، تبدو وكأنها كانت تلحس نفسها، وأنا أضحك وأنتِ تضحكين، أنا ينزل سروالي وأنتِ ترفعين سروالك ولا نستمتع لا أنا ولا أنتِ وإن استمتعتْ هي ربّما، تخرج مسرعة من جديد وتجري وتجري لاهثة، وقد تدلى لسانها وخلّفت وراءها عجاجة ونباح الكلبات الأخريات الغاضبات اللاتي لم يتمكنّ من اللحاق بها، جائعة دائماً لكنّها نشطة دوماً، أكثر حيوية وأكثر حذراً من الكلبات الأخريات، الكلبة ستصل إلى خط النهاية الكلبة الصفراء، والعجائز يضحكن ويصرخن ويراهنّ ويخللن أفواههنّ ويتشاتمن ويصرخن لأنّهن جميعاً يردن أن تكسب السيدة إينيس الطيبة معنا، ألا تربحَ الكلبة الحمراء ولا الخضراء ولا السوداء ولا الزرقاء ولا البيضاء بل أن تربح كما هو واجب، فالرابحة دائماً هي الكلبة الصفراء التي تجتاز أخيراً البركة بالرقم ستة، تلعب من جديد، أربعة، واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة وتسقط منهكة عند خط النهاية.

- ممتاز!
- عاشت الكلبة الصفراء!
- لقد ربحتُ!
- ربحت السيدة إينيسيتا!
- ممتاز!
- عاشت السيدة إينيسيتا!

وبينما تعلّق العجائز على تفاصيل الفوز، توقفت أنت. أخرجتِ المشط الذي كان محشوراً في قفاك، تمررينه في شعرك، ترتبين كعكة في قفاك ثمّ تبدئين بتمشيطه بدبابيس (كاري) التي تركتها لوسي فوق صندوقك: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة. أربعة دبابيس من دبابيس (كاري) الحقيقي، الجيدة، دبابيس أيام زمان، وليست دبابيس (كاري) اليوم:

العجائز يرقبنك بصمت. تنزعين معطفك الفيزون وتناوليني إيّاه لكي أضعه في عربتي. لا أقدر على وضعه إلا بمشقة. تنزعين من كتفي ريتا شال المربعات المنسل وتتدثرين به. ينظرن إليك مندهشات لكنّهنّ يفهمنَ أنّ الأمور يجب أن تسير هكذا. تنزع أنطونيتا بهدوء صدريتها وتضعها عليك، وتحنين رأسك لكي تعلّق أوريستيلا وشاح القداس كي يزيّن أثرٌ مقدس صدرك.

– وخفّا روسا بيريث؟

– لن يناسباك، سيدة إينيس.

– لنرَ؟ ائتينَ لي بهما.

تتحفى العجوز بينما تجربين فردتا النعل البالي.

– هما كبيرتان عليّ قليلاً ولكن لا يهم. سأرتدي عدة أزواج من الجوارب السميكة، وهكذا سيناسبانني.

– هل جلبت جوارب سميكة، سيدة إينيس؟

– لا، لكنّكن لا شكّ تمتلكن جوارب سميكة. لنرَ إن قدرنا غداً أن نلعب دستاً آخر من سباق الكلاب وراهنتنّ على جوارب سميكة سأحتاجها كثيراً.

– نعم.

– طيب. أنا ذاهبة.

نتبعكِ أنا وإيريس مع العربة. ومع ابتعادنا في الممر تتلاشى أصوات العجائز في المطبخ. تسيرين ببطء، منحنية تحت شالك، يسقط منك دبوس (كاري)، تنحنين، تتناولينه، وتعاودين غرسه في كعكة شعرك الذي انفلتت منه بعض الخصلات. تفتحين باب غرفتك وتشيرين عليّ بأن أصرف إيريس، إيريس، اذهبي، سأحكي لك فيما بعد، لكنّك لا تهتمين لا برؤية شيء ولا بأن أحكي لك شيئاً، لأنّك رحتِ تتلاشين،

أنت فقط القوة التي تجرّ عربتي التي ما عدتُ قادراً على جرها لأني أصبحتُ كما ترين، سيدة إينيس، ولكن قواي عادت إليّ حين اختفتْ إيريس وكشفتِ عن روعة صندوقك: تخرجين ياقوتك الأزرق، لوحة الألماس، لؤلؤكَ. تضعين الجواهر في جيب صدرية أنطونيتا وتعاودين غلق علبة الجواهر. تُسلمينني فرو الأستراخان، فأضعه بالقرب من الفيزون في عربتي، وأتبعك في الممر حتّى غرفك. تفتحين الغرفة الأولى. تشيرين بأنّ أعطيك المعطفين، تفتحين خزانة ملابس وتعلّقين الأسترخان والفيزون بين معاطف كثيرة قديمة بعد أن وزّعت الجواهر في الجيوب.

– هل في هذه الخزانة، موديتو، نفتالين كاف؟

أجبتك بنعم.

تبدين راضية. تغلقين الخزانة بالمفتاح، وباب غرفتك بمفتاح آخر. أتبعك في الممرات، عبر الباحات الصامتة، عبر الرواقات، بين مجموعات قواعد الأعمدة التي تحمل الرقم ٣٨٨، حوامل الأصص التي تحمل الرقم ٨٨٣، كراسي كثيرة مذهبة تتتابع في المسالك والممرات، أعبر من خلفكِ مقابل مغارة لوردس، ترسمين شارة الصليب، أرسمُ شارة الصليبَ، ونصل إلى غرفة البوابة. ريتا ترتجف، مكتوفة الذراعين في أحد الأركان.

– لونك أخضر، يا امرأة!

– من البرد.

لكنّ وجهها ليس أخضر، بل شاحباً، خافتاً، وكأنها تمحو نفسها. تتدثر إينيس بالشال. تدير رقم هاتف بيتها وتسأل بصوت ريتا المقطّع:

– هل هذا بيت دون خيرونيمو آثكويتيّا؟

–

– هل أستطيع التحدث معه؟

–

– تقول السيدة إينيسيتا أن توقظوه حتى لو كان نائماً، فهي تريد أن أبلغه طلباً أمرتني به السيدة، لا، له وليس لغيره، معذرة، ليس ذنبي، تقول السيدة إنّ الأمر مستعجل لذلك يجب أن يكون في الحال.

تتثاءبين. لا تنظري إلى المرأة التي سرقتِ صوتها. خيرونيمو ينام دائماً في ساعة متأخرة أيام الأحد، وأنت تعرفين ذلك، ويذهب إلى قداس الثانية عشرة عندما يذهب. مؤخراً صار يذهب قليلاً. تنتظرين.

– دون خيرونيمو؟

–

– نعم، دون خيرونيمو، معك ريتا، بخير شكراً، لخدمتك، وحضرتك كيف حالك. اعذرني أني أتصل بك مبكراً اليوم، وهو يوم أحد، لكنّ السيدة إينيس، التي باتت متطلبة وغريبة كثيراً، طلبت منّي أن أتصل بك في هذه الساعة بالتحديد، وإن كنتَ نائماً. أنتَ لا تنام جيداً؟ مع الأسف... تفتقدها. وكيف لا تفتقد زوجتك، دون خيرونيمو، لأجل الرب! نعم، إنّها بخير، لكنّها طلبت مني أن أطلب منك أن ترسل لها كلّ ثيابها إن لم يكن في ذلك ما يضايقك، نعم، كل ما لديها، تقول، الموجودة في الخزانة الكبيرة في غرفة نومها، لأنّها ستحتاجها، نعم، حتى البدلات الأنيقة. وأيضاً كلّ الزجاجات وأشياء الزينة، تقول، وكرسي الزينة أيضاً لأنّها تشتاق إليه، تريد أن تكون مرتاحة هنا ولمَ توضع هناك في البيت بينما هنا... نعم، سيدي، ولمَ لا، سيدي... وتقول أيضاً إنّ السرير الذي أعدوه لها هنا في البيت لا يعجبها وإنّها لا تستطيع النوم في الليل، لا تألف المكان، هي لا تقول لكنّي أراهن أنّها لا تستطيع النوم لأنّها نعم تفتقد حضرتك...

آي، حضرتكَ عفريت، دون خيرونيمو! لكنّي عزباء... إذن فالسيدة تقول إنّها تريد أيضاً أن ترسل لها سريرها مع المرتبة، والبطانيات والأغطية والمفارش والوسائد والشراشف، نعم، كلّ الشراشف مع طرّتها، هي تعرف كم طقماً من الشراشف هي، لذلك يجب إرسالها كلّها وكلّ مناشفها وشراشف الحمّام... لا، دون خيرونيمو، السيدة ستغضب، يجب أن يكون اليوم، هي تعرف أنّ اليوم هو الأحد ومن الصعب العثور على شاحنة لأنّ الناس لا تحبّ العمل أيام الأحد، لكنّها تطلب أن ترتّب حضرتك الموضوع، وتطلب أن يتمّ الأمر اليوم... طلبت منّي أن أقول لك إنّها تفضّل ألا تكلّم حضرتك لأنّها مبحوحة قليلاً، جميعنا هنا مصابات بنزلة برد بسبب الضباب الذي يهبط ساعة الصلاة، ما أغرب ذلك، في هذه الفترة من السنة، لماذا يا ترى، يقولون إنّ الجو يتبدّل بسبب القنبلة الذرية، ليس هذا قولي، إن كانت هذه الأشياء لا تنفع إلا في جلب المصائب، تقول السيدة إينيسيتا إنّها تأمل أن تكلّمك بالتلفون الأسبوع القادم عندما تشعر بتحسن في حالتها لأنّ لديها الكثير مما تريد أن تقوله لك، لكنّها تفضّل الاستراحة حتى تشعر أنّها تعافت، نعم، دائماً تتعب السيدة المسكينة، أو إنّ معنوياتها هابطة أو إنّها حزينة... عذراً لا أقول هذا لأني أريد أن أحشر نفسي في مواضيع ليس من حقي الخوض فيها، ولكن اعذرني إن قلتُ لك إنني أعتقد أنّ سبب ذلك هو أنّها صارت غريبة مع موضوع التطويب، نعم، يخطر في بالي أنّ السبب هو هذا ولأنّهم سيهدون هذا البيت الذي تحبه كثيراً...

يودّع صوت الخادمة العجوز زوجكِ. تضعين سماعة التلفون. تبتسمين لريتا، تقتربين منها، وتداعبين شعرها.

- هل أنت بردانة ريتا؟

- ليس كثيراً.

– لكنك ترتجفين.

– ربّما من الشيخوخة.

– الجو سيئ، كما قلت لزوجي...

– نعم، غريب.

– طيب. غداً لن تبردي. وسترين. لن تبرد أيّة من النزيلات. سيجلبون لي كل ملابسي، كلّ أشيائي، وسأعطيهن الفرصة لكي يربحنها مني وهنّ يلعبن سباق الكلاب، إلى أن يربحن منّي كلّ شيء وأظلّ أنا من دون شيء لأنّي لا أستطيع أن أتحمّل من الحياة المزيد بحصولي على أشياء كثيرة، أريد أن أجرّد نفسي من كلّ شيء، عندي معاطف جميلة، ريتا، سترين أنّك ستربحين أكثر من واحد، الكلبة الصفراء لن تستطيع الفوز على الجميع دائماً وأنتنّ ستربحنَ الكثير من أشيائي الفاخرة.

تبتسم ريتا سعيدة.

– طيب. أنا ذاهبة إلى حجرتي. هلا تكرمت بإبلاغ ماريا بنيتث بأن تحضّر لي شاياً ساخناً وأن تحمله إلى غرفة نومي؟

– ثقيل؟

– لا، خفيف.

– كانت بريجيت تحبّه ثقيلاً في الليل. أماليا كانت تعدّه لها. واضطروا إلى أخذها في سيارة الإسعاف بينما لم تكن المسكينة مريضة البتة، لأنّها كانت تبكي كثيراً بسبب موضوع إصبع ذلك القديس الذي كانت تقول إنّه كبير ملائكة ضاع منها!

– أماليا المسكينة.

– مسكينة. إننا نبحث عن الإصبع لنرسله إلى أماليا وهكذا تتحسن صحتها.

- تصبحين على خير، ريتا.

- تصبحين على خير سيدتي.

٢٥

لاحظتُ أنّ تلكَ الخطوط الرفيعة الحمر كندبٍ ترسم حدود عينيكِ وجبهتكِ وأذنيكِ وجفنيكِ وفمكِ راحت تتلاشى، حتّى تلك التي تُرى في يديكِ محيطة بأظافركِ مثل بقايا حزوز، وفي معصميكِ مثل ذكرى انتحارات، وقاعدة كلّ إصبع. تجاعيد... نعم، لَمَ لا، يمكن أن تفسّر على أنّها تجاعيد ولا أشكّ أنّ ذلك هو ما سيصير إليه حالها بعد أشهر: كم من التجاعيد ظهرت على السيدة إينيسيتا، تتهامس العجائز قصيرات النظر، إنّها ليست في السنّ التي تجعل منها هكذا، وبما أنّها عملت نذر فقر فهي الآن لا تحافظ على شبابها بعمليات تدليك، وعمليات تنظيف بشرة، ومراهم، وأقنعة تجميل ترخي عضلات الوجه، كالسابق حين كانت تفعل ذلك كلّ أسبوع. نعم، العجائز محقّات. لست أنت نفسك التي عرفناك من قبل. لقد نما قليل من الشعر في ذقنك وفي الشفة العليا اليابسة وبدأت بالظهور شعراتٌ سود، غليظة كالحبل، من ثقبي أنفكِ. لكنّك لا ترين هذه الأشياء إذ ليس من مرآة في غرفتك. كلّ حاجات زينتك، منضدتكِ الصغيرة، زجاجاتك، مشطك الفضي، كلّ أثاثك، سريرك، بطانياتكَ، فساتينكِ، رحت تراهنين عليها ليلة بعد ليلة في سباق الكَلاب والكَلبة الصفراء دائماً هي الرابحة. لذلك، ولأنّك تربحين، تختفي أشياؤك: نحملُ حاجاتكِ الفاخرة الفائزة في عربتي إلى غرفك، ونضعها بعناية

لكي تطيل وجودها إلى الأبد لا تُمسّ ولا تُستهلك. في تلك الأثناء، تنامين في سرير ثونيلدا تورو الذي حلّ محلّ سريرك، ترتدين قميص نوم إيرنا وتشربين الشاي بكأس ماريا بنيتث وتتدثرين بشال ريتا، وبدلاً من حمل الحقيبة تسيرين حاملة كيساً قذراً لا أدري لمن يعود، وتلبسين جوارب ربحتِها من دورا ومن أوريستيلا وترتدين سراويل لوسي وتغطين نفسك بأَسمال، وتنامين على مرتبة تفوح منها رائحة البول وتمشطين بمشط سقطتْ أسنانه وتتجنبين احتذاء أيّ شيء ما لم يكن نعل روسا بيرث البالي.

مع ذلك، حين أرقبك من قريب من دون أن تتنبّهي، أرى أنّ الندب الرقيقة لم تتلاشَ تماماً. عملية إعادة الامتصاص بطيئة. ما زال عليك أن تنتظري عدة أشهر. لم أشكّ قط في أنّ الدكتور آثولا هو أحسنُ جراح في العالم: الأعاجيب التي يأتيها في عيادته في سويسرا تملأ صفحاتَ الجرائد. المرضى الذين يدخلون يعانون من شتّى أنواع العلل، لكنّ الجزء الأعظم منهم يذهبون لأنّهم يريدون استعادة شبابهم، طامعين في أعضاء جديدة أفضلَ من أعضائهم. أنت، بالمقابل، وهذا ما أكدته للسيدة راكيل، دخلت إلى عيادة الدكتور آثولا لتشيخي نهائياً. ولما كان الطلبُ على الأعضاء والأجهزة الجيدة كثيراً فقد كانت حالتك بالغة السهولة، لأنّ الدكتور آثولا معلّمٌ في التبديل وفي الزرع. يجب تنبيه مرضاه المستقبليين إلى أنّه اعتادَ سرقة قطعة من القطع ليحتفظ بها ثمّ ليبيعها، وهو ما فعله معي، وتركني كائناً مكوّناً من أجزاء أجهلها.

نعم، إينيس، أرقبك بدقة كلّ يوم حين نحملُ إلى غرفك شراشفك التي تحمل طرّة أو كرسياً مطلياً بالورنيش: ندبُ عملياتك الجراحية تنمحي. أنا الآن متأكد من أنّكِ ذهبت إلى سويسرا لتتحولي إلى بيتا بونثي التي طالما أرادتْ أن تَتجسدَ فيك وأنت فيها وسريعاً، حين تكملُ أربطة ندبك الحمر الدقيقة اندماجها لتتحول إلى تجاعيد وثآليل

مكتبة أحمد ٢١٥ telegram @ktabpdf

وأكياس لحميّة وجلد مقوّض أو يابس، ستحصلان أنتِ وبيتا على ما تحاولان فعله منذ القدم. الحياة التي لا تكون جزءاً منكَ لا تهمّ بيتا. لقد وجدتْ في إمكانية بيع جسمها غير المفيد إلى الدكتور آثولا الحلّ الوحيد لأنّك كنت ستقعين في يده. فككَ الجراحُ جسمَ العجوز، احتفظ بأعضائها في أوعية خاصة، وَضَعَها في حُجَرٍ صممها هو تعطي الأوكسجين اللازم، وتضخّ الدم والمصل والماء، وقطعَ الأعضاء بمباضع حادة لكي لا يلاحظ مكان القطع في ما بعد، خزنَ كلّ ذلك في أقبية معقمة، مكسوة بخزف صيني أبيض، بلا حياة، بلا موت، تنتظر وحسب، جاهزة للاستفادة منها حين تحين المناسبة. حدث ذلك هناك، في سويسرا، حيث انتظرتكِ بيتا المقطّعة، وأنت، غافلة – أو ربّما تعلمين أنّك جئت مسافرة من أعماق القرون لتحقيق مزج التراث العائلي للطفلة– الطوباويّة مع الحكاية الشعبية للطفلة – الساحرة، ذهبت إلى حيث كان عليك الذهاب، إلى العيادة التي كان الدكتور آثولا وإمبراتريث يحتفظان لك فيها بأعضاء العجوز لتحويلكِ إليها، إلى هذه الشحاذة القذرة، ذات الكعكة الرمادية والأظافر المتكسرة والمسامير اللحمية والعظام الناتئة في القدمين، واليدين ذات الثآليل والرأس المرتعش، التي تروح شيئاً فشيئاً تمتص وتلغي ما بقي من إينيس غير الكاملة التي ذهبت إلى أوروبا بشعر مصبوغ ومعطف من وبر الجمل وأكسسوارات من جلد التمساح.

تنصّ الاتفاقية القديمة، مع ذلك، على ألا تصبحَ الاثنتان مختلفتين لكي تتحولا إلى واحدة. لكنّك ساذجة، إينيس، لا تعرفين أنّ الشيخوخة هي أخطر السبل للفوضى، لأنّ الشيخوخة لا تحترم قوانين ولا معاهدات رسختها القرون، العجائز ذوات سلطة وسطوة، وخصوصاً إذا جرجرن وراءهن سنوات طويلة من البؤس كما فعلتْ بيتا. باتَ الوقت متأخراً لتتمكني من الدفاع عن نفسك، لكن الأفضل أن تعرفي ذلك قبل أن

تختفي، لأنّك ستختفين، لأنّ بيتا، التي لا تحترم أيّة اتفاقيّة، تستولي على كلّ ما تبقى لكِ، ولأنك في كلّ يوم أقل إينيس وهي في كلّ يوم أكثر وأكثر بيتا التي تلغيكِ. أكررُ عليك أنّكِ ساذجة، إينيس، عاطفية، لم تنتبهي إلى أنّ دسيسة بيتا كان لها دافع آخر غير الاتحاد بك: تذكّري قوة البائسين، كره الشهود، هو موجود لكنّه مختبئ تحت الإعجاب والحب، لا تنسيْ حسد التافهين والدميمين والضعفاء والحقيرين، لا تنسيْ الطلاسم التي يخفونها تحت أسرتهم أو في مرتباتهم، ولا انتقام الذين دفعوا ثمن ذنوبكِ، بيتا أخفتْ مشاعرها وسمحتْ لك بأن تهينيها وتستعمليها وهي الآنَ تسترد ما دفعتْ إذ تستعملكِ لتدخل تحت أسلوبك في هذا البيت، لأنّ ذلك هو ما تريده بيتا، إينيس، تلك كانت علّة سخطها وجشعها: تجريدي من ملاذي حيث كنتُ أعيش متنكراً بهيئة موديتو أو عجوز أخرى من العجائز، والسيطرة عليّ لتتقاضى منّي حبّي، ولتكرر ليلة رينكونادا بأن تتنكر، هذه المرة، بلحم سيدتها، لأنّكِ حافظت على سكس إينيس المتوهّج كما حافظتُ أنا على قدرة دونَ خيرونيمو، وتأتين بحثاً عن تلك القدرة، للاتحاد مرّة أخرى بها، لتقبضي منّي المتعة التي حرمتكِ منها طوال سنوات وسنوات.

طبعاً، أنت ما كنتِ تعلمين أنّ سكس بيتا هو أنشط شيء فيها، وظننتِ أنّكِ بعمليات الزرع تلك ستتحولين إلى عجوز قميئة عزلاء لا ترغب في شيء ولا تحتاج إلى شيء، لكنّك ستبدئين تحسّين بالحاجة الماسة لذلك الذي تحولتِ إليه حين تبدأ الأعضاء التي ربطتْ بلحمك تعمل، سترين كم هو مؤلم الإحساس بالحرمان الجنسي الذي سأحرمكِ منه حتى النهاية، بالجرح الذي يعنيه استحالة نسيان تلك الليلة التي أمضيناها معاً في سريرك في رينكونادا. ستتحرشين بي هنا في البيت. وحين تكتشفين هويتك وهوية التي حوّلتك كريسوفورو آثولا إليها، فلن تعتقيني.

هكذا يجب أن يكون الأمر، وهكذا كان دائماً، إينيس، إينيس–

بيتا، بيتا– إينيس، بيتا، بيتا بونشي، لم أتمكن قطّ من تلمس الجمال لأني حين أشتهيه أحوّله إلى صاحبات بانسيون مشؤومات، إمبراتريث بوجه البلهاء، عجائز هذا البيت، المتسولات اللاتي يتبعنني حين أتجرأ على الخروج إلى الشارع، صور متداعية للجمال الذي يخلقه حنيني وتحطمه شراهتي، هيّا، دعيني وشأني، لا تتدخلي بين ما بقي منّي وما بقي منها، أنت رثّة الثياب، أنت بيديكِ المشوهتين من الثآليل تقتربين من نهاية الممر بهدوئك الغامض الذي يخفي السخرية ويخفي حرمانكِ العاطفي الذي يغطّي على نيّتك المحددة في التوجّه للحصول على قطعتك، الذي هو أنا. لماذا تحبينني؟ دعيني أصارحك بالحقيقة. أنا لم أكن في السرير معك تلك الليلة في رينكونادا، بيتا، كان دون خيرونيمو، نعم، هو، هو يبحث عن حرارتك واهتياجك، إينيس كلمت السيدة راكيل عن قدرة زوجها الشرهة الذي تطلبه شراهتك، أنا ليس عندي شيء، بيتا، أقسمُ لك، انظري سكسي، أنتِ تنظرين إليه: فوق سرير إيريس تغيّر العجائز لي الحفاظة لأنّي تبولتُ لأمنحهنّ المتعة، انظري كيف يمسكن بقطعة اللحم الميت هذه ويلعبنَ بها، وسخة قليلاً، ولا تفيد إلا في طرح بول منتن الرائحة، مقززة، متخشبة، كما ترين، ليس عندي حتى شعر العانة، أنا طفلٌ، أنا عاجز، اتركيني، أنا لا أنفع في شيء. ارحلي عن البيت. ابحثي عنه هو، فلديه القدرة على إشباع رغبتك. أعيدي لي البيت، ولتربطني العجائز، ليصنعن لي ربطة عنق قصيرة، وليحولنني إلى طفل دميم بدين. أنا الموديتو. وأحياناً أنا عجوز من العجائز. أنا دمية إيريس. هل تعتقدين أنني لو كنتُ أمتلك شيئاً من القدرة، حين كنتُ أنام كلّ ليلة مع من تؤدي دور أمّي لكنها ليست أمّي لأني لم تكن لي أمّ قط، أما كان سيجننني جسمُها الشاب حين تحتك بجسمي لتجعلني أعاني وأنا أقول لها لا، إيريس، لن تكسبي شيئاً لأني ليس عندي شيء ولذلك لا أستطيع أن أعاني؟ نعم،

لقد أخطأت بالمجيء إلى البيت للبحث عنّي. لن تكسبي غير إضافة عجوز أخرى إلى موكب العجائز الذي طاردني طوال حياتي، إينيس- عجوز، إينيس- دميمة، واضعاً إيّاك في متناول يدي، لكنّها ليست إينيس - دميمة، إينيس- بيتا، التي أحبها، إنّها إينيس وحيدة مشرقة لا تتغيّر، تلك هي إينيس التي أحبّها، إينيس التي تحتفظين بها في صور صناديقك المحفوظة في غرفتك، إينيس التي تمتطي صهوة حصانها في رينكونادا، إينيس التي ترتدي بدلة الباليه من النسيج المخرّم بلون التانغو، إينيس ذات القبعة التي تشدّ رأسها وتكشف عن قفاها ورقبتها الطويلة، إينيس ذات معطف الشعر، إينيس التي تتجوّل ممسكة بذراع دون خيرونيمو في حقل نادي الفروسية، إينيس وجهاً لوجه مع السيدة راكيل التي لم تكن جميلة قط، إينيس... المهم، أعرفكِ إينيس جميلة في قاع صناديقك مع مفتاح، في الملابس التي استعملتها والتي تضعينها في هذا البيت، التي مسّت جسد إينيس الجميلة والتي ألمسها أنا، لكنّ تلك الإينيس لم تر غير عينيّ، عيني الشاهد المستعرتين ذات ليلة في حديقتها، ثمّ بعد عمليات كريسوفورو آثولا أظنّ أنّها لا تنظر إليّ حتّى، خذ بعض القروش بقشيشاً، موديتو، ولنذهب لحفظ هذه الحقيبة من جلد التمساح، هذا القنديل من البورسلان، هذه السجادة من تبريز، زوجا الرسوم على المخمل، رداء النوم النايلون هذا المبطّن الجديد الذي يمنح الدفء، سنحفظ كلّ الحاجات التي ربحتها هذه الليلة من العجائز في سباق الكلاب، في غرفتي، لا أستطيع، بيتا، اتركيني، اذهبي للبحث عنه وانزعي أحشاءه لأنّه السبب في أنّ مصائرنا اتخذت الأشكال الفظيعة التي اتخذتها لكي تستطيع البقاء على الحياة... أنا أكنسُ غرفة نومكِ، وأنت تصلين جاثية على ركبتيكِ على الأرض مقابل صليب من عصيّ مربوطة بسيور صنعتها قبل أيام تقليداً لجدتك، لا لجدة إينيس، جدة تلك المرأة التي تصلّي بينما أنا أكنسُ

غرفتها والتي أحبّها لأنّ بيتا هي المرأة الوحيدة في العالم التي أحببتها، لا أستأهل أكثر من بقشيش لأنّ أبي أكّد لي أنّني لا وجه لي وأنني لستُ شيئاً يذكر، ذلك ما علمني إياه منذ الصغر، لذلك لم يبقَ إلا أنت، ولكن لا أستطيع السكوت على ذلك، قبل أن تكبر طعوم الدكتور آثولا وتتحد أنسجتها تماماً بلحمك وتبدأ الغدد بإفراز عصاراتها، وأنت ما زلتِ – وإن دميمة رثّة الهيئة– إينيس، سأستولي عليكِ وستؤول ذكرى جمالك لي وسأفعل بها ما بدا لي بعد أن أستعمل ما بقي، سأسلخك لعرض جلدك، جلد الكلبة الصفراء الحقيقي المُدمّى وحينها لن تعودي موجودة لا أنت ولا أنتِ، لن تعود موجودة أيّة من الاثنتين، ستختفي الاثنتان في قاع الممرّ الأكثر عمقاً، اهربي، بيتا، ابحثي عن الآخر، لمَ تريدين سكسي المترهل الرخو، دعيني وشأني، دعيني ألغي نفسي، دعي العجائز الصالحات يقمطنني، أريد أن أكون طفلاً دميماً بديناً محشوراً في كيس جلده، بلا قدرة على الحركة والرغبة والسمع والقراءة والكتابة، أو التذكّر هذا إن وجدتُ في داخلي ما يمكن تذكّره، وعلى سماعك وأنت تصلين جاثية على ركبتيك أمام صليب العصيّ والسيور، وعلى رؤية نفسي ملزماً بسؤال نفسي من تكون تلك المرأة التي أعرفها، من هي تلك المرأة، ما أشدّ ما تغيّرت المسكينة السيدة إينيسيتا، ما أطيبها، وما أكملها، إنّها قديسة، واحدة من السيدات الأكثر ورعاً وإحساناً، وطيبة حقاً، لا تصبغ أظافرها ولا تدخن كالرجل كما تفعل السيدة راكيل، تهتمّ بنا نحن الفقيرات والمريضات، فقط هي تتذكرنا لتحمينا، قبل عام تقريباً قدمت السيدة راكيل صدقة عن روح بريجيت، وها أنتن ترين، لا شيء، لا، لا أقصد أنّها سيئة، بل هي مهتمّة بأمور أخرى، أولاد كثيرون وأحفاد، بينما السيدة إينيسيتا ما عادت حتى ترتدي الملابس الحديثة ولا شيء من هذا القبيل، وأنت تمررين حبّات مسبحتك المثقلة بالغفران لأنّ البابا

باركها لكِ، وعيناك مغمضتان. من دون أن تفتحي عينيك، ومن دون أن تقطعي صلاتك، تشيرين لي بحركة بسيطة من رأسك، لتبلغيني بأن الوقت قد حان لأخرج من غرفتك وأن أتركك بمفردك.

***

وحيـــــــــــــــنئذ، سمع في الحقل عواء كلاب، خوار بقر، جؤار ثيران، صهيل خيلٍ، ثغاء نعاج، وبدأت الراهبات يشعرن بالرهبة لأنّ البيت في تلك الساعة أصبح معزولاً، ما الذي يحدث، لماذا تخاف الحيوانات من شيء لا نعرفه، ما الذي يحدث في الليل، ما الذي تحاول الحيوانات إبلاغنا به، ماذا سنفعل، ولمن نتوجّه بالسؤال عن هذا الأمر المكدّر الذي يقع... وحيـــــــــــــــنئذ، نعم، حينئذ وقع الأمرُ الرهيب: برقٌ في السماء يضيء سلسلة الجبالَ، الرعودُ في داخل الأرض التي تهتزّ وتتشقق، الراهبات يصرخن ويركضن في كل الأنحاء نصف ميتات من الخوف لأنّ البيت كلّه كان يهتزّ فكأنّه يوشك على الانهيار... وحيـــــــــــــــنئذ، رأتها الراهباتُ وسط الباحة، جاثية وقد بسطت ذراعيها في وضع الصَليب...

سمعوا منكِ الحكاية آلاف المرّات منذ أن وصلت، تطرزين فوق الحبكة الجوهريّة، تخترعين تفاصيلَ وزينة لشد انتباه اليتيمات اللاتي لا يتعبن من سماعك، وكأنّهن أيضاً ينتظرنَ التركيب النهائي لحكاية الطفلة - الساحرة مع أسطورة الطفلة - الطوباويّة، يعجبكنّ الاستماع إلى السيدة إينيسيتا التي هي طيبة جدّاً لأنّها تقلّد الصهيل والخوار والنباح، كم تتقنين ذلك، سيدة إينيسيتا، لنرَ ذلك، مرّة أخرى، الآن بقرة... وعجلها... يروق لهنّ أن يروها وهي تمدّ ذراعيها لإسناد الجدران التي ستسقط لكنّها لا تسقط لأنّها تسندها. أمّا أكثر ما يسليهنّ فهو حين تبدأ السيدة إينيسيتا بالارتعاش مثلٍ الهزة الأرضيّة: لنلعب لعبة الهزّة الأرضيّة، سيدتي رجاءً، كم هو مسلٍ ونحن جالسات هنا على

مكتبة أحمد ٢١٥
telegram @ktabpdf

المصطبة تحت نخلة باحة البوّابة، إليانا وفروسي وإيريس وبيرونيكا وميريّا يتجمعنّ فوقك وأنت تهتزين وترتجفين وهنّ أيضاً يرتجفنَ ميتات من الخوف بسبب الكَارثة، ميتات من الضحك، وقد اختلطتْ أجسادهنّ وأذرعتهنّ وسيقانهنّ بأعضائك، إلى أن تدوس إليانا على فروسي عرضاً، اسمعي، أيتها الثقيلة، ما عدتُ أحتملك أكثر فوقي، لقد وخزني الدبوس الذي يغلق سترة إيريس القهوائية، لقد خمشتني عمداً... حسناً، أيتها الفتيات، اتركنني بسلام لأني أشعر بدوخة، أوف، ما هذا الحر، بعد أن انتهينا من لعبة الهزّة الأرضية فلنذهب للصلاة مجتمعات على روحها، التي يريد الكفّار نسيانها، ونطلب منها أن تكشف عن حقيقتها... ظهور... علامة... أيّ شيء بيّن غير مدحوض نستطيع الاستناد عليه لكي لا نخمّش في الليل. يصلين... العيون مغلقة... الأيادي متحدة... الأصوات منسحقة... يواصلن صلواتهنّ التي تقودهنّ في دروب تقواك... الربّ ينقذك أيّتها الملكة والأم... آمين. الآن صلاة «أبانا الذي في السموات» لكي ننتهي، سيدة إينيس، لنلعب الآن لعبة أخرى، نعم، بعد ذلك نواصل الصلاة، حين يحلّ الليل، فما من رغبة في الصلاة أثناء النهار. لنلعب الآن.

– ماذا نلعب؟

– اللودو.

– لا، نلعب الداما...

– لا، نلعب لعبة التنكّر...

– لا، سباقات...

– لا، أيتها البنات، اليوم سأعلمكنّ لعبة أخرى.

تتوقفين. اتبعْنني إلى البوّابة، واحرصنَ على ألا يرانا أحد لأنّها لعبة بالغة الخطورة، إيريس، تعالي معي، يا ابنتي، لا تبتعدي عنّي...

نظرتكِ العجوز خفيّة، تسترقين النظر من طرف عينكِ المقذاة، تنحنين، تصير يداك مخالب بينما اليتيمات يضحكن وهنّ يقلدنك، أوي، كم هو مخيف، احرصن على ألا يرانا أحد فقد يعاقبوننا، لا أحد في غرفة البوابة، الموديتو لا أكثر أظنّ أنّه هناك، اليتيمات يتبعنك، يقلدنَ حركاتكِ الصامتة وهنّ يتقدمن متخفيات وراء شجيرات الداميلو، خلفَ المغارة الحجرية، ويصلنَ إلى البوابة بسلام متسترات بأعمدة الممر. تجلس اليتيمات على المصطبة... تفتحين باب صالة ريتا وتسألين وأنت عند العتبة:

– من تريدُ أن تبدأ؟

– أنا الأولى.

– لا، أنا من قلتُ أولاً، أنا الأولى.

– لا، الأفضل أن نبدأ بإيريس.

– حسناً.

تقف إيريس وسط غرفة البوّابة بينما تصطف الأخريات لمشاهدة العرض. إنّها بدينة لأنّي كنتُ حينها سأولدُ. تستمع إلى إرشادات السيدة:

– انظري، ستجري اللعبة هكذا: أدوّر رقم تلفون ثمّ أبدأ محادثة. عليكِ أن تردّي وكأنّك على الطرف الآخر من الخط، ولكن من دون أن تخطئي، وتحزري من يخاطب من.

لم يُبد وجه العجينة البيضاء غير المطبوخة والمجرد الآن من الأصابع حماساً ولا فتوراً، لا نعم ولا لا، فمن يدلي برأيه من المصطبة هنّ فتيات صبايا:

– ما أصعب هذه اللعبة!

– سترين أنّها مسلّية.

مكتبة أحمد ٢١٥ telegram @ktabpdf

– هذه لعبة للكبار.

– وسأعطيكنّ جائزة.

– ما هي؟ ما هي؟ ما هي؟

– زينة...

– فستاناً...

– نقوداً...

– مضمار سباق للكلاب...

الجوائز لا تهمّ إيريس، إنّها تنتظر في وسط غرفة البوابة لكي يشجعوها، سيكون من الصعب عليك الفوز، إيريس، أنا سأوجهك من فراغات مغارة لوردس هذه من دون عذراء ومن دون برنارديتا... سأقودك كما قدتُ مرات ومرات من هنا جولاتك في الحيّ، مع العملاق، إلى الأرض الخربة، إلى حانوت المجلات، لشراء كوكا كولا، لتضاجعي سفراء وجنرالات وأكاديميين وصحفيين ودون خيرونيمو وروموالدو. إن أطعتني فستربحين. أنتِ وحدكِ تستطيعين أن تربحي لأنّك غير موجودة، لا ميريّا ولا إليَانا ولا فَروسي ولا بيرونيكا يستطعن أن يربحنَ لأنّهن موجودات، بينما أنت لستِ أكثر من غلاف، لذلك لا تخافي، ابتسمي لإينيس، قولي لها نعم، حَسناً، ستكون الجائزة من العظمة ومن الرهبة أنني سأكون الوحيدة التي أتجرأ على تسلمها عن طريق شخصك البائس. تلاحظين كيف تبتسم السيدة وهي تدوّر الرقم... يرن الجهاز ويرن. حين تسمع إيريس الصوت في الطرف الثاني من الخط، تقطّب حاجبيها وتبدأ بالسير عند البوابة، وكأنها تفهم كلّ هذا الذي يسبب لها قلقاً كبيراً. إيريس تستمع وتفهم.

– آلو... آلو... نعم، نعم، أريدُ أن أتكلّمَ معهُ، نعم، مساء الخير،

كيفَ حالُ حضرتكَ، نحن هنا ولم يطرأ علينا جديد... ولماذا أكذبُ عليكَ، ما عدتُ أستطيع أكثر، لا أدري ما العمل...

إيريس تتوقف أمام الباب، وتسأل وهي تفتح اليدين المكتنزتين بإشارة العاجز.

– ماذا حدث الآن، بحق الربّ؟

– ما حدث هو أنّكم تركتمونا مهجورات حتّى عاد هذا البيت المقدس مغارة آثمة، ما عاد اللعب هنا لمجرد التسلية بالرقع التي أمرت السيدة إينيس بجلبها، لا، تلك لم تكن سوى النيّة الأولى. تأملْ، كيف يمكن هذا، هنّ الآن يراهنّ على ما يمتلكن، معاطف، بطانيات، ساعات مفككة، روزنامات، أقفاص بطيور سمّان أم من دونها، مظلات مشقوقة، ملابسهنّ، أباريق شايهنّ، جواربهنّ... لقد فسدن وأصبحن دنيئات...

– لا تبالغي...

– لا أدري، ذلك هو ما يدور، العجائز منافقات، لم أستطع التأكد من ذلك، يخفين عليّ الأشياء، أحياناً يخامرني شعورٌ مرعبٌ بأني لا أعرفُ ولا نصفَ ما يجري هنا في البيت...

هيا، إيريس، انفخي خديك، قوّسي حاجبيك القلقين، تجوّلي في غرفة البوابة من ناحية إلى أخرى ويداك وراء ظهركِ، معطفكِ الطويل كالقفطان، مظهرك الفخم، قلقك يكتسي مسحة مصطنعة حين تصرّين على أنّ ذلك غير ممكن، يجب وضعُ حدّ لهذا الموضوع حالاً، بينما الفتيات مصطفات في المصطبة يتأملنَ كوميديا إيريس. أنتِ تواصلين التحدث بالتلفون. تسندين أحد كوعيك على الحائط. تنقلين ثقل جسمك من ساق إلى ساق، لا تنظرين إلى إيريس لأنّك ملتزمة بتلك السماعة التي تلتقط كلماتك، تضبطينها، تنقلينها من يد إلى أخرى:

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

– أسوأ ما في الأمر هو ما يقولونه عن السيدة إينيس. هي أشياء أسمعها من خلال الحاجز، همسات تتوقف عندما أدخل إلى غرفة من الغرف: يقولون إنّ السيدة إينيس تربح دائماً لأنّ الطوباويّة تحميها، يدور كلامٌ كثير حول الطوباويّة هنا في البيت. الكثير. ما عدتُ أستطيع تحمله، لو أنّهنّ ردّدن عليّ في وجهي أو قالوا لي الحقيقة لما شعرتُ بهذا القدر من العجز، لكنّ ابتساماتهنّ وشكواهنّ، لا أستطيع إخراجهنّ من هنا، يوقعنني في شباك كذبهنّ، شيء كالدوار غير المنظور الذي لا أستطيع التحكم به، بالذات لأنّه غير منظور، تأمل ما يقولون... يقولون... يقولون ذلك دائماً. يقولون إنّ السيدة إينيس تجبر الطوباويّة على أن تحميها في اللعب، ولكي تحميها تقيمُ الصلاة على روحها هنا، عرضتْ عليها ألا يتحوّل هذا البيتُ أبداً إلى مدينة للطفل، بل سيصبحُ معبدها، مع كنائس معظمة وحجّ وكلّ شيء، تصوّري، حين أسمعهنّ يصلين، وكنتُ أراهُنّ من قبلُ بريئات، أشعر بالخوف. حين أراهُنّ يقطفن أزهار الزنبق البنفسجيّة أفكر في أنّهنّ يقطفنها ليزينّ بها صورة للطوباويّة يخبئنها في مكان ما لتوقيرها.

إيريس تتوقف فجأة وسط غرفة البوّابة. تجرّ معطفها الغامق على الأرض. إنّه مرعوب، غضبان، يفتح عينيه إلى أقصاها، يرفع ذراعيه وكأنّه يريد أن يمسك بشيء ويهتف:

– هرطقة. هذه هرطقة! لا تسمحوا بخروج هذه القصّة التدنيسيّة من البيت...!

– وتأخذ منهنّ كلّ ما تراهنُ عليه العجائز المسكينات... لم يبق لأيّة واحدة منهنّ بطانية ولا شال ولا مدفأة، يسرنَ مرتجفات في الممرات، العديدات منهنّ مصابات بالتهاب القصبات لأنّهن يسرنَ شبه عاريات وحضرتكَ تعرف نزوات البيت...

- وماذا تفعل بكلّ هذه القذارات؟

- مقابل قذارات العجائز، هي تراهنُ بأشيائها، وما أجمل أشياءها، الجلود والأثاث والزينة والفساتين والأحذية الراقية، من كلّ شيء، وكالعادة تربح، الشيء ذو القيمة الذي تراهن هي عليه في مقابل القذارات تحفظه، لأجل الطوباويّة، تقول، يبدو أنّها تنتظر لحظة تطويبها من طرف الكرادلة...

- ولكن، ألا تدري أنّ الحكم النهائي صدر في هذا الموضوع من أكثر من عام؟

- لا أدري. تنام على مرتبة من الخيش لأنّها احتفظت بأثاثها وشراشفها.

تسير بثياب متسولة. ما عادت تمتلك شيئاً جيداً. وهي ما زالت تقدم أفضل الأشياء التي ربحتها من العجائز رهاناً مقابل أشياء أسوأ منها، وحين تربح، ترتب علباً بما قدمته رهاناً، للطوباويّة، تقول... وتحتفظ بها، ثمّ تلبس الخفين اللذين ربحتهما توّاً، وهي أشدّ تلفاً من تلك التي كانت ترتديها والجوارب أقدم، والسراويل أشدّ تمزّقاً، تخرج ما لديها وتعلّبها وتحفظها... للطوباويّة... رتّبت غرفة نومها بحطام وترتدي ثياباً رثّة أرى أنّها تصبح كلّ يوم أسوأ لأنّها تغيّر ثيابها كلّ يوم، كلّما رأيتها بدتْ لي عجوزاً أخرى مختلفة، أقذر وأشد بؤساً، يصعبُ التعرّف إليها، غرفها تمتلئ بالعلب تحتوي أشياء خاصة بها وقذارات... ربحتْ زوجاً من الأحذية أسوأ حالاً من ذلك الذي تلبسه، تخرجه، تلبس الذي ربحته توّاً، وتسير بصندل غريب...

- شيء لا يصدّق! لا يصدق! ما هذه القذارة...

بادرت إينيس، وانتفخت مثل ديك رومي هائج، هي تشعر بأنها مُهانة في شخصها من كثرة القذارة، أمسكت بذيل قفطانها الفاخر

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

لكي لا تجره على أرضية غرفة البوّابة المرية حيث تتمشّى، بينما الفتيات يصفقن لكوميديا إيريس، هذا السيد المهم سيسمحُ بأن تستمر الأمور هكذا حتّى بلوغ نقطة معينة... أنت تضعين سماعة التلفون... إيريس التي ذهبتْ نفختها وتحولتْ من جديد إلى صبيّة بدينة يغطيها معطف منسول كبير على مقاسها، أنت تنظرين إلى إيريس تسألينها من كانت الشخصيتان اللتان كانتا تتكلمان، لكنّك تحركين رأسك مجيبة بأنّك لا تعرفين فقد تلاشت الصورة التي ألهمتكِ للحظات. سيكون في مقدوركِ أن تواصلي الكلام إن قلتُ لك أشياء من مكاني الذي أنا فيه، لكي تواصلي الحوار الذي لا نهاية له، تقولين لي إنّها أشياء أهدتها إليها العجائز، ولأنّها كانت قد قدمت نذر فقر فيجب أن تتساوى معهنّ، تكون غير نظيفة، مقملة، ذاك اليوم في باحة المطبخ، تحت الشمس، كانت إيرنا تخرج لها بالمشط صئبان القمل من شعرها... ولماذا نواصل. ردّي على إينيس، إيريس. هل تعرفين من أنت. هل تعلمين مع من كنت تتحاورين:

- مرحباً، إيريس؟

أطيعيني، فهكذا ستكسبين الجائزة التي أحتاجها، أجيبي، لا تتركيني هكذا شبحاً بين هذه الصخور المزوقة بلا إتقان، أحتاج تلك الجائزة، عليكِ أن تكسبيها لي:

- الأم آثوكار تتحدث مع الأب بنيتيث...

غبيّة! لقد اضطربت... تعصر الفتيات بطونهنّ من الضحك من جراء الخلط الذي عملته إيريس، يا للغبيّة الكبيرة، متى ستتعلّم، خسرتْ، إيريس ملتيلونا خسرتْ، سيدة إينيسيتا، جاء دوري في اللعب، إيريس لم تكسب لأنّها تفوهت بحماقة. تستدركين:

- الأم بنيتا تتكلّم مع الأب آثوكار.

- باه، كم هو ظريف الآن.

أنتِ تسكتينهن: ترفعين يديكِ. على الرغم من ثيابكِ البالية وقملك، تحافظ يداك المبقعة الجلد على سلطتك كمالكة، السيدة التي تحمل الفيزون على كتفها تحمل علبة مزخرفة من الذهب قرباناً. القوى العليا لا تستطيع البقاء صمّاء إزاء الهبات السخيّة.

- اسمعي إيريس. هذه هي فرصتك الأخيرة للفوز بالجائزة. قولي لي رقم التلفون الذي دوّرتُه. ما هو الرقم؟

لا تتلعثمي وأنتِ تقولين ثمانية ثلاثة سبعة اثنان تسعة واحد، أنا أحشر الأرقام في رأسك الصلب لأجبرك على الفوز بتلك الجائزة التي أتلّهف لها وأحتاجها، الدم الذي سرقه مني الدكتور آثولا سيعود إلى شراييني، لن أعود بقعة رطوبة في جدار، ستنقذينني، أم لا، ربّما سأتقوقع أكثر وأنا أسمع صوته، إلى أن أصبح ملغيّاً.

- ٨٣ ٧٢ ٩١...

- جيد جدّاً، إيريس. أترين أيتها الفتيات، إيريس ليست غبية كما تصورتنّ؟ الآن تستحقين الجائزة.

- ماذا ستعطيها، سيدة إينيسيتا؟

- أنا أريد أن ألعب بعد إيريس للفوز بحاجة جميلة.

ينتظرن أن تظهري من بين أسمالك بهرجة، جواهر، خرزاً، زينة، ولكن لا، أنت تفتحين صالة ريتا على مصراعيها.

- ادخلي.

تمتثل إيريس لأمركِ.

- دوّري الـ ٦٣ ٧٦ ٨٤

تدوّر إيريس الرقم، يرن الجهاز وتذهبينَ للجلوس على المصطبة،

حيث تفسح اليتيمات الصغيرات لكِ مكاناً. يردون على الطرف الآخر من الخط. المعجزة ستقع: سأسمع صوته. سنتحاور.

– آلو... هل خيرونيمو موجود؟

طلب منّا أن ننتظر. سينادون عليه، قالوا لنا.

– الآن هو: سماعُه هي جائزتكِ، إيريس.

أنت تردين من المصطبة، بصوت رجل، بينما اليتيمات يراقبنك.

– آلو خيرونيمو كيف أنتَ؟

– إينيس.

– نعم، انظر، خيرونيمو، أردتُ أن أقول لكَ شيئاً...

– سلّمي على الأقل. لم أحز شرف سماع صوتكِ منذ أن وصلت...

– دعكَ من التفاهات. لديّ أمور مهمّة جدّاً عليّ أن أخبرك بها. لقد فكّرتُ في الأمر كثيراً في هذه الأسابيع التي كنتُ أثناءها في البيت. لا أريدُ أن يلمس رئيسُ الأساقفة ولا الأب آثوكار ولا أيّاً كان أيّة ناحية من إرثي. لقد قررتُ أن أتبنّى إيريس ماتيلونا. سأتركُ لها كلّ شيء. ولتتكفّل هي بمواصلة موضوع التطويب، ولتحُلْ هي دون أن يهدّوا هذا البيت ليتفاوضوا معها...

– لا أحد يريد التفاوض، إينيس، اهدئي.

– هذا البيت مرعب، خيرونيمو، لا أستطيع أن أهدأ لأنّها مدفونة هنا في إحدى النواحي وأنا أريد أن أعيدها إلى الحياة لكي لا تكون تحت الأرض أو داخل جدران الطوب، لو رأيتَ، في الليل تخرج وجوه مرعبة من الجدران وتملأ غرفتي. سأطلب من الأم بنيتا أن تأمر بوضع سرير لإيريس ماتيلونا في غرفة نومي، لتكون في رفقتي، لو تعلم كم أنا وحيدة، لو تدري كم هو متعبٌ أن تضطر إلى دق الجرس

وانتظار أن يستيقظن ويأتين إليك ثلاث أو أربع مرّات كلّ ليلة... أو الاستياء الذي يرسمنه لي على وجوههن حين أوقظهن ليلاً لكي يعملن لي كاسة من الشاي الساخن، وكأنّ ذلك صعب شاق، طبعاً هنا لا بدّ من البدء بإشعال الطباخ بفحم نباتي، ولكن هذا البيتَ هو في النهاية بيتي والعجائز في نهاية المطاف هنّ ملكي...

– لا بدّ أنّك جعلتهنّ مجنونات أيضاً...

صرخت إيريس غاضبة:

– ماذا تقصد بقولك «أيضاً»؟

– كما جعلتني نصفَ مجنون.

– لا تكذب عليّ. لم يكن هذا ما عنيته. هل تظنّ أنهنّ مجنونات «أيضاً» مثلي.

– انظري، إينيس... لدينا الكثير من الأشياء التي يجب علينا الكلام فيها... أشياء كثيرة تخصّنا، أنا وأنت... ماذا جرى... اسمعيني، إينيس...

تقفين على قدميك وتتقدمين ويداك مبسوطتان وكأنك تريدين لمس إيريس، ربّما مداعبتها. أنتِ مستعدة لمنحه أيّ شيء شرط أن يفهمك، نبرتكِ لطيفة، الكلمات تطوّق كذراعيكِ، النبرات تداعب كراحتي يديك: لا تلمسني، خيرونيمو، لن تلمسني أبداً، هل فهمت؟

– لقد ضجرتُ، إينيس.

– ممّ ضجرتَ؟

– حسناً. بما أنّكِ تتعاملين مع عاطفتي هكذا، سأخبركِ: وجودك في البيت يقضي على مشروع مدينة الطفل. كان المشروع جاهزاً تقريباً، والمزاد وشيكاً، حين وصلت...

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

– نعم، البيت مليء بالرزم مع بطاقات بدأ لونها يصفرّ.

– كانوا على وشك توقيع بيع أراضي الجزء الخلفي من القطعة لتمويل نصف البناء لأنّ تلك الأراضي غالية جدّاً، والباقي يساهم به رئيس الأساقفة. الشهر القادم سيعقد الاجتماع الأخير للمهتمين بأراضي الجزء الخلفي وسيعطون إنذارهم الأخير: يبدأ المشروع مباشرة أو لا يبدأ. هذا طبيعي. لا يمكن ترك رجال الأعمال ينتظرون لوقت طويل. تبنى أم لا تبنى مدينة الطفل. لكنّ إقامتك هناك تعرقل كلّ شيء.

– نعم، أعرف.

– لذلك أنت هناك؟

– لذلك ولأسباب أخرى.

– أيّة أسباب؟

ألقت إيريس بالسماعة التي ظلّت معلّقة بسلكها، والتفتت إلى إينيس:

– هل تظنّ، خيرونيمو، أنني سأسمح بأن «يبيعوا» أرضاً مقدسة؟ أنتَ، أنتَ مجنون، خيرونيمو، إن ظننتَ أنني فوق كلّ ما فعلته بي سأسمح بأن تكونَ جزءاً من المؤامرة لسلبي هذه الأرض التي ترقد مدفونة فيها الطوباويّة والتي تريد أنتَ والخوري آثوكار بيعها إلى من يدفع أكثر.

بدا على وجه إيريس الاضطراب. تهزّ يديها، تلمع عيناها، بنيتان، صفراوان، خضراوان، بل بنيتان لأنّ معطفها بني، لكنّهما تبرزان غضبها، تلوّح بقبضتيها، مصممة، متحمسة للدفاع عن جزيئة الخلود لديك. تتراجع إينيس وتطلب:

– عليكِ أن تخرجي من البيت، إينيس.

يتجابه الصوتان ويشتبكان. تضحك إيريس مقهقهة. تسأل إينيس:

– لَمَ تضحكين؟

– إذا ظننت أنني سأعود للعيش معكِ...

تسقطُ يداك. يذوب كلّ ما كان قاسياً في خيرونيمو: يترجّى، الحنان الأكثر قوة يطرّي نظرته، يلوي عنقه ويصيّر صوته حلواً:

– إينيس... إن شئت فسآتي بنفسي إليكِ.

– تقولين لي ذلك لتستميلي قلبي بكذبكِ، أنت متأكدة من أنّ تلك ليست هي نيّة زوجك، تعلمين أنّ خيرونيمو يشعر بالرهبة من البيت، بتقزز، هو يقول تقزز، لكنّها رهبة، أنت متأكدة من أنه لن يأتي أبداً لأنّه يرسل إلى هنا بأعدائه ليحبسهم، ليتعفنوا ويتحولوا إلى عجائز يسعلنَ ويلعبن البريسكا، هذا البيت مليء بجميع الناس الذين أراد خيرونيمو لهم الاختفاء، أولئك الذين يعرفون الكثير عن حياته، عن دسائسه، عن مواطن ضعفه، يريد إزالتهم لأنّهم يعيقونه، يقولون... يقولون إنّ آل آثكويتيّا يحكمون في هذا البيت منذ أكثر من قرن جميع الناس الذين يريدون لهم أن يختفوا. من يدري، فلعلّ الطوباويّة الشهيرة لم تكن أكثر من صبيّة متمردة كان من الضروري كبح تمردها... وبهدف قمع طفلة شيّدت أسوار الطوب هذه؟ من يدري. لكي أقول لك الحقيقة، خيرونيمو، أرى أنني لم أكن سوى واحدة من ضحاياك.

– كيف يمكنك التفكير بهذه الطريقة، إينيس!

حين قلت ذلك كانت عيناك مبللة بالدموع المحبوسة. خرجتْ إيريس من صالة ريتا مع كلّ خوفنا وكرهنا وحسدنا ودهشتنا وحبنا مرسومة على ملامحها العجينيّة التي تستجيب لأيّ قالب. لديك ثقة بأنّنا في هذا متحدات ثلاثتنا: أنت وإيريس ماتيلونا وأنا: رغبتنا الوحيدة هي إخفاء ذلك الرجل الذي يقف أمامك، لأنّ الطريقة الوحيدة للعثور

على السلام هي ألا يكون خيرونيمو موجوداً، نحن الثلاثة نعرف هذا، وهو مكتوبٌ في عينيْ إيريس الشاردتين اللتين لا تكفّان عن تأمّلك، الاثنتان تبكيان، تفنيان انتحاباً في الوقت عينه ونلوذ بذراعي الأخرى نتبادل القبلات ونقسم على كلّ شيء، وعلى لاشيء، لا أدري ماذا، إخلاص، على أنّ كلّ شيء سيجد نهاية، نعم، ستسير الأمور لتتخذ مجرى متصاعداً ومن القمة سنرى البانوراما النهائية، لا تبكي، إيريس، لا تبكي، سيدة إينيس، لا تبكِ، دون خيرونيمو، لا تبكي، إينيس، كفاية. تصفّق اليتيمات ويتكلمن عن إتقان إيريس دورها، فقد ولدت فنّانة، ومن أين أخرجت السيدة إينيسيتا كلّ هذه الرواية التي تحكيها، كم هو مسل هذا، حان دوري الآن للعب، لا، بل هو دور سيدتي إينيسيتا، تحيط اليتيمات كلهنّ بإيريس وبك ويبكين متعانقات في وسط غرفة البوّابة، بينما تتمايل السماعة الساقطة في سلكها في صالة ريتا وأسمع صوتاً يقول:

– آلو... آلو... هل يمكن أن أتكلّم مع أومبرتو بينيالوثا؟

٢٦

لم يتمكنوا من الكلام مع أومبرتو بينيالوثا لأنّه ما إن سمِع ذلك الاسم حتى هرب عبر الممرات إلى قاع البيت، لا وجود لأومبرتو بينيالوثا، إنّه اختراعٌ، إنّه ليس شخصاً بل شخصيّة، ما من أحد يريدُ الكلام معه لأنّ عليهم أن يعرفوا أنّه أخرس. التجأ خياله الضعيف إلى غرفة بعيدة مليئة برزم الجرائد والمجلات التي طرّتها الرطوبة. مودو، موديتو، لا تذهبْ، لا تختفِ، ستموت من الجوع، لا، أين أنتَ، مودو، موديتو، أين أنتَ، سنتعبُ من البحث عنكَ لأننا عجائز ومريضات ونخاف من الريح الهوجاء، لا تفارقْنا لتموت جوعاً، موديتو، انظرْ، نحن لا نعرف أين اختبأتَ لذلك سنترك لكَ صحون الطعام في الممرات والمسالك لكي تأكلَ حين تشاء، كالكلب، لكنّ الأشباح لا تأكل إلى أن تتجرأ على أن تكون شخصاً ذا شأن وذلك الشبح الذي لا اسم له يريد أن ينصهر بالأشباح الأخرى الموجودة في الغرفة، أن يتقلّص إلى حجم ورقة جريدة. الخيال بلا اسم ولا جوع يتضاءل حين يخفي رهبته، التي تمنعه من الانضمام إلى الأشباح الأخرى واتخاذ مساحة خبر، محشور في حفرته في الجرائد القديمة، الرهبة تتركز في صغره، تملؤني، تجعلني لا أتساهل مع نفسي، من دون حركة، من دون جوع، من دون صوت، من دون سمع، من دون بصر تقريباً... تقريباً من دون بصر لكنّ عينيّ ما زالتا تحتفظان بسلطتهما ولأنّهما تحتفظان بها فإنّ

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد ٢١٥

هذه الرزمة الصغيرة التي هي أنا ما عادت تطيق المزيد من الخوف من دون مخرج يضغط عليها وأرى أنّ الوقت المقدّر قد حان. يجب أن أولدَ.

أصبحتُ يوماً من الأيام في سرير إيريس، مختنقاً تقريباً من حرارة جسمها ودثار شراشفها، انظرنَ، انظرنَ، أيتها العجائز، الليلة البارحة ولد الطفلُ أخيراً، انظرن، ما عدتُ بدينة، انظرنَ كيف يبكي وقد يبول، لم أكن أعرف أنّ الإنجاب سهلٌ إلى هذا الحد، الأمر ليس سهلاً، إيريس، كان في حالتك سهلاً لأنه طفلٌ معجزة، لذلك لم تشعري به حتّى، انظرن إنّه على ما يرام، بل يبدو وكأنّه لم يفقد الكثير من الوزن، طبعاً، كان له أن يولد، هو على ما يرام، تجاوزَ التسعة أشهر كثيراً ومهما كانت الحالة إعجازية فالواحدة تصاب بالقلق والجزع ولا تدري ماذا تفعل ولا بماذا تفكّر حين يتجاوز الحملُ الأشهر التسعة كثيراً، ولكن عن أيّة تسعة أشهر تتحدثين، إيرنا، هذا كان حملاً إعجازياً لذلك ليس هناك من بداية نبدأ منها بحساب الأشهر التسعة، القول بالأشهر التسعة حماقة، أنت تتمثلين بأماليا في موضوع الأشهر التسعة الذي لم تفهمه قط والذي سبب حينها انصرافها إلى البحث عن الإصبع، سيأخذونكِ أنت أيضاً إلى مستشفى المجانين إن لم تكفي عن الكلام عن موضوع التسعة أشهر، انظري، ها قد ولد الطفل. ما أضعف بنية الطفل الذي وضعته، إيريس، وما أشدّ هزاله، أيّ طفل بعينين حزينتين! لكنّه الطفل. لا شكَ في ذلك. إنّه الطفل. بوي، انظرن، إنّه يبدو وكأنّه هالة صغيرة لكنها هالة على أيّة حال. ويلبسنني ملابس الحرير والتول من الجهاز الذي تحتفظ به إينيس لي في عالمها. مع الأشياء الموجودة في الدروج العليا. نعم، لأنّ الأشياء في الدروج التحتانية ما زالت صغيرة عليّ. حين يصغر حجمي ستهديني إينيس إياها، ومع تقلّص نسبة ما بقي منّي سأجلسُ على نماذج الكراسي المصغّرة تلك، وسأنامُ على أسرّة

الورق المقوّى المذهبة تلك داخل الشاليه السويسري، حيث ستربيني إيريس.

جميعهنّ يتعهدنني بالرعاية والاحترام. قبل، حين لم أكنْ أكثر من دمية إيريس، لم أكن أستحق ذلك. يسمحن لي بمص أثدائهنّ، أودّ مداعبتها بيدي لكنّي لا أستطيع لأنّهن قمطنني داخل ربطة العنق القصيرة، إيريس تداعبني وتقبلني. تتربّع على كرسي الكاهن الذهبي والدمقس القرمزي، وأنا في حضنها، نتلقى آيات التبجيل من المؤمنين، صلواتهم، تراتيلهم مهموسة لكي لا تسمعها الأخريات لأنّ الأخريات حسودات، يشعلن شموعاً، يحطننا بالزهور، إينيس راكعة بين العجائز الأخريات اللاتي يطلبن منّا أشياء، أن أشفى من الروماتزِم، أن يعطونا في الأسبوع القادم فاصوليا بدلاً من الحمّص، أن يفكوا سجن رافائيليتو الذي حبسوه بسبب عملية النصب التي يقولون إنّ الطفل قام بها، ولكن أنّى له أن يفعل ذلك وهو الطفل الذي كان طيباً حين ربّيته وكان شعره بلون كوز الذرة، انظرن، ها هو لكي تصدقنني، صلاة تحيّة من أجل ألا تكتشفنا الأم بنيتا، صلاة عقيدة من أجل أن ينمو الطفل قديساً، صلاة أبانا الذي في السماوات لكي لا يخرج أبداً من هذا البيت، والعجائز يصلين ويخطن ويغنين من حولنا، جلبنا السرير والمهد، نقلنا كلّ شيء إلى المصلّى لأننا الآن عجائز كثيرات ولا يتسع القبو لنا، نصلّي ولكننا أيضاً نلعبُ في نادي القمار هذا الذي نتصدره أنا وإيريس بين تماثيل القديسين الجبصية المرممة التي أعيد صبغها. نعم، صلوات تحية وصلوات عقيدة، ولكن أيضاً الأكواب التي تهزّ زهرَ اللعب، وقطع اللعب في الأرض إذ لا توجد مناضد وإن أردنا اللعب علينا أن نلعبَ هنا لأنّ الأم بنيتا لن تدعنا نلعب في المطبخ حتّى وقت متأخر لأنّ نوراً كثيراً سيستهلك ورئيس الأساقفة لا يرسل مالاً لدفع النفقات، لكن السيدة إينيس، الطيبة، التي تصلّي كثيراً لإيريس،

حتى إنّها تقول إنّ اسمها ليس هو إيريس ماتيلونا بل هي الطوباويّة إينيس دي آثكويتيّا، تعطينا مالاً كثيراً لكي نخرج متدثرات بشالاتنا هذا إن بقي لنا من شال لم تربحه منّا السيدة إينيسيتا في سباق الكلاب، لشراء باقات من الزهور النضرة، من الأغلى سعراً، وشموع والمزيد من الشموع وكلّ الأشياء التي نحتاجها لتوقير الطوباويّة التي ظلّت على قيد الحياة والتي اكتشفتها هي الآن لكي نكون جميعنا سعيدات، ما أشدّ هزال هذا الصبي الذي تحمله الطوباويّة بين ذراعيها، أنا كنتُ أظنّ أنّ الأطفال- القديسين بدينون وشقر كما يظهرون في اللوحات، أمّا هذا فأسمر، لا يهمّ، الموضوع هو أنّ طفلاً معجزاً جاء من حبَل من دون دنس ومن دون خطيئة، كيف لا يكون معجزة، ولكننا لن نحكي لأحد، تلك كانت نصيحة بريجيت وكانت محقّة، فقط لرعايته بيننا من دون أن نعلّمه شيئاً ونحن نعمل له كلّ شيء، أنا ذراعاه، أنت فمه، هي قدماه، لكنّ ولدي جميل تقول إيريس، جميل طفلُ الطفلة- الطوباويّة التي لم يؤمن بها أولو الأمر في روما لكنّكنّ ترين بعيونكنّ أنّ الطوباويّة عملت هذه المعجزة الأخرى، وابنها سيعمل المعجزة الأكبر حين يلغي لنا سكرة الموت: بأمر منه لن نموت، بل سنصعد جميعنا، اللائي خدمناه، حين يقرر هو ذلك، في عربة بيضاء تجرها ثلاثة أزواج من الأحصنة المجهزة بقنزعات وسروج وأعنّة بيض لتصعد بنا إلى السماء... لتنتظر الحاسدات وقساوسة روما الزنادقة الكفرة، سيجدون أنفسهم ذات يوم من دون أيّة واحدة منّا في البيت لأنّ الطوباويّة وابنها المولود من دون أن يمسّها أيّ رجل بفعلة دنيئة سيأخذاننا إلى السماء، وإن كنتُ أعتقد، روسا، أنّ من الأجمل أن يرانا الجميع، ألا ترين حضرتك، سيدة إينيسيتا، أن تودعنا الأخريات جميعهنّ، الحاسدات اللاتي لن ينقذهنّ الطفل، والأب آثوكار، والأم بنيتا، والجيران، بالغناء لنا هنا عند باب البيت وبأن ينقلوا ذلك

بالراديو كما يحدث مع القداديس ومباريات كرة القدم، والطفل وقد كبر قليلاً وهو يحمل الأعنّة البيض للأحصنة البيض، ونحن بأكياسنا على الأكتاف نصعد إلى العربة البيضاء التي لا بدّ أن تكون واسعة لأننا كثيرات لا سبع كما كُنّا في البداية، نصعد، نصعد بين مطر من أوراق الورد، نودّع الأخريات بحزن شديد لكننا لن نستطيع أخذهنّ معنا، أيتها البنات، ليس لأننا لا نريد، بل لأنّ العربة لا تتسع لأخريات سوانا.

أنت المتحولة الأكثر سخونة وتهيجاً: خطّطت لكلّ شيء. عند موت خيرونيمو ستضعين الثروة التي ستنتقلُ إلى يديكِ في خدمة الطوباويّة إينيس دي آثكويتيّا لتعيدَ بناء البيت الذي سيخلّد اسمك، أنا كنتُ أعلم أنني بمجيئي للعيش هنا سأجدُها، وهذا الطفل الذي تحمله بين ذراعيها عليه أن يقنعهم في روما ويضع السفير لدى السدة المقدسة، وهو شيوعي، في موقف مخجل، نعم، أنا مستعدة للسفر إلى روما مرّة أخرى، سأبذل أيّة تضحية من أجل الطوباويّة ومن أجل الطفل. عند عودتي المظفرة سيضطرُ رئيسُ الأساقفة أن يعيد لي البيت لأقيم فيه معبداً، مع لوحات من الجبصين تمثل حياة الطوباويّة مرسومة على خلفية ذهبيّة وكثير من الرهبان وقانونيي الكنيسة والأشخاص الذين يبحثون في المعجزة ويكتبون عنها وعن الطوباويّة لكي يعرفها العالمُ أجمع، أيضاً سنبني غرفاً ليسكن فيها الطفل والطوباويّة وأنتنّ، آي، لا، نحن لا نريد شيئاً، سيدة إينيسيتا، لا نريد أن يهدّوا شيئاً، ولا أن يتغيّر شيء إلى أن يكبر الطفل، من الأفضل ألا تسافري حضرتك إلى روما إلى أن يكبر الطفل، ابقي معنا هنا لتربيته كما يجب، من دون أن يتحرك داخل ربطة عنقه القصيرة، المحكمة الربط، إلى أن تتحقق معجزة حملنا جميعاً إلى السماء. ولكن علينا طبعاً أن ننتظر موتَ خيرونيمو كي تتحول الثروة إلى يدي. يجب أن نجعله يختفي لكي يتركني بسلام، لكي لا يتصل براكيل بالتلفون لكي تقنعني بالكلام معه،

لو كان ما يطلبه هو الكلام وحسب فالأمر مختلف لكنّ وجودَه بالقرب منّا دائماً يهددنا بخطر أن تُبعثَ فينا الحياة... بعيداً، بعيداً، خيرونيمو، لكي لا تستطيع إرادتك أن تثني إرادتنا. هو لا إيمانَ له. أقول ذلك لكنّ بصراحة. ورعه الظاهر مجرد سياسية، لا أكثر، لذلك علينا أن ننتظر أن يختفي خيرونيمو لنُجلس إيريس على العرش مع ولدها في حضنها، حتّى لو عارضني الكرادلة، وماذا يهمّني بعد أن أحوز ثروة خيرونيمو وأستطيع أن أبني بها المعبد الذي سيخلّد الاسم الذي أرادوا هم دفنه، أنتنّ، في هذه الأثناء، هنا معي، آمنات مطمئنات، لا، لا لن تمتن، سيحقق الطفل معجزته قبل أن تمُتنَ ويحملكنّ إلى السماء، إلى مكان مشابه تماماً لهذا، ولكن علينا أن ننتظر، ننتظر جميعنا ننشد ونصلّي، ونلعب أيضاً، نلعب سباق الكلاب الذي به سأجردكن من كلّ شيء، العجائز يرتعشن برداً في المصلّى، ليست لديهن أحذية، أنا أكدّس بالقرب منّي الأشياء التي أكسبها ثمّ أحفظها للطفل، لا شيء لي، كلّ شيء سيكون للطفل، الآن أقمطةٌ وقطن وماء معطر ومسحوق الطلق من أفضل الأنواع والشموع والزهور، بعد ذلك ستكون حاجاته أخرى ويمكن أن يحتاج إحدى هذه الأشياء التي أربحها من العجائز، أنا دائماً الكلبة الصفراء، لا أستطيع التخلّص منها، أنا ملزمة بجعلها تركض عبر الجبال وعبر الطرقات وفي الحقول وأن أجعلها تخوض مستنقعات وبحيرات، في يديّ تعود حيّة، ليس لأنّي أريد أن أربحَ الأشياء منهنّ، يا للعجائز المسكينات، وفيم أحتاج قذارات إن لم يكن لاختيار الأشد قذارة والأكثر عثّاً لمقايضتها بقطعة أقلّ قذارة وتمزقاً منها بقليل ترتديها، أنا لا أريدُ أن أربحَ، إنّها الكلبة التي تجبرني على ذلك وهي تجري في المضمار، واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، ماء، إلى الخلف، اثنان، ثلاثة، أنت، ريتا، أنتِ روسا، لي الآن، خيال الكلبة الصفراء واسع على الجدار وتهتزّ وتجري بينما الشموع تذوب

وكومتي من أسمال الطفل، فكلّ شيء جائز، لأنّ الكلبة الصفراء تفرض عليّ أن أجعلها تربح المرة تلو المرة، تكبر وتكبر كومة القذارات التي تقدمها الساحرات لي باكيات، طلاسمهنّ البائسة التي لا أريدها أنا، بل الكلبة التي تركض على جدران المصلى المدنس حيث إيريس والطفل يتصدران مبجلين، والعجائز يبكين، عليهنّ أن يلعبن، هنّ، مثلهنّ مثلي، يطعن الكلبة، نحن جشعات، أيدينا تنتزع الملابس، تستولي على ساعات مفككة، على تقويم عمره سبع سنوات ولم تبق فيه إلا الصفحة الأخيرة، على الأحذية الخفيفة، على جوارب ضاع زوجها، على برنيطة السبّاح الحمراء، ربحتُ، ربحتُ، الكلبة الصفراء ربحتْ مرّة أخرى لأنّها لا تُقهر وأنا أصرخ وأنزع منهنّ ما يترجونني ألا آخذه منهنّ على الرغم من أنني لا أريدُ أن أستغلّ هؤلاء العجائز، لا أريدُ أن أجردهنّ، لكنّ الكلبة الصفراء تريد، أنا أطيعها لأنّها هكذا تجري وتنبح وتعوي على القمر وتخوض بركاً، واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة، جاء دوري من جديد، كم هي محظوظة السيدة إينيسيتا، ها قد بدأتْ، خمسة، واحد، اثنان ثلاثة، أربعة، خمسة، واسع هو خيالها على الجدار، لا ترى العجائز كم هو كبير وكم هو نشيط خيال الكلبة لأنهنّ يشاهدن فقط رقعتي والخوف من أن أنتزع منهنّ أسياخ مظلات، شال عنق زال لونه، ذلك هو ما يشاهدن، اركضي، اركضي، أيتها الكلبة، هيّا إيريس، اتركي طفلك لكي يغيّروه لك، تعالي للعب معي، على ماذا تراهنين، حسناً، يعجبني معطفك القهوائي، مقابله الخفان اللذان يعودان لروسا بيريث، ارمي أنت أولاً، أربعة، واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة الآن الكلبة البيضاء، واحد اثنان، حظ سيئ، وتركض الكلبة الزرقاء فوق الرقعة وتركض الكلبة الحمراء فوق الرقعة، لكنّ الكلبة الصفراء تركض وتركض دامية القدمين لتصل أولاً إلى نقطة النهاية وهكذا انتزعتُ أنا المعطف القهوائي من على كتفي

إيريس التي تحاول منعي من ذلك، أنا بردانة، لكني لا أهتمّ وإن كنتُ أشفق على الطوباويّة من البرد، أجاهد أن أنتزعه منك لأنّ الكلبة تريده، وفيمَ يهمّك أن تبردي، إيريس، ها قد صار عندك طَفل لذلك ما عدت منفوخة، طيب، إن شئت، يمكنكِ أن تعملي معي معروفاً كبيراً، وأنت الطوباويّة، سأعطيكِ غداً فرصة الانتقام لكي نرى إن كنت قادرة على أن تستردي منّي المعطف لكي لا تبردي، أنت مع طفلك اللطيف في سريرك نعم لن تبردي، الأطفال يدفؤون كثيراً حينما ينامون في سرير الأم، وأنا لا أتدفأ بشيء، عظامي تبرد أكثر فأكثر فأكثر ولا أدري ما عليّ فعله لكي تدفأ.

***

وهذا هو ما أخشاه بالضبط: أن تبردَ عظامُك ولحمك إلى الأبد، وهي إشارة لا تقبل الشك إلي أنّ عمليات الزرع التي أجراها لك الدكتور آثولا في سويسرا تتمكنُ منكِ. أي إنّ تلك العملية وصلت إلى مرحلة متقدمة وستمحوك، طاردة حتّى آخر قطرة من الحرارة التي تمكنت إينيس سانتيانا دي آثكويتيّا من إخفائها في كفّها، لتحل محلها اليبوسة التي تحبس قبضة بيتا بونثي الموبوءة بالثآليل. نعم، بقيتْ لك أيام قليلة، إينيس، بقي لنا القليل: هذا الشعور بأن البرد المحروم يأتي ليتسلّق عظامك كما الدغل الذي يغطّي الخرائب حتّى يغرقها يمثّل الدليل على أنّ النهاية باتت قريبة، على أنّني، بعد أن تصبحي ملغيّة، سأظلّ محبوساً هنا في هذا البيت مع بيتا، محاطاً بهذه الأسوار من دون مخرج والتي ستحاصرنِي العجوز فيها لتقول لي انظرْ، وأخيراً جئتُ، ها أنا هذا، أنا شريكتك لأني قبيحة شنيعة، أعود إليكَ لأكرر ليلة رينكونادا وأقبض منكَ الحب الذي تدينُ به لي، لكي أخترق هذه الأسوار التي تحبسكَ قبلتُ أن أظلّ مقطعة، من دون حياة ومن دون موت، في أنابيب الدكتور آثولا، أعضائي داخل تلك المكائن النيكلية

التي تجهزها بالأوكسجين، الأمصال، الدم لكي تواصل أعضائي عملها إلى أن تأتي هي في طلبي، وذهبتِ تبحثين عن بيتا، إينيس، أنا منهكة، دكتور آثولا، أريدُ أن أشيخ، أَعطني أعضاءً هرمة وجلداً عجوزاً، قسمات امرأة، شعراً غير كثيف ورمادياً لأستمتع براحة تمشيطه في كعكة لا تبحث عن أناقة. هذا ما تفعلينه. تسيرين رثّة الثياب منفوشة الشعر. تخافين الريح الهوجاء. صرت تكذبين مثلهنّ: كيف يفوتني أن ما حكيتِ للسيدة راكيل هو كذب إن كانت رجولة دون خيرونيمو قد اختفتْ بعد ليلتنا التي قضيناه في رينكونادا، بعد أن حبستُ عينيّ في هذا البيت لكي لا يستطيع هو أن يستمتع بحسدي، وعندي قدرته، إنّها ملكي، لكي أخفيها مع مخطوطاتي في درج تحت سريري. مع ذلك، وبطلب من السيدة راكيل منحتِ دون خيرونيمو مقابلة الثلاثاء القادم، ثلاثاء اليوم، ثلاثاء غداً، ثلاثاء كَل الأسبوع تنشد الساحرات ويشعلن البخور، لذلك اخترت أنت، وأنت تتحولين أخيراً إلى ساحرة، يوم ثلاثاء لكي يطأ هو للمرة الأولى أرض هذا البيت: لا أدري أيّ سوء تنوين إلحاقه به، هذا إذا اكتمل تحوّلك في ذلك الوقت، واكتسبتِ مع يبوسة عظامك وبرودتها قوة العجائز لهزيمة خيرونيمو بقبحك التام.

سيمنع الطفلُ دخولَ دون خيرونيمو إلى البيت. لا أستطيع أن أتركه يدخل، ولن أسمحَ له أن يخدش كوعي بقفازه الرمادي-اللؤلؤة أو الرمادي-الحمامة، قد يظهر من الماضي مرتدياً سترة رمادية كي يذهب إلى السباقات، أو بذراعه المبنية بالجبصين والضمادات الجريحة بدمي كما في تلك القصاصة التي تحتفظ بها إينيس والتي ظهرت في عدد من أعداد «المركوريو» قبل أربعين سنة، لا تستطيع المجيء بأنفتك، أنفة الرجل الكامل، إلى هذا البيت الفقير، بأنفة الرجل الذي لا ينقصه شيء ولذلك، ولأنّهم استأصلوا كلّ شيء عدا الـ ٢٠٪ التي تتناقص

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد ٢١٥

دائماً، سأحسّ الصوت الغابر الذي يستعجلني من الداخل: ها هو، أومبرتو الصغير، تواضعْ، اطلبْ منه معروفاً أو أيّ شيء، سيمنحكَ إياه بالتأكيد فلا شيء سيكلفه منحكَ إيّاه لأنّ طلبكَ سيكون تافهاً، ترجّاه، ليمنحْكَ تسهيلات لشراء بيت، ليخفضوا لنا إيجار البيت الذي نقيم فيه، ليبحثْ لكَ عن عمل، ليعطكَ رسالة توصية، اطلبْ منه، كنْ معجباً به، احسدْه فعنده كلّ شيء وهو كلّ شيء وأنتَ لا شيء عندكَ ولستَ أحداً، وأنا لو كنتُ مكانك لقفزتُ عليه مسعوراً كالوحش الجائع لأشبع من أشيائه، لأفترسه حتّى أشبعَ منه، نعم، نعم، أعرفُ أنني أفعل شيئاً مرعباً سيفنينا جميعاً إن ظهر دون خيرونيمو في البيت، لن أقوى على الإمساك بنفسي إن اضطررتُ أنا إلى فتح الباب له لكي يدخل ليعاين ما بقي من إينيس، سيكون عليّ أن أختبئ لكي لا يرى عينيّ التي أنقذتْ حياتي، منذ أن كنتُ طفلاً، في تلك البلدة التي يقولون إنّ عجوزاً عثرت عليّ فيها، والآن أيضاً هنا في البيت لأنّي طفل ذو نظرة فيها من الحزن والروحية أنّ عليّ أن أكون قديساً تقول العجائز، حضرتكَ تحتاجها، دون خيرونيمو، فلا ترفضْها، لا تردّ نظرتي ولكن لا تأت إلى البيت، إن حاولتَ المجيء فسأضطرُ إلى الخروج ثانية إلى الشوارع للبحث عنكَ والعمل على إخفائك، كيف أعثرُ على حلفاء، من سيساعدني في منعك من أن تطأ حتى غرفة البوابة، أربعاء، خميس، الأيام تحل بعضها محل بعض كما هو حال السابقات، في النوافذ القليلة التي ظلّتْ من دون بناء يسقط الليل بغتة مثل ورقة لعب قلبها أحدهم فجأة ليبيّن فقط ظهرها شبيهاً بظهر بقية أوراق الشدّة بينما تلعبُ عجائز أخريات لعبة سباق الكلاب ليلاً في المصلّى، بين الشموع، عند قدميّ، حول عرش الذهب الكهنوتي، نشبت العداوة بين هاتين الاثنتين، إينيس وإيريس جاثيتان على الأرض واحدة من كلّ ناحية من الرقعة، العجائز مأخوذات بالمباراة، مسمرات

من الإثارة التي يضعنها في سواهنّ، إيريس شبه عارية لأنّ السيدة إينيس ربحتْ كلّ شيء منها، بردانة، عيناها داميتان، لا يدفئها غير غيظها فما عاد لديها معطف ولا فستان ولا أحذية ولا تنورة تحتانية، كل ملابسها مكدسة في كومة بالقرب من السيدة إينيسيتا البارعة الماهرة في الألعاب، إيريس ترتجف، تحرّك زهرَ اللعب في الكوب، تدخل تياراتٌ هوائية من الثقوب التي كانت تسدّها في ما مضى قطع الزجاج الصغيرة، تصطك أسنانها، وجهها مسمّر على إيماءة غضب وترمي بالزهر على الرقعة، تخسر السوتيان، تخلعه، إينيس تضعه على كومتها لأنّ خيال الكلبة العريض ربح ولها الحق بسوتيان إيريس فتركت ثدييها يترجرجان والعجائز يصرخن كفاكِ لعباً، إيريس، لقد ركبَكِ الشيطان، لا تكوني حمقاء، لكنّ العصيّة من العصا، يقولون إنّ أباكَ الذي أعدموه خسر حتى حياته في لعبة الجبل لذلك اضطر إلى القتل، أنا لم أسمع بتلك القصّة، لا أدري إن كانت صحيحة لكنّهم يقولون... يقولون أشياء كثيرة، لقد أدمنت الرذيلة، إيريس، توقفي عن اللعب، أيتها الصبية لأجل الرب، أنتِ تخسرين حتّى عافيتك، أمس قامرت مع السيدة إينيس على حصتكِ من الحمص، اليوم على حصتكِ من العدس وخبزكِ بالإضافة إلى كلّ ملابسك وكلّ مجلاتكِ وقلم الشفاه المستعمل، لا يمكنك الاستمرار أيتها الصبيّة من أجل الرب، انصرفي إلى العناية بطفلكِ، الذي يسيل مخاطه على دمقس العرش الأحمر، لتلعب أخريات لعبة سباق الكلاب، لتتقدم أخريات ليكنّ ضحايا أمام الكلبة الصفراء التي تعرّينا كلّ ليلة، أمّا أنت، فكفاكِ، انظري كيف أصبحتِ، لن أعيركِ شالي وإن تمنيتُ ذلك فمما يبعث على حزني أن أراكِ تجلسين القرفصاء عارية، ترتجفين عند طرف الرقعة، لكنّي لن أعيركِ إياه لأنّ عليّ أن أعتني بنفسي، ألا ترين أنني أتعافى من التهاب اللوزتين، وأنا من الروماتزم، وأنا من الصّعَر، كما أنّك تلعبين عن

إدمان وشراهة، لأنّك تكرهين السيدة إينيسيتا منذ أن بدأت لعب سباق الكلاب معها، توكّلي ولو على قديس، اركعي أمام هذه الشخصية التي اسمها القديسة بريجيت وإن لم تشبه في شيء تلك التي حملوها في عربة سوداء والتي سننقلها نحن إلى العربة البيضاء، صلّي لها، لكنّ إيريس لا تصلّي. وإينيس لا تصلي أيضاً. كانت إيريس من قبلُ هي الطوباويّة لكنّها الآن عدوتها وحسب، تريد أن تجردها من كلّ شيء، ماذا تريد أكثر، بمَ ستقامر الصبيّة الآن إن لم يبق لها غير. هذا السروال القذر. الكلبة الصفراء تربح دائماً.

– حسناً. بمَ تقامرين الآن، إيريس؟

لا، لا، نصرخ بك نحن العجائز نترجاك أن تحتفظي بشيء من عقلك من أجل أشيائك، أنت نحيفة، إيريس، أنت مزكومة، وجوهنا المنقبضة تحاصرنا في العتمة، لا، إيريس، الشيطان يتحرك هنا، يجب أن تكون عزيمتكِ أشد، لا تتكلمنَ عن الشيطان المخيف وهناك شمعة واحدة مشتعلة بالقرب من الرقعة، إيريس جاثية عند طرف وقد بان ثدياها العظيمان اللذان أستطيع مصّهما وحسب، وليس اللعب بهما أبداً كما داميانا وكما يلعب الأطفال بأثداء أمهاتهنّ، الحلمتان قاسيتان من البرد، ضعي لي الحلمتين في فمي لأدفئهما بلساني الخشن وهي، السيدة، المالكة، كتفاها مغطيان بشال مربّع والكعكة مرسلة ساقطة على الطرف الآخر من الرقعة، تنظر إلى إيريس، تتحداها:

– هيّا، علامَ تراهنين؟

– على طفلي.

ساد صمت الدهشة القصير أولاً، بعد ذلك ارتفع الصياح، لا يمكنكِ فعل ذلك، إيريس، أنت فتاة سافلة تراهنين على ابن بطنكِ الذي هو قديس أيضاً، انظري إلى المسكين كيف يبكي لأنّك ألقيت به

على دمقس الكرسي من دون أن يعنيك إن كان جيد الدثار في مهده، انظري كيف يسيل مخاطه، انظري الحزن البادي على نظرته إليك لأنّ الأطفال القديسين يدركون الأمور وهو يدرك أنّ أمّه تراهن عليه في مواجهة الكلبة الصفراء في رقعة السيدة إينيسيتا وهي سيدة طيبة جدّاً ومحسنة جدّاً ولكنّها لاعبة جدّاً اقامتْ هنا في هذا البيت، وهي لا تبدو ذاتها التي عرفناها من قبل.

أنت، إينيس، تنظرين إليّ وكأنّك تتفحصينني، وكأنّك تحسبين كم أساوي لتقرري بين عدة احتمالات أيّ شيء تضعينه رهاناً إزاء رهان إيريس: راهني بشيء جميل، إينيس، أرجوكِ، شيء فاخر مثل معطف الفيزون بلون الكارميل، مثل لؤلؤات أقراطك، مثل الحق في لمس لحمك قبل أن تستولي بيتا بونثي نهائياً عليه، راهني بشيء يبيّن لي أنني أساوي الكثير.

- رهان مقبول.

- وحضرتك علام تراهنين؟

تنظرين من حولك، كومة الثياب، تتحسسينها، لا، هذه الأشياء لا، تبتسمين، ترفعين يدك إلى فمك بتلك الحركة التي تؤديها بعض العجائز لإخفاء نقص الأسنان في أفواههن، وفجأة، تفعلين ما هو أبعد من الإيماءة الطبيعية وتحشرين يدكِ في فمك، وتخرجين طقم أسنانك، وتضعينه على طرف الرقعة فيبدو فمكِ مترهلاً من دون أسنان كأولئكَ اللاتي رحنَ يقلن ما كنّا نعرف شيئاً سيدة إينيسيتا لأجل الربّ، كلنا كنّا نظنّ أنّك تمتلكين قياساً إلى عمركِ أسناناً جميلة وكنّا نعلّق على ذلك، كنّا معجبات بها، ونقول إنّها ثمرة التغذية الجيدة منذ الصغر، أمّا نحن، اللائي ولدنا فقيرات ونشأنا على تغذية رديئة فقد بدأت أسناننا تتلف ونحن في سن الخامسة عشرة، كما حدث لإيريس.

– أسناني.

هدأت الوجوه المحفورة في الظلمة. أخفين الأيدي بين الأسمال، تلمع العيون المشبعة بالماء التي كان شاهدة على الكثير والتي هي الآن شاهدة على هذا، تضيق حلقة العجائز الصامتات على الاثنتين الجاثيتين أسفل عرشي الذهبي، كل واحدة في طرف من الرقعة، الكلبة الصفراء هي إينيس، والكلبة البيضاء هي إيريس، يتدحرج الزهر في الأكواب.

– الرقم الأكبر يبدأ.

تلعب إينيس اثنين، إيريس أربعة. تبدأ إيريس. أربعة مرّة ثانية للكلبة البيضاء، واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة: الكلبة البيضاء بلاستيكيّة، تقف على منصّة صغيرة مصنوعة من المادة الرخيصة نفسها، تحرّكها يدا إيريس فوق رقعة الكارتون العادي حيث رُسمت بيوت وسفوح وأنهار رسماً رديئاً. إينيس تحرز خمسة. الكلبة الصفراء، مضطربة، جاهزة، تنطلق إلى السباق تعوي مخترقة الحقل، واحد، عبر الطريق المغبر، اثنان، تعبر سياج أشجار الغار، ثلاثة تتوقف وسط غدير يعكس القمر لتشرب قليلاً من الماء ومع الأربعة تواصل الصعود على سفح لطيف حتى تصل مع الخمسة إلى باحة مزرعة وتواصل الجري والجري، كلبة البلاستيك الأبيض تظلّ في الخلف بينما الكلبة الصفراء ما عادت تُرى إلا قليلاً، تجري كما لم تجر من قبل لأنّها تريدني أنا، سأكون ملكها، لذلك تجتهد الكلبة الصفراء، لتستحقّني بفوز كبير، واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة، كم هي محظوظة السيدة إنيسيتا العبي مرّة أخرى، أربعة، واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، سأكون من حصّة إينيس لأنّ الكلبة الصفراء ستفلح في أخذي بين ذراعيها قبل أن تتحول ذراعاها إلى ذراعي بيتا الخشبيتين اللتين ستضيّقان عليّ، ستحوزان على سكسي بسكسها المتعفن وسيتعفّن سكسي داخل سكسها المليء بالدود النهم، كلبة صفراء تخلّصني من بين ذراعي العجوز، تجري،

تجري، كلبة صفراء تعوي على القمر وتتبع خيوط شُعاعه، ما عادت تشاهد كلبة البلاستيك، العجائز يصرخن، يبرمن أيديهنّ، يصلين، ما عدن يعرفن لمن يتمنين الفوز لكنّهن جميعهنّ يراهنّ على السيدة إينيسيتا وإن بردت المسكينة إيريس، سأكونُ لكِ، أخيراً، وإن لم يكن إلا من ذكرى إينيس التي كان فيها من الكمال ما ينفي عنها أنّها كانت موجودة، ولكن طيّعة للكلبة الصفراء التي تهرب بين سيقان البردي النابتة على ضفة البحيرات للاختباء من الفرسان العشرة الخطيرين، الكلبة الصفراء التي يغلق ظلّها المتذبذب وجوه بعض العجائز ويتخطّى موقتاً وجوه أخريات، واحد، اثنان، ثلاثة، وما يهمّ أن يكون ثلاثة فقط إن لم يبق أمامها إلا القليل سيدة إينيسيتا، لنرَ، إيريس، هيّا، عجّلي لا تحرّكي الزهر كثيراً، ارميه، أووووف، اثنان لا أكثر، الآن دورك سيدة إينيسيتا، لن يكلّفك شيئاً كسبُ: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة، وبالعكس، ولكن لك الدور في اللعب مرّة أخرى لأنّه ستة: ثلاثة، واحد، اثنان، ثلاثة، بالضبط، ربحت، مرحى، الكلبة الصفراء وصلت إلى خط النهاية وإيريس تصرخ وتغطّي وجهها بيديها بينما العجائز يهنئن السيدة إينيسيتا، يرقصن مبتهجات بينما إيريس تتحوّل إلى قشرة غير ذات نفع، ما عادت الطوباويّة، ما عادت أحداً، تقف إينيس على قدميها، تركل طقم أسنانها فيضيع في أحد أركان المصلّى، تحملني بين ذراعيها المتلهفتين اللتين أذكر طراوتهما، إنّها هي الطوباويّة الحقيقية، إنّها إعجازيّة، تجلسُ بمهابة معي، على عرشها، تنحني العجائز، يشعلن المزيد من الشموع، تهطل أوراق الورود، بخور، المعجزة حققتها السيدة إينيس، إنّها القديسة الحقيقية، إنّها السيدة المالكة، غداً ستبدأ التعبد هنا في المصلّى وبين ذراعيها بوي، الذي حبلتْ به، من دون تدخل ذكري، الطوباويّة إينيس دي آثكويتيّا، التي لا يؤمن بها أهل روما لأنّهم ملحدون لا يؤمنون بالمعجزات، إنّهم شيوعيون جميعهم، ليس

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد ٢١٥

عندهم إيمان الناس القدماء الطيبين، لتفتحْ أبوابُ المصلّى، ليعجّلوا بتبليغ جميع عجائز البيت أمرت الطوباويّة، جميعهنّ حتى الأخريات اللاتي كنّ في شكّ فقط، وتخفّ عجائز من جميع الباحات، حافيات، متدثرات بشالاتهنّ، يحملن شموعاً في شمعدانات، يجرجرن قمصان نومهنّ الفانيلا، يقلن إنّ السيدة إينيسيتا حققت معجزة، إنّها على الرغم من سنّها وعلى الرغم من أنّ أيّ رجل لم يمسسها وضعت طفلاً هذه الليلة في المصلّى، يجرجرن نعولتهنّ على عجل كي لا يفوتهنّ الاستعراض، يندفع فوج عبر الممرات والباحات والمسالك لتوقير السيدة إينيس وتهنئتها على المعجزة، إنّها الطوباويّة إينيس دي آثكويتيّا التي ستحملهنّ جميعهنّ إلى الخلاص ليس في عربة بيضاء بل في موكب من عربات بيض، ربّما عربة لكلّ عجوز لأنّ السيدة إينيس ثريّة، يقولون، لنصعد ونحن نغنّي مع كلّ ما نملك إلى السماء، نحن العجائز جميعاً نحتفل لأنّنا لن نموت، ذلك كان شيئاً يخيفنا وما عاد الآن من سبب للخوف من المسالك المظلمة ومن الغرف الواسعة الفارغة حيث ضاعت على ما يبدو إيريس، ما عاد مصيرها يعني أحداً بعد أن اتضح ما ينتظرهنّ من الترف والبهاء، هي غريبة على ذلك، ومهما قالت الأم بنيتا والأب آثوكار وحتى رئيس الأساقفة نفسه فسننظم طقوساً هنا في هذا المصلّى لكي تتصدره الطوباوية إينيس دي آثكويتيّا من عرشها الذهبي، والطفل بين ذراعيها، تماماً كما يظهر في اللوحات المرسومة. تهز ريح الممرات شالات القادمات، وتسمع اللاتي لا يعرفن شيئاً من الأفواه المرتجفة لعجائز أخرى ما تلهفن كثيراً لمعرفته ويسارعن للسجود، الدهشة تنيرهنّ وهنّ يرين معجزة الطوباويّة التي عادت إلى الحياة رثّة الهندام درداء شيباء شعثاء مثلهنّ، الآن هنّ يغنين جميعاً، يجثون جميعاً، أتعرّفُ على الأم خوليا التي تمسّ بجبهتها الأرض، جوقة الأصوات تصلّي لنا، إليانا منتشية، تردّ على «أبانا الذي في السماوات» بـ «سلام

أيتها العذراء»، إلى أن قالت إينيس كفى، تعبتُ، أريدُ أن أستريح، الوقت متأخر. أنتنّ، بينما أرقد، جهزن الطفل لي كما تفعل المربيات مع أطفال الناس الأغنياء، حين يحملن أولادهم إلى الفراش بعد أن يغسلنهم ويرششنَ عليهم مسحوق الطلق ويعطّرنهم، وحينئذ تدلل ماما ولدها. وليس قبل ذلك.

- يبدو أنّ الطفل نعسان أيضاً.
- لا بدّ أنّه مبلول.
- يجب تغيير حفاظته.
- يجب تغيير حفاظته لحمله إلى السيدة.
- نعم، احملنه لي إلى السرير.
- ستنامين حضرتك إذن؟
- نعم فأنا متعبة.
- حاضر، حيث يكون جاهزاً...
- سأحاول انتظاره وأنا صاحية.
- لن نتأخر.
- نغسل مقعده وحسب.
- لا بدّ أنّه تغوّط؟
- دعيني أشمّ... أوووف، نعم...
- ما أقذر هذا الصبيّ.
- قليلاً من الاحترام، روسا، رجاءً.
- حسناً. تصبحين على خير، سيدتي.
- تصبحين على خير.

يغسلن لي، النزيلات الأربعون يحضرن الاحتفال، يحلقن شعر عانتي، خصيتيّ، يلعبون بسكسي من دون تقزز لأنهنّ يعلمن أنّه غير

ذي نفع، لنضع الطفل فوق مرتبة بيضاء، فوق شرشف أبيض، ونضعه للسيدة في السرير عارياً هكذا، سيعجبها هذا لأنّ الأطفال هكذا يدفؤون أكثر، نعم، حينئذ يجب حلاقة كلّ شيء، الساقين النحيفتين، الذقن، يجب أخذ الحذر مع البشرة الرقيقة لسيدة كالسيدة إينيسيتا.

***

حجرتك مظلمة. حجرتنا. تحت الشراشف، إلى جانبي في سريرنا، تتنفسين بعمق وبإيقاع مع النعاس الذي تسببه لك حبة البيرونال التي لا تقدرين على ترك تناولها كلّ ليلة لتتغلّبي على رهبة المرحلة التي تمتدّ ما بين الصحوة والنوم. أنت لا تعرفين، لكننا، في الليلة الهادئة بين أحجار الطوب في هذا البيت، في هذه الغرفة المعتمة وفي هذا السرير الساخن، سنحقق سحر اللحظة الذي خططتْ هذه الجدران دائماً لإتمامه. إينيس. كيف كنت تتمشين في ممرات رينكونادا. رقبتكِ الطويلة، صوتك الأجشّ كثيراً ربّما، لكنّه دافئ دائماً، ساقاك الطويلَتان، رأسكِ الصغير، كيف كان يسقط من يدك الكتاب الذي كنت تقرئينه وأَنت منحنية في <أريكتكِ>... صورتك المتخيلة راحت تضيع في الممرات وما عدتُ قادراً على استردادها، بشرتك العسليّة، عيناك البنيتان، الخضراوان، الصفراوان، كيف كنت تحركين رأسك قليلاً حين تكلمينني، حين تطلقين الابتسامة لتلامس حدود الضحكة من دون بلوغها: أنتِ هنا، معي في هذا السرير، تجسدين الجمال على الرغم من أنّك ما عدت جميلة، لكنّك ما زلت أنت، ما زلت لست بيتا التي تأتي للبحث عنّي من داخل لحمها الذي ما زالَ هو لحم إينيس والذي سألمسه أنا الآن، قبل أن تظهر بيتا. أحسّ برائحتك هنا، وإن كنتُ أتقدم في الخلف، فأنا أحسّ برائحة الشيخوخة والهرم والشراهة الشهوانية التي ستتغلّب على رائحتك، أمسّ يدك الخشنة وأسحبها بعد أن أهانتني تلك الخشونة، لكنّي أنتظر في صمت لأنّك

ما زلتِ إينيس، أريد أن أكون تحت شرشفك، في هالة حرارتك التي تبعَثُ فيّ القدرة التي عندي وعند زوجكِ، دعي رغبتي لتجتاز حاجز واقعك المنفّر، دعيني عارياً بالقرب منكَ لكي أستبعد قبحكَ، وسلبك، وشيخوختك، وجنونك، وغباءك، أقنعة تنكرية متتابعة لَم تنزعيها عنك قط، دعيني أتقبّل أكثر قليلاً نتانتك لأكتشف، في عمق رائحتك الرهيب، إينيس التي لا تتغير المتخفية تحت هذه الخرائب القذرة، دعيني أستحضرك كما كنت دائماً لكي تتعرف عليك قدرتي هنا من حرارتك التي تداعب جسدي العاري. تنامين. أسمعكِ تنامين. مؤسف أنّك تشخرين. رأسانا يرقدان على المخدة ذاتها. لو تمكنتُ فقط من تجديد شبابك قليلاً، هدم ما فعله آثولا، فسأكون متأكد، قد لا أظلّ خارجك، قد أرغب فيك مع جسدي باللهفة ذاتها التي يشتهيك بها خيالي، لو كانت لك نعومة بشرة إيريس، نهداها الناهدان، ساقاها الناعمتان، نعم، دون خيرونيمو، لو كانت إينيس تمتلك هذه الأشياء لأدركتَ حضرتك أنّ ذكوريتي أكثر حقيقية من ذكوريتك، ولكن هكذا لا، لا أريد أن أذلّ نفسي مرّة أخرى، أريد الخروج من الحبس، أريد أن ألمس الجمال جمالاً، وليس متنكراً في لحم بالثوم ملطخ بالقذارة، بهذا الشعر الأشعث الرمادي، بهذا الجسد المنتن تحت قميص نومها غير المغسول. لكنّك أنتِ. ذلك يجب أن يكفي. لا أريد أن ألمسك. المسيني أنت أولاً. اطلبيني.

أتناول يدك النائمة وبها أمسّ جسمي. عليك أن تتعرفي عليّ، إينيس، اقبليني الآن كما أنا، كائناً من كنتُ، أومبرتو، موديتو، عجوز، طفل، أبله، بقعة رطوبة متذبذبة في الحائط، أستيقظ لأنّك تلمسينني. ليلُ الحقل واسع الأرجاء في الخارج. يقفز ويقفز طائر السمّان الذي ينظر إلينا من قفصه. أستيقظ لأن أصابعك الخشنة لكنّها من دون ثآليل إلى الآن تضغط على عضوي، تداعب بطني، تنقلبين ناحيتي وأنت

نائمة، إينيس ليس بعد، تقتربين من جسمي العاري الذي سيكون جاهزاً في ثانية، حالما يفتش فمك الأدرد عن فمي ولا ينفر منه. جسمك النائم يلتصق بجسمي، ترقدين على ظهرك، تسحبينني لأضع نفسي فوقك، وحينها ألمسك أنا، يداي في نهديك اللذين أجدهما مترهلين وأصرخ:

- إينيس!

تستيقظين.

- خيرونيمو...

لم تقولي أومبرتو. قلت الكلمة المكروهة نفسها التي قالتها بيتا بونثي تلك الليلة في رينكونادا، وفي الظلام خلطتْ كلّ شيء وأربكته، الزمن والأفعال الانعكاسية والخطط التي تربكني مرّة أخرى. تلك المقاطع الموجهة لي مرّة أخرى. حينها لن أوافق أنا أيضاً أن تكوني أنت. لا أدري من أنت، ما عدت إينيس، لقد لمستكِ وعصاي السحرية تحولت إلى امرأة قبيحة درداء، من أعماق لحمكِ خرجت العجوز إلى سطحك وتملكتكِ، من الأفق الذهبي عادت الساحرة مربوطة إلى الجذع وتجسدت في الطفلة، انتصرتْ زروع الدكتور آثولا وإمبراتريث، أنت عجوز، أنت بيتا التي تولد من جديد تحت جسمي المرعوب وأنت تلملمين نفسك تحته، تصرخين، ترفضينني، لا أحبك، بيتا، أنتِ تثيرين اشمئزازي، تخيفينني، لقد حللت محل إينيس بالكامل، ألغيتها، لا أريد لمس لحمكِ المدوّد وإن صرخت وفي الظلام أتسللُ وأضيع في عتمة الممرات حيث تتردد صرخات رعبك جشّاء مبحوحة أكثر فأكثر، ما عاد الصوتُ صوتك، إنّه صوتُ بيتا، صوت عجوز هرمة، درداء تطلب مساعدة، تخافين الموت، إينيس ما عادت موجودة، الموجودة هي بيتا التي استطاعت أخيراً أن

تدخل وتمكنتْ من أن يجعلها الدكتور آثولا تتنكر في صورة إينيس، بيتا تصرخ، النجدة، النجدة، أيتها الأم بنيتا لأجل الرب، النجدة، لا أستطيع إشعال الضوء، أخاف الظلمة، الجرس نعم، يرن الجرس، يخترق البيت كلّه، جرس السيدة إينيس، ما الذي حدث يا ترى للسيدة التي تطلب النجدة وتبكي ولا يعلمْن أنّكِ ما عدت إينيس بل بيتا ويهببْن لمساعدة السيدة التي تطلب النجدة وتبكي، أيتها الأم بنيتا افتحي الضوء من فضلك، تستيقظين وأنت تبكين، جالسة عارية تقريباً على حافة سريرك، مؤكدّة بالصراخ أنّ رجلاً كان موجوداً حتى قبل دقيقة يتحسسكِ بين الشراشف، لا بدّ أنّهم اغتصبوني، ما عدتُ أقدر على المزيد، لم أستطع الدفاع عن نفسي لأنّ حبّة البيرونال تسبب نعاساً عميقاً وهي ما عادت تقدر، هي ليست قادرة. ألا يمكن أن يكون كابوساً؟، تسأل الأم بنيتا، ألا يمكن أن يكون الكابوس الأوليّ؟ لا، لا، كان حقيقة، انظري، أمّاه، بصمة أصابعه في صدري الذي ضغط عليه حتّى آلمني، استيقظتُ وأنا أشعر بالألم، لا، سيدة إينيس، لا تحتاجين أن تبيني لي شيئاً، أنتنّ، أيتها العجائز، انصرفن، من الأفضل ألا يعلمنَ شيئاً عن هذه الأمور، سيدة إينيس، إنهنّ نمّامات، انصرفن إلى النوم فالأمر لم يكن غير كابوس أصاب السيدة، نعم، نعم، أيتها الأم بنيتا، لتنصرف العجائز رجاءً، ولكن بصراحة سيدة إينيس كيف سأصدق أنّ رجلاً، سافلاً، انحشر ليلاً في سريرك إن لم يكن في هذا البيت أيّ رجل، لا تصرخي أكثر، اهدئي، تناولي كأساً من الماء، خذي... لا، لا أريد تناول المزيد من الأشياء، فالواحدة لا تعرف الأشياء التي يعطونها لتتناولها ويمكن أن تكون خطيرة. طبعاً، سيدة إينيس. أترين كيف بدأت تفهمين؟ إنّها تلك العلاجات التي تتناولينها حضرتك لكي تنامي هي ما يسبب لك تلك الأحلام السيئة.

- أحلام؟

مكتبة أحمد ٢١٥ telegram @ktabpdf

– وماذا يمكن أن تكون؟

– وهل تجرئين على التلميح، أماه...؟

– كابوس.

– لا، ليس ذلك ما تلمحين إليه.

– ماذا إذن؟

– تلمحين إلى أنني مجنونة.

– سيدة إينيس...

– طبعاً. حضرتك مثل الأخريات. جميعكنّ تعتقدن أنني مجنونة لأني جئت للعيش هنا. لكني سأترك هذا البيت في هذه الليلة، لن أظلّ هنا لوقت أطول، يرعبني أن تحدث فضائح كهذه في بيت مقدس كهذا، إنّها مصيبة المصائب وهذا ذنبك، أيتها الأم بنيتا، فلا تقولي لي أن لا، لأنّ ما تراقبين قليل، لو رأيت الأمور التي أستطيع أن أحكيها لك وسأحكيها لك حين أكونُ في الخارج، لا تظنّي أنني أخترعُ الأشياء، تصوّري: رجل مجهول في سرير امرأة مثلي، عجوز تريد هدوءاً لتمضي فيه أيامها الأخيرة في صلاة، تتسلّى وتساعد النزيلات قدر ما تستطيع، مهينة نفسها من أجل خطاياهنّ، وانظري ما يحدث، إنني الآن أتذكر أشياء أخرى كان ذلك الرجل العاري يعملها معي في الفراش، نعم، كان عارياً تماماً، لا تظنّي أنني على الرغم من الظلام لم أره يخرج من غرفتي، لا تظنّي أنني لم أشعر بفخذيه بين فخذيّ، بـ... يقشعرّ بدني لمجرد التفكير فيه، وأنا خاضعة مرّة أخرى للعبودية التي ظننتُ أنني تحررتُ منها وإلى الأبد، ذلك الرجل أراد اغتصابي كما اغتصبوني كلّ ليلة من ليالي حياتي إذ لم يكن قط حناناً ولا غراماً ولا حبّاً، أيتها الأم بنيتا، كان دائماً اغتصاباً، في كل مرّة، منذ الليلة الأولى التي تزوجنا فيها كان دائماً هجوماً، لم يكن مشاركة قط، دائماً كان

هناك كائن غريب محشور معي بين الشراشف يجبرني على الإحساس بأشياء تختلف عن تلك التي كنتُ أنا أريدُ أن أحسّها...

– سيدة إينيس...

– ماذا؟

– لا تحكي أشياء ستندمين من بعد على أنّك حكيت عن أشياء من حياتك الخاصة...

– أنا لا أمتلك حياة خاصة. حياتي الخاصة كانت لشخص آخر.

– أظنّ أنّ أفضلَ ما يمكنني فعله هو أن أستدعي دون خيرونيمو ليأتي في طلبكِ.

– نعم... لا. هو في رينكونادا.

– ماذا أفعل إذن؟

– لا أدري... أنا ذاهبة...

– كيف؟ أين؟

– اتصلي براكيل.

– حسناً. أنا ذاهبة...

– لا تتركيني وحدي لأيّ سبب كان.

– هل أنادي إن شئت على واحدة من النزيلات؟

– لا تفكري في ذلك...

– مع الموديتو إذن...

– طيب، مع الموديتو، حضرتك تقدّمي، أنا أضع بعض الأشياء في حقيبتي الصغيرة والموديتو يرافقني إلى غرفة البوابة لانتظار راكيل...

حضرتكِ، أيتها الأم بنيتا، تخرجين راكضة عبر الممرات، هذا خطير، إينيس جنّت، ليس هذا ممكناً، لا يمكن أن يحدث، لا يمكنهم أن يحمّلوني هذه المسؤوليات بالإضافة إلى الأخرى الباقية.

وطبعاً، تنادي على السيدة راكيل، المسكينة إينيس دائماً كانت لها هذه الوساوس، طبعاً، جنون خالص، تقول إن تقرّب دون خيرونيمو منها فستلقي بنفسها من النافذة وتنتحر، أنا سأستدعي طبيباً ليأتي في الحال، أيتها الأم بنيتا، يجب أخذها إلى المستشفى، يقولون إنّها في سويسرا كانت في أحدها، نعم كانت في أحد المشافي في سويسرا، أمّاه، ولكن ليس من أجل الأعصاب، وإن كنتُ أرى الآن مما حكيتِه لي حضرتك عن تلك الليلة بأنّه كان مكاناً كمستشفى المجانين وخيرونيمو لم يرد أن يخبر أحداً بذلك، حضرتك تعرفين كم هو عزيز النفس، ولكن كيف لي أن أفهم أن تصاب امرأة مثل إينيس بذلك النوع من الجنون الرخيص، أمّاه، أنا سأتأخر قليلاً، أكيد أنّ مسؤولي الرعاية العمومية سيصلون أولاً، ووصل أطباء الرعاية العمومية أولاً، يلبسون البياض، بينما إينيس تنتظر مع <ما يلزمها> في غرفة البوابة تبكي، وحين رأتهم بدأتْ بالهرب والصراخ وأمسكتُ بها بمساعدة الأطباء والممرضين، أرادوا أن يعطوها حبة لكنّها لفظتها، وعبثاً حاولوا زرقها حقنة فقد تنكسر الإبرة، ساعدتُ الطبيب والممرضين في إلباس بيتا بونثي قميص المجانين فقد كانت ترفس وتبصق وتعض وتصرخ بأنها ليست مجنونة، بأن جميع عجائز هذا البيت مجنونات، بأنّي وسخ لأني حشرتُ نفسي في فراشها، وربطنا قميص المجانين عليها، كانت تصرخ بأن يذهبوا لرؤية المصلّى إن لم يصدقوها، أيّ جنون تتفوه به هذه المرأة المسكينة كان يقول الطبيب، السيدة المسكينة كان يقول الممرضون، أنا كنتُ أحرّك رأسي مشفقاً، الأم بنيتا كانت تصلّي بعينين تملؤهما بالدموع بينما كان الجميع يلبسونها قميص المجانين وهي ترفس وتعض، يا للسيدة المسكينة، يا لبيتا بونثي المسكينة، في جسم إينيس تحبسهما اثنتيهما ستنهي مطارداتك الأزليّة خلف قضبان مستشفى المجانين، بعيداً عنّي، من دون مدخل إلى ما كنت

تريدين أن أعطيك، يحرسك ممرضون أشداء يرتدون البياض الكامل سيروضوك، نعم، حين تصلين إلى المستشفى ستكونين قد انضممت إلى لحم إينيس، من بعد، هناك في الداخل، ربّما ستغلب واحدة من الاثنتين أو ربّما لا، ربما ستكونين في فترات بيتا وفي فترات إينيس، أو تعيشان الحب الأكمل محبوستين في اللحم نفسه، معجزة آثولا ستكون قد تحققت، بيتا غير فاعلة، بيتا محبوسة لأنّها مجنونة، لأنّ أحداً لن يصدّق الحكايات الرهيبة التي سترويتها مهووسة عن رجل عار حشر نفسه في فراشك كان أنا، أنا بقدرتي التي لم أشأ أن أمنحكِ إيّاها، بيتا، منعتها عنكِ، وانتقمتُ منكِ ومن إينيس التي منعت عنّي فمها وكأنني قذر، وأنتِ، بيتا، سيحبسونك متنكرة في لحم إينيس لكي لا تواصلي البحث عن سكسي، سيحملونكما كلتيكما في الجسم نفسه، ولن أضطر حينها إلى أن أخشى بيتا ولا إلى أن أشتهي إينيس لأنّهما ستكونان حبيستين في مستشفى للمجانين بينما أنا، بكل هدوء، سأحفظ مقدرتي في دُرج تحت سريري، وهو المكان الذي نحتفظ فيه بالكثير من الأشياء نحن العجائز.

تمكنوا من زرقها بحقنة. هدأتْ. طرحوها على سرير المستشفى، أمّاه، لا تدعيني أذهب بمفردي، رافقيني رجاءً فأنا خائفة، ابتهلت قبل أن تنامي، وحضرتكِ، أمّاه، في مهمة الرحمة التي هي مهمتك تصعدين إلى سيارة الإسعاف البيضاء التي تحملهنّ جميعاً إلى مستشفى المجانين: حين تستيقظين ستجدين نفسكِ في غرفة بيضاء ذات نافذة وحيدة وما هي بالنافذة بل هي صورة كبيرة ستظنين أنّها نافذة حقيقية فقد راعوا حتى تلك اللفتة مع المجانين، يضعون لنا صورة لكي نظنّ أنّ هناك خارجاً. لن تعاودي الخروج. لن يصدق أحد أنني ولا أيّ رجل كان في فراشك، ما من رجل ينحشر في سرير عجوز مثلك، بيتا، ولا حتى أنا، وأنا الأحقر، زبالة، زبالة، هنا في هذا البيت ما من شيء

غير الزبالة يقول الأب آثوكار، لكن كان عليّ أن أمرّ بالمرحلة الصعبة المتمثلة بالبدء باغتصاب لأتخلّص منك. إينيس لا تهمّ. لقد اخترعتها أنا لألمس الجمال، ولكن في أعماق جمال إينيس الشابة كنتِ تقيمين أنت منذ الأبد، منذ دهر الداهرين، حيّة كشعلة النار، متغيّرةً كالماء، بانتظار اللحظة التي أظنّ فيها أنني أمتلك الجمال بين ذراعيّ لكي أتلقفه، كما تلقّفَ الكائيكه الطفلة- الساحرة ووضعك أنتِ في مكانها لكي تتلقي العقوبة، ومن أعماق القرون حاولتِ فعل التغيير المعكوس. لكنّي تغلبتُ عليكِ. إن كنت ساحرة، وهو أمر مشكوك فيه - ربّما لستِ أكثر من عجوز بائسة -، فقد خدعتُكِ وتمكنتُ من إزالتك. إينيس لَم تكن عندي أكثر من الطائر الطعم. أنتِ التي ستعانين محبوسة لأنك ستعلمين أنني، المرغوب، بعيدٌ عن منالكِ بينما أنت تنظرين إلى نافذة واضحة، عالية، موضوعة في مكان مرتفع جدّاً لكي لا تعتادك الرغبة في الهرب والبحث عنّي، ولا تغريك باقتلاع خداع تلك الصورة بأظافرك. لذلك، سأغلقُ غداً جميع النوافذ الباقية من دون بناء هنا في البيت. من المستحيل الآن فتحُ أيّ منها. فقد بنيتها بعناية حتى ما عاد ممكناً ملاحظة أنّها كانت موجودة، لأنّي في الليل، أتسلق على سقالتي وأنكبّ على فتح قروح في طبقة الجبصين، مسامات مليئة باللعاب الأبيض حيث تنمو العناكب، تقشرات في الطلاءات القديمة المتلاحقة، لأحدثَ ما يشبه التلف. رحتُ أزيل النوافذ. كما عليّ الآن أن أزيله هو. ستقلقُ على راحة زوجتكَ المسكينة المريضة التي لا تعلم أنّها بيتا بونثي. عليّ أن أزيلكَ. مخيلتي هي عبدتكَ كما كان جسد إينيس عبداً لك، تحتاج إلى مخيلتي لكي تكون موجوداً، إينيس وأنا خادماك، إينيس وأنا الحيوانان اللذان يحملان شعاركَ، وُجدنا لحمل نصيبكَ البطولي النبيل بتوازن، واحد من كل طرف. وقد أزلتُها فبدأتَ أنتَ بالتأرجح. وسأزيل نفسي الآن لكي تنهارَ وتتجزأ عند سقوطكَ

في ألف قطعة وسيضعون القطع في عربة الموديتو وسيجرها الموديتو حتّى باحته لكي يتلفكَ المطر والوقتُ والرياح والأعشاب الضارة ويزيلكَ. لدي الكثير من الصفحات البيض تنتظر أن أكتب نهايتكَ، عندي الكثير من الوقت لأختار لك النهاية الأكثر دناءة لأني الآن هنا في البيت في مكان آمن، وقد خلتْ هذه الليلة من حضور الأم بنيتا المنظّم، كلّ شيء يمكن أن يحدث الآن لأنّ العجائز نظفن المصلّى من دون أن يتركن أثراً على احتلالنا وأخلدنَ إلى النوم. سيستيقظن غداً بذهنٍ صاف لخلقِ عالم جديد، سأجعلهنّ يرقصن، خلف نوافذي المبنية، كُل البيت ملغى، من دون ثقوب للدخول ولا الخروج، البيت سحر، نحن العجائز جميعنا مسوخ، ما عدنا نمتلك شيئاً، ما عدتُ أخاف بيتا بونثي لأنّ الأم بنيتا أخذتها في عربة شحن بيضاء، مربوطة بقميص المجانين، تصرخ ثم تكفّ شيئاً فشيئاً عن الصراخ، لحبسها ربّما في حفرة في مركز الأرض، حملتْها في شاحنة صغيرة بيضاء، سيدة راكيل، ما أفظعَ ما حدث للمسكينة السيدة إينيسيتا، الطيبة المسكينة، منذ نصف ساعة تقريباً ذهبوا والسيدة راكيل ستذهب أيضاً إلى المستشفى في طلبك. حين تذهب السيدة راكيل، أنا أعرف أنّ جميع العجائز واليتيمات ينمن لينسينَ كلّ شيء. أفتح الحاجز، وهو الثقب الوحيد الذي بقي في هذا البيت، أفتح البوّابة، أغلق وأخرجُ إلى الشارع.

أحمد telegram @ktabpdf

٢٧

منذ قليل دقت الثانية عشرة ليلاً في ساعة برج الرحمة. الحَرّ، في شوارع الصيف، يطارد القمصان المتعرقة والأكتاف العارية التي تميل إلى البياض قبيل أن تختفي وراء الظلمة. الأضواء في مقاهي المركز لا تنطفئ، وإن كانوا يستطيعون إطفاءها لأنّ جميع الطاولات تقريباً فارغة... ما من أحد غير صبيّ ملتح ضجِر بالقرب من رفيقته النعسانة المسترسلة الشعر، ثلاثة رجال يرتدون بدلات زرقاً وشوارب بقصّة رجالية، الرواتب كما هي وزجاجة النبيذ هي هي، أشخاص لن يبلغوا مرتبة الشخصيّات، ناس فاترون، لا لون لهم، متشابهون، لا يميّزهم شيء، تفكّر إمبراتريث وهي تتبع الدكتور آثولا بين الطاولات الملطخة بالنبيذ الأحمر، بقايا ساندويش في صحن يتجمع عليه الذباب، مناديل ورقيّة مستعملة، أنبوب النيون يرتجف ويوشك على الانطفاء، ما أقبح ذلك، كريس، لا يهمّ، لا وقتَ لدينا، لنجلسْ عند هذه الطاولة ونناد على الغلام ذي السترة المرقطة.

- قهوتان كابويشينو.

تعوي فرقة الرولنغ ستونز لذلك الجمهور الجالس على كراسي غريبة الألوان، يتجاهل الجمهور عجلتهم الموسيقية وحثّهم وتأوهاتهم. قهوة. من الضروري أن يكون الفكرُ صافياً في لحظة كهذه: لحظة

اتخاذ قرار في الحال، هنا، الآن، في الابتذال الصارخ لهذا المكان، حول مستقبل حياتهم.

– لنرحلْ، إمبراتريث.

– إلى أين؟

– إلى أوروبا.

– أوَتظنّ أنّ خيرونيمو لن يعثر علينا هناك إن أراد الانتقام منّا؟ تذكّرْ أنّ أوروبا ما عادت بعيدة كما كانت عليه في زمانك.

– بالطبع، مع صيغة <طر الآن وادفعْ لاحقاً>...

– طبعاً. ثمّ، قلّ لي من فضلك لماذا تخاف من خيرونيمو إلى هذا الحد؟ هل نحن عبيده؟ ولماذا سينتقم منّا؟ لأنّ بوي رحل؟ وما ذنبنا؟ نحن نستطيع أن نترك خدمته في الوقت الذي نريد. لو تعلم كم أنا ضجرة بعد خمسة عشر عاماً من الحديث مع بيرتا.

– إمبراتريث.

– ماذا؟

– لنستغلّ الفرصة ونرحل. فكلّ ثروتنا هي في سويسرا. وقد تكاثرتْ مع الوقت، وهي كبيرة.

انتظر الدكتور آثولا نهاية المقابلة السنويّة مقرفصاً بين شجيرات الأقنثة في المتنزه المواجه للبيت الأصفر. كان قد رآهما يتحادثان ويضحكان في المكتبة، يتناولان الكونياك في كؤوس كبيرة مكورة، يدخنان، يدرسان معاً العقود لتعديل الرواتب الأهم، يطفئان الأنوار لعرض <شرائح صورية> عن حياة رينكونادا الرعوية.

عند الخروج، قالت إمبراتريث لابن عمّها لا، شكراً، فهي تفضّل هذه الليلة ألا يأمر بإيصالها إلى فندق الكريّون في سيارته المرسيدس،

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

فالليلة دافئة، وهي لم تتجوّل في شوارع المدينة منذ وقت طويل... وهي تودّ أن تتيه قليلاً، تهيم في تلك الأماكن التي كانت تعرفها تمام المعرفة.

- تصبح على خير، خيرونيمو.

- تصبحين على خير، إمبراتريث.

عبرت الشارع نحو المتنزّه وظهر كريس بين شجيرات الأقنثة. نقل لها الخبر بكلمتين: بوي اختفى. كيف؟ متى؟ مستحيل. احكِ لي، احكِ. ماذا سنفعل، ماذا سنفعل، لأجلِ الرب؟ ألم يترك أثراً، إشارة؟ كلاَ. لا شيء، الجميع يتبادلون التهم، كلّ منهم يلوم الآخر في رينكونادا. كاد باسيليو أن يقتل ملتشور إذ صرخ به هذا أخيراً مخنّث، الذنبُ ذنبكَ، لا بدّ أنّكَ فعلتَ ذلك، لا يمكن للطفل أن يكون ابتعد كثيراً إلا إذا حملته أنتَ على كتفيك، أيّها المخنث، ولكنّه ليس باسيليو، لا أحد يعرف من هو المذنب، رينكونادا في ثورة، مسوخ الدرجة الأولى جهّزوا حقائبهم وهم ينتظرون عودة إمبراتريث مع رواتبهم السنوية، ومسوخ الدرجة الثانية والثالثة يتآمرون للحصول على مناصب أعلى، والإشاعة تنتشر عبر الحقول التي يسكنها مسوخ لا قيمة لهم شرعوا في عملية تمشيط بين الأحراج. صرّحتْ بيرتا بأنها غير مهتمة بالمال وانصرفتْ، وكان كريس متيقناً من أنّها في تلك الساعات، وبالطيش الذي عُرفتْ به بيرتا، كانت في مكان ما من المدينة لا يعلمه إلا الله... يقولون إنّ جريمة وقعت في أطراف رينكونادا، عملياتُ سطو مسلّح، مزارعُ محروقة بعد أن سمعَ مسوخ المرتبات المتدنية بخبر اختفاء بوي وبدؤوا ينتشرون لأنّهم قالوا إنّ أحدهم لمح كائناً طبيعياً بالقرب من مخازن الغلّة، وبأن الكائنات الطبيعية، حين علمت بأنّ بوي قد هرب، بدأت بالزحف عليهم، بغزوهم لاحتلال المزرعة التي كانت النيران ما زالت مشتعلة فيها والدجاج في الحظيرة، كلّ شيء متروك هكذا، كما

هو، لأنّ الجنة ستنتهي، كان ضرورياً الهروب لكي لا يجدوا أنفسهم وقد فتك بهم الانتقام... التشتت، إمبراتريث، الخراب...

- وقبعاتي؟

- فكري في ما ستستطيعين شراءه منها في أوروبا.

- يقولون إنّ الصناعة هناك ليست هي صناعة الماضي.

- المهم، إمبراتريث...

- على الرغم من أنني أظنّ...

- ليس الوقت وقت تفكير، يا حلوتي، هذا وقت فعل...

خفضتْ عينيها.

- يا حلوتي.

هي لا ترد.

- تصوّري الحياة التي يمكن أن نحياها هناك، أحراراً. أنا لستُ منفصلاً كثيراً عن الأوساط العلمية: الناس لم تنس ما فعلتُ من أجل تقدم العلم. بيت للاستراحة، مستشفى أنيق في سويسرا للمسوخ من أبناء الأثرياء، عملية زرع من هنا أو هناك حين تهمّني الحالة. بالمال الذي وفرناه في هذه السنوات الخمس عشرة من التضحيات...

- أوشكت صلواتي على أن تؤتي ثمارها...

- لا أسعى إلى أن أكون في الطليعة كالسابق. ولكن بقيتْ لديّ معارف تؤهلني لتشكيل فريق من الدرجة الأولى...

- أنا سأستطيع الاستراحة...

- لا، حبيبتي، فأنا أحتاجكِ! ألا تدركين أنّك تشكلين جزءاً من حياتي الإبداعية، وأنّها من دونَك لا وجود لها؟ ثمّ إنّك كنت دائماً وستكونين دائماً امرأة فعل وسأحتاجك مديرة لمؤسستي: ليس عندي مدير للمالية وتنظيم الأفراد العاملين... لا أثق إلا بكِ...

- حقاً، كريس؟

- أقسم لكِ...

- ونستطيع التمتع بإجازة طويلة حين تواتينا الأمور ولا تحدث مشاكل خطيرة...

- نشتري فيللا في ماربيّا، التي طالما تظهر في مجلة (فوغ)...

- آي، نعم، نعم إلى حيث تذهب الحسناوات، أودري هيبورن، ماريسا بيرنسون، بينالوبي تري... وكيف تعرف أنّ ماربيّا مرغوبة؟ أما كنتَ تضحك كثيراً من ثقافتي القائمة على أساس مجلة (فوغ)؟

- أحياناً أتصفحها وأنا في المرحاض... تصوّري، معرض في باريس، ماربيا يقولون إنّها رائعة. تعملين لوحة شخصيّة لك من رسم كلاوديو برافو...

- أفضل ليونور فيني... هو أقرب إلى ذوقي...

- طيب. ليونور فيني. ولكن العودة إلى إسبانيا... سانتيانا دل مار، سانتياغو دي كومبوستيلا، تلك البلدات الباسكية الخضر، من حيث خرج أسلافنا... رؤية ذلك كلّه في وقت واحد ستكون كرؤيته للمرة الأولى.

صوت كريس وهو يكلّمها. ذكورية لغته الإسبانية الوعرة اليابسة:

- إنّها مسألة إرادة. أنت نفسكِ قلتِ ذلك. لسنا عبيدَ خيرونيمو.

تلتزم القزمة الصمت للحظة وتغمض عينيها.

- هناك شيء أريد منكَ أن تخبرني به، كريس.

- ما هو؟

تبقي على عينيها مغمضتين، رطبتين تحت رموشٍ اصطناعية، وتبسط يدها فوق الطاولة، وتضغط على قارورة السكر. يأخذها

كريس بمخالبه ويضغط عليها: السؤال والجواب أخرسان، ولكن فعل الندامة ضروريّ.

– إمبراتريث، حبيبتي، كيف يمكنكِ أن تشكي في إخلاصي. على الرغم من مواطن ضعفي، ومن الحماقات التي أتيتُها، الناتجة قبل كلّ شيء عن الفراغِ والكسل، فقد كنت وستظلين المرأة الوحيدة في حياتي. لنرحل غداً، في أول طائرة!

أشرق وجهها، تفتحُ عينيها لتنظر إلى عين كريس الوحيدة وتنتبه إلى أنّ طاولات المقهى من حولهما راحت تمتلئ، إلا أنّ الممرات بين الطاولات تغصّ بحشد من الناس الواقفين ينظرون إليهما... يباعدان ما بين يديهما، يخفيانها، لكننا نواصل الوقوف، مبهورين، من دون سخرية لأننا لا نفهم تقريباً، نحيط بهما، بها وبكريس بفضولنا الصادر عن كائنات متجانسة، نحطمهما بدهشتنا، نحاصرهما، نربطهما إلى كرسيهما بذهولنا، نحن كائنات تختلف عن إمبراتريث وكريس، نحن نشبه الفضولي القريب منّا لأنّ ما من تشويه يرسم علامة علينا، نظراتنا تجعلهما غير مصدقين، تشلّهما عن الحركة... موظفو بنك... محققون خاصون... فرّاشو وزارات... صبيَة غير محتملين، مسترسلو الشعر ممن يستحقون السجن بتهمة أنّهم ثوريون أو مخنثون، لا فرق... وربّما عاهرات رخيصات... باعة مسافرون بين قطار وقطار... أعمى، متسوّلة، دركي في إجازة، فضولنا يشلهم. استطاعت إمبراتريث أن تدمدم:

– هيا.

– نعم، هيّا.

– ادفع، كريس...

– جارسون!

يقترب الجارسون:

- كم الحساب؟

- صاحب المحل يأمر بألا تدفعا شيئاً، شكراً...

تقف إمبراتريث، تتدثر بمعطفها (الإمبا موتيشن منك). في أوروبا، الشنشيلة. نعم، سيدي، يقولون إنّ دون كارلوس في إيباس، في برشلونه، يبيع فراء شنشيلة بنفسجيّة. نعم، سيدي، سيكون لديّ معطف شنشيلة بنفسجي. بالنسبة إلى شخص له طولي لا يمكن أن يكون المعطف باهظ الثمن.

- ولكن، لماذا؟

- لأنّ حضرتكما استرعيتما الانتباه كثيراً وشاع أنّكما تتغازلان هنا وبدأ الناس بالدخول من الشارع لرؤيتكما... انظرا كيف هي الطاولات، غاصّة كلّها والزبائن كثيرون بينما المقاهي الأخرى القريبة فارغة لا يُسمع فيها صوت. إنّها هدية من المحل...

تحمل إمبراتريث إضبارة الوثائق وتسير وراء زوجها الذي راح يشقّ دربه بين الفضوليين الذين ينطلقون مصفقين وهم يرونهما يخرجان، لا، كريس، لن نرحل إلى أي مكان، لنعدْ ونختبئ في رينكونادا، وكلما أسرعنا كان خيراً لنا، خيرونيمو لن يضايقنا لعام قادم وبوي لن يتحمّل عاماً خارجاً، بعد إذنكم، دعونا نمرّ، لا تتجمعوا عند الباب، لا، هذا ليس سيركاً، أيّة أوتوغرافات تريدوننا أن نوقّع، هيا، إمبراتريث، أوقفتُ السيارة على مسافة شارعين. يظلّ الفضوليون متجمعين عند باب المقهى بينما الشريكان يختفيان في الشارع نزولاً. يتبعهما متسول غريب، عيناه براقتان ويداه المعبرتان، يحاول أن يجعلهما يفهماه، أخرس أطرش، قالت إمبراتريث، تصدقْ عليه، كريس، أيّ قرف وما أغرب ثيابه، أيّ رجلٍ تافه، كم هو ضعيف، يريد

أن يقول لنا شيئاً، أتلفظُ بكلمات لا يستطيعان سماعها، أومئ، أشرحُ لهما الحاجة إلى التخلّص من خيرونيمو، كلّنا في حاجة إلى تدميره، لأجل ذلك أتيتُ، خرجتُ من البيت لمقابلتكما، لكي نتآمر، ماذا يريدُ نصف الرجل هذا، لماذا لا ينصرف ويدعنا وشأننا، لأنّه يائس، نعم، يائس لأنّه لم يبق لنا إلا وقت قصير قبل أن يبادر خيرونيمو، لا بدّ أنّه متسوّل جائع، انظر إلى ثيابه الرثة، وجهه الشفاف كالروح، انظر إلى رجليه المرتعشتين، يتوقفان تحت مصباح وكأنهما يريدان مساعدتي، يبسط المسخان عطفهما لي، ينظران إلى حركة شفتيّ، يتعلمان قراءة المقاطع والكلمات، ثمّ المفاهيم في شفتي الخرساوين، يفهمان، يستمعان مندهشين ما عدتُ أحتاج أن أومئ كثيراً، نتكلّم، لدينا الكثير، الكثير مما نتحدثُ فيه حضرتكما وأنا، عليهما أن يتابعا إرشاداتي إلى النهاية، عداني ألا يظلّ أثر من وجوده.

***

- بيرتا...

لا ترد بيرتا.

- إلى أين تذهبين بتلك الهيئة؟

واصلت بيرتا تجرّ نفسها.

- هل جننتِ تماماً؟

كانت تسير عارية صوب باحات بوي، عينان زجاجيتان، نظرة هائمة، ولا تردّ على إمبراتريث التي تواصل حثّها، أيّة وقاحة هذه، بيرتا، وفي هذا الطقس الرهيب، أنا لا أريدُ أن أقولَ لكِ ما يزعجكِ ولكن عليكِ أن تستمعي إلى نصائح الآخرين، لا أنتِ ولا أنا في سنّ تسمح لنا أن نسير هكذا نستعرض أنفسنا... بيرتا... بيرتا... غير معقول، عارية وتجرّ نفسها كما في أيام أومبرتو بينيالوثا: هي، التي كانت تقلدها في

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

أسلوبها في اللبس وكانت قد أمرتْ بعمل عربة كهربائية تحملها من مكان إلى لآخر بكبسة زر، من دون أيّ جهد وبشيء من الرشاقة. لم ترها إمبراتريث عارية منذ على الأقل... عشرة أعوام... لا، اثني عشر عاماً. كانت منتهية! طبعاً، <ثديان صناعيان>، هناك وجد كريس الدليل أمام عينيه على أنّ ثديي بيرتا الآن ليسا هما ثديي بيرتا التي عرفها... ليتطلّعْ إلى الحقيقة العارية حرفياً. كانت تفعل ذلك لإزعاجها، لتزعج إمبراتريث، أفضل صديقاتها، صديقتها الوحيدة لسنوات طويلة، ردّي عليّ، بيرتا، كم أنتِ مجنونة وأنت تمشين هكذا، لقد فقدتْ ذراعاك القدرة على سحب جسمك الذي عاد ناتئ الوركين، أقول لكِ ذلك وإن أساءك ما أقول فلا بدّ من ردة فعل منكِ. لم تشعر بيرتا بالإساءة. يداها العظيمتان تمسكان بكلأ الحقل، بالحصاة الصغيرة، اسمعيني، بيرتا، بمدرجات الصعود في الحديقة إلى الممر تجرّ ذيلها، وكما حدث في أوقات أخرى فقد ضربت برأسها البوابة التي تفصل باحات بوي عن بقيّة رينكونادا ثلاث مرّات. تبادل الطبيبُ وامرأته النظرات وكأنهما يقولان: لقد جُنّت.

فُتح الباب. فتحَ لهما باسيليو، الكبير العاري، وهو بعدُ قويّ كالمُجالد، ليسمح لهما بالدخول إلى حجرة الانتظار. ومن دون أن تنظر إلى باسيليو تناولت إمبراتريث مقبض باب أول باحة من باحات بوي، لكنّها لم تنفتح. كانت مغلقة بالمفتاح.

– من لديه المفتاح؟

– أنا، سيدة إمبراتريث.

– افتحْ.

– لا يمكنكِ الدخول.

– كيف تقول ذلك؟ أنا أستطيع الدخول أينما شئتُ في هذا البيت.

- ادخلي حضرتك، سيدة بيرتا...

فتح باسيليو الباب بالمفتاح الكبير فانسلّت بيرتا صوب الباحة من دون أن تسمع نداءات إمبراتريث، بيرتا، بيرتا، قولي لي ماذا حدث، وعاود العملاق غلق الباب بالمفتاح. علّق الحلقة الكبيرة في ساعده، تتدلى المفاتيح كما تتدلى الجواهر من أسوارة عبدة.

- باسيليو.

- سيدتي؟

- هل لكَ أن تخبرني بمعنى هذا كلّه؟

- لا أفهم، سيدتي.

- أنتَ متوحش.

- هنا لم يتغيّر أيّ شيء، سيدتي؛ إنها مناوبتي...

صرخت إمبراتريث وهي تنظر إليه من قامة الضفدعة التي هي قامتها:

- أعطني تلك المفاتيح!

باسيليو لا يسلمها إياها.

- كيف تقول إنّ شيئاً لم يتغيّر، باسيليو؟

فُتح الباب من الداخل وظهر بوي عارياً تماماً: هيبة السكس العظيم بين الساقين الواهنتين، الذراعان القصيرتان، الصدر الغائر، ثقل الحدبة يبرز نحو الأمام الوجه الذي انحبس فيه قوس الفم بين الأنف والذقن، الجبهة المزيفة، الأذنان والشفتان غير تامتين كما هي حال الجنين، القوس الكهربائي للعينين الزرقاوين بجفني سحلية... شعرتْ إمبراتريث للمرة الأولى بتلك النظرة الكهربائية وقد أحرقتها، بإرادتها وقد تحولت إلى رماد. سلّم بوي على الشريكين.

– نعم، إمبراتريث. هنا لم يحدث شيء.

– لا أفهم.

– تعريا كلاكما وادخلا. أريد أن أتحدث معكما قليلاً.

– من المبكر أن أتعرّى... و... وبصراحة أنا لستُ مستعدة.

أجبرهما جفنا الأفعى المنشوران من ذلك الأزرق على خلع ملابسهما. تذكّرت إمبراتريث، لكي لا تفكر في أشياء أكثر خطورة، أنّها لم تدقق، وهي في عجلة من أمرها، في ملابسها الداخلية، كما أنّها لم تكن في كامل إشراقتها بعد السفرة الطويلة في السيارة، فضلاً عن الضيق الذي يعنيه التعرّي أمام أحد، كان الوضع من قبلُ مختلفاً، بوي لم يكن يدقق هكذا على الرغم من شبقه، وكانت هي تظهر دائماً عارية، أمّا كريس، يا إلهي، أيّ مظهر، أيّ كرش، ليس هو بالكرش الكبير جدّاً، لكنه ناتئ تحت السرّة. من حسن الحظ أنّها أمرتْ من سنوات طويلة بنزع المرآة من حجرة الانتظار: ما كانت ستتحمّل أن ترى نفسها «هي»، اليوم، عارية وفطساء وكبيرة الرأس ومربوعة القامة وبدينة ومترهلة اللحم. «هي»، على الأقل، ما كانت تُرى. تمشّى بوي حول الشريكين للحظات، وصرخ:

– قبيحان! إنّكما مقززان، بل لستما ظريفين، أنتما لا تشعراني بالرغبة في الضحك بل في البكاء. عليكِ أن تعتادي السير عارية، إمبراتريث، فهنا لم يحدث شيء. اتبعاني.

تمتمت إمبراتريث بشيء.

– لا أفهم، إمبراتريث، من الأفضل أن تتكلمي بوضوح. أحذركِ من أنّ هذا هو الحديث الأخير الذي سيدورُ بيننا حول نقاط معينة. بعد ذلك سنسدلُ ستاراً على قلّة حيائك في السنوات الاثنتي عشرة الأخيرة...

- قلّة حيائي، أنا...!

- نعم، قلّة حيائكِ أنت وزوجكِ، فقد ختنتما فكرة أبي العبقرية واستغللتموني... نعم، إمبراتريث، لا تخافي إلى هذا الحد، أنا الآن أعرفُ ما معنى أن يكون لي أب، أعرفُ من هو أبي، أعرف ما الذي خطط له وأعرف تمام المعرفة كم سيؤول لي وماذا سيؤول لي بعد وفاة أبي، نعم، أعلم الآن معنى الاستحواذ، وأعلمُ ما معنى الموت... لا تخافي، اهدئي، فخمسة أيام من التجوال في الخارج تعلّمُ الكثير. وكما قلتُ لك سنسدل ستاراً: هنا لم يحدث شيء. سأمنّ عليك بأن لا أشكيكِ لأبي. في مقدوري أن أشكيكِ له لكنّ ذلك لا يناسب خططي.

لماذا عادا إلى رينكونادا؟ كانت سويسرا ستكون سهلة جدّاً، ومريحة جـدّاً، وكان في مقدورها أن تسافر بجواز سفر زوجها الإسباني. لكنّ كلمات متسوّل من دون صوت أجبرتهما على العودة إلى هذا الجحيم.

- أنتظرُ تفسيرك، إمبراتريث.

جميع تلك الوجوه تنظر إلينا في المقهى...

- جميع تلك الوجوه تنظر إليكما في المقهى؟

- وكيف عرفتَ؟

- أنا الآن أعرف كلّ شيء. لدي أعوان في الخارج يساعدونني في تنفيذ أهدافي، لأني أيضاً أعرف ماذا يعني أن تكون للواحد أهداف: أعواني هم الذين عانوا معي خلال هذه الأيام الخمسة التي أمضيتها في الخارج، الذين تماهوا معي حين أردتُ أن أتحوّل إلى كائن بشري. هم أبلغوا أبي بأني هربتُ، وسيأتي، إمبراتريث، لقد وعدني، يريدُ أن يرى إن كنتِ أوفيتِ حقاً بالتزاماتك في الإبقاء عليّ سجيناً في اليمبوس.

– اليوم؟

– لا أدري، ربّما بعد أيام، أنت تعلمين أنّ أبي مع السنوات صار يعاني من الخمول...

– يا إلهي! خيرونيمو ينتهي!

– طبعاً وأنتِ تستغلين ذلك. أريد أن أحذركِ من شيء. أبي سيأتي، لكنّه لا يعلم شيئاً عن إساءاتكِ التي جرّدتْ فكرَته الأولية من فعاليتها. هو يفهم أنّ وجوده في رينكونادا ضروري... زيارة، زيارة سنجعلها أنا وأنتِ، لأنّك ستساعدينني، تطول كثيراً، كثيراً من الوقت...

– ولكن ماذا سيفعل خيرونيمو هنا؟

– هذا ما سنراه. إن لم تريدي أن أطردك أنتِ وآثولا وبقيّة المسوخ إلى الشارع لكي يطاردكم الناس ويضحكوا علَيكم كما ضحكوا قبل أيام عليكما في المقهى وكما ضحكوا عليّ في البارات والشوارع وفي بيت دعارة حيث لم يريدوا أن أمسّ أيّة واحدة من النساء العاديات لأنّ المسوخ، قالوا، هم من أتباع الشيطان ويجلبون حظاً سيئاً وطردوني إلى الشارع... إن لم تريدا أن أرمي بكما وأن أدمّر هذه الجنّة، عليكما أن تلعبا لعبتي وتطيعاني. لقد نبّهتُ الآخرين إلى أني سأمحو العالم الخارجي. وإلّا فسأذكر لبيرتا أنّك حديثة نعمة، وأنّك لم تطئي قط تلك المدرسة الأرستقراطية التي تتكلمين عنها، وأنّك تعرفين أصلَ الجميع، ولكنّ أحداً لا يعرف أصلكِ.

– سأموتُ إن علمتْ بيرتا بذلك!

– حسناً. أوافق على السكوت عن أشياء كثيرة: لكن عليك أن تلعبي لعبتي لأنّك أسيرتي. علينا أن نلغي عالم الخارج. وأنتَ، آثولا، ستجري لي عملية من جديد: هذه المرة ستستأصل من دماغي ذلك الجزء الذي خزنتُ فيه جميع تجاربي عن تلك الأيام الخمسة التي

أمضيتُها في الخارج، ثم ستعود إلى الغلق لتتركني جاهلاً ونقياً كما كنتُ في أوقات أخرى.

– سيكون ذلك صعباً.

– لكنه ممكن.

– نعم، ممكن.

– ما يهمّ فقط هو داخل باحتي. أمّا البقية فهي لكم لتفعلوا فيها ما تشاؤون، لا يهمني، احتفظي بكلّ شيء، إمبراتريث، أهديكِ رينكونادا وما سواها، لكِ ولأثولا ولمسوخ المرتبة الأولى، افعلا ما شئتما بثروتي حين يموت أبي إن سمحتما لي أن أتحوّل من جديد إلى حالتي التجريديّة. بعد خمسة أيام في الخارج لا يهمني أن أعيش. قال أحد الشعراء: «الحياة؟ الحياة؟ ما هي الحياة؟ لندع خدمنا يحيون بدلاً منّا». وأنتم خدمي. أنتم ستعيشون ما حرمتُ نفسي من أن أعيشه. الآن وقد عرفتُ الواقع، لا يعنيني غير ما هو مصنوع.

– وهو؟

– من، أبي أم الآخر؟

إمبراتريث تلعثمت قبل أن تجيب:

– خيرونيمو.

– لو ولدَ لي ولدٌ مسخٌ مثلي، لفعلتُ ما فعلَ هو معي بالضبط. رأيتُه ذات صباح يمرّ في الشارعِ، كان يرتدي لباساً رمادياً فاتحاً، ويحمل قفازاً في يده. لذلك مشرطكَ، آثولا... أعرضُ عليكَ أنتَ وإمبراتريث كلّ ما سأرث إن استأصلتَ مني تلك الأيام. ازرعْها في شخص آخر لكي يعيش داخل كابوسي. بعدها سأحبسُ نفسي في باحاتي حيث ستحافظون أنتم على النظام الأولي.

– وخيرونيمو؟

مكتبة أحمد ٢١٥
telegram @ktabpdf

– سيأتي. قريبا جدّاً. أصدقائي يهمسون الآن في أذنه، ويمنّونه بأعظم الأمنيات...

– ما هي؟

– أن يكون لي ولد. هكذا، وبعد اجتياز جحيم حلقة مسخيّة، ستكون العائلة نقيّة. أريد أن تتمّ العمليّة في أسرع وقت ممكن، آثولا. سيكون كلّ شيء لكم شرط أن تُبقوا على يمبوسي. أتريدون الرحيل أم ستبقون؟

تبادلا النظرات بصمت.

– في مقدوركما الرحيل إن أردتما.

كانت إمبراتريث قد أغمضت عينيها، يداها المكتنزتان، الواحدة فوق الأخرى في تنورتها. حرّكتْ هي وزوجها رأسيهما في إيماءة رفض. قال بوي:

– طيب. يجب الاستعداد. الحقيقة التي وُجدتْ من أجلي ستكون «هي» الحقيقة، وسأموت من دون حزن لأنّي سأكون قد نسيتْ «ماذا» يعني الموت. غذّيني، إمبراتريث، بالكثيرات من «أسمن امرأة في العالمِ»، جميعهنّ متشابهات، لحم خالص، وأنتَ، آثولا، راجعِ وصفاتكَ بمذاق الفانيللا لتعاود تغذيتي بها منذ هذا اليوم، لن آكل شيئاً آخر أبداً، وسيكون تتابع البدينات مثل تتابع العصائد المعدّة جيداً: مغذية، ستبقي على جسمي عاملاً، لكنّي لن أتشهّى شيئاً آخر.

– لكن بوي!

– ماذا، إمبراتريث؟

– وهو؟

– من؟

أغمضت القزمة عينيها وصرخت صراخاً حاداً ومطوّلاً. وهدأت في ثانية.

- أترين، إمبراتريث؟

- ماذا؟

- ألم ترغبي في لمس أحدٍ غير قابل للمس؟

- هل كان هو من حكى لَكَ كلّ شيء؟

- هو.

- المهم. متى سيأتي خيرونيمو؟

- لا أدري، ولكن عندما يأتي سأكون بوي ذا السبعة عشر عاماً الذي حلم به هو. مع فارق واحد: وهو أنّ كلّ شيء، إلى أن يختفي هو وأستطيع أنا أن أجري العملية التي سيستأصل آثولا لي فيها تلك الأيام الأربعة، سيكون تمثيلاً، أنا سأتصنّع وأنتم أيضاً. بعدها، حين يجري آثولا لي العملية ويختفي أبي، سأسلمكما كلّ شيء لكي تحافظا أنتما من الخارج على حقيقتي.

نهض الدكتور آثولا على قدميه.

- أنا لن أشارك في جريمة.

- ومن تكلّم عن جريمة، كريس؟ لا تكن أحمق، أيّها الوسيم.

٢٨

– هل زيّن هو كلّ هذا؟

– هو...

– بلغ حداً جيداً من الذوق. كان أومبرتو ذكياً. هذه شقّة لطيفة جدّاً. في مقدور الواحد أن يعيش هنا حياة كاملة...

– هذه هي غرفة النوم.

– ليأتوا بحقائبي إلى هنا.

– أنا ظننتُ أنّك ستقيمين في شقّتي...

– لا أدري، حين رأيتُ كلّ هذا، راق لي أن أسكن في شقة أومبرتو. حضرتك... ما اسمكَ؟

– باسيليو، سيدتي.

– احملْ متاعي ورتّبْ ملابسي في غرفة الملابس بينما أهتمّ أنا ببقية الأشياء.

خرجا إلى الشرفة، وتطلعا منها إلى المرج الواسع الفخم، المسبح، المظلات الملونة، أشجار المتنزه من حور ومغنولية وأروكارية وكالبتوس، وإلى سلسلة الجبال من بعيد.

– لقد نسيتُ كلّ هذا الجمال.

– كريس يقول دائماً إنّه رائع...

- وهذا؟ المكتبة. لوحتي التي رسمها كلود لورين. كم مضى من الوقت من دون أن أراها! إنّه شيء من قبيل لقاء صديق لم نره منذ وقت طويل والتساؤل كيف أمكن الحياة من دون محادثته. ليست هي أيّة لوحة لكلود، إنّها لوحة رائعة، ما عاد في الإمكان الحصول على لوحات لكلود مهمة كهذه... وهذه هي طاولة خشب الجوز حيث كان يكتب...

- كان يكتبُ قليلاً.

- مع الأسف. كان ذا قريحة فيّاضة.

- في الواقع هو لم يكتب شيئاً قط، خيرونيمو. كان يمضي الوقت مفكراً في ما سيكتب، وأحياناً، حين كنّا نلتقي في المساء في جمع لطيف، كان يحكي لنا عن مشاريعه.

- المهم، ربّما كان ذلك أفضل. أحد عيوب أومبرتو اعتقاده أنّ سيرتي الذاتية مادة أدبية.

- نعم، بدأ متحدثاً عن ذلك، لكنّ كلّ شيء تغيّر كثيراً بعد ذلك. لم يكن أومبرتو يميل إلى البساطة. كان يشعر بالحاجة إلى ليّ ما هو طبيعي، نوع من القهر من أجل الانتقام والتدمير وكان ما عقّد مشروعه الأولي وشوّهه من الضخامة أنّه بدا وكأنّه هو من ضاع وإلى الأبد في متاهة راح يخترعها، مليئة بالظلمة والمخاوف التي فيها من التماسك والقوة أكثر مما فيه هو نفسه وفي شخوصه الأخرى، الأثيريّة دائماً، المتذبذبة، التي لم تكن قطّ كائناً بشرياً، بل أقنعة تنكرية دائماً، ممثلون، مكياج يذوب... نعم، كانت وساوسه القهرية ومشاعر الكره لديه أهمّ من الواقع التي كان من الضروري له أن يرفضه...

- كلام مهم، إمبراتريث. أنت ناقدة أدبية جيدة...

- سنوات كثيرة من العيش معه.

- طبعاً. أنا أعتقد أنّ المشكلة الأساس عند المسكين كانت حاجته إلى أن تكون لي قامة روحية وقوّة على النمو، ومن هنا ظهرت تلك الحاجة إلى أن اخترع لي السيرة التي ضاع فيها... آه، آثولا، ادخل، ادخل، أنا مسرورٌ لرؤيتك، تفضل بالجلوس، باسيليو، ويسكي للدكتور. ما ألطف هذا البيت، أليس كذلك؟

- بيتي جميل أيضاً، يا ابن العم.

- نعم، ولكن ذوقكِ الحسن لا أناقة فيه، إمبراتريث. كنت دائماً فقيرة وأمّك كانت موظفة في شركة التلفونات...

احمرّ وجه إمبراتريث: ليقولوا ما بدا لهم أن يقولوا، أمّها كانت سيدة عظيمة.

- ولكن كان لديكِ ما تبنين عليه ذوقك. أمّا ذوق أومبرتو فقد كان اختراعاً صرفاً. المهم، لنكفّ عن الكلام عنه، أنت وآثولا موجودان للحفاظ على هذا قائماً...

سار كلّ شيء وفقَ ما أراد هو، أكدّت إمبراتريث له ذلك، لا شيء سيخيّب ظنّه: نتائج المشروع التي سلموها إيّاه كانت مدهشة حقّاً. هل تفضّل الاستراحة من رحلتكَ أم الذهاب في الحال لرؤية ولدكَ؟

- كلا... أنا متعب قليلاً. وجائع...

- هل تريد أن تراه بعد الغداء إذن؟

قال خيرونيمو متلعثماً: ربّما لا، من الأفضل ألا أراه اليوم. في الواقع كان متعباً جدّاً، كان يفضّل التجول في الحديقة التي تحمل له الكثير من الذكريات، التعرف على ناس الخارج أو ربّما أخذ قيلولة جيدة، وليهيئوا له الشرفة ليمضي فيها بقية النهار. ربّما غداً، نعم، من دون شك غداً في الصباح الباكر...

لكنّه في صباح اليوم التالي أمرَ بأن يسرجوا له حصاناً. خرج وحده

للتجوال في الطرق المحفوفة بأشجار الحور ضمن حدود عزبته، البحيرات المحاطة بسيقان البردي، للاستماع إلى رفوف طيور الزقزاق، لزيارة أكواخ القاطنين التي يقيم فيها الآن مسوخ الدرجة الثالثة والرابعة والخامسة... أحسنت، إمبراتريث، أهنئك، إحاطة البيوت بحزام عازل من المسوخ يبدو لي إجراء احتياطياً ممتازاً، قال لها خيرونيمو خلال العشاء في تلك الليلة، الوجه الذي احمرّ من الشمس، لطّفته ابتسامة هادئة.

- إمبراتريث...

- ماذا؟

- تساورني نزوة... نزوة طفل صغير...

- وما هي؟

- تذكرتُ طعاماً أبيض كانت بيتا بونثي تعدّهُ هنا في رينكونادا في قدْر نحاس، طبخة بيضاء من الحليب الطازج. كانت العجوز تمضي أَوقاتَ العصر كاملة تقلّب القدر، وكان يبقى في الحلوى شيء من طعم دخان الحطب الخشبي، الحليب مقطوع قليلاً... المهم، فجأة تذكرتُ وشعرتُ بالرغبة...

- ولكن خيرونيمو! هذا سهل جدّاً. غداً سأعطي أوامري وستتناوله في فطورك بعد غد...

راح خيرونيمو يوماً بعد يوم يؤجل زيارته إلى باحات بوي. وبدا مسترخياً قليلاً وهو يعيش بين المسوخ الفرحين وهم يتراشقون بالماء في المسبح ويتمرنون على إرسال الكرات إلى <حفرات الغولف> ويستمعون إلى بيتولا كلارك في أغنياتها العابرة للمحيطات وهم يدهنون أجسامهم بكريم (الآمبر سولير) لتحميص بشرتهم بينما يتصفحون (باريس ماتش) ليعرفوا بمن سيتزوج (غونذر ساش)، ولم

تستطع بيرتا مقاومة الرغبة في توجيه غمزة من عينها فيها الكثير من التلميح. كان أيّ شيء، أيّة عطفة في ممرّ من الممرات المحفوفة بأشجار الهورتينسيا العملاقة، أيّة زاوية من الزوايا في الممرات، تحرّك فيه ذكرى زوجته. لم تتعب إمبراتريث من سؤاله عن إينيس، جواهرها، كيف كان لباسها...

– كلّ أشيائها محفوظة؟

– أين؟

– في بيت الرياضات الروحية لعذراء التجسد في تشيمبا...

– آه، ذلك الوقف العائلي.

– نعم. هناك غرف كثيرة مليئة بأشيائها. تتلف كما أتصوّر.

– خسارة أن ينتهي كلّ ذلك!

– ينتهي؟

نهض خيرونيمو على قدميه، عملاقاً أمام إمبراتريث. داخلها الخوفُ حين رأته بالغَ الجمال، بشعره الأبيض الذي ما زال وفيراً. كان الوقوف قبالته والنظر إليه مثل الشعور، وأنتَ في مقهى، بأن الجمهور المستهزئ يحطّم أخصّ خصوصياتك... أحسّت القزمة بدوار وهي تنظر إليه نحو الأعلى.

– لن ينتهي شيء.

– حسناً، ولكنك لستَ خالداً...

– أتظنّين ذلك؟

– أفترض ذلك...

– في هذه الأسابيع الجميلة التي أمضيتها هنا في رينكونادا، استنتجتُ أنّ هذا لا يمكن أن ينتهي. ليتزوّج بوي، نعم، ولتتواصل

الأمور ولا تنتبه. لا أدري إن كان مذاق ذلك الطعام الأبيض الذي كانت بيتا بونثي تعدّه هو ما أحدث في نفسي تلك الرغبة الفجائية في أن يكون لي أحفاد.

– ونحن، يا ابن العم؟

– ألم أدفع لكم رواتب جيدة خلال لا أدري كم سنة؟ أنا متأكد من أنّكم تستطيعون أن تتدبروا أمركم.

– هنا أشياء لا يمكن إصلاحها بالمال.

– هذه عبارة جاهزة مثيرة للضحك.

– إطلاقاً.

– ماذا تقصدين؟

– نحن أيضاً ضحاياكَ.

كانت تلك هي الكلمة التي كان يبغي الوصول إليها.

– ضحايا، إمبراتريث؟

– نعم، ضحايا. فولدكَ، تحت رعايتنا وفي حماية طبيعتنا المسخ، ملكٌ. نحن الأدوات: ستارة المسرح المصبوغة، قماش الديكور المعلّق، رؤوس عجينة الورق، الأقنعة. إن سُحبتْ هذه من حول الشخصية المركزية، التي ولدت على خشبة المسرح لتجسد شخصيّة الملك... فستسقط في الهاوية. مشروعك لن يكون سهل التنفيذ...

– إنّكِ تحاولين حماية نفسكِ.

– نعم. تذكّرْ أنني لا أخرجُ إلا مرّة واحدة في السنة. وخروجي هذا مرة واحدة في السنة يجعلني أتمّسك بخياري في أن أكون وإلى الأبد جزءاً من ديكور من عجينة الورق المصبوغ. فهل تنوي أخذه لتبحث له عن خطيبة وتُشتتنا؟

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

- لا أدري، لا أعلم شيئاً بعد. أريد أن أراه. لدي فضول كبير لرؤيته. غداً.

حين ذهب خيرونيمو للنوم في برج أومبرتو، ذهبت إمبراتريث والدكتور آثولا، بعد أن اجتمعا بمسوخ الدرجة الأولى، لإيقاظ بوي. قصّا عليه تفاصيل مشروع أبيه: أن يزوّجه من ابنة عمّ له قبيحة، أن ينجبا أولاداً وأحفاداً، وأن يعيشا في المدينة، وأن ينشغل بالسياسة، وبالأعمال، وأن يكون عضواً في نادي الاتحاد. وأن تنتهي رينكونادا، ذلك هو ما يريده.

ضحك بوي مطوّلاً. رينكونادا لن تنتهي. سيتكفّل هو بذلك. إن هم، مسوخ الدرجة الأولى، ساعدوه، سيتكفّل هو بالمحافظة على هذا المخبأ. وحين يقع خيرونيمو في يديه فلن يفككَ رينكونادا شيء، سيصبح عالم عجينة الورق الذي أشارت إمبراتريث إليه واقعاً، هي نفسها لن تحتاج إلى الخروج ثانية. نعم، نعم، وأمام احتمال اضطرارهم إلى العودة إلى عالم لا يتذكرونه، بل يفضلون عدم تذكره، أقسما لبوي أن يطيعاه في كلّ أمر، فقد كان ضرورياً أن يتحالفوا وأن ينسوا الخلافات لحماية عالمهم كما كان مخططاً له. لن يسمحوا أن يعرّضه شيء للخطر. خيرونيمو لا يتمتع بأيّ حق. هم ليسوا مستعدين لأن يكونوا أدوات ولا أن يكونوا جزءاً من عالم يشتهي هو أن يخربه لأنّه يريد التخريب، لأنّه تذكّر شيئاً، لأنه تناول طعاماً أبيض أو خاف أو أحسّ بحنين... لأنّه سئم ألعابه الأخرى، شأنه شأن إله قليل الشأن لم يجتز طفولة طائشة متقلبة، يرمي بألعابه القديمة فيها دائماً ليؤتى له بأخرى جديدة غيرها ليحيلها ضجره من بعدُ إلى ألعاب قديمة ويحطمها... شأنه شأن معبود متصلب الشرايين ارتكب، وهو يخلق الكون، حماقة حين لم يعلّق ضمانة المخاطر التي يمكن أن تنشأ في مخلوقاته... لا، لا، تعسّف، هم ليسوا مستعدين لقبول أن يضرم فيهم

ذات يوم النار وكأنهم كمية من الأقنعة والألعاب والرقع وقطع اللعب والأقنعة القديمة، إنّهم لن يسمحوا له أن يجبرهم على الخروج مجدداً من ذلك الذي يسمونه الواقع، كل سنة، عند العودة وبعد التعافي بعد يومين من الراحة في الفراش، كانت إمبراتريث تروي أشياء يقشعر لها البدن، لا تستطيع أن تتركهم في العراء الذي ما عادوا يتذكرونه، لا نريد أن نزول، لا نريد أن تذوب رينكونادا: إنّهم مع بوي في ما يقرره، في ما يأمر به، في كلّ شيء. سيكونون عماله إن هو وعدهم بالدفاع عنهم في وجه ذلك الأب الجهنمي الذي سيدمرهم إن لم يقف الابن مدافعاً عنهم في وجه ذلك السيد الذي يظنّ نفسه مالك العالم لمجرد أنّه اخترعه. نعم، ليتصرّف بوي فيهم.

***

كان خيرونيمو، وهو عارٍ، يحافظ، على الرغم من سنّه، على كمال هندسته، وكأنّ السنين وهي تمرّ به لم تجد صدوعاً تنحشر فيها لتعمقها. حين رأته القزمة يدخل في الباحة الأولى من باحات بوي أطلقت صرخة ألم حقيقي، هربت لكي لا تراه ولا تدعه يراها، متأوّهة ومتمردة على أمر خيرونيمو الذي كان يطالبها بعدم المبالغة في أداء دورها، فالأمر في النهاية لا يعدو عن تكلّف الخوف في حضور بوي، وبوي لم يحضر بعدُ. لكنّ القزمة هربتْ في الممرات صارخة عارية، طالبة من الآخرين أن يهربوا وأن ينتبهوا، فقد ظهر كائن مخيف لا أحد يعرف كيف ظهر ولا من أين جاء. كانت بيرتا تئنّ ملتفّة مثل سحلية محتضرة خلف الأرض المشجرة المستطيلة التي ما كانت توفر مكاناً للاختباء، غير قادرة على إبعاد عينيها المنذهلتين عن الشبح الذي راح يقطع الباحة ويناديهم بودّ. حاول ملتشور أن يطرده بمجموعة من الأغصان. ورمى باسيليو عليه الأحجار. اختبأت مليسا وراء قاعدة تمثال المراهق الأحدب، طالبة من بوي

أن يهرب، أن يذهب إلى مكان آمن إن استطاع، لأنّ أمراً غير مفهوم، مروّعاً يحدث. حين لمح بوي خيرونيمو في نهاية الممر تقدم صوبه حتّى صار على بعد عشر خطوات منه: أمعن النظر فيه لدقيقة، قلبه قاس، عيناه تفترسان كلّ جزئيّة من جزئيات ذلك الشبح... لا، هذا غير ممكن، غطّى وجهه، استدار وهرب حتّى نهاية البيت وهو يطلق صرخات استغراب مكروبة، ليأخذوه، ليخرجوه من هنا، إمبراتريث، ما هذا الشبح الذي يجعلني أشعر بما لم أشعر به قط ولم يكن مبرمجاً أن أشعر به والذي يجعلني أبكي من رهبة وإن كنتُ لا أعرف ما هي الرهبة، ملتشور، باسيليو، اشرحا لي، إنّه قرف سيدي، إنّه تقزز، سيدي، إنّه خوف، نحن أيضاً نشعر به، إنّها الرهبة أمام وجود كائن غريب إلى درجة أن يكون خطيراً، وما معنى خطير، اهدأ، سيدي، ستعتاد شيئاً فشيئاً، كلّنا سنعتاد ويبدو أيضاً أنّه ليس شريراً، نعم، لا بدّ أنّه شرير، وشرّه يكمن في أنّ غرابته مخيفة لأنّها غير معقولة، اهدأ، سيدي...

رفض بوي في ذلك اليوم الاقتراب أكثر من أبيه.

في الليل، بينما كان المراهق نائماً، في غرفة طعام إمبراتريث – طيور الحجل كانت ربّما أطيب من تلك التي أكلها في طفولته – هنأها خيرونيمو على القناعة التي تصرّفت هي والآخرون بموجبها. لحظة، قال، خشي أن تصيبه حجارة من حجارات باسيليو. أكّدت له إمبراتريث أن باسيليو يضع الحجرة حيث يضع عينه، كانت الكوميديا جديرة بأنّ يصوّروها، ارتأت بيرتا، كم كان الأداء رائعاً.

– ليس في ما قمنا به الكثيرُ من التمثيل، يا ابن العم...

– أتقصدين أنني أضحوكة فعلاً؟

ضحك المدعوون على ضوء الشموع الأرجوانيّة. المائدة كانت

مزينة بزهور الليلك. كانت إمبراتريث ترتدي فستاناً أبيض وتضع على كتفيها شالاً من تول بورمي خفيف أرجواني اللون.

- أيّة خاطرة، يا ابن العم! وإن كان ربّما نعم...

- كيف؟

- فنحن حين نكون في الداخل، في الباحات... كانت قواعد العالم الذي اخترعتَه أنتَ سارية منذ وقت طويل حتى إننا لم نحتج إلى التمثيل، أنا على الأقل...

أومأ الجميع موافقين.

- وما من داعٍ لتصنّع الرهبة إزاء فظاعتك، لأنّك هناك، في الداخل، تحوّلت، عمليّاً، إلى كائن فظيع.

تناول خيرونيمو كأساً من النبيذ.

- رائع. غير مريح في البداية، لكنّي في النهاية سأعتاد عليه. وقد أفلحُ في أن يعتاد هو عليّ أيضاً. لا أدري، يهمني كثيراً أن أعرفه، أن أتكلم معه.

- فيما بعد، شيئاً فشيئاً، حين تتعلمَ لغته.

- حسناً.

- التغلب على إحساسه العالي، استعمال حضورك، الذي هو فضلاً عن غرابته، في عالم لا وجود فيه لما هو غريب، حسناً، كلّ هذا سيتأخر قليلاً...

- وبماذا تنصحوني؟

- أن تصبر.

كلّ يوم، وفي كلّ مرّة لفترة أطول قليلاً من اليوم السابق، يدخل خيرونيمو، بعد أن يتعرّى في غرفة البوّابة، إلى باحات بوي. كلّ يوم،

وفي ساعة معينة، تحني بيرتا، وهي عارية، لحمها الهامد المتلهف فوق درجات معينة، تستند على الدرابزين، تجرّ نفسها عبر دروب الأرض المشجرة المقلمة يتبعها قط ضخم الرأس. كل مساء واحدة من «أسمن امرأة في العالم» تدخل لتمنح المراهق جرعته من اللذة. كل صباح يفحص الدكتور آثولا بوي في واحد من الطقوس، كلّ شيء يجري بطقوس. تحمل إمبراتريث له ثلاث مرات في اليوم طعامه المموّه بطعم الفانيللا... كلّ يوم ملتشور... كلّ يوم باسيليو... مواعيد مقررة، جرعات منصوص عليها... والآن بضع دقائق غير ملحوظة أكثر كلّ يوم لكي يعرف الطفل أنّ عنصراً جديداً يدخل، خيرونيمو، عارياً، يتجول عبر الممرات غير معنيّ بالرعب الذي يعنيه وجوده بالنسبة إلى تلك الكائنات التي تفرّ من طريقه. صار يألف أن تخدشه حجارة من حجارات باسيليو من حين لآخر، أن تطبع وجهه صفعة من صفعات ملتشور وأن تخمش فخذيه أظافر بيرتا المتوترة من وجوده. بوي يراقبه من بعيد. لكنّه يراقبه. كان ذلك خطوة إلى الأمام، قالوا ليلاً في صالة إمبراتريث، وهم راضون عن التطورات نحو علاقة الأب بابنه.

- يشعر بفضول نحوي.

- رائع: هذه هي البداية.

- ما علينا فعله الآن هو الوصول إلى أن يقترب منّي، أن يسمح لنفسه بالانجذاب إلى فظاعتي.

في اليوم التالي، ووفق ما خططوا في الليلة البارحة، تصنّع السيناتور النوم فوق مصطبة تحت الشمس، وهو عالم بأنّ بوي يرصده من إحدى النوافذ. أفلحت حجج الأخ ماتيو في التغلّب على تقزز المراهق لكي يتقرّب من أبيه ويتفحصه: كان على الأخ ماتيو أن يمسك ببوي

قبالة خيرونيمو في سكونه الضخم. أغمض بوي عينيه وتصنّع النظر: صورة أبيه كانت قد طبعت بحزوز مؤلمة جدّاً خلف جفنيه.

– أترى، سيدي، ليس هو مرعباً على ذلك القدر.

– نعم، نعم هو... مرعب قريباً أكثر منه بعيداً.

– إن فكّرتَ بالأمر، يمكن أن تجده مضحكاً... انظر رتابة قياساته المضحكة، مثلاً، وظهره المستقيم وبشرته المليئة بالحبوب الصغيرة والمتجانسة، المجردة من أيّ تشويق في البنية وأيّة مفاجأة في اللون... لا تقل لي إنّه ليس مضحكاً، كأنّه بالون منفوخ بهواء...

أطلق بوي قهقهة أيقظت خيرونيمو. وراح يعصر بطنه من الضحك وهو متشنج وعيناه دامعتان ويشير إلى أبيه بإصبع ملتوية، معكَ حق، ماتيو، إنّه ليس متوحشاً، انظر كيف يتحمّل جَلدي له بهذه العصا، كم هو مضحك جرّه من شعره، توقفْ، سرْ، انظره كيف يطيع وكيف يسير، ماتيو، منتصباً، خطواته متشابهة، رأسه شامخ، كم هو مضحك، هذا ما نقول عنه إنّه ضحك، أنا ما كنتُ أعرف ما معنى الضحك ويعجبني أن أضحك، لا، لا أريدُ أن ينصرفَ، لا تدعوه يفلت منّا، أريد أن يظلّ هذا المسخ هنا لكي أضحكَ عليه، أريد أن يقفز. اقفزْ! مرّة ثانية! أخرى! الآن على ساق واحدة! الآن أريد أن يركض، انظر إليه كيف يركض في الدرب ويعود لاهثاً، كم هو مسلٍّ هذا، هات لي «أسمن امرأة في العالم» لأحشره في الفراش معها وأرى ما الذي سيفعله، إن كان يقدر أو يعرف فعل شيء، انظري إمبراتريث، انظر ماتيو، انظري بيرتا، انظري مليسا، كيف يتمرّغ هذا المسخ مع البدينة، لا يستطيع أن يفعل شيئاً معها، انظروا إلى ذلك الذي لديه منكمشاً ومكرمشاً مثل قفاز قديم بينما أنا لديّ عضو رائع يتصلّب من أقلّ إثارة.

– مزعج بعض الشيء.

تناول خيرونيمو جرعة من كوكتيله (دايكيري فرابي)، ممتاز، الذي لا يحسن إعداده غير إمبراتريث. أكلَ خبزة (بريتزل): لذيذة، أمريكيّة، نعم، بالطبع، إنّها لا تقدّم غير الأشياء المستوردة.

– ولكن لماذا، يا ابن العم؟

– أولاً لأنّي على سنّي ما عدتُ أتحمّل هذه الهزّات، وبصراحة، حين رأيتهم يحيطون بي ويتصنعون تلك القهقهات، حسناً... الواحد لا يستطيع أن يركّز ما يكفي <لفعل شيء متقن...>

أوشكت إمبراتريث أن تختنق من الضحك وهي تؤكد لهم أنّ ما قاله خيرونيمو لا يمكن شرحه، فهم لن يفهموا <روح الدعابة> في قول ابن عمّها، من المؤسف أنّه لن يأتي لحفلة عيد ميلادها لأنّه لو حضر فسيكون بالتأكيد <بطلها>.

– ولكن لماذا لا أذهب إذا دعوتِني؟

– ما كان أومبرتو يحضر قط الحفلات التي كنّا نقيمها.

– هذا عنه هو...

– باليه فنتازيّ. أقيمه كلّ عام. ولا أدري إن كان سيعجبك، لأنّنا، ولكي يكون هناك ناس أكثر، ندعو، بالإضافة إلى مسوخ الدرجة الأولى، مسوخ الثانية والثالثة... لا أدري إن كان سيعجبك هذا الخليط من الناس.

– القناع الجيّد يخفي أيّ شيء

– ننظرك إذن؟

– بكلّ سرور.

أكّدوا له أنّ حفلات الباليه التي تقيمها إمبراتريث كلّ عام رائعة، دائماً ذات موضوع، العام السابق، مثلاً، كان موضوعها «الشاليه

السويسري»، وقد ارتدى الجميع ثياب <الدرندل> وسراويل <الليديرهوزن>، وزيّنوا بيت إمبراتريث وغرفة زينتها وصالوناتها بثلج مقلّد ونبات الإيديوليس المزهر في النوافذ.

– كان ذلك مسلياً جدّاً.

– لو أنّك رأيت باسيليو ببنطال الجلد وبرنيطة الريش...

– ومليسا التي حصلت على جائزة غناء <اليودل>.

في مرات أخرى، قالوا له، كان الموضوع «قصر الحمراء» و«المستشفى» الذي لا ينسى. هذا العام قررتْ إمبراتريث أن يكون الموضوع «بلاط المعجزات». ستأمر بتزيين بيتها وحديقتها على شكل دير خرب، وهم سيتنكرون في هيئة عجائز شبقات منفوشات الشعر، ومتسولين جوعانين، وذوي عاهات وقندلفتيّة ولصوص، ورهبان وراهبات... المسألة مسألة تنافس على فخامة الأسمال، على التمثيل الرائع للبؤس، ستأمر برسم بقع الرطوبة وتقشرات الجدران، لكي يهيموا هم في الممرات الضيقة والباحات المزيفة، بين أسوار مهدمة ومصليات مدنسة، وينجرفوا في حفلة مجون جامح... ولمَ المكابح إن كان الجميع متنكرين في هيئة كائنات عادية قرضها المرض وحطمها الفقر... لن يتعرّف أحدٌ على أحد.

***

في تلك الليلة، بعد أن ذهب خيرونيمو إلى الفراش في برج أومبرتو، دخل مسوخ الدرجة الأولى للتشاور مع بوي. وجدوه مكتئباً منكسر النفس. كان واضحاً أنّه كان يخبئ شيئاً. لقد اتفقتْ إمبراتريث معه على موعد لتعترف له بكلّ شيء، لأنّها إن لم تكشف النقاب عن كلّ شيء في تلك اللحظات فقد تفشل الخطط. همهم بوي:

– دكتور آثولا...

- نعم؟

- أريد أن أستشيركَ في أمر. حضرتك تعهدتَ لي بأن تستأصل منّي تلك الأيام الخمسة الفظيعة التي تعلّمتُ فيها كلّ شيء. أليس ذلك صحيحاً؟

- بلى.

- أريد أيضاً أن تستأصل منّي أبي. هل يمكنك أن تستأصل أبي منّي، دكتور آثولا؟

فكّر الطبيب في الأمر.

- ربّما استقرّت تلك الصورة عميقاً في دماغك... ورم يمد جذوره ويولّد هجرة للخلايا السرطانية... لا أدري. إجراء تلك العملية سيتطلب استئصال قطعة كبيرة من دماغك، وحينها، طبعاً، لن يبقى لك سوى قليل من الوعي، ستعيش في شبه ظلمة، في يمبوس لا يختلف إلا قليلاً عن الموت من دون الوقوع في الموت، حيّاً، ولكن...

أغرق بوي وجهه بين يديه. سمعوه يجأر. تبادل المسوخ النظرات. كيف نخفّف عنه؟ لم يتحرك أحدٌ. لم يشعل أحدٌ سيجارة ولم يقل كلمة حتّى كشف بوي عن وجهه وقال:

- أريد أن أشبهه. آثولا، أنقذني... استخرج ما تشاء من دماغي، حولني إلى نبات، ولكن استأصلْه منّي...

في اليوم التالي أخبروا خيرونيمو أنّ بوي راغب جدّاً في الاتصال به، ولكن لأجل ذلك ما عاد ضرورياً زيارة الباحات في ساعات معينة، بل يجب الانتقال للعيش في الداخل. كان بوي يسأل عنه. وأحياناً، يستيقظ في الليل صارخاً طالباً بأن يأتوا له بمسخه. وافق خيرونيمو مسروراً: كان أمله في أن يستطيع لأيام الكلام مع ولده، ولو عن أمور بدائية، يملؤه بالسرور، ومن بين الأمور الأكثر بدائية للكائن البشري

بالطبع هي مسألة الإنجاب. طبعاً كان عليه أن يدخل عارياً حيث بوي. رآه باسيليو يتعرّى في غرفة البوابة، فتح له الباب، ودخل خيرونيمو وأغلق العملاق بمزلاجين وسلسلة ومفتاح. تلك الليلة عقد الاجتماع السرّي في شرفة أومبرتو، والمسوخ يحفّون ببوي. كان ضرورياً التعجيل بكلّ شيء.

- هل حضّرتم الوثائق، إمبراتريث؟

- كلّها.

- أعطينياها... حبر للتوقيع. واحد، اثنان، مع نسختيهما، توكيل عام مع ست نسخ... كم هو ممل توقيع هذا العدد الكبير من الأوراق... هذه الأخرى أقلّ أهميّة. آه، ووصيتي، كل ثروتي مع حق الانتفاع لصالح تعاونية أو شركة ستكون رئيستها إمبراتريث، التي ستتكفّل بالحفاظ على محيط رينكونادا وتوسيعه مع جميع درجاته من المسوخ...

في اليوم التالي، حين التقوا بالصدفة بالقرب من بركة الرامية الصيادة، سمح المراهق لأبيه بأن يخاطبه: فردّ عليه بالقبول، فهو يوافق على الاستماع له، ولكن عليه أن يحبو كالحيوان، نعم، نعم، وأن يكلّمه وهو على تلك الوضعية وليس على أخرى غيرها: بدأ خيرونيمو يقول له إنّه أبوه، لكنّي لا أعرفُ ما معنى أب، وأنّ أمّه... ما معنى أم... يجب البدء بشرح كلّ شيء لهذا الطفل ومن هذه الوضعية، والسير وراءه كالكلب في الممرات، محاولاً أن يشرح له بينما بوي لا يكتفي بأنّه لا يفهمه، بل ويضحك من كلماته. إلى أن استدار، نظر إليه نحو الأسفل ثم ابتعد متثائباً.

نهض خيرونيمو على قدميه حالما اختفى بوي. ومشى يطوف الباحات باحثاً عن إمبراتريث ليبلغها بالتقدم في علاقاته، ليقول لها

بأنّ العلاقة، وإن كانت ما تزال غير مريحة، تمثّل تقدماً. حين حاول التقرّب منها، صرخت به القزمة:

- ابتعد، أنتَ تشعرني بالقرف، لا تلمسني، لا تقترب، لا أدري ما الذي يعجب بوي في هذه الغرائب التي لا فائدة منها غير الإزعاج.

رفضت إمبراتريث سماعه. واعتبر خيرونيمو أنّ القزمة تجاوزت في الواقع حدودها. لكنّه تذكّر ما قالته له ابنة عمّه في إحدى المناسبات: حين يكونون داخل الباحات، فإنّهم لا «يفعلون» بل «يردون على فعل»، مدفوعين بالقواعد التي وضعها هو وأومبرتو قبل سنوات طويلة، هما ما عادا حرين، هما محكومان بردود فعل معينة فرضها خيرونيمو. قرر أن يرحل في تلك الليلة... وماذا يفعل هنا، غير مرتاح ومهان، فكراسيّه المخملية الرمادية في النهاية الرمادية تنتظره في مكتبته في بيته الأصفر المقابل للمتنزه... المسألة هي أن يرسل بولده بوي إلى مصحّ أو شيء من هذا القبيل، سيبحث، وأن يشتت جميع تلك الأقنعة... أو الوجوه المنغصة... كان متعَباً، شعر فجأة بتعب كبير من كلّ ذلك، لم يكن مريحاً أن يضحكوا من سنوات عمره، وأن يجبروه على الحبو، وأن يأمروه بغسل الزجاج، وكنس الممرات والغرف الفارغة والأروقة والباحات التي لا نهاية لها، وغلق أبواب، وتجصيص أسوار، وحرق جرائد قديمة، وتنظيف مقعد فينوس العابثة الذي أكلته الأرضة، وأداء حركات بهلوانية، والركض أمام مجموعة الكلاب العرجاء، الجرباء، الصلماء، مبتورة الذنب، مشلولة القوائم، برّاقة العيون، ضخمة الرؤوس، خطيرة الأنياب التي يسيل اللعاب منها وهي تلهث، وطاعة أيّ من أولئك المسوخ الذين، في نهاية المطاف، نعم، نعم، ولماذا أخافهم إن كنتُ أشتهم حين أشاء... يهمّ كل يوم بإبلاغ إمبراتريث بأن الوقت قد حان لنهاية المهزلة وتسريحهم، لكنّه لم يستطع الكلام معها قط، أسقطُ منهكاً في سريري، أحلمُ بمسوخ

يحاصرونني، أراهم حين أستيقظ، ما عدتُ أفرّق بين مسوخ الصحوة ومسوخ النوم، الوجوه المرعبة ذوات الأنف العظيم والفك الثقيل والفم المليء بالأسنان، الجميع منهكون من الضحك لأنّي أنا المسخ، يصرخون بذلك ليل نهار في الممرات الغامضة حيث يظهر المزيد من المسوخ المجهولين لأنّ المسوخ الآن مجهولون جميعهم، أتمنّى أن أعثر ولو بواحد من مسوخي التي أعرفها، ولكن لا، لا بدّ أنّه حلمي الذي رأيتُ فيه الممرات مليئة بخيوط العناكب، وإذا كان حلماً فمن الطبيعي ألا يستطيع مسوخي الأصدقاء، مسوخ الصحوة، الدخول إلى الحلم لإنقاذي، أنقذوني من هذه المطاردة التي يصرخون بي فيها بأني أضحوكة العالم كلّه، ما عدتُ أذكر مكان باب الخروج، أنا لا أعرف هذه الممرات ولا هذه الباحات، لقد وضعوها هنا للتو، إن عثرتُ على باب الخروج فقد أقنع باسيليو بأن يدعني أخرج، لكنّ باسيليو غير موجود، هناك ناس يشبهونه لكنهم ليسوا باسيليو، أبناء عم، إخوان، أعمام، ربّما، يشبهونه، لكنهم ليسوا هو، لأنّهم لا يردون عليّ بغير الشتائم حين أتوسل بهم، باسيليو، افتح لي، سأعطيكَ ما تشاء إن تركتني أخرج، هو ليس باسيليو لأنّه يقذفني بحجر يجرحني في صدري، هذه السنامات، وجوه مهقاء، رؤوس كلاب بُلدُغ كبيرة، العملاقة الضالّة ذات السير المتأرجح التي تطاردني هي جميعها أباطيل من ملكي، كنتُ أعرف أسماءها وأكلّمها، وكانت تردّ عليّ، لكنّها الآن صماء وخرساء لأنّها لا تريد غير ملاحقتي لكي أتعب وأسقط في الفراش لأنام من دون أن أستطيع أن أقول لإمبراتريث كفاية، بأن تترك الألعاب، بأن العدالة ستتكفل بالجميع، لكنّهم يطاردونني في الليل أيضاً، ويسببون لي تعباً في مواجهة النهار، أكنس كلّ ما فيّ إلا الرغبة في طلب الرحمة، طلب هدنة على الأقل، لكنّهم لا يمنحونني إياها، يصرخون يصيحون ويجلدونني ويضحكون من حولي، أرفع يديّ

إلى وجهي لأتلمس ملامحي وأتعرّف عليها وإن لم تكن إلا ملامحي الفظيعة المعتادة، نعم، نعم، نعم، أقرّ بأني كنتُ مشوهاً دائماً، لم أكن قط كائناً تولّى مناصب عامة مهمّة وأحبّته نساء جميلات... لم يبق من أثر من ملامح ذلك الرجل. أتوقف متعرقاً، لاهثاً، وأواجه جمع المسوخ أنيقي الملابس، <بدلة> وأكسسوارات من جلد التمساح، رداء منزلي أحمر من نسيج المناشف للرياضي العبْل ضخم العظام، غطاء من زهور المارغاريت البيضاء والصفراء مناسب للصيف على رأس <البُلدُ غ> الضخم، رداء أبيض <ووش آند وير> مناسب أيضاً للموسم، وهو ببدلة رمادية، ربطة عنق رمادية عريضة وقفازات رمادية يمسكها بيده، كلّها جديدة، موشكة على الانضمام إلى حياتها طبيعية بالكامل حالماً شيء ما... لا أدري ما هو... لا أريد أن أظنّ أنّ... يقع أو لا يقع. أنا المختلف الوحيد، أحمرّ من الخجل حين أرى أنني الوحيد العاري في هذا الاجتماع الدنيوي <كما يجب أن يكون>. يبادر ولدي الأنيق:

– كيف تسمح لنفسك أن تأتي هذه الفضيحة؟ هل أنت مجنون؟ ماذا دهاك؟

– ماذا دهاكم؟ شيء غريب يحدث هنا. إمبراتريث، أعطيني المفاتيح، لكنهم لا يسمعون لأنّهم يضحكون بقهقهات تملأ رأسي وستفجره لأنّها محبوسة في الداخل، واحدة، وهي لك، حادة، نهائية، تتحداني إن كنتُ أجرؤ على أن أؤكد من جديد أنّكم الطبيعيون ولستُ أنا وأنا أقول نعم وبوي ينادي على باسيليو، تعال، باسيليو، لنحمله لكي يرى، وباسيليو ومسوخ آخرون أقوياء يجرونني وأنا أركل وأصرخ اتركوني بسلام، لكنّهم يجرونني حتى بركة الرامية الصيادة ويجبرونني على الصعود على الحافة. جميع المسوخ يرتدون ستراً معمولة من <نسيج صوف خشن>، مع <بدلات> وقبعات مع

حقيبة وحذاء من جلد التمساح، يتأملون المشهد من حافة البركة التي تتصدرها الرامية الحدباء، بفكها العظيم والهلال فوق جبهتها. يمسك بي باسيليو من إحدى ذراعيّ، ويمسك بوي بالأخرى وفي وسط الصمت أسمع صوتاً يقول لي:

- انظر إلى نفسك.

أخفض عينيّ لأرى ما أعلمُ أنني سأراه، تقاسيمي الكلاسيكية، شعري الأبيض، ملامحي المنبسطة، نظرتي الزرقاء، ذقني المقسوم، لكنّ أحد ما يلقي بحجر غادر على صفحة الماء، يحطم صورتي، يشتت وجهي، الألم فظيع، أصرخ، أعوي، أنكمش، جريحاً، ملامحي محطمة، وبجهد كبير أتخلص من الأيدي التي تمسك بي وأهرب محاولاً أن أنزع بأظافري القناع الذي لا أستطيع نزعه وإن كنتُ أعلم أنه قناع لأنّ هذه الليلة ستشهد حفلة رقص إمبراتريث ولم أتنكّر أنا بزيّ مسخ، أخمش وجهي الذي يسيل منه الدم ومع الدم أتحقق من أنّه ليس وجهاً مستعاراً للتنكر، لكنّي أخمش أكثر لأنّ عليّ أن أنزعه على الرغم من الألم وحتى لو بقيتُ من دون وجه، نعم، لقد رأيتُ وجه مسخ معوج في انعكاس ماء البركة، هم، الآخرون، هم كائنات متناسقة، مستقيمة، طبيعية، أنا بهلول هذا البلاط بين شخوص من الأمراء ملفوفين بفخامة ملابسهم، أنا العاري الوحيد، عليّ أن أعثر على ملابسي لأغطي تشوهاتي وليكفوا هكذا عن الضحك عليّ. كانت لديّ ملابس. أبحث عن الباب في الممرات التي أصبحت فجأة خالية، أريد العثور على البوابة ولكن ليس هناك أبواب، لقد بنوها من أجل حفلة رقص إمبراتريث، علّقوا خيوط العناكب وقشروا الجدران وأطالوا الأروقة عن طريق منظورات مزيفة فجعلوا رأسي يصطدم بها وأنا أحاول الهرب عبرها، سدّوا كلّ شيء بالبناء لحبس صورتي الفظيعة، نعم، ما هي إلا صورة، لديّ أخرى، بما أنّهم اختفوا الآن

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

أستطيع أن أركض حتى بركة الرامية من دون أن يشعر أحد لاستعادة الصورة الأخرى التي لا أجدها في الماء، فما يطوف وحيداً هو هذا المزيج من الملامح، تلك الرسوم المفككة، تلك التقاسيم المبالغ فيها، تلك الحذوفات، الخياطات، الندب، تلك الأكتاف التي لا تناسب الجسم، الرقبة الممحيّة، الذراعان المتذبذبتان في طولهما، إنّها صورتي المطموسة غامضة المعالم التي تنتظر أن يبددها ضوء العصر لتعود وتتشكل بطريقة أخرى، لكنّ الضوء لا يمحو شيئاً لأنّ الليلة مبدرة ولا أستطيع الهرب بعد أن وعدت إمبراتريث أن أحضر حفلتها التنكرية الراقصة ولذلك لبست هذا الوجه الذي يسيل دماً لأني لا أستطيع نزعه عني، القناع المكسور لا يغطي شيئاً، العثور على من يساعدني ويرشدني، أركض تلاحقني قطط كبيرة الرؤوس يمكن أن تتمكن منّي في الظلام الذي صار تاماً باستثناء حدقاتها المتوهجة، لا، لا، في نهاية ذلك الممر المزيف هناك ضوء، أصوات، ربّما أصدقائي، ربّما موسيقى، أركضُ، إنّه أنا، إنّه أنا، انتظروني، أنا ضعيف، لكني سأصل إلى الضوء وإلى الموسيقى... أتعثّر، أسقط، يتحطم وجهي حين يرتطم بأرضية الطابوق، أضمّ وأنا ساقط على الأرض ما بقي من ملامحي لأصلها ببعضها، لأنشئ شيئاً شبيهاً بالوجه، كأنها طين صلصال، إنّها طريّة، قد أتمكن من بناء ملامحي القديمة، لكنّي ما عدتُ أذكر كيف كانت، حين حاولتُ تشكيل وجه بقيت بعض القطع لاصقة بيدي، حبوتُ نحو الضوء، أفتح الباب برأسي كما يفعل الكلب، حفلة إمبراتريث، لقد كذبوا عليّ لكي أتنكر في هيئة مسخ رثّ الملابس، في سط الضوء يرقص المعروفون وغير المعروفين وهم يضعون على رؤوسهم باروكات عظيمة وكأنها قوالب حلوى، مع عمامات مذهبة وتطريز باللؤلؤ، أقنعة برّاقة، قطع دومينو من الديباج، أحذية الستان المدببة ترقص المنويت، التنورات التحتانية تدور،

القبعات المثلثة في الأيدي، البدلات تلمع، أقنعة رائعة من عجينة الورق تخفي وجوههم الفظيعة، غمازات الغنج، ترقص الأزواج، معقودة الأصابع برقّة، يشربون في كؤوس من الكريستال المثلّج حين أدخل حبواً لكي لا يروني، أنا جئت متنكراً لرقصة أخرى، رقصة كلّ شيء فيها أبواب مبنيّة وممرات لا نهاية لها وكائنات بلهاء محفوظة وراء جدران من الطوب الورع، وليست هذه الرقصة التي يظهر فيها كلّ شيء واضحاً ورقيقاً وخفيفاً، لقد خدعوني، عليّ أن أهرب قبل أن يضحك الماركيزات والكرادلة والأمراء وأفراد الحرس الملكي عليّ، سيضربونني لأني جئت متنكراً في هيئة مسخ وهم لا، أنا نعم، وهم لا، ماء البركة سيساعدني على تبديل وجهي، القمر يرسم في الماء حتّى آخر جزيئة من قناعي طافية في الماء، لو تمكنتُ من نزعه، خلعه من الماء حيث فصل اللحم عن اللحم أقلّ ألماً... أجثو عند الحافة... أبسط ذراعي كي أخلع قناع الرعب.

بعد ذلك بكثير، حين خرجوا اثنين اثنين إلى الحديقة للاستمتاع بالهواء المنعش، شاهدوه عائماً في بركة الرامية الصيادة. أنقذوه! نادوا الآخرين لإنقاذه إن كان حيّاً! رموا بمراوحهم اليدوية والهمايين أرضاً للمساعدة في إنقاذه بالخطافات والحبال: انتشلوا من الماء كائناً ملتوياً فظيعاً يقشعر لمنظره البدن. خفض بوي، وهو منتصب على طوله، نحوه قوس عينيه الزرقاوين الكهربائي وتعرّف عليه:

– إنّه أبي.

أشارت إمبراتريث موافقة.

– نعم، إنّه خيرونيمو.

وبين جميع تلك الكائنات الكاملة، المبتئسة من فداحة الحادث الذي راح ضحيته السيناتور، الذي ربّما لم يكن له وهو بالسن التي

كان عليها أن يعبّ ذلك القدر من الشراب في حفلة تنكرية، فعلوا كلّ شيء لإرسال جثته إلى العاصمة في أفخم تابوت. ورتّبوا أيضاً كلّ شيء لكي يجري الدكتور آثولا العملية اللازمة لكي يستأصل من ذاكرة بوي تلك الأيام الخمسة التي أمضاها خارج البيت وليستأصل صورة أبيه، حتّى جذوره الأبعد بمجرد عودة رجال السلطة والمحامين من العاصمة.

كان لخبرِ موت السيناتور وقع الفاجعة الحقيقية في العاصمة. وتذكر البلد كلّه حينها خدمات الرجل البارز المشهور وحظي بأعظم مظاهر التكريم: نقلوا رفاته إلى المقبرة على عربة مدفع مغطاة بالعلم الوطني. رأى الكثيرون أنّ الأمر ما كان له أن يتم بالطريقة التي تمّ بها، فدور خيرونيمو دي آثكويتيّا كان في الأغلب سياسياً قبل أن يكون تاريخياً وإن اسمه لن تخلّده إلا النصوص المتخصصة. وحضر الجميع مراسم الدفن على الرغم من الجدل حول الأوسمة الممنوحة – أو ربّما بسبب ذلك–. في مدفن العائلة، شغل جثمانه لحداً كتب عليه اسمه وتاريخ ولادته ووفاته، على رخام يشابه ذاك الذي كتبت عليه أسماء الميتين الذين سبقوه من آل آثكويتيّا. استحضر المتحدثون إنجازاته والعبرة من هذه الحياة المثالية التي أشّرت نهاية سلالة يقرّ البلد لها بالفضل على الرغم من التغيرات التي شهدها العالم المعاصر. أغلقت سلسلة ثقيلة من الحديد حاجز المدفن الحديدي حيث، ستبدأ الزهور عقب ساعات بالتلف والفساد. وأدار السادة المسودون له ظهورهم وراحوا يبتعدون ببطء بين أشجار السرو، نادبين نهاية سلالة نبيلة.

٢٩

حالما عدتُ إلى البيت في تلك الليلة، وقد تمّ كلّ شيء، ذهبتُ لإيقاظهنّ الواحدة تلو الأخرى في أكواخهنّ لإبلاغهنّ بأن الأم بنيتا قد أخذت إينيس. طبعاً، قلنَ، أكيد بسبب البرد، فكيف كانت ستعيش السيدة المسكينة هنا في هذا البرد الذي يجمّد العظام، لا يوجد من يقدر على تدفئة حجرة واحدة في هذا البيت، كان ضرورياً بناء كوخ جيد، متقن الصنع، في واحد من الممرات، لو أنّ الموديتو كان في صحته وليس كما هو عليه لساعد السيدة إينيسيتا المسكينة في بناء كوخ مماثل للأكواخ التي نعيش فيها نحن لكي لا تعاني من البرد الشديد في هذا الشتاء الذي طال والذي يبدو أنّه لن يبرحَ البيت أبداً، لا شكّ أنّها اعتادتْ حياة الدعة مع التدفئة المركزية وكلّ شيء، كم هي منعّمة السيدة إينيسيتا، طبعاً، وكيف لسيدة ثرية مثلها أن تكون!

- ماذا حملتْ معها؟

لا شيء. <ما هو لازم ضروري>. تركتْ كلّ شيء، أشياءنا التي كنّا نحتاجها والتي نستطيع الآن أن نستردها، ازداد حجم الجمع المدمدم مع قدوم العجائز اللائي خرجن من الأكواخ صوب المصلّى عبر الممرات، عجوز واحدة، اثنتان يحملن شموعاً محشورة في شمعدانات، لاسترداد أشيائهنّ. يفتحن الأبواب ويشعلن المزيد من الشموع: تنطلق العجائز صوب أكوام الحاجات الوسخة التي خسرنها

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد ٢١٥

وهن يشاركن في لعبة سباق الكلاب الملعونة، لا يصرخن، ولا يتشاجرن على الحاجات بل يتعرفن عليها ويتوزعنها، صدرية البركال الموردة هذه السوداء في نصفها تشبه صدريتك لكنّ هذه صدريتي وتلك الأخرى في الكومة الأخرى هي صدريتك، وراحت قوالب العجائز الطريّة المتشابهة والمختلطة تؤشر ما هو لهنّ، أحذية ممزقة، جوارب يتيمة، شالات، انظري، ريتا، وجدتُ هنا شال المربعات الذي كنتِ تقولين قبل كم يوم إنّك تحتاجينه، بطانيات، مراتب، تنورات تحتَانية صوفية، كلّ حاجة تعود إلى يد صاحبتها بعد أن بقيت لوقت قليل في أيدٍ أخرى لم تترك بصمتها: هذا هو وشاح قدّاس أوريستيلا، شعر رافائيلِيتو يعود لكليمنتينا التي لم ترضَ بخسارته، مسبحة لوسي التي تقول إنّ البابا باركها ولا أحدَ يصدّقها، لمن هذه الجوارب، إنها من صوف ثقيل، إذا كانت فيها ثقوب بسبب عظم الإصبع الناتئ فهي لي، جميع ملابس إيريس المسكينة، حتى معطفها القهوائي.

إيريس الآن تستعمله طوال اليوم. وبما أنّ بعض الأزرار تنقصه، فهي تزرّره بدبوس يشبكه على الصدر. تحتفظ ببقايا زينة من جلد القسطور في العنق وفي الجيوب لأنّ المعطف الذي أعطته بريجيت إلى إيريس ممتاز وجيد الدثار، ولأن الصبيّة مزكومة فإنّها لا ترفعه عن جسمها، انظري إليها كيف يسيل مخاطها وتمسحه بكم ردائها أو بيديها التي شققها الشرث. انظرن إليها. ولكن ما عاد أحد ينظر إلى إيريس، حتى اليتيمات الأخريات، اللائي ينتهزن غياب الأم فيقضين ساعات العصر يتمازحن بالتلفون، وهي لعبة علمتهنّ إياها السيدة إينيسيتا.

أنظرُ أنا إلى إيريس. أرصدُها من عتبة أو من مخبأ وراء شجيرات الياسمين: إنّها تحبُّ الجلوس في الممر، تحت الزجاج الفخم الذي أسنده الدلالون إلى الأعمدة. تظلّ هناك، هامدةً، تمرّ بها الساعات، غارقة في أشعة الشمس التي تخترق الزجاج، مادة سالبة تتلقى لون

العنبر، وحين تزحف الشمس قليلاً، يقطع شق من السماء الزرقاء وجهها، نجمة في فمها، في كتفها، تختفي، إيريس تطفو مع نيلوفرات في الضوء المائي الأخضر، إيريس مظللة بعباءة ورع، يعرّيها انعكاس رداء مقدس ورديّ وأنا أتأمل تحولات إيريس البطيئة لساعات كاملة، يحلّ المساءُ، تهزّ الريحُ الأغصان الحقيقية التي تعكّر الضوء الذي تذوب فيه الأشياء تحت الزجاج، إيريس تذوب في بحيرات متموجة الألوان متقلبة، لكنّ انعكاس يد أنقذ وجهها بأن رسَم له صورة جديدة دقيقة بعد أن ربطتْ شعرها بمطّاط ولملمته إلى الوراء لتبدي ملامحها وتكشف عن بنية عظمية ذات طابع نبيل بدأ أصله يلوح: لأنّك أنتِ، أعترفُ بكِ، هي عمّدتكِ قبل أن يحملوها إلى مستشفى المجانين، إينيس عارية ومتوردة الخدود تحت انعكاس الرداء، إينيس نقيّة، إينيس ما قبل خيرونيمو، إينيس ما قبل بيتا، إينيس ما قبل إينيس، إينيس ما قبل الطوباويّة وما قبل الساحرة، إينيس ما قبلي، امتصصتَ لون الرداء وتظلين واقفة على قدميكِ تحت تورد الزجاج من دون أن تعرفي إلى أين تذهبين ولا ماذا تعملين ولا من أنتِ، عارية، صاحية للتو، اليدان متحدتان، تنظرين إلى الظلال التي تمتد فوق الباحة، ظلال تزحف وتخبئني وأنا أزحفُ مختبئاً، أقل من عشرين بالمئة يزحف كاملاً، أنا كاملٌ منتصبٌ وأنا أقتربُ إلى تلك البقية الباقية من الضوء التي تعرّيكِ تحت الزجاج، أتمنّى إلغاء تلك العشرين بالمئة لأستريح لكنّي لا أستطيع لأنّك موجودة، إينيس، لأني أمتلككِ حبيسة بين هذه الجدران المنيعة، إينيس، لأنّك تجعلينني أنزلُ من يمبوسي إلى جحيم الوجود مجبراً على الرغبة، ولا تدعيني أنسى أنني تنفّستُ وأتنفس لكنّي لم أتنفس ما يكفي قط، إنّني أحببتُ وأحبّ لكنّي لم أشبع أيّة رغبة قط، إينيس، تداعبين ذلك القط الذي يهرّ على صدرك الذي عرّاه الضوء الذي يتآمر مع صمت هذا الحوش البعيد ليستعجلني، أنتِ جاهزة،

إينيس، أنا جاهز هنا في الظل، على خطوتين منك، أنتظر أن تطلق ذراعاك القط قبل أن يعود الظلام إلى سترِك وأقتربُ من إينيس العارية وأهمس في أذنكِ:

– إينيس.

تردينَ من دون أن تتفاجئي:

– ماذا؟

سأرتوي من دون أن تتدخل بيتا، من دون أن يدفعني خيرونيمو أو يمنعني، فلا خيرونيمو الآن موجود ولا بيتا، لقد انمحتْ مطالبهما، أنا حرّ قبالة هذه المرأة الحرة: الجحيم. لا تبتعدي، إينيس، وإن تلاشى الضوء وغطتكِ الملابس من جديد، لقد ضممتُكِ إلى صدري. ترتجفين. ليس من البرد: عيناك تقول إنّك تشعرينَ بشيء آخر ليس هو البرد ولا هو موازٍ لما أشعر أنا به، إنّه الخوف، لا تخافي منّي، إينيس، دعيني أوجّه يدك هنا تحت الزجاج مثلما في داخل خيمة ملونة، يداً متوترة في يدي، لكنها تطيعني، عيناك مليئتان بالرعب، شعركِ المضطرب على السطح الزجاجي وفخذاك تنزلقان منّي وفمكِ كالعادة، ومنذ البداية، منذ الكابوس الأولي، يرفض فمي لأنّ فمي وسخ، أريد الانتقام لأنّكِ ترفضين فمي الذي ما هو بالوسخ وأجبرُ أصابعكِ على أن تلمس سكسي، تمسكين به، تضغطين عليه كما يُضغط على قطعة من اللحم القوي، وتغرزين فيه أظافرك، وبجرّة شديدة تجتثينه من جذوره، أعصاب، شرايين، أوردة، خصيتان، أنسجة، جسمي يفرغ من الدم الذي يتدفق ويلطخك: انظري إلى يديكِ الملطختين بالدم، انظري كيف يسيل دمكِ على ساقيكِ ليكوّن بركة تقفين فيها صارخة، نافرة شاحبة، مضطربة، العينان مغمضتان، لا تريدين أن تشاهدي الدم الذي يبللكِ وتئنين لأنّكِ لا تفهمين، لن تردّيني إن اقتربتُ منك الآن لأنكِ

تمكّنتِ من أداتي الخطيرة وتركتِ لي قروحاً مستديمة بين ساقيّ، أنا لا أصرخُ، أنا أظلّ ملغيّاً بسبب الظلال، أنت تصرخين، تنادين، تستدعين، مسحورة في بركة الدم تلك، تستنجدين، الزجاج من دون ضوء يظللكِ بينما تخفّ العجائز، ماذا جرى، ماذا جرى لهذه الصبيّة التي تصرخ كثيراً ولا تميّز وتنهارُ في بركة الدم. هي تهمس:

- هذا كذب.

- كذب ماذا؟

- أني سيكون لي ولد...

عن أيّ ولد تتحدث؟ الموديتو هو الولد الذي انتظرناه طويلاً وقد ولد قبل وقت طويل حتى ما عاد أحد من سكان البيت يذكر متى ولد، لذلك ربّيناه دورات ودورات من العجائز، الطفل المطيع لا يفعل إلا ما نسمح له نحن بفعله، الطفل قديسٌ وهو طفل دائماً وخصوصاً في الليل حين كانت الأم بنيتا موجودة، أمّا بعد أن لم تعد موجودة، وبعد أن انتقلنا كلنا للعيش في المصلى فالطفل طفل طوال الوقت، ولذلك نحن مع أكياسنا وعلبنا، جاهزات، نعيش في المصلّى مجتمعات كلنا وكأننا خارجات من حرب أو من هزة أرضية، ننتظر لحظة أن يحملنا الطفل جميعاً من البيت إلى السماء في عرباته البيض التي تجرها خيل عليها تجافيف بيض وسيدعو أطفالاً آخرين قديسين مثله ليجلبوا أكاليل ويعزفوا على الأبواق والقيثارات. تهزّ إيريس رأسها. لا، لا، لا... أنتِ تنكرين قداستي، يرعبكِ أنني امتلكتُ القدرة التي كنتُ أطلبها.

- ... انتفختُ وعندي ألمٌ هنا منذ أيامٍ... سيدة ريتا، ليس صحيحاً أنني كنتُ أحيضُ كلّ شهر... كنتُ أقولُ ذلك فقط كي لا يظنّوا أنني غبيّة، ولمّا كانت جميع الفتيات الأخريات يعرفن القراءة... أنا على الأقل ذلك...

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

ولكنِ ما أهميتكِ أنت، إيريس، تسألُ العجائز، وما أهميّة أن تكون هذه أولَ دورة شهريَة لكِ، ما دمنا حصلنا على الطفل ونحن جاهزات للرحيل؟ إيريس تهذي، تتحدث عن أيام كانت تخرج ليلاً، لكنّها لم تكن تخرج ليلاً قط، وعن العملاق، وكأنّ العماليق موجودون، تمسك بتنورة ريتا، وتصرخ صراخ من يتعرّض للقتل، تصرخ من شيء يحدث لهنّ جميعهنّ ويزول بتناول قليل من ملح حواء وحبة أسبرين... كفى، أيتها الصبيّة، لا تبكي هكذا، أيّة حماقات تقولين، لمن لم تكوني تسمحين له بتلمّسكِ، وهي والعملاق، الذي شاء أن يتسمّى بذلك الاسم، لأنّ إيريس تهذي، كانا يتداعبان وحسب لكنهما لم يتضاجعا قط، فالمضاجعة سيئة، أمّا المداعبة فلا، وبدأتْ تنتفخ من الخوف وتختبئ تحت المعطف القهوائي... أنتَ تكذبين، وترفعينَ شهادة مزيفة في حقّ الطفل، اخرسي، تقولين إنّه كان يرمي بك ليلاً إلى الشارع لكي تذهبي للقاء العملاق ثم تعودين وتحكين له كلّ ما فعلتما، في أيّ مكان لمسكِ وفي أيّ مكان لمسته أنتِ، يا له من قذر، سافل حاول أن يضاجعني[١٤] وقد خفتُ ولذلك...

- يسمعُ أفعالكِ القذرة؟
- كيف، إن كان أطرش؟
- هو ليس أطرش.
- تكذبين.
- ألا تستحين، إيريس؟
- هي أشياء تتصورها هي.
- لا... هو أجبرني على لمسه...

١٤- يستعمل المؤلف هنا تعبير tuto وهو في لغة الأطفال كناية عمّا هو ساخن، عمّا يكوي.

- قذرة!

- كيف يمكن لصبيّة صغيرة أن...

- صحيح... وكنتُ أسأل نفسي أشياء: وماذا بعد... وماذا بعد.

- إنّه أخرس.

- لا يستطيع سؤال شيء.

- ليس أخرس: إنّه كذاب.

- كيف تجرئين على سبّ الطفل!

- سنقتلكِ ضرباً بالعصيّ إن واصلت الكلام هكذا...

- لديّ هنا عصا.

- أنا بالحذاء.

- هذا صحيح!

- كيف، إذا كان قديساً؟

- ما تريدهُ هذه هو أخذ الطفل منّا.

- وحمله.

- لا علاقة لكِ بالطفل، إيريس.

- الطفل طفلنا.

- سنخفيه.

- نعم، من الأفضل إخفاؤه.

- ولد الطفلُ في هذا البيت من سنوات كثيرة.

- لا أحد يتذكر من كانت أمّه.

- ولم يكن له أب.

- لا، لأنّ الرجال قذرون.

- ولا يستطيع الكشفَ عمّن كانت أمّه.

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

- طبعاً لأنّه أخرس.

تعدّل إيريس جلستها، يداها، المعطف القهوائي، رجلاها، كلّها ملطخة بالدم. تتلألأ النجوم الحقيقية عبرَ مظلة الكريستال غير الملونة.

إيريس غاضبة:

- ليس أخرس.

تصفعها دورا.

- ولا طفل.

تضربها لوسي على رجليها بالعصا.

- ولا قديس.

تجرها ريتا من شعرها.

- عاهرة!

- نعم عاهرة!

- حين كنت تهذين اعترفتِ بخطاياك...

- من دون أَن تقولي لنا شيئاً، كنت تخرجين للطواف ليلاً.

- نعم، لنعاقبها.

- نعم، لأنّها عاهرة.

يأخذونك إلى المصلّى. روسا بيريث وكليمنتينا كانتا قد عالجتا الجرح الذي سببته بين رجليّ، غطوا بالشاش ذلك الفراغ وضمّدوه، قمطوني جيداً لكَي لا يبلل الطفل نفسه في الليل أو لكي لا يبلل شرشفه، فصعبٌ أن تجفّ الشراشف مع هذا الجو وليس هناك أقذر من الشراشف برائحة بول الطفل. حين رأيتكِ تدخلين وتتقدمين صوب مهدي ثم تتوقفين لتتأمليني وكأنك تفكَرين، وكأنك قادرة على التفكير، غطيتُ وجهي الخائف بيديّ الصغيرتين وقلتُ متباكياً:

- فاسدة!

- أترين؟

- حتى الطفل يعرف.

- فاسدة.

كلمة الطفل الأولى. إنّه يتعلّم الكلام وما من داعٍ لتعليمه شيئاً. كلّ شيء بسبب الغبية القذرة هذه إيريس ماتيلونا، يا لهَا من عاهرة! حتّى الطفل المقدس البريء الذي لم يخرج قط من هذا البيت انتبه إلى أنّها عاهرة قذرة وليس لها أن تعيش هنا في هذا المحيط الورع الطاهر، محاطة بقداسة الفقر والشيخوخة.

- خذوها!

ينظرن إليّ مندهشات: بدأ الطفلُ معجزاته، بدأت قدرته بالظهور، يأمرنا لأنّه يعلم أننا نطيعه ويريد أن نرمي بهذه الزبالة من البيت الذي يسكن فيه. إنّه يلمّح لنا بما يوحي بأن معجزة لن تحدث وبأنّه لن يحملنا إلى السماء ما لم ننظف المحيط. يجب إخراجُ هذه العاهرة من هنا. هيا... لنلبسها رداء العاهرات. تطلقين شعركِ الذي يسقط حتّى خصركِ. وبعد نزع معطفك، يلبسنكِ رداءً صوفياً ضيقاً جدّاً على ثدييكِ، وأنتِ، ماريّا، لأنّك قصيرة، أعيرينا تنورتك الخضراء لكي تكون قصيرةً عليها وضيقة وتبرز مؤخرتها واضحة بالإضافة إلى صدرها، يصبغون لك الحاجبين بالسخام، الجفنان منقادان بقليل من قلم الفحم المخفف، الفم واسع وأحمر لكي تكوني حسنة المظهر لنرَ كيف تسير تجارتك، إيريس، لا، المعطف لا، وإن شعرتِ بالبرد، فمع المعطف لن يظهر جسمكِ والرجال يحبون رؤية جسم العاهرات مثلك. ريتا ودورا تتدثران بشاليهما ويخرجانك إلى الشارع لأنهما ملزمتان بطاعة الطفل: وهكذا، محاطة بهذين البدنين رثّي الثياب، تخرج إينيس من البيت مجسدة في دمية صناعيّة مزينة كما العملاق.

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

هيّا، لا تظلّي واقفة هناك كالبلهاء لأنّ عليكِ أن تعملي وتكسبي قوت يومكِ، العجائز يدفعنها، هي تمتثل لأمري الحازم بالانصراف وإلى الأبد، ينحشرن في الشوارع الضيقة الخاوية، ويجتزن ساحات خاليةً من الأشجار محاطة بنوافذ مغلقة، يطفنَ في دروب من دونَ أعمدة النور لكي لا يتعرف أحد عليهنّ ظنّاً منهنّ أنّ هناك من سيتعرّف على عجوزين تشبهان جميع العجائز البائسات اللائي يطفن في الشوارع، يقطعنَ أرضاً خربة ويصلن إلى جادة يتصنعن فيها أنّهنّ يتطلعن إلى إعلانات لإحدى دور للسينما تحت ظلّة قليلة الأنوار. الناس يدخلون إلى صالة السينما ويخرجون منها، ويمرّ ناس بالشارع من دون أن ينظروا إليهنّ، كانت إيريس من الذهول أنّها لم تدرك أنّ المكان هو صالة سينما، فنانون، موسيقى راقصة، آنسات يغمضن أعينهنّ حين يقبلوهنّ، لا شيء، أنت مجرد قشر، تمضين في الفراغ خلف العجوزين اللتين تسيران منفصلتين عنك قليلاً لكي يظنّ الناس أنّك وحدك. يمرّ سيّد يرتدي بدلة غامقة ويصفر لكِ. تنتبه العجوزان، تمسكان بك وتدفعان بكِ في رأس شارع باتجاه نهاية مجموعة العمارات سيئة الإنارة، انظري، السيد يتبعنا. يختبئن ثلاثتهنّ عند بوابة. يمرّ السيّد، يصفّر مرّة أخرى، وينتظر للحظة في الناصية التالية، وعند عودته إلى الجادة ومروره من أمامهن تقول لك العجوزان، هيا، أسرعي، وتتقدم إيريس للعمل، لذلك فمن المؤكد أنّها ستستمر في العمل عاهرة، طبعاً أيتها العجوزان، طبعاً ستستمر في العمل عاهرة، وأيّ مصير تؤول إليه دمية من عجينة الورق خاوية الرأس غير أن يمزقها الرجال الجائعون ويقطعوها كهذا الذي يأخذها، قدمَ لها سيجارة واختفى معها، وداعاً، إيريس، وداعاً، لا تدخني، إيريس، فأنت ما زلتِ صغيرة، المهم، إن كنتِ ستصيرين عاهرة فالأفضل أن تدخني، هذا كلّ شيء، هذا مصيرك، ربّما يناسبكِ، إذ يقال إنّ حياة العاهرة رغيدة فهي تصحو متأخرة، وأنا

التي كنتُ أصحو فجراً حين كنتُ في الثالثة عشرة من عمري وتوفي والدي ودخلت للعمل في بيت أغنياء، متأخرة جدّاً وصلت الدورة إلى هذه البنت، لكن الصبية كانت شيطاناً، انظري كيف استغلت أنّها منفوخة وحاولت خداعنا لكي نعتقد أنّ حملها إعجازي... نعم، ريتا، لا تبكي، فستجري أمورها على ما يرام، ذلك السيد له وجه رجل صالح وقد أخذها في تاكسي لذلك لا يمكن أن يكون شريراً، ومؤكد أنّه سيحصل لها على عمل آخر إذ لا يمكن أن يكون ممتعاً قضاء الوقت في فعل الفاحشة مع ناس لا تعرفهم الواحدة وإن دفعوا لها، وبما أنّ إيريس بدينة فستجري أمورها جيداً لأنّ الرجال يحبون البدينات: نعم، هم يقولون تعجبنا النساء اللواتي لديهنّ مناطق كثيرة يمكن الإمساك بهنّ منها... ماذا يعني ذلك، لا نفهم نحن العجائز حتى اللغة التي يتكلم بها الرجال، فكأنّهم يتكلمون بالصينية أحياناً، وحين تشيخ الواحدة أكثر فأكثر، يقلّ فهمُها أكثر فأكثر لما يقولون. لذلك لا داعي لتعليم الطفل كلمة واحدة، يجب العمل على أن ينسى ما يعرف من الكلمات ونحن نعرف أنّه يعرف لأنّه نطق بها، وبقول كلمة أو كلمتين تكون البداية وربّما سيبدأ بقول أشياء سيئة لا نفهمها نحن.

***

نسكنُ في المصلّى. تنام العجائز، مثل لاجئات من أرض عصفت بها كارثة، على أكوام من الملابس البالية، على وسائد ومرتبة، لصيقات ببعضهنّ اتقاءً للبرد، مع كلّ واحدة منهنّ كيس فيه أخصّ مقتنياتها وأعزّها مما تنوي حمله معها إلى السماء، اصطنعنَ لأنفسهنّ مدافئ من علب الصفيح، علّقتْ مجموعة منهنّ بالقول بأن اختفاء إيريس ينبئ بأن الرحيل وشيك، تسعل إحداهنّ، تعدّ مجموعة أخرى نصف البرميل الذي سيحشرنني فيه لتحميمي: يشعلن النار في صفيحة من البارافين لتسخين الماء لي، رحن ينزعن إفريزات قواعد الأعمدة ويرمين بها

إلى النار، وقطعاً من خشب الأرضية وعضادات الأبواب ودرابزين مقصورة الكهنة الخشبي المدور والأريكة المذهبة، ويواصلن القول بأنّهم لن يهدّوا هذا أبداً على الرغم من أنّهنّ بدأن الهدّ، إنّهنّ يزلن كلّ ملامح ذلك المصلّى الذي أتلقّى فيه التوقير بالطقس البدائي المتمثل في العناية بي وتنظيفي وإطعامي وإلباسي ملابس بوي، جهازه كلّه، لأني سلّمتهنّ المفاتيح، فتحوا غرفة إينيس وعالمها وجلبوا كلّ شيء، يزيّنني ويدلعنني كما تمنيتُ دائماً. النهار قصير في هذا الوقت من السنة. هنّ لا يخرجن أبداً تقريباً إلى الضوء. حظرن على اليتيمات الخروج من المصلّى، حذارِ فقد يكون هناك رجال شريرون يخطفونهنّ كما خطفوا إيريس ماتيلونا المتمردة الكذّابة. اليتيمات يدلعنني أيضاً، ما عدتُ أميّز بينهنّ، فقد أصبحت العجائز متشابهات، أيديهن خشنة، سعالهنّ، عقولهنّ مشوشة، خطواتهنّ صامتة، حذارِ أن يسمعننا، حذار أن يريننا، حذار أن يأتي رجال أشرار، أيّ خوف. الوقت كلّه ليل تقريباً. أنا كلّي طفل تقريباً.

في الليل تخرج العجائز من البيت. ماذا حلّ بالأم بنيتا؟ ألم تسمعي حضرتكِ، أيتها الأم آنسيلما، بشيء عنها؟ آه، حضرتك لستِ الأم آنسيلما، حضرتكِ كارميلا وحسب، مرحباً كارميلا، عثرتَ على إصبع رئيس الملائكة، هي كانت من الأوليات، تذكرن، ماذا حلّ بها وأينَ حبسوا المسكينة، ليست هي كارميلا بل إليانا التي وضعتْ على رأسها شال كارميلا المعثوث وخلطتُ بينهما... ماذا ستعرفين أنتِ لماذا لم تتصل الأم بنيتا عندما صرت أكثر بلاهة من إيريس البلهاء، خسارة، أن ليس عندك جسم امرأة وإلا... أليس صحيحاً، ريتا، أنّ في مقدورنا...؟ أليس بين اليتيمات واحدة لديها نهدان ومؤخرة؟ لا، ولا واحدة، لذلك لا نستطيع حملهنّ إلى الشارع مثل إيريس ليكسبن قروشاً جيدة وليكون لدينا ما نقيم به أودنا. لكن من الغريب

أن لم تتصل الأم بنيتا ولو مرّة واحدة، لا تنكرن ما أقول، والأغرب أنّها رحلتْ من دون أن تودعنا حتّى بعد أن كانت تزعم أنّها تحبنا كثيراً... الطامة الكبرى. ولم يتصل أيضاً الأب آثوكار، وهو الذي كان من قبل يتصل لأيّ أمر من الأمور. وماذا يهمّ! لا يهمّ شيئاً، لأنّ الطفل سيحملنا وحين يأتيان سيجدان البيت فارغاً... هما يستحقان ذلك، لأنّهما نسيانا، لم يبقَ طعام، قد نكون عجائز وشهيتنا قليلة لكنّ علينا أن نأكل شيئاً... لذلك كنتُ أقول أن نلبس فروسي لباس امرأة وندفع بها إلى الشارع لعرضها، ولكن لا، فالرجال يدركون أنّها ليست إلا طفلة تبلغ الحادية عشرة ولن تعود علينا بشيء... لا بدّ من شيء نأكله، شاي أو متة أو قهوة أو حساء شعر الملاك، أيّ شيء، مصيبة كبرى أن ينسونا هكذا، ولكن لا يهم، سيدفعان غالياً بالمفاجأة التي سيجدانها حين يكتشفان أنه لم يبقَ أحد في البيت. ذات ليلة خرجت أوريستيلا للتسوّل وعادت بمتة وسكر. ثم خرجت أخريات، الأكثر جرأة، ريتا ودورا في مجموعة، ثونيلدا تورو التي لها صوت أبحّ ذو قدرة على الإقناع، وتابعتهنّ أخريات. ما كنّ يبتعدن كثيراً عن البيت لأنّهنّ يتعبن ويخشين أن يتهن. فكأنّ مداً بطيئاً من الوساخة والتوسلات يغزو الحيّ عند الليل، أصوات كثيرة السؤال، خطوات صغيرة تتابع لكنّها تستطيع أن تطارد، النفس المنتن الذي يشكر، اليد العوجاء التي تمسك بقطعة النقود وتخفيها في التنورة الممزقة، العيون التي تلمع دقيقة ثم تنطفئ. عجوز تتابع فتى بالقرب من جدار تتوسل إليه أن يعطيها شيئاً، تلحّ عليه بصوت باكٍ، يحث الفتى الخطى لكنّ العجوز تلحق به ولا يتجرأ على الهرب فيعطيها صدقة، بسرعة، لكي تنصرف، لكي تدعه بسلام، يعطيها نقوداً أكثر مما كان عليه أن يعطيها. ذات مساء وصلت مجموعة من العجائز يحملن أكياساً مليئة بالخضروات والمأكولات: حكين أنّهن تبعن سيدة كانت عائدة من التسوّق وكان

إلحاح جمع الجائعات المتباكيات المنتحبات في الشارع الخالي، من الشدة، أن السيدة شعرت بالخوف فجأة من كثرة السعال والبكاء والإلحاح فتركت الأكياس وفرت راكضة، وماذا في أيدينا، قلنَ، للحاجة وجه كافر، هكذا قلن. بدأن بالذهاب في مجموعات إلى الحانوت، حيث تشغل بعضهنّ المالكة وبقيّة الزبونات بقيل الجارة وقالها بينما الأخريات يخرجن أشياء، أحياناً أشياء غير نافعة ولكنهنّ يحاولن دائماً إخراج أشياء كأرغفة الخبز والشاي والسكّر، فمن أين نأكل ونحن أربعون عجوزاً مهما قلّ مقدار جوعنا، دائماً نطلب شيئاً، كأس شاي، كسرة خبز وإن كانت عتيقة لوضعها على الجمر الذي يخلّفه الحطب الذي يسخنون به الماء لتحميم الطفل. يضعون الطفل بالقرب من الجمر لكي لا يبرد، أحياناً أكتوي تقريباً لكني لا أستطيع الصراخ لأني لا أمتلك صوتاً، نعم، هؤلاء النسوة القبيحات يردن أن يسلكنني في سيخ حديد لتحميص لحمي الطري فوق الجمر وافتراسي، ولكن لا، يطرحنني في السرير، يجب معاملة الطفل معاملة جيدة، انظري إليه، أوريستيلا، انظري إليه تريسا، انظري إلى عينيه الواسعتين، انظري كيف ينظر إلينا يريد أن يقول لنا أن ننتظر قليلاً لأنّ المعجزة ستقع، أن نصبر، فستأتي العربات، لقد طلبوها، انتظرن، أيتها النسوة، انتظرن، لكن كيف ننتظر ونحن نموت من الجوع. طقس تغيير ثيابي، غسلي، لفّي بالحفاظة، تغطيتي بالسروال، ربطي داخل ربطة عنق قصيرة أمام مذبح غير موجود، أمام بقايا أرباب هجينة منسيّة يتفتت جبصينها بالرطوبة، تسقط ذراع، ذيل تنين، تتقطع في الأرض، تدوس العجائز على القطع حين يخففن لاستقبال اللاتي عدن من الشارع، لنر، بماذا عدتن اليوم، أيتها الفتيات. حكين أنّهنّ ذهبن إلى محل جزارة وبينما كان الجزّار يقطع لا أدري أيّة فضالة لمتبلدة ذهن قصيرة نظر، تمكنّ هنّ من أخذ... انظرن، أضلاع خروف كاملة،

احتفال، احتفال، نزعوا المزيد من خشب الأرضيّة، أسقطوا باباً من الأبواب، أوقدوا ناراً وانتظروا أن تتحول النار إلى جمر متقد حيث وضعن الضلوع للشيّ ووصلت الرائحة الذكيّة حتى أنفي: تلك الليلة، رحنَ يقضمنَ عظام الخروف وهنّ متحلقات مقرفصات حول النار، وضعنني داخل كيس تاركات رأسي خارجه، مثل ديك رومي غاضب: خاطوني جيداً داخل الكيس لكي لا يتحرك الطفل، غرزة أخرى، هناك بإبرة خياطة الأكياس هذه، من الأفضل وضعه في كيس آخر إضافي، أنتِ لا تأكلين، ثونيلدا، ولديك قوة، ضعيه داخل هذا الكيس الآخر وخَيطيه، أنا أيضاً أريدُ أن أخيطه بغرزات أخرى لأنّي أعرف غرزة ليس هناك من يستطيع قصها. يضعونني في مهد الطفل. بينما يحتفلن بسرقة الأضلاع، وأسمع جدعات أسنانهنّ وهي تقضمُ العظام، بينما ألمح الأشباح تتحرك في العتمة والوجوه المتشكلة في الظل، أزدرد العصيدة التي يطعموني إيّاها، منذ أسابيع وهنّ لا يعطينني غير العصيدة حتّى عافتها نفسي، ولا أريد أن تشتكي العجائز من أنّ هذا الطفل غير راغب في الأكل، ما به، ربّما هو البرد، من الأفضل حشره في كيس آخر وإضافة غرزات أخرى، أنتِ كارميلا، لديكِ أكياس أخرى. تخيط كارميلا. مادة الجوت الخشنة والنتنة تحزّ عنقي حتى تدميه، أتمنّى أن أتوسل إليهنّ كي يرخين قليلاً الثقب الذي أطلّ منه برأسي، ولكن كيف وأنا لا أستطيع الكلام، ولدت أخرس يقولون في هذا البيت، والآن وأنا لا أمتلك ولا حتى يدين لكي أومئ بهما فأنا لا أستطيع أن أتفاهم معهنّ. ولا عيناي تمتلكان القدرة على أن أترجاهنّ بأن يخففن عنّي، ولا ينظرن إلى عينيّ حين يعطينني عصيدتي، أو حين يغسلن وجهي بقطعة قماش، أو حين يخطن غشاء كيسٍ آخر حول السابق إلى أن يحزّ ذقني، لا يرينني لأني غير مهمّ، لأني غيرُ موجود، أنا مجرد مادة سالبة يعرضون عليها صوراً، الطفل، بوي، المعجزة، ساعة البطاطس، كيف

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

تقولين إنّها غير جاهزة، ماريّا، دقيقة، لن أتأخر، سيبكي الطفل من الجوع، لكنّي ما عدتُ أبكي ولا أتكلّم ولا أقول «نعثان» ولا «عندي بوله».

ولأنهنّ يخرجن الآن كلّ ليلة تقريباً فهنّ يتركنني وحيداً في المصلّى. ربّما بقي حضورٌ لهنّ في ركن مظلم لم يخرج لمرض أو لوهن؛ ترتجف في القذارة أو تسعل أو تبصق، لا بدّ أنّها عجوز محتضرة لا أميّزها نسيتها الأخريات وهن في حماسهنّ لمهمتهنّ الجديدة. فهنّ الآن يعدن بالغنيمة متأخرات. يقال إنّ هناك عمليات سطو في هذا الحيّ. عجائز مجرمات يترصدن للمارة في الناصيات، يتبعنهم متباكيات ساعلات، يلحفن في السؤال ويضايقن، ينتحبن ويتسولن حتّى يجبرن الشخص علي الدخول إلى أيّ شارع معتم وتنفصل خمس أو ست منهنّ عن الظلّ ويرمين بأنفسهنّ على الضحية، بالحبال والعصي، ويجردنه من كلّ ما يحمل: نقود، علب، ملابس. يقولون إنّهم عثروا في الحيّ على عدة أشخاص مرضوضين وعراة. عتبات الدور خطيرة. ما قد يبدو في الظلام جذع شجرة يمكن أن يكون متسولة درداء مرتعشة يمكن لها بمعزوفة الفقر والأمراض أن تحمل الشخص إلى أرض خربة ليهجم السرب الدموي عليه... من الأفضل الكف عن السير وحيداً ليلاً في هذا الحيّ الذي ما عاد كما كان، في أيام الخير، لقد ساء الوضع بسبب هؤلاء العجائز... ولكن كيف يمكن لهذا الأمر أن يكون صحيحاً... لا بدّ أنه كذب... لا أحد يصدّق... الحقيقة الناصعة... كيف لنا أن نصدّق أن تغزو مجموعة من المتسولات الطاعنات في السن، الخارجات الله أعلم من أيّ مكان من هذا الحيّ الهادئ، يقولون إنّ هناك ناساً يريدون الانتقال إلى أحياء أخرى، يقولون إنّ ستّ عجائز دخلن على الصبيّ صاحب محل بيع وشراء المجلات ليطلبن منه صدقة حين كان وحده وسرقن صندوقه،

الأفضل البحث عن بانسيون آخر بعيد من هنا، من الخطورة الخروج ليلاً لأنّ سيارة تظهر فجأة لشخص وتسرق منه القليل الذي يحمله في جيبه، يتبعون الناس، ببطء، وفجأة يتمرد ذلك الذي يبدو خيالاً ويتغيّر ويهاجم، ذلك هو ما يحدث، قد لا تكون تلك العجائز اللاتي يتكلمون عنهنّ كثيراً هنا في الحيّ أكثر من أشباح من صنع الخوف، ولكن وجود الكثير منهنّ... المهم، لا أدري إن كنّ كثيرات ولكن يبدو أنّ هناك عجائز أكثر من قبل... تخرجُ وقد غطّت رأسها بالشال، تجرّ نعالها، تنساب بالقرب من الجدار، وحيدة، ولكن حين يراها الواحد تتقدم وحدها، عرجاء محنيّة الظهر، يدرك أنّ هناك مجموعة مسلحة بانتظاره عند الناصية، وهكذا يعبر فوراً صوب مصباح الجانب الآخر من الطريق، لكنّه يلمح عجوزين متخفيتين عند عتبة بيت بعيد، حينها يخرج إلى منتصف الشارع لكنّه يلتقي بمجموعة من الأشباح تتقدم، وحينها يحاول أن يعود القهقرى لكنّه لا يجد سوى جدار واحد من دون نوافذ، فقد أغلقتُها أنا كلّها وبفرشاتي قلّدتُ الشيخوخة لكي لا يلاحظ أحد غياباً، وجوه وحسب، أسمال وحسب، أحياناً يهاجمن وأحياناً لا، مسألة حظ إذ لا يمكن الخوف من عجائز يهربن كالفئران ثمّ يصلن إلى المصلى بغنيمتهنّ لتقاسمها، لنأكل أشياء لإعالتنا، هذا المعطف الذي كان لسيدة سمينة سأحمله هدية لمرثيديس باروسو، وسلسلة الساعة الذهبية إلى بريجيت، ستفرح المسكينة.

- رأيتُ إيريس.

- أين؟

- هنا قريباً.

- كيف؟

- كانت ترتدي قبعة.

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

– القبعات لا تستعمل.

– لكنّ هذه التي رأيتها كانت ترتدي قبعة وقد نظرتْ إليّ.

– في زماني كانت القبعات...

– حذارِ أن تفكّر إيريس بالعودة إلى هنا.

– أظنّ أنّ هذا هو ما تريده.

– لماذا؟

– لا أدري، الآن بعد أن اغتنت...

– لتسرق الطفل منّا؟

– لتأخذ الطفل منا؟

– قبل أن تقع المعجزة؟

– لا تستطيع...

– علينا أن نحافظ على الطفل.

– نعم، علينا أن نخفيه.

– يجب ألا يلاحظ أننا سنخبئه، لأنّه إن لاحظ ذلك فسيشعر بالخوف.

تتصنّع كلّ واحدة أنّها تقوم بأعمالها الاعتيادية، أو هي في الواقع تقوم بها: ماريّا بنيتيث تطبخ عجينة الحساء، أحد ما قال إنّها قبل أيام أخذت صبغة من الحانوت، أعطني صبغة لأضيفها إلى عجينة الحساء، فهي من دون صبغة لا تبدو هي، ولكن ليس هناك عجينة حساء كتلك المعمولة في مرق الدجاجة الرومية، يحطمن الأرضية بالفأس، يسعرن النار بفلقات الخشب، يخطن على ضوء شمعة، يرتّبن تفاهاتهنّ في أكيساهنّ. تقترب أربع منهنّ ومعهنّ كيس كبير: يأخذنني بين أذرعهنّ ويقلن لي يا جميلي، آررررروررروررروبـاتـا، لا تخفْ يا صغيري، نحن سنعتني بك لكي لا تأتي تلك المرأة الشريرة المزوقة بلا إتقان

لسرقتك والقيام بأفعال شنيعة مع حضرتك وأنت القديس. يحشرنني في الكيس. يجثون أربعتهنّ حولي ويخطن الكيس. لا أرى. أنا أعمى. تقترب أخريات بكيس آخر ويعاودن حشري ويعاودن الخياطة بينما يدمدمن بصلاة قصيرة أكاد لا أسمعها، لكي تحدث المعجزة حين تنفذ إرادته ولكن لتكن في ما بعد، لأنّ إيرنستينا لوبيث ستموت هناك في الركن، إنّها مريضة، تبكي لأنّها تقول إنها لا تريد أن تموت، يخطن، يربطن أكياساً أكثر على رأسي وتقترب أخريات وأشعر بارتفاع غلاف ظلام آخر من حولي، طبقة صمت أخرى تخفف الأصوات التي لا أميّزها إلا بصعوبة، أطرش، أعمى، أخرس، علبة صغيرة من دون سكس، كلّ شيء مخاط ومربوط بسيور وحبال، أكياس ومزيد من الأكياس، أتنفسُ بصعوبة عن طريق خرطوم طبقات الجوت المتتابعة، في الداخل هناك حر، ليس هناك حاجة للتحرك، لا أحتاج شيئاً، هذه العلبة هي أنا كاملاً، متقلّصاً، من دون اعتماد على شيء ولا على أحد، أسمعهنّ يتوجهن لي بتوسلاتهنّ، راكعات، يتضرعن لي لأنهنّ يعلمن أنني الآن قادر قدير وسأفعل المعجزة.

٣٠

- حان الوقت، بناتي...

تأمل الأب آثوكار وهو يقف على عتبة صالة ريتا مجموعة بناته: سبع وثلاثون عجوزاً، نفايات سبع وثلاثين حياة، شاحبات، هزيلات، واهنات، وسخات، معصورات، سبع وثلاثون بحسب القائمة التي قالت له الأم بنيتا إنّه سيجدها في درج مكتبها العلوي، لقد عدّهنّ، كنّ بالفعل سبعاً وثلاثين عجوزاً، جميعنّ مريضات بدرجات متفاوتة. لن يعمّرن طويلاً في البيت الجديد.

- حان وقت الرحيل...

هنّ كنّ يعرفن ذلك. طاف أربعة رهبان شباب، لم يشهد البيت قط لسواد عباءاتهم الأنيقة مثيلاً، لأنّ كلّ شيء في البيت رمادي، في الباحات والممرات والأكواخ والغرف يحيطون بالنزيلات مثل أربعة كلاب سود رفيقة تحيط بمجموعة، ساروا بهنّ إلى البوابة وساعدوهنّ في حمل أكياسهنّ، طرودهنّ، سلالهنّ، حقائبهنّ، علبهنّ الصغيرة، صناديقهنّ المربوطة بالحبال أو السيور. راح الأب آثوكار، وهو جالس على منضدة ريتا تحت التلفون، يشطب اسم كلّ واحدة منهنّ تتقدم. أطلّتْ بعضهنّ على الشارع: هناك كانت بانتظارهنّ، بيض، كبيرة، لمّاعة، تعكس شمس الصباح، متوقفة قبالة البيت. طبعاً لم تكن عربات، فما عادت العربات مستعملة، كانت حافلات صغيرة

جميلة، حديثة، زجاجها ذو خضرة خفيفة، ولربّما كانت مُدفأة، وهو ما سيكون مناسباً للصعود شاهقاً مثلما سنصعد، فللوصول إلى السماء نحتاج إلى تدفئة.

– في الحارة العلويّة، وسط حديقة، ينتظركنّ بيتٌ أبيض جُهّز لاستقبالكنّ. غرف نوم ومصلّي، وحمامات ومطابخ رائعة وغرفة طعام، ستَرَيْن، لقد تأخرنا قليلاً في الوصول إليكنّ لأننا أردنا أن يكون كلّ شيء جاهزاً وألا تنقص أيّة جزيئة. هذه الحافلات الصغيرة عند باب البيت هي أيضاً لكن، لتحملكنّ للنزهة حين يكون الطقس جميلاً، والأم بنيتا تدرس حملكنّ إلى الشاطئ للاصطياف...

– وكيف حال الأم بنيتا؟

حرّك الأب آثوكار رأسه بشيء من الألم.

– بداية هي ليست على ما يرام: إجهاد العصبي، كما قال الأطباء، لكنها تعافتْ بعد أسبوع من الراحة، وهي بانتظاركنّ. وقد رتّبت هي والسيدة راكيل كلّ ما يتصل بميراث بريجيت أويارثي، لا أدري إن كنتنّ تتذكرنها...

– وكيف لا نتذكر بريجيت المسكينة!

– هل كان لقبها أويارثي؟

– كلا، كان لقبها ريّس أويارثي...

تناقشوا حول لقب بريجيت: أويارثي من طرف الأم وريّس من طرف الأب، ريّس من طرف الأم وأويارثي من طرف الأب[١٥]، لا، ليس صحيحاً، كارميلا، أنتِ تكذبين، أويارثي كان لقب زوجها، وليس لقبها، وكيف لا تعرف السيدة راكيل، ليسألوها، لا، أوريستيلا،

١٥– نظام الأسماء في إسبانيا وأمريكا الجنوبية هو اسم الشخص يتبعه لقب عائلة أبيه ثمّ لقب عائلة أمه. وقد يلحق الفتاة بعد زواجها لقبُ زوجها.

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد ٢١٥

فأنتِ لم تكوني حتّى صديقة لبريجيت فلا تقولي لي إنّك تعرفين أكثر منّي، أترى، أيها الأب آثوكار، كم تكذب لوسي حين تزعم أنّ أويارثي لم يكن لقبها لا وهي عزباء ولا وهي متزوجة، وأن اسمها هو بريجيت فارياس ريّس دي كاسترو، يصرخن، يسعلن، وقد رفضن من دقائق ترك رزمهنّ أو الصور التي كنّ يحملنها ملفوفة في أكياس، تركن كلّ شيء على الأرض ليدلين بدلوهن في المرافعة، كلّ واحدة هي الوحيدة التي تعرف، والأخريات مخطئات، تعددت الروايات حول هوية بريجيت وتعقدت وتضاربت، فمن قائلة بأنّ أسرة أويارثي ربّتها لكنّها من أسرة ريّس، أو أنّ أسرة ريّس ربّتها لكنها من أسرة أويارثي، ومن قائلة بأنها خدمت في بيت أسرة أويارثي قبل الدخول إلى حيث السيدة راكيل، ولكن ما علاقة ذلك بأن يكون لقبها أويارثي، لا بدّ أنّه أويارثون أو أويانيدل. صمت الأب آثوكار وهو يسمع ذلك الجدل. بريجيت وُجدت فقط في خرافتها، وبلغت ذروتها في الإرث الذي سلّمته السيدة راكيل أخيراً إلى رئيس الأساقفة بعد أن استنفذت كلّ طريقة لإنقاذ البيت من أيدي هادميه. ورضخت الأم بنيتا، وهي تشعر بالحزن والتعب، لفكرة أنّ سنّها لا تسمح لها بالشروع في عملها الجديد أمينة على مدينة الطفل، لأنّ التقنيات الحديثة تستدعي الكثير من الإعداد والدراسة لتولي هذه المهمة وسيكون من الأفضل لها أن تنهي أيامها مع العجائز الأخريات في البيت الجديد الذي اشتروه بمال بريجيت. وافقت الأم بنيتا. لكنّها قالت:

– هزمتُ.

– لا تقولي ذلك، أمّاه.

– إنّها سنوات عمري.

– سنبلغها جميعاً، أمّاه.

- أنا ظننتُ أنّها لن تبلغني.

- وكيف ذلك...؟

- أو أنّها ستبلغني بطريقة أخرى...

- لا أفهم.

- لا يهم، سيدي. امنحني على الأقل الامتياز الذي تحظى به العجائز، في أن أقول أشياء ليس لها معنى. متى نستطيع الإقامة في البيت الجديد؟

من الجدل حول لقب بريجيت انتقلن إلى النزاع حول الحق في اعتبار هذه أو تلك أفضل صديقاتها، ومن هنا إلى هوية من تحوز هذه الحاجة أو تلك من حاجاتها، مرتبة الستان الأزرق، الراديو الذي يعمل بالبطاريات بعد أن حملوا أماليا من يدري إلى أين، صورة البشارة، البطاقة، و<مصقلة الأظافر>، برنيطة السبّاح الحمراء، بريجيت الحيّة، الأكثر حضوراً من أيّ حضور رثّ الهندام وأصوات غربلتها السنوات. كان في نيّة الأب آثوكار أن يشرح لهنّ أصل ثروةً بريجيت وإرثها، ويضيف إشارة موجزة إلى تاريخ البيت، ويشير إلى إينيس دي آثكويتيّا وإلى المشاريع الشامخة التي ستظهر في ذلك المكان بعد أن تبدأ عملية الهدم بعد أسبوع... لا فائدة، لا فائدة، فعقول العجائز تتشابك في زحمة تمنع أيّة محاولة للشروع في نظام. كوّر في جيبه الورقة التي قيّد فيها في ذلك الصباح بعض الملاحظات عن كلمته ورمى بها إلى الأرض. تدحرجت حتى قدمي إحدى العجائز التي التقطتها، بينما كانت تجادل أخرى قريبة منها، ونشرتها بعناية ومن دون اهتمام بقراءتها، هذا إن كانت تجيد القراءة، طوت الورقة وأخفتها: من يدري فكلّ شيء جائز. كان الأب آثوكار يراقبها. أمرٌ لا يصدق! كانت الأم بنيتا المسكينة على حق حين كانت تتلهّف للخروج

من جحيم العقول والأجسام التالفة ذاك. الأفضل ألا يشرح شيئاً لهنّ. ليظنّن ما يشأنَ الظن لأنّ المنطق والتعسّف، والأسباب والنتائج، لا فاعلية لها مع هذه الكائنات الفوضوية. المهم. الأفضل إخراجهنّ من البيت ونقلهنّ إلى الحافلات الصغيرة. أسكتهنّ بتحريك ذراعيه والتلويح بأوراق القوائم.

- الأب سيلفا.

- نعم، أبتاه؟

- تعاونْ والأب لارانياغا على نقل تلك إلى الحافلة الأولى... تلك السيدة مريضة. يجب إدخالها إلى المستشفى. المهم، الأطباء ينتظروننا هناك ليبدؤوا بفحصهنّ جميعاً هذا اليوم وهم الذين سيقررون ما يجب فعله مع هذه... ما اسمها؟

- إيرنستيا لوبيث.

- لا، لوسي... إيرنستيا ريياس أرملة لوبيث.

- نعم، ها هي: إيرنستيا ريياس أرملة لوبيث.

فتحوا الحاجز لطلب سرير نقّال. وضعوا المريضة عليه وتجمعت العجائز عند الباب للتطلّع إليهم وهم يصعدون بها إلى السيارة البيضاء العجيبة. مسكينة، كم هي مريضة السيدة إيرنستيا، ميتة هي تقريباً! ولكن حين أجلسها الأب لارانياغا بالقرب من النافذة الزجاجية الخضراء بدتْ وكأنها استعادت الحياة، وابتسمت لصديقاتها، وهي تسبح بأشعة الشمس من خلال إحدى نوافذ السقف، وحركت لهنّ يديها وكأنها تقول لهنّ استعجلن، أيتها الفتيات، فما أجمل المكان هنا. أغلقوا الحاجز الفاصل مرّة أخرى. نعم، لنعجّل في الرحيل من هنا. أخذت العجائز علبهنّ ورزمهنّ. من فضلكنّ، أقل ما يمكن، قال لهنّ الأب آثوكار، هناك سيعطوكنّ كلّ شيء، جديداً. ألم أقل لكنّ،

أيتها الفتيات، بأنّهم في السماء يعطون الواحدة كلّ شيء جديداً؟ بلى، لكنّي لن أترك هذه القديسة بذيل التنين التي تعجبني كثيراً. ولن أترك كيسي الذي يحتوي على أشيائي. ولا كبير الملائكة هذا القديس جبريل. أليس هو لأماليا؟ طبعاً، أحملهُ لأعيده لها، أكيد أنّ أماليا ستكون هناك في المكان الذي سيأخذوننا إليه ولا شكّ أنّها عثرت على الإصبع. أقلّ ما يمكن، بناتي، ما هو ضروري ولا غنى عنه وحسب. كنّ قد أمضين الصباح كلّه ينتقين أشياءهنّ!، ويعملن علباً أصغر، عند كارميلا حقيبة حقيقية راحت تحشر فيها كلّ شيء. سلال وأكياس الخيش، أو أكياس بسيطة يلقينها على الكتف مبتسمات لأنّهن سينطلقن الآن فعلاً، ويبتسم الرهبان الشبّان أيضاً راضين لأنّهم سيأخذون هؤلاء العجائز المسكينات إلى منزل وفّرته الرحمة لهنّ، بينما سينهض هنا مشروع مستقبلي متألّق: صالات ألعاب وأبراج ومسارح وقاعات دراسة ومكتبات ستجذب جمع الصبيان لكي لا يفسدوا في الشوارع، يجب هدم هذا، لن يكلّف هدمه شيئاً، إنّه طوب أو جدران من الطين، المستقبل سيبدأ حين تجتاز العجائز عتبة الباب، فرحات لكنهنّ يبكين من التأثر ونحن أيضاً متأثرون. دعا الأب آثوكار إلى الصمت من جديد.

– من فضلك، أيها الأب سيلفا...

– نعم، أبتاه.

– قفْ عند الحاجز وافتحه عند خروج النزيلة التي أنادي عليها. اليتيمات أولاً. ليذهبن إلى حافلة المريضة لكي تنزلهنّ في دار الأيتام قبل أن تتوجه إلى البيت الجديد. السائق لديه التعليمات. إنّهنّ خمس. لنر: إليانا ريكلمي.

– حاضرة.

- بيرونيكا غونثالث.

- حاضرة.

- ميريّا سانتاندير.

- حاضرة.

- أيوفروسينا ماتوس.

- حاضرة.

- إيريس ماتيلونا.

لم يردّ أحد.

- إيريس ماتيلونا؟

هزت العجائز أكتافهنّ، رفعن أياديهنّ، مططن شفاههن وكأنّ كلّ واحدة منهنّ تقول وما أدراني، ليست لديّ فكرة، لا يلقينّ أحدٌ بالذنب عليّ إن كان يبتغي إلقاءه على أحد، لا صلة لي بالموضوع إن كان هناك من موضوع، ثمّ يجب توضيح ما كانت عليه إيريس ماتيلونا، لا بدّ من أن يصارحَ أحدٌ الأب آثوكار بالحقيقة. تقدمت ريتا:

- أبتاه.

- نعم؟

- رحلتْ إيريس منذ ما يقرب من أسبوع.

- كيف تقولون إنّها رحلت؟

- ألم أقل لك؟ كانت عنيدة، لو أنّك...

- ليست المسألة مسألة أن تكون عنيدة.

- لا، ولكن لو رأيتَ كم هي فاسدة.

- لا، ريتا، صارت فاسدة، قبلها لا...

- ولماذا فسدت، ريتا؟

- لا أدري، أبتاه، بدأتْ تصبح متطلبة وكلّ شيء...

- كيف، متى؟

- حين تركتمونا وحيدات.

- نعم، أبتاه، كانت تخرج ليلاً إلى الشارع.

- واختفت.

- يا إلهي! لا يمكن لطفلة في الخامسة عشرة أن تختفي.

- ستة عشر تقريباً.

- لكنّها اختفت.

وماذا في أيدينا، أبتاه، ليس الذنب ذنبنا، لم تكن تسمعْ كلام أحد وقد جنّت على الرجال، حكت لنا بعض الجارات أنّها كانت تقف عند النافذة المفتوحة في الدور الثاني لتنادي الرجال الذين يمرون وكان الحيّ كله يعرفها من فضائحها وكانت الغبيّة هي الأخيرة في معرفة ذلك ثمّ اختفت، نحن لا ذنب لنا، حضراتكم تركتمونا مهملات، جائعات، وربّما هربت إيريس من البيت لأنّها كانت جائعة. كنّا نتصل برئيس الأساقفة هاتفياً وبحضرتك، أيها الأب آثوكار، ولكن معاونيكم كانوا يردّون دائماً بالعبارة ذاتها، أن ننتظر أياماً قليلة، وحين شاع أننا سنبقى وسنموت جوعاً هنا في البيت من دون أن تتذكرونا، هربت إيريس ماتيلونا، ربّما من الخوف، حين نلتقي الأم بنيتا سنقول لها إنّ سماحها بحدوث أمر كهذا كان غاية في السوء، أنا مستاءة كثيراً منها ولا أدري إن كانت بي رغبة كبيرة في لقائها هناك فوق...

- أين؟

- ألا يقولون إنّها ستكون معنا في الحارة العلويّة؟

- بلى، أيضاً.

كان هذا جواب الأب آثوكار لأنّه ما كان يدري بأيّ شيء يجيب. الأفضل ترك مشكلة إيريس ماتيلونا الآن. ما هو عاجل الآن هو الرحيل

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد ٢١٥

من البيت فوراً. أمّا موضوع إيريس فسيصلّح في ما بعد. إمّا أنّها ستظهر أو أنّهم سينظرون في ما يمكن فعله مع أمر اختفائها، أو هربها، أو... ما حدث، ما يهمّ الآن هو الرحيل، فإن تأخروا دقيقة واحدة عن الرحيل عن هذا المكان، فستستقرّ العجائز هنا وسيستولين على البيت مرّة أخرى ولن يسمحن بهده. ثمّ موضوع إيريس ماتيلونا. كانت تلك أسمن، واحدة مكسورة السن تذكّرتْ مع الخوف فجأة، لا، لا، يجب الرحيل الآن فوراً والكفّ عن التفكير في موضوع إيريس، الذي قد يجرّ إلى عواقب خطيرة. إن كانت ستجلب عواقب فلتجلبها في الخارج، والبيت فارغ.

- الجرس يدق، أبتاه.

إيريس! إنّها إيريس ماتيلونا التي تعود الآن لحلّ المشكلة كلّها، ابتهل الأب آثوكار.

- افتح، أيها الأب سيلفا، من فضلك.

إنّها ليست إيريس. إنّه مساعد سيارة حمل، شاب، معدم، مرفوع السروال فوق بطات ساقيه، يحمل يقطينة عظيمة لها قشرة قاسية، رمادية، غير اعتياديّة، تشبه قشرة حيوان من حيوانات ما قبل التاريخ. سأل مساعد سيارة الحمل:

- هذا هو بيت الرياضات الروحية لعذراء التجسد في تشيمبا؟

- نعم هو هنا...

ومن دون أن يضيف شيئاً آخر عبر بسرعة من خلال الطريق الذي أفسحته له العجائز لكي يمرّ مع تلك اليقطينة الرائعة، حين وصل إلى رواق باحة البوابة، توقف وسأل:

- أين نتركها؟

ردّت دورا:

- هناك، في الممر.

وضعها فوق البلاطات وعاد ركضاً، لكنّه تقاطع في منتصف طريق العجائز المندهشات مع مساعد آخر يحمل يقطينة أخرى وضعها بالقرب من الأولى، وعاد ركضاً ليتقاطع برجل آخر محمل بيقطينة أخرى تركها وعاد ركضاً وتقاطع بآخر وآخر وآخرين، جميعهم يركضون ليملؤوا ممر باحة البوابة بتلك الدروع المفضضة بأجسامها غير المنتظمة الغريبة، من دون أن يجرؤ أحد على أن يهمس ولو بكلمة أمام غزو كائنات تنتمي إلى عصر جيولوجي آخر، ماض أو قادم، تتنامى أعدادها بلا حصر، فكأنها تتكاثر بفحش في الممر لأنّها كانت تحمل بسرعة فائقة على أكتاف مساعدي حمل متعرقين، كانوا اثنين، لا، ثلاثة، لا، خمسة، لا، اثنين ينزلان اليقطينات والمزيد منها من الشاحنة المليئة بها والواقفة تماماً قدام العربات البيض: يقطينات، اسمع، الكثير من اليقطين، ما أطيبه، سيمكننا عمل طبيخ الفاصوليا الحمراء ما دام الصيف على الأبواب، وفطائر اليقطين في الشتاء، وخبز اليقطين ليلة القديس خوان، حلوى اليقطين لذيذة أيضاً ولا طعم للطبيخ من دون اليقطين، هذا الذي قشرته رمادية هو من أجود الأنواع، قالت ماريا بنيتيث وهي تعطي رأيها فيه، إلى أن أطلّ الأب آثوكار من الحاجز، وقد خرج من ذهوله، وبيده القوائم وصاح:

- ما هذا؟

وقف المساعد إلى جانبة وهمس في أذنه:

- يقطين.

- نعم، ولكن...

ردّ عليه السائق، وكان يفرغ حمولة اليقطين فوق أكتاف المساعدين:

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

- إنّه من عزبة تريوينكي، من طرف السيدة راكيل رويث. قبل أكثر من سنة كلّفتنا بأن نجلب إلى البيت ما تبقى من المحصول وقد نسي الناظر ذلك، لذلك فقد أرسل الآن هذه الشاحنة وفيها خمس مئة يقطينة.

- خمس مئة!

- نعم، إنّه من يقطين التصدير.

- ولكن ماذا سأفعل بخمس مئة يقطينة؟

- آه، لا أدري، أبتاه. هذا متروك لحضرتك.

حين دخل الأب آثوكار ثانية إلى غرفة البوابة وجد النظام الذي أقامه وقد اضطرب: فقد نزلت اليتيمات من الحافلة واختلطن بالعجائز ورحن يحُمن معهنّ حول اليقطينات، وإليانا ترقص فوقها، وأخريات يمتطينها، اجرِ، اجرِ، اجرِ، أيها الحصان المبقّع، اجرِ، اجرِ، اجرِ، لا أكثر، فالمسافة تقصر، تقصر، تقصر... لا نستطيع ترك هذه اليقطينات هنا، علينا أن نطلب من الأب آثوكار أن نحمل هذه اليقطينات إلى الحارة العلويّة، إنّها لنا، السيدةَ راكيل الطيبة، التي تفي دائماً بوعودها كما كانت مع جنازة بريجيت، أرسلت إلينا هذه الصدقة من خمس مئة يقطينة، أيتها الفتيات، انظرن إلى ميريّا مع بيرونيكا، اتركوها فهي ثقيلة جدّاً والرجال المتعرقون اللاهثون يأتون بالمزيد والمزيد من اليقطين، الدروع الفضيّة تتكدس على طول الممر، العجائز محاصرات باليقطين، يفتحن ممرات ليتمكنّ من المرور من بين المسوخ، هيا، اتركي هذا، ميريّا، وأسقطت اليتيمات اليقطينة التي انشطرت فبان مخمل أحشائها البرتقالي التي أراقت بذوراً شدتها أربطة مخاطيّة إلى اللب الذي يحشرها في جوفها، فتيات القذارة رحن يكسرن تلك اليقطينة، هنّ لا يعلمن بكم كيلو اليقطين الآن وأن ذلك اليقطين سيفسد، لا ترمين

بالبذور في الباحة، أتعلمن كيف هو اليقطين، إنّه ينمو حيث تسقط البذرة وفي العام الآخر سيتحول هذا إلى غابة من الفسائل والأوراق التي ستخنق كلّ شيء وستنحشر في كل ناحية، حتى في الغرف، وزهور صفر، نعم، سيكون من الممتع رؤية عدد كبير من اليقطين وهو ينمو، طيب، إن كان جميلاً جدّاً فلماذا لا نحمل بذوراً من هذا اليقطين إلى الحارة العلويّة وهناك، ألا يقولون إنّ هناك حديقة، نستطيع زرع البذرة وحصد الكثير من اليقطين للطبخ ولعمل الحلوى المحلاة بالسكر وقشور الليمون، نعم، أوريستيلا، خذي بذوراً وضعيها في جيوبك لحملها إلى الحارة العلويّة وزرعها هناك، ما أكثر اليقطين، يا إلهي، ويواصلون تفريغ المزيد والمزيد، يبدو أن خمس مئة يقطينة هي أكثر مما تظنّ الواحدة، ما عاد الممر يتسع لها، المشكلة أنّها كبيرة، للتصدير، أنا سأعدّها، نعم لنعدها بينما يتناقش الأب آثوكار غاضباً مع السيدة راكيل بالتلفون، طبعاً، إنّه يعنّفها لأنّها أرسلت يقطيناً، طبعاً، ماذا يهمه هو إن جاعت واحدة، اسمعي، لماذا لا نحشر زوجاً من اليقطينات في العربات بينما يتناقش هو بالتلفون، لنرَ إن كانت ستٌّ منا قادرات على حملها، السائقون يساعدونهنّ ويتمكنون من حشر يقطينة في واحدة من المركبات البيض: يصرخ الرهبان الشبّان، يحاولون إعادة تنظيم الصف المشتت، تحريرهنّ من رقية القرعيّات المكرمشة مثل أجنّة وحيد القرن. خرج الأب آثوكار من حجرة التلفون، صرخ، فعادت العجائز إلى غرفة البوّابة. أمر بأن يبدأن الخروج فوراً في طابور، لا، القوائم غير مهمة، ليذهبن ويتوزعن على الحافلات كما يشأن، فيندفعنَ جميعهنّ للصعود إلى الحافلة ذاتها، لأنّ الأخرى، قلن، التي تحمل إيرنستينا لوبيث واليتيمات، ستمرّ أولاً بمكان آخر وهنّ يردن الوصول بسرعة، إلى أن تمكنوا بأوامر الرهبان الأربعة والأب آثوكار وصياحهم من إنزال بعضهنّ كنّ محشورات مع رزمهنّ في الحافلة ذاتها لتوزيعهنّ

توزيعاً مقبولاً. أغلق الأب الباب بالمفتاح، المهم، يبدو أنّ المكان لم يعد مؤمّناً تماماً، وماذا يهمّ ذلك، من سيدخل، ولسرقة ماذا إذا لم يكن هناك غير القذارة في الداخل، ولن نعمل مزاداً، سنفككه في يومين ونبدأ الهدم. أعطى الأب آتوكار مساعدي سيارة الحمل بقشيشاً وعادت الشاحنة فارغة إلى تريوينكي. يخرج الجميع لوداع العجائز: صبيان الحيّ، صاحبة حانوت الناصية مع زوجها، السيدة التي كانت تسرح شعرها في النافذة. والعجائز جالسات سيدات في مقاعدهنّ: الأفضل فتح زوج من النوافذ قليلاً، اسمعن، الجو مشمس ويقولون إنّ التدفئة تضرّ بالقَصبات، في هذا السن يجب أن تحتاط الواحدة ولا سيّما حين لا تكون معتادة. تتحرك المركبات. تودّع العجائز، ملوحات بالمناديل وذارفات الدموع، أولئك الأشخاص الذين يومئون إليهنّ وإنْ لم يكونوا رأوهنّ من قبلُ، وراحوا يواسونهنّ منشدين لهنّ في جوقة:

تعالينَ ولنذهب جميعا
نحمل الزهور متسابقات
نحمل الزهور إلى ماريّا
فهي أمّنا.

telegram @ktabpdf

ها نحن عندك من جديد،
أيّتها البتول الحلوة
أجمل من القمر أنت،
راكعات عند قدميك...

***

ما من أحد. لقد استعدتُ وضوحي كلّه. ينتظّم تفكيري من جديد ويسقط حتّى أعماق شفافيتي حيث يكشف نوره مكنون آخر المخاوف والإشكالات: أنا هذه العلبة. أنا أختبئ تحت طبقات الأكياس التي كستني العجائز بها ولذلك بالذات لا أحتاج أن أعمل علباً، لا أحتاج إلى عمل أيّ شيء، لا أحسّ، لا أسمعُ، لا أرى شيئاً لأنّه لا يوجد شيء غير هذا الفراغ الذي أشغله. الخيش، العقد البلهاء، غرزات الحبل حزّت وجهي. فجوات أنفي مليئة بالشعر، والحنجرة أيضاً. جسمي منكمش من القوّة التي خطنَ بها الأكياس. أعلم أنّ تلك هي الصيغة الوحيدة للوجود، حرقة الحزوز، الاختناق من الشعر، ألم التكبيل، فلو كانت توجد طريقة أخرى للوجود لتوجَّب أن يكون هناك ماض ومستقبل، وأنا لا أتذكر ماضياً ولا أعرف شيئاً عن مستقبل، مقيمٌ هنا في راحة النسيان السعيدة لأنّي نسيتُ كلّ شيء ونسيني كلّ شيء. صفتي الوحيدة هي رفيق الوحدة. أراقبها كي لا يعكّر أحدٌ الكيس الذي يحميني أكثر مما يحميني طوب هذه الجدران. نعم، أتذكّر الجدران. لكنّي لا أتذكر شيئاً آخر، وسيمتدّ المستقبل إلى حين سقوطها. لم يبق إلا القليل على انتهاء كلّ هذا كما يجب أن ينتهي: سيرتفع عمود من التراب حين تعكر أفواه المجارف الميكانيكيّة سكون الطوب القديم الذي يبني العالم، ثمّ سيتغلّب عنفُ المطارق والمحادل على جرأة الأرض التي ظنّت أنّها تجسّد الأسوار والمتاهات، لتعيدها إلى حالتها الطبيعية: أرضاً مسطحة مؤلفة، كما جميع الأرضيات، من أحجار وفلق خشب وأوراق وفروع تتفسّخ أو تتيبس، ومن كتل حجرية وقطعة من جبصين مصبوغ، عين، فكّ تنين، خرق، أوراق تتمزّق، أكياس حيث يختبئ فيها أحدٌ يصرخ لا، أنقذوني، لا أريدُ أن أموت، رعب، أنا ضعيف، مشلول، عاطل، من دون سكس، من دون شيء، مسطّح، لكنّي لن أصرخ إذ ليس من سبل

أخرى للوجود، أنا في مأمن هنا داخل هذا المكان الذي لم أخرج منه قط، سيّد هذه الفجوة التي تضمّني تماماً لأنّها هي سيّدتي. يقولون إنّ هناك ممرات زائلة كثيرة، أروقة رسمت فيها منظورات زائفة، أشياء مكدسة لا أحد يتذكر فيم كانت تستعمل، بقع فساد تبسط رسومها ببطء على الجدران، حجاب من الغبار الخفيف الذي يسقط من الخشب المأروض، غرف مليئة بذلك الصمت الذي لم يقطعه أحد قط إذ لم يكن من أحد وإن قالوا إنّ أحداً كان ويمكن أن يكون لكنّي لا أظنّ ذلك، أحد يرتجف في الخارج عند الزاوية، هناك أحدٌ، هناك خارجٌ، هناك سعلة غير سعلتي، لكنّها مطفأة وربما ليست هي سعلة، هناك حركات ما عدتُ أمتلكها، إنّها خفيفة، كتلك التي تؤتيها الأخيلة حين تنتظم وتزحف من دون خطوات إذ ما من أقدام تخطوها، ما هو قط ولا كلب ولا جرذ ولا دجاجة ولا خفّاش ولا أرنب ما أسمعه يتنفس جانبي وإن لم أكن أسمع، كيف يمكن أن تكون السعلة على هذا القدر من الضعف على الرغم من أنها ليست أكثر من هيكل من الأخيلة التي أحتاج رؤيتها، أحتاج ومع الحاجة يأتي الرعب، الحاجة إلى رؤية وجه ذلك الخيال الذي يتنفس ويسعل بالقرب منّي، إلى استعادة البصر والخارج، أعضّ، ألوكُ الكيس الذي يغطّي فمي، أقرض وأقرض للتعرّف على ملامح ذلك الخيال الذي يوجد في الخارج، ألوك أشرطة وعقداً ورقعاً وحبالاً، أكسرُ ولكن ليس بما فيه الكفاية، كيساً آخر، طبقة أخرى سأتأخر ما يقرب من قرن لفتحها وألف سنة لاجتيازها، سأشيخ قبل أن يذوق فمي طعماً آخر غير طعم الخيش ومن دون أن أقرضَ شيئاً آخر غير هذا الثقب المرطّب باللعاب، تتفتتُ أسناني ولكن عليّ أن أواصل القرض لأنّ هناك أحداً في الخارج ينتظرني ليقول لي اسمي وأريد أن أسمعه وألوكُ وأعضّ وأشقّ: ألوك، أعض، أشقّ قشرة الكيس الأخيرة لكي أولدَ أو أموت، لكنّي لا أفلح في أن أولد ولا

في أن أموت لأنّ هناك أيادي تتشبّث بالقسم المشقوق وتمسك بإبرة خياطة كبيرة لخياطة الثقب الذي سأنظر منه وسأتنفس، هواء، هواء نظيفاً، هواء كهواء النافذة التي ما كانوا يسمحون لي بفتحها لأنّها كانت رسماً، لكنّ ذاكرتي عادت للحظة عبر ذلك الثقب نحو هواء تلك النافذة وبقيت محبوساً هنا أحنّ إلى ذلك الهواء وتلك النافذة ولا أستطيع، لأنّ المكان لا يتسعُ لي ولحنيني، يتسع لي وحسب، لأنّ ذلك الحنين لهواء موهوم يجعل حكة شعيرات الأنف والحنجرة لا تطاق، ويجعل طعم الخيش مقززاً، ثقب آخر، أنبش بأظافري طبقات الأكياس الجيولوجية بحثاً عن مخرج، تكسرت أظافري، وسال الدم من أصابعي، وتمزقت أناملي، واحمرت براجمُها، كيسٌ آخر وآخر وآخر، نعم، الآن، ثقب آخر، لكنّ يدي الخارج قلبت الغلاف الذي هو أنا ومن دون أن تتفوّه بكلمة، لأنّها لا تريد أن تقول لي إن كانت اليدان يدي أحد، عاودت الخياطة، غرزة غرزة، تخيط الفتق لكي لا أتمكّن من الخروج وأنا أريدُ الخروج لتأمّل ذلك الوجه وأبسط بقوة إحدى قدميّ، وبكل قوتي أفتحُ ثقباً آخر، لكنّ اليد الموبوءة بالثآليل تعاود الخياطة بالمهارة التي لا تمتلكها غير تلك اليدين، غرزات صغيرة، غرزات صليب كثيرة ترفو أو تطرز ندبة على لُحمة الكيس، لا أستطيع الخروج، لا أستطيع التنفس ولا حتى الهواء المزيّف من خلف النافذة. انتظار. وانتظرتُ لقرون أن تتكوّن طبقة جيولوجيّة أخرى من تفتت ملايين الحيوات التي يقال إنّها موجودة، لكي تدفن ثانية حنيني.

راح فضائي ينحسر مع ترقيعات العجوز التي كانت تخيط لتمنعني من الخروج، أحسستُ بشيخوخة أصابعها وهي تتحسس الأكياس وهي تخيط، وأنا أشقّ وأعضّ، وتعاود الخياطة لتقلّص فضائي، تقلب بيديها الكيس بحثاً عن شقّ غاب عن عينيها المقذيتين وتجده وترقعه بعناية وكأنّها تطرّز حروفاً أوليّة على أرقّ قطعة من القماش وليس خياطة

خيش. لم تبقَ ثقوب: العلبة صغيرة وتامّة. تخفي إبرتها. تجرّ من أحد أركان المصلّى كيساً آخر وترمي في داخله الغلاف الجديد، مع علبة من السكّر، وعدة أزواج من جوارب الصوف، أوراق كثيرة، أعشاب، خرق، زبالة. وبجهد كبير تضع الكيس على كتفها. تخرج من المصلّى هائمة في صحراء الممرات المزيفة اللانهائية، في الباحات اليومية، تتزلّج ببطء إلى جوار جدران من الظلمة ومن الطين المغلق، ومع مرورها الخفيف والطري تنسل عناكب وجرذان وخفافيش وخنازير غينيا لا تصدر ضوضاء، وحشرات العثة البلهاء والطرية، وحمامات قديمة لم يُلقِ بها أحدٌ في القدر... بطيئة، وبعد مضيّ سنوات أو قرون تتمكن من بلوغ باحة البوابة وتشقّ طريقها عبر غابة الأدلاء وأوراق اليقطين التي تلتهم الرواق، التي تسقط في شلال، أوراق عريضة أفقيّة، سيقان خضر وطريّة مليئة بالعصارة، زهور صفرٌ يانعة، كثافة الأشجار التي شقت طريقها عبرها عادت إلى الانغلاق على بصماتها، بصماتها التي تمكنت أو لم تتمكن من البقاء بين الأوراق والأدلة التي تمرر ضوء الشمس والقمر، الحاجز، تخرج المفتاح المعتاد وتفتح، البوابة، أيضاً تفتحها وتخرج ليلاً وهي تحمل الكيس على ظهرها، تسير بنعلها محدودبة بالقرب من الأسوار وكأنها لا تريد أن تتخلى عن حماية الظلال، تجتاز رؤوس الشوارع، وتقطع مجموعات ومجموعات من العمارات ببطء، تتوقف متشكية للتسوّل، تتلقى قطعة من النقود، تحشرها في طيات تنورتها، وتواصل طريقها، تعبر الجادات المضاءة، تتوغّل في المتنزه، في غابة أشجار الموز بلا أوراق إلى أن تصل إلى الجسر الحديدي. هي تعرف كيف تفعل ذلك على الرغم من سنواتها: فقد فعلته مرّات كثيرة منذ أن كانت فتاة، مع أطفال آخرين نشؤوا في مجرى النهر: تتدلّى مثل فتاة صغيرة من القضبان وتسقط مع كيسها. إنّها مع الكيس تحت الجسر، بالقرب من نار مضطرمة. تتقدم.

تجلس على الأرض، داخل حلقة الصفاء. هناك القليل، هذه الليلة. اللهب يشوّه رَسمَ الوجوه، ثمّ يهدأ ويقترب الجميع أكثر من بؤر النار المتبقية. تقول هي:

- النار ليست جيدة.

حشرت يدها في كيسها وأخرجت أوراقاً وفلقاً من الخشب لتسعّر النار. انحنتْ عليها. تخفّ إليها كلبة سقيمة بائسة لكي تداعبها. تستلقي بالقرب منها. لا أحد يتكلّم. فوق، فروع أشجار الموز اليابسة هي صورة شعاعيّة مقابل شحوب سماء المدينة الكهربائي. تتناول العجوز متّة في كاسة عروتها معمولة من الأسلاك، مسودة من كثرة ما وضعت على النار. حشرت يدها في كيسها مرّة أخرى وأخرجت قطعة من خبز الماراكيتا، قدّمته، فتقبله أحد بينما كانت هي تشكو:

- النار رديئة هذه الليلة.

- رديئة.

تعاود العجوز البحث في كيسها. أخرجت المزيد من الأوراق وفلقات الخشب ورمت بها إلى النار فاستعرت مؤقتاً. لكنّها لم تدم إلا قليلاً. أحد ما قال إنّه سيبحث عن ملجأ في مكان آخر لأنّ الليلة ستكون قاسية، نعم، قاسية جدّاً، وينصرف العديدون. لا تدوم نار الأوراق وفلقات الخشب إلا قليلاً. وداعاً، ألا تأتي معنا فالليلة رديئة هنا تحت الجسر، لا، أنا أبقى، فأنا متعبة وينصرفون من دون توديعها وتظلّ هي وحيدة. تسعل. تتدثر بشالها. تتقرب أكثر من الجمر لأنّ الريح تشتدّ والكلبة تنصرف أيضاً. تناديها:

- بسسسسست، بسسسست...

لكنّ الكلبة لا تعود. تقفُ العجوزُ على قدميها، تمسك بالكيس وتفتحه ثمّ تنفضهُ فوق النار، تفرّغه في النار: فلقات خشب، كارتونات،

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد ٢١٥

جوارب، خرق، جرائد، أوراق، قذارة، وماذا يهمّ ما دامت النار تستعر قليلاً لكي لا تشعر هي بالبرد، وماذا تهمّ رائحةُ الحرق، رائحة خرق تحترق بصعوبة، رائحة ورق يحترق. تشتت الريح الدخان والروائح وتتكوّر العجوز فوق الأحجار لتنام. تشتعل النار برهة بالقرب من الجسم المهجور مثل كومة من الأسمال، ثمّ بدأت بالانطفاء، وبدأ الجمر بالخمود بعد أن غطاه الرماد الخفيف، الذي تشتته الريح. وفي ظرف دقائق لم يبق شيء تحت الجسر. لم يبق غير الأثر الأسود الذي خلّفته النار على الأحجار وغير كاسة مسودّة لها عروة من الأسلاك. تقلبها الريح فتتدحرج على الأحجار وتسقط في النهر.

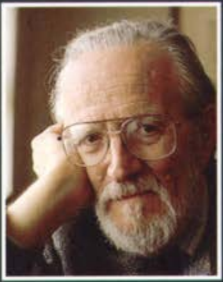

مـن أرادَ أن يقـرأ نصـاً روائيـا يمثّـلُ مـا عُـرف بالواقعيّـة السـحريّة Realismo mágico خـيرَ تمثيـل فعليـه بهـذه الروايـة.

ومـن أرادَ أن يغامـرَ ويُبحـرَ في عـوالمَ فنطازيـة لا يخرجُ منهـا إلّا بـما تخرج بـه الشبكة مـن شعاع الشـمس أو قبضـةُ اليـد مـن الريـح فعليـه بهـذه الروايـة.

ومـن أرادَ أن يمـلأ خيالـهُ بصـورٍ وأوصـافٍ وأخيلـةٍ ومشـاعرَ مـن دون أن يخـرج بقصّـة تُقـصّ ولا بحكايـة تُحكـى فعليـه بهـذه الروايـة.

ومـن أرادَ أن يتفـرّج عـلى عـالم مـن مخلوقـات مرعبـة مشـوهة كاريكاتيريّـة منحرفـة السـلوك غريبـة التفكـير تعيشُ في عـوالم سـفلية مغلقـة غامضـة فعليـه بهـذه الروايـة.

ومـن أراد أن يطـوفَ في المـوروث الشـعبي لبـلاد (نـيرودا) و (إيزابيـل ألينـدي) ويسـيحَ في عـالم خرافاتـه ومعتقداتـه بسـاحراته وبعابيعـه وسـعاليه وطيـوره الخرافيـة ومسـوخه فعليـه بهـذه الروايـة.

ومـن أراد أن يختلـط حابلُـه بنابلِـه وأن يخـوض عبـابَ نـصّ لا يفـرّق بـين مـا يقـولُ هـذا وتقـولُ تلـك إلا بشـقّ الأنفـس وإلا مسـتدلا عليـه أو عليهـا بفتحـة هنـا وكسـرة هنـاك، مـن دون فاصلـة تفصـل ولا إشـارة تشـير ولا سـابقة تمهّـد للقـادم ولا إنـذار يحذّر مـن الآتي، فعليـه بهـذه الروايـة.

ومـن أراد أن يجـد للشـخصية الواحـدة ألـف مسـمى ومسـمّى، وألـف عـصر وعـصر، وألـف حـدث وحـدث. وأن تتداخـل أفعـال الشـخصيات مـع بعضهـا وببعضهـا حتـى تكتشـف بعـد فصـول كثـيرة وعـلى امتـداد صفحـات طويلـة خيطـا رابطـا يربطهـا عـلى هيئـة كلمـة أو صفـة مكـررة أو حادثـاً قطـع هنـاك واسـتؤنف هنـا، فعليـه بهـذه الروايـة.

ISBN 978-2843091087

9 782843 091087